أعمال خالدة ٣

جيته



فاوست

ترجمة :

د . عبد الرحمن بدوي




جیتہ
ناول

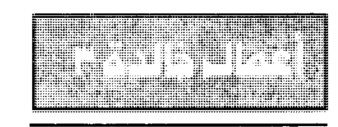
فاوست

جيته

فاوست

ترجمة د. عبد الرحمن بدوي





اسم المؤلف : جيته	Author: J. W. Goethe
عنوان الكتاب : فاوست	Title: Faust
المترجم : د . عبد الرحمن بدوي	Translator: Dr. A. R. Badawi
الناشر : المدى	Al- Mada P.C.
الطبعة الأولى : ١٩٩٨	First Edition: 1998
الطبعة الثانية : ٢٠٠٧	Second Edition: 2007
الحقوق محفوظة	Copyrights © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣

www.almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

مقدمة

بقلم

د. عبد الرحمن بدوي

١
فاوست، في التاريخ والأسطورة

في الانسان دافع الى المزيد من الكمال ، واضح دؤوب حيث لا يهدأ أبداً . وهذا سر عظمته . وفي سبيل تحقيق هذا الهدف يستوي لديه أن يسلك سبيل الممكن أو سبيل المستحيل . ان أمكنه ما هو طبيعي ، فبها ونعمت ، والا فليتخذ وسائل خارجة عن الطبيعة ، عالية عليها أو أدنى منها ، فالأمر في النهاية سيان ، لأن العبرة هي بلوغ الهدف .

وفاوست هو نموذج الانسان الساعي الى المزيد من القوة ، أو الكمال ، بوسائل خارجة عن الطبيعة هي ما يعرف بالسحر ، بأوسع معانيه : فالمستقبل مجهول ، والانسان يريد معرفة ما سيجيء به ، والقوى الطبيعية الميسورة له قاصرة ، فليبحث عن قوى خارقة كي يسخرها لتنفيذ ما يصبو اليه ، والطبائع الموجودة في الواقع تقف في سبيله أو تعجز عن أداء ما يطلب ، فليلتمس اذن أدوية لتحويلها الى ما ينجح في تحقيق أغراضه . وتلك مهمة السحر .

ولما كان السحر تحديا للألوهية ، لأنه يدفع الى خرق النظام الذي خلقته ، فانه استعان بقوى متمردة على الألوهية ، على رأسها الشيطان ، ومن لف لفه من الجن . ولكن الجن ليسوا أشراراً فقط ، بل منهم الأشرار ومنهم الأبرار . ولهذا فإن الاتصال بالجن قد يكون مقبولا ، وقد يكون مرذولا . ومن حيث المسكن ، ينقسم الجن الى :

جن المنازل (الأشباح) وجنّ الطبيعة (جن الماء ، أو الهواء ، أو الغابة ، أو الجبل ، أو الصحراء) ، ومن حيث التأثير ينقسمون الى : جن الموت ، المرض ، العاصفة ، الصاعقة ، الوساوس ، الكهانة ، الخ .

والايمان بالجن قديم قدم الانسان : اذ نجده لدى معظم الشعوب البدائية ، وهؤلاء ينسبون أسباب الامراض أو الجنون أو الكوارث الى الجن . وللتخلص من هذا التأثير الضار للجن كانوا يلجأون الى تقديم الاضاحي ، أو القيام بعمليات سحرية : استحضار الجن ، رفع تأثيرهم بالتعاويذ والتمائم ، الخ .

كذلك تجد الاعتقاد في الجن في الحضارات العالية القديمة : في مصر ، والصين ، واليابان ، والتيبت ، وما بين النهرين (العراق) ، وساعد على ذلك الاعتقاد في وجود سبع طبقات تحت الأرض . وفي ايران صار الاعتقاد في الجن جزءا أساسيا من الديانة المثنوية ، أي القائلة بأن للعالم أصلين هما النور والظلمة .

وعند اليونان : نجد الجن Daimon عند هوميروس بمعنى الاله ، وبعد ذلك صار الجن عند اليونان كائنات متوسطة بين الآلهة والانسان ، وهي التي تؤثر في الاحداث الكونية . وكان الشعراء والحكماء اليونانيون يقولون انه موكل بكل فرد من الناس جن يحميه .

وفي العهد القديم من الكتاب المقدس يطلق على الجن أسماء أو ألقاب عديدة : سعيريم ، أي ذوو الشعر (سفر اللاويين ١٧ :٧ ، الاخبار الثاني ١١ :١٥ ، اشعيا ١٣ :٢١ ، ٣٤ :١٤ ، سديم (التشريع الثاني ٣٢ :١٧ ، المزامير ١٠٦ :٣٧) ، ليليم (أشعيا ٣٤ :١٤) قطب (المزامير ٩١ :٦) ، عزازيل (جن الصحراء : اللاويين ١٦ :٨ ، ١٠ ، ٢٦) ، اسموداي (طوبيا ٣ :٨ ، ١٧ ، ٦ :٨ ، ١٥) . وعند العامة من بني اسرائيل ينظر الى الجن على أنهم ظلال وأشباح للأجسام .

وقد أخذت المسيحية بما اعتقده اليهود في الجن ، خصوصا في العصر الذي ظهرت فيه المسيحية ، أي في اليهودية المتأخرة السابقة مباشرة على مجيء المسيح . بيد اننا لا نجد في الأناجيل أثرا للجن الا فيما يتصل بالجنون . ويربط القديس بولس بين عبادة الأوثان وبين الجن (كورنثوس الأولى ١٠ :٢٠ وما يليها) . ويظهر الجن في « رؤيا » يوحنا اللاهوتي (١٦ :١٣ وما يليها) . وفي « أعمال الرسل » ٨١ :٩ وما يتلوها) نجد حكاية من يدعى شمعون الساحر ، الذي التقى بالساحرة بالشماس فيليب وتنصر وتعمد على يديه ، ثم التقى بالحواري بطرس واقترح عليه أن يشتري بمبلغ من المال القدرة على انجاز المعجزات ، ولكن بطرس رفض هذا العرض .

ومن الأساطير الأخرى عن السحرة في المسيحية نجد أسطورة كوبريانوس الانطاكي ، الذي عاش في القرن الرابع ، وقد نظمت أسطورته يودوكسيا ، وهذه الأسطورة جعل منها كالديرون ، المؤلف المسرحي الاسباني العظيم ، موضوعا لمسرحية في سنة ١٦٣٧ عنوانها : « الساحر العجيب » Magico Prodigioso .

واسطورة ثالثة هي أسطورة ثيوفيل الذي كان أمين الصندوق لكنيسة أطنة في القرن السادس ، وهي تهدف الى بيان تفوق السحر السماوي على السحر الشيطاني .

والكاثوليكي الصادق الايمان يؤمن بوجود الجن ، وبتدخلهم القوي والشرير في أحداث العالم وأحوال الناس . والدليل على ذلك ما كان يقوم به يسوع من طرد الأرواح الشريرة . أي الجن الأشرار ـ من نفوس المجانين بل كان يخاطب الجن الموسوسين والممرورين بطردهم قائلا :

«اخرس ، واخرج من هذا الرجل» (انجيل لوقا ٤ :٣٥) . وكان يستخرج الجن من المجانين ويرمي بهم في نفوس الخنازير أو في البحيرة(راجع انجيل لوقا ٨ :٣٠ ـ ٣٢ ، متى ٨ :٢٨ ـ ٣٣) .

وأكد هذا الاعتقاد آباء الكنيسة : فالقديس يوسثينوس ، في «محاورة ضد تروفون» . يؤكد ان الجني خدع الناس بواسطة سحرة مصر وبواسطة الأنبياء الكذبة في عهد ايليا (جـ ٦ عمود ٦٣٦) . وتاتيانوس يقرر أن الجن يعدون بالشفاء بواسطة أدوية سحرية . وكثير من آباء الكنيسة يؤكدون أن الجن يسكنون الاوثان ، وتماثيل الآلهة الوثنيين ، ويقول ترتليانوس أن السحرة يفعلون بقوة الجن (PL جـ ١ عمود ٤٠٤) . ويؤكد القديس أوغسطين تأثير الجن بفضل السحر .

لكن الكنيسة المسيحية منذ عهد مبكر قد أدانت السحر وحذرت منه ، لأن الاساس الذي يقوم عليه السحر ، وهو محاولة الحصول على قوة فعالة غير تلك التي وهبها الله ، يتعارض مع أساس العقيدة الدينية القائمة على أن كل قدرة للانسان انما هي منحة من الله . ثم ان السحر يتعارض مع سلطة الكنيسة ويتحداها ، لأنه يعد نفسه وسيلة لبلوغ أمور خارقة ، متخطيا بذلك قوة الطقوس والمراسم الدينية التي يؤديها القسيس .

واليهودية سبقت وأدانت السحر ، اذ تجد في سفري «الخروج» و«التشريع الثاني» ادانة للسحر والتنبؤ وتفسير الاشراط والعلامات ، وتعدها من نوع عبادة الأوثان ، وقضت على من يمارسها بعقوبة الاعدام بواسطة الرجم (سفر الخروج ٢٢ :١٨ ، اللاويين ٢٠ :٢٦ :٢٧ ، التشريع الثاني ١٣ :١١ ، ١٨ :١٠ وما يتلوها) .

وعند الرومان كانت عقوبة ممارسة السحر الاعدام احراقا بالنار . والقانون الجرماني القديم كان يعاقب على السحر بعقوبات شديدة .

وقبل سنة ٨٠٠م كان القانون الكنسي يعاقب على السحر بكفّارة تمتد حتى سبع سنوات . وحتى القرن الثالث عشر كانت الكنيسة تعاقب السحرة بعقوبات كنسية فقط .

ويصف ريناك S. Reinach الوضع في العصر الوسيط بالنسبة الى موقف الكنيسة والدولة من السحر والسحرة فيقول : «ان الشيطان يشغل الاذهان في كل مكان في العصر الوسيط ، بوصفه اله الشر وموزع الثروات الأرضية أيضا . وليست الكنيسة هي التي خلقت هذه العقيدة ، كما أنها لم تخلق العقيدة القائلة بأن بعض النسوة ، اللائي عقدن ميثاقا مع الشيطان ، كن يذهبن الى السبت على ركائب عجيبة الشكل ويكتسبن هناك قوى مؤذية جدا ومرهبة . ان في هذه الخرافات أساسا وثنيا جرمانيا . ولم يكن يحق للكنيسة أن تشارك في هذه الخرافات ، لأنها أوسع علما بالأمور . لكنها ليس فقط شاركت فيها ، بل ان لاهوتييها جعلوا منها مذهبا... ثم انها نظمت ، بواسطة محاكم التفتيش ، مطاردة الساحرات ، ودعت السلطة المدنية الى محاكاتها في ذلك» . (أورفيوس ، ص٤٤٤) .

والأساس في ادانة السحرة والساحرات هو علاقتهم مع الشيطان . فقد كان من المعتقد ان الساحر (أو الساحرة) لكي يضمن قيام الجن ، وعلى رأسهم الشيطان ، بتحقيق الأماني التي يطلبها الساحر لنفسه أو لمن يكلفه بذلك ـ لا بد له أن يعقد مع الشيطان أو واحد أو أكثر من الجن ميثاقا ، بموجبه يتعهد الساحر بأن يسلم للشيطان روحه وجسمه الى الأبد . وهذا الميثاق اما ضمني ، أو صريح . وهو في الغالب يكون صريحا ومسجلا كتابة على قرطاس ، وممهورا بتوقيع الساحر بدمه عليه .والشيطان يظهر عادة للساحر على شكل ظل أسود ضخم هائل مروع . وبعد توقيع هذا الميثاق فان الشيطان يلازم الساحر باستمرار على شكل بريء المظهر ، وغالبا على شكل كلب .

وما دمنا في مجال دراسة فاوست ، وهو ألماني ، فلنذكر شيئا عن الجن التيوتون ، أي الجرمان بعامة . لقد كان التيوتون يعتقدون في وجود الروح ، فارتبط بذلك عند وجود أنواع عديدة من الأرواح . وكانوا يعتقدون أن الروح يمكنها أن تترك البدن ابان النوم ، فأدى ذلك الى الاعتقاد في الـ Incubi ، وهي الأرواح التي تفارق ابدانها لمضايقة الآخرين ابان نومهم ، وبهذا كانوا يفسرون الكوابيس في النوم . وكان الكابوس يسمى في الالمانية عامة باسم Mahr وفي وسط ألمانيا باسم ALP ، في الالمانية عامة باسم Trude, Schrat, Ratz Doggele, والكابوس يستولي ليس فقط على الانسان ، بل وأيضا على الحيوان والنبات .

وكان في قدرة الساحرات أن تجعلن الارواح تنتقل من أجسامها وتؤذي الآخرين . واسم الساحرة في الالمانية Hexe ذلك أن الساحرة Hexe تستطيع بقدرتها في السحر أن تسلب الأرواح من الأجساد . وتتخذ الروح حينئذ شكل قط ، أو دب ، أو غراب ، والى فعل

الساحرات كان ينسب سوء الأحوال الجوية ، والرعد ، والبرد . وفي الأساطير الايسلندية القديمة يذكر أن الساحرات يستجلبن حالة الجذبة بواسطة التعزيمات السحرية ، وبعد ذلك يطلقن العواصف . وكان يعزى اليهن ، في العصور الوسطى في البلاد الجرمانية ، الكثير من ألوان الأذى : الجنون ، قتل الناس ، ملء الأرض بالدود ، جعل البقرة تحلب لبنا أحمر ، الخ . وبادخال فكرة الشيطان عن طريق المسيحية ، نشأ الاعتقاد في ان الساحرة متحالفة مع الشيطان وأن كل الساحرات يتخذن من الشيطان رئيسا لهن .

والساحرة باعت نفسها للشيطان ، مقابل الحصول على موهبة السحر . ومن ثم نشأ الاعتقاد في اجتماعات الساحرات على ما يسمى بحبال بروكل Brockels bery ، وفي هذه الاجتماعات تسلم الساحرات أنفسهن للجماع مع الشيطان . بل كان ثم اعتقاد في أن الساحرات كن يستمررن في احداث الأذى بعد وفاتهن ، واذا ظهر دليل على ذلك كانت جثة الساحرة تستخرج من القبر وتحرق أو توضع على خازوق .

كذلك انتشر بين التيوتون الاعتقاد في الجن الذين يسكنون ويعيشون في الأنهار ، والجداول ، والينابيع ، والغابات ، وحقول القمح المتماوجة ، وفي حركة الهواء ، وداخل الجبال وفوقها . وكانوا يتصورون هذه الأرواح بأشكال انسانية أو فوق انسانية ، وعلى هيئة انسانية أو حيوانية ، وفقا للظاهرة الطبيعية . ومن هنا كان المردة ، والأقزام : فالأقزام تجسيد لقوى الطبيعة الفياضة ، ولهذا كان ينظر اليها على أنها مفيدة للإنسان ، أما المردة فيمثلون الطبيعة في جانبها المعادي الشرير ، ولهذا كان ينظر اليها على انها تدمر الناس . وكان لظواهر البرد بخاصة مردة مروعون : كاري : للعاصفة ، لوكل : للجليد ، فروستي : للبرد ، سنور : للثلج ، دريها : لتيار الثلج . وكان من الطبيعي أن تثير الجبال فكرة المردة ، لهذا نجد أن كل قمة جبل أو سلسلة جبال لها مارد أو مركز للمردة : في سويسرا : بيلاتوس Pilatus وفي مرتفعات بافاريا ، فتسمن Watzmann ، وفي التيرول : Hutt ، ملكة المردة .

وكانت للحقول أرواح عديدة الأسماء ، وتصور عادة في صور حيوانات ، ونذكر من ذلك في المانيا Rockensau, Haferbock, Roggenhund, Kornwolf وBullkater وتمثل على التوالي بالحيوانات التالية : الذئب ، الكلب ، الماعز ، الخنزير ، القط ، وأوفر منها عددا كانت أرواح الماء . فكل مجمع ماء كان له روح : الينبوع ، النهر ، البركة ، البحيرة ، المستنقع ، الشلال . وكانت أحجام هذه الأرواح تختلف بحسب أحجام ما تمثله من مجامع المياه . والجن الذين يسكنون الأنهار ومجاري الماء والبحار كانت في الغالب عدوة

للانسـان . فكانت تحاول القبض عليه ودفعه الى مملكة الماء . ولهذا كان الناس يسترضونهم بالقرابين وأحيانا بالضحايا البشرية . واسم جني الماء في الالمانية Nix (مذكر) أو Nixe (مؤنث) . وكان الـ Nix نصفه السفلي يشبه السمكة ، بينما نصفه العلوي ، أو الرأس فقط ، يشبه الانسان . وكان يلبس رداء أخضر ، وأسنانه كانت أيضا خضراء . ويعيش مع أسرته في أعماق الانهار والبحيرات .

وأما الاناث منهم فيتميزن بجمال الغناء ، وكن يجتذبن بني الانسان بهذا الغناء . وأحيانا كن يتزوجن بالرجال من بني الانسان . وكان جني الماء الذكر عادة مسلحا برمح ، به يدفع الناس الى أعماق الماء .

ومسرحية فاوست تجري كلها في هذا الجو من السحر والسحرة والشياطين والأرواح . لهذا أفضنا في ذكرها هنا ليستطيع القارئ متابعة الاحداث وفهم أدوار الأشخاص .

وقد اتهم بممارسة السحر الكثير من أصحاب المذاهب بل والبابوات . فمن البابوات الذين اتهموا بممارسة السحر نذكر أولا البابا سلفستر الثاني (جربير) ، ربما لعلمه الغزير ولاطلاعه على العلوم العربية ، ثم نذكر عددا من البابوات في عصر الاصلاح الديني ، وهم : يوحنا الثالث عشر ، ويوحنا الثامن عشر (أو التاسع عشر) ، وبندكتوس الثامن ، ويوحنا التاسع عشر (أو العشرون) ، وبندكتوس التاسع ، وجريجوريوس السابع ، ويوحنا العشرون (أو الحادي والعشرون) ويوحنا الحادي والعشرون (الثاني والعشرون) ، وكليمان التاسع ، وجريجوريوس الحادي عشر ، وبولس الثاني ، والاسكندر السادس ، وبولس الثالث ـ لكن اتهامهم بالسحر كان من قبل خصومهم نكاية فيهم وتحريشا عليهم . ـ أما بين المفكرين والفلاسفة فنذكر : أبيلار ، وميخائيل اسكوت ، والبرتس الكبير ، وروجر بيكون .

٢
فاوست في التاريخ

وبطل مسرحية جيته ، فاوست ، هو أولا شخصية تاريخية : ولد في أواخر القرن الخامس عشر ، وتوفي على الأرجح في سنة ١٥٤٣ .

وأول وثيقة ذكرته هي رسالة كتبها يوهن ترتهيم Yohann Tritheim بتاريخ ٢٠ أغسطس سنة ١٥٠٧ . وكان ترتهيم قد اتهم هو الآخر بالسحر ، ورسالته كتبها من مدينته فورتسبورج الى الرياضي يوهان فردونج Virdung من هسفورت Hasfurt الذي كان فلكيا

في بلاط صاحب الحق في انتخاب الامبراطور عن اقليم البلاتينات . يقول ترتهيم في هذه الرسالة عن فاوست :

«ان هذا الرجل الذي كتبت الي بشأنه ، هذا المدعو جورج سابليكوس Sabellicue الذي تجاسر فادعى أنه أول العرافين ، هو متشرد ، متنفج ، وكاتب جوّال ، يستحق أن يجلد من أجل أن يشفى من ولعه بالاعلان عن أمور رهيبة مخالفة للكتاب المقدس . ان الالقاب التي ينتحلها لنفسه هي الدليل على عقل أبله مختل ، ومدع وليس فيلسوفا . فهذه هي الألقاب التي يتخذها لنفسه : المعلم جيورجيوس سابليكوس Georgius Sabellicus ، وفاوستوس الأصغر Faustus Jonior ، ينبوع العرافة ، فلكي ، ساحر بارع ، وقارئ كف موفق ، ومتكهن بأمور الزراعة ، ومتكهن بالنار ، وحصيف في السحر المائي . فانظر الى وقاحة هذا الرجل الحمقاء ، والى أي درجة من الجنون بلغ . إنه يزعم أنه ينبوع العرافة ، مع انه في الواقع يجهل كل العلوم الحقيقية ، ولهذا كان الأحرى به أن يلقب نفسه بلقب « مهرج » لا بلقب معلم .

لكنني لا أعلم انه فاسد الأخلاق . ففي العام الماضي ، وأنا عائد من مقاطعة برندنبورج ، علمت بوجود هذا الرجل في مدينة جيلنهوزن Geilenhusen . ورووا لي في الفندق أشياء باطلة وعد بها ، في جرأة كبيرة . ولما علم بوصولي ، هرب من هذا الفندق ، ولم يستطع أحد اقناعه بالحضور أمامي . والألقاب الحمقاء التي انتحلها والتي ذكرها لك ، وأوردتها منذ قليل ، قد بعث بها الي أيضا بواسطة مواطن من هذا البلد . وروى لي بعض القسيسين في المدينة أنه ادعى ، أمام جمع حاشد ، انه حصل علما واسعا بالفلسفة ، وان له ذاكرة قوية جدا حتى انه لو حدث أن ضاعت كل مؤلفات افلاطون وأرسطو ، وامحت من عقول الناس ذكرى فلسفتهما فإنه يستطيع ـ وكأنه عزرا عبراني آخر ـ وبقوة عقله وحدها ، ان يعيدها كلها وعلى شكل أفضل من الشكل الذي هي عليه الآن .

وفيما بعد ، حين كنت في مدينة اشبير Spire ، جاء هو الى فورتسبورج ، وبدافع من الغرور نفسه ، تجاسر على أن يقول في حضرة عدد كبير من الناس ، ان معجزات المسيح ، مخلصنا ، لم تكن عجائب ، وان كل ما فعله المسيح يستطيع هو أن يفعل مثله في أية لحظة وأي عدد من المرات يشاء .

وابان الصوم الأخير في هذه السنة ، جاء أيضا الى كرويتسناخ Kreuznach ، وبالادعاء الأحمق نفسه وعد بالعجائب ، قائلا انه في علم الطبيعة (الكيمياء السحرية) هو أبرع أهلها جميعا ، وانه يعرف ويستطيع أن يحقق كل رغبات الناس . وفي هذه الأثناء ، خلت وظيفة

مدرس في هذه المدينة ، فعيّنه فيها فرانتس فون زكنجن Frans Von Sickingen ، وكيل أميره وهو شديد الولع بالعلوم المستورة .

لكن ثبت عليه بعد قليل الاتهام بأنه مارس مع أولاد صغار أبشع أعمال الفجور . ولما كشفت جريمته هرب من العقاب الذي كان يتوقعه .

هذه هي الشهادة ـ المستندة الى أوثق الشهود ـ التي أستطيع أن أقدمها اليك عن هذا الرجل الذي أنت تنتظره بفارغ الصبر . وحينما ستراه ، لن تجده فيلسوفا ، بل رجلا مملوءا بالغرور مدفوعا بجسارة مفرطة »[1] .

ويبدو أن فاوست لم يكسب من هذا الادعاء شيئا يذكر ، والا لما كان قد بادر الى قبول منصب مدرس في مدرسة أولية ، وعلى كل حال فان لقبه : Magister (معلم) يدل على انه لم يحصل شهادة جامعية عالية . على انه بعد ذلك يبدو انه حصل على بكالوريوس في اللاهوت ، ثم بعد ذلك على الدكتوراه . من جامعة هيدلبرج . فحصل على البكالوريوس في ١٥ يناير سنة ١٥٠٩ وكان ترتيبه الأول .

ونجد بعد ذلك فاوست في جلنهوزن في سنة ١٥٠٦ ، ثم في فورتسبورج في العام التالي .

ويكتب عنه موتيانوس روفس Mutianus Rufus الى صديقه هينرش اوربانوس Ur-banus في ٧ أكتوبر سنة ١٥١٣ فيقول : «منذ ثمانية أيام ، جاء الى ارفورت عرّاف يقرأ الكف يدعى جيوجيوس فاوستوس ، وهو مغرور ومجنون . وفنه مثل فن سائر العرافين ، ليس جديا ، ووزنه لا يزيد عن عنكبوت على سطح الماء . والجهال معجبون به . فليثر عليه رجال اللاهوت ، بدلا من رويشلن Reuchlin . وقد سمعته يهرف في الفندق . لكني لم أرد على وقاحته . فماذا عسى يهمني من تهاويل غريب ؟ »

وثم شهادة أخرى تدل على انه أقام طويلا في ارفورت Erfurt ، وأظهر من الخوارق والتهاويل الكثير . لقد استطاع بدعاواه العريضة أن يحصل على منصب محاضر عام في جامعة ارفورت . وراح يشرح هوميروس ، ويصف أبطال «الالياذة» كما لو كان رآهم بعينه . ودعاه سامعوه الى استحضار أرواح هؤلاء الأبطال ، فراح يستعرض هؤلاء الأبطال أمام

---

(١) أورد هذه الرسالة فاليجان في كتابه تاريخ أسطورة فاوست :

E. Faligan : Histoire de Le Legende de Faust, Paris, 1887, PP. 3-4.

وهذا الكتاب من أوسع ما كتب عن أسطورة فاوست ، وعليه اعتمد لشتنبرجر وبيانكي وغيرهما من الفرنسيين الذين كتبوا عن أسطورة فاوست .

الحاضرين في المحاضرة : فتقدم هؤلاء الأبطال الواحد تلو الآخر ، وآخرهم بوليفيم ، المارد القوقلوفي ، بلحيته الحمراء ، وكان يلتهم رجلا كان فخذه لايزال يتدلى من فمه! فخاف الحاضرون . ولم يشأ هذا المارد الخروج من الفصل ، رغم اشارة فاوست له بالخروج . ونادرة أخرى هي أنه حدث أثناء الاجتماع الذي عقد لمنح الألقاب للحاصلين على درجة «معلم» Magister أن جرى نقاش بين اللاهوتيين ومندوبي المجلس حول كوميديات بلوت وتيرانس العديدة المفقودة . فاقترح فاوست أن يعيد في مدة بضع ساعات ، كل هذه الكوميديات المفقودة ، لينسخها التلاميذ .

وقد أقام فاوست عدة مرات لمدد طوال في ارفورت حتى ظلت ذكراه هناك وقتا طويلا ، وربما حتى اليوم .

ثم نجد فاوست في سنة ١٥١٦ يقضي فترة قصيرة عند رئيس دير مولبرون Maul-bronn .

وجاء فاوست الى ليبتسك في سنة ١٥٢٥ بصحبة بعض التلاميذ لزيارة معرض (سوق) ليبتسك الشهير . وذات يوم شاهد ـ ومعه التلاميذ ـ عمال براميل يحاولون عبثا اخراج برميل من الكهف يحتوي على ١٦ الى ١٨ مويد Muids من النبيذ . فتوقف برهة أمامهم وسخر منهم قائلا : أنتم كلكم لا تستطيعون القيام بما يستطيع القيام به رجل واحد يعرف كيف يقوم به . فأجابوه بجفوة وتحدوه أن يتمكن هو من اخراجه . وحدث جدال... على ضجته جاء صاحب الحانة ، فوعد باعطاء البرميل لمن يستطيع أن يدحرجه وحده الى الشارع . فنزل فاوست في الكهف ، وركب البرميل وخرج به الى الشارع! واضطر صاحب الحانة أن يفي بوعده ويعطي البرميل الى فاوست . وتوجد صورة لحانة آورباخ Aurbach تمثل هذا الحادث في اللحظة التي كان فيها فاوست يمتطي البرميل ويجتاز عتبة الكهف أمام الحاضرين المملوئين دهشة واعجابا . وتحت هذه اللوحة كتبت قصيدة تروي الحادثة!

وحانة آورباخ قد أمر ببنائها هينرش اشترومر ، المسمى أيضا باسم آورباخ ، وكان دكتورا في الفلسفة والطب ، وطبيبا لنا في برندنبورج وماينتس وللأمير الناخب فريدرش فون ساكس .

وهذه الحانة ، التي سيجدد ذكرها جيته في «فاوست» الأول ، ستصبح مزارا تاريخيا ومن معالم زيارة مدينة ليبتسك ويصفها رستلهوبر Ristelhuber في سنة ١٨٦٣ فيقول ان «حانة آورباخ تقع بالقرب من بيت الملك في شارع جرمايشي Grimmaiche رقم ١ ، ويباع فيها اليوم البيرة والنبيذ . وقد رممت ووسعت في السنوات الأخيرة ، مع الحرص على

المحافظة على طابعها الأصلي . وفيها نجد سجلا بأسماء زائريها ، وأحيانا نجد قصائد استلهمها ناظموها من شرب النبيذ ، والصيوان الصغير من الخشب المستند الى الحائط يحتوي على «الحياة الفاضحة والنهاية الرهيبة للساحر الكبير الشهير الدكتور يوهان فاوست «بقلم بفستر Pfitzer . (نوربرج سنة ١٦٩٥)» .

وفي سنة ١٥٢٨ نجد فاوست في مدينة انجولشتاد Ingolstadi يمارس السحر علانية ، مما حمل أصحاب السلطة على طرده من المدينة .

ويذكر منل Mennel وهو أحد تلاميذ لانجتون ، المصلح البروتستنتي الكبير ورفيق مارتن لوثر ، ان ملانختون هو من بلدة فاوست نفسها ، وانه عرفه شخصيا . وقد أورد لنا كلام أستاذه ملانختون عن فاوست . قال ملانختون ـ بحسب ما يروي منل (أو منليوس Manlius بحسب نطقه اللاتيني الذي اتخذه) ـ :

«لقد عرفت شخصا اسمه فاوست ، من كوندلنج Kundling وهي مدينة صغيرة قريبة من بلدي . انه حين كان يدرس في كوفيا تعلم فن السحر في تلك المدينة (كراكوفيا) التي مورس فيها السحر منذ وقت طويل ، بل واحترفه علانية . وكان (فاوست) متشردا مغامرا ، ويتفوه بأشياء مستسرة . ولما كان في البندقية (فينيسيا) أراد أن يعرض مشهدا ، فقال انه سيطير في الهواء . ورفعه الشيطان في الهواء ، ولكنه تركه بعد ذلك يسقط ثقيلا الى حد أنه حين لامس الأرض كان قد أوشك على الموت ، غير أنه لم يمت من هذه السقطة .

«ومنذ بضع سنوات ، يوحنا فاوست هذا ، وقد أوشك على نهاية حياته ، كان يجلس في فندق في قرية من قرى دوقية فورتمبرج Wurtemberg . فسأله صاحب الفندق لماذا هو حزين هكذا على غير عادة (وهو كان صعلوكا كثير السكر ويحيا حياة فاسقة ، حتى أنه كاد يقتل بسبب نوبات في السكر) . فأجاب فاوست : «لاتفزع هذه الليلة» ، وفي وسط الليل اهتز الفندق . وفي الغداة صباحا ، لما لم ينهض فاوست وبلغ الوقت ساعة الظهيرة ، ذهب صاحب الفندق بصحبة آخرين ودخل غرفة فاوست فوجده راقدا بالقرب من السرير ووجهه ملتفت الى ظهره وعلى هذا النحو قتله الشيطان .

«وطوال حياته كان يصحبه دائما كلب ، كان جنيا ، وشبيها بالكلب الذي كان يصحب هذا الوغد (اجربا Agrippa) الذي كتب كتابا بعنوان «بطلان العلوم» ابان حياته الشاردة . وقد هرب فاوست هذا من مدينة فتمبرج Wittemberg لما أن أصدر الدوق يوحنا الكثير الاحسان أمرا بالقبض عليه . كذلك هرب من نورنبرج...

«وهذا الساحر فاوست ، وهو دابة فاسد جدا وعميل لعدد كبير من الشياطين ، كان

يعتقد في نفسه أنه عظيم جدا . وادعى بجنون أن كل الانتصارات التي أحرزت في ايطاليا بواسطة الجيوش الامبراطورية هو الذي أحرزها ، بفضل سحره . وكان هذا أبشع كذب» . (أورده فاليجان ، الكتاب المذكور ، ص ٢٣-٢٤) .

ويستخلص من كلام ملانختون هذا :

١- أن فاوست ولد في كوندلنج Kundling ،

٢- وأنه تعلم السحر في كركوفيا ، وكانت جامعتها شهيرة في القرن السادس عشر ، وتقع في بولنده .

وتبعا لدونتسر Duntzer فان Kundling هذه هي Knittingen وهي مدينة صغيرة على بعد عشرة كيلومترات جنوبي Bretten (بلد ملانختون) ، وكانت في الأصل من البلاتينات ، لكنها ضمت في سنة ١٥٠٤ الى فورتمبرج .

٣- غير أن ملانختون لا يذكر بالدقة تاريخ وفاة فاوست على النحو الذي ذكره .

٤- ويلاحظ من كلام ملانختون عن فاوست أنه كان يزدريه ولا يقيم له وزنا ، ويحذّر من خطره .

ويورد يوحنا فير Wier في كتابه «مخاريق الجن» خبرين عن فاوست : الأول مفاده أنه أعطى وصفة لحارس السجن الذي أودع فيه من أجل حلق لحيته بدون موسى ، بأن أعطاه زرنيخا فالتهب الذقن والصدغ . والثاني يقول ان فاوست وجد ميتا ذات صباح بجوار سريره في احدى قرى مقاطعة فورتمبرج ، وكان وجهه ملتويا ناحية الظهر ، وفي الليلة السابقة أصاب البيت هزة قوية . (ذكره فاليجان ، الكتاب المذكور ص ٢٧-٢٨) . هكذا يبين من كلام فير ، كما بان من كلام ملانختون ، أن فاوست كانت العدالة تطارده ، وأنه سجن في مدينة بهولنده .

ولا شك في أن مارتن لوثر ، المصلح الشهير قد عرف فاوست . فقد ذكره في أحاديث المائدة (ص١٢ من طبعة فرنكفورت سنة ١٥٦٨) . ويقول فدمن Widman : «ذات يوم كان لوثر يستضيف على مائدته بعض الضيوف ، فأفضى الحديث الى الكلام عن الدكتور فاوست ، وذكر بعض الألاعيب التي قام بها حديثا . وهنا قال الدكتور لوثر بلهجة جادة ان فاوست هذا له أن يصنع ما يشاء ، لكنه في النهاية سيدفع الثمن غاليا . فليس هو الا شيطانا متعجرفا مغرورا طموحا ، يريد الحصول على الجاه في هذه الدنيا ، رغم الله وكلامه ، وعلى حساب ضميره وجاره . لكن من لا يريد البقاء ما عليه الا أن يذهب مباشرة الى الشيطان ، اذ لم يشاهد حيوان أكثر صلفا لم يكن مصيره السقوط من

هذا العلو : فلماذا تريدون اذن ألا يحاكي فاوست مصير أستاذه ، فيندق عنقه ؟! لكني أقول لكم أنه لا هو ولا الشيطان قادر على أن يستخدما السحر ضدي . ذلك أني أعلم جيدا أنه لو كان الشيطان قد أراد ايذائي ، لكان قد فعل ذلك منذ زمن طويل . لقد أمسك الشيطان مرارا برأسي ، لكنه اضطر دائما الى تركي أسلك سبيلي . وقد تعلمت على حسابي مراراً أي صاحب هو (أي الشيطان) ، لأنه هاجمني عدة مرات بقسوة ، الى درجة أني لم أعرف : ميت أنا أم حي . والقى بي مرارا في حال من اليأس لم أعرف معها هل الله موجود ، صرت على وشك أن أفقد كل ثقة في الله ربنا المحبوب . لكني ، بعون من كلام الله ، حميت نفسي من هجماته» (ذكره فاليجان ، ص٣٠) .

وتشعب الحديث فقال أحد الحاضرين أن أحد النبلاء دعا الى قصره عددا من العلماء ورتب صيدا للأرانب البرية . وفي هذا الصيد شوهد أرنب ثعلب ، رآه كل المشاهدين في الصيد . فانطلق هذا النبيل بفرسه وراء هذا الأرنب ، وفجأة خر الفرس ميتا ، أما الأرنب فانطلق في الهواء واختفى ، لأنه لم يكن الا شبحا رسمه الشيطان .

وقال ضيف آخر ان الدكتور فاوست في أحد أسفاره توقف فترة في مدينة جوتا Gotha ووقع نزاع مع صاحب الفندق ، واذا بضجة شديدة تحدث في كهف وتظهر أشباح ، بحيث لم يكن في استطاعة أحد أن ينزل الى الكهف في الليل ، لأن النور كان دائما ينطفئ وطوال الليل سمع صوت البراميل وهي تصطك بعضها ببعض . فقال لوثر ان هذه هي طريقة الشيطان في العمل . انه متى اندس في مكان فليس من السهل التخلص منه .

وثم شاهد آخر هو الكونت فروبن كروستوف فون اتسمرين Froben Christoph Von Zimmern ، الذي يذكر في تاريخه «ان فاوست ، الساحر الشهير ، بعد أن أنجز ابان حياته أمورا عجيبة يمكن تخصيص كتاب مستقل لروايتها ، قد قتله ، وهو في سن عالية ، الروح الشريرة (الشيطان) في اشتافن - في - بريسجاو Stavfen-in Breisgau (في جنوب ألمانيا)» . (راجع فاليجان ص ٣٤) .

وفي مواضع أخر ذكر فاوست قبل نشر الكتاب الشعبي عن فاوست - موضعا في كتاب من تأليف أوجستين لرشمير Augustin Lercheimer ، وهو لاهوتي بروتستنتي وكان من تلاميذ ملانختون . وهو يروي غرائب تؤذن بأن الأساطير قد بدأت تحاك حول فاوست . من ذلك أنه يروى أن فاوست كان في احدى الحانات يشرب . فأغاظه الساقي بأن كان يجعل كأسه يطفح بالشراب . فهدده فاوست بأنه لو جعل الكأس تطفح مرة أخرى فانه سيبتلع الساقي . فسخر الساقي من تهديده وجعل الكأس تطفح مرة أخرى . هنالك فتح فاوست فمه

واسعا والتهم الساقي! فصرخ صاحب الحانة مطالبا برد الساقي . فطمأنه فاوست ، وأشار اليه بالنظر خلف الموقد فنظر صاحب الحانة الى هذه الجهة فوجد الساقي يرتعد من الخوف هناك وهو مبلل بالماء . ـ ويروى حكاية أخرى هي أن فاوست ذات مرة كان يحلق في الهواء ابان احتفال الكرنفال . ـ وأخيرا يذكر أن فاوست عزم على التوبة «لكن الشيطان هدده تهديدا مروعا ، وألقى من القلق في نفسه ، بحيث اضطر الى تجديد الميثاق معه» (الكتاب نفسه ص ٣٩) .

تلك هي الشهادات على وجود فاوست وأعماله السحرية قبل ظهور الكتاب الشعبي عنه في سنة ١٥٨٧ . ومع ذلك فقد تناوله بعض الكتاب ، في استقلال عن الكتاب الشعبي . ومن هؤلاء مارتن دلريو Martin Delrio في كتابه «مطارحات في السحر» (طبع لأول مرة ١٥٩٩) فقد قال عن فاوست وعن الساحر المعاصر الآخر أجربا فون نتسهيم Agrippa Von Nittisheim تروي الشائعات أن الساحرين : فاوست وأجربا ، لما كانا في سفر ، كانا يدفعان حسابهما في الفنادق بعملة كان يبدو أنها صحيحة . لكن أصحاب الفنادق أدركوا ، بعد بضعة أيام ، أنهما انما أخذا قطعا من قرون الحيوان أو أشياء لا قيمة لها . وسيستغل جيته هذه النادرة في فاوست الثاني بتزييف النقود لانقاذ الامبراطور من الافلاس .

كذلك كان يتحدث الفقيه القانوني فيليب كامراريوس Camerarius طويلا عن فاوست في كتابه «ساعات الفراغ» (الطبعة الأولى سنة ١٦٠٢) فيقول : «نحن نعلم أنه من بين السحرة الذين اشتهروا في زمان آبائنا ، كان يوحنا فاوست الذي من كوندلنج Kundling لقد ظفر بشهرة كبيرة بفضل خوارقه المدهشة وتهويلاته الشيطانية» ، حتى انه لا يكاد يوجد أحد من عامة الناس الا ويعرف نادرة من نوادر عجائب السحر التي أنجزها (الكتاب نفسه ، ص٤١) . ويختم روايته عن نوادر فاوست بالنادرة التالية التي سنجد جيته يأخذها كما هي تقريبا في المنظر الخاص بحانة آورباخ في فاوست الأول . يقول كامراريوس :

«وذات يوم كان يشرب مع بعض معارفه الذين سمعوا عن علمه بالسحر ، فرجاه هؤلاء ان يقدم دليلا على مهارته في السحر . فتمنع طويلا ، لكن تحت الحاح صحبه الذين كان السُكْر قد ألهب رؤوسهم ، وافق على أن يحقق لهم ما يتمنونه . فأجمعوا على أن يطلبوا منه أن يحضر شجرة كرم محملة بعناقيد العنب الناضج . وكان الفصل فصل شتاء ، فظنوا أنهم طلبوا منه أمرا عسيرا . فوعدهم فاوست بأن يخرج لهم من المائدة التي يجلسون اليها في

الحال شجرة كرم محملة بالعناقيد الناضجة . لكنه اشترط عليهم أن يلتزموا الصمت العميق وأن يجلسوا في هدوء الى أن يأذن لهم باقتطاف العنب ، وهددهم بالموت ان لم يلتزموا بهذه الشروط . فلما قبلوها ، سحر عيونهم وحواسهم ، وهم السكارى ، الى درجة أنهم تخيلوا أنهم يشاهدون كرمة رائعة محملة بعناقيد كبيرة ذات حبات عنب ضخمة تكفي جماعة الحاضرين . وأهاجتهم غرابة هذه الظاهرة وقد لعبت النشوة برؤوسه ، فأمسكوا بسكاكينهم ، منتظرين بصبر نافد اذن فاوست لهم بقطع العناقيد . وتركهم فاوست منتظرين طويلا ، وهم في هذا الوهم ، ثم اختفت الكرمة والعناقيد فجأة وتحولت الى دخان ، وأدرك كل واحد منهم أنه انما كان يمسك بأنفه هو بدلا من عنقود العنب الذي خيل اليه أنه يمسك به ، وأن السكين كانت موضوعة فوق الأنف بحيث لو كان أحدهم قد نسي أمر فاوست وحاول قطع العنقود قبل الاذن له ، فانه كان سيقطع أنفه هو .» (الكتاب نفسه ص٤١-٤٢) .

وقد بقيت ذكرى فاوست ـ حتى أواخر القرن الماضي على الأقل ـ في مدينتي براغ (تشيكوسلوفاكيا) وفينا (النمسا) . اذ يشار فيهما الى منازل سكن فيها : ففي براغ يقع هذا المنزل في المدينة الجديدة بالقرب من كنيسة اسكالكا Skalka . وفي فينا يقع هذا المنزل في رقم ٧ من حارة فلوس Flossgasse .

وقد أثيرت بعض المشاكل حول هذه المصادر ، وأهم هذه المشاكل هي : هل هي تتحدث كلها عن الشخص نفسه ؟ ذلك أن ترتهيم Tritheim يسميه ,Georgivs Sabellicus Faustus Junior وفي سجلات جامعة هيدلبرج يسمى : يوحنا فاوست Johann Faust وهو الاسم الذي يرد في سائر المصادر ما عدا عند موتيانوس روفروس Mutianus Rufus ، وفي وثيقة انجلو لشتادت (سنة ١٥٢٨) حيث يعود اسمه فيصبح كما كان عند ترتهيم : Georgius Faust وقد فسر الباحثون اختلاف الاسم الأول بأنه راجع الى كون فاوست قد اضطر الى هذا التغيير لكونه مطاردا من العدالة .

والصعوبة الثانية هي في عمره : فكل المؤلفين وان لم يذكروا عمره بالدقة ، يبدو من كلامهم أنه توفي وعمره بين الخامسة والأربعين وبين سن الستين ، فيما عدا اتسمرن Zimmern الذي قال كما رأينا أنه مات في سن كبيرة .

والصعوبة الثالثة تتعلق بسنة وفاته . لكن على الأرجح أنه توفي بعد سنة ١٥٤٠ .

٣
فاوست في الأسطورة

وان شخصية تقوم بهذه الأعاجيب كان من الطبيعي أن تتحول الى أسطورة .

وأسطورة فاوست ـ كما بين فاليجان (الكتاب المذكور ص ٧٠-٧١) قد تكونت على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى :

مرحلة اختلط فيها التاريخ بالأكاذيب ، وذلك لدى المؤرخين المعاصرين له أو التالين لعصره مباشرة ، أعني في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، فقد ذكروا أخبارا بعضها واقعية صحيحة ، والبعض الآخر روايات يتناقلها الناس وقد لعب الخيال في بعضها : أما في أصلها ، وأما في بعض التفاصيل . وكذب الروايات هنا ليس مقصودا من المؤرخين ، بل يرجع الى عدم صدق مصادرهم ، أو الى نقص في معلوماتهم هم أو من ينقلون عنهم من شهود العيان .

المرحلة الثانية :

ثم بدأت أسطورة فاوست وهو لا يزال حيا ، على شكل روايات شفوية يتناقلها الناس في أسمارهم ويزجون بها أوقاتهم الفارغة ، أو يدهشون بها السامعين . فقد اشتهر عن الرجل أنه فاسق ، ملحد ، ساحر ممخرق . فراح من يتصلون به يؤلفون عن سلوكه وأفعاله الروايات العجيبة . وراح الخيال الشعبي بدوره يفعل بها الأفاعيل ، ويملؤها بالتهاويل ، وراح البعض الأوفر حظا من العلم بالتاريخ ينسبون الى فاوست ما قرأوا من عجائب منسوبة الى سحرة قدماء سابقين . ـ وهنالك أخذ بعض الكتاب في جمع هذه النوادر والعجائب المنسوبة الى فاوست ، لكنهم قدموها الى أنها نوادر مسلية لا على أنها معلومات صحيحة .

المرحلة الثالثة :

وفي المرحلة الثالثة انتقلت الأسطورة من الشفاه الى سجلات الكتب . وقبل تحرير الكتاب الشعبي ، كانت تتداول مخطوطات عديدة سجلت فيها نوادر فاوست .

٤
الكتاب الشعبي

ثم كان تسجيل هذه الأسطورة في كتاب شعبي Volksbuch على يد كاتب مجهول ، وصدر هذا الكتاب عند الناشر يوهان اشبيس Johann Spies في سنة ١٥٨٧ في مدينة فرانكفورت على نهر الراين . وعنوان هذه الطبعة الأولى هكذا :

« تاريخ الدكتور يوهان فاوست ، الساحر الشهير جدا ، وكيف باع نفسه للشيطان لمدة محدودة ، والمغامرات العجيبة التي شاهدها ، في تلك الفترة ، أو تسبب فيها ، أو عاناها هو نفسه الى اليوم الذي تلقى فيه جزاءه الذي استحقه » .

« مستخرج في معظمه من كتاباته هو التي عثر عليها بعد وفاته ، وحرر ونشر ليكون أمثولة رهيبة ، ودرسا مروعا ، ونصيحة مخلصة لكل المستكبرين والمستطلعين والكفرة الفسقة » .

« يعقوب الرابع[١] . أسلم أمرك لله ، وقاوم الشيطان ، يبتعد عنك الشيطان ، والكتاب المهدى الى جسبرد كولن Gaspard Kolln كاتب أمير ماينتس ، والى جروم هوف Hoff ، المحصل العام لكونتية كينجشتين » .

ويقول الناشر ، يوهان اشبيس ، انه ينشر هذا الكتاب الصغير ، لأنه انتشرت في ألمانيا أخبار عن مغامرات الدكتور يوهان فاوست . فتساءل عما اذا لم تكن هذه المغامرات قد سجلها أحد الكتاب . « فلم أكف عن البحث عند العلماء والأذكياء ، عما اذا كانت أخبار هذه المغامرات قد سجلت كتابة بواسطة شخص ما في كتاب معد لأن يطبع ، بيد أني لم أظفر بجواب يقيني الى أن حدث أخيرا ان بعث الي أحد أصدقائي الطيبين في مدينة اشبير Spir بمخطوط (فيه سجلت أخبار فاوست) ، وتمنى أن أنشره طباعة ، وأن أقدمه مثالا رهيبا لحيل الشيطان ، وموت البدن والروح ، حتى يكون تنبيها واعظا لكل المسيحية » .

وهذا الصديق الذي من اشبير كان لاهوتيا بروتستنتيا ، فيما يبدو ، لأن الروح العامة للكتاب تدل على ذلك بما ورد فيه من اقتباسات من النصوص المقدسة وأحداث .

وأعيد طبع هذه الطبعة الأولى في نفس السنة ١٥٨٧ ، وفي فرانكفورت على نهر الراين ، دون ذكر اسم للمؤلف ، كما في الطبعة الأولى ، ولكن أيضا دون ذكر للناشر . ثم

---

(١) رسالة القديس يعقوب ، الأصحاح الرابع .

صدرت طبعة ثالثة في السنة نفسها ، ولكن في مدينة هامبورج ، لدى الناشر هينرش بندر Binder .

وفي العام التالي ، سنة ١٥٨٨ ، صدرت طبعة رابعة مشابهة تماما للطبعات السابقة ، لكن لا ذكر فيها للناشر ولا للمدينة التي طبع فيها .

ويفخر الناشر ، يوهان اشبير ، بأنه أول من يقدم عن فاوست رواية متماسكة ويقينة ، ويعلن عن ترجمة لاتينية للكتاب .

وها نحن أولا نقدم خلاصة وافية لهذا الكتاب الشعبي :

أ ـ نشأة فاوست حتى عقده الميثاق مع الشيطان

كان الدكتور يوحنا فاوست ابنا لفلاح . وقد ولد في رود Rod بالقرب من فيمار Wei-mar وكان له أقارب عديدون في فتمبرج Wittemberg وكان له ابن عم غني في فتمبرج ، تولى تربيته وعامله كابن له ، وجعله وريثه لأنه لم يكن له أولاد .

درس فاوست اللاهوت أولا ، وبرز فيه حتى حصل على (دكتوراه في اللاهوت) Doctor .

لكنه اتخذ بعد ذلك مسلكا لا يتفق مع ما يأمر به الدين ، فصحب الفجار ، وانتهب اللذات . والتقى بجماعة من شاكلته يهتمون بالالفاظ الكلدانية ، والفارسية ، والعربية ، واليونانية ، والأشكال والحروف والتعزيمات وأعمال السحر أيا كان اسمها . وكانت هذه هي الفنون الدردانية Dardaniae artes استنطاق الموتى ،الكلمات السحرية ، الشعوذة ، التنبؤات ، التعاويذ... كل هذا اختلب لب الدكتور فاوست ، فصرف همه للتأمل فيه ودراسته ليل نهار ولهذا لم يعد يتحمل أن يقال عنه انه لاهوتي ، وصار من أهل الدنيا ، واتخذ لقب دكتور في الطب ، وصار منجما ورياضيا ، ومارس الطب عن كرم نفس . فواسى الكثيرين بأدويته ، وكانت أعشابا ، وجذورا ومياها ، وأشربة ، واكسيرات... ثم انه كان في الوقت نفسه خطيبا واعظا متبحرا في النصوص المقدسة ، وان كان لم يظفر في هذا بالشهرة . « غير أنه القى بهذا كله للريح ، وجعل نفسه تتجاوز كل الحدود » .

ذلك أن الدكتور فاوست أولع ولعا مفرطا بما لا ينبغي الولوع به ، وظل يسعى اليه صباح مساء وزود روحه بتحليقة النسر ، وأراغ الى سبر أسباب الأشياء في السماء وعلى وجه الأرض . لأن حبه للاستطلاع وافراطه ومجونه دفعته الى حد أن جعلته يحاول ، وقتا من الأوقات ، ان يجرب بعض التعزيمات والأشكال والحروف السحرية ، ابتغاء ارغام الشيطان

على المثول أمامه .

«فمضى الى غابة كثيفة بالقرب من فتمبرج تسمى غابة اشبسر Spesser كما اعترف بذلك فيما بعد . وذات مساء رسم في هذه الغابة ، بعصا ، في مفترق طرق تتقاطع فيه أربعة طرق ، بعض الدوائر ، والى جانبها دائرتان فوقها ، حتى تدخل في هذه الدوائر الكبيرة . وعزم على الشيطان أثناء الليل ، بين الساعة التاسعة والعاشرة ، ولا بد أن الشيطان سخر منه ، وأدار له ظهره ، وقال في نفسه : سأبرد قلبك وشجاعتك ، وسأضعك على مسرح النسانيس ، حتى تصبح نفسك وجسمك من نصيبي ، وحينما تصبح الانسان الذي أتمناه ، سأبعث بك الى حيث لا أريد أنا أن أذهب رسولا عني . وهذا ما حدث ، وعبث الشيطان بفاوست على نحو رائع وأوصله الى هذه الدرجة .

لكن لما عزم عليه الدكتور فاوست ، تظاهر بعدم الرغبة في تلبية النداء ، وملأ الغابة بضجيج مخيف كما لو كان يريد تحطيم كل شيء ، حتى انحنت الأشجار الى الأرض . وأوهمه ان الغابة مملوءة بالشياطين التي تجلب في داخل وخارج الدائرة التي رسمها فاوست ، وخيل اليه أن الغابة مملوءة بالعربات الصاخبة . ثم أخذت الشياطين في الدوران في أرجاء الغابة ، مثل السهام والبروق ثم حدث صوت رائع ، تلاه ضياء ، وسمع في الغابة موسيقى تعزفها مجموعة ممتازة من الآلات وتصحبها أغان ، وتلا ذلك رقصات ومناوشات بالرماح والسيوف ، حتى أن فاوست فكر في الهرب من الدائرة ، بيد أنه عزم عزيمة جنونية : اذ بقي على حاله السابقة ، واستأنف التعزيم على الشيطان .

هنالك تجلى الشيطان تجليات والصرخات التالية : تجلّى على شكل تنين يخلق فوق الدائرة ، ولما عاد فاوست الى تعزيماته ، صدر عن هذا الحيوان شكوى ونواح . ثم نزل من ارتفاع ثلاث أو أربع قامات نجم من نار تحول الى كرة ملتهبة ، مما أثار الرعب الشديد في فاوست . لكنه لم يتبرم بمحاولته ، لأنه كان يرى اطاعة الشيطان له أمرا عالي القيمة جدا ، كما أبدى ذلك لما راح في جماعة يتفاخر بأن أعلى رأس على الأرض خاضع له ومطيع . فلما قال له التلاميذ انهم لا يعرفون رأسا أعلى من رأس الامبراطور أو البابا أو الملك أجابهم الدكتور فاوست قائلا أن الرأس الخاضع لي أعلى من ذلك ، وأثبت دعواه بواسطة رسالة القديس بولس الى أهل افسوس حيث ورد أن الشيطان هو أمير هذا العالم على الأرض وتحت السماء .

وعزم على هذا النجم مرة أولى ، وثانية ، وثالثة ، فانبثق تيار من النار عاليا بطول قامة الانسان ، ثم هبط بعد ذلك ، وشوهدت حينئذ ستة أنوار صغيرة أخذت تتواثب ، الواحد

يثب بينما الآخر يهبط . ثم تغير المشهد ، وتكون انسان كله من نار لم يكف عن الدوران حول الدائرة طوال ربع ساعة .

وبعد ذلك اتخذ الجن والروح هيئة راهب رمادي ، واقترب من فاوست ليحدثه ويسأله عما يتمنى . فأعرب فاوست عن رغبته في أن يراه في اليوم التالي عند منتصف الليل في بيته ، فتردد الشيطان لحظة . فلما استحلفه الدكتور فاوست ، باسم سيده (الشيطان) ، ودعاه إلى تحقيق أمنيته هذه ، وافق الروح في النهاية ، وجاء الى غرفة فاوست في اليوم التالي... وطلب منه فاوست ما يلي :

١- أن يكون الشيطان مطيعا له في كل ما يطلبه طوال حياته ،

٢- ألا يخفي عنه شيئا يطلب معرفته ،

٣- أن يصدق في الجواب عن كل مسألة يسأله اياها .

لكن الروح أجابه بأنه لا يستطيع الموافقة على هذه المطالب الا اذا حصل على تفويض من سيده ، ذلك لأن الجن طبقات ومراتب . وقال أن لوسيفر Lucifer (= ابليس) لديه فرقة من الجن . وهو يدعى أمير الشرق ، لأن سلطانه هو في الشرق ، وثم آخرون لهم سلطان في الجنوب ، أو الشرق ، أو الغرب .

وظهر الروح مرة ثالثة لفاوست وأعلن موافقته على اطاعته في كل الأمور ، لأنه حصل على اذن بذلك . وأعلن فاوست مطالبه ، وهي :

١- أن يتخذ هيئة روح ويملك براعته ،

٢- أن يفعل الروح كل ما يطلبه منه فاوست ،

٣- أن يكون الروح مطيعا له وبمثابة خادم متلهف لتنفيذ المهام التي يكلفه بها ،

٤- أن يحضر اليه في كل مرة يدعوه فيها ويضع نفسه تحت تصرف فاوست ،

٥- أن يقوم الروح ـ وهو محجوب ـ بادارة بيت فاوست ، وألا يرى أحدا غيره الا بأمر من فاوست .

٦- أن يظهر الروح كلما رغب فاوست وعلى الهيئة التي يريدها فاوست .

فأجابه الروح بأنه يوافق على هذه الشروط الستة بشرط أن يوافق فاوست من جانبه على الشروط التالية :

١- يعد فاوست ويقسم بأنه صار منذ الآن ملكا للروح ،

٢- وتوكيدا لهذا العهد ، على فاوست أن يصادق على ذلك بدمه ، فيكتب الميثاق

بينهما بدمه ،

٣- يكون فاوست عدوا لكل المسيحية ،

٤- يكفر فاوست بالمسيحية ،

٥- اذا حاول أحد اعادته الى المسيحية ، فعليه أن يرفض .

كذلك طالب الروح بأن تحدد مدة الميثاق ببضع سنوات ، بعد مضيها يأخذ معه فاوست . وسأل فاوست هذا الروح عن اسمه فقال له ان اسمه : مفستوفيلس .

ولما وافق كلا الطرفين على شروط الآخر ، أخذ فاوست سكينا حادة وشق عرقا من عروق يده اليسرى ، وكتب الميثاق بقطرات من الدم السائل من هذا العرق ، ووقعه .

وبعد ذلك تورد الفصول التالية من الكتاب الشعبي ما جرى من محاورات بين فاوست والروح (الشيطان) حول بعض المسائل اللاهوتية :

- ما سبب سقوط ابليس ؟
- ما شكل الجحيم ؟ كيف خلق الجحيم وماذا فيه من ألوان العذاب ؟
- ما مقام الجن والشياطين ؟
- ما شكل الملائكة الساقطين ؟
- ما هي قدرة الشيطان ؟

ب ـ مغامرات فاوست في صحبة الشيطان

والقسم الثاني من الكتاب الشعبي يتناول ـ بعد ايراد بعض الأسئلة من النوع الذي أتينا على ذكره ـ وصف رحلة فاوست في الجحيم ، ثم رحلته بين النجوم ، ثم رحلته الثالثة في بعض الممالك : فذهب الى باريس ، والى نابولي ، والبندقية ، وبادوفا ، وروما . وفي روما يستعلم فاوست عن حياة البابا وحياة الترف والفخفخة التي يحياها ، يصيح قائلا بعد أن سمع الوصف : « يا ويلتاه! ولماذا لم يجعلني الشيطان بابا ؟ » . وفي اللمحة نجد الروح البروتستنتية وحملة لوثر على البابوية .

ثم يرحل بعد ذلك الى القسطنطينية ، ويمر هناك بمغامرات عديدة ، ويسبب للسلطان سليمان متاعب كثيرة : فقد قام بأعمال سحرية مذهلة أمام السلطان : فسحر السلطان بحيث لم يستطع النهوض ، وجعل بهو السلطان يضيء كما لو كانت الشمس في داخله ، واتخذ شكل بابا وقال للسلطان : «السلام عليك يا سليمان ، سيظهر لك (النبي) محمد » . فانخدع السلطان بهذا الكلام وسجد شكرا للنبي على أن حباه بهذا العطف الكبير!

وهنا يوغل الكتاب الشعبي في التعبير عن التعصب المسيحي الأوربي ضد الاسلام والترك . ثم يرحل فاوست الى القاهرة «التي كانت تسمى قديما Chayrum (!) أو منف ، وحيث لسلطان مصر قصر وبلاط . وهناك في مصر ينقسم نهر النيل ، الذي هو أعظم نهر في العالم كله . وحين تدخل الشمس في برج السرطان ، يفيض ويخصب كل أرض مصر .» (فاليجان ، ص ١١٤) .

يذهب بعد ذلك الى هنغاريا . ثم يعود الى مجد ورج (في المانيا) ولوبك (في سكسونيا بالمانيا) . ومن ثم الى ارفورت ، وفتمبرج ويعود الى بيته بعد غياب دام سنة ونصفا .

وفاوست كان يقوم بكل هذه الاسفار طائرا في الهواء... وعلى هذا النحو طار فوق عدة ممالك : انجلترة ، اسبانيا ، فرنسا ، السويد ، بولنده ، الدنمارك ، الهند ، أفريقية ، فارس ، بلاد المغرب ، القوقاز ، الخ .

وفي أثناء هذه الرحلات يصف الكتاب الشعبي المدن التي يزورها فاوست .

جـ ـ لقاؤه بالامبراطور شارلكان وبعدد من النبلاء ، ونهاية فاوست

والقسم الثالث والأخير من الكتاب الشعبي يصف لقاء فاوست بالامبراطور شارلكان في مدينة انسبروك (النمسا) . وكان الامبراطور قد سمع بأعمال فاوست ، وبأن في خدمته روحا يتنبأ له بالمستقبل . فسمح لفاوست بالمثول أمامه ، وقال له انني تساءلت ، وأنا أحلم ، كيف وصل رجل مثل الاسكندر المقدوني الى ما وصل اليه وهل يمكنني أن أزيد عليه . وأنا أريد أن أشاهد أمامي شكل وهيئة وملامح الاسكندر وزوجته ، كيما أعرف قدرتك على السحر . فأجاب فاوست بأنه يستطيع أن يستحضر الاسكندر وزوجته كما كانا في حياتهما . وخرج من الغرفة برهة ثم عاد : ليتفاهم مع روحه . «وفتح فاوست الباب ، ودخل الاسكندر فورا على الهيئة والملامح التي كانت له ابان حياته . لقد كان الاسكندر رجلا قصير القامة مستوي الاعضاء ، سمينا ، ذا لحية كثة حمراء أو من لون ضارب الى الحمرة ، ووجهه ملون ونظرته نافذة كما لو كانت عيناه عيني حية رقطاء . وتقدم وهو يرتدي سلاحا كاملا ، نحو الامبراطور شارلكان ، وانحنى أمامه انحناءة عميقة . وأراد الامبراطور انهاضه والترحيب به ، لكن الدكتور فاوست لم يسمح له بذلك . وبعد لحظة وبعد أن انحنى الاسكندر مرة أخرى وغادر المكان ، دخلت زوجته بالطريقة نفسها ، وانحنت أيضا أمام الامبراطور . وكانت تلبس ثوبا من القطيفة الزرقاء المزينة بالذهب

واللآلئ .» (الكتاب نفسه ص ١٢١) .

وتتلو ذلك مغامرة أخرى فيها يسحر فاوست فارسا ويزرع قرن غزال في رأسه . ويحاول الفارس الانتقام من فاوست ، فلا يفلح .

ومغامرة أخرى فيها يلتهم فاوست حمل عربة من التبن ، والعربة والفرس الذي يجرها .

ومغامرة أخرى مع ثلاثة كونتات رغبوا في حضور زفاف ابن أمير بافاريا في مدينة ميونخ ، وكيف حملهم فاوست على الهواء الى هناك .

ومغامرة أخرى تروي كيف أن فاوست اقترض من يهودي مبلغا من المال ، وأعطاه رهنا لذلك ساقه التي بترها هو بنفسه بحضور هذا اليهودي!

وتتوالى عدة مغامرات ابان الكرنفال .

وسيحضر فاوست هيلانة في يوم الأحد الأبيض (الكوازيمودو) أمام سبعة من الكلاب (الفصل ٤٩) . ويعود الى هيلانة مرة أخرى في الفصل ٥٩ فيطلب من الروح أن تحضر له هيلانة لكي تكون له خليلة . وفعلا أحضرها الروح . «وهيلانة هذه كانت تشبه تماما تلك التي أظهرها للكلاب ، وكانت لطيفة فاتنة . ولما شاهدها فاوست من جديد ، امتلأ قلبه غراما ، وأخذ في مداعبتها . وجعل منها خليلته المفضلة ، وصارت تشغف قلبه الى حد أنه كان يصعب عليه أن يبقى بضع لحظات دون أن يراها . وصارت حبلى منه أثناء هذه السنة الأخيرة من الميثاق ، وانجبت منه ولدا سماه يوستوس فاوست Justus Faust ، وشعر بابتهاج عظيم . وهذا الولد أخبر أباه بكثير من الأمور التي ستحدث في بلاد كثيرة . لكن لما دنا أجل فاوست ، اختفت الأم والابن في الوقت نفسه الذي توفي فيه فاوست» (الكتاب نفسه ص ١٤١-١٤٢) .

وبعد مضي أربع وعشرين سنة على توقيع الميثاق مع الشيطان ، كتب فاوست وصيته ، وفيها جعل تلميذه فجنر وريثه .

وفي الفصول التالية (فصل ٦٢ الى فصل ٦٨) يصف الكتاب الشعبي النهاية الأليمة لفاوست ، ونواحه الشديد على سوء حاله ، ويورد شكاتين موجعتين (فصل ٦٣-٦٤) ولكن مفستوفيلس يظهر له وينهال عليه بالسخرية القاسية .

وينوح فاوست على ما سيلقاه من عذاب في الجحيم . ثم عند وشك انتهاء الاربع وعشرين سنة المحددة للميثاق مع الشيطان ، تظهر له الروح ، ويريه الميثاق ، ويقول له ان الشيطان سيحضر في الليلة القادمة لأخذ جسده ، وعليه أن يكون متهيئا لذلك . وفي اليوم التالي وقد عرف أن نهايته في آخرها ، ذهب الى تلاميذه وأصحابه في اللهو والفجور ،

وسألهم أن يتريضوا معه في قرية رملش Rimlieh ، وهي على بعد نصف ميل من فتمبرج ، وأن يتناولوا هناك الغداء . وذهب الجميع الى هناك . ثم دعاهم الى أن يمضوا الليلة معه ، فوافقوا وتعشوا معه وشربوا ، وراح فاوست يلقي عليهم خطبة طويلة ، يعظهم ويندم على ما فرط منه . وختم كلامه قائلا : «أرجوكم بحق الصداقة أن تذهبوا الى مخادعكم وتناموا في سلامة ، وألا تقلقوا من الضجة التي ستسمعونها في البيت . ولا تخافوا منها أبدا ، ولن ينالكم منها شر . ولا تنهضوا من فرشكم . واذا وجدتم جثتي ، فادفنوها في الأرض لأني أموت ميتة مسيحي سيء وحسن معا : حسن لأن في نفسي توبة نصوحا ، وأنا أصلي في قلبي حتى تنالني الرحمة وتنجو نفسي ، وسيء لأنني أعلم أن الشيطان لا بد أن يأخذ جسدي ، وسأتركه له عن طيب خاطر اذا ترك روحي في سلام...» (الكتاب نفسه ص١٤٨) .

ولما هلك فاوست ، دفنه هؤلاء الطلاب في الأرض في هذه القرية . ثم جاءوا الى فتمبرج ، وذهبوا الى بيت فاوست فوجدوا فيه تابعه فجنر وهو قلق على أستاذه .

«واكتشفوا أيضا تاريخ فاوست هذا ، مكتوبا بخط يده ، كما قلنا آنفا ، وكاملا فيما عدا النهاية التي أضافها التلاميذ والأساتذة وما سجله تابعه ، لأنه كتب كتابا جديدا هو الآخر ، وفي اليوم نفسه ، توقفت هيلانة المسحورة هي وابنها عن الوجود واختفيا . ومنذ ذلك الحين صار بيته مسكونا بالأشباح الى حد أنه لم يستطع السكنى فيه أحد . كذلك ظهر الدكتور فاوست لتابعه (فجنر) على الهيئة التي كان عليها ابان حياته ، وكشف له عن كثير من الأسرار .» (الكتاب نفسه ص ١٤٩-١٥٠) .

تلك خلاصة وافية للكتاب الشعبي عن فاوست .

وهذا الكتاب ليس من نسج الخيال ، بل هو تجميع للمعلومات المتناقلة بين الناس في المانيا في القرن السادس عشر عن شخصية حقيقية تاريخية عاشت في النصف الأول من ذلك القرن ، وعرفها ملانختون ولوثر ، وكانا في البداية من أنصارهما ، لكنهما اضطرا الى التبرؤ منه نظرا الى ما شاع عنه من ممارسة للسحر ، وفسوق في السلوك ، وعقد ميثاق مع الشيطان .

ويجمع النقاد الالمان على أن مصنف هذا الكتاب الشعبي كان لاهوتيا ، نظرا لما في الكتاب من محاولات لاهوتية تكشف عن معرفة عميقة بالكتاب المقدس والمشاكل الدينية .

أما من ناحية تحرير الكتاب ، فان أسلوبه منحط ، غامض ، مشوش ، والكتاب كثير التكرار ، يفيض في ذكر التفاصيل التافهة . ولغته هي اللغة الألمانية في القرن السادس

عشر ، لكن بغير تهذيب ولا تألق ، بل هي أقرب إلى اللغة العامية . وشتان ما بينها وبين لغة مارتن لوثر!

والروح الدينية التي تسوده هي روح الاصلاح الديني البروتستنتي الذي دعا اليه مارتن لوثر . وهو لهذا يسخر من المعتقدات والطقوس الكاثوليكية ، ومن البابا وحياة الترف والفجور التي يحياها هو وسائر البابوات بعامة .

٥
رواية فدمن في حياة فاوست

وأثر الانتشار الهائل الذي لقيه الكتاب الشعبي ، قام فدمن بتحرير رواية أخرى لحياة فاوست .ظهرت سنة ١٥٩٩ ، أي بعد الكتاب الشعبي باثنتي عشرة سنة . ودعاه الى ذلك ـ فيما زعم ـ أن الكتاب الشعبي انما يقوم على وثائق ناقصة ومصادر غير قانونية . وزعم أيضا أن روايته هو تقوم على أساس الأصل الذي تركه فاوست لتابعه فجنر ، مع مزيد من المعلومات الواردة من أصدقاء فاوست ومعارفه المقربين ، أو من أشخاص جديرين بالثقة .

والواقع أن رواية فدمن تتفق في مواضع مع الكتاب الشعبي ، لكنها تضيف أشياء كثيرة لم ترد في الأخير . ولهذا جاءت رواية فدمن ثلاثة أضعاف الكتاب الشعبي . وفيها كثرت المواعظ والملاحظات .

كذلك تتميز رواية فدمن بالمزيد من الطعن في الكاثوليكية . ومن التأكيد للمعتقدات البروتستنتية . ويعز على فدمن أن يكون فاوست قد حصل تعليمه في فتمبرج البروتستنتية ، ولهذا يجعله يتعلم في جامعة انجولشتاد .

وتتميز ثالثا باستعراض للاطلاع العلمي الأوسع جدا مما نجده في الكتاب الشعبي .

ومحرر هذه الرواية ، جيورج رودلف فدمن لا نكاد نعرف عنه شيئا .

لكن رواية فدمن هذه لم تحظ بنجاح بين الناس ، والدليل على ذلك أنه لم يعد طبعها الا بعد ذلك بخمس وسبعين سنة . بل ان هذه الطبعة الثانية معتدلة جدا ، وقد تولى التعديل فيها طبيب يدعى بفستر Pfitzer : فجدد الأسلوب ، وأعاد تحرير بعض الفصول بأكملها ، وحذف معظم الهجمات على الكاثوليكية ، وحذف مواضع عديدة في الفصول التي تركها بتحريرها الأصلي . وعنوان طبعة بفستر هذه هو :

«الحياة المخزية والنهاية الرهيبة للساحر الأكبر الشهير جدا يوحنا فاوست ، كتبها

للمرة الأولى بعناية منذ عدد كبير من السنوات جيورج ـ رودلف فدمن ، والآن نفخت من جديد وزيد فيها أخلاقيات جديدة وحكايات جادة ومسائل لتحذير الأشرار اليوم . بقلم يوحنا نقولا بفستر ، الطبيب ، يسبقها مذكرة كتبها كنراد ـ فولف بلاتسيوس Konrad Wolf Platzius العالم بالكتاب المقدس ، وتتناول هذه المذكرة خطيئة السحر الرهيبة... نورمبرج ، عند الناشر Wolfgang Moritz Endter وورثة يوهان اندرياس اندتر ، سنة ١٦٧٤ » .

وفي هذه الطبعة يزيد الشرح والتعليق عن النص ، ويضيف نادرة عابرة تتحدث عن حب فاوست لخادمة جميلة فقيرة ، ويعيد ذكر بعض الأحداث التي حذفها فدمن ، خصوصا ذلك الحدث المتعلق بهيلانة . وربما كانت حادثة حب فاوست هذه لخادمة فقيرة جميلة هي التي أوحت الى جيته بحادثة حب فاوست لمرجريت الفتاة المسكينة لكنها جميلة .

وقد صدر من طبعة بفستر هذه ست طبعات ما بين عام ١٦٧٤ وعام ١٧٢٦ .

كذلك صدر مختصر لحياة فاوست تحت عنوان : «المؤمن المسيحي» Christlich Meynende في سنة ١٧٢٥ ، وهو موجز جدا اذ يقع في ٤٦ صفحة من القطع الصغير . ويبدو فيه تأثير نزعة التنوير العقلية ، لأنه يختزل الأحداث الى ما هو مقبول عقلا منها ، ويستبعد ما يشتم منه الاعتقادات الخرافية القديمة ، ومع ذلك فانه يبقي على الميثاق ، وعلى رأس العجل الناطق وعلى العجائب التي صنعها فاوست في انسبروك أمام ماكسميليان . وهذا يؤكد أن الدافع الذي دفع الى بيع نفسه للشيطان . هو حاجته الى النقود لدفع الديون التي تراكمت عليه من لعب القمار .

كذلك يلاحظ على كتاب «المؤمن المسيحي» هو أنه أول من رسم اسم الشيطان بالرسم الذي سنراه عند جيته وسينتشر وحده فيما بعد ، وهو Mephistopheles بدلا من الصور الأخرى الواردة في الكتاب الشعبي وعند فدمن وبفستر Mephostophiles وMephistophiles وMephistophilis ، الخ .

بقي أن نقول كلمة عما سمي باسم «الجزء الآخر من أخبار الدكتور فاوست» ، والذي ظهر مطبوعا سنة ١٥٩٣ . فنقول أنه ليس الا ترجمة لسيرة التلميذ التابع فجنر وشيطانه المسمى آورهان auerhan . ولسنا نجد فيه شيئا عن فاوست غير ما يرد في الكتاب الشعبي الصادر قبله بست سنوات ، كما انه ينسب الى فجنر بعض المغامرات المنسوبة الى فاوست .

٦
مسرحية مارلو

وأول شاعر استغل سيرة فاوست يصنع منها عملا فنيا هو الشاعر الانجليزي الرائد كريستوفر مارلو Christopher Marlowe المولود في كانتربري في ٦ فبراير سنة ١٥٦٤ لأب اسكافي . ودخل كلية جسد المسيح في كمبردج . وحصل على البكالوريوس في سنة ١٥٨٤ وعلى الماجستير .M.A في سنة ١٥٨٧ أو سنة ١٥٨٨ . وكان فرانسس كت Kett زميلا ومعلما في هذه الكلية ، وكان صوفيا ، وقد أحرق في سنة ١٥٨٩ بتهمة الهرطقة ، وربما كان له تأثير على مارلو الذي سيكون هو الآخر هرطيقا وملحدا . وقبيل سنة ١٥٨٧ ترك كمبردج الى لندن حيث لاقت مسرحياته نجاحا باهرا . وتوطدت الصداقة بينه وبين وولتر رالي Walter Raleigh . واتهم مارلو بأنه من مدرسة الملحدين التي يتزعمها رالي . وقد قتل مارلو في مشاجرة بينه وبين أحد أصحابه يدعى انجرم فرايزر Ingram Frizer في حانة في دبتفورد Deptford في يوم ٣٠ مايو سنة ١٥٩٣ . وكان سبب المشاجرة هو دفع ثمن العشاء والشراب : ففي نوبة غضب هاجم مارلو فرايزر من الخلف ، واذا بفرايزر يطعن مارلو بخنجر ، فقتل مارلو في الحال . وقد برئ فرايزر فيما بعد ، بدعوى أنه كان في حال دفاع شرعي عن النفس .

وأعماله المسرحية أنجزت بين سنة ١٥٨٧ ،١٥٩٣ : وأولها : ١١ تيمورلنك الكبير ، وهي ملحمة بطولية على شكل مسرحية مقسمة الى جزئين ، كل واحد منها في خمسة فصول ، وقد ألفها حوالي سنة ١٥٨٧ ، وطبعت سنة ١٥٩٠ . والثانية هي : «الدكتور فاوست» ، وقد ألفها ١٥٨٨ وطبعت سنة ١٦٠٤ والثالثة هي : «المأساة الشهيرة لليهودي المالطي الثري» ، وقد ألفها على الأرجح سنة ١٥٨٩ ، ومثلت سنة ١٥٩٢ ، وطبعت سنة ١٦٣٣ . والرابعة هي : «ادوارد الثاني» وقد طبعت سنة ١٥٩٤ .

ويهمنا هنا الكلام عن مسرحية فاوست . فنقول فيما يتصل بالنص أنه طبع بعد وفاة مارلو باحدى عشرة سنة بناء على النص الذي كان بين أيدي الممثلين الذين مثلوها ، وهم قد حوروا في النص تحويرا شديدا : فأضافوا ، أو خففوا ، أو كيفوه حسب ذوق الجمهور في المسرح . واذن فنحن لسنا بإزاء نص أصلي كما كتبه مؤلفه . وقد مثلت لأول مرة في سنة ١٥٩٤ .

وثاني مشكلة هي : هل اعتمد مارلو على «الكتاب الشعبي» مباشرة في نصه

الالماني ، أو على الترجمة الانجليزية ، الأرجح أنه اعتمد على الأصل الالماني . وربما كان أول ما لفت نظره الى فاوست قصيدة انجليزية نشرت في سنة ١٥٨٨ وعنوانها : «قصيدة (بلد Ballad) عن حياة ووفاة الدكتور فاوست» . ودعاه الى الاعجاب بشخصية فاوست ما بين كليهما من تشابه في الطباع . فقد كان مارلو شخصية عنيفة حادة المزاج ، متمردا على الاخلاق ، كافرا بالدين ، أنكر وجود الله ، وهزئ بالمسيح ، وسخر من التثليث ، واعتبر موسى نصّابا ، وكان من رأيه أن يسوع المسيح كان أحق بالصلب من برباس . وكان يؤكد أنه لوشاء أن يضع دينا ، لكان هذا الدين خيرا من المسيحية . وكان معجبا بالقادة الدمويين ، ولهذا نراه في مسرحية «تيمورلنك» يبالغ في تمجيده ويعرضه أمامنا جالسا على عربة حربية يجرها ملوك مصفدون بالاغلال ، هم الملوك الذين تغلب على مالكهم ، ونراه يأمر بإحراق المدن ، واغراق الأطفال ، وقتل الأسرى . وفي النهاية يموت تيمورلنك مصابا بداء خفي ، ويصب اللعنات على الآلهة الذين أرادوا الاطاحة به بواسطة هذا الداء .

وأما مسرحية «فاوست» فتتوالى فيها المناظر على شكل لوحات متتابعة تربطها كلمات الكورس وهي تلخص الاحداث التي لا يعرضها مارلو . ويتناوب الحوار المنظوم مع جمل نثرية . غير أن مارلو يحافظ على التقسيم الثلاثي لحياة فاوست كما رواها الكتاب الشعبي :

التعزيم والميثاق ـ الأشعار والمغامرات ـ نهاية فاوست وادانته . وأجمل ما في مسرحية مارلو هذه هو حين يعبر عن المشاعر المتناقضة التي تعتمل في داخل نفس فاوست ، وفي نوازعه الشيطانية ، وعن كراهيته للعلم ، وعن نزوعه الى الجمال المحض ، وعن خوفه من الجحيم .

وتبدأ المسرحية بالجوقة (الكورس) وهي تروي مولد فاوست في رودا Roda وتنشئته في فتمبرج Wittemberg بفضل معونة أبناء عمه الأغنياء ، وحصوله على الدكتوراه في اللاهوت ، وتصوره مغرورا طموحا الى الأمور المادية مما سيدفعه الى احتراف السحر .

بعد ذلك يظهر فاوست على المسرح وحده ، وهو جالس الى مكتبه ، ثم ينطلق في مناجاة لنفسه ، ستكون استهلال كل مسرحية عن فاوست في المستقبل : ففيها يستعرض ما حصله من علوم الواحد تلو الآخر ، وينعتها بأنها كلها باطلة . يقول فاوست :

«نظم دراساتك ، أي فاوست ، وخذ
في سبر أغوار الأمور التي تريد تعليمها ،
واحتفظ بسمت اللاهوتي ما دمت قد بدأت بذلك ،
لكن أنفذ في كل فن الى آخر مداه ،
وعش ومت في مؤلفات أرسطو .
أيتها «التحليلات»[1] العذبة أنت التي استوليت على قلبي .
ان سداد القول هو غاية في المنطق .»

لكنه يتبرم بالمنطق لأنه علم مجرد ، بينما هو يريد الفعل والتأثير في الناس . لهذا يرى أن يدرس الطب ، فيقول :

«كن طبيبا ، أي فاوست ، وكدس الذهب
وخلد ذكرك بعلاج عجيب .
ان الخير الأسمى للطب هو الصحة .»

لكن الطب لم يفلح في ابقاء الانسان حيا الى الأبد ، ولهذا فانه علم قاصر ، كما لم يفلح في رد الموتى الى الحياة ، فهو علم عاجز . فليدع الطب اذن ، وليتطلع الى علم القانون :

وداعا اذن أيها الطب . أين جستنيان ؟[2]

بيد أن القانون ليس الا مماحكات وضيعة ومجادلات شكلية جوفاء . فالأولى اذن دراسة اللاهوت ، بدراسة الكتاب المقدس بشروح القديس ايرونيموس :

«والآن وقد فرغ كل شيء ، فان اللاهوت هو الأفضل :
فامعن النظر جيدا في الكتاب المقدس بترجمة وشرح ايرنيموس»

لكن الكتاب المقدس يقول : «ان جزاء الخطيئة هو الموت... واذا امتنعنا من الخطيئة هلكنا ، وليس فينا فضيلة» لهذا فان اللاهوت لا يقدم لنا من رجاء غير الموت الأبدي :

---

(١) أي كتاب «القياس» وكتاب «البرهان» في منطق أرسطو ، غير أنه يقصد هنا منطق أرسطو بعامة .
(٢) امبراطور بيزنطة الذي أمر بتدوين القوانين في المدونة المشهورة باسمه ، «مدونة جستنيان»

«اذن لا بد لنا أن نخطئ
وتبعا لذلك أن نموت ؟
أواه ، لا بد لنا أن نموت موتا أبديا .
أي مذهب تسمي هذا ؟ ما سيكون ، سيكون ،
ما سيحدث سيحدث ؟ وداعا اذن أيها اللاهوت»

والآن وقد أدان فاوست العلوم علما بعد علم ، لم يبق عليه الا أن يلجأ الى كتب السحر والعرافة .

«أي عالم من الفوائد والسرور ،
والقوة ، والشرف ، وتمام السلطان ،
يوعد به الصانع للسحر المجد في طلبه!»

ان الأباطرة والملوك محدودو السلطان ، ولا سيطرة لهم على عناصر الطبيعة الأولية ، أما :

«الساحر البارع فهو اله قدير ،
هنا ، أي فاوست ، جرب ذكاءك كيما تصير إلها .»

لأنني ـ هكذا يقول عن نفسه :

«سأجعلهم يطيرون الى الهند طلبا للذهب ،
ويفتشون في أعماق المحيط عن لؤلؤ الشرق
ويجوبون أنحاء العالم الجديد
لتحصيل الفاكهة اللذيذة والأطايب الجديرة بالاطراء .»

هذا في الجانب المادي ، أما في الجانب الروحي :

«فسأجعلهم يقرأون لي الفلسفة الغربية ويخبرون بأسرار الملوك الأجانب
وسأجعلهم يحيطون المانيا كلها بأسوار من النحاس ،
ويجعلون نهر الراين السريع يدور حول فرتنبرج الجميلة ...

وسيحرسوننا كالأسود حين نريد ،
مثل فرسان الماين بعصيهم ،
أو مثل مردة لابلند Lapland وهم يركضون الى جانبنا ،
وأحيانا مثل النساء ، أو الفتيات العزباوات ،
اللواتي جباههن السامية تلقي ظلا
على جمال أرواح من الصدر الناصع لملكة الحب »

وتتدافع الاحلام والأماني الشهوانية في نفس فاوست كلما أغرته الأرواح السحرية بما سيظفر به عن طريق السحر :

وأن تستخلص كنوز كل السفن الأجنبية الغارقة ،
« ان الأرواح تخبرني بأنها تستطيع أن تجفف البحر
نعم ، وكل الثروة التي أخفاها أجدادنا
في داخل الأحشاء الضخمة للأرض......
وسأقيم جسرا خلال الهواء المتحرك
لأعبر المحيط مع عصابة من الناس » .

وروح المغامرة التي أثمرت اكتشاف أمريكا تدفعه الى تطلب المزيد :

« سأوصل التلال التي تربط شاطئ افريقية
وأجعل تلك البلاد متصلة بأسبانيا » .

لكن أنى له ذلك :

« لو كان لي من النفوس بقدر ما هنالك من نجوم
لأعطيتها كلها في مقابل أن يصبح مفستوفيلس هذا تابعا لي .
ان في وسعي أن أعطي نفسي ، لأنها ملكي ،
وما دمت مداناً ولا وسيلة لنجاتي ،
ففيم اذن التفكير في اللّه أو في السماء ؟ »

وفي سبيل ذلك يريد أن يعرف كل شيء وينظر بكل أمر : كتاب يستطيع أن يتأمل فيه كل الأعشاب وكل الأشجار التي تنمو على وجه الأرض ، وكتاب آخر رسمت فيه كل الأبراج والكواكب . ويريد أن يكون تحت امرته روح تأتيه بالذهب حين يريد ، وبأجمل النساء حين يشاء ، ويحشد له جمعا مسلحا لتنفيذ أوامره ، ويطلق الرعد والعواصف حسبما يهوى . وبالجملة :

« سأكون امبراطور العالم العظيم »

وفي المناظر التي تتناول استحضار الجن وعقد الميثاق مع الشيطان ، يصب فاوست فيضا من التجديفات ، وفجأة يسأل مفستوفيلس عن الجحيم وسقوط لوسيفر Lucifer وملائكته ويخاطب نفسه يائسا فيقول :

« لقد قسا قلبي ، ولا أستطيع أن أتوب ،
ولأيا ما أستطيع ذكر النجاة ، أو الايمان ، أو السماء ،
بل ان ثم أصداء ترعد في أذني قائلة :
« أي فاوست ، أنت مدان! » « ثم تتراءى السيوف والسكاكين ،
والسم ، والبنادق ، والجبال ، والصلب المسموم
تتراءى أمامي كي أقضي على نفسي .
لقد كان علي أن أقتل نفسي منذ وقت طويل
لولا أن اللذة العذبة تغلبت على اليأس العميق
ألم أجعل هوميروس الأعمى يتغنى لي
بغرام باريس وموت أونون ؟
والمغني الذي شاد أسوار ثيبا
بالاصوات الجذابة من هاربه الشجي
ألم يصحب صوت مفستوفيلس صاحبي ؟
لِمَ يجب أن أموت اذن ، أو أن أيأس يأسا كئيبا ؟
لقد استقرت عزيمتي : ان فاوست لن يتوب أبدا...
تعال ، يا مفستوفيلس ، دعنا نتنازع من جديد ،
ونتجادل حول علم التنجيم الالهي .

خبرني ، هل توجد سموات عديدة فوق القمر ؟
وهل كل الأجرام السماوية كرة واحدة ،
كما هي الحال بالنسبة الى جوهر هذه الأرض المركزية ؟...
شيء واحد... دعني أتولع بك لأشبع نهم قلبي...
أهذا هو الوجه الذي من أجله أبحرت ألف سفينة
وأحرقت أبراج طروادة ؟
أي هيلانة الحلوة ، امنحيني الخلود بقبلة منك!
ان شفتيها تمص روحي ـ انظر الى أين طارت .
تعالي ، يا هيلانة ، وأعيدي الي روحي .
ها هنا سأقيم ، لأن السماء في هاتين الشفتين ،
وكل ما ليس هو هيلانة هو خبث وزبد .
أنت أجمل من نسيم الماء ،
متدثرة في جمال آلاف النجوم! »

لكن الجحيم الحقيقي معنوي :

« أتظن أنني ـ أنا الذي شاهدت وجه الله
وذقت مسرات السماء الخالدة ،
لست معذباً في آلاف الجحيمات
لكن محروما من النعيم الأبدي ؟ »

وفي جداله مع مفيستوفيلس ، حول الأخرويات ، نجد فاوست أكثر تشككا من الشيطان . انه يحاول أن يثبت للشيطان أنه لا يوجد جحيم ، وما الجحيم الا خرافات عجائز ، وانه ليس بعد الموت شيء الا العدم . ولا ينقذ فاوست من الانتحار الا جمال شِعر هوميروس وغناء الهارب اليوناني القديم . وفي هذا نجد ملامح عصر النهضة الأوربية واعجابه بالشعر اليوناني القديم .

ويتأرجح فاوست بين التجديف وبين التوبة والاعتذار عن الكفر . لكنه ما يكاد يذكر اسم المسيح حتى يحمله الشيطان على التجديف من جديد وبصورة أشد :

«ويقسم فاوست بألا يتطلع أبدا الى السماء ،
وبألا يذكر الله ، أو يصلي له ،
وبأن يحرق كتب الله ، ويذبح كهنته ،
ويجعل أرواحه تدمر كنائسه .»

أما في القسم الثاني من مسرحية «الدكتور فاوست» لمارلو فإن المؤلف يحاول أن يكون أقل عنفا . يسافر فاوست ومفستوفيلس قاصدين روما ، مارين بتريفس ، وباريس ، وماينتس ، ونابولي ، والبندقية وبادوفا ـ وهو المسار نفسه الذي حدده «الكتاب الشعبي» المطبوع سنة ١٥٨٧ . ويصلان الى روما ، وهنا يهزآن بالبابا وكرادلته ، ويحطمان الصحون والكؤوس ، ويوزعان على القديسين ، وكان الوقت وقت احتفال بعيد القديس بطرس ، وهو ما تخبر به الجوقة في استهلال الفصل الثالث .

وكان البابا أدريان والامبراطور شارل في حرب مع بعضهما البعض وكان هناك بابا مضاد يدعى برونو Bruno ، وقد سجن وقيد بالأغلال عند قدمي أدريان . وكلف كردنالان بالبحث عن العقوبة التي يستحقها البابا المضاد تبعا لقرارات مجمع ترنت .

فيظهر فاوست ومفستوفيلس على هيئة هذين الكردنالين ويعلنان الحكم على البابا المضاد بالاعدام ، ويكلفان بوضع البابا المضاد في السجن ، لكنهما يطلقان سراحه ويجعلانه يعود في حماية الامبراطور الى مقر بابويته .

وهذا المشهد لا يوجد في «الكتاب الشعبي» ولم يقع في واقع التاريخ ، وانما اخترعه مارلو ليجعل دور فاوست في بلاط البابا . أكبر أهمية ، ولا يقتصر على تلك النوادر المضحكة الموجودة في «الكتاب الشعبي» .

استحضار الاسكندر الأكبر وزوجته أمام الامبراطور ، والأعمال السحرية التي قام بها فاوست في بلاط انهلت Anhalt قد أوردها مارلو بحسب ما هي واردة في «الكتاب الشعبي» . أما الرحلة الى بلاط سلطان الأتراك في القسطنطينية فيشار اليها مجرد اشارة في كلام قاله مفستوفيلس ، لكنها لا تظهر في المسرحية .

وفي بلاط الامبراطور لا يكتفي فاوست باستحضار الاسكندر الأكبر ، بل يستحضر أيضا داريوس ملك الفرس . ونشاهد الاسكندر يقتل داريوس ويقدم تاج الملك القتيل الى زوجته . ويعرف الامبراطور شارل هذه الزوجة من وشمة صغيرة في رقبتها .

ومن بين الألاعيب السحرية التي يرويها «الكتاب الشعبي» أخذ مارلو ثلاث ألاعيب

في مقابل الأعمال السحرية السامية التي قام بها فاوست أمام الامبراطور والدوق والدوقة في انهلت ، وهي : ما فعله الفارس بقرن الغزل ، وبائع الفرس مع تجارة الخيول ، والفلاح مع عربة التبن . ويلاحظ بوجه عام أن مارلو كان يجعل تعارضا وتقابلا بين المشاهد السامية والاسيانة من ناحية ، وبين المشاهد الهزلية التهريجية من ناحية أخرى ، وهذه الأخيرة تجري مع الكلاب وفجنر وروبين ، وروبين ودك وأناس من خشارة القوم .

يحتفل فاوست مع تلاميذه بوليمة وداع ، يحضرها الجن تحت قصف الرعد ولألاء البرق . وبناء على رغبة أحد الحاضرين الذي تمنى أن يشاهد فاتنة اليونان ، هيلانة ، بعد أن جرى الحديث عن أجمل النساء فقام فاوست واستحضرها أمامهم .

ويحاول شيخ عجوز أن يجعل فاوست يتوب ، محذرا اياه من عقاب السماء . فتستيقظ الرغبة في التوبة في نفس فاوست . لكن ما يلبث مفستوفيلس أن يجعله يعدل عن التوبة ، ويرغمه على كتابة ميثاق جديد . وهكذا صار تحت سلطان الشيطان من جديد ، ورغب في الانتقام من ذلك الشيخ الذي أراد له التوبة طلبا لنجاة روحه ، ويطمع في الحصول على هيلانة ، فيلبي مفستوفيلس طلبه هذا . وما تكاد هيلانة تظهر له حتى ينسى الدنيا والآخرة والجحيم الذي ينتظره . ويبلغ فجوره أوجه ، والمدة المحددة للعقد مع الشيطان ـ وهي ٢٤ عاما ـ تنتهي .

وفي الختام يظهر ملكان يعلنان عن سوء مصير فاوست . وتدق الساعة الحادية عشرة ، وبقلق بالغ يود فاوست أن يقف الزمان ، وأن تتحرك الساعة الباقية من حياته الى سنة ، الى شهر ، الى أسبوع ، الى يوم واحد ليستطيع أن يتوب وينقذ روحه من مصيرها الأليم المحتوم!

لكن عبثا وتدق الحادية عشرة والنصف ، فيتمنى شعاعا من الرجاء . وها هو ذا يلعن نفسه التي باعها .

ثم تدق الساعة الثانية عشر ليلا! فيود لو كان قطرة من الماء تجري في بحر العالم ، حتى يتخلص من الشياطين الذين جاءوا لأخذ جسده . وعلى جثته تنوح الجوقة ناعية السقوط العميق لهذا الانسان الذي تطلع الى الاعالي :

« قطع الغصن الذي ربما كان سينمو في استقامة تامة

وأحرق غار أپولو

الذي اخضوضر في روح هذا الانسان العالم طوال فترة الزمان » ولم يحاول مارلو انقاذ فاوست ، لأن مارلو بروحه الاسيانة المتشائمة كان يرى أن على البطل الأسيان أن يمضي الى الهلاك جزاء وفاقا لبطولته .

وكما قال تين Taine عن شخصية فاوست عند مارلو : «ذلك هو الانسان الحي ، الفعّال ، الطبيعي ، الشخصي ، وليس ذلك الرمز الفلسفي الذي صنعه جيته ، بل الانسان الذي على الفطرة ، الصادق ، الانسان الغضوب ، المشبوب ، المستعبد لاندفاعه ، وألعوبة أخلاقية ، حاضر كل آن ، مملوء بالشهوات ، والمتناقضات وألوان الجنون ، والذي برعدات وانفجارات ، وصيحات الشهوة والقلق ، دار ، عن علم وإرادة ، على منحدر هاويته وأشواكها »[١] .

٧
فاوست على مسارح الجوالة المسرحية الشعبية

وبعد مسرحية مارلو توالت المسرحيات على فاوست باعداد مذهلة ، حتى انه ألفت ٤١ مسرحية عن فاوست قبل ظهور مسرحية جيته . وكانت الفرق المسرحية الانجليزية ، التي صارت تجوب أنحاء المانيا في نهاية القرن السادس عشر وطوال القرن السابع عشر هي التي أدخلت الى المانيا مسرحية فاوست تأليف مارلو .

وتحت تأثيرها قام أصحاب المسرح الشعبي الألماني الجوال بوضع مسرحيات موضوعها فاوست . وهذه المسرحيات فيها بعض المشاهد والشخوص المستمدة من مارلو مباشرة . وقد لخص كونو فشر[٢] هذه المواضع في أربع فقط :

١- مناجاة فاوست ، وبها تبدأ المسرحية ،

٢- ظهور الملك...

٣- تبادل المشاهد المأساوية مع المشاهد الهزلية ، وادخال المهرج شخصا رئيسيا في المسرحية ،

٤- الاعلان عن النهاية الأليمة لفاوست بواسطة دقات الساعة .

ولا نستطيع أن نحدد بداية هذه المسرحيات الشعبية عن فاوست . فيقال أن أولاها هي مسرحية «الفطنة الشقية» Infelix Prudentia التي قيل انها صدرت في ليبتسك سنة ١٥٩٨ ـ لكنها فقدت ولا يعرف عنها أحد شيئا . ويتلوها مسرحية مثلت في جراتس Gratz (النمسا) في سنة ١٦٠٨ يبدو أنها تكييفا لمسرحية مارلو .

وطول قرن ونصف ـ أي الى مسرحية لسنج عن فاوست ـ ظل الممثلون الجوالة الألمان يمثلون مسرحيات عن فاوست ، تعرف أنباؤها من بعض الاعلانات وروايات

---

(١) HippoliteTaine: Hist. de La Litterature anglaise, T.I.p. 467. Paris, 1863.

(٢) Kuno Fischer: Goethes Faust, I, 5. Aufl. 1904, P. 363

المشاهدين . ومنها نعرف أن مسرحيات عن فاوست مثلت في : جراتس (سنة ١٦٠٨) ، ودردسن (سنة ١٦٢٦) وبراغ (سنة ١٦٥١) ، وهانوفر (سنة ١٦٦١) ، ولونبورج (١٦٦٦) ، ودانتسج (سنة ١٦٦٩) ، وفينا (سنة ١٧١٥) ، و(سنة ١٧٣٠) ، وهامبورج (سنة ١٦٩٨ ، سنة ١٧٤٢ ، سنة ١٧٤٦) ، وكينجزبرج (سنة ١٧٤٠) ، وفرانكفورت (١٧٤١ ، ١٧٤٢ ، ١٧٦٧) ، واشتراسبورغ وليبتسك ، وهامبورج (سنة ١٧٧٠) . ـ وهذا يدل على ولع الشعب الألماني بشخصية فاوست . وفي هذه المسرحيات الشعبية نجد استهلالا في العالم السفلي لا يوجد في «الكتاب الشعبي» ولا في مسرحية مارلو ، لكننا سنجده عند لسنج ، وملر ، وكلنجر ، بيد أن جيته سينقل هذا الاستهلال الى السماء ويجعل منه افتتاح المسرحية .

كما قلنا فان المسرحية الشعبية مثلت في فرانكفورت في السنوات ١٧٤١ ، ١٧٤٢ ، ١٧٦٧ . وجيته ولد في سنة ١٧٤٩ فلم يكن له أن يشاهد التمثيل الأول ولا الثاني ، أما في سنة ١٧٦٧ فكان في ليبتسك طالبا في جامعتها ، ولم يشاهد أيضا التمثيل الثالث .

ولهذا فمن المقطوع به أن جيته لم يشاهد تمثيلا لمسرحية فاوست ، وانما شاهد فقط عرض مسرح العرائس الذي سنتحدث عنه بعد قليل .

والمسرحية الشعبية الألمانية عن فاوست ليست من عمل شاعر ، بل هي من صنع ممثلين اقتبسوها من مسرحية مارلو ومن «الكتاب الشعبي» وفقا لمزاجهم المشايع لجمهورهم ، ومن هنا أجروا ما شاءوا من التعديلات التي توافق ذوق هذا الجمهور ، وتنحو كلها الى اشاعة جو من الفكاهة والتهريج والمرح في الجو الأصلي الكئيب لحياة فاوست . فنجد في المقام الأول ازدياد دور المهرج بعد ان كان دوره عابرا جدا في مسرحية مارلو . ونجد مشاهد شعبية مرحة .

وشخصية المهرج كانت معروفة في المسرح الايطالي باسم Arlecchino ، وعرف في المسرح الالماني الشعبي باسم Hanswurst (وفي صورته الأقدم Hans Worst) ، وصار من أحب الشخصيات المسرحية الشعبية الى قلوب الشعب الألماني منذ قرون عديدة . وكان يدل على الفلاح الأبله الماكر معا ، كما يتجلى في تمثيليات الكرنفال في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وفي كوميديا «سقوط آدم» لمؤلفها جيورج رولز Georg Rolls (سنة ١٥٧٣) يمثل هو وهانزهان Han الى جانب اللّه الأب والابن ، وفي مسرحية بعنوان : «الابن الضال» (سنة ١٦٩٢) نجده يتشاجر مع قديس ومع شيطانين . ومن أشهر من مثلوا

دور المهرج على مسارح فينا : استرانتسكي Stranitzky (١٦٧٦ ـ ١٧٢٦) ثم جوتفريد بريهاوزر Prehauser الذي بدأ التمثيل في سنة ١٧٢٠ . وفي شمال ألمانيا تألق في هذا الدور فرانتس شوخ Franz Schuch

ثم الغي دور المهرج تحت تأثير جوتشد Gottsched ابتداء من سنة ١٧٣٧ ، وفي فينا الغي دوره شيئا فشيئا : من مسارح المدن الكبرى أولا ، غير أنه ظهر في مسارح الضواحي عند نهاية القرن الثامن عشر في النمسا باسم « كسبار » Kaspar (le) وصارت مسرحية فوست الشعبية لا تمثل دون أن يصحبه خادمه كسباره ، وارتبط كلاهما حتى صارا مثل دون كيخوته ، وسنشو ، أو دون خوان ولبورلو Leporello .

كذلك عدلت شخصية مفستوفيلس فلم يعد يظهر على شكل راهب ، بل على شكل فرس . وبدلا من قصر الامبراطور حيث تمارس ألاعيب السحر ، صار ذلك يجري في قصر دوق بارما ، وبارما فصلت عن بيت آل هبسبورج منذ صلح آخن ، فصار من الممكن اجراء هذه الألاعيب السحرية في بلاط دوقها .

وقد مثلت المسرحية الشعبية في ١٤ يونيو سنة ١٧٥٤ في برلين في مسرحية شوخ ، وشاهدها هناك لسنج لكنه لم يجد فيها أي جانب مأساوي كما قال في رسالة له بتاريخ ١٩ نوفمبر سنة ١٧٥٥ .

٨
مسرحية العرائس

ومع نهضة المسرح الجاد في ألمانيا في الثلث الثاني من القرن الثامن عشر ، أخذت المسرحيات الشعبية في الزوال . وتحول بعضها الى مسرح العرائس .

وأول تمثيل لفاوست كمسرحية عرائس هو في سنة ١٧٤٦ ، ولايزال يوجد لدينا حوالي ١٢ سيناريو لمسرحيات عرائس تدور حول فاوست . أول هذه المسرحيات العرائسية هي تلك التي مثلت في مدينة ألم Ulm ، وفيها يسمى المهرج كما في المسرحيات الانجليزية Pickel Haering (طرشي رنجه) ، أما في نصوص جيسلبرشت Geisselbresht وشولتن دريهر فيسمى Caspar كما في مسرحيات فينا ، وفي النصوص التي مثلت في أوجسبورج وكيلن (كولونيا) واشترسبورج نجد اسم : هانز فورست . ونص اشتراسبورج وحده هو الذي يجعل فاوست هو Fust مساعد مخترع الطباعة الشهير جوتنبرج ، ويجعل

الاحداث تجري في ماينتس . أما في سائر النصوص لمسرحيات العرائس فان فاوست هو الدكتور في اللاهوت والأستاذ في فتمبرج . ونص ألم Ulm يضع استحضار الاسكندر الأكبر في بلاط «ملك براغ» ، أما سائر النصوص فتشايع ما جرى عليه الأمر على مسارح فينا من نقل هذا المشهد الى بلاط دوق بارما . وتسمى هذه المسرحيات اما باسم الممثلين (جيلبرشت وشوتي وديهر) أو باسم المدن التي مثلت فيها . كما يلي :

١- استهلال في العالم السفلي ،
٢- مناجاة فاوست ،
٣- الحوار بين روح الشر وروح الخير ،
٤- تدخلات هزلية من المهرج كسبار أو هانز فورست ،
٥- منظر يؤتى فيه بالكتاب السحري الى فاوست ،
٦- تعزيم وميثاق ،
٧- رحلة في الهواء ،
٨- محاورات مع مفستوفيلس تدور حول السماء والأرض والجحيم ،
٩- استحضار أموات كبار في بلاط براغ أو بارما ،
١٠- هيلانه يستحضرها مفستوفيلس ، كما في «الكتاب الشعبي» ، وليس فاوست كما في مسرحية مارلو ،
١١- وفي الختام مأدبة مع التلاميذ ، وأحزان فاوست ، كما في «الكتاب الشعبي» ،
١٢- نذر السماء توقعها الدقات الأخيرة للساعة من الساعة الحادية عشرة حتى منتصف الليل ، على النحو الذي ابتدعه مارلو ،
١٣- والكلمة الأخيرة هي في العادة للمهرج ، وهو يغني الأغنية التقليدية للحارس الليلي .

وشخصية المهرج تحتل المكانة الأولى وقبل فاوست نفسه ، فهو أبرع من فاوست لأنه وبدون دراسة استطاع أن يحضر ويطرد الأرواح بواسطة دائرة سحرية والنطق بهذا اللفظ Perlippe و Perloppe . وهو يسافر على أريكة طائرة ، ويستفيد من كل شيء .

وهكذا تحولت «مأساة فاوست» على مسرح العرائس الى «كوميديا فاوست» . ولم يبق من مسرحية مارلو أو «الكتاب الشعبي» الا الهيكل العظمي . وصارت هذه المسرحية أداة للتسلية والتلهية واضحاك الناس[1] .

---

(١) راجع عن مسرح العرائس وفاوست كتاب .

Creizenach: Versuch Liner Geschichte des. Volksschauspiels Von Doctor Fause. Halle, 1878

ونصوص مسرحيات العرائس هذه مختلفة باختلاف الزمان والمكان ، وقد اختلطت فيها مو ضع حديثة من المسرحيات الشعبية مع مواضع أقدم .

٩
لسنج ومحاولته تأليف مسرحية عن فاوست

لكن جاء لسنج (١٧٢٩-١٧٨١) فأنقذ فاوست من هوة المهانة التي انحدر اليها في مسرحيات الشعبية والعرائسية اذ رأى في فاوست ما يحقق ما يصبو اليه من الرجوع الى ينبوع الروح الجرمانية الأصيل ، ابتغاء النهوض بالأدب الألماني .

وفي سبيل ذلك رأى أن يستلهم شيكسبير والمسرح الانجليزي بعامة «لأن الذوق الألماني - كما قال - أقرب جدا الى الذوق الانجليزي منه الى الذوق الفرنسي ، ونحن نطالب مسرحية بأن تقدم الينا أشياء للرؤية والتفكير أكثر مما تقدمه المأساة الفرنسية الى عيوننا وعقولنا . ان ما يفعل فينا هو العظمة ، والخوف ، والحزن ، أولى من التأدب ، والرقة والتطف[١]» . ويؤكد هذا المعنى مرة أخرى فيقول : «ان العبقرية لا تتلقى الالهام الا من عبقرية . وبحسب نموذج الأقدمين ، فان شيكسبير شاعر مآس أعظم بكثير من كورني Cornaille ، على الرغم من أن هذا الأخير (كورني) عرف الأقدمين جيدا ، بينما الأول (شيكسبير) لا يكاد يعرف عنهم شيئا .» ويمضي في تمجيد شيكسبير فيقول : «بعد مسرحية أوديب» لسوفكليس ينبغي ألا يكون لأية مسرحية أخرى في العالم تأثير على مشاعرنا من تأثير مسرحيات «عطيل» «والملك لير» و«هاملت» الخ» .

ويستمر قائلا : «أما أن مسرحياتنا الألمانية القديمة فيها الشيء الكثير جدا من المسرح الانجليزي : فهذا أمر أستطيع البرهنة عليه بسهولة ، ويكفيني أن أذكر أشهرها : «دكتور فاوست» : أن فيها قدرا من المشاهد لا يستطيع أن يبتكرها غير عبقرية شيكسبيرية . وكما كانت ألمانيا ، ولاتزال الى حد ما ، مولعة برجلها الدكتور فاوست! ،

فكان طبيعيا اذن أن يفكر لسنج في تأليف مسرحية جادة أدبية عالية الأسلوب عن دكتور فاوست . وكان ذلك «واجبا شعريا قوميا» عليه - بحسب تعبير كونوفشر[٢] .

وفعلا فكر لسنج في تأليف مسرحية عن فاوست ، منذ أيام صداقته مع نيقولاي ومع

---

(١) Lessing: Briefe, die neveste Litera t. urbetreffend. Xvll. Brief

(٢) الكتاب المذكور ص ٢٩٧ .

مندلزون Mendelssohn ، وظل لعدة سنوات الى قرب نهاية فترة اقامته في هامبورج يحاول تأليفها . وكان من المفروض أن تمثل في برلين في سنة ١٧٥٨ . لكن العمل كان يسير فيها ببطء شديد ، ثم توقف . وعاد واستأنفه بعد ذلك بتسع سنوات على أمل أن تمثل في سنة ٧٨/١٧٦٧ . لكن بقي الحال على ما كان .

وقد سرت شائعة مفادها أن لسنج أتم تأليف مسرحية فاوست ، وأرسل مخطوطها في صندوق الى ليبتسك ، في مارس سنة ١٧٧٥ ، لكن الصندوق فقد في الطريق بين درسدن وليبتسك .

ولا يصدق كونوفشر هذه الشائعة ، على أساس أن رد لسنج على صديقه ابرتEBERT الذي سأله عما جرى في مسرحيته ، في خطاب بتاريخ ١٨ أكتوبر سنة ١٧٦٨ ، يؤذن بأن لسنج تخلى نهائيا عن مشروعه هذا .

وفي منتصف القرن التاسع عشر سرت أكذوبة تزعم أنه قد عثر على «فاوست» لسنج ، وأحدث النبأ ضجة كبيرة ، لكن تبين أن هذه المسرحية ما هي الا مسرحية ملفقة ، كتبها أديب من فينا يدعى باول فيدمن ، وطبعت في براغ سنة ١٧٧٥ ، وأعيد طبعها في منشن (ميونخ) ، ثم جاء انجل رَلثم فأعاد طبعها في سنة ١٨٧٧ .

لكن لدينا شذرة مما كتبه لسنج في محاولته هذه ، ولدينا أنباء عن الخطة العامة التي وضعها لها . لقد كان يريد كتابتها في قسمين هما : فاوست الأول ، وفاوست الثاني ، كما سيفعل جيته فيما بعد ، وفرق بينهما على أساس أن فاوست الاول ستكون بحسب الحكاية المشهورة ، أما فاوست الثاني فستخلو من كل الشيطانيات . اذ يصبح الشيطان أو المغرر في «فاوست الثاني» انسانا تام الانسانية ، والشعر نفسه يتخذ طابع المأساة البورجوازية . وهذا الشيطان الانساني سيتصرف تصرفات ألمح الى بعضها لستنج في كتابه Gollectaneen («مجموعات») بايراد أمثلة .

أما «فاوست الأول» فسيشاهد في الحلم لا في الواقع ـ ما نسب اليه «الكتاب الشعبي» والمسرحيات الشعبية من أعمال وتصرفات . وكما قال كونوفشر (الكتاب نفسه ص ٤٠٢) ربما كان لسنج قد أراغ الى تطبيق فكرة مسرحية «الحياة حلم» تأليف كالدرون على مسرحيته هو عن فاوست .

أما الشذرة التي تبقت لنا من مخطط لسنج عن فاوست فخلاصتها أنه في كاتدرائية عنيفة عند منتصف الليل جمع بحلزبوب أرواح الجحيم في جلسة استشارية . وأخذ كل واحد منهم يروي الأعمال الشريرة التي قام بها : فأفتخر واحد بأنه قام بعمل شرير عظيم وهو أنه

عبر قديسا ويريد خلال فترة قصيرة أن يغرر بفاوست ، وخطيئة فاوست الوحيدة هي أنه طموح الى معرفة لا حد لها . وافراط هذا الطموح سيودي به ، ومن خطأ واحد يمكن أن تصدر كل الأخطاء .

ونجد فاوست مستغرقا في حل المشاكل ، ويستحضر الشيطان ليحل له هذه المشاكل . هنالك يظهر له روح الجحيم السالف الذكر على هيئة أرسطو طاليس ، ويجيب على المشاكل التي استعصت على فاوست . ويتلو هذا الحوار استحضار آخر للأرواح ، بعده يتجلى له شيطان .

وفي المشهد الثالث من الفصل الثاني سيحضر فاوست الأرواح السبع الأسرع في الجحيم .

وعلى أولهم أن يقول هل يستطيع أن يخترق نيران الجحيم سبع مرات بسرعة مماثلة لسرعة مرور اصبع فاوست في النار دون أن يحترق ؟ لكن الروح تسكت ويبقى . والروح الثاني سريع كسرعة أسهم الطاعون ، والثالث له جناح الريح ، والرابع يركب شعاع الضوء ، والخامس سريع سرعة خواطر الانسان . فقال فاوست : «هذا شيء وجيه ، لكن خواطر الانسان ليست سريعة ، حين تتطلب الحقيقة والفضيلة ذلك .» والروح السادس سريع سرعة انتقام المنتقم «القوي ، المخيف الذي لا يفقه الا الانتقام لأن الانتقام يرضيه» . والسابع سرعته «ليست أكبر ولا أقل من الانتقال من الخير الى الشر» . فصاح فاوست : «أنت شيطاني! أنت السريع كسرعة الانتقال من الخير الى الشر! نعم هذا هو السريع ، وليس ثم من هو أسرع منه! اغربوا من هنا يا حلازين أوكوس! امشوا! بسرعة الانتقال من الخير الى الشر! لقد جربت كم هذا سريع! نعم ، لقد جربته» .

وهذا هو المشهد الوحيد الذي نشره لسنج في الرسالة الأدبية بتاريخ ١٦ فبراير سنة ١٧٥٩ ضمن «الرسائل الخاصة بالأدب الأحدث» ، التي كتبها ونشرها سنة ١٧٥٩ .

ويبدو من التخطيطات التي تركها لسنج والتي نشرت في سنة ١٧٨٦ بعد وفاته ، أنه أراد أن ينجي فاوست في النهاية ، لأن فاوست يمثل النزعة العارمة الى البحث العلمي . ولما كان لسنج من أكبر دعاة نزعة التنوير في ألمانيا ، فقد كان يرى أن حب الاستطلاع العلمي يجب أن يجازى بالاحسان لا بالإدانة والالقاء في الجحيم .

ولهذا فان لسنج في مشروعه هذا قد جعل الخاتمة بحيث يصيح أحد الملائكة في وجه الشياطين : «لا تحسبوا أنكم انتصرتم ، انكم لم تتغلبوا على الانسانية وعلى العلم ، والألوهية لم تمنح الانسان أنبل الغرائز من أجل جعله شقيا الى الأبد .»

فكان لسنج بهذا أول من دعا الى خلاص فاوست ونجاته ، بدلا مما جرى عليه الأمر حتى الآن منذ « الكتاب الشعبي » وحتى مسرحيات العرائس من ادانة فاوست وجعل مآله الجحيم جزاء وفاقا لبيعه نفسه للشيطان[١] .

وممن زودونا بأنباء عن معالجة لسنج لموضوع فاوست : قائد بلانكنبورج Haupt-mann von Blankenburg من ليبتسك ، في تقرير كتبه بتارخ ١٧ مايو ١٧٨٤ ، وأنجل En-gel من برلين في رسالة كتبها الى كارل لسنج ، شقيق لسنج ، وقد نشرها كارل في « المخلفات المسرحية للسنج » سنة ١٧٨٦ .

وبحسب رواية بلانكنبرج كان لسنج يتصور مشروع مسرحيته هكذا : أرواح الجحيم تتباهى بأعمال الشر التي ارتكبتها . ويقول أحدهم أنه وجد على الأرض رجلا لم يفلح هو في افساده ، رجلا خلا من كل ضعف وشهوة ، وليس لديه من نوازع غير نزعة واحدة هي التطلع الدائم النهم الذي لا يشبع الى المعرفة ، فصاح رئيس الشياطين : اذن هذا رجلي . وسيظل لي أبدا . ويلعب مفستوفيلس الدور الرئيسي ، لكنه في النهاية ، لا يحقق الا نصرا وهميا ولما يتباهى أرواح الجحيم عند نهاية الفصل الأخير ، يصيح صوت من السماء قائلا : « لا تحسبوا انكم انتصرتم ، انكم لم تتغلبوا على الانسان ، وعلى العلم ان الألوهية لم تمنح الانسان أنبل الغرائز من أجل جعله شقيا الى الأبد . ان ما شاهدتموه وتحسبون الآن أنكم تمتلكونه ، لم يكن الا خيالا ووهما! » .

أما بحسب رواية انجل Engel فان الرابع من بين الشياطين لم يفعل أي فعل ضار ، كل ما هنالك أنه كانت لديه فكرة أكثر شيطانية من أفعال الآخرين . قال : « أريد أن أسلب من الله محبوبه العزيز! وهو شاب متوحد مفكر انصرف بكل همه الى الحكمة ، لا يتنفس الا من أجلها ، ولا يستشعر غيرها ، وقد تخلى عن كل شهوة غير شهوة الحقيقة » .

« لقد تسللت من كل ناحية حوالي روحه ، بيد أني لم أجد فيه ضعفا واحدا ، استولى عليه بواسطته » . ويتساءل الشيطان الأكبر : « أليست لديه نزعة استطلاع للعلم ؟ » . فيجيب الشيطان الرابع قائلا : « أكثر مما عند أي كائن فان! » فيقول الشيطان الأكبر « اذن دعه لي أنا ، فهذا يكفي لافساده وستقوم كل الأرواح الشيطانية بدور في تحقيق هذا الغرض . وهناك يصيح صوت من الأعالي بجلال ورقّة : « لا ينبغي لكم أن تنتصروا » .

---

(١) فيما يتعلق بلسنج وما كتبه عن فاوست راجع :

- Erich Schmidt: Lessing. Berlin. 1884. 1886.

- R. Pesch: Lessings Faustdichtung. Heidelberg. 1911

لكن على الرغم من أن محاولة لسنج هذه لم تكن الا مخططا أوليا ، فقد أثر في تأليف جيته لمسرحيته في عدة نواح : منها انقاذ فاوست من الادانة والجحيم ، ومنها الحوار الاستهلالي بين الشياطين وزعيمهم ، ثم صوت السماء الذي ينبههم الى أن انتصار الشيطان كان مجرد وهم .

بيد أن جيته عدل في تصور هاتين النقطتين تعديلا هائلا حاسماً .

١٠

فاوست كما تصورته حركة «العاصفة والاندفاع»

لكن نزعة التنوير في المانيا بتمجيدها للعقل والانسانية بعامة قد أعقبتها حركة مضادة عنيفة هي حركة «العاصفة والاندفاع» Sturm und Drang ، راغت الى تمجيد الغريزة والعاطفة على حساب العقل ، والى اطلاق العنان للمشاعر العارمة التي تحدها قيود الدين أو التقاليد أو الحكمة ، والى تجاوز القواعد الكلاسيكية في الفن ، والى التماس النماذج البشرية في الشخصيات الغريبة القلقة .

وأية شخصية أنسب من فاوست لتجسد هذا النموذج! يقول الرسام ملر Maler Müller : «منذ نعومة أظافري كان فاوست أحد الأبطال الأثيرين عندي ، لقد شعرت عنده بفتى لديه الشعور بقوته ،ويتململ من القيود التي فرضها القهر والحظ عليه ، وقد أراد أن يحطمها ، فسعى في ذلك جاهدا ، وكان من الشجاعة بحيث حطم كل ما اعترض سبيله ، ومن اشتعال القلب بحيث يحب شيطانا يقترب منه بصراحة وثقة . والصعود الى أعلى درجة مستطاعة ، وأن يكون المرء كل ما في مستطاعه أن يكونه ـ هذان أمران طبيعيان . وكذلك التمرد على المصير وعلى العالم الذي يضايقنا وتخضع لتقاليده ارادتنا الفعالة... ان في الحياة لحظات ـ ومن منا لم يشعر بها! فيها يترفع القلب الى أسمى مما هو عليه ، وفيها الانسان ، ذو القلب الكبير الرائع الكامل ، يحلم بأن يتجاوز نفسه باستمرار» .

فألف ملر مسرحية عنه بعنوان : «حياة فاوست ممسرحة» (سنة ١٧٧٨) . فيها يظهر فاوست انسانا أعلى ، ولد في زوندفيدل Sondwedel وعاش في انجولستادت ـ على غرار فاوست فيدمن وبفستر ـ وهوى القمار فأبهظت كاهله الديون وطارده الدائنون ، فلم يجد خلاصا الا ببيع نفسه للشيطان ليحصل منه على المال . وتكثر في هذه المسرحية المشاهد الجهنمية ، والمشاورات والمؤامرات الليلية بين الجن في اطار مروع ، وفيها مواضع كثيرة

من السخرية الأدبية ضد كرستوف كاوفمن ، عالم الفراسة السويسري ، وضد حضارة العصر ، وقد خلا من الأبطال : أبطال الفضيلة ، وأبطال الرذيلة معا ، حتى صار عالما من الخنازير ، ومن الصعاليك والأدعياء . كذلك نجد فيها مشاهد مؤثرة بين فاوست وأبيه الشيخ العجوز ومشاهد هزلية مضحكة بالرطانة اليهودية ، ونوادر عن الطلبة وحياة الرسامين .وقد اختلط ذلك كله وتشوش . وينتهي الجزء الأول بظهور مفستوفيلس لأول مرة . ذلك أن ملر كان في نيته أن يصدرها في ثلاثة أجزاء . بيد أنه لم يتم الا الجزء الأول وحده .

والمحاولة الثانية لاتباع حركة العاصفة والاندفاع ، هي تلك التي قام بها لنتس Lenz بعنوان : « قضاة الجحيم » (سنة ١٧٧٧) . لكنها لم تتم ، ولم يبق لدينا منها غير صفحتين . وفيها يبدو فاوست حزينا ، قد ألقى به في العالم السفلي ، وها هو ذا يبكي حاله ، وفي داخل نفسه حنان شديد الى الحب والرحمة . ان مياه نهر العالم السفلي قد رفضت أن يحبني ويشفق علي ، بل على الأقل أن يحتملني الى جانبه وأنا في هذا الشقاء الذي لا نهاية له ؟! » .

غير أن صوتا يرتفع ويعده بالخلاص : « أي فاوست! ان قلبك كان عظيما ، وأنت قد تحررت من المصير! » . وكان لنتس شاعرا رقيقا سوداوي المزاج ، وقد استولى عليه الجنون وهو في سن الثامنة والعشرين . والمحاولة الثالثة كانت قصة بعنوان : « حياة فاوست وأعماله والرحلة الى الجحيم » (سنة ١٧٩١) تأليف كلنجر Klinger .

وفيها يبدو فاوست عبقرية عظيمة لم يقدرها الناس . وحساسيته المشبوبة ، وخياله الجامح هما السبب في اصطدامه المستمر ببلايا المجتمع وشروره مشاركا فيها أو مجرد مشاهد . ومن ثم يكثر فيها الكلام عن المشاكل الاجتماعية ويسودها روح التمرد على المجتمع . ويزعم كلنجر أنه لا يدين لأسلافه في هذا الموضوع بشيء ، ذلك لأنه لا يقتبس من « الكتاب الشعبي » ومسرحيات العرائس الا أمورا عامة ونوادر تافهة : فاوست عالم وساحر ، صحبه شيطان اسمه لوياثان (وليس مفستوفيلس) ، يزوده بمسرات سهلة ، ويمكنه من القيام بأسفار بعيدة في مقابل أن يقبض على روحه فيما بعد . وعلى هذا يقتصر التشابه بين قصة كلنجر عن فاوست وما ورد في « الكتاب الشعبي ومسرحيات العرائس » .

ونجد فاوست في القصة ـ على خلاف سائر الفاوستات ، ان صح هذا التعبير ـ متزوجا وذا أولاد . وقد أثبت النقد أن كلنجر اقتبس الكثير جدا من مؤلفين عديدين : من ملتن Milton وكلوبستوك Klopstock ولسنج فيما يتعلق بالمشاهد في الجحيم والمجالس التي عقدها الشياطين وما تبادلوه فيها من كلمات ، ـ ومن ملر ولافاتر Lavater في الفصل الذي

يدور فيه اللقاء مع عالم فراسة سويسري ، ـ ومن فولتير وروسو وفيلند Wieland فيما يتعلق بثورة فاوست على النظام الاجتماعي وعلى الدولة وعلى الكنيسة ، بل وعلى المدنية كلها .

وفاوست في قصة كلنجر شاب جميل وافر المواهب خصب الخيال مشبوب الحساسية . وهذا ما جعله يضيق بالحدود التي فرضها المجتمع والمدنية . وهو الذي اخترع الطباعة ، لكن اختراعه هذا لم يكفل له الغنى ولا المجد ولا السعادة . وكرمه واسرافه مع أصدقاء عاقين أوصلاه الى الافلاس . فيصيح بمثل ما صاح به أيوب من قبل :

« كيف يحدث دائما أن الانسان الذكي الأمين هو فريسة النسيان والاضطهاد ، يتمرغ في البؤس ، بينما الأبله والنصاب والوغد يعيشون أغنياء سعداء محفوفين بالتجلة والاكرام ؟! » ويؤكد له هذا المعنى أسفاره الى أماكن عديدة فيها وجد الشريف شقيا ، والسافل مفتريا رفيع المكانة ، والفضيلة مضطهدة ، والبراءة موضوعا للسخرية والقهر .

فلم يجد ملاذا الا في السحر . فراح يستحضر الأرواح . وأول روح ظهر له لم يكن الشيطان ولا روح الأرض ، ولا روح العالم الأكبر (كما نجد عند جيته) بل روح الانسانية . وهذه الروح دعته الى الحكمة والاعتدال في تناول الشهوات ، والى سلام الضمير ، وفي مقابل ذلك وعدته « بالموت الهادئ والنور في الآخرة » .

لكن فاوست يريد أمرا آخر . والشيطان من ناحيته يهتم بفاوست ، لأنه باختراعه المطبعة قد بذر الشقاق والحرب بين الناس . يجتمع مجلس كبير للشياطين وتتلوه مأدبة فيها يؤكل اثنان من البابوات وأحد الغزاة ، وفيلسوف ، وقديس طوب حديثا . ويلقي كل شيطان منهم خطبة ، وفي خطبهم يرسمون لوحة مروعة للإنسانية : في كل مكان يوجد الشره الى المال ، والكذب ، ويتناوب الازدراء مع النفاق ، والفساد يعم كل أجزاء الهيئة الاجتماعية .

وتسود هذا الوصف روح ساخرة على غرار فولتير ، ويتخذ لهجة شبيهة بلهجة مسرحية « اللصوص » لشلر .

وخطة الشيطان هي أن يجر فاوست الى اليأس والتجديف على الألوهية ، وذلك بجعله لا يرى في العام الا الفساد واختلال النظام وانتصار الأشرار على الأخيار ، مما يجعله يشك في وجود العناية الالهية والى التجديف على الله . ولكن المؤلف ـ كلنجر ـ يسعى الى انقاذ فاوست مما أوقعه به الشيطان من ضلال . فيذكر أن نظرة الانسان محدودة ، وأنه يعمم من مشاهدة أحداث قليلة . ولهذا لا يحق له أن يحكم على الكل .

ويتجول المؤلف بفاوست في أنحاء أوربا حيث لا يرى غير ملوك فاسدين وطبقات راقية دبّ فيها الانحلال وتورطت في حمأة الرذيلة ، وقصرت عبادتها على الذهب . فصار الوالد

يبيع ابنه والزوج زوجته لقاء المال . ودبّ الفساد في الرهبان فنجد راهباً يزني ويسرق ويقتل . ونرى رئيسة لدير راهبات تقوّد على بناتها الروحيات ، أي الراهبات .

وأمام هذا الفساد المستشري يصيح فاوست في وجه الألوهية : «أين أصبح الله ، أين عين العناية التي تسهر في طرق العدل ؟...» ومع ذلك يقال ان ثم غائية ، ونظاما ، وأحكاما في العالم الأخلاقي ؟... اذا كان الانسان مجبرا على العمل وفقا لقوانين الضرورة ، فينبغي أن ننسب الى الكائن الأعلى هذه الوقائع والأفعال ، وتبعا لذلك لا يجوز أن يعاقب الانسان عليها . ان الكائن الكامل لا يمكن أن ينتج الا أعمالا خيرة كاملة .

فاذا كان الأمر هكذا ، فان أفعالنا ، أيا ما كانت بشاعتها في نظرنا ، هي أمور لا تثريب عليها ، انها ضحايا دون أن نعرف السبب لذلك . أما ان كانت شريرة ، كما سيبدو لنا ، فان هذا الوجود ظالم لنا ، لأنه يعاقبنا على فظائع هو مصدرها . أيها الشيطان ، حل لي هذا اللغز : إريد أن أعرف لماذا يشقى العادل ويسعد الظالم ؟» .

ويحكي لنا ما شاهده فاوست في دول أوربا : في سويسره يشاهد صوفيّاً غريب الأطوار ، يشتغل بالفراسة ، وتطيش له عقول النساء . وفي فرنسا يشاهد بعض جرائم لويس الحادي عشر : اغتيال الدوق دي بري de Berry ، تعذيب الدوق دي نمور de Nemours وأولاده ، والكردينال لا بالو La Balue وهو في قفص من حديد . وفي لندن يشاهد قتل أولاد الملك ادورد . وفي ميلانو ، وفيرنتسه ، يشاهد جالياس اسفورتسا Guleas Sporze وهو يقتل ابان القداس بناء على تحريض من البابا . وفي روما يشهد أبشع الرذائل في بلاط البابا اسكندر السادس الذي هو من أسرة بورجيا Borgia . ومعظم هذه الأخبار التاريخية استقاها كلنجر من كتاب فولتير : «بحث في أخلاق الأمم وروحها» . ويستفيض المؤلف في عرض فجور البابا وكبار رجال الكنيسة في روما .

ثم ينفتح له بصيص أمل من السماء . فيشاهد فاوست في رؤيا رمزية ، روح الانسانية وهي منهمكة في بناء معبد يقوم بتشييده أناس ذوو نيات طيبة . ولكن ثلاث عصابات مسلحة تهاجم البنائين وتذبحهم أو تستعبدهم . فيستولي اليأس على النفوس . وهذه العصابات هي : العنف ، والخرافات ، والنزعة العقلية . وهكذا لا يتم بناء المعبد ، وأعمدته تسمى : الصبر ، والأمل ، والايمان . وهذه الرؤيا الرمزية انما تعبر عن تاريخ الانسانية : فالعصابات الثلاث المدمرة هي : الدولة ، والدين ، والفلسفة .

ومن بلايا الكون الأكبر يلتفت فاوست الى بلايا نفسه ، فيكشف له الشيطان عن عواقب أفعاله الحسنة والسيئة معا : فالراهبة التي أغراها وأحبها حكم عليها بالاعدام ، وفي

سجنها التهمت جسم وليدها ، وابنة البخيل الفرنسي ، وقد غرر بها فاوست ، صارت خليلة لملك وهي التي دفعته الى القيام بحروب منحوسة في ايطاليا ، وثم ضحية له ثانية تدعى نجليكا قد ولدت طفلا ميتا ، لكن هذا لم يمنع من ادانتها بتهمة قتل ابنها ، فكان جزاؤها لاعدام . تلك هي نتائج أعماله الشريرة .

أما نتائج أعماله الخيرة فلا تقل فظاعة : ففي كل مرة ظن أنه يعاقب مجرما ، فانه جر في ذلك أبرياء ، وبطل الحرية الذي أنقذه لم يكن الا مدبر مؤامرات خسيسة : فلم يكد يطلق سراحه ، حتى أثار الفتنة وأوقع البلاد في حرب الفلاحين الرهيبة ، والغريق الذي أنقذه في فانتيس كان من عتاة المجرمين : لقد أغوى زوجة فاوست كيما يستولي منها على الذهب لذي تركه لفيثان ، وطرد والد فاوست العجوز فمات في المستشفى ، وطرد من المنزل أبناء فاوست الثلاثة . وأمام هذه الفظائع كفر فاوست بالاحسان . فقرر أن يكره الناس : «لقد تعلمت أن أعرفهم ، انهم بغيضون الى نفسي ، ومصيرهم يفزعني وكذلك العالم والحياة... اني أتمنى أن أصير مواطنا في الجحيم ، وأنا متبرم من نور ليست الظلمات الجهنمية بالنسبة ليه الا كالنهار» .

لكن كلنجر لا يستسلم لهذا اليأس القاتل ، فانه كان من المتأثرين بروسو ، ولهذا نجده ينحو بالرواية في نهايتها منحى روسويا ، فيقول ان سبب يأس فاوست هو ما شاهده في الأوساط العالية ، ولو شاهد النفوس البسيطة : الفلاحين البسطاء في الريف ، والحرفيين لأمناء في المدينة ، لتغير رأيه . ان سبب فساد الانسان هو المدينة ، هكذا يعلن مع روسو . ولو تبع الانسان الطبيعة لكان أحسن حالا وأسعد حظا .

والى جانب فاوست الغربي هذا ألف كلنجر قصة بعنوان : «فاوست الشرقيين» . كما نه ألف قصة بعنوان : «قصة جعفر البرمكي» . ولا يتسع المجال هنا للتحدث عن هذا لجانب الاستشراقي عند كلنجر . وسنخصهما بدراسة مفردة في المستقبل .

وفريدرش مكسمليان فون كلنجر ولد في ١٧ فبراير سنة ١٧٥٢ في فرانكفورت ـ على ـ نهر ـ الماين ، وتوفي في ٩ مارس (= ٢٥ فبراير بالتقويم الجريجوري) في دوربات Dor-bat وألف مسرحيات : مآسي ومهازل ، نذكر منها : «التوأم» (سنة ١٧٧٩) ، «أوتو» Otto ، «المرأة المعذبة» ، «العاصفة والاندفاع» (سنة ١٧٧٦) ـ وهذا العنوان هو الذي أطلق على الحركة الأدبية التي قامت آنذاك في ألمانيا وكان كلنجر[1] من أبرز مؤسسيها .

---

(١) عن فاوست «كلنجر» راجع خصوصا :

G. J. Pfeiffer: Klingers Faust. Eine Literar histor-ische Untersuchung. Wirzburg, 1890.

«فاوست» جيته

١
نشأتها وتطورها

وهنا نصل الى «فاوست» جيته بعد أن مهدنا لها السبيل . ومن حسن حظ جيته أنه ألماني أوربي ، وليس عربيا ، والا لصاح «النقاد» في وجهه : سارق! سارق! ، ولنعتوا هذا العمل الأدبي العظيم بأنه «سرقة» لأنهم سيجدون أن هيكل المسرحية هو الهيكل نفسه الموجود في «الكتاب الشعبي» ، وان فصول كثيرة لها فصول مناظرة في «فاوست» مارلو وغيره من المؤلفين الذين أتينا على تلخيص أعمالهم الأدبية عن فاوست ، ان الألاعيب والحيل السحرية ، والمناظر الطبيعية والمغامرات في المدينة موجودة كلها ـ بصورة أو بأخرى ـ في تلك المصادر .

لكن العبرة في العمل الأدبي ليست بهذه المشابه الظاهرية والملامح العامة والاطارات الكبرى ، بل ما أودعه الشاعر أو الكاتب في هذه العناصر المركبة من معان وأفكار ، وما نفخه من روح ، وبالجملة : العبرة هي بما صنعه العبقري بهذه العناصر المشتركة بينه وبين أسلافه . وهنا سر عظمة جيته والمكانة العليا التي لمسرحيته عن فاوست ، حتى لتعد واحدة من أعظم الأعمال الأدبية التي ابتدعها الانسان على مر العصور .

ولقد عاش جيته بعض الأحداث التي يعرضها في مسرحية «فاوست» ، كما أنها صاحبته طوال حياته الأدبية منذ طفولته حتى آخر عمره .

ويلوح أن أول لقاء لجيته مع شخصية فاوست كان وهو في سن الرابعة من عمره ، حين أهدت اليه جدته في ليلة عيد الميلاد في ١٧٥٣ ، قبيل وفاتها ببضعة أشهر ، مسرحا

للعرائس جميلا ، كانت تتولى ادارته للطفل والمشاهدين من لداته احدى الخادمات . ومن بين القطع التي احتواها هذا المسرح قطعة عن «الدكتور فاوستس» ، لا بد أن يكون هذا الطفل الشديد الحساسية منذ نعومة أظفاره قد تأثر بها تأثرا شديدا .

ثم انه وهو في سن الخامسة عشرة اشتعل قلبه حبا بفتاة تكبره في السن وتصغره في المكانة الاجتماعية ، وتدعى جرتشن Gretchen (تصغير اسم : مرجريت) ، وهو الاسم نفسه الذي سيستخدمه جيته لصاحبة فاوست الأول ، وسيحاول انقاذها في «فاوست» الثاني . وقد أفاض جيته في سيرته الذاتية : «الشعر والحقيقة» في الحديث عن عشقه لمرجريت التي من فرانكفورت هذه ، ووصفها وهي في الكنيسة ، وأيضا وهي أمام عجلة الغزل ، على نحو مشابه لما نجد عليه جرتشن في المسرحية ، وانطبق على كلتيهما حتى زعم البعض أن جيته في السيرة الذاتية انما وصف جرتشن فرانكفورت على غرار جرتشن المسرحية[1].

ثم كان مقامه الأول في مدينة ليبتسك لدراسة القانون في جامعتها . وعن هذا المقام نجد في مسرحية (فاوست) ذكرى حانة آورباخ ، وذكرى المحاضرات المملة المجردة من الحياة ، التي استمع اليها في قاعات جامعة ليبتسك وخيبة أمله .

ويعود جيته بعد عام واحد الى مدينة فرانكفورت مريضا سوداوي المزاج ، فتمتلئ نفسه بالأفكار المأساوية حتى فكر في الانتحار ، ولا يجد عزاء له الا في الجو الصوفي التهويلي الذي كانت تحيا فيه أمه ، تحت تأثير مستسرة صوفية النزعة ، تدعى سوزانا كترينا فون كلتنبرج Susanna katharina von klettenberg وسيأخذها جيته نموذجا في قصته القصيرة بعنوان : «اعترافات نفس جميلة» .

وهذا الوسط المحيط بسوزانا كترينا فون كلتنبرج كان أيضا يهتم بالسحر والعلوم الصنعوية واعتقد جيته أن طبيبا صديقا له قد شفاه من المرض بفضل علاج سحري . فأخذ جيته يعنى بالسحر وعلومه . ولهذا الغرض راح يقرأ كتابات باراسلسوس Paracelsus وفان هلمونت Van Helmont . وقرأ كتاب فلنج Welling بعنوان «كتاب القبالة الأكبر» Opus magocabbalistcum وكتاب يوسف كرشفيجر Kirchweger بعنوان : «سلسلة هوميروس الذهبية» . وراح يجري تجارب صنعوية مستعملا الانابيق لتحضير السائل السيليكي Liquor Silicum .

وبعد شفائه مما ألم به سافر الى اشتراسبورج ليستأنف دراسته الجامعية في القانون . وهنا نضج الشاب نضوجا بارزا وصار مالكا لناصية مواهبه الشعرية . لقد انبثقت موهبته الأصيلة وراح يسعى نحو ما هو جليل ورائع ومشبوب .

وفي تأمله الطويل لكاتدرائية اشتراسبورج ، هذه التحفة العظيمة من المعمار القوطي ، تفتحت له عظمة العبقرية الالمانية ، واستشعر الروح الجرمانية الأصيلة وحنّ الى العصر الوسيط بفرسانه وعقائده السحرية والشيطانية ، وتسلطت على خياله الشعري شخصيتان جبارتان من القرن السادس عشر تجسدان الروح الجرمانية ، وهما : جينس فون برشنجن ، الفارس المغوار الشهم ذو اليد الحديدية ، والدكتور فاوستس المتطلع الى الانسان الأعلى .

وهو يخبرنا في «الشعر والحقيقة» ان فكرة معالجة هاتين الشخصيتين قد خطرت بباله وهو طالب يدرس القانون في جامعة اشتراسبورج في عامي ١٧٧٠ و١٧٧١ .

وحادث آخر جرى له في أثناء مقامه في اشتراسبورج سيكون له أثر هائل في تطوره الروحي ، الا وهو غرامه بابنة قسيس قرية زيزنهايم Sesenheim وتدعى فردريكا بريون Frederique Brion .

وفي نوفمبر سنة ١٧٧١ انجز جيته مسرحية مأخوذة عن «قصة جوتفريد فون برلشنجن ذي اليد الحديدية» ، ومن هذه الصورة الأولية سيستخلص مسرحية «جيتس فون برلشنجن[١]» .

وفي تلك الفترة تعرف الى شخصية غريبة سيتخذ من بعض ملامحها ملامح مفستوفيلس ، ونعني بها : يوهان هينرش مرك Johann Heinrich Merck .

ويعود جيته الى مدينة فرانكفورت بعد أن حصل على الليسانس في الحقوق من جامعة شتراسبورج في سنة ١٧٧١ . وكان عليه بعد ذلك أن يقضي فترة تمرين ليكون محاميا ، فذهب الى فتسلار Wetzlar حيث توجد المحكمة العليا ، ثم ترك فتسلار في ١١ سبتمبر سنة ١٧٧٢ . وفي هذه المدة شرع في كتابة مسرحية عن فاوست . وفي الفترة بين ١١ سبتمبر سنة ١٧٧٢ و٧ نوفمبر سنة ١٧٧٥ تاريخ وصوله الى فيمار ، تدفق عرقه الشعري والنثري الفني تدفقا هائلا : فكتب «آلام الفتى فرتر» في سنة ١٧٧٤ وفيها فض عواطفه الجياشة ، وصب مواجيده الغرامية ، وفي ربيع سنة ١٧٧٣ ظهرت مسرحية «جيتس فون برلنشنجن» . وفي خلال ثمانية أيام كتب مسرحية قصيرة بعنوان : «كلافيجو» Klavigo . ونظم قطعا شعرية متفاوتة الطول بعنوانات : «برومثيوس» ، «قيصر» ، «اليهودي الأبدي» ، «محمد» .

وفي الوقت نفسه اهتم بموضوع فاوست . فالى أي مدى وصل بهذا الموضوع ؟

---

(١) راجع مقدمتنا لترجمة هذه المسرحية ، الكويت ، سنة ١٩٨٠ .

ان ما نشره جيته في سنة ١٧٩٠ بعنوان : «فاوست : شذرة» يبدو أنه كان قد كتبها في سنة ١٧٧٤ . ذلك أنه يذكر أنه أبان رحلته الى سويسره في سنة ١٧٧٤ التقى بالشاعر كلويستوك في كارلسروه وأنه قرأ له معظم مشاهد مسرحية فاوست . غير أن كونوفشر (الكتاب المذكور جـ ٢ ص ٣٣) يصحح ذاكرة جيته فيقول ان هذه القراءة تمت في فرانكفورت أما أثناء سبتمبر سنة ١٧٧٤ أو في مارس سنة ١٧٧٥ ابان عودة كلويستوك ومروره من جديد بفرانكفورت .

ومن ناحية أخرى ، زاره ياكوبي Jacobi في نهاية يناير سنة ١٧٧٥ في فرانكفورت ، فقرأ له جيته ما أتمه من مشاهد في مسرحية فاوست .

فمن المؤكد اذن أن «شذرة» مسرحية فاوست التي نشرت سنة ١٧٩٠ كان جيته قد نظم معظم مشاهدها في بداية سنة ١٧٧٥ ، ولم يضف الا القليل في خلال هذه السنة .

ونحن نعلم أنه أخبر في هذا الوقت هينرش ليوبولد فجنر Heinrich L. Wagner بما خططه في مسرحية فاوست وخصوصا بمأساة مرجريت ونهايتها . اذا بفجنر هذا يقلد هذه النهاية في مسرحية أصدرها بعنوان : «قاتلة ابنها» .

ويكتب جيته في ١٧ سبتمبر سنة ١٧٧٥ الى الكونتيسة فون اشتولبرج von Stolberg يخبرها أنه أتم مشهدا آخر من فاوست ، ويتحدث عن أنشودة الفأر ، مما يجعلنا نقدر أن مشهد حانة آورباخ قد كتبها آنذاك .

وفي رسالة الى مرك يذكر أنه ينقّح بعض مشاهد فاوست .

وفي اليوم التالي الذي غادر فيه مدينته فرانكفورت في ٣٠ أكتوبر سنة ١٧٧٥ متوجها الى فيمار كان قد تقدم في كتابة المسرحية الى حد أن شاع الاعتقاد بأن طبعها وشيك . ويعبر الناشر ميليوس Mylius لمرك Merck عن مخاوفه من أن يبالغ جيته في مكافأته كمؤلف بعد أن نال ما نال من شهرة . وينبه مرك الناشر نيقولاي في برلين الى أهمية جيته . ويبعث تسمرمان Zimmermann برسالتين الى الناشر ريش Reich ينصحه بألا تفوته فرصة نشر هذا العمل الجديد الفريد .

وعند نهاية شهر نوفمبر سنة ١٧٧٥ في فيمار التي وصل اليها منذ ثلاثة أسابيع مستشارا لدوق فيمار كارل أوجست ، راح يقرأ هذه القطعة من فاوست بحضرة الدوقتين أماليا ولويزه . وقرأها أيضا في عدة مناسبات في فيمار ، اما في البلاط ، أو عند هردر Herder كما شهد بذلك فيلند Wieland واينزيدل Einsiedel والدوق كارل أوجست . غير أن جيته توقف عن مواصلة العمل في هذه الشذرة . فبقيت هذه الشذرة على حالها ، فيما

يبدو . طوال احدى عشرة سنة .

ولم يستأنف كتابة «فاوست» الا ابان رحلته الى ايطاليا ، وقد حمل معه مخطوطها . إذ يقول جيته في وصف «رحلته الايطالية» بتاريخ ١ مارس سنة ١٧٨٨ : «كان أسبوعا حافل المضمون ، يتراءى في ذاكرتي كما لو كان شهرا . فقد رسمت أولا خطة فاوست ، وأرجو أن أنجح في انجاز هذه العملية . طبعا الأمر يختلف : ان أكتب هذه القطعة الآن أو قبل خمس عشرة سنة ، لكني أظن انها لن تفقد بهذا شيئا ، خصوصا واني أعتقد الآن أنني وجدت الخيط من جديد ، كذلك فيما يتعلق بنغمة الكل فاني راض ، لقد أضفت مشهدا جديدا . واذا دخنت الورق ، هكذا أظن ، فلن يستطيع أحد أن يميزه من الباقي . ولما كنت بالراحة الطويلة والعزلة قد عدت الى مستوى وجودي ، فمن العجيب كيف أني أساوي ما كنت عليه ، ولم يتأثر باطني بمرور الأعوام وحدوث الأحداث . ان المخطوط العتيق يجعلني أطيل التفكير حينما أراه أمامي . انه لايزال هو الأول ، بل هو في المشاهد الرئيسية قد كتب دون تصور محدد ، وهو الآن قد اصفر بحكم الزمان ، وتفكك - لأن الأوراق لم تُجلّد - ورق وتقرح عند الهوامش الى حد أنه صار يبدو كقطعة من مخطوط عتيق ، وكما وضعت نفسي في عالم سابق ومعي حواسي وأجدادي ، فانني الآن ينبغي علي من جديد أن أضع نفسي في زمن سابق عشته بنفسي» .

ويستخلص كونوفشر (جـ ٢ ص ٤٨-٥٠) من هذا النص الفريد النتائج التالية :

١- كتب جيته أول مشاهد المسرحية وأقدمها في سنة ١٧٧٣ ،

٢- ان قوله : «انه لايزال هو الأول ، بل في المشاهد الرئيسية قد كتب دون تصور محدد» - لا يمكن التوفيق بينه وبين رأي شيرر Scherer (في كتابه : «من الفترة الأولى في حياة جيته» ، سنة ١٨٧٩ ، ص ٩٩ ما يليها) الذي ذهب الى أن جيته قد كتب «فاوست» أول ما كتب بالنثر في سنة ١٧٧٢ ، ثم قام بين سنة ١٧٧٣ و١٧٧٥ بتحويره الى نظم .

٣- صار جيته ينظر الى فترة كتابة فاوست للمرة الأولى على أنه بمثابة عصر قديم في حياته .

٤- وقد كتب جيته وهو في روما مشهدا جديدا من «فاوست» ، كتبه وهو في مكان من أجمل أماكن روما ، وهو حديقة فيلا بورجيزي Villa Borghese . لكن الغريب هو أن هذا المشهد هو مشهد «مطبخ الساحرة» كما صرح بذلك جيته نفسه في حديثه مع اكرمن بتاريخ ١٠ ابريل سنة ١٨٢٩ . فما أبعد حديقة فيلا بورجيزي

بجمالها الطلق وخضرتها الفتانة وأشجارها الباسقة ـ عن جو مطبخ الساحرة بجوه الكئيب المروع المليء بالأبخرة والانابيق والنسانيس!

والمشهد الثاني الذي كتبه جيته ابان رحلته الايطالية هو الذي عنوانه : «غابة وكهف» ، وفيه مناجاة من أجمل ما نظم جيته ومن أروع القطع الشعرية في تاريخ الأدب العالمي .

٢
الصورة الأولية لفاوست

ماذا كان مصير هذا المخطوط الشبيه بـ «المخطوط العتيق» Alter Codezx ؟

كان الاعتقاد السائد قبل سنة ١٨٨٧ هو أن هذا المخطوط قد فقد الى الأبد .

وذهب أرش اشمدت Erich Schmidt الى الزعم بأن جيته هو نفسه الذي أحرقه بعد ظهور طبعة «فاوست» في صورتها النهائية في سنة ١٨١٦ . ولهذا فانه لما افتتحت «دار محفوظات جيته» Goethe-Archiv في سنة ١٨٨٥ كان القوم قد يئسوا تماما من العثور على ذلك المخطوط .

لكن حدثت المفاجأة في بداية سنة ١٨٨٧ ، لما أن أذن للمقدم (البكباشي) فون جيشهاوزن Goechhausen لاشمدت بوصفه رسولا من قبل الدوقة الكبيرة صوفيا فون زاكسن بالاطلاع على الأوراق التي عثر عليها في تركة عمة أبيها ، الآنسة لويزة فون جيشهاوزن ، التي كانت وصيفة عند الدوقة أماليا في فيمار ، وقام أرش اشمدت بالبحث في هذه الأوراق .

فوجد من بينها مجلدا ضخما من قطع الربع بعنوان : «ملخصات ، ومنسوخات وما شابه ذلك . من تركة الآنسة لويزه فون جيشهاوزن» . فوجد اشمدت من بينها نسخة دقيقة أمينة من الصورة الأولى لفاوست ، أعني من ذلك «المخطوط العتيق» كما نعته جيته . ذلك أن الوصيفة لويزة فون جيشهاوزن ، وكانت حاضرة أثناء قراءة جيته لما كتبه من مسرحية فاوست في صورتها الأولى ، طلبت من الشاعر أن يسمح لها بنسخ هذه القطعة من المخطوط . ولما كان جيته لم يخش من جانبها أي افشاء ، فقد أذن لها بالنسخ . وهكذا بقيت لدينا نسخة منقولة بدقة عن المخطوط الأصلي الذي يبدو أن جيته قد أحرقه لدى نشره للصورة النهائية لفاوست في سنة ١٨١٦ .

وهكذا أنقذت هذه الصورة الأولية . وطبعت لأول مرة في النشرة الكبيرة لمؤلفات جيته

جيتيه . وهي المعروفة بنشرة فيمار Weimarausgabe ، في المجلد الرابع عشر منها .
وقد نشرها أرش اشمدت في مجلد صغير في فيمار سنة ١٨٨٧ تحت عنوان :
Goethes Faust in Ursprunglicher Gestalr. Weimar. 1887 وتوالت اعادة نشرها
بعد ذلك . خصوصا فيما يعرف باسم « طبعة اليوبيل » Jubilaeum Ausgabe .

وهنا يثور السؤال : هل نسخة الآنسة لويزة فون جيشهاوزن كاملة كما كان الأصل مخصوص ؟ هناك ما يدعو الى الشك ، ذلك انه وصلتنا قطعة من عهد ما قبل مقام جيته في فيمار لا توجد في نسخة الآنسة لويزة (وهي رقم ٥٤ وما يليها في المخلفات Par-alip ...).

٣
« الشذرة » Fragment

والصورة الأولية لفاوست انما تمثل حوالي ثلث الصورة النهائية ، اذ تحتوي على ١٤٣٥ بيتا من الشعر ، بينما الصورة النهائية تحتوي على ٤٦١٢ . ونقصد طبعا « فاوست » الأول ، لأن « فاوست » الثاني لا مناظر له في الصورة الأولية .

وتشمل الصورة الأولية المشاهد التالية : مناجاة فاوست ـ استحضار روح الأرض ـ حوار مع فجنر ـ الحديث بين مفستوفيلس والتلميذ الجوال ـ حانة آورباخ ـ جملة مشاهد تدور حول مرجريت وعلاقتها بفاوست .

وأقدم ما ألفه من هذه المشاهد هو : مناجاة فاوست ، استحضار روح الأرض ، الحوار مع فجنر . ثم كتب مشهد حانة آورباخ قبل رحلته الى سويسره ، وبعد عودته منها كتب أغنية الفأر . وكتب المشاهد الرئيسية لمأساة جرتشن قبل سنة ١٧٧٥ . وفي روما في سنة ١٧٨٨ كتب « مطبخ الساحرة » ، ومناجاة « الغابة والكهف » . وفي الفترة ما بين ١٧٨٨ و ١٧٩٠ راح ينقح ما كتبه من قبل دون أن يضيف شيئا ، وكان قد عاد من رحلته الى ايطاليا فوصل فيمار في ١٨ يونيه سنة ١٧٨٨ . وكانت قد ظهرت مسرحيتا « افيجينيا » و « اجمرنت » .

وفي سنة ١٧٩٠ نشر جيته ما يسمى بـ « شذرة » Fragment من مسرحية « فاوست » وذلك في المجلد السابع من مجموع مؤلفاته الذي بدأ في نشره عند الناشر جيشن في ليبتسك ابتداء من سنة ١٧٨٧ .

وهذه «الشذرة» تحتوي على ١٧ مشهدا ، وتتألف من ٢١٣٣ بيتا من الشعر . ومن حيث الحجم هي أكبر قليلا من «الصورة الأولى لفاوست» Urfaust وتساوي تقريبا نصف الصورة النهائية لـ «فاوست» الأول . و«الصورة الأولى لفاوست» في نشرة أرش اشمدت تقع في ١٤٤١ بيت شعر و٣٨٧ سطرا من النثر ، وفي مجموعها تتألف من ١٨٢٨ سطرا . أما «فاوست» الأول فيشتمل على ٤٢٥٢ بيتا من الشعر و٥٧ سطرا بحسب طبعة G. Von Loeper ، و٤٦١٢ بيت شعر و٨١ سطرا بحسب ما يسمى بنشرة الأميرة صوفيا So-phienausgabe .

وتشتمل «الشذرة» على ما يلي :

١- المناجاة الاستهلالية - ظهور روح الأرض - الحوار مع فجنر . ويتلو ذلك فجوة كبيرة سيملؤها ١١٦٣ بيت شعر في الصورة النهائية .

٢- وبعد المحادثة الثنائية بين فاوست ومفستوفيلس يستأنف النص من جديد في وسط كلام فاوست ، فيتابع قائلا : «وما هو نصيب الانسانية كلها ، أريد في أعمق عمائق ذاتي أن استمتع به...» وبعد هذه المحادثة تبدأ مناجاة قصيرة لمفستوفيلس يقول فيها : «العقل والعلم...» .

ويتلو ذلك حوار مع التلميذ ، والتأهب للسفر في العالم ، وحانة آورباخ ، ومطبخ الساحرة .

٣- مأساة جرتشن حتى المشهد في الكاتدرائية ، الذي ينتهي بالكلمات : «يا جارتي! زجاجتك!» وبالاغماء على جرتشن .

واذا قارنا «الشذرة» بـ «الصورة الأولية لفاوست» لوجدنا ان الشذرة تنقصها القطع التالية : مناجاة فالنتين - المشهد الذي عنوانه : «يوم مكفهر ، حقل» - المشهد الليلي بعنوان : «ليل - حقل مفتوح» حيث يتجول فاوست بصحبة مفستوفيلس على فرسين أسودين - مشهد السجن .

وقد حذف من مشهد الكاتدرائية «وصف صلوات الموتى بأنها جنازة لأم جرتشن» . وينقص مشهد السجن الصوت الذي يقول من أعلى : «لقد نجيت!»

وفي مقابل ذلك نجد في «الشذرة» توسعا وتفصيلات في مشهد الكلاب وحانة آورباخ ، وفي الحوار بين فاوست ومفستوفيلس الذي يؤدي الى اعدام جرتشن ونسرع به . ففي «الصورة الأولى» يتألف هذا الحوار من ٢٨ بيتا ، بينما في «الشذرة» يتألف من ١٢٣ بيتا .

فاذا انتقلنا من هذه المقارنة بين «الشذرة» و«الصورة الأولية» ، الى المقارنة بينهما وبين الصورة النهائية «لفاوست» الأول ، وجدنا :

١- ان الحوار بين فاوست وفجنر سواء في «الشذرة» أو في «الصورة الأولية» ينتهي بقول فجنر : «كان بودي أن أسهر معك حتى الصباح الباكر ، كيما أتحدث معك فأستفيد علما كثيرا» . ـ أما في «فاوست» الأولى ففجنر يقول : «كان بودي أن أسهر معك دائما ، كيما أتحدث معك فأستفيد علما كثيرا . لكن غدا ، وهو أول أيام عيد الفصح ، ائذن لي بسؤال وبآخر!» . وهذا يدل على أن جيته ، في وقت تأليف «الشذرة» لم يكن ينوي أن يقدم مشاهد عيد الفصح ، تلك المشاهد التي جرت اليها مناجاة فاوست الثانية ومزاجه العام .

٢- وقتل فالنتين كان مخططا له في «الشذرة» وفي «الصورة الأولية» ، لكن دون تفصيل ، لكن في «فاوست» الأول يفصل هذا المشهد ، وتبعا لذلك نجد في «فاوست» الأول في مشهد الكاتدرائية الروح الشريرة وهي تعذب ضمير جرتشن وتقول : «على عتبة بابك لمن الدم ؟» فكان طبيعيا الا توجد هذه العبارة في كل من «الشذرة» و«الصورة الأولية» . ولهذا السبب أيضا نجد فاوست في مشهد : «يوم مكفهر ، حقل» يقول : «أعلم أنه لاتزال تقوم في المدينة جريمة دم ارتكبتها يدك . وفوق مكان القتيل تحلق أرواح الانتقام وتعترض عودة القاتل» .

بينما لا تجد هذه العبارات في «الشذرة» ولا في «الصورة الأولية» ، بل كل المشهد لا يرد في «الشذرة» .

٣- وليس في «الصورة الأولية» أي ذكر لليلة فالبورج . أما في «الشذرة» فثم اشارة إليها ، ولكنها اشارة غامضة .

وأبرز فارق هو «الفجوة الكبيرة» بين مناجاة فاوست ومشهد التلميذ الجوال ، حيث نجد مفستوفيلس ، في «الصورة الأولية» . يظهر ، فجأة وبدون انتظار ، كرفيق لفاوست دون أن يذكر لنا المؤلف من أين جاء مفستوفيلس هذا ، وماذا يريد ، وما علاقته بروح الأرض .

ويميز البعض بين «الصورة الأولية» وبين «فاوست» الأول بأن الأولى مأساة خلق واعتراف غنائي ، أما «فاوست» الأول فقصيدة رمزية كونية . ذلك أن جيته في «الصورة الأولية لفاوست» راغ الى تصوير جبار (طيطان) أراد أن يعبر عن نفسه على لسانه ، والى وصف روح منطلقة تملؤها الأماني المثالية اللانهائية ، وقد تبرمت بالعلم لأنه لم يحقق

مطامحها ، وتريد أن تلقي بنفسها في حومة الحياة النابضة ، روح تريد أن تتألم وتستمتع معا . وفي «الصورة الأولية» يصف جيته تمرد المارد ضد القانون .

٤
استئناف العمل في فاوست بتحريض من شلر

وبعد أن نشر جيته «الشذرة» في سنة ١٧٩٠ توقف تماما عن العمل في فاوست . فما السبب ؟

السبب الأساسي هو أن جيته شعر بأن شخصية فاوست انما تلائم المرحلة الأولى من حياته الأدبية لما أن كان شابا ينزع الى النموذج الجامح التطلعات ، ويستهويه وجدانات النفوس الخلاقة المتمردة مثل برومثيوس ، وبالجملة حين كان من أنصار حركة «العاصفة والاندفاع» . اما الآن وقد جاوز الأربعين ، فقد تغيرت نظرته الى الحياة والى الناس والى الكون : لقد علمته حياة البلاط في فيمار أن يلتزم بالقانون ، وأن يراعي المواصفات الاجتماعية ، وأن يكون حذرا في تصرفاته وأحكامه . كما أن الرحلة الايطالية بثت فيه حب ما هو كلاسيكي : أي معتدل ، قانوني ، متبع للقواعد والرسوم ، ناصع ، ساكن . فأثرّ هذان العاملان في تصوره الفني ، وأدرك أن موضوع فاوست لم يعد يليق بالمرحلة الجديدة التي انتقل اليها .

وهنا تدخل فريدرش شلر Schiller فكان له التأثير الحاسم في حمل جيته على مواصلة العمل في «فاوست» . لقد انعقدت أواصر الصداقة بينهما ابتداء من سنة ١٧٩٤ . وأدرك شلر لما اطلع على «الشذرة» ما يتمحص عنها ، لو انها نميت ، من عمل أدبي رائع . فطلب من صديقه الجديد جيته في أواخر سنة ١٧٩٤ أن يطلعه على القطع غير المنشورة من «فاوست» ، وذلك في رسالتين احداهما بتاريخ ٢٩ نوفمبر والثانية بتاريخ ٢ ديسمبر سنة ١٧٩٤ . ولما لم يتلق من جيته ما طلبه منه ، عاد فكتب اليه في ٢ يناير سنة ١٧٩٥ ، لكنه لم يظفر من جيته الا بوعد غامض بأن يرسل اليه شذرة جديدة من «فاوست» لتنشر في المجلة الأدبية التي كان يصدرها شلر بعنوان «الساعات» . وتمضي السنة التالية أيضا ـ سنة ١٧٩٦ ـ دون أن يستأنف جيته العمل في «فاوست» .

ونسوق بعضا مما قاله شلر في هذه الرسائل :

١- بتاريخ ٢٩ نوفمبر سنة ١٧٩٤ كتب شلر الى جيته يقول : «باشتياق صادق أود

ن أقرأ القطع التي تنشرها من مسرحيتك «فاوست» ، لأنني أعترف لك بأن ما قرأته من هذه القطع هو من قامة هرقل . أنه يسود في هذه المشاهد قوة العبقرية وفيضانها ، اللذان يكشفان عن أستاذ من الطراز الأول ، وبودي أن أتابع هذه الطبيعة العظيمة الجريئة التي يستروح المرء فيها الى أبعد مدى مستطاع» .

وفي الرسالة نفسها يقول : «ان فيها (في الشذرة) مشاهد لا تستطيع أن تفكر فيها الا عبقرية من طراز عبقرية شكسبير» .

٢- وجوابا عن هذه الرسالة يقول جيته في رده بتاريخ ٢ ديسمبر سنة ١٧٩٤ : «لا ستطيع أن أقدم اليك الآن شيئا من فاوست ، انني لا أجرؤ على فك الرابطة التي تقيده في داخلها . وأنا لا أستطيع أن أنسخ دون أن أنفخ فيما أنسخ وأعدل ، وأنا لا أشعر في نفسي بأي استعداد لهذا الآن . ولو استطعت في المستقبل عمل شيء في هذا الموضوع ، فسيكون قطعا من نصيبك» (المراسلات بين جيته وشلر ، ط ٣ سنة ١٨٧٠ برقمي ٢٦ , ٢٧) .

٣- وبتاريخ ٢ يناير سنة ١٧٩٥ يكتب شلر الى جيته فيقول : «أود أن تسمعنا مشاهد أخرى من فاوست . اني لا أعرف في كل عالم الأدب عملا يحقق لي السرور أكثر منها» .

وفي ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٥ يعد جيته بأن ينشر في مجلة «الساعات» Die Horen التي يصدرها شلر ، «شيئا من فاوست» . وفي اليوم نفسه يكرر شلر الطلب فيكتب الى جيته بتاريخ ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٥ مكرراً رجاء بالنسبة إلى فاوست : «وليكن مشهدا واحدا من صفحتين أو ثلاث» . وأخيرا في ٢٢ يونيو سنة ١٧٩٧ يكتب جيته الى شلر فيقول : «لقد صممت على استئناف العمل في فاوست وانجاز قسم كبير منه على الأقل ، ان لم أستطع اتمامه كله ، وذلك بأن أفكه من جديد وأن أتوسع فيما أنجز وأبتكر ، وان أمهد لتنفيذ الخطة ، التي لاتزال مجرد فكرة . وهأنذا قد تناولت هذه الفكرة وذلك العرض من جديد وأنا على وفاق مع نفسي . وأود منك الآن أن تتفضل فتنظر مليا في هذا الأمر خلال ليلة ساهرة ، وأن تعرض علي ما ترى أن الأمر يقتضيه ، وأن تفسر لي أحلامي بوصفك نبيا صادقا» .

وفي اليوم التالي يرد عليه شلر ردا مفصلا يقول فيه : «أريد أن أبحث عن خيطك الذي اعتمدته ، واذا لم أظفر به ، فاني أريد أن أتخيل كما لو كنت عثرت على شذرات فاوست عرضا وكان علي أن أتممها . وألاحظ هنا أن فاوست ، أقصد هذه القطعة من (مسرحية) فاوست ، على الرغم من كل فرديتها الشعرية لا تكشف عن أهميتها الرمزية ، ولا عن

فكرتك أنت . ولأن الحكاية تمعن في الفجاجة وانعدام الشكل ، فانه ينبغي على المرء ألا يقف مكانه ، بل عليه أن يستمد منه أفكارا .

وبالجملة فان ما يقتضيه فاوست هو أمر فلسفي وشعري معاً . ومهما تلفت كما تشاء ، فان طبيعة الموضوع تقتضي معالجة فلسفية ، وأن تكون قوة المخيلة في خدمة فكرة عقلية . بيد أني بهذا لا أخبرك بشيء جديد ، لأن هذا المطلب متوافر فيما تم انجازه ، وبدأ في الارضاء على نحو رفيع . فان عملت في فاوست ، فاني لا أشك في أنك ستتمه ، وهو أمر يسرني كثيرا » .

ويأخذ شلر بأداء المهمة التي كلفه بها جيته من مراجعة ما قد انجز واقتراح ما ينبغي أن يكون عليه الموضوع ، ويكتب الى جيته بتاريخ ١٧٩٧/٦/٢٦ بما يرام : «لقد قرأت الآن فاوست للمرة الثانية ، ويأخذني الدوار في سبيل الحل... ما يقلقني هو ان فاوست هو بحسب وضعه لايزال يحتاج الى حشد من المواد ، ان كان يراد لفكرته أن تعرض ، بيد أني لا أجد لهذه الكتلة الضخمة سوارا شعريا يربطها .

لكنك تعلم كيف تعالج الأمر . وعلى سبيل المثال : من رأيي أن يقتاد فاوست في الحياة الفعلية . وأيا كانت القطعة التي تختارها من هذه الكتلة ، فانها تبدو لي بطبعها تحتاج الى تفصيل مسهب واتساع » .

من هذه الرسالة يظهر لنا أن شلر كان يريد من جيته أن يجعل من مسرحية «فاوست» معرضا لمطامح الانسان ومساعيه نحو المزيد من الكمال . ويريد منها أن تكون مسرحية فلسفية مدارها على «فكرة العقل» بالمعنى الذي قصده كنت Kant في الفصل الأخير من «نقد العقل المحض» ، أي تاريخ العقل الانساني وهو ينشد المعرفة . وفي سبيل ذلك لا بد من ايلاج فاوست في بحر الحياة العملية المتلاطم ، ليرى كيف تصرف الانسان أمام الكون والناس والأشياء .

لكن جيته لم يستطع الأخذ باقتراح شلر هذا ، لأنه لا يلائم طبعه الشعري في المقام الأول ، العيني في تناوله لموضوعاته ، المزدري للتحقيقات المجردة .

فأقبل جيته بحسب مزاجه الشعري ، فنظم في الأسبوع الأخير من شهر يونيو سنة ١٧٩٧ القطع الثلاث التي تستهل بها مسرحية «فاوست» الأول في صورتها النهائية :

الاهداء ـ الاستهلال على المسرح ـ الافتتاح في السماء . في «الاهداء» يشيح جيته بوجهه عن الحاضر ، ابتغاء اللواذ بالماضي ، فيهدي المسرحية الى أصدقائه من الشباب الذين اما قضوا نحبهم أو تشتتوا في مضارب الحياة . وفي «الاستهلال على المسرح» يصف

التعارض بين عبقرية الشاعر وبين اهتمامات جمهور المسارح الذي يعبر عن نوازعه مدير المسرح والشخص المرح . وفي «الافتتاح في السماء» يعرض المؤلف الفكرة الأساسية التي تدور من حولها المسرحية .

والآن وقد تحددت لديه «فكرة» فاوست ، فانه وضع في ٢٣ يونيو سنة ١٧٩٧ مخططا لتنفيذها . وهذا المخطط ـ وقد فقد مع الأسف ـ قد قسم الى مقاصد وضع لها أرقاما . وهذه الأرقام استعان بها جيته فيما بعد لتصنيف تخطيطاته والحاقاته . ووضع على الكراسات الأرقام المناظرة في المخطط العام . ويمكن استعادة هذه الخطة كما يلي : فالقسم الأول يشتمل على الأرقام من ١ الى ١٩ ، والقسم الثاني على الأرقام من ٢٠ الى ٣٠ ، ورقم ٦ يحتمل انه كان يدل على مشهد التلميذ الجوال ، ورقم ١٦ على مشهد فالنتين ، ورقم ١٧ على ليلة فالبورج .

وقد حُفظ في مكتبة برلين مشهد فالنتين وليلة فالبورج بخط جيته : وعلى مجلد مخطوط مشهد فالنتين كتبت سنة ١٨٠٠ ، وعلى مخطوط ليلة فالبورج كتبت تواريخ :

٥ نوفمبر ١٨٠٠ ، ٨ و٩ فبراير سنة ١٨٠١ . وهذه اذن هي تواريخ تأليف المشهدين . لكن الصعوبة الكبرى في ملء الفجوة الكبرى بين الحوار مع فجنر ، وبين نهاية الحوار الثاني بين فاوست ومفستوفيلس . وقد ملأ جيته هذه الفجوة في الفترة ما بين ربيع سنة ١٨٠٠ وربيع سنة ١٨٠١ وثم رسالة من جيته بتاريخ ١٦ ابريل ١٨٠٠ تنتهي بهذه الكلمات : «ان الشيطان الذي استحضره ، يتصرف على نحو يثير الاعجاب» .

ويلخص كونوفشر (جـ ٢ ص ٩٢) النتائج المتحصلة بالنسبة الى تاريخ تأليف الصورة النهائية لفاوست كما يلي :

١- الاهداء ، الاستهلال على المسرح ، الافتتاح في السماء ـ بتاريخ يونيو سنة ١٧٩٧ ،

٢- مشهد السجن ، فالنتين ، وليلة فالبورج ، بتاريخ ربيع سنة ١٧٩٨ ، وبحسب مخطوط برلين بتاريخ عام ١٨٠٠ و١٨٠١ ،

٣- أمام البوابة ، مناجاة فاوست ومشهد استحضار روح الأرض ، والحديث الأول بين فاوست ومفستوفيلس ـ بتاريخ ربيع سنة ١٨٠٠ ،

٤- المناجاة الثانية ، وغناء عيد الفصح ـ ربيع سنة ١٨٠١ ،

٥- الحديث الثاني بين فاوست ومفستوفيلس ، وهو الذي ينتهي بعقد الميثاق ـ في سنة ١٨٠١ .

ويتابع جيته ـ بشكل متقطع وبايقاع بطيء ـ كتابة مشاهد أخرى من فاوست . فلماذا هذا البطء والتقطع ؟ أولا لأن الموضوع «وحشي» على حد تعبيره ، وثانيا لأن موت شلر في ٩ مايو سنة ١٨٠٥ قد هزه هزة عنيفة ، وثالثا لأنه انصرف عن فاوست الى مؤلفات أخرى : فقد شغلته رواية «البنت الطبيعية» . حتى أتم قسمها الأول في سنة ١٨٠٣ . لهذا لم يستأنف جيته العمل في «فاوست» الا في شتاء سنة ١٨٠٦ واستمر فيه حتى مايو سنة ١٨٠٧ ، حين أنجز «فاوست» الأول في صورته النهائية .

وأخيرا عقب عيد فصح سنة ١٨٠٨ ظهر «فاوست» الأول .

٥
تمثيل «فاوست» الأول

وفي سنة ١٨١٠ فكر جيته في عرض «فاوست» الأول على المسرح ، والتمس من اتسلتر Zelter وضع بعض موسيقى مصاحبة خصوصا لأغنية عيد الفصح وأناشيد الهدهدة . لكن اتسلتر لم يجد أمامه متسعا من الوقت . فصرف جيته النظر عن فكرة تمثيل «فاوست» .

وبعد ذلك بعامين ـ سنة ١٨١٢ ـ وضع ريمر Riemer والممثل فولف Wolff خطة لتمثيل «فاوست» . فدعا ذلك جيته الى اعادة النظر في مسرحيته ووضع مشاهد متوسطة بين المشاهد .

وفي أول أبريل سنة ١٨٠٤ استقبل جيته الأمير البولندي الفنان أنطون ردتسفيل Anton Radzwill الذي كان قد ألف موسيقى لبضعة مشاهد من «فاوست» ، وأسمع جيته هذه الموسيقى لأول مرة . وقد كتب جيته في «الحوليات» Annalen يقول عن ذلك : «ان تأليف الموسيقى البارع الفاتن عن «فاوست» قد جعلنا يتراءى لنا الأمل البعيد في أن نقدم هذه المسرحية الفريدة على المسرح» . وتحت تأثير هذا الأمير البولندي جرت أولى المحاولات لتمثيل «فاوست» مع موسيقى ألفها هو . وبعد تجارب موسيقية مع أوركسترا وجوقة غناء أكاديمية الغناء جرت في ٣٠ مارس سنة ١٨١٦ تجربة قراءة في نطاق أسرة الأمير . واقترح تقسيم المسرحية الى ثلاثة أجزاء ، يبدأ الثاني منها بمشهد حانة آورباخ . وجرت تجربة أخرى في ٦ أبريل .

كذلك جرت محاولات أخرى في برلين في عامي ١٨١٩ و١٨٢٠ لتمثيل المسرحية .

وهكذا ساد الاعتقاد بأن «فاوست» لا تصلح للتمثيل . وكان لا بد من مرور عدة سنوات للتخلص من هذا الرأي . ففي سنة ١٨٢٩ ، بمناسبة بلوغ جيته سن الثمانين ، عاد التفكير في تمثيل «فاوست» . وكان الأمر بين احدى خصلتين : اما أن تكتب مسرحية جديدة عن فاوست قابلة للتمثيل ، واما أن تكيّف مسرحية جيته نفسها لتصبح قابلة للتمثيل . وجرت محاولتان في كلا الاتجاهين : فكتب كلنجمن Klingemann في براونشفيج مأساة في خمسة فصول سنة ١٨١٥ استندت فيها ملامح فاوست من قصة كلنجر . وقام هولتاي K. V. Holtei في برلين بتكييف مسرحية جيته للتمثيل ، فكتب ميلودراما من ثلاثة فصول يسبقها استهلال مسرحي وعنوانها هو : «ميثاق فاوست الساحر مع الجحيم» (سنة ١٨٢٨) . لكن جيته رفض هذا التكييف المسرحي . فراح هولتاي يكتب مسرحية من عنده بعنوان : «دكتور يوهان فاوست» مثلت في برلين ، وقد استمدها من مسرحية العرائس .

ثم حدث أن مثلّت مسرحية كلنجمن في يوم ٢٨/ ١٨٢٨/١٠ في مسرح الدوق كارل دوق براونشفيج وشاهدها الدوق وأعجب بها . لكنه علم من حديثه مع كلنجمن أن لجيته مسرحية عن فاوست أفضل من مسرحية كلنجمن ولكنها غير قابلة للتمثيل . فقرأ الدوق مسرحية جيته وأمر بتمثيلها كما هي ، وتم ذلك في يناير سنة ١٨٢٩ ولقيت نجاحا طيبا . وهكذا كان لدوق براونشيفج الفضل في عرض مسرحية «فاوست» لجيته على المسرح .

وما كان يمكن الاحتفال بعيد ميلاد جيته الثمانين ـ في سنة ١٨٢٩ ـ خيرا من عرض رائعته الكبرى «فاوست» ، على المسرح . فعرضت في مسارح : فيمار ، وفرانكفورت ، ودرسدن ، وليبتسك . وتولى الشاعر الرومنتيكي تيك Tieck أخراجها على مسرح درسن وقدم لها بافتتاحية ، وحذف منها بعض المشاهد والعبارات مراعاة للمشاعر :

مثل وصف مفستوفيلس لرجال الدين ، وتأويل فاوست لعبارات الانجيل ، بينما أبقى على مشهد «مطبخ الساحرة» ، وكان قد حذف عند عرضها في براونشفيج .

وأبرز حفلات تمثيل «فاوست» في تلك السنة ، كان تمثيلها في فيمار . وقد حضر هذا التمثيل الشاعر البولندي آدم مكيفتش Adam Mickiewicz ، والمثال الفرنسي دافيد دانجيه David Diangers ، وهولتاي السابق الذكر . وقد قسمت المسرحية الى ثمانية فصول ، وحذف منها بعض المشاهد قبل الحوار الأول بين فاوست وفجنر ، وليلة فالبورج ،

وحدث تحوير في بعض المواضيع مراعاة لبعض الحساسيات ، فمثلا ، احتراما لمارتن لوثر ، بدلا من الكلمات : «صنع لنفسه كرشا مثل كرش الدكتور لونز» وضعت العبارة : «وكان ذلك علفا طيبا» . وكذلك بدل العبارة : «كما لو كان في جسمها حب» ، صيغت هكذا : «كما لو عذبتها آلام الحب» .

٦
«فاوست» في صورة أوبرا

وبقدر ما كان تمثيل «فاوست» كمسرحية بطينا متعثرا ضئيل الحظ من النجاح ، كان النجاح الهائل حليف «فاوست» في صورة أوبرا ، أي قطعة تجمع بين التمثيل والغناء . وها نحن نسوق بيانا بالأوبرات الرئيسية التي دارت حول «فاوست» جيته ، ونوردها بحسب الترتيب التاريخي :

١- «أوبرا فاوست» بالألمانية ، في فصلين . وضع موسيقاها اسبور Spohr وكتب نصها في فيينا سنة ١٨١٤ ، وعرضت في فرانكفورت سنة ١٨١٨ .

ـ ثم توالى عرضها مرارا على أكبر مسارح ألمانيا ولندن . ومثل دور فاوست المغني الشهير دفريان Devrient في العروض التي قدمت في برلين .

٢- «فاوست» ، أوبرا في ثلاثة فصول ، كتب النص استنادا الى «فاوست» جيته : تيولون Theaulon وجوندوليين Gondelier . ووضع الموسيقى بيانكور Beancourt ، وعرضت في مسرح «النوفوتيه» Nouveautes في باريس لأول مرة في ١٨٢٧/١٠/٢٧ وهي بالفرنسية .

٣- «فاوست» بالألمانية ، نص مأخوذ عن جيته ، ووضع الموسيقى لندبانتنر Lind-paintner ، وعرضت في اشتوتجرت في سنة ١٨٣١ ، وبرلين في سنة ١٨٥٤ .

٤- «فاوست» بالفرنسية ، في ٣ فصول ، النص كتبه Treavlon بحسب «فاوست» جيته . ووضع الموسيقى بلائير Pellaert ، وعرضت في بروكسل في شهر مارس ١٨٣٤ . غير أن تيولون تصرف كثيرا جدا في أصل «فاوست جيته» حتى أنه استبعد معظم الأحداث ووضع من عنده أحداثا أخرى!

٥- «فاوست» بالألمانية ، وضع الموسيقى ريتس Rietz ، وعرضت على مسرح Im-mermann في دوسلدورف ، حوالي سنة ١٨٣٦ .

٦- لكن أشهر أوبرات فاوست اثنتان ، الأولى هي التي كتب نصها ميشيل كاريه Michel Carre وجول باربييه Jules Barbier بحسب « فاوست » جيته . ووضع موسيقاها الموسيقار الفرنسي الكبير جونو Charles Gouroud وعرضت لأول مرة في « المسرح الغنائي » Theatre Lyrique في باريس في ١٩ مارس سنة ١٨٥٩ . ومنذ ذلك التاريخ وهي دائما حتى يومنا هذا في قائمة (ربرتوار) الأوبرات على مسرح أوبرا باريس ، لا يكاد عام يخلو منها . وقد استبعد كاتبا النص كل ما ليس غنائيا لكنهما احتفظا بالشخصيات الرئيسية والأحداث الأساسية في الفصل الأول من فصولها الخمسة نرى الدكتور فاوست وقد جدد شبابه مفستوفيلس ، وأراه هذا الأخير في جذبة سحرية مرجريت (جرتشن) وهي تجلس الى عجلة الغزل وتغني وهي تغزل .

وفي الثاني نشاهد سوقا وعيدا ، وخروج مرجريت من الكنيسة ، واقتراب فاوست منها ومغازلته اياها .

وفي الثالث نرى مشهد النزهة واغواء فاوست لمرجريت . ثم الأغنية .

وفي الرابع نسمع أولا نشيد الجنود وهم عائدون من الحرب ، ثم نسمع الأغنية المسائية (سريناد) التي يغنيها مفستوفيلس ، ونشهد المبارزة بين فالنتين وفاوست ، ومقتل فالنتين ، والمشهد في الكاتدرائية وتأنيب ضمير مرجريت لها .

وفي الفصل الخامس ، وهو الأخير ، نشهد ليلة فالبورج ونهاية مرجريت ، لكن بايجاز شديد .

ولكن المهم هو موسيقى جونو : فقد بذل فيها مجهودا عظيما يكشف عن علم غزير بالهارموني ، وعن براعة في تكييف الموسيقى مع الأحداث الممثلة . ومن أبرز القطع الموسيقية الغنائية فيها : أغنية فاوست : « سلاما لك أيها المسكن العفيف الطاهر » ، والبلادة : « كان في توليه ملك » ، والمشهد عند النافذة : « دعيني أتأمل وجهك » ، والثنائي المشبوب : « يا ليلة الحب ، يا سماء صافية تتلألأ » ، وأنشودة الجنود : « مجد أسلافنا الخالدة » .

٧- والأوبرا الثانية الشهيرة هي تلك التي وضع موسيقاها برليوز ، الموسيقار الفرنسي العظيم ، وعنوانها : « ادانة فاوست » . وقد كتب نصها برليوز ، وجيرار Gerard وجندونيير Gandonniere . وعرضت على مسرح « الأبورا كوميك » Opera-Comique في باريس في ٦ ديسمبر سنة ١٨٤٦ .

وتتألف من ثلاثة أقسام : الأول يشمل « سهول هنغاريا » وهي قطعة رعوية ، « فاوست وحده » ، دائرية فلاحين ، كورس ، مسيرة هنغارية يعزفها الاوركسترا وحده .

والثاني يشمل «فاوست في مكتبه» ، وهي بلادة على تسلل (فوجا) آلاتي ، «نشيد عيد الفصح» ، كورس ، «حانة ليبتسك» ، جوقة من الشاربين السكارى ، أغنية يغنيها براندر وقد لعبت برأسه الخمر ، أغنية يلقيها مفستوفيلس .

خمائل ومراعي شاطئ نهر الالب Elbe ، نوم فاوست ، جوقة من العفاريت ، رقصة العفاريت ، جوقة من الجنود ، أغنية يغنيها التلاميذ باللغة اللاتينية . والثالث يشمل : انسحاب عسكري (الاوركسترا وحده) ، فاوست في غرفة مرجريت ، ملك توليه : أغنية قوطية ، مرجريت وحدها ، أمام منزل مرجريت ، سيريناده مفستوفيلس ، ثنائي وثلاثي وجوقة : مرجريت ، فاوست مفستوفيلس ، أعيان وعمال .

والرابع يشمل : مرجريت وحدها ، غابات وكهوف ، فاوست وحده ، مناجاة للطبيعة ، العدْو الى الهاوية : فاوست ومفستوفيلس ، كورس وأوركسترا ، كورس في الجحيم ، نهاية على الأرض وفي السماء ، جوقة من الأرواح السماوية ، تجلي علوي لمرجريت .

وأشهر القطع الموسيقية في هذه الأوبرا هي : المسيرة الهنغارية ، سيريناده مفستوفيلس ، أغنية مرجريت عند عجلة الغزل ، جوقة الأرواح السماوية ، والعدْو الى الهاوية .

وتعد أوبرا برليوز هذه من أنجح الأوبرات ، ومنذ بداية عرضها حتى اليوم لاتزال تحتل مكانة بارزة في ربرتوار في باريس وغيرها المدن العالمية .

ولا يفوتنا أن نذكر أيضا «سمفونية فاوست» Faust-Symphonie التي ألفها الموسيقار الهنغاري العظيم فرانتس ليست Franz Liszt في المدة ما بين سنة ١٨٥٤ و١٨٥٧ ، ويعزفها أوركسترا وتينور وكورس ، في ثلاثة أقسام ، عناويها على التوالي :

فاوست ـ مرجريت ـ مفستوفيلس .

وفي بداية السينما أخرج لومبير Lumiere فيلما بعنوان : «فاوست ومفستوفيلس» في سنة ١٨٩٧ في فرنسا ، وتلاه فيلم آخر بالعنوان نفسه صنعه سمث Smith في انجلتره في سنة ١٨٩٨ . وقامت شركة جومون Gaumont الفرنسية المعروفة بوضع أوبرا جونو في شكل فيلم ، وذلك في سنة ١٩٠٦ . وأنتج ادسون Edison في الولايات المتحدة الأمريكية فيلما عن فاوست في سنة ١٩٠٩ .

٧

فاوست عند الرومنتيك

وفي الوقت نفسه الذي كان فيه جيته مشغولا باتمام «فاوست» الأول ، كان الرومنتيك الألمان مهتمين بشخصية فاوست . وألف فيها اثنان من أبرز الرومنتيك الألمان ، وهما شامسو Chamisso وليناو Lenau .

فقد كتب شامسو (١٧٨١-١٨٣٨) قطعة شعرية عن فاوست ، ظهرت في سنة ١٨٠٤ ، أي قبل ظهور الصورة النهائية «لفاوست» الأول لجيته بأربع سنوات . وهي تحتوي على مشهد واحد هو مشهد فاوست في مكتبه وهو مستغرق في تأملاته ، فريسة لروح الشر ولروح الخير في آن معا . وتقع القطعة في قرابة ثلثمائة بيت من الشعر ، وفاوست فيها أقرب الى فاوست لسنج . انه عالم يشكو من انه لم يخض غمار الحياة وحرم من متاع الدنيا . بيد أن ما ينشده ليس الحياة المليئة الغارقة في الشهوات ، بل المعرفة والحقيقة لأن «الحقيقة هي سعادتي الوحيدة... اني أريد أن أتعلم وأن أظفر بالحقيقة والمعرفة» . وتعذبه المسائل الميتافيزيقية الكبرى ، الحرية ، المعرفة ، مصير الانسان . وفي عباراته ما يؤذن بروح كنت Kant النقدية : مثل قوله ان الانسان لا يعلم الا الظواهر ، ويحول بينه وبين المعرفة الحقيقية : قوانين العقل ، واطارات الحساسية ، وأشكال اللغة ، يقول :

«كل شيء هو في نظري مظهر ووهم...
أنت لا تستطيع أن تفكر الا بوساطة اللغة ،
ولا تستطيع أن تشاهد الطبيعة الا بالحواس ،
ولا ان تفكر الا وفقا لقوانين الطبيعة»

ويبالغ في الذاتية الكنتية المنزع فيقول :

«أنت خالق عالمك وفقا
لقوانين أبدية هي من خلقك أنت ،
فمن أنت اذن ، يا دودة الأرض القوية المعروفة ؟»

وأكبر وهم عند الانسان هو اعتقاده انه حر . والانسان الذي يعتقد أنه حر يشبه الحجر المتساقط في الهاوية الذي يظن أنه سقط فيها بمحض اختياره . نحن مرغمون على أن نريد ، لكن لا تثريب على هذا لأنه يعفينا من كل مسؤولية .

ويوافق على ما تعترض عليه روح الشر من الذهاب للبحث عن الحقيقة اينما وجدت ، وراء البدن ، ووراء الحياة ، وفي العدم المنتقم :

« العدم هو الاله الذي أدعوه .
أيها المنتقم المحجوب بحجاب ، كن نجاتي! »

ويهيب فاوست بالموت الأزلي فيغرس الخنجر في قلبه ، قائلا :

« أيها العدم الأبدي ، اني أغوص في حضنك!
ربما كان مجرد عدم ، وربما كان هو المعرفة ،
انه اليقين على كل حال » .

أما لناو Lenau (١٨٠٢-١٨٥٠) فقد ألف قصيدته عن فاوست على غرار قصائد بيرون Byron الكبرى : أي ملحمة شعرية تقطعها المحاورات والمناجات ، وتتوالى فيها الأحداث دون ارتباط . وقد ظهرت في سنة ١٨٣٥ عند الناشر الشهير كوتا Cotta في اشتوتجرت ، وتقع في ٢٣ مشهدا ، وأصدر لها طبعة ثانية أضاف اليها المشهد الرابع والعشرون ، وذلك في سنة ١٨٤٠ . عنوانها : « فاوست : قصيدة » .

وتبدأ القصيدة بفاوست وهو على جبل في ساعة الشروق ، بين الأنسام الطاهرة التي تهب على الجبل . نراه يائسا من تحقيق أمانيه في التشبه بالاله :

« لا تطلب التشبه بالله ،
ما دام قدرك هو أن تتابع مسيرة الحج على الأرض »

لكن فاوست لا يستطيع أن يقنع بالجهل ، بل يريغ الى انتزاع أسرار الطبيعة ، واستكناه مخبآت الحياة . لكن « كل المخلوقات غارقة في الصمت » . وتلك مشكلته التي تعذبه باستمرار . انه لا يستطيع أن يعرف الطبيعة ، ولا الله ، ولا نفسه . ويعبر عن هذا العذاب بنبرات حارة فيقول :

« مشقة رهيبة ومرارة قاتلة
أن يحمل المرء في داخله اعصارا من المشاكل ،
بينما في الخارج يسود صمت كصمت الموت ،
وارادة عنيدة ترفض أن تجيب علينا أبدا »

ويرثي حاله فيقول :

« أنا اذن مفرد خارج نفسي
معذب دائما بالشكوك مشدود ،

غريب بلا هدف ولا وطن .
أترنح في دوار وأسير بغباء
بين الهاوية الحزينة لنفسي
وبين الجدار الصخري الرهيب لهذا العالم ،
على المعبر الضيق المهتز للشعور »

ويفضي لتلميذه فجنر ، أثناء جلسة تشريح ، بيأسه من امكان كشف أسرار الطبيعة ، لأننا وان كنا نعرف دقائق الجسم الانساني : من أعصاب وعروق ووظائف لكل عضو ، فاننا نجهل ماهية الحياة... ذلك أنه يطمح الى اكتناه هذا السر :

« لأني لا أستطيع أن أفصل نفسي عن الأغنية العالية ،
ألا وهي أن أعرف الروح الأولية الخالقة » .

ان فاوست رجل طموح للمعرفة ، حريص عليها بحماسة وأمانة .

« أنا رجل ، وما أحبه
أحبه بملء الشهوة الرجولية ،
أحبه على الحياة وعلى الموت ،
على السلامة أو الهلاك الأبدي »

غير أن فاوست لنا وهذا لم يكن دائما هكذا ، فان صديق شبابه ، الكونت ايزنبورج ، وهو يلعب الدور نفسه في فاوست قصة فدمن ـ يذكر أنه عرفه في شبابه يفور حيوية ويقضي الليالي البيض في الحانات ، ويفند الأساتذة العلماء ، وكان مليئا بالجسارة ، مندفعا يتطلب النجوم! بيد أنه لم يستمر على ذلك طويلا ، اذ مالبث أن زهد في ملذات الدنيا ، وأغلق على نفسه في معمله ، وهو يقول :

« ان قلبي لم يشتعل أبدا بحب أية امرأة أرضية ،
وانما الحب الأشقى المعدوم الرجاء أبدا ،
حب الحقيقة هو الذي كان عذابي . »

ويؤكد هذا المعنى فيقول :

« لا أريد أن أحتضن عروسا أبدا
ان حياتي نزاع وحشي...
ولن تفيدني أية امرأة ولو كانت حنونا مخلصة . »

وهذا هو ما يلومه عليه مفستوفيلس قائلا : «لقد كنت حتى الآن غرا أبله» . ويحاول اغواءه بتزيين لذات الحياة : من حب وقتل ، فيقول له :

«انك لم تتذوق النساء بعد ،
ولم تجندل عدوا لك في بحر دمائه ،
ان أحسن ما تنطوي عليه الحياة
أنت لم تجرؤ على تذوقه .»

ان الوصول الى الحقيقة لا يكون بالتأملات الجوفاء ، وانما بأن يحيا المرء الحياة بعمق وجسارة ، أن يخاطر ، أن يعيش في خطر ، بل وأن يرتكب جرائم :

«ان عليك أن تسعى الى الحقيقة بجسارة من خلال الخطيئة» .

ويقتاد مفستوفيلس فاوست في طريق الشهوات . ولهذا يعرض علينا ولنا سلسلة من المشاهد الشبيهة بتلك الواردة عند جيته : رقص في الفندق ، زفاف ريفي ينتزع فيه فاوست احدى الزوجات ، بينما مفستوفيلس يعزف على الكمان ، كما يعرض مشاهد مستمدة من «الكتاب الشعبي» مثل : ألاعيب الكلب الساخر ، ويغوي فاوست فتاة جميلة تدعى هانشن Hannchen ثم يتركها بعد أن أنجب منها ولدين . ويغوي راهبة وينجب منها طفلا يلقي به في أعماق البحيرة ويعثر على عظامه في البحيرة الواقعة بالقرب من الدير . والحب الوحيد النبيل الذي عاناه هو حبه للأميرة ماريا ، التي يرسم صورتها . وذات يوم يأتي خطيبها الغيور ويفاجئهما ، فيدعو فاوست الى المبارزة ويقتله .

ويحاول بعض الناس الطيبين هديه الى الصواب . فيرفض بعناد . انه لا يؤمن بالله ولا بأي دين . ذلك أن خطة الشيطان كانت تقضي بابعاده عن الناس ، وعن الطبيعة ، عن الله ، وجعله لا يثق الا بنفسه . ثم يجعله بعد ذلك يشك في نفسه ويرمي به في هاوية اليأس . يقول مفستوفيلس :

«لقد انفصل عن المسيح ،
وليس علي بعد الآن الا أن أفصل فاوستي هذا عن الطبيعة .
وحين أفلح في كسر الرابطة بينهما ،
سأعمل على عزله عن كل قوى السلام ،
وهنالك سيجد نفسه وحده في مواجهة ذاته ،
وبوثبة واحدة سأقفز في داخل هذه الدائرة .»

ولا يصعب على مفستوفيلس أداء هذه المهمة : ففاوست لا يؤمن بالمسيح ولا بالله .

ما عزله عن الطبيعة فقد ابتكر مفستوفيلس لتحقيقه وسيلة ناجحة هي في دفعه في طريق الشهوة الى آخر مدى ، وبهذا يفسد طبيعته ، فتغضب عليه الطبيعة كلها ، وتصير الطبيعة ، الصديقة ، غريبة عليه . » لأن الطبيعة تحب مخلوقاتها طالما كانوا لا يسعون الى الافلات منها . أما من ينتهك قوانينها فما أقساها عليه .

ن الطبيعة متلفعة بالأسرار ، صامتة لا تفصح عن مخبآتها . وها هو ذا يتأمل الطبيعة وهو في مرج بديع ، لكنه بدلا من الاستمتاع السلبي ، يأخذ في الحكم على المنظر ، هنالك يصير المنظر عدوا له ، وتتراءى الأزهار كأنها تقطيبات توبيخ ، ويلوح أنين الينابيع كأنه بكاء على البراءة التي فقدها ـ ولم يعد الربيع يبتسم له :

« أنا وحدي مبغض من الربيع »

وراح يلعن الطبيعة : فينعتها بالقسوة والشدة ، انها تهلك ما تخلق ، وتميت من تلد .

لكنه ما يلبث أن يهزأ بهذا التفكير ، ويرى أن الطبيعة لا تحفل لأحد ولا تكترث بشيء :

« من الهزل أن نتساءل
هل الطبيعة صديقة ودود
أو هي عدو لدود ـ
كلا الأمرين وهم أنت تتصوره فيها . »

وامعانا في الهروب من الواقع يريد فاوست أن يرحل بعيدا في البحار :

« أريد الآن الرحيل هناك في البحر
انه وحيد ، موحش ، وخواء
انه لا يزهر ولا يذبل
انه قبر أبدي خلا من الزينة »

ويقترح عليه مفستوفيلس أن يبحر على سفينة مسحورة توجه بالاصبع ، وتتحدى العواصف ، وينعم فيها راكبوها بكل أنواع النعم والأطايب . لكن فاوست يرفض ، مؤثرا سفينة « قليلة الأمان ، مهتزة ، ضعيفة » من النوع الذي يصنعه بنو الانسان . ويثير البحر في نفس فاوست مشاعر سامية :

« أيتها العاصفة ، أيتها العاصفة ، كم أشتاق اليك! »

انه يدعوه الى تحدي سيد العالم ، ويبعث فيه الحنين الى الموت ، ويشيع فيه ازدراء المخلوقات .

وتنتهي هذه السفرة البحرية بالغرق . لكن الناجين مايلبثون أن ينسوا هذه الكارثة . فيرقصون ويشربون ويغنون ويتناقلون الأحاديث في فندق للملاحين . لكن فاوست لا يجد في هذه ما يرضيه . فراح يتأمل مجرى حياته ، ويأسى على حاله ، لكن روح التمرد تعاوده فيقول :

« يا سيد العالمين ، اني أتحدى قوتك
أريد أن أشعر بذاتي دائما بوصفها ذاتي ،
ولا أريد أبدا أن تنتزعني
الموجة المقدسة للبحار من بين أسواري المتينة . »

ويعدد خيبة آماله : الوهم الأول :

« كنت متقدا برغبة حارة
في أن أحيط بالعالم في المعرفة »

والوهم الثاني :

« طالما اشتعلت قبلة على الأرض
لم تحرق نفسي ،
وطالما أشتكي ألم على الأرض
لم يقرض قلبي ،
وطالما لم أسيطر على كل شيء -
فاني أفضل ألا أكون حيا . »

فالملاذ الأخير اذن هو الموت . ولهذا ينتهي فاوست بالانتحار .

ان « فاوست » ليناو تعبير أليم عن جيل عاجز عن تحقيق أحلامه ، كفر بالدين وبالتقاليد والأوضاع الراهنة في أوروبا ، لكنه لم يستطع أن يحل محل ذلك دوافع جديدة للحياة .

٨
« فاوست » الثاني

أصدر جيته اذن الصورة النهائية لـ « فاوست » الأول في ربيع سنة ١٨٠٨ . وعلى الرغم من أنه في مخططه الأول كان ينوي اكماله بفاوست ثان ، فقد ظل هذا مشروعا لم يتحقق الا بعد ذلك بربع قرن ، وقبيل وفاته بعام واحد . وفي هذه المدة الطويلة شغلته مؤلفات أخرى :

« بندورا » (سنة ١٨٠٨) ، « الانساب المختارة » (١٨٠٨-١٨٠٩) ، « الرحلة الايطالية » (١٨١٦-١٨١٧) « الديوان الشرقي » (سنة ١٨١٩) ، « سنوات أسفار فلهلم مايستر » (سنة ١٨٢١) ، « الشعر والحقيقة » (١٨٠٩-١٨١٤ ثم ١٨٣٠) . وخلال هذه المشاغل كلها ظل مشروع « فاوست » الثاني يشغل باله . ففي يومياته بتاريخ ١٦ ديسمبر سنة ١٨١٢ يرسم جيته صورة اجمالية للجزء الثاني من « فاوست » على النحو التالي : فاوست وهو مستغرق في نوم عميق ، تحيط به جوقة من الأرواح العلوية التي تلوح له بمباهج الشرف والقوة ، والشهرة والسلطان - يستيقظ مملوءا بقوة جديدة ، شاعرا بمطمح جديد نحو المعالي . ويقتاده مفستوفيلس الى أوجسبورج ، حيث الامبراطور مكسميلان يعقد مجلس الامبراطورية والبلاط .

ويجري حوار بطيء بين الامبراطور وفاوست ، ثم حوار آخر مثير بينه وبين مفستوفيلس وهو على هيئة فاوست ، وفي ختام الحوار يطلب منه الامبراطور عرض أعمال سحرية . وعلى مسرح سحري تظهر أولا هيلانة أجمل نساء اليونان ، وخاطفها باريس . فلما شاهد فاوست هيلانة اشتعل قلبه حبا لها ، واستولت عليه رغبة ملحة في استحضارها ، وطلب من مفستوفيلس بذلك . وفي قصر محصن قديم للفرسان ، صاحبه يشارك في الحروب الصليبية في فلسطين ، يحدث اللقاء بين فاوست وهيلانة وزواجهما . ومن هذا الزواج ينجب ولداً ، ينمو بسرعة فائقة ثم ينتهي نهاية عنيفة وهو في صباه واذا بهيلانة ، في هلعها ، وهي تلوي يديها ، تمحو عن غير قصد الدائرة السحرية التي منحتها الجسد ، فلا يبقى بين يدي فاوست وهو يحضنها الا ثوب خال من لابسه . ويتغلب فاوست على الرهبان الذين أرادوا الاستيلاء على القصر ، ويحصل على خيرات وفيرة . لكنه يشيخ ، وسيظهر للقارئ ما سيحدث ، حين نجمع في المستقبل الشذرات أو بالأحرى المواضع المشتتة لهذا الجزء الثاني وننقذ ما هو مفيد وشائق للقارئ... وأمثال هذه الغرائب الشعرية ، التي لايزال بعضها خطة ومشروعا ، بينما البعض الآخر جاهز عتيد - ستقدم زادا مثيرا وحافلا بالمعاني » .

تلك هي الخطة الأولى التي رسمها جيته للجزء الثاني من « فاوست » وترجع الى فترة قدمته في فرانكفورت والفترة الأولى من اقامته في فيمار التي انتقل اليها في سنة ١٧٧٥ .

ويكتب الى شلر في ١٢/٩/ ١٨٠٠ فيقول : « ان الجميل في وضع هيلانتي يجتذبني الآن بشدة الى درجة أنه يحزنني أن أحولها الى شخصية مروعة Fratze » . ذلك أن هيلانة في مسرحية العرائس قد استحالت الى شخصية مروعة غريبة .

والشذرات الجاهزة التي يشير اليها جيته هي : «هيلانة في العصر الوسيط» ، التي كتبها جيته في سنة ١٨٠٠ ، وتقع في ٢٦٥ بيتا من الشعر ، ولكن لا نجد فيها حادثة يوفوريون والخاتمة .

لكن على الرغم من هذا المخطط الذي رسمه في سنة ١٨١٦ ، فانه بقي ٩ سنوات دون أن يستأنف العمل في فاوست الثاني .

فماذا دفعه اذن الى استئنافه في سنة ١٨٢٥ ؟

الرأي الراجح هو أن موت بيرون في مسولونجي (في اليونان) في سنة ١٨٢٤ هو الذي دفعه الى انجاز «فاوست» الثاني ، لأن جيته كان معجبا ببيرون ، وبالنزعة «الشيطانية» فيه ، وبحماسته لتحرير بلاد اليونان . لهذا خطرت بباله حينئذ ، لدى علمه بموت بيرون في اليونان ، فكرة تمجيد بيرون في «فاوست» الثاني على صورة الشاعر يوفوريون Eu-phorion ولهذا فانه بدلا من أن يأتي بهيلانة الى ألمانيا ـ كما في الخطة الأولى التي أوردناها ـ جعل فاوست هو نفسه ينتقل الى بلاد اليونان ، فيتم التزاوج بين الشيطانية الرومنتيكية وبين النصاعة الكلاسيكية : الأولى ممثلة في فاوست ، والثانية رمزها هيلانة .

وثم مؤثر ثان ظل يلح عليه في انجاز «فاوست» الثاني ـ هو أكرمن Eckermann الذي لازمه من سنة ١٨٢٣ حتى وفاته سنة ١٨٣٢ كاتبا له مخلصا يملي عليه الأحاديث والمؤلفات ، حتى صار ألصق الناس به ، خصوصا وقد كان اكرمن وافر الذكاء واسع الاطلاع شديد الاعجاب بجيته ، متفانيا في الاخلاص له .

عرف اكرمن الشذرات التي كتبها جيته وتدخل في الجزء الثاني من فاوست ، فتحسر على أن جيته لم ينجز هذا الجزء ، وراح يلح في الرجاء لديه كي ينجزه . بيد أننا لا نعلم ما هذه الشذرات التي اطلع عليها اكرمن ، لأن تاريخ تصور وكتابة جيته لشذرات الجزء الثاني غير معلوم على وجه دقيق . ان جيته صرح في أول ديسمبر سنة ١٨٣١ بأنه وضع خطة الجزء الثاني منذ خمسين سنة . وكتب في ١٧ مارس سنة ١٨٣٢ يقول ان تصور الكل قد تم منذ أكثر من ستين عاما ، وزعم في رسالة الى اتسلر Zelter بتاريخ أول يونيو سنة ١٨٣١ يقول ان خطة الكل قد رسمها وهو في العشرين . وهكذا وقع جيته وأوقعنا معه في هذا التشويش التاريخي .

ان ثم موضوعين في «فاوست» الثاني أخذهما جيته من «الكتاب الشعبي» ومسرحيات العرائس عن فاوست ، وهما : ظهور فاوست في بلاط الامبراطور ، وزواجه من هيلانة أجمل نساء اليونان .

وهذا الموضوع الثاني اجتذب انتباهه أولا ، كما يظهر من رسالة بعث بها الى فون هومبولت Humboldt بتاريخ ٢٢/ ١٠/١٨٢٦ يقول فيها ان موضوع هيلانة «هو واحد من أقدم التصورات (التي خطرت ببالي) ، ويقوم على منقول المسرحيات العرائسية ، ومفاده أن فاوست طالب مفستوفيلس باحضار هيلانة له» . ونحن نجد في المسرحيات العرائسية الشعبية ان الشيطان يحضر له هيلانة ، ولما أراد فاوست احتضانها بين ذراعيه تحولت الى شبح جهنمي . ويبدو أن جيته كان ينوي في بداية الأمر أن يصورها على أنها وهم وخدعة . لكنه ما لبث أن عدل عن ذلك ، وجعل منها شخصية حقيقية حية قد بعثت من جديد . وبدأ بالكتابة في موضوع هيلانة في سبتمبر سنة ١٨٠٠ ابان مقامه في يينا ، وتحدث مع شلر في هذا الأمر ، وكان شلر قد نشر مسرحية «ماريا ـ ستورت» وشرع في مسرحية أخرى بطلتها امرأة وهي مسرحية «عذراء أورليان» (أي : جان دارك) . وفي رسائله مع شلر يقول بتاريخ ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠٠ أن هيلانة «هي قمة الكل» ، أعني أنها مركز القسم الثاني من فاوست ومنها تتفرع الخطوط المؤلفة لهذا القسم .

ومن ناحية أخرى كان في «الافتتاح في السماء» الفكرة الموجهة لتحديد نهاية فاوست ، أعني الرهان بين الله وبين مفستوفيلس بشأن فاوست . والدليل على ذلك أن سولبيس بواسريه Sulpiz Boisseree ، أثناء مقامه سنة ١٨١٥ في فيزبادن وفرانكفورت وهيدلبرج التقى بجيته وسأله ذات يوم عن نهاية فاوست ، فقال جيته : «من أخبرك بهذا ، ولا يجوز لي أن أخبرك به ، لكن هذا أمر قد فرغ منه وتم على شكل عظيم ورائع... ان فاوست في البداية قد وضع مع الشيطان شرطا عنه ينتج كل شيء» .

كان موضوع هيلانة اذن هو قطب التأليف في «فاوست» الثاني . وقد فرغ من كتابة هذه القطعة عن هيلانة ونشرها في ربيع سنة ١٨٢٧ تحت عنوان : «هيلانة ، حكاية خيالية كلاسيكية رومنتيكية ، قطعة مسرحية من فاوست» .

وفي الوقت نفسه ، في الكراسة الأولى من المجلد السادس : «عن الفن والأوائل» يعرض جيته معنى ومغزى الجزء الثاني من «فاوست» فيقول : «شخصية فاوست في أعلى درجاتها ، تأليف جديد مستخلص من الأساطير الشعبية القديمة الغليظة ، تعرض انسانا ضاق ذرعا بالاطار الأرضي العام وتبين له أن اكتساب أعلى معرفة والاستمتاع بأجمل الخبرات هما أمران غير كافيين لاشباع أمانيه ولو لأقل درجة : انه روح أينما تلفت عاد شقيا يائسا . وهذا الشعور مماثل للانسان الحديث ، حتى ان كثيرا من

-رؤوس الجيدة شعرت بأنها مدفوعة الى معالجة هذه المسألة . والطريقة التي وفقا لها تصرفات قد ظفرت بالتقدير ، ورجال ممتازون فكروا في هذا وفسروا النص الذي كتبته ، وهو أمر أشكر لهم صنيعهم ازاءه . لكنني عجبت من أن أولئك الذين قاموا بتكميل ومواصلة «شذرتي» لم يصلوا الى أفكار قريبة ، ولا بد لتأليف الجزء الثاني من أن يرتفع فوق المستويات البائسة التي حققت حتى الآن ، وأن تقتاد هذا الرجل الى مناطق أعلى وفي ظروف أليق به .

ولما كنت أنا من ناحيتي قد شرعت في هذا العمل ، وها هو ذا يتراءى في هدوء أمامي ، وأوصله بين حين وآخر ، محتفظا بسري تجاه الجميع ، وكلي أمل في أن أقود هذا المؤلف الى النهاية المتمناة . والآن لا ينبغي لي أن أتحفظ وأن أحجب أي سر عن الجمهور فيما يتعلق بنشر كل مجهوداتي . بل أنا أشعر بأن من واجبي أن أعرض كل انتاجي ، شيئا فشيئا ، حتى لو كان ذلك على شكل شذرات . ولهذا قررت أن أضع الدراما الصغيرة السابقة الذكر في الجزء الثاني من فاوست عند أول ارسال لمؤلفاتي . بيد أن الفجوة الكبيرة بين النهاية الأليمة المعروفة للجزء الأول وبين ظهور البطلة اليونانية لا تزال فاغرة فاها» .

وهكذا أتم جيته الدراما الخاصة بهيلانة ، وبقي عليه أن يملأ الفجوة بينها وبين نهاية «فاوست» الأول ، ثم ان يتم المأساة بعد دور هيلانة . وكان على جيته اذن أن يكتب فصلين يتلوهما الفصل الثالث الذي تشغله دراما هيلانة ، ثم يتلوها فصلان (الرابع والخامس) يرويان نهاية فاوست .

ومن الفصل الأول نشر جيته ١٤٢٤ بيتا (حوالي ٣/٤ الفصل الأول) في طبعة مؤلفاته التي ظهرت في عيد فصح سنة ١٨٢٨ .

لكن عمل جيته في الفصول الباقية قد حال دون سيره بانتظام واسراع عدة أحداث : منها موت الأمير كارل أوجست دوق فيمار وولي نعمته في ١٨٢٨/٦/١٤ ، ثم موت الدوقة الكبيرة لويزة في ١٤/ ٢/ ١٨٣٠ ، ثم موت ابن جيته في روما في ٢٨/ ١٠/ ١٨٣٠ ، ثم ان جيته أصيب بنزيف دموي حاد في ليلة ٣٠/ ١/ ١٨٣٠ .

فمضت ثلاث سنوات بعد ظهور ثلاثة أرباع الفصل الأول في سنة ١٨٢٨ حتى أتم الفصلين الأول والثاني من بدايته حتى سنة ١٨٣١ . ويقول جيته عن هذا في رسالة الى اتسلتر Zelter بتاريخ ٤/ ١/ ١٨٣١ : «الفصلان الأول والثاني من فاوست أنجز... وهيلانة تظهر في بداية الفصل الثالث ، لا بوصفها ذات دور مقحم ، بل بوصفها البطلة (بفاوست

الثاني كله) . ومجرى هذا الفصل الثالث معروف . الى أي حد سيساعد الآلهة في الفصل الرابع ، فهذا ما لم يتقرر بعد . والفصل الخامس حتى نهاية النهاية قد استقر على الورق » .

ويقول لنا اكرمن ان جيته قرأ عليه الصفحات التي تروي الذهاب الى الأمهات في ١٠ يناير سنة ١٨٣٠ ، وأن أكثر من نصف «ليلة فالبورج الكلاسيكية» قد أنجز بعد ذلك بأربعة أسابيع ، وأن الفجوات وبقية ليلة فالبورج قد أكملت في سبتمبر سنة ١٨٣٠ . وبهذا أنجز القسم الأصعب في فاوست الثاني .

بقي اذن الفصلان الرابع والخامس . وهذان اتمهما جيته خلال صيف سنة ١٨٣١ ، وهو آخر صيف في حياته ، وقد قضاه في خلوة في البيت المحاط بحديقة . وكتب في ٢٠ يوليو سنة ١٨٣١ الى صديقه هـ . ماير H. Meyer يخبره بأنه أنجز «فاوست» الثاني كله . «وهكذا دحرج حجر فوق قمة الجبل الى الجانب الآخر» ، ـ وكان قد كتب في ٣ نوفمبر سنة ١٧٨٧ من روما يقول : «والآن لا يزال يقوم أمامي اثنان من مثل هذا الاحجار ، وهما فاوست وتاسو» ـ أي أنه فرغ من المشروع الثاني الأدبي ، أعني كتابة «فاوست» الثاني .

وهكذا نجد أن «فاوست» بجزئيه قد صحب جيته طوال حياته : منذ ريعان شبابه حتى آخر سني عمره الطويل . ولهذا نراه يقول في آخر رسالة كتبها بعد اصابته بالعلة التي مات بها :«مضى أكثر من ستين عاما على تصوري لموضوع فاوست بوضوح وأنا في مطلع الشباب» (رسالة الى فلهلم فون همبولت بتاريخ ١٧ مارس سنة ١٨٣٢) .

ولم ير جيته «فاوست» الثاني ، وانما طبع في الجزء الأول من مؤلفاته التي خلّفها بعد وفاته .

وبمناسبة مرور مائة عام من مجيء جيته الى فيمار ، أعني في نوفمبر سنة ١٨٧٥ ، مثلت مسرحية «فاوست» بجزئيها ، وقد أخرجها اوتو دفريانت Otto Devrient ، في فيمار .

وبعد انجازه «لفاوست» الثاني قال لاكرمن : «أستطيع منذ الآن فصاعدا أن أعد الزمن المقدر لي في العمر هبة مجانية من الآلهة ، ولا يهمني الآن ماذا سأستطيع أن أفعل أو لا أفعل» . (حديث جيته مع اكرمن بتاريخ ٦ يونيو سنة ١٨٣١) .

تحليل «فاوست» الأول

١
الاستهلال

والآن وقد بينا تاريخ تأليف جيته لمسرحية «فاوست» بجزنيها ، علينا أن نقوم بتحليل كليهما .

أ ـ الاهداء

في الاهداء يستذكر جيته تصوراته وأحبابه في مطلع الشباب ، حين كان مندفعا في تيار «الاندفاع والعاصفة» ، تعمر نفسه نزعات شيطانية ، أعني : التمرد ، والتطلع الى آفاق عالية تتجاوز الاطارات الانسانية المألوفة ، والانطلاق في حرية خلاقة لا تأبه بالقيود الطبيعية ولا الاصطلاحية ، والحنين الى الهوية مع الكل في اتحاد بالوجود والكون . هذا مع مزاج سوداوي متشائم جسّده في شخصية «فرتر» ، واشتغال بغرام مشبوب الأوار ، لكنه لا يظفر بالنجاح والاشباع : فريدريك بريون Brion ، وشرلوت بوف Charlotte Buff ، (بطلة «آلام الفتى فرتر») ، وليلى شينمن Lili Schonemann ، الخ .

لكنه حين استأنف «فاوست» في يونيو سنة ١٧٩٧ وهو يقترب من الخمسين من عمره ، كانت ثورة الشباب قد زالت أو كادت ، وان أصدقاؤه ومحبوباته : منهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، ومن ينتظر هو الآخر قد تشتت في أرجاء الدنيا . وصدى شعره الأول قد صمت ، وصار شعره الآن يرن لجمهور مجهول اطراؤه يقلق قلبه بدل من أن يسره لأنه خلا من حرارة الحماسة المخلصة .

لقد صار هذا الماضي كله مؤلفا من بخار وضباب ، يتجلى في أشكال مترنحة ، تحمل

في طياتها صور الأيام السعيدة ، فيأسى الشعر عليها ، ويتجدد الألم وتتكرر الشكاة .

وها هو ذا يسائل نفسه هل يستطيع أن يبعث الحياة من جديد في هذه الأشكال الماضية ، وأن يسترد صور الأيام السعيدة في اشذراسبورج ، وفرانكفورت ، ودرمشتات ، وفتسلار ؟

أما الذين قضوا نحبهم من أحبائه فنذكر منهم ، أخته كورنليا Kornelia صديقته الحميمة الوفية التي كان يستريح اليها من تشدد أبيه وعدم فهم أمه ، وقد توفيت هذه الأخت العزيزة في سنة ١٧٧٧ .

ثم صديقه الوفي الموحي اليه بالكثير من الأفكار : مرك Merck الذي ضاق بالحياة المريرة التى انتهى اليها فانتحر في سنة ١٧٩١ ، ثم صديقه لنتس المتوفى في سنة ١٧٩٢ .

وأما الذين لايزالون أحياء ولكنهم مشتتون في أرجاء الأرض فعلى رأسهم ياكوبي Fr. h. Jacobi الذي عصفت به أحداث الثورة الفرنسية فاضطر الى مغادرة ألمانيا الى هولشتين (الدنمارك آنذاك) في سنة ١٧٩٤ ، ثم عاش في أوتين Eutin وفاندزبك Wandsbeek وهمبورج ، وأخيرا انتقل الى منشن وفيها توفي في ١٠ مارس في سنة ١٨١٩ ، وكان جيته قد تعرف اليه في سنة ١٧٧٤ وأثر في جيته تأثيرا عميقا . كذلك نذكر كلنجر Klinger الذي هاجر مبكرا الى روسيا ، ونذكر لافاتر Lovater الذي ارتبط به جيته ارتباطا حميما وقد عاد يعيش في وطنه ، في مدينة تسورش (زيورخ في سويسرة) - كذلك انقطعت الشقة بينه وبين أمه التي تعيش في فرانكفورت ، وبينه وبين الكونت اشتولبرج Stolberg .

لقد كان جيته يلقى من كل هؤلاء الاعجاب الممزوج بالعطف والتشجيع ويجد لديهم الصدى الذي يود كل عبقري أن يستشعره لدى القراء والسامعين . أما «فاوست» التي يقدمها الآن فلن يقرأها أو يسمعها هؤلاء المعجبون المخلصون المتعاطفون معه ، بل جمهور لا يعرفه ولا ينبض نبضه ، ولا يمكن أن يتعامل معه ، بل سيحكم عليه وفقا لقواعد الصيغة المحدودة ، وببرود وعدم اكتراث وربما بحقد دفين وحسد ونفاسة .

ب - الاستهلال المسرحي

الاستهلال المسرحي تأثر فيه جيته بنموذج مسرحية هندية اسمها «شكونتالا» من تأليف الشاعر الهندي كليداسا ، وكانت قد ترجمت الى الألمانية في الوقت نفسه الذي نشرت فيه «شذرة» فاوست ١٧٩٠ . فالشاعر الهندي قد وضع في مستهل مسرحيته حوارا بين مدير المسرح وبين احدى الممثلات في المسرحية . وقد قرأ جيته ترجمة فورستر

. مـ ـية نهذه المسرحية ، فألهمه هذا الحوار التمهيدي في المسرحية الهندية هذا الاستهلال مسرحي الذي كتبه لـ «فاوست» .

ويجري الحوار في هذا الاستهلال المسرحي «لفاوست» بين الشاعر من جهة وبين مدير المسرح والشخص المرح من جهة أخرى . ويطلب هذان الأخيران الى الشاعر أن يؤلف مسرحية ترضي ذوق الجمهور كيما يزداد دخل المسرح من المال ، بينما الشاعر يشيح بوجهه عن هذا الاتجاه المادي .

ان مدير المسرح لا يهمه من المسرحيات غير شيء واحد . أن تكون حصيلة شباك التذاكر أكبر حصيلة ممكنة ، ولتكن المسرحية من الناحية الفنية بعد ذلك ما تكون . ان المعيار عنده هو مقدار التذاكر المبيعة وأقصى آماله أن تكون المسرحية خزانة النقود Kas-sensstuck ، أي تملأ خزانته بالنقود . وقد قدم لنا جيته تجسيدا لهذا النوع من مديري المسارح في شخص السيد ملينا Melina في قصة «سنوات الطلبة في حياة فلهلم مايستر» .

ومدير المسرح هذا يعرف جمهوره ، وهو جمهور لم يتعود على المسرحيات الرقيقة ، لكنه جمهور قرأ كثيرا . ولهذا يود من الشاعر أن يؤلف له مسرحية فيها «كل شيء طري جديد ذو معنى وسارّ أيضا» . وهو يدع للشاعر أمر «المعنى» ، وما يهمه هو ويلح عليه هو «اثارة البهجة» ، والبهجة عنده تكون بالمعنى القليل والاضحاك الكثير .

فيرد عليه الشاعر بأن الشاعر الحق هو الذي يتوجه الى دائرة قليلة العدد من الصامتين الذين يتذقون الفن الرفيع ، والذين لا يهزهم إلا الكلام الصادر من أعماق القلب الحافل بالمعاني السامية ، ويصيح : «كلا! اقتدني الى الحلقة الضيقة السماوية السامية ، حيث لا يتفتح للشاعر الا السرور المحض ، حيث الحب والصداقة يخلقان ويرعيان بيد الهية سعادة قلبنا المباركة» . ان العمل الرفيع المنبثق من أعماق النفس تجرفه اللحظة الحاضرة في تيارها . لكنه بعد مرور العديد من السنين يطفو من جديد في شكله التام . «ان ما يلمع لا يبقى الا لحظة ، أما الجميل حقا فيبقى للخلف الى الأبد» .

لكن الشخص المرح (المهرج) لا يريد أن يسمع شيئا عن الخلف والأجيال المقبلة لأنه انما يهمه فقط امتاع الحاضرين . ولهذا يهيب بالشاعر أن يطلق العنان للخيال وما يرافقه من جوقات : العقل ، الذكاء ، العاطفة ، الوجدان ، دون أن ينسى الحماقة!

ويتدخل مدير المسرح ليحث الشاعر على الاهتمام بذوق الجمهور العريض ، فيمتعه بما يجعله يشاهد وهو فاغر فمه . ويدعوه الى تجزئة المسرحية ، حتى يقوى على هضمها الجمهور ، بدلا من تقديمها كلها دفعة واحدة .

ويأسف الشاعر لهذا الرأي الذي صار قاعدة عند مديري المسارح .

فيجيبه مدير المسرح بأنه لا يحفل بهذا التوبيخ ، لأن من يريد التأثير فعليه أن يتخذ أنجح أداة ، أمامه خشبا رقيقا عليه أن ينشره ، وهذا الخشب الرقيق هو الجمهور الذي لا يتحمل المسرحية المليئة بالمعاني . وحتى رعاة المسرح من الأغنياء انما يريدون مسرحيات خفيفة ترفه عنهم لمدة ساعتين بعدها ينطلقون الى اللعب بأوراق الكوتشينة ، أو يقضون سواد الليل بين أحضان فتيات مأجورات . فهل يريد الشاعر أن يعتصر ربات الشعر من أجل هؤلاء البلهاء ؟ كلا ، بل على الشاعر أن يثير التشويش في نفوس الجمهور .

لكن الشاعر حريص على كرامة الشعر ، لهذا يصرخ في وجه مدير المسرح قائلا : اذهب وابحث لك عن خادم آخر غيري . اذ لا يليق بالشاعر أن يتخلى عن الميزة التي اختصته بها الطبيعة ، وهي العبقرية الرفيعة الانتاج . «ان العبقرية الانسانية تتجسد في الشاعر» والشاعر الحق لا يريغ الى اثارة التشويش في نفوس الناس ، بل على العكس من ذلك ينبغي عليه أن يشيع الانسجام ، بالشعر «الذي يتدفق من القلب ويهضم العالم في قلبه» . فمن غير الشاعر يثير عاصفة الوجدان ويشعل نيران الأصل في النفس الجادة ؟ وينثر كل أزهار الربيع في طريق المحبوبة ؟ ويجدل الأوراق الخضر تيجان مجد يزين بها كل فضيلة ؟ ويؤمّن (للابطال) مكانة على قمة الاولمب ؟ ويجمع الآلهة ؟» .

ويحاول الشخص المرح أن يخفف حدة التنازع بين مطالب مدير المسرح وأماني الشاعر ، ويترضى الشاعر بكلمات معسولة تغري كبرياءه ، فيقول له «استغلل اذن هذه الملكات الجميلة ، وواصل عملك الشعري كما يواصل المرء مغامرة غرامية» .

وبعد تملق أهواء الشاعر على هذا النحو يهدأ ، ويطالب باستعادة الزمان الذي كان لايزال فيه يتحسس طريقه ، وينهال عليه القصيد متدفقا كالينبوع الثر ويعد البرعم بعجائب الزهر وبالجملة انه يطالب باستعادة أيام شبابه!

وهنا يشيد الشخص المرح بالشباب وعهده الذي فيه تتعلق الفتيات الجميلات برقبتك ، ويرف أمامك التاج الذي ستكافأ به لفوزك في السباق .

ويضيق مدير المسرح بهذه التحليقات الشعرية والسبحات الخيالية ، ويطالبهما بالكف عن الكلمات لأنه انما يريد أفعالا ، لا أقوالا . انه يريد مشروبات روحية يسكر الناس منها وليتم ذلك على الفور .

وللمزيد من امتاع المشاهدين يطالب بعدم التغيير في استخدام الديكورات والآلات ، وأضواء الشمس والقمر والنجوم ، ولتكثر الشلالات ، والنيران ، والصخور ، والحيوان

والطيور ، «وعلى هذه الألواح الضيقة تجولوا اذن في دائرة الخلق الكاملة ، وسيروا بخطى سريعة عاقلة من السماء خلال العام حتى الجحيم» .

جـ ـ الافتتاح في السماء

وفعلا تبدأ مسرحية «فاوست» لجيته من السماء ، وهي الوحيدة من بين المسرحيات التي تدور حول فاوست ، التي تبدأ من السماء . ذلك لأن الفكرة الرئيسية التي جعلها جيته محورا لتصوره لمأساة فاوست هي فكرة «الرهان» بين الله والشيطان ، والشيطان هو الذي يقترح الرهان مع الله .

ذلك أن مفستوفيلس (=الشيطان) وهو في حضرة الله يسخر من الانسان ، وينعته بأنه يشبه الجدجد ذا الرجل الطويلة الذي يطير دائما متواثبا آخذا في ترديد أنشودته القديمة . انه ، أي الانسان ، يحسب نفسه الها صغيرا ، ولكنه شاذ غريب الأطوار مثلما كان في اليوم الأول . وقد كان من الممكن أن يعيش على نحو أفضل قليلا لو لم يكن الله وهبه انعكاسا من النور السماوي ، وهو العقل ، بيد أنه يستخدمه ليصيرأكثر حيوانية من الدواب .

فيوبخه الله لأنه ، أي الشيطان ، لا هم له الا التحقير والانتقاص من المخلوقات ، ولا يرى في العالم الا الشرارة والرداءة يقول له : هل تعرف فاوست ؟ فيجيبه مفستوفيلس بأنه يعرفه ، ويعرف أنه يعبد الله على نحو شاذ غريب ، وأن رأسه يختمر بالمطامع الشاردة ، وهو لا يكاد يعرف أنه مجنون : «فهو يطلب من السماء أجمل النجوم ، ومن الأرض أعلى الملذات . ولا شيء قريبا أو بعيدا ، يرضي هذا القلب الشديد الاضطراب .»

فيجيب الله بأنه لئن كان فاوست يعبد الله عبادة مشوشة ، فانه عما قليل سيقوده الى نور الهداية .

فيرد مفستوفيلس بأن الله سيضيع فاوست ، ويقترح عليه الرهان : «بم تراهن ؟ لو أذنت لي باقتياده برفق في طريقي»

ولا يمانع الله في أن يحاول مفستوفيلس هذه المحاولة طالما كان فاوست حيا . ويصرح بأن «الانسان يخطئ طالما هو يسعى» . وكذا يدع الله الشيطان أن يقتاد الانسان الى الهاوية ، لكن ان بقي الانسان الطيب شاعرا بما هو سبيل الهدى ، رغم تقلبه في سُبل الضلال ، فان على الشيطان أن يعترف بالاخفاق .

وفي هذا الاتجاه كان «فاوست» لسنج ، حيث يسمع صوت من السماء يقول للشيطان : «لا ينبغي لك أن تنتصر!» . لكن ثم فارقا كبيرا ما ورد عند جيته وما ورد عند

لسنج : ذلك أن الحوار عند لسنج يجري بين الشياطين في هذا الموضوع ، بينما هو عند جيته يجري بين اللّه والشيطان في السماء ، ثم أن جيته يبين أن الانسان الطيب الواعي بسبيل الهدى ، وان أخطأ ـ لأن كل من يسعى لا بد يخطئ ـ فانه في النهاية لا بد ان يظفر بالنجاة ، أما عند لسنج فلا شيء من هذا التفضيل والتعليل .

وهذا التصوير للانسان بعامة ـ لأن فاوست في نظر اللّه كما في نظر الشيطان هو نمط للانسان بعامة ـ وهو انه مخلوق يسعى للأفضل ، وفي سعيه لا بد أن يقع في الخطأ ، لكنه يتقدم دائما ويظفر بالمزيد من التقدم والتنوير . وهذا التصوير هو ما طلبه شلر من جيته في تصوير فاوست . وقبل ذلك بعدة أعوام كان امانويل كنت Kant قد كتب رسالة « عن الكفاح بين مبدأ الخير ومبدأ الشر من أجل السيطرة على الانسان » ، وفيها عرض الفكرة نفسها .

وجيته في هذا الافتتاح في السماء تأثر بما ورد في سفر « أيوب » من العهد القديم من الكتاب المقدس ، حيث ورد :

« ٦ : وذات يوم جاء أبناء الله ومثلوا أمام الأزلي ، وكان الشيطان أيضا قد جاء بينهم .

٧ : وقال الأزلي للشيطان : « من أين قدمت ؟ » فأجاب الشيطان الرب قائلا : « لقد زرت الأرض وتجولت في كل نواحيها » ٨ : فسأل الأزلي الشيطان : « هل لفت انتباهك عبدي أيوب ؟ يقينا انه لا مثيل له على الأرض ، ذلك انه رجل أمين مستقيم ، يخشى اللّه ويتجنب الشر » . ٩ : فرد الشيطان قائلا : « وهل أيوب يخشى اللّه دون مقابل ؟ ١٠ : ألم تقم سياجا حوله لصونه هو وبيته وكل ما ينتسب اليه ؟ لقد باركت على عمل يديه ، وقطعانه تنتشر في البلاد . ١١ : فابسط يدك مرة وأمسس كل ما هو له ، (وسترى) ان لم ينكرك في وجهك » .١٢ : فأجاب الأزلي قائلا للشيطان : ليكن كل ما هو له تحت سلطانك ، لكن لا تمسه هو نفسه » . وانصرف الشيطان من أمام وجه الأزلي . »

وتوالت المصائب على أيوب اثر ذلك . فالسبئيون أغاروا وسلبوا البقر ، وقتلوا الرعاة بحد السيف ، وسقطت صاعقة من السماء أحرقت الأغنام ورعاتها ، وانقضت ثلاث عصابات من الكلدانيين على الابل فأخذتها ، وقتلت رعاتها ، وانهار المنزل على أولاده وبناته اثر ريح عاتية ، فهلكوا جميعا . لكن أيوب صبر أولا على هذه البلايا .

وعاد الشيطان فأصاب أيوب بجذام خبيث من أعلى رأسه حتى أخمص قدميه . لكنه صبر أيضا ، رغم تحريض امرأته له بانكار اللّه ودعوتها اياه الى الموت . وجاء ثلاثة من أصدقائه ورأوه على هذه الحال فبكوا ومزقوا ثيابهم . وبعد ذلك فتح أيوب فمه ولعن يوم ميلاده . وراح

يجدف على الله ، ويتحداه أن يذكر له السبب في التنكيل به ، وهو المؤمن البريء التقي . ثم يدور الحوار بين أيوب وبين الله في فصول طويلة ، تنتهي بأن يعيد الله اليه ما سلبه اياه وزيادة .

وواضح ما هنالك من مشابه قوية بين ما ورد هنا في سفر «أيوب» وبين ما يرد في الافتتاح في السماء في «فاوست» .

١- فأبناء الله ووسطهم الشيطان هم الملائكة نفسهم الواردين في الافتتاح : روفائيل ، وجبريل ، وميكائيل ومعهم مفستوفيلس الشيطان .

٢- وعبدي أيوب هو «عبدي فاوست» .

٣- لئن لم يذكر الرهان باللفظ ، فالمعنى عينه وارد في الأصحاح الثالث من سفر أيوب : اصابة الانسان بالبلايا من الله تؤدي الى الكفر به .

٤- وفي كلا الموضعين يأذن الله للشيطان بأن يصبح هذا العبد الطيب التقي تحت سلطان الشيطان .

٥- ونهاية أيوب تكون النهاية التي يختارها جيته ـ ومن قبله : لسنج ، لفاوست ، أي النجاة والنعيم .

لكن هذه المشابه هي في الهيكل العام فحسب . أما التفاصيل فمختلفة تماما :

١- فأبناء الله لا يتكلمون في حضرة الله في سفر أيوب ، وانما الشيطان وحده هو الذي يتكلم .

أما عند جيته فالملائكة يسبحون بحمد الله ويمجدون روائع خلقه ، وحياة الطبيعة في مجموعها ، في العالم العلوي والسفلي ، والنجوم في مساراتها ، وما يجري على الأرض من تحولات : من ليل ونهار ، ومد وجزر ، وعاصفة وزوابع . «ان كل أعمالك السامية رائعة مثلما كانت في اليوم الأول» .

٢- ومفستوفيلس في «فاوست» أذكى جدا وأوسع حيلة وأبرع في القول والتبرير وتحليل الأمور من الشيطان في «سفر أيوب» ، حيث يقتصر دوره على اصابة أيوب بالعلل والبلايا ، أما مفستوفيلس فخراج ولا يهيئ لفاوست المغريات واللذات وينقذه من الورطات التي يتردى فيها . ان شيطان «سفر أيوب» باهت جدا شرير جدا ، بينما مفستوفيلس لامع جدا قليل الشرور ، بارع الحيلة .

٣- نهاية أيوب واضحة تماما في نهاية سفر أيوب «أصحاح ٤٢ :١٢-١٧» .

أما نهاية فاوست في «فاوست» الثاني فيشوبها الغموض حتى ان البعض يرى أن جيته قد تخلص بتسرع من بيان نهاية فاوست . ويعتمد هذا الرأي على أن الرب في الافتتاح لا

يقول كلمة صريحة عن نهاية فاوست . ان الله يثق في سعي الانسان ، لكن مفستوفيلس يعتمد على ضرورة وقوع الانسان في الخطأ والضلال باقرار الله : «أنت نفسك تقول ان الانسان يخطئ طالما هو يسعى» . ولهذا فان الجدال بين الرب ومفستوفيلس لا ينتهي الى حل حاسم ، بل يظل قائما معلقا[1] . والحل الوراد في نهاية فاوست «الثاني» هو في نظر هؤلاء مصطنع مفروض من الخارج ، وليس نتيجة تطور في فاوست .

يرد على هذا الرأي كونوفشر (جـ ٢ ص ١٨٦ وما يليها) فيقول ان الرب لم يشأ الاسترسال في الجدال مع مفستوفيلس لأنه يعلم النهاية ، ويترك الأمور تأخذ مجراها بشكل طبيعي يعلمه الله مقدما . وهو اذن يدع مفستوفيلس في وهمه ، حتى يرى بأم عينيه خيبة رجائه . وكون الانسان يخطئ طالما كان يسعى «لا يدل على انتفاء النجاة عن الانسان ، فإن النجاة لا تعني العصمة من الخطأ . ان في السعي المتواصل قدما في الحياة سموا مظفرا لا يستبعد بذاته الوقوع في الخطأ ، بل يقتضي الوقوع في أحبولة الغوى . وسيكون الأمر كارثة ، لو لم تكن الحال على هذا النحو! ان الأستاذ الضليع يخطئ ، والمفكر الكبير يخطئ ، لكن خطأ الأستاذ الضليع لا يجعله حاطب ليل جهولا ولا تلميذا ، ولا يرده الى مدة الاختبار والتمرين» (كونوفشر جـ ٢ ص ١٨٨) .

أما أن يكون جيته قد حقق هذا الغرض في «فاوست» الثاني ، فهذا أمر آخر للنقاد أن يجادلوا فيه . لكن الأمر الذي لا شك فيه ـ في رأي كونوفشر ـ هو أن جيته قصد فعلا الى نجاة فاوست انما فعل ذلك هازئا من مفستوفيلس ، واثقا بأنه سيخسر الرهان في النهاية ، وبأن فاوست سيظفر بالنجاة .

٢
المناجاة الأولى لفاوست

ويبدأ الجزء الأول من «فاوست» بمناجاة فاوست لنفسه ، وهو يبدو في سن تتراوح بين الثلاثين والخامسة والثلاثين وفيما يأسى على أنه درس الفلسفة ، والقانون ، والطب ، واللاهوت ، لكنه لم يجد فيها ما يشبع فهمه الى المعرفة . لقد كان أبوه طبيبا وعلّمه مهنة

---

(١) راجع في هذه المشكلة :

Fr.Fischer: "Bemerkungen Ueber den I. Teil des Goetschen Faust und namentlich den Prolog im Himmel" in Monats schrift des Wissenschaft Lichen Vereins in Zurich. 1857. Goethes Faust, S. 205-260 (1875).

نطب ، كما علمه صنعة الكيمياء . وحصل أرفع الدرجات العلمية ، وصار أستاذا Magister ودكتوراً Docktor ، وصار له في التدريس الجامعي قرابة عشر سنوات «أضل» فيها تلاميذه لأنه أوهمهم أن ما يلقيه عليهم هو علم مفيد ، بينما هو يعتقد أن ما حصله من العلم لا يشفي غليله من المعرفة .

والآن وقد تبين له عدم كفاية العلوم المعتبرة بين الناس ، فلينصرف الى علوم من نوع آخر ، علوم يحرمها الدين ، وتطاردها الدولة ، وهي علوم الصنعة : السحر ، والطلسمات ، وتحضير الأرواح ، وقراءة الكف ، والسيمياء ، واكتشاف حجر الفلاسفة الذي من شأنه أن يحول المعادن الخسيسة (الحديد ، النحاس ، الرصاص) الى المعدنين الشريفين (الذهب والفضة) .

لقد أيقن من عدم جدوى العلوم المعتبرة . وعلى الرغم من أن ما حصله منها أكبر قدرا وقيمة مما حصله «الدكاترة والأساتذة والكتاب وقوالو القداسات ، وأنه لا يعذبه شك ولا وخز ضمير ، ولا يخاف الجحيم ولا الشيطان» ، فانه تجرد من كل بهجة لا يستطيع أن يعلم الناس شيئا يفلح في اصلاحهم . وهو لم يكسب ثروة ولا تشريفا ولا مكانة بين الناس . فليس أمامه ، للخروج من هذه الحال البائسة «التي لا يرضى أن يحياها حتى الكلب» ، أقول لا مخرج منها الا بالسحر ، عسى أن يكشف له بعض الأسرار ، وأن يوفر عليه الارهاق ، ابتغاء أن يعرف التركيب الباطن للعالم ، ويتأمل القوى النشيطة والعناصر الأولية .

ثم يتطلع في السماء فيشاهد القمر وهو بدر ، مستشهدا به على الليالي التي أمضاها بين الكتب والأوراق ، وكان فيها رفيقه الوحيد في غرفة مكتبه الضيقة القوطية الطراز . ويبعث فيه ضوء القمر الرغبة في أن يحلق فوق أعالي الجبال في ضوء القمر ، مع الأرواح حول كهوف الجبال .

انه ينعي حاله متسائلا : الى متى يرقد في هذا السجن الذي لا ينفذ النور الا من خلال الزجاج الملون في النوافذ ، ويحيط به جبل من الكتب التي أكلتها العثة وعلاها التراب من الأرض حتى قمة القبة ، وحيث الأوراق المدخنة ، وحواليه الأكواب والصناديق وأكداس من الآلات والأجهزة . ومادامت هذه هي حاله فبأي حق يتساءل لماذا يضيق قلبه في صدره ، ويعصر الألم كل توثب فيه للحياة ؟

عليه اذن أن ينطلق من هذا السجن الى الهواء الطلق ، وليكن مرشده هو كتاب الساحر الكبير نوسترادموس : فبه سيعرف مسار النجوم ، ومنه سيستدل على ملكة النفس التي بواسطتها تخاطب الروح الروح .

ويفتح كتاب نوسترادموس فيرى علامة «الكون الأكبر» فتسري فجأة في كل مشاعره مسرات سامية : الشعور ببهجة الحياة ، الطمأنينة التي تهدئ قلبه الحزين . ويملؤه هذا الشعور العارم بالسمو حتى يصيح : هل أنا الله! ذلك لأن عالم الأرواح قد انفتح أمامه ، وعليه الآن يغوص في حمرة الفجر .

ويقلب بضع صفحات فيرى علامة «روح الأرض» ، فتؤثر فيه تأثيرا آخر ، لأنها أقرب نسبا اليه : فيشعر بأن قواه تتزايد ، وكأنه ثمل بخمر جديدة ، ويستشعر الشجاعة للمغامرة في العالم ، واحتمال الألم الأرضي والسعادة الأرضية ، والصراع مع العواصف .

ويعزم تعزيما قويا كي يستحضر «روح الأرض» . فتستجيب «روح الأرض» وتظهر في شعلة ، ويقول : من ذا الذي يناديني ؟ فيرتعد فاوست لأنه لا يستطيع احتمال رؤيتها . فتسخر منه «روح الأرض» وتقول : أين أنت يا فاوست يا من تردد صوته حتى بلغني ، يا من انطلقت نحوي بكل قواك ؟

ويتشجع فاوست ويجيب : أنا فاوست ، أنا نظيرك . كم أشعر بقربي منك!

فتهزأ به «روح الأرض» وتقول : أنت انما تشبه الروح التي تتصورها ، أنت لا تشبهني أنا .

فيسقط فاوست على الأرض مسحوقا وهو يقول : لا أشبهك أنت ؟ من أشبه أنا اذن ؟ أنا ، صورة الله!

ثم يخرجه من هذه المناجاة الأليمة وهذا الحوار المرهق مع «روح الأرض» مجيء تلميذه التابع : فجنر .

وهنا ينبغي أن نتحدث قليلا عن «روح الأرض» هذه . جيته يكتفي بأن يقول أنها ظهرت في شعلة ، ولكنه لا يحدد لنا هيئتها . ويبدو أنه لم يتصور لها هيئة جسمانية ، على عكس ما نجد مثلا في تصور ناوفرك Nauwerck لروح الأرض على شكل مارد هائل ، على رأسه الصور الرمزية للنسر والأسد والتيس ، أو في تصور «روح الأرض» في صورة أرتميس الأفسوسية ، الهة الخصوبة ، التي يغطي نصف جسمها الأعلى : فهود عديدة ، وأسود ، وأيائل ، وبقر ونحل وسائر أنواع الحيوان والنبات التي توجد على الأرض . ان «روح الأرض» عند جيته انما تتصف بأنها قوة أو مجموع قوى عنصرية : فهي تصعد وتهبط في تيار الحياة ، وفي أعصار الفعل ، وتتموج ها هنا وها هناك انها ميلاد وقبر ، وأوقيانوس أبدي ونشاط متغير ، وحياة مشبوبة ، وهي تعمل على نول الزمان كي تنسج الثوب الحي للألوهية .

على أن مهمة «روح الأرض» هنا عند جيته هي أن تعطي فاوست صاحبا من الجن ، وهو مفستوفيلس ، يكون تحت امرته وفي خدمته لتحقيق مآربه وتوفير الملذات له واقتياده خلال عالم الشهوات .

٣
الحوار بين فاوست وتلميذه التابع فجنر

في «الكتاب الشعبي» أنه كان لفاوست تلميذ تابع Famulus يدعى فجنر Wagner والتلميذ التابع Famulus كان يعني في العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث تلميذا كبير السن نسبيا ، يتولى القيام بكل الشؤون الصغيرة للأستاذ فيما يتعلق بمحاضراته وعلاقته بالتلاميذ ، وكان في مقابل ذلك يوفر له سكنا مجانيا ، ويعفى من رسوم حضور المحاضرات وبعض المزايا الصغيرة الأخرى . وهو يناظر ما كان يعرف عندنا في مصر «العريف» في الكُتّاب ، الى حد ما .

وفجنر هنا في «فاوست» جيته يمثل الحذلقة في العلم ، والحرص على التعلم الآلي والاستظهار للكتب المدرسية والمتون ، ان محصوله من التحصيل بواسطة الكتب وفير ، وهو يؤثر الكلمات المحفوظة والعبارات الفخمة والفصاحة اللغوية على الآراء الشخصية والفهم والابتكار .

وهو على النقيض من فاوست : انه يؤمن ايمانا شديدا بالعلم المودع في صدور الكتب ، بينما فاوست قد ضاق به ذرعا واستشرف الى اللانهائي والعلم الحي وهو لا يفهم شيئا من تحليقات أستاذه فاوست ، حتى أنه ظن لما سمع الحوار بين فاوست و«روح الأرض» أن فاوست انما كان يلقي نصا من مأساة يونانية . وذلك لأنه لا يفهم ما يضطرب في نفس فاوست من وجدانات وتطلعات وآلام ، لهذا لم يتصور أن يكون ما قاله فاوست في مناجاته وفي حواره مع «روح الأرض» تعبيرا ينفس به فاوست عما يعتمل في صدره ، بل مشاهد من طراغوديات (مآسي) يونانية يلقيها فاوست القاء كبار الممثلين الطراغوديين .

وفجنر يريد أن يتعلم فن الالقاء ، لأنه سيصير قسيسا يعظ الناس ، ويهز مشاعرهم الى الايمان . وهو كثيرا ما سمع أن القسيس يمكن أن يتعلم الكثير من الممثل الكوميدي . فيسخر منه فاوست قائلا : نعم ، حينما يكون القسيس هو نفسه كوميديا ، كما يحدث بين الحين والحين! ويوبخ فاوست تلميذه على احتفاله برنين الألفاظ الطنانة لاقناع السامعين ،

قائلا إن الامتاع لا يحدث الا اذا كانت الكلمات تتدفق من أعماق النفس . «انك لن تضم أبدا القلب الى القلب ، اذا لم تأت كلماتك من القلب» .

لكن التلميذ مخدوع بروعة الالقاء ، يرى فيها مصدر الاقناع ، لأن رنين الألفاظ ينفذ من المسامع الى القلوب بسهولة .

فيجيبه فاوست بأن العقل والاحساس السليم يقدران على الاقناع دونما حاجة الى كثير من الصنعة . ان كان لديك حقا شيء لتقوله ، فما الداعي الى الركض وراء الألفاظ ؟ غير أن فجنر لا يكاد يفقه من هذا شيئا ، فينصرف الى الشكوى من طول الصناعة وقصر العمر ، ومن صعوبة الظفر بالأسباب المؤدية الى الينابيع الحقة ، التي هي العصور السحيقة ، وانها لمتعة عظيمة أن يغوص المرء في روح الأزمان الماضية ، ورؤية ما فكر فيه الحكماء الذين سبقونا ، وكيف أننا صعدنا الى أعالٍ رائعة .

ويسخر فاوست مما بلغه الانسان من العلم ، ويرى في العصور البالية كتابا مختوما بسبعة خواتم ، وما يسميه فجنر «روح الأزمان الماضية» ليس في جوهره الا عقول الناس الحاليين حيث ينعكس فيها الماضي . وماذا في هذه الأزمان الماضية ؟ انها مجرد سلة قاذورات أو غرفة مهملات ، أو في الأحسن مأساة من مآسي الأسواق حافلة بالحكم الأخلاقية .

وينصرف فجنر ، لأن غدا هو اليوم الأول من عيد الفصح ، ولا يريد أن يثقل على أستاذه وان كان متحمسا للدراسة ، ويختم الحوار بهذه الجملة الحافلة بالتهكم عليه : «لا شك أنني أعلم الكثير ، بيد أنني أود أن أعلم كل شيء!»

* * *

وهكذا نجد في فجنر النموذج الخالد للعالم المحصور في بطن الكتب المتحذلق بالكلمات المحفوظة الجوفاء ، الممتلئ غرورا بما حصله من علم ميت ، الملفق في التفاصيل الجانبية والتفاهات . وهو النموذج الذي ضاق جيته به ذرعا حين كان يدرس في جامعات ليبتسك وجيسن Giessen واشتراسبورج والذي تناوله بالسخرية هردر ، وهامان ، وأنصار حركة «العاصفة والاندفاع» ، ولكنه في الوقت نفسه تجاه فاوست شديد الاخلاص ، مملوء بالاعجاب بأستاذه . وهذا هو ما يخفف من حدة تهكم فاوست عليه ، ويبعث في النفس اشفاقا عليه .

* * *

وبعد خروج فجنر يقلق فاوست على حالة فجنر ، راثيا له «بتعلقه الدائم بالترهات ، ولأن (أمثاله) يفتشون عن الكنوز بيد طماعة ، ويتصورون أنفسهم سعداء ان عثروا على دود أرضي!» .

وعند هذه الكلمات تنقطع «شذرة فاوست» التي نشرها سنة ١٧٩٠ ، ولا يستأنف[1] الكلام الا بعد عقد الميثاق بين فاوست والشيطان . ولا ندري كيف كان جيته يتصور آنذاك - في سنة ١٧٩٠ - أن يملأ هذه الفجوة . ويرى البعض أن جيته كان ينوي - كما فعل في الرواية النهائية لـ «فاوست» الأول - أن يستحضر «روح الأرض» من جديد ، ويستدلون على ذلك بأنه في نهاية المناجاة الأولى يشير الى ذلك . غير أن دونتسر (جـ ١ ص ١٨١) لا يأخذ بهذا الرأي قائلا ان المواضع التي يستشهدون بها أحدث جدا في كتابتها من المشهدين الأولين : فاوست وهو يناجي نفسه ويحاور روح الأرض ، والحوار بينه وبين تلميذه فجنر . الواقع أنه من العبث أن نحاول أن نعرف نية جيته آنذاك ، لأنه ليس لدينا في أقواله أو مذكراته أو رسائله ما يؤذن بايضاح الأمر في هذه المسألة ويكشف عن نيته .

٤
المناجاة الثانية لفاوست

ويتلو ذلك المناجاة الثانية لفاوست ، وهي غير موجودة في «الشذرة» . وربما كان جيته قد كتب شيئا منها في سنة ١٧٨٩ بعد رحلته الى ايطاليا ، لكن الغالبية منها كتبت في الفترة ما بين سنة ١٧٩٧ وسنة ١٨٠٠ .

وتبدأ المناجاة بأن يقر فاوست بأن فجنر ، وان قطع عليه الحوار مع عالم الأرواح ، فانه نجاه من اليأس الذي استولى على نفسه بعد أن طامنت «روح الأرض» من كبريائه ، وأنكرت عليه أن يكون نظيرا لها . لهذا نراه يشكر لفجنر تخليصه اياه من نوبة اليأس التي كادت أن تقضي عليه لكونه شعر بأنه مجرد قزم في مواجهة «روح الأرض» . أن عليه أن يكفَّر عن هذا التبجح والادعاء : «لا أستطيع أن أدعي أني أساويك : فاني وان كنت ملكت القدرة على استحضارك ، فاني لم أملك القدرة على الاحتفاظ بك . وفي تلك اللحظة السعيدة شعرت بأنني صغير جدا وكبير جدا» . «اني لست مساويا للآلهة! كلا ، هذا هو ما أشعر به في أعماقي ، وإنما أنا أساوي الدودة التي تحفر التراب ، الدودة التي يدوسها وتدسها في التراب خطوة المسافر ، في التراب الذي منه تعيش وبه تتغذى» .

ويتلفت حواليه الى الآلات والأجهزة التي تملأ غرفته فيخيل اليه أنها تسخر منه لأنه ظن

(١) أي عند البيت رقم ١٧٧٠ ، وهكذا فإن الفجوة تمتد من البيت رقم ٦٠٦ حتى البيت رقم ١٧٦٩ .

أن فيها مفتاح أسرار الكون ، فلم تفلح في أن تفض له أي سر ، ذلك لأن الطبيعة مستسرة تحت ضوء النهار الباهر ، ولا تسمح برفع الحجاب عنها .

واذا بنظره يثبت على قارورة هناك تجتذبه كأنها مغناطيس ، انها قارورة السم التي ستخلصه من هذه الحياة الباطلة وتنتشله من اليأس القاتل . وها هو ذا يناجيها : «فيك أجلّ حكمة بني الانسان وصناعتهم ، أنت خلاصة العصارات الرقيقة الجالبة للنوم ، وخلاصة كل قوى الموت اللطيفة . اكشفي لسيدك من فضلك! » ذلك أنه قد استعد لوداع الحياة ، وللانطلاق خلال الأثير على طريق جديد ، نحو آفاق الفعل المحض .

ويهم برفع القارورة الى شفتيه ، واذا به يسمع قرع النواقيس وانشاد الجوقات ايذانا بعيد الفصح ، عيد قيامة يسوع المسيح من بين الأموات في اليوم الثالث من صلبه . وهذا الرنين وذلك الانشاد كانا كفيلين بابعاد قارورة السم عن فمه . ويعجب لتأثير هذا الرنين وذلك الانشاد في قلبه وهو الذي صار خاليا من الايمان وصار لا يجرؤ على التطلع الى الآفاق التي منها ترن البشارة . لكن الايمان كان راقدا في أعماقه ولم يتركها ، لهذا انبعث لدى سماعه الرنين والانشاد . فصاح : «استمري في الرنين ، أيتها الأناشيد السماوية العذبة! انبثقت عبرة ، والأرض عادت فاستولت علي! » .

ان الملائكة ، في هذه الجوقات ، يعلنون عن النصر الذي أحرزه المسيح على الموت والخطيئة بفضل قيامته ، وعن النجاة التي تنتظر المؤمنين بالميثاق الجديد الذي أتى به يسوع .

بيد أننا نلاحظ أن عدول فاوست عن تجرع السم والانتحار لمجرد أنه سمع رنين نواقيس عيد الفصح واناشيد قيامة المسيح ـ غير مقنع ، والمبرر ضعيف لا يليق بمن في مرتبة فاوست علما وذكاء وتطلعا الى الآفاق العليا . نعم ، ان في هذا التبرير من السذاجة ما يضعف قوة الحبك المسرحي . بل هو من نوع الاله النازل بالآلة Deus ex Machina .

٥
النزهة خارج باب المدينة

في هذا المشهد ننتقل من التحليقات السامية التي ارتفع اليها فاوست حتى الآن ، الى الحياة الواقعية المرحة للناس في أيام عيد الفصح . فنجد العمال والخادمات والتلاميذ وأعيان المدينة وهم يمرحون ويتريضون : كل على شاكلته ، في هذا العيد البهيج : فالعمال يريدون

احتساء الشراب ، والتلاميذ يطاردون الفتيات ، وأعيان المدينة يشتكون من عمدة المدينة ، والفتيات تود أن تعرفن مصيرهن فيما يتصل بالزواج ، والجنود يتنفجون بالبطولات الزائفة ، والفلاحون يغنون ويرقصون تحت الزيزفون .

وفي وسط هذا الحشد يظهر فاوست وتلميذه فجنر . ويأخذ فاوست فيصف لفجنر مباهج الربيع في أبيات رائعة . ثم يتحلق الجمهور في دائرة حول فاوست احتفاء به ، ويذكر له فلاح عجوز كيف أن أباه قد أنقذ العديد من المصابين بالوباء الذي أصابهم منذ زمان طويل ، وكيف أن فاوست الشاب قد شارك أباه في هذا العمل الانساني .

لكن فاوست يبتعد عن الحشد هو وفجنر . وحين يتحدث فجنر عن مدى تقدير الناس له وامتنانهم لفضله السابق عليهم ، يفضي فاوست بسر غريب وهو أن ما كان يقدمه الى المرضى لم يكن دواء ، بل كان سما . «وكان المرضى يموتون ، ولا أحد يسأل : من هو الذي شفي ؟ وهكذا بمزاجات جهنمية أحدثنا في هذه الأدوية وهذه الجبال من الضرر أكثر مما فعله الطاعون ، وأنا نفسي قد أعطيت السم للآلاف منهم : وقد توفوا ، وهأنذا أرى الناس يثنون على سفاحيهم الجسورين!» .

وهكذا نرى جيته قد جعل من والد فاوست طبيبا وصنعويا على نحو برسلوس (١٤٩٣-١٥٤١) Paracelsus ، بينما في «الكتاب الشعبي» يذكر أن والد فاوست كان فلاحا بسيطا . وعن برسلوس يأخذ جيته هذه اللغة الصنعوية (أي المتعلقة بالكيمياء السحرية) : مزج «الأسد الأحمر» بالزنبقة في حمام فاتر ، الملكة الشابة «في المعوجة ، الخ» . فبرسلوس يسمي البذرة الذكروية المستخرجة من الذهب : دم «الأسد الذهبي» ، أو الأسد الأحمر ، ويسمي البذرة الأنثوية المستخلصة من الفضة : «النسر الأبيض» ، وثم ناتج آخر مستخلص من الفضة يسمى : «الزنبقة» . ويمزج الواحد مع الآخر أولاً في حمام فاتر الماء . وبواسطة نار قوية يطردان من معوجة الى أخرى (حجرة العرس) للحصول على مزاج ألطف . وأخيرا يظهر الناتج . وبوضع راسب التقطير على زجاج تظهر كل ألوان قوس قزح : وهذه هي «الملكة الشابة» في الزجاج ، أي حجر الفلاسفة . وقد أعاد ترندلنبورج هذه التجارب مع أحد الكيماويين ، فتبين له أن «الأسد الأحمر» هو أكسيد الزئبق ، وأن «الزنبقة» هي حمض الكلوردريك ، وأن الألوان الشبيهة بألوان قوس قزح هو أوكسكلوريد الزئبق .

أما أغنية الفلاحين : «الراعي تنظف للرقص» فيبدو أنها تقوم على أساس أغنية شعبية حوّرها جيته بتصرف واسع .

وما يلبث فاوست أن يستبعد عن نفسه تلك الخواطر السوداء ، حتى لا ينغص عليه متعة اللحظة وهو يستشرف ببصره الى الشمس وهي تنحدر للمغيب فوق الأكواخ المتمنطقة بالخضرة . وها هي ذي الشمس غابت لتشعل هناك في مكان آخر حياة جديدة . وبوده أن تكون له أجنحة يتابع بها الشمس في مسارها اينما أشرقت .

ولن يوقف سيره الالهي حينئذ جبال وحشية ، ويتفتح أمامه البحر بخلجانه الدافئة . انه يحلم بأن يثب وراء الشمس كيما يشرب ضوءها الأبدي ، ويكون النهار أمامه والليل وراءه والسماء من فوقه ، والأمواج من تحته . «ما أجمل الحلم والشمس تنحدر للمغيب! » ومن أسف أن أجنحة الروح لا يتحالف معها جناح جسماني .

أما فجنر فلا يستهويه هذا الحلم والطيران ، بل يؤثر عليهما متعة التنقل من كتاب الى كتاب ، وتقليب الصفحات! بذلك تصبح ليالي الشتاء جميلة وعذبة ، وتدفئ أعضاءنا حياة هانئة . أن تصفح كتاب من البرشمان المحترم يبث شعورا في النفس كما لو كانت السماء قد هبطت نحوك! انه لا يشعر بغير هذا الدافع : القراءة وتصفح كتب الآخرين .

لكن فاوست ليس هكذا لأنه كما قال : «نفسان تسكنان في صدري ، ويا أسفاه! واحداهما تصبو الى الانفصال عن الأخرى ، احداهما ، في وجدان جاف تتشبث بالعالم بأعضانها القانصة ، والأخرى ترتفع بقوة من التراب الى حقول الأجداد السامية» . وها هو ذا يستحلف الأرواح في الهواء أن تقتاده بعيدا الى حياة جديدة عظيمة . «الا ليت لي معطفا سحريا يحملني الى الديار الأجنبية! » .

ويستحلفه فجنر الا يدعو جماعة الأرواح المنتشرة في الجو ، فليس يأتي منها غير الأذى : من الشمال أرواح حادة كالسهام ، ومن الشرق رياح جافة تتغذى بالرئات ، والجنوب يدفعها بعيدا عن الصحراء ، والغرب يرسل خشرما ينعش في البداية ، لكنه ما يلبث أن يغرقك أنت والحقول والمراعي . ويدعو فاوست للعودة لأن الظلام يغطي العالم ، والجو ابترد ، والضباب هبط . غير أنه يلاحظ أن فاوست يحدق في دهشة هناك ، فيسأله ماذا جعله يتأثر الى هذا الحد في ساعة المغيب ، فيقول فاوست : ألا ترى ذلك الكلب الأسود الذي يشرد في القمح والتبن ؟ فيجيب فجنر بأنه شاهده منذ مدة ، لكنه لم يلق لذلك بالا . فيسأله فاوست : كيف يبدو لك هذا الحيوان ؟ فيجيب فجنر : أرى انه كلب Pudel يتبع أثر سيده . لكن فاوست يلفت نظره الى أنه كلب غير عادي لأنه يتواثب حولهما بشكل حلزوني مقتربا منهما باستمرار ، ويقول انه يخيل اليه أنه يجر وراءه دوامة من النار . لكن فجنر يقول انه لا يرى شيئا من هذا ولا بد أن هذا خداع نظر عند فاوست .

ويتصور فاوست أن الكلب يلقي بأنشوطات سحرية لطيفة ليربطهما ، وأن الدائرة تضيق شيئا فشيئا ، ها هو ذا صار قريبا جدا . فيجيب فجنر انه كلب وليس شبحا من الأشباح ، وهو ينبح ويتردد ، ويتقلب على ظهره ، ويحرك ذيله ، وهذه من أحوال الكلاب . وحركاته تدل على أنه درب تدريبا جيدا .

ويأخذ فاوست بكلام فجنر ويقر انه لا أثر لأي روح : بل كل ما هنالك تدريب .

ثم يدخلان من باب المدينة .

٦
غرفة الدراسة: المشهد الأول

لكن هذا «الكلب» يدخل مع فاوست غرفة مكتبه ، ويظل يعدو هنا وهناك ، ويحاول فاوست أن يهدئه ولكن في غير جدوى .

ويعود فاوست الى مناجاة نفسه أمام الكلب . ويخطر بباله أن يترجم الانجيل ، فيفتح المجلد على الانجيل الرابع ليوحنا ، وقد استهل بالعبارة : «في البدء كانت الكلمة!» فلا تعجبه ترجمة كلمة Logos بـ : الكلمة Wort ، ويحاول أن يستبدل بها لفظا آخر : Zinn (الفكر) ويتساءل : «هل «الفكر» هو الذي يخلق كل شيء ؟» ـ ولما كان الجواب بالنفي فانه يعدل عنه الى : Kraft «= القوة» . فلا يرضى به هو الآخر ، وفجأة يخطر بباله اللفظ المناسب فيكتب بكل ثقة : «في البدء كان الفعل Tat» .

لكن «الكلب» يشغله عن الاستمرار في الترجمة بما يحدثه من نباح ، فيطلب منه فاوست أن يخرج ويفتح له الباب ويشير اليه بالخروج . لكن ماذا يرى أمامه : لقد تعاظم «الكلب» وتضخم ، ووقف مشرع القامة ، ولم يعد له شكل كلب ، بل صار له شكل فرس البحر بعيون مشتعلة ، وأسنان هائلة ، ويرى فيه هيكلا جهنميا ربما يجتمع فيه مفتاح سليمان . وفي أثناء ذلك تصيح أرواح في الدهليز قائلة ان أحد الأرواح أسير مثل الثعلب في الأحبولة .

ولمواجهة هذا المارد يستخدم فاوست تعويذة الأربعة . لكن المارد يتضخم مثل الفيل ويملأ المكان كله ويسعى الى الزوال على هيئة ضباب . ثم يبرز مفستوفيلس من وراء الموقد مرتديا زي طالب جوال ، بينما الضباب ينقشع ، فيصيح فاوست : أهذا هو اذن سر هذا «الكلب»!! انه طالب علم جوال ؟ يا لها من مغامرة مضحكة!

ويسأله فاوست عن حقيقة أمره ، فيجيب مفستوفيلس : «أنا الروح التي تنكر دائما ؟ وهذا عن حق ، لأن كل ما ينشأ يستحق الفناء ، ومن هنا كان من الأفضل ألا ينشأ شيء وهكذا فان كل ما تسمونه «خطيئة» ، دمار ، وبالجملة : شر هو العنصر الخاص بي» .

ويدرك فاوست أن مهمة مفستوفيلس صارت أن يدمر الأمور الصغيرة بعد أن عجز عن تدمير الكون في جملته . انه يقابل قوة الخلق الحية بقبضة الشيطان الباردة . ويطلب منه أن يتصرف عن المغامرة معه . لكن مفستوفيلس لا يرضى من الغنيمة بالاياب ، بل يؤجل المحاولة الى فرصة قادمة .

ويلتمس الآن الذهاب . فيقول له فاوست ان في وسعه العودة لزيارته كما يشاء ، ويستغرب الاستئذان ، بينما النافذة المفتوحة ، والباب مفتوح ، وماسورة المدخنة موجودة ، فليخرج من أيها شاء .

فيجيب مفستوفيلس بأن ثم عقبة تمنعه من الخروج ، وهي علامة النجمة المخمسة على الباب . فيعجب فاوست ، ويسأله كيف اذن دخلت ؟ فيجيب فاوست بأن رسم النجمة المخمسة ليس محكما : فاحدى الزوايا مفتوحة قليلا ومنها دخل . فلما يسأله فاوست : فلماذا لا يخرج من النافذة ؟ يجيب بأن من قواعد الشياطين والأشباح أن يخرجوا من حيث دخلوا .

ويعجب فاوست بحديث مفستوفيلس الشائق فيطلب منه البقاء ، فيوافق مفستوفيلس بشرط أن يشغل وقت فاوست بألاعيبه السحرية . ويرضى فاوست بهذا الشرط ويأخذ مفستوفيلس في استعراض هذه الألاعيب ، فيجمع جماعة من الأرواح التي تشرع في القاء نشيد طويل حافل بالعبارات السحرية والتمويهات . وعلى هدهدة هذا النشيد يستولي النعاس على فاوست . وينتهز مفستوفيلس فرصة نومه فيأمر الفئران بالخروج من جحورها لقرض علامة النجمة المخمسة ، ليتمكن من الخروج . ويخرج وهو يتمنى لفاوست الاستمرار في أحلامه حتى يلتقيا مرة أخرى .

ولما يستيقظ فاوست يتساءل عما اذا كان فريسة أوهام ؟ أهكذا يختفي سيال الأرواح ، حتى أن حلما كاذبا جعله يرى الشيطان ؟

* * *

وهنا ينبغي أن نتوقف عند بعض النقاط البارزة في هذا المشهد :

أ ـ وأولها محاولة فاوست اعادة ترجمة الانجيل . وهذه المحاولة تبدأ مع انجيل يوحنا ، الذي كان الانجيل الأثير عند مارتن لوثر . انه يجد في أوله :

«في البدء كانت الكلمة» .

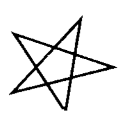
لكن «الكلمة» لا يمكن أن تكون هي الأولى ، لأنها تفترض المعنى أو الفكرة مقدما ، اذ هي مجرد تعبير صوتي عن الفكر والمعنى . والفكر هو الآخر ليس بشيء بدون القوة ، التي تحقق الفكر ، «والقوة» لا تنكشف الا بـ «فعل» . لهذا فان الأول في الوجود هو «الفعل» .

لكن ما أبعد هذا عن مقصود يوحنا الانجيلي! ان هذا أراد بـ «الكلمة» : المسيح بوصفه مخلص العالم ، ونور العالم وحياته . اما «الفعل» الذي يقصده فاوست فهو القوة المحركة للعالم ، وهو السورة الحيوية كما فهمها برجسون .

ب - ومفستوفيلس بعد أن دخل غرفة فاوست لا يستطيع الخروج منها لأن على عتبتها رسمت علامة النجمة المخمسة ، وقد استطاع الدخول رغم وجودها لأن احدى الزوايا مفتوحة قليلا الى الخارج لسوء رسمها ، لكنه لا يستطيع الخروج من الزاوية نفسها لأنها ليست مفتوحة من الداخل .

والنجمة المخمسة ، ولها في الألمانية عدة أسماء[1] :

Druden-, Druden Fuss Penta Gramm, Alp Fuss, Alpenkreuz, Kreuz.



يبدأ من رأس الزاوية اليسرى السفلية

وهي معروفة منذ قديم الزمن ، اذ نجدها بين الأشكال السحرية الشائعة عند الفيثاغوريين القدماء في العصر اليوناني والهلنيستي كعلامة للصحة . ومن مدارس الفلاسفة انتقلت الى الحياة العامة . ومرارا نجدها على نقود يونانية قديمة . وعند الفرق الغنوصية المختلفة صارت حافلة بالمعنى والأهمية . ونجدها أيضا على فصوص الابركساس رمز الخماس . وفي العصور الوسطى صارت شائعة الانتشار في كتب السحر وبين علامات السحر والتعويذات ، وكان من خصائصها السيطرة على الأرواح العنصرية وتسخير الجن ولاتزال هذه العلامة تستعمل عند العامة في أوربا لابعاد الأذى عن اسطبلات المواشي ، والمنازل ، وترسم أيضا على عتبات البيوت ، وعلى الأسرة ، الخ .

لكن ادعاء مفستوفيلس انه صار سجينا بسبب هذه العلامة انما هو حيلة للتغرير بفاوست ، اذ تمكن بذلك من اغوائه للسماح له بالعودة لزيارته .

(١) Drude = ساحرة ، جنية . فمعنى الاسم الأول : قدم الجنية ، والثاني : صليب الجنية ، الخ .

جـ ـ وحركات «الكلب» وضجره ونباحه انما كانت بسبب اشتغال فاوست بترجمة الانجيل ، أي بالأمور الدينية والخيرية ، وهو ما لا يحتمله الشيطان ويود أن يصرف فاوست عنه . انه لا يريد سماع الانجيل ، ولا ألفاظ : الكلمة ، والروح القدس ، وما شابه ذلك من معان دينية .

د ـ ومفستوفيلس في النهاية يستدعي الفئران ، بوصفه «رب الفئران والجرذان ، والذباب ، والضفادع ، والبق والقمل» . لكن ليس المقصود بهذا انه بعلزبوب بدعوى أن بعلزبوب (= بعل ذباب ، أي رب الذباب) كان يعبد على شكل ذبابه (راجع Grimms My-thologie ص ٩٥٠ وما يليها) ، وانما المقصود انه يستخدم هذه الحيوانات الضارة ليؤذي الناس .

هـ ـ وأهم من هذه التفاصيل البسيطة تعريف مفستوفيلس لنفسه بأنه «الروح التي تنكر دائما ، وبأنه جزء من تلك القوة التي تريد الشر دائما ، وتخلق الخير أبداً» . ويحار فاوست في فهم هذا اللغز ، ويسأل مفستوفيلس تفسيره ، فيفسره على نحو مانوي ثنوي : أي بأن للعالم أصلين هما النور والظلمة ، يزدان وأهرمن ، ومفستوفيلس ينتسب الى الظلمة وإلى أهرمن ، فهو يقول : «أنا جزء من ذلك الجزء الذي كان قديما هو الكل ، أنا جزء من الظلمة التي ولدت النور ، النور المتكبر الذي ينازع الليل ، أباه ، مكانته القديمة ، وينازعه المكان ، ولكنه لم يفلح على الرغم من كل مساعيه لأنه بقي دائما مرتبطا بالأجسام : انه ينبثق من الأجسام ، ويزين الأجسام ، والجسم يحول دون نفاذه ، وهو لا يستطيع اذن ، فيما آمل ، أن يستمر هكذا طويلا ، وسينتهي مع الأجسام» .

غير أن جواب فاوست على كلام مفستوفليس هذا ـ كما لاحظ فشر بحق (جـ٣ص٣٥٠) ـ لا يتناسب مع هذا الكلام ، وانما هو يتعلق بما سيحدث مع فاوست نفسه .

مفستوفيلس اذن هو رمز السلب والنفي والانكار والظلمة .

و ـ وهو محاط دائما بأتباعه من الجن والعفاريت ، يستعين بهم في المواقف الحرجة المآزق ، سريع الحركة ، أنيق العبارة ، يذوب رقة من حلاوته وعذوبته ورشاقة تدفقه . لهذا كان هذا النشيد العذب كفيلا بتخدير فاوست وتنويمه واغراقه في الأحلام ، ليتخلص من أسره هذا ، وليسخر من فاوست سخرية مُرة عذبة معا .

ومن هذا التحليل يشاهد القارئ أن مشهد «غرفة الدراسة» هو من أحفل وأجمل مشاهد «فاوست» كله .

٧
غرفة الدراسة: المشهد الثاني
الميثاق

ويعود مفستوفيلس لزيارة فاوست كما وعد ، وهو في ثوب أحمر مطرز بالذهب ، وعليه معطف من الحرير المتجعد ، ويلبس على رأسه قبعة فيها ريشة ديك ، ومعه سيف طويل مدبب . وينصح فاوست بأن يتخذ الزي نفسه كيما يتعرف الحياة وهو حر خال من كل هم .

لكن فاوست يعود الى شكاته القديمة من الوجود : انه يصحو في الصباح ونفسه ملأى بالفزع ويود أن يذرف الدموع المرة لدى رؤيته لكل يوم جديد ، لأنه لن يحقق له شيئا من أمانيه . وحين يأتي الليل يرقد وفي رفقته الهموم ، لهذا فان الوجود عليه عبء ثقيل ، والحياة كريهة ، ولذا صار يرحب بالموت .

فيقول مفستوفيلس بخبث : ومادام الأمر كذلك ، فلماذا لم يتجرع بعضهم الشراب الأسود في تلك الليلة ؟ وهو هنا يتهكم على فاوست الذي كان قد عزم على تجرع السم للتخلص من الحياة ، فصرفه عن ذلك شيء تافه هين وهو سماعه دق النواقيس وانشاد الأناشيد ايذانا بيوم عيد الفصح . فيعتذر فاوست بأن ما بقي فيه من تقوى صبيانية هو الذي صرفه عن ذلك . ويأخذ في صب اللعنات على حسن ظن العقل بنفسه ، وعلى الأوهام التي تفرض نفسها على حواسنا ، وعلى خداع المجد والشهرة ، وعلى الخيرات الدنيوية ، والزوجة والأولاد ، والأرض والبيت ، وعلى الثروة والاموال التي تدفعنا الى أعمال جريئة ، بل يلعن الخمر ، ولذة الحب الكبرى ، والأمل ، والايمان ، ويلعن الصبر على وجه التخصيص .

وهنا تسمع جوقة أرواح غير مرئية تدعو فاوست الى بدء الحياة من جديد مصحوبة بأغان جديدة . وينبهه مفستوفيلس الى هذه الدعوة التي تتغنى بها الأرواح المطيفة به والتي تنصحه بالسرور والفعل ، والتخلص من هذا الركن الضيق الذي يجثم فيه فتنضب عصارته ويتجمد فكره . ويهيب به للعمل بهذه النصيحة لأن فاوست انسان بين الناس ، وأن يسلك سبيل الحياة ومفستوفيلس بصحبته خادما له وتابعا .

ويدرك فاوست ما في هذه الدعوة من خداع وتغرير ، لأن الشيطان أناني ، ولا يفعل شيئا لوجه الله . لهذا يطلب من مفستوفيلس أن يذكر شروطه بوضوح ، لأن خادما مثله يوقع البيت في الضرر والخطر .

فيجيبه مفستوفيلس قائلا انه يتعهد بخدمة فاوست في هذه الدنيا ، مقابل أن يخدمه فاوست في الآخرة .

ولا يحفل فاوست بجواب مفستوفيلس هذا لأنه لا يحفل بالآخرة . وانما من هذه الأرض ، في هذه الدنيا ، تنبثق مسراته ، وهذه الشمس تشرق على الأمة . وليكن بعد هذه الدنيا ما يكون .

ويوافق الشيطان على أن يجلب له كل ما يتمنى من اللذات في هذه الدنيا .

فيقول له فاوست هازئا : وماذا يستطيع أمثالك أن يجلبوا ؟ ربما أطعمة لا تشبع أبدا ، وذهباً أحمر يسيل كالزئبق بين الأصابع ، وقماراً لا يكسب فيه المرء أبدا ، وفتاة تغازل بعينها جارك وهي راقدة على صدرك ، ولذة المجد الذي يزول كالشهاب ؟

فيجيب مفستوفيلس بأنه لا يفزع من مثل هذه المطالب .

فيتعهد فاوست بالالتزام بما يطلبه مفستوفيلس من شروط . ويطالبه هذا بتحرير هذا التعهد كتابة فيرحب فاوست بكتابته على لوح من البرونز ، أو من الحرير ، أو على برشمان ، أو على ورق ، وليكن ذلك بسن مدببة أو بقلم . فيقول مفستوفيلس انه يكفيه أن يكون مكتوبا على قصاصة من الورق ، بشرط أن يوقع عليه بقطرة من دمه . لأن للدم خاصية ممتازة .

وبعد تحرير التعهد والتوقيع عليه بقطرة من دم فاوست ـ تماما كما في «الكتاب الشعبي» . يدعوه مفستوفيلس الى البدء على الفور «لأن الزمان قصير ، والصناعة طويلة» .

فيسأله فاوست : بماذا نبدأ ؟ فيجيب مفستوفيلس : لنرحل أولا .

وهنا يسمع قرع بالباب : فقد جاء طالب علم جوال ليأخذ العلم على فاوست . لكن هذا يرفض لقاءه . فيتولى مفستوفيلس علاج الأمر مع هذا الطالب المسكين ، ويلبس ثوب فاوست الطويل ويخرج فاوست ، ولا يكون أمامنا الا مفستوفيلس في زي فاوست ، والطالب الجوال .

يأخذ مفستوفيلس في القاء موعظة بمغزى ما سيقوله للطالب : احتقر العقل والعلم ، شد أزرك بالكذب ، وتشبث بالأوهام والسحر .

ويدخل الطالب بأدب جم وتواضع شديد ، ويستحلف مفستوفيلس ـ فاوست بأن يتعطف ويهتم به لأنه مليء بالرغبة الصادقة في التعلم . لكنه يعبر عن ضيقه بهذه الحجرة التي ليس فيها خضرة وفيها يضل السمع والبصر والفكر .

ويسأله مفستوفيلس ـ فاوست أولا في أية كلية يريد أن يتخصص . فيجيب الطالب بأنه يريد أن يعرف كل شيء على ظهر الأرض وفي السماء!

لكن مفستوفيلس ينصحه بترتيب دراسته : فيبدأ بدراسة المنطق حتى لا يشطح عقله . ثم ينهال عليه بعد ذلك بكلام غريب وتشبيهات عجيبة ، لا يفهم منها الطالب شيئا . وبعد المنطق عليه دراسة الميتافيزيقا ، ففيها من الكلمات الفخمة ما ينفع .

ويلح على الطالب في اختيار كلية ، فيقول الطالب : انه لا يشعر بميل الى القانون . فيوافقه مفستوفيلس صابا كل سخرية على القانون والعلوم القانونية : ان القوانين والأعراف تنتقل بالدراسة مثل المرض الأبدي : ينتقل من جيل الى جيل ، وتنتشر بهدوء من مكان الى مكان . ومعها يصبح العقل حماقة ، والنعمة نقمة » .

ويقول الطالب ، وقد زاد سخطه على دراسة القانون ، ان فيه شبه ميل الى دراسة اللاهوت . فيعالجه مفستوفيلس بذم هذا العلم لأنه من الصعب تجنب الطريق السيء ، وفي اللاهوت سموم كثيرة مستورة ، يصعب تمييزها من الأدوية المفيدة .

فسأله الطالب عن رأيه في الطب . وهنا يخلع فاوست رداء الأستاذية ، ليلبس رداء الشيطان ، فيقول : ان من السهل ادراك روح الطب : عليك أن تدرس العالم الكبير والعالم الصغير لتدع كل شيء يسير وفقا لمشيئة الله . ولتكن واثقا بنفسك جرينا حتى تثق بك النفوس الطيبة . « وتعلم خصوصا كيف تعالج شؤون النساء . ان تأوهاتهن الأزلية يمكن علاجها من نقطة واحدة ، واذا كنت نصف شريف ، فسيكون طوع بنانك . لا بد أولا من لقب لينخدعن به ، لقب يسمو على لقب الكثيرين ، واتخذ معهن كل الملاطفات التي لا يحصل عليها غيرك بعد العديد من الأعوام في الغزل . أعرف كيف تحس بنبضهن بمهارة ولباقة ، وبنظرة مشبوبة ماكرة ، تحسس بجرأة خصورهن النبيلة لترى هل مشد النهود يضغط عليها بشدة » .

ويفرح الطالب بهذه « النصائح » التي تلائم هواه! ويطلب من مفستوفيلس أن يكتب له جملة في دفتر ذكرياته ، فيكتب له فاوست : « ستكونون مثل الله ، وتعرفون الخير والشر » .

ثم يدخل فاوست من جديد ، بعد هذا الفاصل ، ويسأل مفستوفيلس الى أين سيذهبان . فيجيب هذا قائلا انهما سيشاهدان أولا العالم الصغير وبعد ذلك العالم الكبير . فيخبره فاوست بأن هيئته وزيه لا يسمحان له بالتعامل مع الناس ، فيطمئنه مفستوفيلس بأنه سيرتب هذا الأمر . ويعود فاوست فيسأله عن وسيلة السفر فيخبره بأنه يكفيهما أن يبسطا رداءه وسيحملهما في الهواء الى حيث يريدان .

* * *

وأبرز ما في هذا المشهد الحوار بين مفستوفيلس وهو في هيئة فاوست وبين طالب علم جوال . انه حافل بالسخرية من العلوم ، وهو المناظر الهزلي للمناجاة الأولى لفاوست . وهو في الوقت نفسه تعبير عن ضيق جيته بدراسة القانون ، وسخريته من الطب واللاهوت . ويبدو أن جيته كان مغتبطا بفكرة هذا الطالب ، بدليل أنه يظهر مرة أخرى باسم « حامل البكالوريا Baccalaureus » في « فاوست » الثاني .

يسخر مفستوفيلس من المنطق والميتافيزيقا واللاهوت والطب :

أ ـ من المنطق لأنه يستبعد التفكير الطبيعي ، ويفرض مكانه تفكيرا شكليا مصطنعا . والا فمن في تفكيره الطبيعي يلتزم بترتيب القياس : الكبرى ، ثم الصغرى ، ثم النتيجة ؟!

ان المنطقي يفك النسيج ، ولكنه لا يستطيع أن ينسج : فهو يحل التصورات الى أجناس وأنواع وأفراد وما بينهما من مراتب متوسطة ، ولكنه لا يفهم الروح العامة التي تسري في الطبيعة والحياة . ان المنطق يقدم تقسيمات شكلية أما الطبيعة فتقدم أشياء حية .

ب ـ ومن الميتافيزيقا لأنها تستبدل بالكائنات الطبيعية كائنات عقلية ، وبما هو عيني تستبدل ما هو مجرد ، وبما هو حسي ما هو فوق المحسوس ، فلا تنتج عنها الا كلمات ضخمة بيد أنها خاوية من المعاني .

جـ ـ ومن القانون لأنه بدلا من القانون الطبيعي يفرض القانون الوضعي الاصطلاحي ، ولأنه يستمر لعصر تال مع أنه كان صالحا لعصره فقط وبهذا يصبح قيدا على نشاط الانسان .

د ـ ومن اللاهوت لأنه يعد التفكير الطبيعي كفرا وضلالا ، اذ يؤدي الى كليهما ، وفي اللاهوت سموم مستورة يصعب التخلص منها ويصعب تمييزها من الأدوية الحقيقية . والخطر يكمن في المقارنة بين مبادئ اللاهوت وبين مقتضيات التفكير الطبيعي ، بين العقيدة وبين النقد العقلي . واللاهوت يقوم على التصديق الأعمى بما جاء به النقل ، وفي هذا اهدار للعقل .

هـ ـ وتبلغ السخرية ذروتها فيما يتعلق بالطب ، ولا غرو ، فان مفستوفيلس سيتخلى هنا عن لهجة الأستاذ ، ويتخذ لهجة الشيطان الغاوي المغوي أنه يرى في الطب شعوذة ، والشعوذة تحتاج الى مظهر مقبول ، ومجاملات وملاطفات ، مع ثقة راسخة بالنفس وجرأة وقحة في الادعاء . ويلمح الى ما يسمح به الطب من خلوة بالنساء ، ولمس وجس لأعضائهن الشهوانية ، بدعوى « الكشف » وجس النبض ومعرفة مواضع الوجع ، الخ . وهي أمور كم يتمناها الشاب! ان الطبيب يصل في لحظات الى ما لا يستطيع العاشق المفتون أن

يصل اليه في سنوات بعد بذل الغالي وامتهان النفس والضراعة والمتاعب بل والمغامرات التي قد تؤدي الى الهلاك!

وعلى هذه الاغراءات والكلمات المعسولة ينتهي هذا الحوار الرائع بين مفستوفيلس وهو في هيئة فاوست ، وبين التلميذ الجوال الشاب الغر المفتون .

* * *

وظهور مفستوفيلس في ذلك الزي الجميل الأخاذ : ثوب مزخرف بالذهب ، ومعطف من الحرير الثقيل المجعد ، وقبعة فيها ريشة ديك ، وخنجر مدبب معلق في جانبه ـ ليس أمرا نادرا في الخرافات الشعبية الألمانية ـ ، ولهذا ينعت فيها بنعوت : يونكر هانز Juncker Hans ، هانز الجميل Schon Hans ، وما شابه ذلك (راجع : جرم Grimm : الأساطير ، ص ١٠١٦) . وفي المسرحيات العرائسية المتعلقة بفاوست يشاهد مفستوفيلس في رداء أحمر ، وفي قبعته ريشة ديك ، لكنه يتدثر بمعطف طويل أسود ، وفي جبهته قرن . وهكذا نجد مفستوفيلس عند جيته من حيث المظهر لا يكشف أبدا عن أصله الجهنمي . ولا غرابة في ذلك لأنه هنا رقيق يصاحب فاوست في الدنيا .

وانما الشيطاني في مفستوفيلس هو سخريته المرة ، وألاعيبه العجيبة ، وتهكمه بكل شيء في الخلق ، والشك في قيمة كل شيء ، وازدراؤه لمساعي الانسان . وقد استمد جيته كثيرا من ملامح مفستوفيلس هذه من أخلاق صديقه مرك Merck ، حتى أنه في سنة ١٧٨٠ في رسالة كتبها الى السيدة فون اشتين Von Stein قد أطلق على مرك اسم : مفستوفيلس . وكان مرك متبرما بالدنيا ، يشعر نحوها بمرارة شديدة . وعلى الرغم من طيبة قلبه ، فقد كانت تنتابه نوبات يحرص فيها على ايقاع الأذى بأصدقائه . ومن الناحية الجسمية كان مرك فارع الطول ، شاحب الوجه ، بارز الأنف المدبب . وكانت عيناه زرقاوين فاتحتين ، ونظراتهما تضفي عليه شكل النمر . وكان في حديثه يصيح صياحا يبدو أحيانا كنباح الكلب . ويصرح جيته في حديثه مع أكرمن بأنه كان مع مرك مثل فاوست مع مفستوفيلس .

ويتقرب مفستوفيلس الى فاوست بخبث بارع : انه يريد أن يخدم فاوست دون أي مقابل ، وأن يطوف به في دنيا الشهوات حتى يخرج من حالة اليأس التي تردى فيها فاوست .

لكن فاوست لا يعتقد أن الشيطان يخدم بدون مقابل ، ثم أنه لا شيء يفلح في انقاذه من قنوطه ، حتى أنه يود الموت . وهنا يلتقط مفستوفيلس هذه الأكذوبة ويعرض بفاوست حين أجفل تجرع السم في عشية عيد الفصح .

ويحاول فاوست عبثا أن يرد على هذا التعريض بأنه تجسس! لكن الواقع هو أن فاوست لايزال شديد التعلق بالحياة . وهذا ما يريد مفستوفيلس استغلاله الآن ، فيعرض خدماته على فاوست لتحقيق أقصى استمتاع بلذائذ الحياة . ويشكك فاوست في هذا الادعاء بعبارات رائعة الاستهزاء : هل عندك طعام لا يشبع ، هل عندك ذهب أحمر يسيل بين يديك باستمرار كأنه الزئبق ، الخ . فيجيب مفستوفيلس ببرود تام جاف قائلا أنه يستطيع توفير هذه الأشياء الوهمية الخداعة ، لكنه قادر أيضا على أن يوفر له الأشياء التي تمتعه في هدوء . غير أن فاوست مقتنع بأن مفستوفيلس لن يستطيع أن يخدعه بهذه اللذات ، واليوم الذي سيستطيع فيه ذلك سيكون آخر أيام حياته . ولهذا هو يراهن على حياته بأن مفستوفيلس لن يفلح في فتنته عن طريق عطاياه وما يوفره له من لذات .

وهنا يختلف الشراح في تفسير عبارة فاوست :«اذا استطعت أن تخدعني بالاستمتاع فليكن ذلك آخر يوم في حياتي : أراهنك على هذا! » . فالبعض يرى في هذا رهانا حقيقيا قصده فاوست قصدا وهو واع به ، والبعض الآخر رأى أن ذلك مجرد كلام كما يحدث بين الناس في مواقف مماثلة حين يقول أحدهم للآخر : بحياتي ، أراهن برأسي ، الخ . وهو كلام مجازي لا يقصد به أي رهان على الحياة ، وانما هو نوع من القسم . وهو تعبير مألوف جدا في اللغة العربية ، حين يقول المرء : بأبي أنت وأمي ، أراهن بحياتي ، وحياة رأسي ، الخ ـ ولا يقصد أبدا فداء بالأب والأم ، ولا رهانا بالحياة ، ولا بالرأس . ومن هذا الرأي الأخير دونتسر[١] .

لكننا نرى أن هذا الرأي الثاني واه ، بدليل أن فاوست قبل تحرير عقد بذلك ، ومهره بدمه ذلك أنه لو كان يقصد مجرد تعبير مجازي ، لما كان قد حرر عقدا ولا وقعه بدمه .

والتوقيع على هذا الميثاق بالدم موجود في «الكتاب الشعبي» وفي مسرحيات فاوست العرائسية . لكن يذهب البعض الى تفسير مطالبة مفستوفيلس بالتوقيع بالدم ـ بأنه ربما كان سخرية من «دم» المسيح الذي فدى به البشر حسب العقيدة النصرانية . ولا يهتم جيته بذكر من أين استخرج فاوست الدم الذي وقع به ، بينما في «الكتاب الشعبي» وفي «فاوست» مارلو Marlowe وفي مسرحيات فاوست العرائسية نجد تفصيلا لذلك .

ويخرج فاوست ليستعد للرحيل مع مفستوفيلس في الدنيا الواسعة ، فيلبس ملابس أنيقة تليق بوضعه الجديد ، بينما يدخل الطالب الجوال ويجري الحوار بينه وبين مفستوفيلس ـ وقد ارتدى زي فاوست الأستاذ ـ على النحو الذي بيناه منذ قليل .

---

(١) H. Duntzer: Goethe's Faust, Erster Und Zweiter Teil, S. 234-5 Leipzig, 1850.

وحين يعود فاوست ـ وكان الطالب قد خرج ـ يسأل مفستوفيلس عن الركوبة التي ستحملهما في رحلتهما ، فيخبره مفستوفيلس بأنها معطفه ، فانه اذا بُسِط حملهما خلال الهواء ، ليشاهدا العالم الصغير ومن بعده العالم الكبير : وبالأول يقصد دنيا العاديين من الناس في حياتهم المدنية ، وبالتالي عالم الأباطرة وكبار الحكام ودوائر الدولة العليا .

أما «المعطف» الذي سيحملهما إن بسط في الهواء فمأخوذ من الكتاب الشعبي ، حيث يرد أن فاوست كان عنده معطف اذا بسطه يستطيع أن يطير به في الهواء ، حاملا معه من يشاء . وفعلا يذكر هذا «الكتاب الشعبي» أن فاوست حمل على معطفه المنشور هذا ثلاثة من الكونتات كانوا يدرسون في فتنبرج ونقلهم عليه الى مدينة ميونخ . وفي كتاب في السحر عنوانه : «تسخير فاوست للجن» Faustens Dreifachen Hollenzwang يصف معطفه السحري هذا : أنه معطف أحمر كبير يفرش على الأرض ، وترسم عليه علامتان ، وترسم علامة ثالثة في الكف . ويمشي المرء متراجعا فوق المعطف ويقف على العلامة المرسومة في وسطه ، وينادي بصيغة خاصة روح أزيل aziel ، ويذكر المكان الذي يريد السفر اليه ، فيرتفع المعطف من تلقاء نفسه .

كذلك نجد في أساطير العصر الوسيط ، وعنوانها : «أعمال الرومان» Gesta Romanurum ذكراً لقماش اذا جلس عليه الانسان نقله الى حيث يريد . ويتحدث لرشيمر Lercheimer عن ساحر كان يعرفه ، سافر مع جماعة على معطف ، ويتحدث عن ساحر آخر سافر مع جماعة من ساكس الى باريس على معطف .

والتشابه ظاهر جدا بين هذا المعطف وبين بساط سليمان الوارد ذكره مرارا في قصص «ألف ليلة وليلة» العربية ، وربما كانت هذه هي التي عنها عرفت أوربا هذا المعطف السحري ، لأننا لا نجد له ذكراً عند اليونان أو الرومان أو اليهود والشرق بعامة قبل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) .

٨
حانة آورباخ

وتؤدي هذه الرحلة أولا الى ليبتسك ، حيث يعرض لنا جيته حياة الطلاب الجامعيين الصاخبة المعربدة ، التي هي تعارض حاد مع الحياة العلمية الأكاديمية في الجامعة . والمشهد صاخب فج ، لهذا سرعان ما اشمأز منه فاوست .

طلبة معربدون سكارى ، يضجون بأغان ماجنة ثقيلة ، ويضحكون لأسمج النكات ، ويتطاولون على الزبائن ـ ماذا يريد جيته بوصفه هذا ؟ أيريد أن ينتقم لنفسه من سفالة الطلاب الذين عرفهم أثناء مقامه لمدة عام طالبا في جامعة ليبتسك ؟ على أن جامعة ليبتسك لم تنفرد وحدها بهذا اللون من الطلاب في ذلك الوقت ، بل أضفى عليها في الصخب والشراسة طلاب جامعة هله وجامعة فيينا .

والطلاب الذين يعرضهم جيته في حانة آورباخ هم : فروش (ضفدعة) ، وبراندر Brander (= حراقة) ، وزيبل Siebel ، وألتماير Altmayer . أما فروش فشاب مرح يحب النكات السمجة والمشاجرات الحمقاء ، وهو يبدو أصغرهم . أما براندر فأكبر عقلا ، ولا تعجبه نكات فروش السخيفة . ويتطاول عليه فروش فيصب على رأسه كأسا من الخمر فينشب الشجار بينهما . فيحاول زيبل ، وهو أكبرهم سنا ، أن يفض الشجار ويعيد الهدوء الى الجماعة ، بأن يدعو الى المزيد من الشراب والغناء والصراخ . فيبرز هنا التماير ، وهو ماكر خبيث . ويغني فروش أغنية سياسية يهاجم فيها الامبراطورية الرومانية المقدسة (الألمانية) ، ويحيي معشوقته . ويتدخل براندر ليغني أغنية عن «فأر» يسخر فيها من لوثر ، وهي أغنية يشارك فيها الجماعة على شكل كورس ، وبهذا يصرف الجماعة عن التدخل في الشؤون السياسية .

وهنا يدخل الحانة مفستوفيلس وبصحبته فاوست . ماذا أراد باقتياده فاوست الى هذا المكان الصاخب ؟ ربما أراد أن يضعه في جو متناقض لجو السكون العلمي في غرفة دراسة فاوست ، كيما يهزه هزا شديدا فينسى حياته السابقة .

ويدرك براندر أن هذين الزبونين جاءا منذ قليل الى ليبتسك ، ويحزر من تصرفاتهما أنهما مناديان في السوق . أما فروش فيرى فيهما رجلين محترمين . ويحيي فاوست جماعة الطلاب بأدب ، بينما مفستوفيلس يبادرهم بانتقاد الخمر التي يحتسونها . فيرد عليه فروش هازئا : «لا شك في أنك غادرت رباخ متأخرا ؟ هل تعشيت مع السيد هانز ؟» ورباخ قرية Rippach صغيرة على نهر بهذا الاسم ، وهي آخر محطة بين فيسنفلز Weissenfells وليبتسك . والاسم «هانز فون رباخ» كان يطلق على شخص ثقيل غليظ . واذن فروش يريد أن يصف مفستوفيلس بأنه ثقيل غليظ مثل هانز فون رباخ هذا! وبلباقة يرد مفستوفيلس هذا السبب قائلا انه قادم من رباخ ، وان هانز كلّفه بأن يسلم على هذه الجماعة (من الطلاب) بوصفه ابن عمهم!

ثم يقول لهم مفستوفيلس انه وصاحبه (فاوست) قادمان لتوهم من أسبانيا «بلد الخمر

والأغاني » وانه حفظ منها عددا كبيرا ، وهو ان لم يحسن الغناء ، فان له فيه رغبة شديدة . ويغني لهم أغنية «البرغوث الملكي» . وفيها سخرية مرة من الوصوليين والمحاسيب الذين ينعمون برعاية البلاط . ويطرب الطلاب لهذه الأغنية السياسية التي تتهكم على الحكام : ففروش يسر بالبرغوث الملكي الكبير ، ويستخلص زيبل مغزى الأغنية فيطالب بالنضال ضد البراغيث ، ويبدأ براندر في ترتيب خطة لمطاردتها ، ويعنى التماير بابراز المغزى السياسي في الأغنية . وبعد أن غنى مفستوفيلس أغنية «البرغوث الملكي» هذه ، أراد أن يروي حلقة بخمر . ولما كانت خمر هذه الحانة رديئة فقد تولى احضار خمر من عنده ومن صنع يده .

وحكاية استنباط الخمر من المائدة موجودة في «الكتاب الشعبي» الموسع ، اذ يذكر أن فاوست استخرج من المائدة خمرا أثناء مأدبة في مدينة ارفورت Erfurt . «اذ قال فاوست هل تريدون خمرا أجنبية ، فأجابوا بالايجاب . فسألهم : هل تريدون خمر ريفال Rephal أو ملوازير Maluasier أو خمرا اسبانيا أو خمرا فرنسية ؟ فقال أحدهم ضاحكا :كلها حسنة . فطلب فاوست مثقابا ، وثقب أربعة ثقوب ، وأحضر له سدادات وطلب احضار كأسين نظيفتين ، وكان يفتح السدادة ويصب لكل واحد ما يطلبه من الخمر » .

ولا بد أن جيته أخذ هذه الحكاية من «فاوست» فدمن Widman . على أن جيته يجعل مفستوفيلس يدور حول المائدة سائلا كل طالب أي خمر يريد . فيطلب فروش خمرا ألمانية ، هي خمر الراين ، بينما براندر يطلب شمبانيا لأنه لا يرى مبررا للوطنية في أمور الخمور . ويقنع زيبل بالحصول على خمر حقيقية ، أما ألتماير فيرى أن الأمر كله مخرقة واحتيال ، وحين يدفعه مفستوفيلس الى الاختيار ، يقول انه لا مانع لديه من أي خمر . وهنا يعزم مفستوفيلس تعزيماته مع حركات غريبة .

ويتدفق الخمر من الثقوب في كؤوس الطلاب ، ويشعرون بالنشوة فيندفعون في الغناء الصاخب .

ويضيق فاوست بهذا الموقف ويود الخروج ، لكن مفستوفيلس يرغب في أن يقدم مخرقة أخرى . فيحول الخمر التي عند زيبل الى شعلة نار ، والنار هي العنصر الذي لمفستوفيلس أكبر سلطان عليه . فيفزع الطلاب ، ويهددهم مفستوفيلس بأن هذه الشعلة هي مجرد ذرة من النار الكبرى التي في حوزته . فيهيج الطلاب ، ويدركون أنهم أمام ساحر دجال . ويختلط الأمر ، ويسوق مفستوفيلس مخرقة أخرى : بأن يغشي على عيونهم بكلمة سحر أخرى ، بحيث يتوهم كل منهم أن أنف الآخر هو عنقود عنب شهي ، ويتصورون أنهم

في كرمة كبيرة . وينتهي الأمر بمنظر مضحك للغاية : فيه يمسك كل واحد منهم بأنف الآخر بوصفه عنقود عنب يريد أن يقطف حباته!

ويروي Lercheimer حكاية مشابهة عن ساحر أنبت من المائدة كرمة عنب فيها عناقيد ناضجة . وطلب من كل واحد من الحاضرين أن يمسك عنقودا باحدى يديه ، وبالأخرى سكينا ، لكن دون أن يستعمل السكينة . ومضى الساحر الى خارج الغرفة ، ثم عاد فوجد كل واحد يمسك بأنف الآخر ، وفوقه السكين . ولو قطع أحدهم بالسكين ، لسالت الدماء من أنوفهم . وقد عرف جيته هذه الحكاية من كتاب اللاهوتي نيومان Neumann عنوانه : « فاوست الساحر » de Fausto Praestigiature .

لكن ما مغزى ما حدث في حانة آورباخ ؟

المغزى هو سخرية جيته من حياة الطلاب ، وسخافة تصرفاتهم وتفاهة ملاهيهم .

٩
مطبخ الساحرة

لم يطرب فاوست اذن لحياة الطلاب الصاخبة التافهة الفجة ، خصوصا وهو في سن عالية لا تحتمل هذا اللون من المزاح الضحل الصبياني . انه في حوالي الخمسين من عمره .

وأدرك مفستوفيلس ضرورة تغيير المزاج البدني لفاوست حتى يستطيع أن يفرح باللذات العنيفة والمواجيد الشهوانية . فكان لا بد له من اعادة الشباب الى جسم فاوست الهرم . ومن أجل ذلك أخذه الى مطبخ ساحرة لديها الشراب الكفيل برجوع الشيخ الى صباه .

والمشهد الغريب الملامح ، حافل بالأبخرة السوداء والبشاعات والأدوات التي تثير النفور والاشمئزاز . ومع ذلك فقد كتبه في مارس سنة ١٧٨٨ وهو في أجمل مكان في روما ، وأعني به حديقة فيلا بورجيزة Willa Borgheze الشهيرة القائمة على تل البنشو Pincio وهذا يدل على أنه لا علاقة مطلقا بين المكان الذي يكتب فيه الشاعر أو الفنان بعامة وبين الموضوع الذي يكتب فيه . وليكن في هذه المثال ما يردع « نقاد » الأدب عما به يهرفون .

على أن « مطبخ الساحرة » ليس من ابداع جيته ، بل ان اجتماع الساحرات لطبخ أدويتهم السحرية أمر قديم جدا ونجد في مكبث لشكسبير أن ساحرات مدلتون Middleton يجتمعن في كهف مظلم ، في وسطه مرجل يجري فيه طبخ أشربة الساحرات . ونجد على

صفحة عنوان كتاب ل . لافاتر L. Lavater الذي ظهر في سنة ١٥٧٠ بعنوان : «في الأشباح واليمورات ومختلف أنواع غرائب السحر» ـ صورة فيها تظهر ساحرة على يسار مرجل ، وعن يمينها يجلس الشيطان على الأرض ، وفي الهواء يحلق شيطان وكثير من «الأرواح السحرية» تدور حول المرجل . الذي فيه تتساقط الأفاعي والسحالي والوطاويط أو يقذفها الشيطان في المرجل ، وعلى الأرض تزحف أفاع وسحال وضفادع جبلية . وتتناثر حواليها جماجم الموتى وعظامهم وأعشاب سحرية ، وفي الخلفية يشاهد الموت ومعه المنجل .

أما في «مطبخ الساحرة» عند جيته فيتراءى في الأبخرة الصاعدة من المرجل أشكال مختلفة ، وجدران المطبخ وسقفه علقت فيها أدوات غريبة . نسناسة تجلس بالقرب من المرجل وتزيل رغوته ، وتحرص على ألا يفيض ، وقرد يجلس مع أبنائه بالقرب منها . وجيته هو الذي أدخل في مطبخ الساحرة : النسناسة والقرد وأولاده . والنسناسة Meer-featze نوع قبيح جدا من القردة .

ويفتتح المشهد بحوار بين فاوست ومفستوفيلس . ان منظر مطبخ الساحرة يثير في نفسه الغثيان . ويسأل صاحبه قائلا : أيمكن أن أحصل على الشفاء في مثل هذا الحشد من الغرائب ؟ وهل لي أن أنشد النصيحة عند امرأة عجوز ؟ وهل يمكن مطبخها القذر أن يخلص كتفي من ثلاثين سنة ؟ ألم تجد الطبيعة روحا نبيلة بلسما فعالا ؟

ويجيبه مفستوفيلس بأن ثم وسيلة طبيعية ، لا طب فيها ولا سحر ، وهي :

اذهب الى الحقول ، وخذ في العزق والحرث ، واحصر جسمك وعقلك في دائر محدودة جيدا ، وتغذى بأغذية بسيطة جدا ، وعش كالدابة وسط القطيع ، ولا تأنف من تسميد الأرض بنفسك .

لكن فاوست لا يستطيع القيام بمثل هذه الأعمال ولا احتمال هذه العيشة . فيقول له مفستوفيلس : لا مفر اذن من المرور بهذه الساحرة . فيقول فاوست :

ألا تستطيع أنت تحضير هذا الشراب ؟ فيجيب مفستوفيلس : ان ذلك سيستغرق وقتا طويلا جدا يكفي لبناء ألف جسر . اذ لابد من الزمان والصبر «لأن الزمان وحده هو الذي يجعل هذا الاختمار الدقيق فعالا» .

ويجري حوار لطيف بين مفستوفيلس والنسانيس ، بينما فاوست يتطلع في مرآة ، مقتربا منها حينا ومتباعدا حينا آخر ويناجي نفسه أمام المرآة : «أية صورة سماوية تتجلى في هذه المرآة السحرية! أعرني أسرع أجنحتك ، واحملني الى هذا المجال!» . ان المرآة السحرية تصور له امرأة رائعة الجمال وها هو ذا يمتلئ شوقا اليها . لأنها «خلاصة كل بدائع السماء» .

ويبادره مفستوفيلس بأن في وسعه أن يدبر له فتاة رائعة الجمال .

وفي تلك الأثناء يفيض المرجل ، وتنبعث نار كبيرة تتصاعد من أنبوبة المدخنة . وهنا تنزل الساحرة وسط النار من المدخنة الى المطبخ وهي تصرخ صرخات مروعة ، وتسب النسناس المكلف بالسهر على المرجل . ثم تبصر فاوست ومفستوفيلس ، فتسألهما عما جاء بهما ، وترش بالنار فاوست ومفستوفيلس والحيوانات . فيصرخ فيها مفستوفيلس : ألا تعرفينني ، أيتها العجوز المخيفة ؟ ألا تتعرفين سيدك ؟ وتتعَرفه الساحرة وتعتذر عما بدر منها . ويغفر لها فاوست حماقتها لأنه في حاجة الى سحرها . ويطلب منها أن تحضر كأسا من الشراب المعروف ، من أشده تعتيما ، لأن السنوات تضاعف القوة .

وهنا ترسم الساحرة دائرة وتضع فيها أشياء غريبة ، وتأتي بكتاب كبير وتضع النسانيس داخل الدائرة وهي تحمل الكتاب وتمسك بشعلة . وتشير الى فاوست ليقترب منها ، وتأخذ في التفوه بكلمات غامضة ، هي تعويذة سحرية ، خاصة بإعادة الشباب . وتهدر في رطانتها الى أن يوقفها مفستوفيلس ويأمرها بملء الكأس من الشراب حتى حافتها . وتعود الساحرة الى مراسمها الغريبة وتصب الشراب في كأس ، وحين يرفعها فاوست الى فمه ينبثق لهب خفيف ويفرغ الكأس . ثم تكسر الساحرة الدائرة ، ويخرج منها فاوست .

ويخرج فاوست ومفستوفيلس ، بعد أن تواعد هذا مع الساحرة للقاء في ليلة فالبورج .

وهنا نتساءل : ما القصد من عودة فاوست الى سن الشباب ، سن العشرين ؟

يرى كونوفشر (جـ ٣ ص ٤٣١-٤٣٢) أن من الخطأ الظن أن الغرض من ذلك استعادة قدرته على انتهاب اللذات والغوص في بحر الشهوات ، وليس تجديد روحه من ناحية العمق في التجارب الروحية التي عبر عنها في مشهد الغابة والكهف . كذلك من الخطأ في نظره ـ أن يؤخذ تجديد الشباب بمعنى حرفي ظاهري ، على أنه تحويل عالم كهل الى فارس شاب . وانما يراد منه أن يساعد فاوست على تحمل المخاطر والتجارب التي سيمر بها تنفيذا للرهان بينه وبين مفستوفيلس .

ويبدو أن فشر ـ وان لم يذكر ذلك ـ انما يرد على دونتسر (جـ ١ ص ٢٧٥) الذي أنكر أن يكون لهذا الشراب معنى رمزيا ، وذكر أنه حسي خالص كما يدل على ذلك ما يرد في الفصول التالية من غرام شهواني جسدي وقع فيه فاوست مع جرتشن ، ولم ينطو على أي معنى روحاني . ونحن من جانبنا نؤيد رأي دونتسر ، ونرفض تأويل فشر .

١٠
الغرام بين فاوست وجرتش

أ ـ في الشارع

ها هو ذا فاوست قد استعاد شبابه وصار مثل فتى في سن العشرين . وأي تجربة حية في سن العشرين أجمل وأعمق من الحب!

لهذا كرس جيته للحب المشاهد الباقية من « فاوست » الأول ـ باستثناء مشهد مقحم هو « ليلة فالبورج » .

أما المحبوبة جرتشن Gretchen ، وهي فتاة ساذجة من الطبقة الوسطى الدنيا ، تعيش مع أمها ، ولها أخ جندي . وفيها ملامح من معشوقات جيته الأوليات : معشوقته الأولى في بلدة فرانكفورت وتحمل الاسم نفسه ، ومعشوقته الثانية ، فردريك بريون ، بنت القسيس في زيزنهايم بنواحي اشتراسبورج وشرلوت كستنر بطلة « آلام الفتى فرتر » ، ثم ليلى شينمان : ففيها من الأولى كثير من الملامح بوصفها فتاة من طبقة بسيطة ، وفيها من الثانية شدة الاخلاص والحيوية ، وفيها من شرلوت طيبة القلب ورعاية البيت ، وفيها من ليلى الجمال المتدفق والشعور الفياض .

ومعظم هذه المشاهد كتبها جيته في سنة ١٧٧٥ أي وهو في السادسة والعشرين من عمره ومن هنا كانت حرارة النبرة ونضارة التصوير واتقاد المشاعر .

وأول مشاهد هذه المأساة كان في الشارع ، حين أبصر فاوست جرتشن وهي خارجة لتوها من الكاتدرائية حيث كانت تحضر قداسا . وما يراها فاوست حتى يفتن بها ، ويعدو وراءها في وضح النهار ويصفها بـ « الآنسة الجميلة » ويعرض عليها أن يمسك ذراعها ويصحبها الى بيتها . فترد عليه بأنها ليست « آنسة » ، وليست « جميلة » ، وتريد أن تعود وحدها الى بيتها ، وتتخلص منه وتمضي لشأنها . فيزداد فاوست تعلقا بها ، ويندفع في وصف حار لمفاتنها : الشفاه الحمر ، والخدود النضرة ، والعيون التي أغضت حياء وعفة ، وسرعة بديهتها في الجواب!

ويدخل مفستوفيلس فيأمره فاوست بتمكينه من هذه الفتاة التي مرت منذ قليل . فيقول مفستوفيلس أنها جاءت من عند قسيسها الذي غفر لها كل خطاياها . وقد اقترب مفستوفيلس من صوان الاعتراف يتسمع اعترافها ، بماذا ؟ بلا شيء ، لأنها فتاة صغيرة بريئة كل البراءة .

فيرد فاوست بأنها تجاوزت الرابعة عشرة من عمرها . فيقول مفستوفيلس ساخرا ان فاوست يتكلم مثل فاجر يريد أن يقطف كل زهرة جميلة ، ولا يحفل بالشرف . فيهيج فاوست ويقسم بأنه ان لم يهيىء له هذه الفتاة لتكون بين ذراعيه في هذه الليلة فسيكون هذا فراق ما بينهما!

فيحاول مفستوفيلس كبح جماحه واقناعه بأن هذا النوع من الفتيات يحتاج الى وقت طويل للظفر به . فيقنع فاوست بأن يزوده مفستوفيلس بأي شيء من أشيائها : المنديل الذي يغطي صدرها ، أو رابطة الساق .

فيعده مفستوفيلس باقتياده الى مخدعها ، في الوقت الذي تكون هي فيه عند جارتها ، وفي غرفتها يستطيع أن يستنشق الجو الذي تستروحه .

ب ـ المساء

لكننا نشاهد أولا جرتشن وحدها في غرفتها وهي تضفر غدائرها ، وتذكر ذلك السيد ذا الطلعة الجميلة الذي غازلها . ثم تخرج ، ويدخل الغرفة مفستوفيلس وفاوست بهدوء . وبعد لحظة يتركه مفستوفيلس وحده في الغرفة ، وينشأ في مناجاة جميلة وثناء عاطر على الغرفة وصاحبتها . ثم يعود مفستوفيلس حاملا معه صندوقا فيه حلي نفيسة ، هدية لجرتشن . ثم يخرجان وتدخل جرتشن (مرجريت) وفي بدنها تسري قشعريرة وتشرع في خلع ملابسها وهي تغني « كان في توليه Thule ملك... » وتفتح الصوان لتضع فيه ملابسها ، واذا بها تشاهد الصندوق فيأخذها العجب من وجوده هنا . وتفتحه فتجد فيه نفائس الحلي التي لم تشاهد مثلها من قبل : سلسلة ، وأقراط ، وخواتم الخ . فتلبسها وتتطلع في المرآة فتتيه عجبا بما تضفيه عليها هذه الحلي من فتنة وجمال .

جـ ـ نزهة

لكن هذه الحلي الثمينة يبتلعها القسيس . وها هو مفستوفيلس وهو في نزهة مع فاوست ، يخبر الأخير بهذا النبأ الفاجع : ذلك أن الأم ، أم جرتشن ، بتقواها الساذجة قد أخبرت القسيس بأنها وجدت صندوقا من الحلي في صوانها ، ولا تدري من أين جاء ومن جاء به وتخشى أن تكون أموالا حراما تترتب عنها خطيئة . فيهتبل القسيس هذه الفرصة ، وقد خطف بصره تلؤلؤ الحلي ، وقال لها أن الكنيسة معدة قوية ، انها ابتلعت بلادا بأسرها ، ولم يحصل لها عن ذلك عسر هضم أبدا : إن الكنيسة ، وحدها هي التي تستطيع هضم المال

الحرام . وهكذا أخذ القسيس هذه الحلي النفيسة وكأنه يتلقى سلة من الجوز ، ووعد الأم والبنت بالجزاء الجميل في السماء .

فيطلب فاوست من مفستوفيلس أن يعوض الفتاة عما التهمه القسيس ويأتيها بحلي أخرى . ويسخر مفستوفيلس من هذا العاشق الولهان الذي يريد الحصول على الشمس والقمر والنجوم لتتلهى بها حبيبته .

د ـ بيت الجارة

وفي بيت جارة جرتشن ، وتدعى مارتا ، نجدها وحدها تشكو حالها لسوء تصرف زوجها معها ، اذ هجرها منذ وقت طويل يجوب أنحاء الدنيا ، ويا ليتها على الأقل تحصل على شهادة رسمية بوفاته حتى تكون حرة في التصرف ، ومن هذه الناحية يدخل مفستوفيلس ليتخذ من مارتا وسيلة للوصول الى جارتها جرتشن ويبدو أن هذه قد أخبرتها بخبر صندوق الحلي الأول ، وها هي ذي قد جاءت لتخبرها بنبأ عثورها في صوان ملابسها على صندوق آخر بعد ذلك الذي ابتلعه القسيس والكنيسة . فتنصحها مارتا بعدم اخبار أمها بهذا الخبر ، وبأن تودع عندها هي هذا الصندوق الجديد وتأتي بين الحين والحين لكي تستمتع بلبس الحلي ، ما دامت لا تستطيع الظهور بها في الشارع ولا في الكنيسة .

وفي أثناء هذا الحديث بينهما يقرع الباب ، ويدخل رجل أجنبي هو مفستوفيلس ويقول انه يريد التحدث الى مارتا اشفيرتلاين Martha Schwerdtlim .

ويلاحظ وجود مرجريت فيحييها باحترام بالغ ويبدي اعجابه بزينتها وجمالها . ثم يقول لمارتا أنه جاء ليخبرها بخبر وفاة زوجها مثقلا بالديون ، مخطئا في حق زوجته وقائلا أنها كانت أكثر منه أخطاء ، فتغضب مارتا . لكن مفستوفيلس يستمر في روايته الشائقة فيزعم أن زوجها جمع مالا ، لكنه أضاعه في حب فتاة من نابولي .

فوقع في الفقر والشقاء . فتثور مارتا على زوجها مرة أخرى . وينصحها مفستوفيلس بأن تلبس الحداد على زوجها الميت لمدة عام ، بعده تحاول الحصول على صديق .

لكن مارتا تريد وثيقة رسمية بوفاة زوجها فيتخلص مفستوفيلس من هذه المشكلة بأن يقول ان شاهدين اثنين يكفيان ، وسآتي برفيق ممتاز وأمثل معه أمام القاضي للادلاء بالشهادة على وفاة الزوج . ويلتمس من جرتشن أن تكون حاضرة في الموعد والمكان المحددين للقاء ، أعني في حديقة مارتا الواقعة خلف منزلها .

ح ـ شارع

وفي الشارع ينبئ مفستوفيلس فاوست بما دبر للقاء بين فاوست ومرجريت (جرتشن) في حديقة مارتا ، ويطلب منه أن يشهد زورا على وفاة زوج مارتا . وحين يتمنع فاوست في البداية أن يشهد زورا ، ما يلبث دافع الشهوة أن يتغلب على ضميره ، فيرضى بما عرضه مفستوفيلس .

ط ـ حديقة

ويتم اللقاء في حديقة مارتا : وها هو ذا فاوست بذراعه مرجريت ، ومارتا مع مفستوفيلس يتريضون طولا وعرضا في الحديقة الواقعة خلف بيت مارتا .

ويجري حديث غزلي رقيق بين مرجريت البريئة المتواضعة وبين فاوست المتيَّم بحبها . ويثني فاوست على تواضعها وبساطتها وبراءتها العالية ، فتزداد هي خجلا ، وتتحدث عن بيتها البسيط وأعمالها المنزلية المستمرة : من طبخ وكنس وشغل ابرة ، وخياطة والقيام بالمشاوير من الصباح حتى المساء ، خصوصا وأمها تدقق في كل شيء ولا تتسامح في أي اهمال في شؤون البيت ، وأبوها ترك لهما بيتا صغيرا وحديقة صغيرة خارج المدينة وبعض المال وأخوها جندي ، وأختها الصغرى توفيت ، وكانت هي التي تعنى بها وتكلفت في سبيل ذلك الكثير من المتاعب .

ويستمر الغزل الرقيق . وتأخذ مرجريت زهرة وتقطف وريقاتها وريقة بعد وريقة لتعرف هل يحبها فاوست : يحبني ـ لا يحبني ـ يحبني ـ الخ . وهي لعبة غرامية ساذجة بين مبتدئين في الغرام . وتكون الوريقة الأخيرة : يحبُّني! ويهتز قلبها ، ويكون تبادل الكلمات الغرامية المألوفة في مثل هذا الموقف .

ي ـ كوخ في حديقة

ويتواصل الغزل بين العاشقين الجديدين مرة أخرى في كوخ حديقة مارتا ، تتوثق معه العلاقة الجديدة ، بحيث لم يعد بعد هناك حاجة الى وساطة مارتا . وتشعر مارجريت بضآلة نفسها أمام هذا الرجل الذي يحفل رأسه بهذا القدر من العلم : «اني أشعر بالخجل أمامه وأقول : نعم لكل ما يبديه من آراء ، ما أنا الا طفلة جاهلة مسكينة ، ولا أفهم ماذا عساه أن يجد فيَّ أنا» .

١١
غابة وكهف

لكن فاوست لن يكون فاوست لو اطمأن الى هذا الوضع الجديد الذي يشاركه فيه أي نسان عادي . لهذا نجده يعود الى طبيعته الروحية الأصيلة ، طبيعة العالم المتأمل الطامح الى كتناه أسرار الكون ، المهموم بما يعتلج في الانسانية من وجدانات ومآس ويأس ورجاء .

وها هو ذا يعود الى الخلوة في حضن الطبيعة الكلية ، في «غابة وكهف» ، يناجي «الروح السامية» التي وهبته كل ما تمناه : أعطته ملكوت الطبيعة الرائعة ، والقدرة على نشعور بها والاستمتاع ، وعرضت أمامه سلسلة الكائنات الحية ، وعلمته كيف يميز أخوته في الخميلة الصامتة ، وفي الهواء والماء ، وحين تزمجر العاصفة في الغابة ، ويتهاوى الصنوبر نساحق ويقلب الغصون والجذوع . ان صدره انشرح للروائح المستسرة العميقة ، وضوء نقمر الصافي يغمر صور الماضي الفضية التي تخفف لذة التأمل الكابية .

لكن الى جانب هذه السعادة التي تسمو به دائما الى قرب الآلهة ، أعطته الروح نسامية أيضا هذا الرفيق البارد والوقح ، الذي يهيج في صدره شهوة وحشية لتلك الصورة من نجمال ، بحيث صار يجنح الى المتع واللذات والشهوات الدنيا .

ويقطع عليه تأملاته هذه ، هذا الرفيق البارد الوقح : مفستوفيلس ، فيطلب اليه أن يعود ى الاستمتاع . وحين يوبخه فاوست ، يمن عليه مفستوفيلس بأنه هو الذي شفاه من نزوات نخيال ، ويقول له : ماذا تريد من التعفن ها هنا ، ومن الجثوم مثل البومة في الكهف وبين شقوق الصخور ، ومن التغذي مثل الضفدع الجبلي ، من الطحلب والأشجار النزازة ؟ وما لسعادة في الجلوس على الجبال ابان الليل وتحت تساقط قطرات الندى ، وحفر أحشاء لأرض ، وأن يضم في صدره أعمال الأيام الستة للخلق ؟!

وحين يهزأ فاوست بكلامه هذا ، يذكره بأن حبيبته تنتظره في بيتها ، والعالم كله يبدو نها مظلما ضيقا . انها تشعر نحوه بحب لا نهاية له وقد غمرها فاوست ببحر من الحب . ومن الأفضل له أن يكافئ محبوبته الرقيقة في غرامها المشبوب .

فيجيب فاوست بأنه قريب منها بقدر ما هو بعيد ، ولا يستطيع أن ينساها ولا أن يفقدها . ويأسى على أنه هارب لا منزل له ولا موقد ، وانه مندفع نحو الهاوية كأنه شلال .

فيطلب منه مفستوفيلس أن يذهب لمواساتها ، بدلا من التفكير في الغناء .

* * *

وهذا المشهد ، «غابة وكهف» من أجمل وأعمق مشاهد «فاوست» كله .

لقد خشي فاوست أن يتحول حبه لمرجريت الى شهوة جسدية محضة . لهذا ابتعد عنها وخلا بنفسه هنا في الطبيعة الواسعة ليرد الى وجدانه سموه وروحانيته .

و«الروح السامية» التي يناجيها في خلوته هي روح الأرض التي ظهرت له في المشهد الأول ، وهي روح الطبيعة التي منحته كل ما عرفه في الدنيا ، وهي التي أودعت في صدره حب الطبيعة الكلية وهي الآن تفضي اليه بأسرارها ، بعد أن شكا في المناجاة الثانية من صمتها واحتجابها . لقد أصبح يعرف أخوته من البشر ، ويفهم ما في الخميلة الصامتة وفي الهواء والماء ، وما يجري في الغابة من تهاوي أشجارها الماردة ، ويبصر ما في أحشاء الكهوف ، ويدرك صخب الرعد ، كما أنه يفهم أيضا مقابلاتها التي يمثلها ضوء القمر الصافي وأشكال الماضي الفضية .

لكن يعكر عليه صفاء هذه المتعة الروحية هذا الشيطان البارد الوقح الذي يريد أن يجره الى الدرك الأسفل من الشهوات .

وهنا يثير النقاد مشكلة حول موضع هذا المشهد من «فاوست» الأول . اذ يبدو أنه لا صلة له بما قبله مباشرة ، أعني انه لا صلة بينه وبين مأساة مرجريت . ويقولون ان ما زعمه البعض من وجود اشارة الى مرجريت في قول فاوست ان مفستوفيلس يهيج في صدره شهوة وحشية لتلك الصورة من الجمال ، هو زعم باطل (كونوفشر جـ ٣ ص ٥٣٠) .

وهذا المشهد يوجد في «شذرة فاوست» بين مشهد «الينبوع» ومشهد «السور المحصن» Zwinger ، أي بعد التغرير بمرجريت وحملها سفاحا من فاوست .

ووضعه على هذا النحو ، كما لاحظ دونتس (جـ ١ ص ٢٩٨) وفشر (جـ ٣ ص ٥٣١) هو أمر لا معنى له ، وقلب تام للوضع السليم : لا معنى له ، لأن الحوار بين فاوست ومفستوفيلس الوارد بعد المناجاة مباشرة ، لا يهدف الا الى التغرير بمرجريت واجتلاب مأساة مرجريت ، وهو قلب للوضع لأنه دعوة الى شيء قد تم تنفيذه فعلا . وكون جيته حار في وضع مشهد المناجاة : «غابة وكهف» فوضعه في «شذرة فاوست» بعد مشهد الينبوع ووضعه في التحرير النهائي قبل هذا المشهد ـ هو دليل آخر ـ في نظر كونوفشر (جـ ٣ ص ٥٣١) على أن مشهد «المناجاة» لا علاقة له بمأساة مرجريت .

وفي «المناجاة» تعبير رائع عن ايمان جيته بمذهب وحدة الوجود : الواحد في الكل ، والكل في الواحد Hem Kai Pan ان الطبيعة واحدة في مملكة النبات والحيوان . وكان جيته مشغولا آنذاك بمذهبه «في تحول النباتات» ، هذا المذهب الذي بدأ به في حديقته في

فيمار ، وأتمه في بساتين بادوفا وبلرمو (ايطاليا) ومفاده أن ثم ظاهرة أولية Urphanomen للنبات ، أي نبات أول أخذ في النمو والتطور والتشعب الى أصناف على طول الزمان حتى كونّ ما نعرفه في مملكة النبات . والانسان هو أيضا عضو في عملية تطور الأشكال الحيوانية .

١٢
جرتشن أمام عجلة الغزل

وفي مقابل مناجاة فاوست لنفسه وهو في الغابة والكهف ، نجد مناجاة جرتشن (مرجريت) لنفسها وهي أمام عجلة الغزل . وهذه المناجاة مؤلفة من عشر رباعيات ، فيها تشتاق الى حبيبها الذي هجرها .

طارت من قلبها الطمأنينة وسرى فيه الحزن والضيق ، لأنها لم تعد تجد حبيبها . ان العالم في نظرها عالمان : عالم فيه حبيبها وعالم يخلو من حبيبها . وأينما وجد ، كانت الحياة ، وأينما غاب حل الموت والخواء .

انها لا تتطلع الا اليه حينما تنظر من النافذة ، ولا تبحث الا عنه حينما تخرج من البيت . لكن أين منها الآن قامته الفارعة ، ووجهه النبيل ، وبسمة ثغره ، سطوة نظرات عينيه وتدفق السحر من بين شفتيه ، وضغطة يديه ، ثم خصوصا أين قبلته!

صدرها يدفعها اليه ، وبودها أن تمسك به ، وأن تشبعه لثما وعناقا!

١٣
ايمان فاوست

ويعود المحبان الى اللقاء من جديد في حديقة مارتا . ويدور الحوار بين كليهما حول الدين والايمان ووجود الله .

ذلك أن مرجريت فتاة بريئة بسيطة الايمان . وقد لاحظت أن فاوست لا يبدي أي اكتراث للدين ، فيشق هذا عليها لأنها تريد النجاة لحبيبها كما تريدها لنفسها . والايمان عندها طقوس وشعائر ينبغي أن يؤديها المؤمن : فيذهب لحضور القداس ، ويغدو لصوان الاعتراف ليعترف بخطاياه . وها هي ذي تسأله السؤال الخطير : هل تؤمن بالله ؟ فيجيبها

فاوست : يا عزيزتي ، ومن ذا الذي يستطيع أن يقول : أنا أؤمن بالله ؟ في وسعك أن تسألي القسيس أو الحكماء ، وسيبدو لك جوابهم مجرد استهزاء بالسائل ؟ وببساطة تفكيرها تستخرج النتيجة : «اذن أنت لا تؤمن ؟» فيجيبها فاوست العالم المحنك المعقد التفكير : «لا تسيئي فهم كلامي ، أيها الوجه اللطيف فمن ذا الذي يحق له أن يسميه ، أو أن يقر قائلا : أنا أؤمن به ؟ ومن عنده شعور ثم يتجاسر أن يقول : أنا لا أؤمن به ؟ ثم يمضي فاوست في ذكر صفات الله . المحيط بكل شيء ، الحافظ لكل شيء! انه يحيط بك وبي وبنفسه ويحفظك ويحفظني ويحفظ نفسه . ويوغل في وحدة الوجود فيربط كل أعضاء العالم ، حتى أصغر الكائنات ، بعضها ببعض في وحدة كلية .

ويطلب منها أن تملأ قلبها بهذا الشعور بوحدة الكل ، ولها بعد ذلك أن تسميها : السعادة ، القلب ، الحب ، الله ـ فكلها أسماء مترادفة تدل على معنى واح أحد . ولهذا يصرح فاوست بأنه لا يسميه باسم ، لأن الشعور هو كل شيء ، أما الاسم «فليس الا لغطا ودخانا يعكران لمعان السماء» .

وترن هذه العبارات رنينا جميلا في سمع مرجريت ، وتتوهم انها قريبة مما يقوله القسيس . لكنها يحيك في صدرها الشك في أن حبيبها فاوست يؤمن بالمسيحية ، لأنها ترى فاوست بصحبة هذا الشخص الغريب الذي يرتاع قلبها لمرآه ، وتقول : «لا شيء يجرح قلبي مثل المنظر الكريه لهذا الرجل» ـ تعني مفستوفيلس وترى فيه وغدا سافلا ، ذلك أنه ساخر النظرة ، وحشي الطلعة ، كتب على جبينه أنه لا يحب أحدا . بل أكثر من هذا ، انه اذا اقترب منهما شعرت بأنها لم تعد تحب فاوست .

وتريد أن ترحل فيتمنى عليها فاوست أن تدعه يستريح ساعة على صدرها ، وقلبه لاصق بقلبها ، وروحه تعانق روحها . فتقول : يا ليتها كانت تنام وحدها ، اذن لتركت الباب غير مغلق بالمزلاج . لكن أمها خفيفة النوم ، ولو رأتهما ينامان معا لخرجت ميتة في الحال .

وهنا يحتال فاوست ، ولا بد أنه كان قد أعد العدة من قبل بأن يقدم اليها زجاجة فيها شراب منوم يخدر حواس أمها . وتخشى مرجريت أن يضر الشراب بأمها ، فيطمئنها فاوست .

فتوافق على إعطاء أمها جرعة من الشراب ، فان حبها ملك عليها ارادتها :

«لقد فعلت الكثير من أجلك ، حتى لا يكاد يوجد شيء لم أفعله بعد» .

وتخرج هي ، ويدخل مفستوفيلس وكان قد تسمع كل شيء . فراح يسخر منها ومن

فاوست ، وقد ساءه كلامها الجارح عنه . لكنه مسرور مقدما بسقوط كليهما في الخطيئة .

* * *

وهذا المشهد من المواضيع الرئيسية التي يستند اليها في تحديد آراء جيته في الدين . ويتضح منه أنه لا يؤمن بإله مشخص ، بل يرى أن الكون واحد أحد ، ان الكل هو الله ، الله هو الكل . بل لا يريد أن يستعمل اسم «اللّه» لأنه يحد من نظرته الواحدية هذه .

موقف فاوست ـ وهو بعينه موقف جيته ـ من الدين هو موقف «الدين الطبيعي» . الذي نجده عند هيوم وعند فولتير وبعض أقطاب نزعة التنوير .

ونجد في الرسائل التي كتبها جيته في تلك السنة التي ألف فيها هذا المشهد أي سنة ١٧٧٥ ـ تصريحات لجيته في هذا الموضوع قريبة مما يقوله هنا . فهو يصف الله في هذه الرسائل بما يلي : «الشيء المحبوب الذي يسمونه الله» ، «الشيء المحبوب المستور الذي يقويني ويهديني» ، «الشيء المحبوب الذي رسم الخطة لرحلتي» .

كذلك يقول جيته في قصيدة شهيرة ألفها في سنة ١٨١٦ :

«في الباطن كون أيضا ،
ومن ثم كان العرف المحمود عند الشعوب
وهو أن كل انسان يسمي أحسن ما يعرف
باسم «الله» بل يسميه الهه
واليه تسلم السماء والأرض ،
وهو يخشاه ، ويحبه كلما استطاع» .

وفي حديث له مع اكرمن ، وكان جيته في الثمانين من عمره ، يقول مخاطبا اكرمن : «يا بني العزيز ، ماذا نعرف اذن عن فكرة الالهي ، وماذا تعني تصوراتنا المحدودة عن الماهية العليا! لو أنني سميته كما يفعل التركي (المسلم) ، فلن أفيه حقه ولن أكون قد قلت شينا بالمقارنة الى صفاته اللا محدودة .»

ان جيته يرى في الطبيعة قدرة على الخلق لا متناهية ، وقوة للتحويل والتصوير غير محدودة ، وهي قوة واحدة تسري في جميع الكون ، وشعور ممتلئ بالاعجاب بهذه القوة وتلك القدرة فهما في نظره «الله» .

١٤
الينبوع

وعند الينبوع الذي تسقي منه الفتيات بالجرار ، يجري الحوار بين مرجريت وليسشن Liesch en (تصغير اسم اليصابات) ، وقد جاءتا لملء جرتيهما ، حول الآنسة بربارة ، التي حملت من عاشقها الذي هجرها وهي حامل منه ، بعد أن غازلها طويلا وغمرها بالهدايا اللطيفة ، مما جعلها تتيه على صواحبها .

وتعود مرجريت الى منزلها مملوءة هموما من هذا الحديث ، لأن حالة بربارة هي حالتها أيضا! لكن كانت بالأمس تنحي باللائمة الشديدة على الفتيات اللواتي يغرر بهن الشباب فيحملن منهم ، فماذا تقول اليوم وقد غرر بها فاوست وحملت منه!

١٥
سور المدينة الداخلي

وفي المشهد التالي نجدها تقف أمام صورة «الأم الحزينة» ، أي السيدة مريم وهي تبكي مصرع ابنها يسوع المسيح ، وأمام الصورة أوان فيها أزهار . فتضع أزهارا ناضرة في إحدى الأواني وتروح تناجيها مناجاة تستدر الدموع من أقسى القلوب ، وتستحلفها أن تنقذها من العار والموت وأن تحنو على محنتها . لكن ماذا يجدي هذا الدعاء ؟!

وهذا المشهد مألوف جدا في المدن الكاثوليكية ، وقد شاهدناه آلاف المرات في المدن الايطالية ، وفي روما بخاصة ، ففي سور المدينة مشكاة فيها صورة لمريم العذراء أو لأحد القديسين ، وفي أسفلها أوان أزهار . وتقف السيدات ـ العجائز خصوصا ـ بل والآنسات أمامها ، وتتمتم الواحدة منهن بالدعاء . وأحيانا يكون للمدينة سوران : داخلي وخارجي بينهما مسافة تتسع أو تضيق حسب المدن . وهذا السور الداخلي هو الذي يطلق عليه في الألمانية لفظ Zwinger . وكان في فرانكفورت ، مسقط رأس جيته ، سوران أيضا ، كما ذكر جيته نفسه (جـ ٢٠ من مجموع مؤلفاته ، ص ٥٩) .

وصورة «الأم الحزينة» من الصور الواسعة الانتشار جدا في التصوير الكاثوليكي ، وفي

هذا النوع تصور مريم عند أسفل الصليب الذي صلب عليه ابنها ، وقد اخترق صدرها سيف[1] واحد ، أو سبعة سيوف رمزا لآلامها السبعة .

وهناك أناشيد كاثوليكية عن «الأم الحزينة» من أشهرها النشيد الذي وضعه باللاتينية Jacoponi di Todi (المتوفى سنة ١٣٠٦) ، والمقطع الأول منه هو : «الأم الحزينة»

واقفة	Stabat mater dolorosa
تبكي عند الصليب	Juxta crucem lacrimosa
بينما ابنها معلق ،	Dum Pendebat filius
ونفسها تنوح	Cuius animam gementem
وتغمرها الأحزان والآلام	Contristatem et dolentem
وينفذ فيها سيف	Pertransivit gladius

أما نشيد مرجريت ها هنا فيمكن تقسيمه الى خمسة مقاطع :

١- في الأول منها تتشفع الى العذراء الحزينة لتعينها في محنتها البالغة ،

٢- وفي الثاني ـ ويتألف من ٦ أبيات ـ تصف آلام مريم وهي ترثي ابنها المصلوب ،

٣ ، ٤- وفي الثالث والرابع تعبر عن محنتها هي وما يعتلج في نفسها من عذاب وهموم .

٥- وفي الخامس تنطلق منها صرخة عالية ، تضرع فيها الى العذراء الحزينة أن تنقذها من العار ومن الموت ، وأن تحنو بوجهها على محنتها وهي المرهقة هي الأخرى بالآلام .

ان نشيد مرجريت هو دعاء لهيف حار الى «سيدة الرحمة» ، مريم الباكية ، وإلى ابنها المصلوب ، ابتغاء أن تجنبها «العار والموت» . أما العار فمفهوم ، فهو عار الفضيحة اذا ما كشف أمرها وهي أنها تحمل سفاحا ، أما الموت ـ فلماذا ؟ هل فكرت في الانتحار اذا افتضح أمرها ؟

لهذا يرى دونتسر (جـ ١ ص ٣٠٢) ان هذا البيت : «اعينيني! أنقذيني من العار والموت» ـ يسيء الى وحدة النشيد ، ويرى أنه كان الأولى بجيته الا يضعه هنا ، حتى تبقى للنشيد وحدته .

---

(١) تحقيقاً لما ورد في انجيل لوقا (٢ : ٣٥) : «سينفذ سيف في نفسك» .

١٦
مصرع فالنتين

وهذا مشهد أجمع النقاد على أنه يقطع تسلسل الأحداث على نحو غير ملائم . وحجتهم في ذلك هي أنه يضيف الى خطيئة مرجريت الخاصة ، وهي حملها من فاوست سفاحا ، خطيئة أخرى لا شأن لها بها ، وهي قتل حبيبها فاوست لأخيها الجندي فالنتين Valentin .

لكننا لا نوافق هؤلاء النقاد على ما ذهبوا اليه ، لأن مصرع أخيها هو نتيجة للعار الذي جلبته هي على أسرتها .

والحق أن مرجريت ارتكبت ثلاث خطايا ، لا واحدة : الأولى بارادتها وهي استسلامها لفاوست مما جعلها تحمل منه سفاحا ، والثانية ارتكبتها بيدها ولكن عن جهل وانخداع ، وهي أنها أعطت لأمها الشراب الذي زعم فاوست انه منوم فقط ولن يضر أمها ، لكنه في الواقع أودى بأمها ، والثالثة وان لم ترتكبها بيدها كان نتيجة لخطيئتها الأولى ، فالمسؤولية هنا بالتبعية .

لقد عرفنا من كلام مرجريت مع فاوست أن لها أخا جنديا يدعى فالنتين . وها نحن أولا نعرف الآن أنه كان حين يشيد بأخته بين رفاقه الجنود كانت الألسن كلها تخرس ولا يستطيع أحد أن يذكر عنها أي سوء . أما الآن ، وقد انتشرت فضيحة أخته حتى صارت مضغة في كل الأفواه ، فانه لا يشعر حين ذكر اسمها الا بالعار والفضيحة .

ها هو ذا واقف أمام باب منزله يردد في نفسه هذه العبارات ، واذا بفاوست ومفستوفيلس يقتربان من المنزل وهما يتحاوران ، فاوست يأسى على أنه يذهب الى محبوبته هذه المرة وليس معه حلي ، فيعزيه مفستوفيلس ساخرا قائلا انه لا ينبغي له أن يحزن لذلك لأنه سيتمتع بدون مقابل ، ولما كانت السماء مرصعة بالنجوم المتلألئة ، فذلك يوحي الى مفستوفيلس بالغناء ، فيغني بمصاحبة قيثارة .

وهنا يتقدم فالنتين نحوهما مزمجرا مهددا لاعنا الآلة الموسيقية والمغني ، ويكسر القيثارة ، ويهجم ليكسر رأس المغني ورفيقه فاوست . يرتعد فاوست لهذا الموقف ، فيشجعه مفستوفيلس . ويتولى هذا ملاقاة هجمات فالنتين ، وما يلبث هذا أن يشعر بتجمد يده .

ويشارك فاوست فيصرع فالنتين . فيطلب مفستوفيلس من فاوست أن يهربا بسرعة لأنه لا يستطيع تدبير أموره مع القضاء الجنائي .

وعلى صوت هذه المعركة تستيقظ الجارة مارتا ومرجريت ، ويتجمهر الناس ويشاهدون شخصا مجندلا . وتخرج مرجريت من منزلها لتشاهد ما جرى فترى أخاها مجندلا على الأرض يعالج سكرات الموت . وها هو ذا يدعو الحاضرين لسماع كلماته الأخيرة التي يوجهها الى أخته ، اذ يقول لها : أنت الآن مومس ، فكوني مومسا تامة . بدأت مع واحد سرا . وعما قليل سيتوالى عليك كثيرون ، حتى اذا ما بلغوا اثني عشر فستكونين حينئذ مملوكة للمدينة كلها . واني لأتخيل الوقت الذي فيه يشيح الشرفاء فيه جانبا حين يبصرونك كما لو كنت جيفة عفنة تصيب بالطاعون . لا يحق لك بعد الآن أن تلبسي سلسلة من الذهب ، ولا أن تقفي الى جوار المذبح في الكنيسة ، ولا أن تستمتعي بالرقص لابسة بنيقة من الدنتلة . بل عليك أن تختبئي في ركن مظلم يائس ، بين المتسولين وذوي العاهات . وحتى لو غفر الله لك ، فستبقين دائما ملعونة على الأرض .

وحين تحاول الجارة مارتا أن تقف لعناته هذه ، يصفها بأنها «قوادة دنيئة» وينهر أخته أن تستمر في دموعها ، لأنها دموع كاذبة ، وكفاها ما أنزلت من عار له ولشرفه ولأسرتها ، ويختم قائلا : «من خلال رقدة الموت سأذهب الى الله جنديا شريفا .»

وهكذا قتل فالنتين دفاعا عن شرفه وأسرته ، قتله مفستوفيلس بأن استطاع بأعماله السحرية أن يشل يد فالنتين ، وبالتالي أن يمكّن فاوست من جندلته .

وهكذا ينتصر الشيطان مرتين : مرة على فالنتين ، ومرة على فاوست لأن هذا الأخير قد صار بفعله هذا مهدر الدم ، لا نجاة له الا بالهرب من البلاد .

وعلى هذا النحو قطعت العلاقة بين فاوست وجريشن الى الأبد ، صار فاوست مملوكا لمفستوفيلس ، وأصبحت جريشن (مرجريت) عرضة لكل كارثة .

* * *

وقد لاحظ بايرون Byron (١٧٨٨-١٨٢٤) ، الشاعر الانجليزي الرومنتيكي العظيم ، ان الأغنية التي غناها مفستوفيلس تحت نافذة مرجريت ، هي محاكاة حرة لأغنية أوفليا Ophelia في المشهد الخامس من الفصل الرابع من مسرحية «هاملت» :

«عم صباحا ، انه يوم عيد القديس فالنتين
لانزال في الصباح الباكر
وأنا فتاة أمام نافذتك
أريد أن أكون فالنتينك .
فنهض من نومه ، وارتدى ثيابه

وفتح باب الغرفة .
وأدخل الفتاة
التي لم تخرج بعد ذلك وهي فتاة
بحق يسوع والاحسان المقدس
يا حسرتاه ، ويا للعار!
الشباب يفعلون ذلك لو استطاعوا اليه سبيلا
يا لله! انهم يستحقون التوبيخ
قالت : قبل أن تطأني
أنت وعدتني بالزفاف .
ما كنت لأفعل ذلك في وضح الشمس
لو لم تأت أنت الى فراشي .»

وقد اعترف جيته بأنه حاكى فعلا أغنية أوفليا هذه هنا في أغنية مفستوفيلس . وهو في الأبيات ١-٤ ، ٦- يخاطب كترينا ، وفي البيت رقم ٥ يخاطب الفتى الشاب . وفي المقطع الثاني يحذر كل الفتيات وينبههن الا يستسلمن أبدا للشبان الا إذا كانت خواتم الخطبة في أصابعهن .

وهذه الأغنية ، وفيها تعريض شائن بمرجريت ، قد أثارت ثائرة فالنتين . ومن هنا كان اندفاعه للانتقام لشرف الأسرة .

١٧
في الكاتدرائية

ما أبعد حال مرجريت الآن عن حالها من قبل! كانت في الماضي تذهب لحضور القداس وهي البراءة كاملة ، تجلس للاعتراف بغير ذنب ، كما اعترف مفستوفيلس نفسه ، أما الآن فما أتعسها!

ها هي ذي الآن في الكاتدرائية تحضر صلاة جنازة على روح ميت . أي ميت ؟ يفترض البعض أنه أمها التي ماتت أثر تجرعها للشراب الذي أعطاه فاوست لمرجريت لتنيم به أمها فيخلو الجو للعاشقين . ويؤيدون هذا الفرض بقولهم انه يرد في الرواية الأولى لفاوست ما يلي : « كاتدرائية . صلاة جنازة على روح أم جريشن . كل أقارب جريشن ،

قداس ، أورغن ، وغناء » . لكن لما كان موت الأم قد صار بعيدا ، ولما كان جيته لم يفكر بعد في كتابة مصرع فالنتين ، لهذا تخلى جيته عن هذه الفكرة ، فكرة أن صلاة الجنازة هي على روح أم مرجريت .

ونجد في « شذرة فاوست » Faust: Ein Fragment ما يلي : « كاتدرائية قداس ، أورغن وغناء . جريشن بين العديد من الناس » . ولم يظهر مشهد مصرع فالنتين لأول مرة الا في الرواية النهائية لـ « فاوست » الأول ، بين مشهد سور المدينة الداخلي وبين مشهد الكاتدرائية ، ولهذا فلأول مرة نجد الروح الشريرة تقول لجرتشن : « لمن الدم المسفوح على عتبة بيتك ؟ » .

وغناء الكورس يتألف من المقاطع : الأول والسادس والسابع منه من نشيد رائع في موضوع يوم الحساب ، وقد نظمه الراهب الفرنسسكاني تومازو دي تشيلانو (ولد في تشيلانو Celano حوالي سنة ١١٩٠ ، وتوفي حوالي سنة ١٢٦٠) ، وتلقى الرداء الفرنشسسكاني من يد مؤسس الطريقة ، فرنشسكو الاسيزي حوالي سنة ١٢١٥ ، ولا يعرف هل حضر لحظات فرنشسكو الأخيرة لكنه كتب سيرة حياته بعنوان Vita Beati Francisci في سنة ١٢٢٩ ، ولخصها في سنة ١٢٣٠ ، وصنف رسالة عن معجزاته . وقد ألف أنشودة يوم الحساب ، على الرغم مما أحاط بنسبتها اليه من شكوك . وها نحن نورد ترجمة النصف الأول منها :

يوم الغضب ، ذلك اليوم
فيه ينحل العالم الى رماد حار
بهذا شهد داوود وسبولا
أي فزع سيكون
حين يأتي الديان
فيحاسبنا حسابا عسيرا
الصور يرسل صوتا عجيبا
داعيا الجميع من مناطق القبور
كي يمثلوا أمام العرش
الموت والطبيعة يتعجبون
وهما يشاهدان المخلوقات تبعث
لتحاسب أمام الديّان

ويفتح كتاب مسطور
فيه كل شيء
وهو للعالم صفحة الهام
هنالك يجلس الديان
وما كان خفيا سيكشف
ولن يخفى أي ذنب
فماذا أقول حينئذ ، أنا الشقي ،
وبمن أتشفع
والعادل نفسه ليس مطمئنا!
أيها الملك ذو الجلال العظيم
يا من تنعم باللطف دون مقابل ،
نجني ، يا ينبوع الرحمة!

وما تكاد جرتشن تسمع البيتين الأولين ، حتى تهمس في داخلها الروح الشريرة قائلة : ان هذا الغضب سيمسك بك! والصور ينفخ ، والقبور تهتز ، وقلبك الذي خلق جديدا من الرماد ينتفض فزعا .

فتشعر مرجريت وكأن الأرغن يسلبها التنفس ، وكأن الغناء يمزق نياط قلبها .

ثم تنشد الجوقة المقطع السادس ، فتحس مرجريت كما لو كانت أعمدة الجدران تخنقها والقبة تسحقها . وتلتمس الهواء ، فتهمس في قلبها الروح الشريرة قائلة ان الخطيئة والعار لا يمكن أن يخفيا . فويل لها!

وتنشد الجوقة المقطع التالي (رقم ٧) ، فتهمس الروح الشريرة في روع مرجريت بأن البررة قد أشاحوا بوجوههم عنها ، فما لها أن تتشفع اليهم .

ويغمى على مرجريت فتسقط على الأرض .

والروح الخبيثة هنا ضمير مرجريت وهو يؤنبها بشدة والحاح ، ويذكرها بمصيرها يوم الحساب ، حيث لا شفاعة ولا غفران ، ولا نجاة إلا لمن أتى اللّه بقلب سليم من الخطايا ـ وأين هي من هذا القلب! وما أبشع خطاياها! لقد تسببت في وفاة أمها بالسم ، ومصرع أخيها دفاعا عن شرف الأسرة ، فضلا عما في أحشائها من جنين هو وليد الخطيئة .

١٨
ليلة فالبورج

ليلة فالبورج هي الليلة التي يجتمع فيها الشياطين والساحرات على جبل الهارتس Harz (في وسط ألمانيا) ، وهي الليلة التي يكون صباحها أول مايو من كل عام .

وقد قام جيته بثلاث رحلات الى جبل الهارتس (أو مجموعة جبال الهارتس Harz-gebirge) : الأولى في ديسمبر ١٧٧٧ ، والثانية في سبتمبر سنة ١٧٨٠ ، والثالثة سنة ١٧٨٤ بصحبة الرسام كراس Kraus الذي قام برسم أنواع الصخور هناك .

وفي المشهد المعنون بـ« مطبخ الساحرة » رأينا مفستوفيلس يعطي للساحرة موعدا في ليلة فالبورج .

وقد استمد جيته المادة لوصف ليلة فالبورج من الكتب التالية :

١ـ مؤلفات بريتوريوس : Johannes Pratorius واسمه الحقيقي Hans Schultze الذي ولد في ٢٢/ ١٠/ ١٦٣٠ في Zechli Ngem ، وتوفي في ٢٥/ ١٠/ ١٦٨٠ في ليبتسك . ومؤلفاته كنوز من المعلومات في الأدب الشعبي الألماني ، وخصوصا ما يتعلق منه بالخرافات ، ونذكر منها :

- « علم الجن » Daeonologie (ليبتسك سنة ١٦٦٢-١٦٦٥) .
- « فلسفة كولوس » Philosophia Colus (ليبتسك سنة ١٦٦٢) .
- "Anthropodemus Plutonicus" (لجوبرج سنة ١٦٦٦) .
- « مؤسسة بلوكبرج . أو تقرير جغرافي مفصل عن جبل بلوك ، وسفرة الساحرات وسبت السحر ، حيث يأتي على هذه الجبال الأشرار من كل أنحاء ألمانيا في كل عام في ليلة أول مايو » (ليبتسك سنة ١٦٦٨) .

٢ـ كتاب بلتسار بكر Balthasar Bekker : « العالم المسحور ، ويقع في أربعة كتب ، وقد كتبه مؤلفه هذا باللغة الهولندية ، وظهرت له ترجمة ألمانية في أمستردام عام ١٦٩٣ . وكان بكر من أنصار فلسفة ديكارت . وفي هذا الكتاب يقدم معلومات غريبة مفصلة عن الشيطان وعصابات الشياطين وعن الساحرات ، وعن تأثير الأرواح الشريرة على الناس ، كما يتناول الخرافات . »

٣ـ كتاب ارسموس فرنشسكي Erasmus Franeisci بعنوان : « بروتيوس الجهنمي »

Der Hollische Proteus (نورنبرج سنة ١٧٠٨) .

وينبغي أن يلاحظ أولا أنه لا يوجد في اسطورة فاوست ولا في الكتب التي كتبها أي ارتباط بين فاوست وبين ليلة فالبورج . وأول من ربط بينهما هو J. Fr. Lowen في قصة بطولية هزلية بعنوان : «ليلة فالبورج» (سنة ١٧٥٦) ، اذ نجد المؤلف يستدعي روح الساحر الكبير يوهان فاوست وفاوست نفسه الى «سبت الساحرات» .

وجيته قد قرأ هذه القصيدة ، لكن ليس بين هذه القصيدة وبين مشهد «ليلة فالبورج» في فاوست أية مشابه .

والبروكن Brocken (وباللاتينية Mons Bructerus) ويسمى في اللغة الشعبية أيضا باسم جبل بلوك Blocksberg ، هو أعلى قمة في سلسلة جبال الهرتس Herz ، وارتفاعه ١١٤٢ مترا فوق سطح البحر ، ويقع في بروسيا ، ويرتفع بمقدار ٨٥٠ الى ٨٨٠ مترا على سهل الزنبورج -Il senburg ، وبمقدار ٥٠٠م فوق الهضبة الجنوبية الشرقية . وهو النقطة المركزية لسلسلة جبال بروكن التي تؤلف الكتلة الرئيسية من سلسلة جبال الهرتس العليا . ويرتفع البروكن على شكل قطاع كروي . وقد لعب البروكن دورا بارزا في تاريخ نفوذ المسيحية في ألمانيا . فانه بعد نفوذ المسيحية في هذه المنطقة ، ظل البروكن وقتا طويلا المكان الذي تقدم فيه القرابين الى آلهة الوثنية الجرمانية ، وكان يقام فيه احتفال وثني في أول مايو من كل عام . ومن ثم نشأت الأسطورة القديمة القائلة بأن شبح الشيطان يشاهد على هذا الجبل . ومن ثم صار هذا المكان هو المسرح لأغرب الاحتفالات الوثنية ، وأبرزها احتفال ليلة فالبورج وهي الليلة التي صاحبها هو أول مايو ، وكان المجانين من كل أصقاع ألمانيا يأتون في تلك الليلة الى ذلك المكان يعربدون .

وفي جنوب غرب البروكن توجد قرية شيركه Schierke (ويكتبها جيته Schirke) وهي قرية ومكان استشفاء في نواحي مجد بورج ، وترتفع من ٦٠٠ الى ٢٦٣٤ مترا فوق البحر ، ويبلغ سكانها ١١٠٠ نسمة الآن . ومن قرية شيركه يقود الطريق عند سفح جبل بلوكسبرج الى قمة البروكن .

وجبل بلوك Blocksberg كان يعد دائما في شمالي ألمانيا أنه جبل الساحرات بينما نادرا ما يعد كذلك في وسط ألمانيا ، أما في جنوبي ألمانيا فلا يوجد هذا الاعتقاد .

والعيد الرئيسي للساحرات هو ليلة فالبورج (عشية أول مايو) نجد في محاكمات الساحرات ذكرا لأيام أخرى مثل : عيد يوحنا ، عيد يعقوب . وأقدم ذكر للبروكن (ويسمى أيضا Brocks, Brockisberg, Blocksberg, Blockersberg) يرجع الى القرن الخامس عشر[1] .

---

(١) راجع تفاصيل ذلك في كتاب Solden بعنوان : «تاريخ محاكمات الساحرات» ص ٢٨٨ وما يتلوها . وراجع كتاب جرم Grimm's Mythologie S. 1003 ff

يعرض جيته ليلة فالبورج بأن يقدم لنا فاوست ومعه مفستوفيلس وهما في نواحي قرية شيركه وإلند Elend . فيسأل مفستوفيلس رفيقه هل يود الحصول على يد مكنسة ليستعين بها في السير في الجبل ؟ أما هو فيريد تيسا قويا يتخذه ركوبة . ويد المكنسة والتيس كلتاهما من ركائب الشياطين . لكن فاوست يقنع بعصاه الخضراء ، لأنه يشعر بنشاط كبير في هذا الربيع الناشئ ، ويلذ له أن يصير في حضن الطبيعة طليقا لأنه مولع بها ، على عكس مفستوفيلس الذي يبغض الطبيعة والخليقة كلها .

ويتخذان مصباحا لهما في هذه الليلة التي لا يضيء فيها الا قرص ناقص لقمر أحمر اللون ، حشرة مضيئة هي اليراعة .

ويتبادل الثلاثة الغناء : فالمقطع الأول يغنيه مفستوفيلس الذي يقول انه قد دخل الآن «نطاق الحلم والسحر» ويحب اليراعة على اقتيادهما بمهارة وسرعة . والمقطع الثاني تغنيه اليراعة وسط الأشجار الكثيفة وهي تمر بسرعة ، وأنوف الجبال وهي تنحني . ويغني فاوست المقطع الثالث فيتحدث عن الصخور والجداول وهي تسيل الى أسفل ، ويخيل اليه أنه يسمع شكاة الغرام ، وصوت الأيام السماوية ، فيتذكر الأيام الماضية التي أمضاها في حب مشبوب ، وقلبه عامر بأجمل العواطف والأماني ويعود مفستوفيلس فينشد المقطع الرابع ، وهو أطولها ، فيعارض مقطع فاوست بمقطع مروع يذكر فيه البوم والسلمندرات والسيقان الطويلة والكروش الضخمة ، والأفاعي ـ وبالجملة : كل ما هو قبيح مؤذ في الطبيعة ، كما هو عادة مبدأ الشر في العالم .

ويعلن عن مجيء الساحرات عروس الريح التي تزمجر في الهواء ، وتطير الساحرات خلال الهواء وهن يركبن عصي مكانس أو جاروفات أو عربات موتى ، الخ : ثم يسمع أناشيد الساحرات على شكل بوقات : «الساحرات يقدمن الى البروكن ، التبن أصفر والبذور خضراء . هناك تتجمع الكومة الكبيرة ، وعلى رأسها السيد أوريان .» وبابو Baubu العجوز جاءت وحدها راكبة خنزيرة . وبابو في الأساطير اليونانية هي ظئر (مربية) ديميتر Demeter آلهة الأرض . وكانت قد فقدت بنتها ، فراحت ديميتر تعزيها بالكلمات الفاضحة ، ثم حملتها على الضحك بأن خلعت عنها ثيابها . وجيته هنا يجعل بابو رمزا لعدم الحياء ، ولهذا يجعلها تركب خنزيرة . ولما كانت هي التي تقود الساحرات ، ففي هذا اشارة الى الشهوانية والفجور والمجون الذي سينطلق فيه الساحرات في تلك الليلة .

وتتنافس الساحرات في القدوم الواحدة قبل الأخرى . ونرى ساحرتين تسأل إحداهما الأخرى عن أي طريق جاءت ، فتجيب الأخرى بأنها جاءت عن طريق صخرة الزن Ilsenstein

حيث شاهدت البومة في عشها . والزنشتين هي أعلى جدار صخري في البروكن ، تبدو على شكل هرم مقطوع القمة : وفيها يؤثر أن تعشش النسور والبوم والرخم .

وتصف جوقة الساحرات بعد ذلك الطريق : «الطريق واسع ، الطريق طويل ، ما هذا الاندفاع الأحمق ؟ الشوكة تخز ، والمكنسة تخدش ، والطفل يختنق ، والأم تموت .»

وفي أثناء انشاد الجوقات كان فاوست قد رده الزحام الى المؤخرة ، وبعد عن مفستوفيلس ، ويحاول مفستوفيلس أن يفسح له الطريق ، لأن فاوست يؤثر أن يكون هناك في الأعلى . ـ ثم يسأله مفستوفيلس هل سيقدم الى الساحرات بوصفه ساحرا أو بوصفه الشيطان ؟ فيجيب مفستوفيلس بأنه وان كان يؤثر أن يكون في العادة مجهول الهوية ، فإن اليوم لا يستطيع إلا أن يكشف عن هويته .

ويمران بجماعة من الناس المتحلقين حول نار أخذت في الانطفاء ، وهم : قائد ، ووزير ، ومحدث نعمة ، ومؤلف ، فيسألهم مفستوفيلس عن شؤونهم : فيشكو القائد من انعدام الثقة في الأمم ، ويشكو الوزير من انهيار الأحوال العامة ، ويطلب محدث النعمة أن تدوم الحال الراهنة ، وأخيرا يشكو المؤلف من أنه لا أحد يريد أن يقرأ كتابا جادا ، والشباب صاروا في غاية الوقاحة .

ويبدو مفستوفيلس وقد صار فجأة شيخا عجوزا جدا ، فيقول أنه يحس بأن الناس صاروا ناضجين للحساب الأخير .

الى من يشير جيته بهذه الشخصيات الأربع : القائد العجوز ، والوزير ، ومحدث النعمة والمؤلف ؟ زعم البعض أنه بالقائد العجوز يقصد ديموريز Dumories (١٧٣٩-١٨٢٣) القائد الفرنسي الذي دافع عن فرنسا وانتصر في معركة فالمي ، ولكنه ما لبث أن اختلف مع رجال الثورة وانضم الى أعداء فرنسا .

لكن دونتسر (جـ ١ ص ٣٣٤) يرفض هذا الفرض . أما الوزير فيمثل فترة ما قبل الثورة الفرنسية حين كانت للوزير سلطة واسعة جدا يأمر وينهي كما يحلو له هو والملك .

ومحدث النعمة انسان استغل الموقف الجديد الناشئ عن قيام الثورة ، لكنه ما لبث أن داسه الارهاب ، فصار يتمنى عودة النظام الملكي . ـ وأما المؤلف فيمثل الشكاة المعتادة عند كبار المؤلفين في أخريات حياتهم : انصراف الناس عن القراءة ، تبجح الشباب ووقاحته وادعاءاته الفجة السخيفة .

ويصل فاوست ومفستوفيلس الى الدائرة الثانية التي يقودها ليلت ، وهي دائرة حافلة بالشهوانية الحسية المنحطة . وقد ورد الاسم «ليلت» في سفر اشعيا (٣٤ : ١٤) ، وترجم

في الترجمة اللاتينية هكذا : Lamia . وقد ورد في تفسيرات الربانيين اليهود أنه كان قبل حواء ، زوجة تدعى ليلت مخلوقة من الطين ، وقد تشاجرت مع زوجها آدم لأنها لم تشأ أن ترقد تحته ، وهربت من آدم ، وصارت شيطانة ، ووضعت في العالم عددا كبيرا من الشياطين ، يموت منهم مائة كل يوم . وفي شعرها الجميل عدد لا يحصى من الشياطين . ولها سلطان على الصبيان من ميلادهم حتى اليوم الثامن من عمرهم ، وعلى البنات حتى اليوم العشرين من عمرهن ، فتستطيع أن تجلب عليهم الموت في تلك المدة . ولهذا يعلق الناس في الأطفال تعاويذ فيها أسماء الملائكة الثلاثة : سينوى ، سنسينوى ، وسمنجلون بعد ميلادهم مباشرة لحمايتهم من شر ليلت . وهي تغوي أيضا الكثير من الشبان وتنجب منهم شياطين صغيرة . وفي مسرحية ليفن بعنوان : «ليلة فالبورج» تظهر ليلت بوصفها شيطان غرام ذكر[1] .

ومفستوفيلس يحذر فاوست من شعر ليلت الفاتن الجميل الذي تغوي به الشباب فلا يستطيعون التخلص منها بسهولة .

ونشاهد الشهوانية الحسية العرمة في رقصات مفستوفيلس مع الساحرات المسنات وما ينشده من أغان . ويصاب فاوست بعدوى هذه الحسية لكن مع بعض التعقل . وفي رقصة مع ساحرة شابة وما ينشده لها .

وفي وسط هذا الجو المشحون بالأرواح والشياطين والساحرات يدخل جيته شخصية هزلية ، هي Procktophantasmist : وهو اسم اخترعه جيته ، وهو يشير به الى ناشر يدعى فريدرش نيكولاي Friedrich Nicolai ، كان من كبار المتحمسين لنزعة التنوير ولهذا أنكر بشدة وجود الأرواح . وقد سخر منه جيته وشلر سخرية مرة في قصائدهما المشتركة بعنوان Xenien ، كما سخر منه كنت وفشته ولافاتر واشليجل وتيك .

كان نيكولاي كاتبا وناشرا على صلة وثيقة برجال نزعة التنوير ، وخصوصا لسنج ومندلزون ، وهو الذي نشر عدة رسائل في الأدب ـ ما بين عام ١٧٥٩ ـ و١٧٦٥ كانت ذا تأثير كبير ، ومن بينها رسالة لسنج بتاريخ ١٧ فبراير سنة ١٧٥٩ ـ تلك الرسالة الكبيرة الأهمية بالنسبة الى تاريخ التأليف حول فاوست ، وقد لخصناها من قبل بالتفصيل (في الفصل الخاص بـ «فاوست» لسنج) .

ثم قام بنشر سلسلة ممتازة من الكتب الأدبية والفلسفية ، بعنوان «المكتبة الألمانية

---

(١) راجع عن ليلت (واسمها من : الليل)

Van Dale: De Origine Ac Progressu Idolatriae et Superstitionum, P. 111 sqq.

العامة » (ما بين سنة ١٧٦٥ و١٧٩١) : وعارض ساخرا « آلام الفتى فرتر » لجيته برواية مضادة عنوانها « آلام ومسرات الفتى فرتر » سنة ١٧٧٥ . فأثار بهذا غضب جيته عليه . كذلك هاجم كبار المفكرين في عصره فوقع بينهم وبينه بغضاء شديدة .

لكن هذا التنويري العقلي النزعة المنكر للأرواح شاء القدر أن ينتقم منه على شكل غريب . ذلك أنه في سنة ١٧٩١ أصابته حالة نفسية شاذة هي أنه وهو في اليقظة ، صار يشعر أنه محاط بعدد من الأشخاص الأحياء والأموات الذين صاروا يحيطون به طوال النهار ويتراءون له على هيئة أشباح . ولعلاج هذه الحالة رأى أن يستعين بالعلق الطبي . فكان يضع على شرجه علقا ، وأفاد هذا العلاج فلم تعد الأشباح تتراءى له . وفي سنة ١٧٩٩ ألقى في أكاديمية العلوم في برلين محاضرة عن هذا الموضوع ، أفاض في ذكر تفصيلات ما جرى له ، مما أثار ضحك السامعين .

وها هو جيته هنا في مشهد « ليلة فالبورج » يسخر منه سخرية لاذعة : فمفستوفيلس يقول عنه انه سيجلس في بركة ، وحين يستمتع العلق باسته ، سيشفى من الأرواح والعقل . وتسأل الجميلة التي تراقص فاوست هذا الأخير : ما شأن هذا ـ أي بروكتو فنتاسمست ـ بالرقص ، فيجيب فاوست : هذا الشخص يدس أنفه في كل شيء : فاذا رقص الآخرون ، فعليه أن يقوّم رقصهم . واذا لم يستطع أن يثرثر حول كل خطوة ، فكأن الخطوة لم تكن .

لقد أراد جيته في سخريته من نقولاي هنا أن يسخر من التنوير الزائف ، أي النزعة العقلية المغالية التي ترفض كل ما يتجاوز نطاق العقل .

١٩
زفاف اوبرون وتيتانيا : « فاصل »

ويتلو مشهد « ليلة فالبورج » فاصل Intermezzo عنوانه : « حلم ليلة فالبورج أو الزفاف الذهبي لاوبرون وتيتانيا » . وهذا الفاصل كان جيته قد أراد نشره في « تقويم ربات الفن » Musenalmanach ، المجلة السنوية التي كان يصدرها شلر ، وذلك في تقويم سنة ١٧٩٨ ، على أن يكون هذا الفاصل بمثابة تكملة للاكسينيات . لكن شلر كان قد قرر وقف كل المجادلات ، ولهذا لم ينشر هذا الفاصل ، ووافقه جيته على هذا التصرف . ثم أولج جيته هذا الفاصل في « فاوست » الأول ، بعد مشهد « ليلة فالبورج » مباشرة وكأنه جزء منه .

وجيته في هذا الفاصل يستلهم شيكسبير في مسرحية « حلم ليلة منتصف الصيف » ،

وفيها يحتفل آوبرون وتيتانيا بلقائهما من جديد بعد فراق طويل وفيها مشاهد خيالية رائعة ، وتتوالى العفاريت والأرواح ، وعلى رأسهم أوبرون Oberon رئيس العفاريت ، وتيتانيا رئيسة الجنيات . ويبدو أن شيكسبير أخذ هذين الاسمين من قصة فرنسية بعنوان Hunon de Bordeaux ، ترجمها الى الانكليزية لورد برنرز Berners في سنة ١٥٣٤ . وقد استلهم شيكسبير في مسرحيته هذه العديد من المؤلفين :

أوفيد في كتابه «التحولات» ، وفيه يرد الاسم : تيتانيا على أنه اسم كركيه Circe ، ثم Apuleius في كتابه الشهير «الحمار الذهبي» ، وفيه يروي مغامرات لوقيوس Lucius ، الشاب اليوناني ، الذي حولته الساحرة الى حمار .

وتقوم مسرحية شيكسبير على الموضوع التالي : في أثينا يجري الاستعداد لزفاف تيسيوس الى هبولينا أميرة الأمازونات ، وقد حدد للزفاف ليلة هلال الشهر القادم . ويأتي الى قصر الدوق تيسيوس : ايجيوس Egeus ويتهم لوساندر بأنه سحر ابنته هرميا Hermia وجعلها تعشقه ، مع أنها مخطوبة لديمتريوس .

وتعترف هرميا بحبها للوساندر ، فيخبرها تيسيوس بأن القانون في أثينا يقضي بأن عليها أن تموت أو أن تدخل ديرا إن رفضت الزواج من الرجل الذي اختاره لها أبوها . ويحدد لها مهلة هي هلال الشهر القادم لتتخذ قرارها . لكن العاشقين : هرميا ولساندر ، يتفقان على الهرب من أثينا واللقاء في الليلة التالية في غابة خارج أثينا . ويخبران هيلانة ، صديقة هرميا ، التي كانت تحب ديمتريوس ، بالخطة . فقررت هيلانة ، وكانت ترجو أن تسترد حب ديمتريوس لها ، أن تخبر هذا الأخير بخطة هرب هرميا ولوساندر .

وفي الغابة كان أوبرون ، ملك العفاريت ، وزوجته تيتانيا ، ويقع بينهما خلاف حول صبي أرادت هي أن يكون خادما لها ، وأراد هو أن يجعله خادما خاصا له . فرتب لوبرون خطة لارغام تيتانيا على الامتثال لارادته ، بجعلها تقع في غرام حيوان متوحش . وبينما بوك Puck يقوم بتنفيذ هذه الخطة ، شاهد أوبرون منظرا بين هيلانة وديمتريوس ، الذي كان قد طارد لوساندر وهرميا .

ويدخل الدوق تيسيوس وهبولينا وايجيوس الغابة فيفاجئوا العشاق في نومهم . فيشرح لوساندر الموقف بأنه هو وهرميا قد هربا لتفادي قانون أثينا ، بينما ديمتريوس يعلن عن حبه لهيلانة ويتنازل عن مطالبته بهرميا . فيعلن الدوق تيسيوس أن كلا زوجي العاشقين سيزف في الوقت نفسه الذي يزف هو فيه الى هبولينا .

وهكذا تتم ثلاث زفات في وقت واحد .

وشيكسبير يصف العفاريت بأنها حاملة الأحلام ، وأن موطنها الأصلي هو في الهند ذات التوابل . وهي كائنات هوائية سريعة تدور حول الأرض ، وهي تؤثر العتمة والظلام ، وتولع بالرقص في ضوء القمر . وهي عند شكسبير أرواح طبيعية عارية عن الملكات الإنسانية العالية ، وسارة لا في مملكة العقل والأخلاق ، بل في دنيا الخيال والتصورات الوهمية . وشيكسبير يصف العفاريت في نهاية مسرحية «الزوجات المرحات في وندسور» بأنهن «سود وبيض ، وخضر ورماديات ، ظلال الليل ، وحالمات في ندى ضوء القمر ، وربيبو قدر حديدي» .

ومن الشعراء الألمان الذين تناولوا شخص أوبرون قبل جيته الشاعر الكبير فيلند Wie-land في رائعته : «أوبرون» Oberon (سنة ١٧٨٠) ، وفيها تأثر بالقصة Hunon de Bor-deaux السابقة الذكر ، وبمسرحية شيكسبير : «حلم ليلة منتصف الصيف» .

كما تأثر بقصة «التاجر» لاتشوسر Chaucer . وموضوع «أوبرون» لفيلند هو عودة الوفاق بين أوبرون وتيتانيا .

ومنذ «أوبرون» فيلند هذه توالت في ألمانيا المسرحيات التي تتناول أوبرون : نذكر منها مسرحية قصيرة بعنوان «أوبرون وتيتانيا ، أو الاحتفال بعودة الوفاق» ـ وقد مثلت في فيمار في سنة ١٩٨٣ . وألف زايلر Seyler أوبريت بعنوان : «أوبرون ، ملك العفاريت» ، وظهرت في هامبورج سنة ١٧٩٢ . ـ وفي السنة نفسها التي كتب فيها جيته هذا الفاصل الذي نتحدث عنه ، عرض على مسرح فيمار أوبرا من تأليف فرانتسكي بعنوان : «أوبرون» .

أما الفاصل Intermezzo الذي نظمه جيته فقد سماه «حلم ليلة فاربورج» محاكاة لعنوان مسرحية شيكسبير «حلم ليلة منتصف الصيف» ، كما سماه «الزفاف الذهبي لأوبرون وتيتانيا» على أساس أن عودة الوفاق بين الزوجين : أوبرون وتيتانيا ، قد تمت بعد خمسين سنة من زفافهما الأول ، فهو بمثابة احتفال باليوبيل الذهبي (= ٥٠ سنة) لزفافهما لأول مرة .

ويبدأ «الفاصل» بكلمة من أحد أبناء ميدنج Mieding العمال الفنيين في المسرح ، أعني الذين يركبون الديكور . وكان يوهان مارتن ميدنج نجاراً لقصر الدوق في فيمار ومشرفاً على العمال الفنيين في مسرح فيمار . وكان ماهراً ، حتى نعته جيته بأنه «مدير الطبيعة» ، ونظم جيته قصيدة في رثائه بعنوان : «حول موت ميدنج» (أتم نظمها في ١٦/٣/١٧٨٢) .

ثم يستدعي أوبرون الأرواح لتظهر في هذه الساعة التي فيها التأم شمل الملك والملكة من جديد . فيظهر أولاً بوك Puck على هيئة راقص ، ويتلوه أريل Ariel فيغني بنبرات ساحرة سماوية الإيقاع ، وهو المنشد الذي كان يفتن الجميع بغنائه . وأريل هو الروح العنصرية في مسرحية «العاصفة» لشيكسبير وكان من أتباع الساحر بروسبيرو Prospero الذي خلصه من شق في شجرة الصنوبر التي حبسته فيها الساحرة سيكورر Sykorar ، فصار يرى خادماً مطيعاً لمحرره بروسبيرو . وبأمر من بروسبيرو دبر العاصفة التي تسببت في غرق السفينة . وبعد ذلك غرر بفرديناند للقاء مع ميرندا Miranda ، وهو يغني : «تعال الى هذه الرمال الصفراء» ، وبعد ذلك يوقظ Gonzalo في الوقت المناسب ليفسد المؤامرة لاغتيال الملك . ولما تكهن بتحرره من سلطان بروسبيروا ، راح يغني : «أينما النحلة تمتص الرحيق ، هناك أيضاً أنا أمتص الرحيق» .

وبالجملة فإن أريل روح هوائية شريرة . وأريل معناه في العبرية : «أسد الرب» وقد ورد هذا الاسم في العهد القديم من الكتاب المقدس : (صمويل الثاني ٢٣ :٢٠ ، أشعيا ٢٩ :١ ، ٢ ، حزقيال ٤٣ :١٥) .

ثم يستخلص أوبرون وتيتانيا المغزى مما حدث لهما وهو أن أنجح وسيلة لجعل الزوجين يعيشان في وفاق هي أن يفرق بينهما مدة من الزمن : فتكون هي في أقصى الجنوب ، ويكون هو في أقصى الشمال!

وتكون موسيقى وأغان مصاحبة ، تجمع بين الهزل والجد .

وبعد ذلك تتوالى سلسلة من الاكسينيات (= المقطوعات الهجائية) ، تبدأ بالرحالة المحب للاستطلاع ، المنكر لوجد الأرواح ، والذي لا يتصور أنه يشاهد فعلا أوبرون «الاله الجميل» . والمقصود بهذا الرحالة «المحب للاستطلاع» هو قطعا نيكولاي ، المذكور آنفا باسم «بروتو فانتسمست» . ذلك لأن نيكولاي قام برحلة في ألمانيا وسويسره استمرت طوال عام ، ووصف هذه الرحلة في مؤلف يقع في اثني عشر مجلدا (١٧٨٣-١٧٩٦) .

ويضيق بهذا الوصف متدين صلب العقيدة فيقول إن أوبرون شيطان شأنه شأن آلهة اليونان . ذلك أن آباء الكنيسة كانوا يقولون عن آلة الوثنيين انهم جن أو شياطين . وفي مقابله نجد فنان الشمال الذي يود أن يرحل الى ايطاليا ليستلهم آلهة الوثنية اليونانية والرومانية الفنان هو الرسام الدانيمركي أسموس يعقوب كارستنز Asmus Jackob Car-stens ، الذي توفي في روما سنة ١٧٩٨ . لكن دونتسر (جـ ١ ص ٣٥٧) يرفض هذا الرأي تماما :

ويتلوه مناصر للتطهير اللغوي ، أي تطهير اللغة القومية من الألفاظ الأجنبية ، والمقصود به هو يواقيم هينرشي كامبه Jackhim Heinrich Campa ، الذي يظهر في «الاكسينيات» على شكل «غسالة مخيفة» ، تريد أن تنظف اللغة الألمانية بالصابون والرمل .

وتفخر ساحرة شابة بأنها تجلس وهي عارية على تيسها ، بينما المسحوق والفستان هما للنسوة العجائز الكابيات .

وثَمّ مروحة تدور في ناحية فتقول ان الجمع هو كما يشتهي : عرائس وعزاب والكل مملوء بالآمال . وتدور في الناحية الأخرى وتقول ان الأرض لا تنشق الا لابتلاعهم جميعا ، أما هي فتريد بسرعة أن تقفز فورا في الجحيم .

ويتلو ذلك الاكسينيات ، وهي تدور حول صراع المدارس الفلسفية . ويسمع ضجيج هذا الصراع من بعيد كأنه قعقعة السلاح في الحرب ، لكنه من قريب يبدو مجرد شجار رتيب . وهذه المدارس الفلسفية هي : الدوجماتيقية ، التي لا تحفل بالصراخ ولا بالنقد ولا بالشك ، والمثالية ، التي استولى عليها الخيال ، والواقعية ، التي يعذبها الجوهر ، والقائلة بالخوارق ، وهي لهذا مسرورة بوجودها هنا بين الأرواح والأشباح والجن والعفاريت والساحرات ، والشكاك الذين يهزأون بالتوكيديين الذين يتعلقون بالشعلات الضئيلة ويعتقدون أنهم قريبون من الكنز . وها هو ذا الشخص المرح يسخر من ضيق آفاق هذه المدارس الفلسفية ويهزأ بمنازعاتها التافهة ومع ذلك تثير بينهم البغضاء القاتلة ويقول ان موسيقى القِرَب قد جمعتهم هنا ، مثلما تجمع قيثارة أورفيوس الوحوش .

ولما كان جيته يسخر هنا من المدارس في ألمانيا ، فإنه يسخر من فولف ممثل الدوجماتيقية التي جاء كنت لينقذها ، ويسخر من فشته ممثلا للمثالية .

ويتلو الفلاسفة رجال السياسة . فيبدو أولا «البارعون» وهم الذين يتكيفون مع كل موقف ، ويتخذون الشعارات التي تتملق أهواء الجماهير ، أو رجال الحاشية في قصور الملوك والحكام ، وهم منافقون مخادعون . وفي مقابل هؤلاء يأتي «غير البارعين» وهم الذين لا يستطيعون التكيف مع الحاكم التالي له أو المتنافس معه ، ولهذا فإنهم غير سعداء .

وثم تقابل ثان هو بين اليراعات Irrlichter وبين الشهب Sternschnuppe .

الفريق الأول هو فريق محدثي النعمة الذين لم يكونوا بالأمس شيئا وصاروا اليوم أصحاب النفوذ والسلطان ، ومنهم من نقلتهم الثورة من أدنى الطبقات الى أعلاها .

والفريق الثاني هو فريق الذين كانوا في الدرجات العليا ثم سقطوا في الهاوية ، ومنهم

ضحايا الثورة من النبلاء والحكام والقادة ، ومنهم المهاجرون من فرنسا عقب الثورة نفرنسية وقد شاهدهم جيته في اقليم شمبانيا وفي ألمانيا .

وأخيرا يأتي «المتكتلون» Massife وهم الثوار وقادتهم الاجلاف الجلادون متوحشون ، المؤثرون الذين لا يحفلون بأن يدوسوا ما يدوسون ، ويقتلوا من يقتلون ، ويدمروا ما يريدون . لقد انفلت منهم الزمام وصاروا قوى شريرة مخربة غليظة الوطأة على كل ذي قيمة .

وهكذا نرى جيته في هذا «الفاصل» يستعرض مختلف الآراء والشخصيات والمشاكل تي تعج بها حياة الناس . وواضح أنه لا علاقة لهذا كله بفاوست ، ذلك ان هذا «الفاصل» قد أقحمه جيته اقحاما لا مبرر له في مأساة «فاوست» .

٢٠
يوم قاتم

ثم تستأنف مأساة «فاوست» مسارها الطبيعي الذي قطعته «ليلة فالبورج» و«الفاصل» فنرى فاوست ومفستوفيلس في الريف ، وفاوست يشكو مر الشكوى مما حدث لمرجريت :

لقد ألقي بها في قعر السجن ، نهباً للعذابات المروعة ، وهي المخلوقة اللطيفة ، بينما كان مفستوفيلس يقتاد فاوست بين الملاهي التافهة . وحين ينتهر فاوست رفيقه الشيطان مفستوفيلس بسبب هذا كله ، يقول مفستوفيلس : وماذا حملك على الدخول في علاقة معنا نحن الشياطين ؟ هل نحن الذين فرضنا أنفسنا عليك ، أم أنت الذي فرضت نفسك علينا ؟

ويطلب منه فاوست أن ينقذ مرجريت ، فيجيب مفستوفيلس قائلا انه لا يستطيع أن يفك القيود التي وضعها المنتقم . ويعود لتحميل فاوست المسؤولية : من الذي أوقعها في التهلكة ؟ أنا ، أم أنت ؟ ان جريمة القتل التي وقعت في المدينة إنما تمت بيد فاوست .

وينتهي مفستوفيلس بتقديم اقتراح لإنقاذ مرجريت ، وهي أن يتولى تخدير حارس السجن ، فيستولي فاوست منه على مفاتيح السجن ، ويفتح بابه ويقود بيده مرجريت الى خارج السجن ، وقد أعد أفراسا مسحورة لحملهم جميعا في الهواء الى مكان بعيد .

* * *

وهذا المشهد الوحيد المكتوب بالنثر في كل «فاوست» ، وإن كان قد حاول في سنة ١٧٩٨ أن يكتب بعض المشاهد بالنثر ، لكنه ما لبث أن تخلى عن ذلك . وقد كتب جيته

هذا المشهد في سنة ١٨٠٦ ، ونشره لأول مرة في «صحيفة الصباح» Morgenblatt بتاريخ ٥مايو سنة ١٨٠٨ .

وقد لاحظ دونتسر (جـ ١ ص ٣٧٦) أن ها هنا خلطا في التسلسل الزمني . ذلك ان مشهد ليلة فالبورج يقع بعد مصرع فالنتين بيومين ، وبين كلا المشهدين يقع المشهد في الكاتدرائية . لكن كان ينبغي ألا يكون هناك وقت طويل بين هذه المشاهد وبين مشهد «يوم قاتم» . لهذا لا يجوز أن يقال هنا في هذا «المشهد القاتم» أن مرجريت ظلت «زمانا طويلا شاردة على الأرض ، تثير الشفقة ، وهي الآن مسجونة» ، وقد حكم عليها بالاعدام لأنها قتلت ابنها ، ابن الزنا ، الذي أنجبته من فاوست .

لهذا يقول فشر (جـ٣ ص ٦٦٢) ان علينا أن ننسى التسلسل الزمني للاحداث أو أن نجعله دبر آذاننا ، من أجل أن نصدق مصير مرجريت .

٢١
ليل ـ ريف فسيح

فلينفذ مفستوفيلس وفاوست خطتهما . وها هما الآن في ريف فسيح قادمين على فرسين أسودين مسحورين . وهذا الريف الفسيح قائم حول ساحة الاعدام Rabenstein[١] وهي المرتفع المستدير المسور الذي عليه سيتم اعدام جرتشن بحد السيف .

ومن الخرافات الألمانية أن الساحرات تتجمعن في مكان الاعدام ويرقصن ، ويتحلقن خصوصا حول شجرة الشنق . لهذا فان فاوست حينما جاء الى هذا المكان بصحبة مفستوفيلس شاهد العديد من الساحرات . فسأل مفستوفيلس ماذا يعملن هنا هؤلاء الساحرات ؟ . فأجاب مفستوفيلس بأنه لا يعلم ماذا يطبخن هنا ويعملن .

كذلك يلاحظ فاوست أن هؤلاء الساحرات يحلقن في الأعالي ، ثم يحلقن في الأداني ، ويتمايلن وينحنين ، وينشرن ويكرسن : ينشرن مختلف المواد في القدر ، ويكرسنها للأغراض التي يقصدن اليها .

---

(١) معناه الحرفي : «صخرة الغربان» ، لأن الغربان تطوف بهذا المكان لانتهاب نصيبها من لحوم الذين يتم اعدامهم .

السجن

هذا المشهد الختامي في «فاوست» الأول هو من أروع المشاهد وأعمقها تأثيرا في نفس . ومن المؤكد أن جيته قد كتبه قبل ظهور «الشذرة» Fragment في سنة ١٧٩١ ، ـ ين أن فيلند Wieland تعجب ، في تصريح له أفضى به الى بوتيجر Bottiger في ١٢ وفمبر سنة ١٧٩٦ ، لماذا لم ينشر جيته في هذه «الشذرة» مشهد السجن .

نجد فاوست أمام باب السجن ومعه حزمة من المفاتيح ومصباح . وها هو ذا يشعر قشعريرة بالغة ، وكأن كل شقاء الانسانية قد استولى عليه . ان ضحيته ـ مرجريت ـ تجثم ور ء هذا الباب . وهو يتردد في فتحه ، لأن المسؤولية الهائلة التي يتحملها عما أصابها من مس تهز كيانه ، فصار يخشى أن يراها من جديد . لكنه يتشجع ويضع يده على مغلاق باب .

واذا بغناء يتردد في الداخل ويقول : «أمي ، القحبة ، قتلتني! وأبي ، الوغد ، التهمني! و ختي الصغيرة حفظت عظامي في مكان رحب ، وهناك تحولت الى طائر غابات جميل . طر! صر! »

وهذه الأغنية هي مقطع مأخوذ من حكاية واسعة الانتشار في ألمانيا ، عنوانها «حكاية عرعر» Marchen Von dem Machandelbaum ، وكان شجر العرعر يعد مقدسا . في هذه حكاية يحكى أن زوجة أب قد ذبحت ابن زوجها وقدمت لحمه لزوجها وهو لا يدري . فجمعت أخته الصغيرة العظام المتخلفة التي ألقاها الأب تحت المائدة ، جمعتها في ثوب من حرير ودفنتها تحت شجرة عرعر ، واهتزت هذه الشجرة وطارت منها روح الولد على هيئة طائر . وراح هذا الطائر يغني ، ولما مرت زوجة الأب تحت الشجرة ألقى على رأسها بحجر فماتت . ـ وثم اختلافات ضئيلة في رواية جيته لهذه الأغنية عن الرواية الواردة في كتاب جرم Grimm ، وهي اختلافات ربما ترجع الى رواية أخرى عرفها جيته للأغنية نفسها . وأهم ختلاف هو أن كلمتي «قحبة» و«وغد» لا تردان في الرواية الواردة عند جرم . ونحن نرجح أن يكون جيته قد أولجهما في الأغنية ليتلاءما مع مراده في هذا المشهد ، بينما لا محل لهما في الحكاية الشعبية التي رواها جرم .

ويدخل فاوست عليها ، فتختبئ في فراشها ، لأنها تصورت أن السجان قد جاء يأخذها لتنفيذ حكم الاعدام ، فيقول لها فاوست ـ وهي لا تعرف من هو ـ إنه جاء ليخلصها من

السجن . لكنها لا تعي من قوله شيئا وتتصور أنه السجان ، فتجثو على ركبيتها وتصيح : من أعطاك ، أيها الجلاد ، هذه السلطة علي! لقد جئت تأخذني في الليل . رحمة بي ودعني كي أعيش . » وترثي حال شبابها الذي يجب أن يقضى عليه . لقد كانت جميلة ، وهذا سبب هلاكها .

ثم ينتابها الهذيان فتضرع الى هذا القادم أن يدعها حتى ترضع طفلها أولا ، طفلها الذي احتضنته بقلبها طوال تلك الليلة . لقد أخذوه منها ، وهم يقولون الآن أنها قتلته ، والناس يسلقونها بالأغاني المهينة الساخرة .

ويرتمي فاوست عند ركبتيها ، ويقول أنه جاء ليفك قيودها . فتلقي مرجريت بنفسها بالقرب منه ، وتطلب اليه أن يركعا معا للتشفع بالقديسين .

ويصيح فاوست بصوت عال : مرجريت! مرجريت! فتتنبه مرجريت الى أن هذا هو صوت حبيبها ، وهي تريد أن تعانق رقبته ، وأن ترقد على صدره . لقد تعرفت هذا الصوت العذب ، وسط عذابات الجحيم التي تعانيها . وتدرك أنه جاء لانقاذها ، وتتذكر رؤيتها له في الشارع أول مرة ، وتتذكر الحديقة الباسمة التي انتظرته فيها ومعها جارتها مارتا .

ويحثها فاوست على الإسراع للنجاة ، لكنها في حالة من النشوة الجنونية التي لا تبصر فيها ما ينبغي أن تفعل . وتستحلفه أن يقبلها ويعانقها ، لكنه حريص على تنفيذ خطة النجاة ، ولا يريد أن يضيع الفرصة في هذه الغراميات . فتدهش هي من سلوكه هذا ، وتقول له :

أتعرف من هي التي تريد أنت أن تخلصها ؟ «لقد قتلت أمي ، وأغرقت ابني» . ثم هناك دم بعد ذلك ـ تقصد دم أخيها فالنتين .

ويناشدها فاوست أن تنسى الماضي ، لأنها بهذا التوبيخ تجعله يموت . فتقول : كلا ، يجب أن تعيش ، وأن تتولى دفن أمي في أفضل مكان ، يتلوها أخي ، وأنا من ناحية غير بعيدة ، وابني في حضني ، ولا يدفن بالقرب مني أحد . فيقول لها فاوست : ما دمت تدركين أنني فاوست حبيبك فتعالي معي الى الهواء الطلق . الباب مفتوح ، فلتذهب معه . فترد مرجريت بأنه لا يجوز الذهاب ، ولا أمل عندي ، وما الفائدة في الهرب ، فأنا مطاردة في كل مكان ، ومن الشقاء أن أهيم على وجهي في الخارج ، انهم سيقبضون علي مع ذلك! وتهذي مرة أخرى بشأن ابنها ، فتقول لفاوست أسرع الى هناك في قلب الغابة حيث توجد بركة . أمسك به فورا ، أنقذه ، إنه يريد أن يطفو .

ونفهم من هذا أنها ألقت بابنها في بركة تقع في وسط الغابة .

وتستأنف هذيانها بشأن أمها فتقول إنها هناك جالسة على حجر وتهز رأسها ، إن رأسها ثقيل لأنها نامت منذ مدة طويلة ، نامت كي نستمتع نحن الاثنين .

وينبهها فاوست الى أن الصبح قد تنفس . فتقول : بزغ الصبح! لعله آخر صبح وكان يجب أن يكون زفافي . لا تخبر أحدا أنك كنت عند مرجريت . ويل لتاجي!

الناس يحتشدون حتى لم يعد المكان يتسع لهم . والناقوس يدق ، وها هم يربطونني ، وها هم رفعوني الى المنصة الدامية ، وتهتز في كل قفاي البلطة التي ترتفع لتهوي على قفاي . والعالم راقد صامت صمت القبر .

ويظهر مفستوفيلس في الخارج ، وينبههم الى أن الصبح بدأ في البزوغ ، ولا فائدة في التردد ، والأفراس ترتعد .

وما تكاد مرجريت تراه حتى يزداد فزعها ، وتطلب من فاوست أن يطرده ، إنه يريد بها الشر .

ويصيح فاوست : لا بد أن تعيشي! ولكن مرجريت تستسلم لعدالة الله .

وينادي عليه مفستوفيلس : تعال! تعال!

وتتضرع مرجريت الى الله : أنا ملك يديك يا أبانا! أنقذني ، أغيثوني ، أيها الملائكة!

ويصيح مفستوفيلس : لقد أدينت .

فيتردد صوت من أعلى : انها نجيت .

ويدعو مفستوفيلس فاوست الى القدوم اليه ، ويختفيان كلاهما ، بينما يتردد في الداخل صوت يقول : «هيزش! هيزش» . إنه صوت مرجريت ، التي لايزال قلبها عامر بحب فاوست .

وعلى هذا النداء ينتهي «فاوست» الأول .

* * *

في هذا المشهد الحافل بالمواجيد والمعاني تبرز شخصية مرجريت سامية نبيلة ، تسمى من فاوست بمراحل عديدة . وهو مشهد يذكرنا تماما بمحاورة «أقريطون» لأفلاطون ، وما جرى بين سقراط ، وتلميذه أقريطون Criton من حوار حول هذا الموضوع : هل يجوز لإنسان أن يهرب من العدالة ؟ لقد حكم على سقراط بالموت ، وها هو ذا في السجن قبيل تنفيذ حكم الاعدام بواسطة شرب كأس من سم الشوكران . وعزّ على تلاميذه ألا يفعلوا شيئا لإنقاذ أستاذهم من هذا الحكم الظالم .

ويحاول أقريطون اقناع سقراط بالهرب ، لأن الناس لن يصدقوا أن محكوما عليه

بالاعدام سيرفض الافلات من الموت ، بل سيقول الناس بأن أصدقاءه وأنصاره لم يفعلوا شيئا لنجاته ، وسيوصفون بالجبن والنذالة . لكن سقراط يرد عليه بأن من يهرب من وجه العدالة سيرتكب إهانة لوطنه ، لأنه لن يكون مطيعا للقانون . ويتخيل سقراط أنه في اللحظة التي يغادر السجن ، سيجد القوانين كلها قد تجسدت لتقف في طريقه ، ويمثل الكلمات التي ستقولها هذه القوانين في وجه هذا الهارب من سلطانها : إنها ستذكره بكل ما صنعته له من نعم ومزايا ، وما يدين به سقراط لها : مولده ، تربيته ، حريته ، أمنه ، وتذكره بأنه كان في وسعه أن يترك أثينا الى بلد آخر اذا كانت قوانين أثينا لم تعجبه . أما وقد بقي في أثينا ، فعليه أن يلتزم بها والا يفلت من العقوبات المترتبة على انتهاكها ـ بل انه وافق على المثول أمام محكمة أثينا ، ومعنى هذا أنه أقر باختصاصها وبالالتزام بما تحكم به عليه . واذن لا يحق له الآن أن يعترض عليها . وحتى لو اعتقد ان حكمها ظالم ، فلا يحق له أن يتمرد عليها ، لأنه لو فعل ذلك لكان بمثابة ابن عاص جحود .

كذلك يقول سقراط وهو يرفض ما عرضه عليه أقريطون من الهرب والذهاب الى مدينة (دولة) أخرى أنه لو لجأ الى دولة أخرى ، لكان هناك موضوع اتهام وارتياب ولأحاطت به الشكوك والريب .

وفي رأيي أن جيته وهو يكتب هذا المشهد الأخير من «فاوست» الأول كان متأثرا جدا بمحاورة «أقريطون» لأفلاطون ، لأن الحجج التي تسوقها مرجريت لتبرير رفضها للهرب بمساعدة فاوست شبيهة تماما بالحجج التي ساقها سقراط وأثينا على ذكرها ، كما يظهر جليا من قولها : «لا يجوز لي أن أذهب من هنا (= أن أهرب) ولا أمل عندي . وما الفائدة من الهرب ؟ انهم يتصدون لي . ومن الشقاء أن أهيم على وجهي في الخارج» . ولم يسبقنا الى هذه المقارنة أحد من الباحثين ، فيما نعلم .

ومرجريت تدرك عمق خطيئتها ، وتريد أن تكفر عنها ، وتسلم نفسها لعدالة الله . إنها تعي تماما أنها تستحق الموت ، جزاء عن قتلها لابنها وتسببها في وفاة أمها ومصرع أخيها ، لهذا صممت على ألا تفلت من تنفيذ حكم الاعدام . وفي هذا شجاعة ونبالة منقطعتا النظير .

لكنها وهي المؤمنة المستقيمة الايمان تطمع في رحمة الله ، فتضرع اليه أن ينجيها ، وتتشفع الى ملائكة عند الله كي تنجو . في الدنيا ؟ كلا بل في الآخرة ، لأنه لا أمل لها في النجاة من الموت .

لهذا يحس المرء بتعاطف شديد مع مرجريت ويأسى لمصيرها ويشاركها في طلب المغفرة لها من الله .

أما فاوست فلا يثير في النفس مثل هذا التعاطف . صحيح أنه ممتلئ هموما وضميره يعذبه أشد العذاب لما اقترف من جرائم نكراء في حق هذه الفتاة النبيلة البريئة ، وها هو ذا يبذل قصارى جهده ، بمعونة الشيطان ، كي ينقذها من السجن . لكن ، أي انقاذ ؟ انه انقاذ قد خلا من كل نبالة ، واستوى معه فرار القاتل وقاطع الطريق من سجنه .

ان فاوست استمر حتى نهاية «فاوست» الأول عبداً للشيطان .

لكن ، هل معنى هذا أن مفستوفيلس قد كسب رهانه مع الله ؟

يعز على جيته أن يقر بهذا الأمر ، لهذا سنراه في «فاوست» الثاني يحاول أن يجد السبيل الى نجاة فاوست .

ان مفستوفيلس قد أرى فاوست «العالم الصغير» في «فاوست» الأول ، وها هو ذا الآن يريه «العالم الكبير» في «فاوست» الثاني .

* * *

«فاوست» الثاني

الفصل الأول

١
من العالم الصغير الى العالم الكبير

تركنا فاوست مثقلا بالهموم ، مهيض الجناح ، نهبا لتأنيب الضمير ، فريسة لعذاب الخطيئة . فكان لابد له ـ كيما ينتقل به مفستوفيلس الى العالم الكبير ـ أن يتطهر من الآثام التي ارتكبها في العالم الصغير . وأي مطهر أعظم من الطبيعة الفاتنة في قلب سويسرة على جبال الألب السامقة الشامخة في نواحي البحيرات الأربع .

وها هو ذا فاوست يرقد على العشب المحفوف بالأزهار ، وقد غلبه الاعياء والاضطراب ، وراح ينشد النوم . والوقت هو وقت الأصيل في نهاية النهار في فصل الربيع . وها هو ذا أريل ، الذي عرفناه من قبل في «الفاصل» التالي لـ «ليلة فالبورج» يغني غناء مصحوبا بهاربات يولية يثني فيه على الوسمي وهو يروي الأزهار ، فتنشر الخضرة في كل الحقول ، وتتدافع العفاريت الروحية لتهب النجدة أينما تستطيع ، لأن الانسان الشقي يثير فيها العطف ، مهما يكن هذا الانسان براً أو شريرا .

وأريل يناشد العفاريت أن تحوم حول رأس هذا الشقي الراقد ، فاوست ، لتهدئ من ثائرة وجداناته وعذاباته : فتهب جوقة العفاريت لتغني غناء يهدهد آلام هذا الراقد البائس ، فاوست .

وعلى هذه الهدهدة يستيقظ فاوست ، وهو يشعر بأن نبض الحياة قد عاد اليه ليؤذن له بحياة جديدة ، تتصاعد فيها مطامحه الى العلو .

وتبدأ الحياة الجديدة في قصر الامبراطور حيث ينعقد مجلس الدولة برئاسة الامبراطور

للنظر في مشاكل الامبراطورية ، المشاكل المالية والحربية والسياسية . ويجلس الامبراطور على كرسي العرش يحيط به كوكبة من رجال البلاط ، وعن يمينه يجلس المنجم .

ثم يدخل مفستوفيلس وقد تزين بثياب فاخرة لكنها عجيبة الشكل ، ويركع بالقرب من العرش ، وينهال بالكلام الملغز للتعريف بنفسه : من الملعون المرحب به دائما ؟ من المطلوب المطرود دائما ؟ من المتعوذ منه أبدا ؟ من المتهم باستمرار وبقسوة ؟

فيطلب منه الامبراطور أن يكف عن هذه الألغاز في الكلام ، وأن يحل هو ما ألغز به ويدعوه الى أن يتخذ مكانه على يساره ، بدلا من المجنون الذي كان قد سقط على السلم جثة ضخمة هامدة أو سكرى ، وحمل الى مكان بعيد .

ويتوالى كبار رجال الحكم للشكوى من الأحوال الراهنة : المستشار يشكو من ازدياد الجرائم التي يفلت مقترفوها دون عقاب ، ورئيس الجيش يشكو من المؤامرات التي يقوم بها الأعيان والفرسان ومن الجند المرتزقة الذين يطالبون بأجورهم مستعملين التمرد والعنف ، ووزير المال يشكو من أن المساعدات المالية الموعود بها تخلفت من مواعيد الوفاء بها ، ولا أحد يريد أن يساعد جاره ، وأبواب الذهب موصدة ، وكل انسان يحفر ويدفن ويكنز ، وخزائن الدولة فارغة ، وناظر الخاصة الامبراطورية يشك من أن الخمر يكاد يكون مفقودا .

فيقول الامبراطور مخاطبا مفستوفيلس : وأنت . . أيها المجنون ، ألا تعرف مصيبة أخرى ؟ لكن هذا يلجأ الى الملق وينكر أن يكون ثم أزمة ، ما دام صاحب الجلالة هو الآمر الناهي ، وما دامت هذه الكواكب (رجال الحكم) تلمع! ثم يستدرك قائلا : وأي مكان في العالم ليس فيه نقص ؟!

هذا ينقصه ذاك ، وذاك ينقصه هذا ، أما هنا فينقص المال . لكن الحكمة تستطيع أن تستخرج المال من دفائنه ، وفي عروق الجبال ، وأساس الجدران يوجد فيه ذهب مصكوك وغير مصكوك . وتسألونني : من الذي يستطيع أن يستخرجه ؟ فأقول لكم انها قوة الطبيعة وعقل الانسان الموهوب .

ويتلقف المستشار هذا القول الذي يشتم منه الكفر ، ويقول : هذا كلام لا ينطق به مسيحي . ومن أجله يُحرق الملحدون ، ان أمثال هذه الأقوال في غاية الخطورة : فالطبيعة هي الخطيئة ، والعقل هو الشيطان . إن ما يسند الامبراطورية صنفان من الناس : رجال الدين ، والفرسان . أما عن العقل فيصدر التمرد . والسحرة يفسدون المدينة والريف .

ويتدخل الامبراطور في هذا الجدل العقيم قائلا ان هذا لا يحل شيئا من بؤسنا .

ويخاطب مفستوفيلس : كفانا وعظا! المشكلة هي أنه ليس لدينا مال ، فهيا آتنا به . فيرد مفستوفيلس قائلا : سأزودك بما تريد ، بل وأكثر ، فهذا أمر سهل عندي . انه هناك ، لكن من ذا الذي يستطيع الحصول عليه ؟ تلك هي المهارة . ان الناس من خوفهم ، دفنوا أموالهم تحت الأرض ، وما في باطن الأرض ملك الامبراطور ، فهذا المال المدفون هو من حق الامبراطور .

ويفرح وزير المال بهذا الاقتراح ، لكن يعاجله المستشار بالرد قائلا : ان هذه طريقة غير شريفة . فيرد رئيس الجيش محبذا اقتراح مفستوفيلس ، لأن الجندي المرتزق يريد أن يدفع له مرتبه ، ولا يسأل عن أي طريق جاء .

فيهيب مفستوفيلس بزميله المنجم ، فيفيض هذا في شؤون النجوم : الشمس نفسها هي من الذهب الابريز ، وعطارد يفيد في دفع الرواتب ، والسيدة الزهرة (فينوس) قد سحرتكم جميعا ، والقمر العفيف ذو نزوات . نعم لو امتزجت الشمس بالقمر ، أي الذهب بالفضة ، كان هناك عالم سعيد ، والباقي يمكن الحصول عليه : القصور ، البساتين ، الأنهار الصغيرة ، الجذور الوردية - كلها يمكن أن يحصل عليها الرجل العالم المتحرر القدر على أن يفعل ما لا نستطيعه نحن .

ويسخر مفستوفيلس من هؤلاء المرتابين في امكان الحصول على المال بحسب اقتراحه . ويتدخل الامبراطور من جديد ليطالب بالتنفيذ ، بدلا من الثرثرة . وهو مستعد لأن يقوم بنفسه بالحفر لاستخراج هذه الكنوز المدفونة التي زعم مفستوفيلس انها موجودة تحت الأرض .

ويهدد مفستوفيلس بأنه سيبعث به الى الجحيم ان ثبت كذبه . فيرد مفستوفيلس بأنه يعرف جيدا الطريق الى الجحيم! ويستأنف تصوير خطته بألوان خداعة باهرة : الفلاح الذي يحفر بمحراثه يرفع مع التراب قدرا مملوءا بالذهب ، وفي الجدار يعثر على لفافة من الذهب .

ان الأشياء العظيمة والأسرار تختبئ في الظلام . ثم يدعو الامبراطور الى أن يأخذ المسحاة ويحفر بنفسه ، ان عمل الفلاح يجعلك عظيما ، وينطلق من باطن الأرض لك قطيع من العجول الذهبية .

فيسأله الامبراطور : وكم من الزمان تستغرق هذه العملية ؟

فيرد المنجم قائلا للامبراطور : مولاي ، هدئ من رغبتك الملحة هذه! ودع أولا الاستمتاع يأخذ مجراه ، اذ لا بد لنا من مزاج طيب أولا .

فيوافق الامبراطور على التأجيل الى ما بعد الاحتفال بالكرنفال .

* * *

ان مفستوفيلس قد وجد حل مشكلات العالم في الاعتقاد بالوحدة ، أو الهوية ، بين الطبيعة والعقل . وهذا هو أساس فلسفة الهوية التي بدأ بها شلنج Schelling (راجع كتابنا عنه) ، واستعان بها هيجل في وضع مذهبه . وكانت الفلسفتان : فلسفة شلنج وفلسفة هيجل قد انتشرتا ولقيتا استقبالا حارا في ألمانيا في الفترة نفسها التي كان فيها جيته يؤلف «فاوست» الثاني أعني الفترة الممتدة من سنة ١٨٢٤ حتى سنة ١٨٣١ . وكان جيته من المعجبين والمتأثرين بهما .

وحين يهاجم مفستوفيلس آراء المستشار ، ينعته بأنه مادي واقعي ، لا يدرك الا ما يلمسه بيديه ، فيقول : «ما لا تلمسه بيديك ، يبقى بعيدا عنك بمئات الأميال ، وما لا تمسكه ، فهو غير موجود أبدا ، وما لا تعده تعتقد أنه ليس بصحيح ، وما لا تزنه ، فهو عندك لا وزن له ، وما لا تصكه نقدا ، فهو لا يساوي في نظرك شيئا » .

وظهور فاوست في حضرة الامبراطور أمر مذكور أيضا في «الكتاب الشعبي» ، اذ يرد فيه أن فاوست قد مثل أمام الامبراطور شارلكان (كارل الخامس) في أنسبوك ، وأنه بأعمال سحرية استحضر أمامه الاسكندر الأكبر وزوجته . وفي «فاوست» فدمن نشاهد أن المؤلف وضع مكان شارلكان : الامبراطور مكسمليان الأول ، وشارلكان كان امبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة من سنة ١٥١٩ الى ١٥٥٦ ، بينما كان مكسمليان الأول امبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة قبله مباشرة من سنة ١٤٩٣ حتى سنة ١٥١٩ . وتابع فدمن في هذا القول كل من بفستر Pfitzer وكتاب «المؤمن المسيحي» . ومارلو يأخذ بقول «الكتاب الشعبي» ، أي أن الامبراطور هو كارل الخامس (شارلكان) وليس مكسيمليان الأول . أما فاوست مسرح العرائس فيظهر في بلاط ايطالي ، وأمام الأمير يستحضر شخصيات أخرى مختلفة تماما .

أما جيته فيجعل فاوست ومفستوفيلس يمثلان أمام امبراطور شاب ، ضعيف الارادة ، ناهب للذات ، ليست لديه رغبة ولا قدرة على إدارة الامبراطورية وقد شاع فيها الفساد ، وساءت أحوالها المالية ، وكثر فيها تمرد الجماهير والولاة والنبلاء ، وعم النقص في كل شيء : في المال ، والانتاج الزراعي والحيواني . وقد أتى مفستوفيلس بفاوست الى هذا الامبراطور الضعيف كي يولد في نفسه الطمع في السلطان والتشريفات السلطانية ، ويبهر نظره بهذه الأبهة الزائفة ، حتى ينصرف عن تطلعاته الروحية السامية .

لكن ما يحدث في نفس فاوست هو على العكس تماما : أن سوء تدبير الامبراطورية وفساد أحوالها قد جعلاه يكره السلطان ، ويزري بأبهة الملك الزائفة ، ويؤثر عليها المثل الأعلى للجمال . وسنجده في احتفال المساخر Mummenschanz يبدي في آراءه في هذا الاتجاه .

وفي «الكتاب الشعبي» نجد فاوست يستحضر أمام تلاميذه هيلانة الجميلة ، أجمل نساء اليونان ، والمثل الأعلى للجمال ، وذلك في يوم الأحد الأبيض(١) . - وفي «فاوست» فدمن لا يشير الا اشارة عابرة جدا الى هذه المسألة . وفي كتاب «المؤمن المسيحي» لا ذكر لشيء من ذلك . وعند مارلو يطلب التلاميذ في آخر مأدبة يقيمها لهم أن يستحضر أمامهم هيلانه ، فيقوم مفستوفيلس بعرضها لهم .

أما جيته فيجعل ظهور هيلانه عرضا رمزيا لسعي فاوست نحو المثل الأعلى للجمال .

ويذكر فلك Falck أن ثم مشهدا ينتسب الى «فاوست» الثاني فيه يرد أن فاوست طلب من مفستوفيلس أن يمكنه من مقابلة الامبراطور . وكان الوقت وقت تتويج للامبراطور الجديد في فرانكفورت ، واليها جاء فاوست ومفستوفيلس . وكان عليهما أن يلتمسا المقابلة . بيد أن فاوست تراجع عن ذلك ، لأنه لم يعرف ماذا يقول الامبراطور . فشجعه مفستوفيلس قائلا انه سيظهر في الوقت المناسب لمساعدة فاوست في الكلام مع الامبراطور . وذهب كلاهما الى غرفة الاستقبال ، وأذن لهما بالمثول أمام الامبراطور .

ولكي يكون جديرا بهذه المقابلة ، استجمع فاوست كل ما في ذهنه من معلومات وتجارب ، كي يتكلم كلاما ساميا لائقا بالامبراطور . وتحمس فاوست في الكلام مع الامبراطور ، أما هذا فلم يلق له أذنا صاغية ، بل تثاءب وأوشك أن يأمر بانتهاء المقابلة . واذ بمفستوفيلس يأتي لنجدة فاوست في الوقت المناسب ، فاتخذ شكل فاوست وعليه المعطف ، والبنيقة ، والى جانبه السيف . واستأنف الحديث من حيث انتهى فاوست ، لكنه أعطاه مجرى آخر مختلفا تماما : اذ راح يهذر ذات اليمين وذات الشمال ، ويطوح بالموضوعات في كل اتجاه ، ويدخل في شؤون هذا العالم ويخرج منها الى شؤون العالم الآخر ، مما أوقع الدهشة والاعجاب معا في نفس الامبراطور ، وأكد الامبراطور لكبار رجال حاشيته المتحلقين حوله أن هذا رجل عجيب واسع العلم والحكمة ، ويلذ له أن يستمع الى حديثه أناء الليل وأطراف النهار ، فإنه لن يملّ أبدا . وكان على الامبراطور أن يقر بأنه لم

---

(١) وهو أول أحد بعد عيد الفصح . ويسمى بالفرنسية Quasimodo ووصف بالأبيض لأن الأولاد ، بملابسهم البيضاء ، يعززون في الايمان في ذلك اليوم .

يعثر على مثل هذا الكنز من المعلومات والأفكار والمعرفة بشؤون الناس والدنيا وتجاربها .

ويذكر فلك Falck أيضا أن جيته قد أراد بهذا المشهد أن يبين أن الثرثرة الجوفاء وسرد الأباطيل والدعاوى الرنانة هي التي تؤثر في الحكام وتستجلب رضاهم ، وليس العلم الصحيح والرأي الصائب والحكمة .

وهذه ملاحظة صادقة تماما ، والدلائل على صحتها تتجلى كل يوم : فالحكام ـ من ملوك وأمراء ورؤساء جمهوريات ، الخ ـ لا يؤثر فيهم الا الكلام الأجوف الزائف ، ولا يؤثرون بعطفهم الا الثرثارين المهذارين الذين يموهون عليهم بالمشروعات البراقة والخطط الزائفة التي تخلب أبصار العامة وكلها أكاذيب ودعاوى لن يجدها الناس في ختام المدة المحددة لها («الخمسية» ، «العشرية» ، الخ) الا أكاذيب وأوهاما أضاعت عليهم أموالهم ومعاشهم وآمالهم .

بيد أننا لا نعلم هل كتب جيته فعلا هذا المشهد : «فاوست أمام الامبراطور مكسمليان ورجال الدولة» ، ـ أو كان مجرد مشروع تحدث به لفلك Falck ، ولا بد أن ذلك كان في الفترة من سنة ١٨٠٦ الى ١٨١٣[١] .

٢
مواكب المساخر

ثم يكون عيد الكرنفال ، وتتوالى مواكب المساخر ، أي الأشخاص الذين يتخذون أقنعة وجوه مختلفة . ويعلن مناد عن كل موكب أو شخص مقنع ، ويصفه ببعض الصفات المميزة ، فتتوالى صور الحياة والأشخاص البارزين في التاريخ وبين الأحياء :

ويبدأ السير بموكب البستانيين والبستانيات ، وينتهي بظهور «بان» العظيم (= الامبراطور) وحاشيته .

أ ـ فالبستانيات ، اللواتي جئن من ايطاليا في أثر الامبراطور ، قد أحضرن أما غصون زيتون وتيجانا مصنوعة من سنابل القمح ، واما أزهارا صناعية وأكاليل وطاقات متخيلة ، واما براعم ورد . والى البستانيات ينضم البستانيون وينادون على الثمار التي أتوا بها : الكريز ، والخوخ ، والبرقوق . وينتهون الى الجمع بين نتاج كلا الفريقين : «تحت الأكاليل البهيجة ،

(١) راجع في هذا دونتسر جـ٢ ص ١٤-١٥ . وراجع Schubarth: Zur Beurtheilung Goethe's, II, 37,39 .

وفي حضن الخمائل المزينة ، ويوجد كل شيء معا : البرعم ، والأوراق ، والزهرة ، والثمرة » . ويتبادل كلا الفريقين الغناء بمصاحبة القيثارات والثيوربات .

ب ـ ويتلوهما موكب الصيادين للأسماك والطيور ، ومعهم الشباك والفخاخ والمصايد . وتجس فتاة جميلة تود أن تصاد ، وها هي ذي في انتظار عاشقين أجلاء . وبجوارها أمها تشكو من بقاء بنتها بلا زواج ، وهي تأمل الآن في أن تجد عريس ابنتها بين هذا الحشد .

ج ـ ثم يأتي موكب العمال المزاولين للمهن الشاقة : قطاع الأخشاب في الغابات الذين يقطعون الأشجار فتهوى بصوت رهيب ، ويقع الاصطدام بين حاملي الأشجار ، وتكون جراح وكدمات . ولولا العمل الشاق الذي يقوم به هؤلاء الأجلاف ، لما استمتع أهل الرقة والترف!

د ـ فيسخر منهم البطالون Pulcinelle وهم الخبثاء المتطفلون المتملقون ، الذين لا يعملون شيئا ، ولكنهم بمكرهم وملقهم ونفاقهم وتقلبهم بين مختلف الموائد والمذاهب يعيشون بل ويحتلون مناصب رفيعة . وهم لا يعنيهم أن يثني الناس عليهم أو أن يسلقوهم بألسنة حداد ، فلا شرف عندهم ولا كرامة ، وكل ما يهم هو الوصول . انهم الوصوليون ، المنافقون ، الدجالون . الذين لا ضمير عندهم ولا ذمة لهم .

ومن أصنافهم «الطفيليون» ، وهم المتملقون الجشعون ، الذين لا تهمهم الا بطونهم ، يملأونها من أية مائدة يترصدونها ، ويبذلون مياه وجوههم في سبيل المشاركة في الأطعمة المقدمة عليها . انهم يستروحون رائحة الشواء من بعيد ، وتتلمظ شفاههم كلما تكهنوا واستشعروا أطايب الطعام .

ومن أصنافهم أيضا السكارى المدمنون للخمور ، أعمدة الحانات ، وعبيد باخوس ، ممن أفلسهم شرب الخمر ، فراحوا يتلمسون القروض : فان لم يقرضهم صاحب الحانة ، أقرضتهم الساقيات الخادمات في الحانة .

هـ ـ وبعد مرور مواكب هؤلاء يعلن المنادي عن مواكب شعراء مختلفي المشارب والمذاهب : شعراء الطبيعة ، شعراء القصر والفروسية ، وهم يتسمون بالرقة والحماسة . ثم يعلن عن اعتذار شعراء الليل والقبور لأنهم مشغولون بحديث شائق جدا مع فامبير بعثت حديثا ، حديثا ربما ينشأ عنه نوع جديد من الشعر .

من يقصد جيته بهذين الفريقين من الشعراء ؟ يرى كونوفشر (جـ٤ ص٧١٢) أنه يقصد ممثلي أنواع الشعر في عصره : الرومنتيك القدماء ، والرومنتيك المحدثين . فشعراء الطبيعة والقصر والفروسية ، وهم الرومنتيك القدماء ، هم الشعراء الألمان الشفابنيون الذين تغنوا بالطبيعة ، والفروسية ، مثل نوفالس وهيلدرلن وتيك ، وأما شعراء الليل والقبور فهم

الرومنتيك المحدثون الفرنسيون والانجليز : مثل فكتور هوجو ، وبرسبر مريميه بمجموعته التي عنوانها Guzla (ظهرت سنة ١٨٢٧) من بين الفرنسيين ، ثم لورد بيرون Byron من بين الانجليز خصوصا في قصيدته : «مانفرد» (سنة ١٨١٧) و«قابيل» (سنة ١٨٢٠) . والموضوعات الأثيرة عند هؤلاء الرومنتيك المحدثين هي ما هو قبيح ، («أحدب نوتردام» لهوجو) ، شبح ، مخيف ، حافل بالتناقض . وكان جيته قد قرأ مجموعة مريميه الشعرية La Guzla وكتب عنها في مجلة «الفن والأوائل» Kunst Und Altertum ، وقال عنها : «ان الشاعر (= مريميه) يستحضر ، بوصفه رومنتيكيا حقيقيا ، عالم الأشباح . والمواضع التي يذكرها تثير الفزع : فالكائنات في الليل ، وأفنية الكنائس ، وطرق الصليب ، وأكواخ الرهبان ، والصخور ، وشقوق الصخور تحيط بالسامع وتملؤه انفعالا ، وتظهر أشباح موتى ماتوا حديثا تهدد وتثير الفزع ، ووجوه تبث القلق ، وشعلات تجتذب وتلتمع : انه عالم الفامبيرات بكل توابعه» .

وعن المدرسة الرومنتيكية الفرنسية يقول جيته في حديثه مع اكرمن (جـ٣ ص٣٠٦) : «بدلا من المضمون الجميل للأساطير اليونانية نجد (عند الرومنتيك الفرنسيين) العفاريت والساحرات والفامبيرات . ـ وهذا اللون من الأدب حريف الطعم! ومؤثر! لكن بعد أن يتذوق الجمهور هذا اللون من الطعام الحريف ويتمرد عليه ، فانه يتطلب المزيد منه باستمرار» .

و ـ ثم يعلن المنادي عن موكب الأساطير اليونانية التي لم تفقد طابعها ولا قيمتها بالرغم من اتخاذها أقنعة حديثة . فنرى القوى الثلاث الأسطورية التي تجمل ، وتسود وتفسد حياة الانسان ، وهي : اللطائف Grazien ، والباركات Parzen (أو قوى القدر والمصير) والفوريات Furien .

فاللطائف تزود علاقات الناس في الاعطاء والأخذ والشكر بهبة الرقة Anmuth فأجلايا تقول : نحن نزود الحياة بالرقة ، فضعوا الرقة في الهدية . وهجمونيا تناشد الناس أن يقبلوا العطايا برقة ، ويوفروسيه تدعو الشكر أن يكون رقيقا .

والباركات ، أو قوى المصير ، أو الأقدار ، وهن اللواتي يغزلن خيوط العمر والمصير ، تقول أولاهن : اترديوس أنها تختار خيوطا من التيل الدقيق ، وتحذر من انقطاع هذه الخيوط بسبب الإفراط في الشهوات . والثانية كلونو تقول ان المقصات قد سلمت اليها ، وهي تحتاط في استعمالها ، أي في قطع خيوط أعمار الناس .

والثالثة ، لاخسيس ، تسهر على الخيوط حتى لا تنحرف عن طريقها .

أما الفوريات فقد اتخذن مظهرا يلائم الكرنفال : انهن جميلات ، حسان الوجوه ،

ونهود ت ، في مقتبل العمر . لسن حاذقات مثل الأفاعي ولسن بريئات كالحمائم ، بل هن حمائم لها طباع الأفاعي ، بشوشات متلطفات . بيد أنهن غدارات ، ولا يرين أن يتظاهرن بهن ملائكة ، بل يعترفن أنهن بلاء على المدينة والبلاد .

وهن ثلاث أيضا : الكتو ، وميجيرا ، وتيسفون ، وشرهن هي تيسفون . ان الكتو تبذر الشقاق وعدم الثقة بين المحبين ، وتفسد العروس على عريسها ، والعريس على عروسه . وأسوأ منها ميجيرا ، لانها تدمر الناس أزواجاً أزواجاً ، وشر الثلاثة تيسفون فإنها تهيئ السم والخنجر للغادر ، وتكشف الاساءات المخبوءة ، وبالجملة تفضح المستور ، وتنتقم .

ز ـ ويطلب منهن المنادي أن ينتحين جانبا ، لأن ما هو قادم الآن ليس من شاكلتهن وهنا يظهر ما يشبه الجبل ، وهو يشق طريقه وسط الحشود ، وجوانبه مغطاة بالبسط مختلفة الألوان ، وله رأس ذات أسنان طويلة ، وخرطوم على شكل حية . وعلى قفاه تجلس مرأة جميلة رقيقة ، وهي تقوده بعصا رقيقة . وعلى جانبه تسير سيدتان نبيلتان وهما مقيدتان بالأغلال : احداهما قلقة ، والأخرى مرحة ، احداهما تود أن تكون حرة طليقة ، والأخرى تشعر أنها حرة طليقة .

هذا الجبل ، الفيلي ، هو الدولة ونظام الحكم ، أما السيدة التي تقوده بالعصا فهي الآلهة : المهارة Klugheit ، ويتربع على العرش في أعلى : النصر ، الذي هو اله كل الأعمال . والسيدتان المقيدتان اللتان تسيران على جانبه هما : الخوف Furcht والرجاء (الأمل) Hoffnung ، والكلمتان مؤنثتان في الألمانية ، ولهذا رمز اليهما بسيدتين .

والمهارة تقتاد كليهما مقيدين ، لأنهما من أعدى أعداء الانسان ، اذ يحولان بينه وبين الاستمتاع بالماضي : فالخوف يجعل الانسان في قلق من الأعداء والأخطار ، والأمل ينشد الأحسن والخير في المستقبل .

ح ـ ويستمر هذا الجبل ، أو المارد ، في السير ، وفوقه يتربع النصر ، اله كل نشاط . انه موكب انتصار ، سرعان ما يثير الحسد في نفوس الآخرين . فيتصدى له مسخ ، هو قزم تجاه هذا العملاق ، انه مسخ مزدوج مؤلف من زويلوس Zoilos الناقد الحاقد الذي حمل على هوميروس وأنكر عظمة شعره ، ومن ثرسيتس Thersites الذي شتم أخيلوس ، ولهذا عاقبه أودوسيوس . فهذا المسخ المزدوج قد جعله جيته رمزا للحاقدين العاجزين الذين يتطاولون على الممتازين والمبدعين وأصحاب الهمم العالية . أينما نجح أحد ، امتلأت قلوبهم بالحقد عليه . وهم لا يريدون الا أن يجعلوا العالي سافلا ، والمستقيم أعوجا .

والمنادي ينهر هذا المسخ المزدوج ويطلب لهما الضرب بالعصا . فيتقلص هذا المسخ

المزدوج ويصبح كتلة منفردة . ثم تصير الكتلة بيضة تنتفخ وتنشق عن اثنين احدهما ثعبان ، والآخر وطواط ، أحدهما يبتعد وهو يزحف في التراب ، والآخر يطير أسود نحو السقف .

وجيته يرمز بالوطواط الى رجل الدين ، وبالثعبان الى الديماجوجي ، وهما معا يؤلفان حلف الرجعيين والديماجوجيين السياسيين اليساريين في عصرنا الحاضر ، وقد جمعتهما الرغبة في القضاء على العقل وعلى الحرية وعلى الحضارة ، وعلى الفكر المستنير وعلى القيم الانسانية السامية .

ط - ثم يشاهد المنادي عربة ضخمة يجرها أربعة خيول وتشق طريقها بين الحشد ، لكنها لا تفصل الحشد ولا يلحظ أنها تحدث زحاما . إنها ترف ملونة على البعد ، ثم تقترب بشدة كشدة العاصفة . وسائق العربة فتى يافع ، يخاطب الخيول ويطلب منها أن تكبح جموحها وأن تضبط نفسها ، وأن تحترم هذا المكان ويقول المنادي : هيا أذكر أوصافنا قبل أن نمضي الى بعيد ، لأننا رموز ، وينبغي عليك أن تعرفنا .

فيجيب المنادي بأنه لا يدري من هو هذا الفتى ، لكنه يستطيع فقط وصفه ، فيصف الفتى بأنه شاب وجميل ، وصبي لم يكتمل تكوينه ، لكن النسوة يتمنين أن يرينه كامل التكوين ، وأنه يبدو زير نساء في المستقبل ، وسيكون له شأن عند الفتيات .

وهنا يسأله السائق الفتى : ومن هذا الذي يختال على عرش العربة ؟ فيجيب المنادي : أنه يبدو ملكا سعيدا رقيقا ، طوبى لمن يظفر برضاه! وأينما يحل ، يكن الوفد والسعادة . لكنه لا يستطيع أن يحدد من هو . فيقول السائق الفتى انه : بلوتوس ، اله الثروة ، انه يتقدم في أبهة وفخفخة ، ذلك أن الامبراطور العظيم مشتاق جدا لمقابلته .

ويسأله المنادي : لكن حدثنا عن نفسك ، من أنت ، فيجيب السائق الفتي : أنا الجود ، أنا الشعر ، أنا الشاعر الذي يكتمل حين يجود بخير ما فيه . أنا أيضا غني جدا ، وأعد مثل بلوتوس ، أنا أحيى وأزين له الرقص والمآدب ، وما ينقصه ، أنا أوزعه .

فيطلب منه المنادي أن يكشف عن مواهبه . فيقول السائق الفتي أنه يكفيه أن يقرقع بأصابعه واذا بالنفائس تتناثر حوله . - ويأخذ السائق الفتي في قرقعة أصابعه ، واذا بعقود اللؤلؤ تتطاير ، واذا بالأقراط الذهبية تتهاوى ، وكذلك الأمشاط والتيجان الصغيرة ، والخواتم .

ويعلن المنادي أن الحشد يلتقط هذه الجواهر ، وأن السائق الفتي يرمي بالحلي كما لو كنا في حلم ، والجميع يتدافعون لالتقاطها . لكن من يلتقط منها شيئا يجازى ، أسوأ جزاء :

اذ تطير الحلية بعيدا عنه ، وعقد اللآلئ ينفرط ، وفي يده تتجمع حيوانات ، فيرمي بها المسكين ، واذا بها تطن حول رأسه . والآخرون ، بدلا من أن يمسكوا بأشياء صلبة ، يلتقطون فراشات شريرة . ان هذا الفتى يعد بالكثير ، لكنه لا يقدم الا ماله شبه ظاهري بالذهب .

فيشيح السائق الصبي بوجهه عن المنادي ، ويتوجه نحو بلوتوس ، المتربع على عرش العربة بجلال وأبهة وفخفخة فيقول لبلوتوس : ألم تكل الي هذه العربة ذات الخيول الأربع الجموح ؟ ألم أحسن سوقها ؟ ألم أكسب قصب السبق ؟ وفي كل مرة ناضلت من أجلك ، انتصرت ، واذا كان اكليل الغار يزين جبينك ، أليس أنا هو الذي ضفره بالفكر وباليد ؟ فيشهد بلوتوس بصدق ما قاله السائق الفتي ويقول له : أنت روح روحي ، أنت تعمل وفقا لفكري ، أنت أغنى مني .

فيصيح السائق الفتي في الجمهور : أنظروا ، لقد نثرت أعظم العطايا بيدي ، وعلى هذا الرأس ، وذاك الآخر تشتعل شعلة صغيرة أنا الذي أوقدتها ، وهي تتواثب من رأس الواحد الى رأس الآخر .

وتثرثر النسوة قائلات : هناك في أعلى العربة ذات الخيول الأربعة رجال ، وفي الخلف يجلس شخص أهزله الجوع والعطش ، لم يشاهد مثله من قبل .

فيقول الشخص المهزول : سحقا لك يا جنس الإناث! حين كانت الزوجة لاتزال تدبر البيت ، كنت أسمى : البخيل ، وكان هذا لمصلحة البيت . لكن في السنوات الأخيرة لما صارت الزوجة لا تقتصد ، وتشتهي أكثر مما عندها من نقود ، فقد صار على الزوج أن يحتمل الكثير من المتاعب : فأينما ولّى وجهه ، وجد الدين . انني من جنس الذكور : أنا البخيل .

* * *

وتحت قناع بلوتوس يوجد فاوست ، وتحت قناع هذا البخيل يوجد مفستوفيلس . وهذه هي المرة الأولى التي يجتمع فيها فاوست مع مفستوفيلس بعد مأساة مرجريت . ذلك أن الذي مثل أمام الامبراطور في المقابلة السابقة الذكر كان مفستوفيلس وحده ، دون فاوست ، وهناك اقترح ، للتخلص من الافلاس الذي تردت الامبراطورية ، استخراج الدفائن والكنوز من باطن الأرض .

وها هو ذا الوقت قد حان لاستخراج هذه الدفائن والكنوز ، والامبراطور في غاية التلهف لمشاهدتها .

والسائق الفتي ـ حسبما صرح جيته هو نفسه ـ هو عبقرية الشعر ، هو الجود (أو : الاسراف) الذي يبذل أعمق ما في ذاته ، وهو شبيه يوفوريون Euphorion ، الذي أنجبته هيلانة من فاوست ، كما سنعرف في الفصل الثالث من « فاوست » الثاني .

* * *

ونعود الى البخيل ـ مفستوفيلس لنجده في عراك مع النساء ـ انهن يشتمنه ويقلن أنه ما جاء الا لإثارة الأزواج على الزوجات ، بماذا يهددنا ، عمود المشنقة هذا ؟ هل لنا أن نخاف من وجهه القبيح! إن التنانين من خشب وكرتون ، هيا واهجمن عليه .

ويحاول المنادي منعهن بعصاه ، لكنه ليس في حاجة الى بذل أي مجهود ، فها هي التنانين قد نشرت أجنحتها الرهيبة وملأت المكان ، وتهز أفواهها المحاطة بالصدف وتبصق النار ، فيفر الحشد ، ويخلو المكان .

وينزل بلوتوس من العربة ، وبإشارة منه تتحرك التنانين ، وتأتي من العربة بالصندوق الذي فيه الذهب . وأما البخيل ـ مفستوفيلس فقد نزل هو الآخر .

وهنا يقول بلوتوس للسائق الفتي : الآن قد تخلصت أنت من العمل المرهق ، أنت الآن حر طليق . تشجع وطر الى الفلك! حيث مكانك الحق ، هناك حيث لا يسر الا الجميل والخير ، هناك أخلق عالمك .

وينطلق السائق الفتي كما جاء . ويأخذ بلوتوس في فتح الكنوز بأن يمس الأقفال بعصا المنادي . واذا بغلايات يغلي فيها الذهب المصهور ، أولا التيجان والسلاسل والخواتم ، ويحدث انتفاخ يملأ الصندوق حتى الحافة . وكؤوس ذهبية تنصهر ، ولفائف مصكوكة تدور ، ودوقات تتواثب . ويندفع الجمهور لأخذ ما في الصندوق . فزجرهم المنادي قائلا أن الأمر مزاح ، مزاح ثم يطلب من بلوتوس ، وهو بطل الكرنفال ، أن يطرد الناس من هذا المكان .

فيأخذ بلوتوس العصا من المنادي ، ويحذر من أن العصا مشتعلة ، ومن يقترب منها يشو على الفور .

فيأخذ الجمهور في التراجع والفرار من نار العصا التي تلفحهم ، ويخلون المكان .

يعود البخيل ـ مفستوفيلس الى التحدث عن النساء ، « لأن المرأة الجميلة هي دائما جميلة » . ولكي يسخر ، الى تمثيل مهزلة هي أن يعالج الذهب كما لو كان طينا رطبا . فهو يعجن كل ذهب ، ويصير الذهب رخوا بين يديه . ويتجه نحو النساء ، فيتصايحن ، ويردن الذهاب ويتصرفن بشراسة ، لكنه يتجلى بكل شره .

ي - وهنا يأتي حشد صاخب من أعلى الجبل ومن الوادي الحافل بالغابات ، ويتقدم دون عائق . انه يحتفل Pan ، الهه العظيم . وهو يتدافع الى الدائرة الفارغة . انه حشد من الأجلاف الخشناء ، السائرين بخطى قوية ثابتة .

فنجد أولا جماعة الفونات وهن يرقصن رقصات بهيجة ، وفي شعورهن تيجان من السنديان . ومن ورائهن يركض الساتور Satyr بقدم ماعز وساق جافة ، ويتلفت حواليه مثل الأيل على قمم الجبال ، ويسخر من الزوج والزوجة وابنهما ، الذين يتصورون ، وهم الغارقون في بخار الوادي ودخانه ، أنهم يحيون حياة هنيئة ، بينما هو وحده هناك في أعلى ينعم بالصفاء والنقاء .

ويدخل الجنومات الذين من عروق الجبال ، ويلقون بأكوام من المعادن . ويقولون : نحن نستخرج الذهب حتى نمكن السرقة والتوسط بين العشاق ، حتى لا يعوز الانسان المستكبر الذي اخترع الاغتيال الكلي لبني الانسان . ومن بعدهم يأتي المردة العمالقة ، عراة ضخاما . وفي يد كل منهم اليمنى جذع صنوبر ، وحول بطنه حزام ملتف ، وعليه من الأغصان والأوراق .

ويحيط ببان Pan العظيم كوكبة من الحوريات في الأساطير اليونانية هي آلهات الينابيع ويظهرن بصحبة بان اوديونسيوس .

ويقتاد الأقزام بان العظيم نحو مصدر النار التي تتصاعد وتعلو من أعماق الهاوية ثم تنزل من جديد في الهاوية . ويستمتع بان بهذا المنظر . وينحني ليشاهد على نحو أدق ، فتشتعل لحيته ويشعل التاج والرأس ، وتتحول اللذة الى ألم . ويحترق الامبراطور وحاشيته . والغابة تتقد نارا . وتبلغ الكارثة قمتها .

وفي نهاية المشهد يطلب بلوتوس من النار أن تكف عن الانتشار ، وينتشر البخار ، ثم ينطفئ الحريق ، وهكذا أطفأ بلوتوس الحريق بأعمال سحرية .

وينتهي مشهد الأقنعة والكرنفال .

ويلوح أن جيته في وصفه لهذا الحريق كان أمامه ما وقع في احتفال اقامه أمير اشقار في باريس في أول يوليو سنة ١٨١٠ ، اذ اشتعلت ستارة من الشاش فاندلع حريق هائل في قاعة الرقص ، وتسبب هذا الحريق في مصرع زوجة الأمير ، وخسارة ما يقرب من المليونين من الفرنكات . وقد وصفت جريدة «أوجسبرج الجمينة» هذا الحريق في حينه ، ومنها عرف جيته هذا الخبر .

وقد رمز جيته بهذا الحريق الى الثورة التي لا بد أن تندلع ضد الحاكم الذي يبدد أموال

الدولة على ملذاته وحفلاته ، الثورة التي لا بد أن يحترق بنارها هذا الحاكم ، كما احترق الامبراطور في نار الكرنفال هذه .

على أن النقاد اختلفوا اختلافات عديدة في تأويل مشهد المساخر[١] . والأمر كله تأويل شخصي ، لأن جيته لم يصرح بشيء يمكن الاستناد اليه في هذا الباب . فلا داعي اذن للخوض في هذه المتاهات من التأويلات .

٣
الاجتماع مع الامبراطور في حديقة الاستمتاع

وفي حديقة الاستمتاع ينعقد اجتماع يحضره الامبراطور وحاشيته ، كما يحضره فاوست ومفستوفيلس وهما بثياب لائقة بالمناسبات الرسمية ، ويركعان . ويسأل فاوست الامبراطور عن ألعاب الحريق السحرية ، فيأمرهما الامبراطور بالاعتدال في الوقوف ، ويقول انه يتمنى مشاهدة الكثير من هذه الألوان من المزاح... ثم يصف حاله عند اشتعال النيران ، وكيف شاهد آلاف الشعلات الصاخبة وهي تتصاعد على شكل قبة عالية جدا تتكون دائما وتنحل أبدا . وتعرف بعض رجال حاشيته ، وخيل اليه أنه أمير لالف سلمندر . والسلمندر نوع من العضايا (السحالي) يدخل في النار ولا يحترق ، لأنه يفرز سائلا حول جسمه يمنع من احتراقه بالنار .

وهذا الوصف من جانب الامبراطور يتناقض مع ما قاله المنادي في المشهد السابق من أن مستشاري الامبراطور كانوا في اهتياج شديد وقلق كبير وحاولوا أن يطفئوا النار ، فلم تزد النار الا اشتعالا . ويحاول دونتسر (جـ٢ ص٧١) أن يفسر هذا التناقض بأنه ربما حدث لأن بداية هذا المشهد قد كتبها جيته بعد فترة طويلة من كتابته المشهد الساخر .

انتهز مفستوفيلس هذه الفرصة ، وقد وجد الامبراطور مسرورا جدا بحادث الحريق ، ليدخل قلب هذا الأخير بالملق والألقاب الفخمة ، فيزعم أن كل عنصر من العناصر الأربعة (النار ، التراب ، الماء ، الهواء) طوع أمر الامبراطور . وها هو ذا قد وجد عنصر النار طوع أمره في مشهد المساخر . وسيكون الأمر كذلك بالنسبة الى عنصر الماء : «الق بنفسك في البحر ، هناك حيث يشتد اضطرابه الى أقصى درجة ، فما تكاد تضع قدمك على القاع الحافل

---

(١) راجع مثلا ما يقوله دونتسر جـ٢ ص٦٨-٦٩

باللآلئ ، حتى تتكون دائرة عظيمة تتماوج ، وسترى أمواجا ذات لون أخضر صاف ، عند حافة البحر ، وهي تنتفخ وتتقلص حولك وأنت النقطة المركزية في هذا المقام الرائع الجمال . وفي كل خطوة تخطوها أينما تذهب تجد ظواهر البحر تتدافع نحو النور الجديد المحبوب ، وتقذف بنفسها باندفاع تجاهه ، لكن لا يسمح لأي منها بالدخول ، وهناك تلعب التنانين ذوات اللون الذهبي . وسمك القرش يفتح فكيه ، فتضحك أنت في شدقيه... وتقترب من المقام الفاخر بين المياه الدائمة ، والشابات منها شهوانية « كالأسماك ، والمسنات منه حذرة . » ولهذه الجمل المعسولة يريد مفستوفيلس أن يستولي على عقل هذا الامبراطور الضعيف العقل .

وكان مفستوفيلس في الليلة السابقة قد أنجز مشروعه العجيب وهو طبع أوراق مالية بتوقيع الامبراطور ، وها نحن الآن نرى نتائجها على ألسنة كبار رجال الدولة وقد هرعوا الى الامبراطور يزفون اليه النبأ السعيد الخارق : فيدخل أولا ناظر الخاصة الامبراطورية (مارشال القصر) ويزف اليه هذا النبأ : دفعت كل الحسابات ، ومخالب المرابين هدأت ، ويتلوه رئيس الجيش ليعلن أن كل مرتبات الجنود دفعت ، واستردوا معنوياتهم ، ويدهش الامبراطور مما حدث ، فيقول ناظر الخزانة وقد جاء : اسأل هذين (مشيرا الى فاوست ومفستوفيلس) فهما اللذان صنعا هذا الصنيع! فيجيب فاوست بأن على المستشار أن يشرح الأمر . ويقترب المستشار ببطء ويشرح : الورقة الحافلة بالأقدار ، فهي التي حولت كل شيء من الشر الى الخير : ان هذه الورقة تساوي ألف ، وغطاؤها أموال كثيرة مدفونة تحت أرض الامبراطورية .

فيصيح الامبراطور : أشعر بأن ها هنا غش وتزوير . من الذي زوّر توقيع الامبراطور ؟

فيجيب ناظر الخزانة : تذكر! أنك أنت بنفسك الذي وقعتها في الليلة الماضية . كنت واقفا على هيئة « بان » العظيم ، واقترب منك المستشار ونحن معه وقال لك : امنح هذه اللذة الكبيرة في العيد ، افتح السعادة لشعبك بتوقيع منك . ووقعت أنت بوضوح . وفي الليلة نفسها طبع منها آلاف النسخ . ولكي نعيد في الحال مهرنا السلسلة كلها : العشرات ، الثلاثينات ، الخمسينات ، المئات .

فيقول الامبراطور : وهل بالنسبة الى رعاياي هذه الأوراق تساوي الذهب الحر ؟ وهل تكفي لدفع مرتبات الجيش والحاشية ؟ وعلي أن أقر بها ، رغم ما أشعر به من صعوبة في ذلك .

ويصف ناظر الخزانة ما حدث بعد ذلك : الصيارفة فتحوا مصارفهم ، ودفعت الأوراق

للجزّار ، والخباز ، وصاحب الخمارة ، وراح الناس ينفقون عن سعة في الشرب والملبس . وراح الشاربون في الحانات يصيحون : «فلنحيي الامبراطور»!

ثم يأخذ مفستوفيلس في وصف مزايا الورق المالية : أنها سهلة الحمل : فالقسيس يضعها بتقوى في كتاب الصلوات ، والجندي يضعها خفيفة في حزام الوسط . ثم أنها تسهل على المرء معرفة ما يملك : فلا داعي للمقايضة والصرف ، بل عليه فقط أن يتطلع في الأرقام المكتوبة على الأوراق المالية التي عنده .

فيتوجه اليهما الامبراطور بالشكر على هذه الخدمة الجليلة ، ويفوض اليهما كنوز ما تحت الأرض ليكونا حارسين أمينين عليها . ويدعو القائمين على الخزانة والأموال أن يتعاونوا معا لصالح الدولة .

فيقول ناظر الخزانة أنه لا ينبغي أن يقع خلاف بينه وبين مفستوفيلس وفاوست ، ويسره أن يكون هذا الساحر زميله في العمل ، ويمضي مع فاوست .

ويسأل الامبراطور رجال الحاشية أن يطلبوا ما يشاؤون هدية لهم بهذه المناسبة السعيدة : فيبدي وصفا ، وآخر ، وخادم غرفة وآخر ، وصاحب علم وآخر - رغباتهم ، حسب طبائعهم وعاداتهم . ويلاحظ الامبراطور أنهم لم يغيروا من سلوكهم حتى بعد هذا الحدث العظيم .

ثم يدخل المجنون - وكان قد وقع كما رأينا على السلم ولم يدخل حضرة الامبراطور ، فحل محله مفستوفيلس . ويطالب بهدية كالآخرين ، لكنه يبدي تشككه في هذه الأوراق المالية السحرية . لما أعطاه الامبراطور ورقة من فئة خمسة آلاف كورونة . ويسأل مفستوفيلس هل هي تساوي النقود الفضية والذهبية ؟ فيجيب مفستوفيلس بالايجاب . ويسأله المجنون مرة أخرى . وهل أستطيع أن أشتري بها حقلا وبيتا ومواشي ومنطقة للصيد ونهرا فيه أسماك ؟ فيطمئنه مفستوفيلس من جديد . فيقول المجنون : في هذا المساء أهدهد نفسي في الأموال . ويخرج .

ويقول مفستوفيلس معلقا : «من ذا الذي يشك بعد في عقل هذا المجنون ؟!» والواقع أن هذا المجنون ، كان هو العاقل الوحيد بين جميع الذين أتينا على ذكرهم من امبراطور ومستشار وناظر خاصة ورئيس جيش الخ الخ .

تلك اذن حكاية الأوراق المالية التي أوهم بها فاوست ومفستوفيلس الامبراطور الساذج الضعيف وحاشيته العفنة بأن فيها الحل للضائقة المالية التي تعاني منها الامبراطورية .

وقد أوّل بعض المفسرين هذه الحكاية بأنها ترمز الى انحلال الملكية الاقطاعية الى

دولة النقود ، وتحول ما هو عيني حقيقي الى ما هو افتراضي وهمي . ان الاقطاع يقوم على أساس الأرض . ما على سطحها وما في باطنها ، وكلاهما عيني حقيقي دائم القيمة ، وهذه وهمية تتغير قيمتها باستمرار وقد تستحيل الى لا شيء ، كما هو حادث في هذه الأيام . فالجنيه الذي كان يشتري به ألف بيضة ، صار لا يساوي الآن عشر بيضات!

٤
الرحلة الى الأمهات

لكن الامبراطور الناهب للذات يريد منها المزيد باستمرار . وها هو ذا يطلب من فاوست أن يأتيه في هذا المساء بالبطل الطروادي باريس Paris وبملكة جمال اليونان هيلانة التي خطفها باريس . وكان فاوست قد وعده بذلك في هذا المساء أثناء احتفال للقصر . وراح فاوست يبحث في الزحام عن مفستوفيلس لتنفيذ هذا الوعد ، ولكن مفستوفيلس ، وقد علم بهذا الوعد راح يتهرب . وأخيرا عثر على مفستوفيلس ، واقتاده الى دهليز مظلم ليخبره بالأمر . فيسأله مفستوفيلس لماذا يقتاده فاوست الى هذا المكان المظلم ، بينما في قاعة الاحتفال مجال واسع للعبث واللهو والخداع . ويخبره فاوست أن الامبراطور يريد منه أن يستحضر باريس وهيلانة أمام الامبراطور ، وأنه وعده بفعل ذلك ، وأن ناظر الخاصة ورجال الحاشية استحثوه على تنفيذ الوعد فورا . فيتهمه مفستوفيلس بالطيش لبذل هذا الوعد ، فيرد فاوست أن مفستوفيلس هو المسؤول لأنه هو الذي جعل الامبراطور يصبح ثريا وافر الثراء ، مما جعله يتطلب المزيد من المتع ، ونجاح مفستوفيلس في تحقيق ذلك قد فتح شهية الامبراطور للمزيد من أعمال السحر . فيرد مفستوفيلس بأنه لا سلطان له على عالم الأساطير اليونانية .

وهذا يناقض ما ورد في «الكتاب الشعبي» ، اذ ورد في هذا الكتاب أن فاوست كان يستحضر الأبطال اليونانيين بمساعدة الشيطان ، وأن الشيطان قد أتى له بجنية في صورة هيلانة .

وتحت الحاح فاوست ، يقول مفستوفيلس أن الشعب الوثني (اليوناني) لا يهمه ، أنه يسكن عالمه السفلي الخاص به . لكن هناك مع ذلك وسيلة للوصول اليه . ان فيه أمهات يتربعن على عروشهن في جلال الوحدة ، وليس حولهن زمان ولا مكان . انهن «الأمهات» . فيصيح فاوست فزعا : «الأمهات!» ، «الأمهات!» هذا غريب جدا . فيجيب

مفستوفيلس : انهن الأمهات لا علم لك بهن . وعليك أن تحفر حتى أعمق الأعماق للوصول اليهن .

ويسأله فاوست عن الطريق اليهن ، فيجيب مفستوفيلس بأنه لا طريق في الخلاء . ويفيض في العبارات الطنانة لتصوير مقام «الأمهات» . فيستعجله فاوست ويطلب منه العدول عن هذا الكلام الذي لا طائل تحته . وأخيرا يقول لفاوست : خذ هذا المفتاح!

فيقول فاوست : هذا الشيء الصغير! فيقول مفستوفيلس : خذه أولا ولا تستهن به .

ويرى فاوست أن المفتاح يكبر في يده ، ويلمع ، ويلقي بالأضواء . ويؤكد له مفستوفيلس انه سيهديه الى «الأمهات!» وهو حائر في فهم معناها .

فمن هؤلاء «الأمهات» ؟

يقول جيته في حديثه مع أكرمن (جـ٢ص١٧١) أنه قرأ عند فلوطرخس كلاما عن «الأمهات» بوصفهن كن أمهات عند اليونان . ويذكر ريمر Riemer أن جيته أثناء رحلة استشفاء له في كارلسباد ، والراجح أن تلك الرحلة كانت في سنة ١٨١١ ـ قد قرأ بعض رسائل فلوطرخس ، وكانت هذه القراءة دافعا لبعض الأحاديث على المائدة وأثناء النزهات ، وربما كانت «الأمهات» قد ورد ذكرها فيما قرأه جيته عند فلوطرخس ، ومن ثم علقت في ذاكرته . ويقول ريمر أنه بعد ذلك بعشرين سنة ـ في الوقت الذي كان فيه جيته يكتب «فاوست» الثاني ـ سأله جيته عن المكان الذي ورد فيه ذكر الأمهات ، فلم يعرف ريمر ، ولكن جيته تذكر أنه في مؤلفات فلوطرخس . وبعد وفاة جيته بحث ريمر عن الموضع الذي ورد فيه ذكر الأمهات في مؤلفات فلوطرخس ، فلم يهتد الا الى موضعين ، لكن كلا الموضعين لم يرد فيهما ما يتفق مع ما ورد عند جيته ، ولهذا فانهما ليسا المقصودين . وانما المقصود هو ما ورد في سيرة الامبراطور مركلوس ضمن كتاب «السير المتوازية» لفلوطرخس ، كما بين ذلك هارتونج Hartung ، وعنه نقل دونتسر (جـ ٢ص٨٢) .

قال فلوطرخس : «انجيوم Engyium مدينة قديمة جدا في صقلية ، ولكنها ليست كبيرة ، وقد اشتهرت بظهور الآلهات اللواتي يدعين «الأمهات» . ومعبدهن يبدو أن الكريتيين هم الذين بنوه ، وكان يشاهد فيه بعض الرماح والخوذات الحديدية ، وقد كتب على بعضها اسم مريون ، وعلى بعضها الآخر اسم أودوسوس ، بوصفهما هما اللذان كرساهما للأمهات .

وكانت هذه المدينة على صلة وثيقة جدا بالقرطاجنيين ، فحاول أحد أعيانها ، ويدعى انقياس ، أن يجتذب المدينة الى صف الرومان ، وخطب بحماسة في مجامع الشعب تأييدا

ـرأيه هذا ، وهاجم الفريق المضاد بشدة . فقرر هؤلاء الأخيرون ، خوفا لما للرجل من مكانة وتأثير أن يأخذوا انقياس ويسلموه للقرطاجانيين . ولما لاحظ انقياس أن القوم يترصدون كل حركاته وخطواته ، القى خطبا عنيفة ضد «الأمهات» ، وفعل أمورا تكشف عن عدم عتقاده في ظهور «الأمهات» . ففرح لذلك أعداؤه لأنه قدم بنفسه الحجة لما سيحدث له من مصير . ولما أعد كل شيء للقبض عليه ، عقد اجتماع آخر لأهل المدينة . وجاء انقياس يبقي على الجمهور رأيا سديدا ، لكنه سقط على الأرض فجأة اثناء ما كان يلقي خطبته . وبعد برهة ، وكان الكل في صمت ودهشة ، رفع رأسه وأداره في كل ناحية ، وصوته متهدج غير مفهوم ، ثم صار أوضح شيئا فشيئا . وبينما استولى الفزع الصامت على كل لحاضرين ، خلع معطفه ، ومزق ثوبه ، ووثب ، وهو نصف عار ، وجرى الى مخرج لمسرح ، وهو يصيح قائلا ان «الأمهات» يطاردنه . ولم يتجاسر أحد ، بسبب اعتقادهم ، من أن يمسك به أو أن يعترض سبيله ، فمضى في طريقه كإنسان مجنون ، وأبدى من لحركات ما يدل على ذلك ، فأفلت من الجميع ، حتى وصل في أمان الى بوابة المدينة . وكانت زوجته على علم بهذه الحيلة ، ولتنفيذها ألقت بنفسها هي وأولادها على الأرض أمام معبد الآلهات مستنجدة بهن ، وادعت أنها تريد أن تستعيد زوجها ، وخرجت بذلك من لمدينة دون عائق» .

وهذا هو الموضح في فلوطرخس الذي استلهمه جيته بالنسبة الى «الأمهات» . ويلوح ن جيته قرأه في سنة ١٨٢١[1] ، لأنه يقول في «حولياته» Annalem تحت سنة ١٨٢١ : «درست فلوطرخس وأبيان Appian» ونحن نجد فعلا ابتداء من سنة ١٨٢١ أن جيته يذكر كتاب «السير المتوازية» فلوطرخس . وسيرة مركلوس من بينها أحفلها بالكلام عن مواكب لنصر التي كانت تقام في روما .

ولم يكد فاوست يسمع اسم «الأمهات» حتى أصابته رعدة شديدة . لماذا ؟ يقول بعض المفسرين ان ذلك لأن هذا الاسم ذكره بمأساة مرجريت التي تسببت في موت أمها . لكن هذا التفسير غير وجيه ، كما لاحظ دونتسر بحق (جـ٢ ص٨٣) .

ويصف مفستوفيلس مقام «الأمهات» بأنه الخلاء التام ، وفي الخلاء لا يوجد أبعاد : طول ، عرض ، عمق ، وبالتالي لا يوجد مكان . وفي الخلاء لا يوجد حركة وبالتالي لا يوجد زمان ، لأن الزمان هو مقدار الحركة . ومن الحمق التحدث عن «الأمهات» ، ولا أحد

---

(١) في الترجمة الألمانية التي قام بها كلتفاسر Kaltwasser .

من الكائنات الفانية يعرفهن . ومقامهن في أعمق الأعماق ، أو في أعلى عليين ، فالأمر سواء . «غص اذن! وفي وسعي أن أقول أيضا : اصعد! فالأمر سواء » . لأنه ليس في الخلاء فوق ولا تحت . مقام «الأمهات» خال من الأشكال ، ومن الثوابت .

وتزيد هذه الأوصاف الغريبة التي يسوقها مفستوفيلس ـ تزيد من رغبة فاوست في الاستطلاع ، وتملؤه حماسة لخوض هذه المغامرة ، مغامرة الذهاب الى مقام «الأمهات» .

ان جيته يتصور مقام «الأمهات» في أعماق الخلاء المحيط بهذا العالم ، وعلى أنه يشبه عالم الصور عند أفلاطون ، الصور التي هي النماذج الأولى التي تحاكيها الكائنات كل بحسب صورة الجنس الذي ينتسب اليه .

ويذكر هنا دونتسر (جـ٢ ص٨٦) أن من المحتمل جدا أن يكون جيته تأثر هنا بما ورد في احدى الرسائل الأخلاقية لفلوطرخس ، وعنوانها : (في اضمحلال الوحي) .

يقول فلوطرخس : «يوجد مائة وثلاثة وثمانون عالما . وهي موضوعة على شكل مثلث ، وكل ضلع من أضلاعه الثلاثة يحتوي على ستين عالما ، والعوالم الثلاثة الباقية تقوم في الزوايا . ووفقا لهذا النظام يمس بعضها بعضا برقة ، وتدور كلها حول بعضها كما في الرقص . والمساحة في داخل المثلث تعد بمثابة بؤرة مشتركة للجميع ، وتسمى :

ميدان الحقيقة . وفي هذا الميدان تقوم كل الأصول والأشكال والصور الأولى لجميع الأشياء التي وجدت والتي ستوجد ، وهي ثابتة لا تتحرك . ويحيط بها السرمدية التي منها يسيل الزمان الى العوالم .والنفوس الانسانية ، ان أحسنت السلوك في حياتها ، يسمح لها مرة في كل عشرة آلاف سنة برؤية ميدان الحقيقة هذا وتأمله ، وأبدع الأسرار على أرضنا هذه هي مجرد حلم لو قورنت بتلك الرؤية المشاهدة» .

ثم يستمر مفستوفيلس في وصف ما سيشاهده فاوست حين يصل الى مقام «الأمهات» فيخبره أن « كرسيا ذا ثلاث أرجل مشتعلا سيجعله يدرك أنه قد وصل الى القاع . وعلى ضوئه سيبصر «الأمهات» : بعضهن جالسات ، وبعضهن واقفات ، وبعضهن يتمشين .

«تشكيل ، تحويل ، تلهية سرمدية يلهو بها الفكر السرمدي . وحواليهن تسبح صور كل الكائنات ، وهي لا تراك ، لأنها لا ترى الا الاسكيمات . تشجع اذن ، لأن الخطر كبير ، وامض قدما الى هذه الكرسي ذي الثلاث أرجل ، وامسسه بالمفتاح» .

ويمسك فاوست بالمفتاح كما لو كان عصا القيادة . ويتأمله مفستوفيلس : اتجه بكيانك نحو الأسفل ، غص وأنت تضرب بقدمك ، واصعد وأنت تضرب بقدمك . فيضرب فاوست بقدمه ويغوص .

ويرى بعض المفسرين أن الكرسي ذا الثلاث أرجل يشير الى الأمهات Matrices التي ذ ـ بها بريسلسوس . وهي : الزئبق ، والكبريت ، والملح . لكن جيته ربما يقصد به قوة ـ ـ ع الخلاقة الدائمة التي ينسبها جيته الى «الأمهات» الآلهات .

وكان الكرسي ذو الأرجل الثلاث رمزا لأبولون بوصفه الاله الذي يوحي . وكانت كاهنة معبد أبولون تجلس على كرسي ذي ثلاث أرجل وتأخذ في التكهن بالغيب .

أما المفتاح فرمز ديني قديم جدا . فهو عند أنبياء اليهود والربانيين رمز للسلطة ـدية والمعنوية والقوة الكاملة . وعند اليونان والرومان كان رمزا دينيا : فكانت الكاهنات تحمنه بوصفهن حارسات للمعابد (يوريفيدس : «الطروادیات» ، البيت رقم ٢٥٦ وما يتلوه) . وفي الغالب كن يضعنه على أكتافهن ، كما كانت الحال عند اليهود أيضا (سفر شعيا ٢٢ :٢٢) . وكانت أفيجينيا تنعت بأنها حاملة مفتاح أرتميس . ـ وكان الآلهة يونانيون يحملون أيضا مفتاحا كعلامة على قدرتهم .

وآلهة العالم السفلي خصوصا كانو ينعتون بأنهم حملة مفتاح ملكوت الأشباح (راجع منتخبات القصر» ٧ :٣٩١ Palatina Anthologia) . ويذكر عن الإلاهة أتينيه Athene أنها كانت تعرف المفتاح لغرفة الآلهة التي فيها خزن البرق .

وفي ديانة مترا نجد خرونوس ، بوصفه اله النور ، يحمل مفتاحا (راجع : Textes et Monoy. I, S3 Cum...) وفي المسيحية يرمز بالمفتاح الى سلطة الكنيسة ، ويوصف قديس بطرس بأنه حامل مفتاح الجنة ويحمل دائما مفتاحا في كل الصور والتماثيل ، مستندا الى ما ورد في انجيل متى (١٦ :١٩)[1] .

وقد أفرط بعض المفسرين في تأويل معنى «الأمهات» حسب مقصد جيته :

أ ـ فقال البعض بتأويل فلسفي خالص : فزعم فريق أن «الأمهات» هي «المقولات» عند عمانويل كنت (راجع كتابنا عنه ، الجزء الأول) ، وزعم فريق آخر أنها المنطق الهيجلي ، وأن الكرسي ذا الأرجل الثلاث هو الديالكتيك الهيجلي بملاحظاته الثلاث : موضوع ، نقيض موضوع ، مركب موضوع .

ب ـ وقال البعض الآخر انهن بذور الفردية والشخصية التي ترقد في الأعماق والنزول فيهن هو تجدد الميلاد الروحي للانسان .

---

(1) راجع المزيد في كتاب فنك : «المفتاح عند اليونان والرومان»

Fink: Der Verschluss bei den Griechen und Romern, Regensburg. 1890.

وفي مقال كيلر

Kohler: Archiv fur Relig. Wiss. VIII (1905). S. 215 ff

جـ ـ وقال البعض الثالث انهن مراحل الانتقال من العدم الى الوجود .

د ـ وفسرها ريمر Riemer بأنها العناصر الأولى لحياة الطبيعة وحياة العقل (الروح) ، وعنها تصدر الصور والأفكار التي تنمو وتتطور .

هـ ـ واكرمن ، صاحب الأحاديث مع جيته ، يقول انها المبدأ الخالق والحافظ ، وعنه يصدر كل شيء ، وكل حالة على الأرض شكل وحياة ، وانها تمثل التحول الدائم للحياة على الأرض والنشوء ، والنمو ، والانحلال ، والتشكيل من جديد .

و ـ وجرفينوس Gervinus يرى في «الأمهات» عرضا رمزيا للقوى الأصلية الفعالة في الطبيعة ، والتي عنها تصدر العناصر والخلوقات ، واليها تعود .

٥
ألاعيب مفستوفيلس

وبينما فاوست قد ذهب الى مقام «الأمهات» ليحصل على المثل الأعلى للجمال في شخص هيلانة ، والمثل الأعلى للرجولة في شخص باريس ، كان القصر مشغولا بالتأهب لرؤية كليهما على يد الساحر مفستوفيلس . وها نحن في قاعات حافلة بالأضواء الزاهية ، والامبراطور والأمراء ورجال البلاط في حركة ولهفة . واحد الأمناء يقول لمفستوفيلس ، الحاضر وحده دون فاوست ، ان الامبراطور متلهف لهذا المشهد ، ويستحثه ناظر البلاط حتى لا يغضب صاحب الجلالة . فيقول مفستوفيلس ان صاحبه ـ أي فاوست ـ قد ذهب لإنجاز هذه المهمة وقد أغلق على نفسه للقيام بالتجارب ، والأمر يحتاج الى جهد خاص لأن من يرد الحصول على هذا الكنز ـ أي الجمال ـ يحتج الى الفن الأكبر ، سحر الحكماء .

وهنا تأتي سيدة شقراء فتقول لمفستوفيلس : ان وجهها صاف ، لكن في الشتاء تنبت عليه من النقط الشقراء الرمادية ، فتغطي بشرتها البيضاء . فهل من دواء!

فيصف لها مفستوفيلس هذه الوصفة للعلاج : خذي بيض الضفدع ، وألسنة خنافس ، واخلطيها وقطريها بعناية ابان سطوع البدر ، واذا تناقص القمر ادهني البشرة ، حتى اذا جاء الربيع هربت البقع!

وتأتي بعدها سيدة سمراء فتشكو له من أن قدمها متيبسة ، وهذا يمنعها من النزهة ومن الرقص ، بل يصعب عليها أن تنحني للتحية .

فيصف لها مفستوفيلس دواء عجيبا ، هو أن يدوس على قدمها! ذلك لأن الشبيه يعالج بالشبيه ، ولهذا تعالج القدم بالقدم ، الأمر كذلك بالنسبة الى سائر أعضاء الجسم ، ويدوس على قدمها فتصيح من شدة الوطء وتقول انها كوطء حافر فرس . فيقول لها الآن شفيت ، وفي وسعها أن ترقص ، وكذلك اذا جلست الى مائدة الطعام ففي وسعها أن تلعب بقدمها مع قدم حبيبها الجالس قبالتها!

وتسعى سيدة للاقتراب منه وهي تصيح بأن آلامها شديدة تمزق قلبها ، ذلك أن رجلها الذي كان حتى الأمس ينشد السعادة في نظراتها ، صار الآن يثرثر مع سيدة أخرى ويدير اليها هي ظهره ، فيصف لها مفستوفيلس هذه الوصفة : خذي هذا الفحم ، وارسمي به خطا على كمه ، ومعطفه ، وكتفه ، حيثما اتفق ، هنالك سيشعر بوخز الضمير . لكن عليك أن تبلعي الفحم في الحال ، والا تروي شفتيك بخمر أو ماء ، وستجدينه هذه الليلة يتنهد أمام بابك!

فتسأل السيدة : أرجو ألا يكون هذا سما ؟ فيجيب مفستوفيلس : لا يمكن! انه للحصول على مثل هذا الفحم لا بد من الجري والتعب ، انه من حطبة أحرقناها بشدة .

وأخيرا يأتي وصيف شاب متيم ، ولكن غرامه لا تأخذه المعشوقة مأخذ الجد . فينصحه مفستوفيلس بألا ينشد سعادته عند الفتيات الشابات ، بل عليه أن ينشدها عند العجائز المسنات .

ويتدافع آخرون اليه ، لكنه مل من هذا الدور ، وها هو ذا يصيح «أيتها الأمهات! أيتها الأمهات! أتركن فاوست» . ثم يلتفت حواليه ، فيشاهد الجميع يتوجهون جماعات نحو قاعة الفرسان ، ذات الجدران الواسعة ، والبسط العديدة ، وفي المشكايات أسلحة .

٦
استحضار باريس وهيلانة

ونصبح في قاعة الفرسان ، حيث الاضاءة خافتة ، وحيث دخل الامبراطور ورجال البلاط ، وحيث المنادي ، والمنجم ، ومفستوفيلس ، وفاوست . والكل في لهفة لمشاهدة استحضار هيلانة وباريس .

ويعلن المنادي أن الامبراطور اتخذ مكانه ، فيمكن البدء : فلتأت الأرواح . ويصيح المنجم : لتبدأ المسرحية في الحال . لأن السيد (الامبراطور) قد أمر ، وأنت أيتها

الجدران ، انفتحي! فيتراجع الجدار المواجه ليكون نصف دائرة فيما يشبه المسرح ، وتختفي البسط الجدرانية كما لو كانت النار التهمتها . ويصعد هو على مقدمة المسرح ، وكان قد تفاهم مع مفستوفيلس كما فعل من قبل في المقابلة الأولى مع الامبراطور . ويخرج مفستوفيلس برأسه من ثقب الملقن ويقول للمنجم : أنت تعرف مسار النجوم ، وستحسن تلقيني . ذلك أن المنجم هو الذي سيتولى الشرح .

ويقول المنجم انه يظهر في هذا المكان مبنى معبد متكتل ، وثم صفوف من الأعمدة القوية التي يكفي اثنان منها لحمل بناء ضخم فيتدخل مهندس معماري ليهزأ بهذا النبأ الكلاسيكي الثقيل ، ويقول ان الناس يقولون عما هو غليظ انه نبيل ، وما هو ثقيل انه عظيم : أما أنا فأحب الأعمدة الرقيقة الصاعدة ، اللا محدودة ، ان السمت القوطي يسمو بالروح . فهو اذن يشيد بالطراز القوطي في المعمار ، ويهزأ بالطراز اليوناني المتكتل الغليظ .

ثم يعلن عن وصول فاوست ، وأنه سيستحضر ، بواسطة فنونه السحرية ، شخصيات ماضية . ويظهر فاوست في مسوح كاهن ، ومعه يصعد الكرسي ذو الأرجل الثلاث ، ويحمل في يده المفتاح وكأسا مملوءة بالبخور الذي تتصاعد منه سحابة عبقة تتخذ أشكالا عديدة : تمتد ، وتتكور ، وتتقلص ، وتنقسم ، وتتعانق . وهي في أثناء تحولاتها تصدر عنها موسيقى ، ومن الأنغام الهوائية ينبثق ما لست أدري ، وترن الأعمدة ، والمعبد كله رنين .

وفاوست كله ثقة بنفسه وفنونه . ألم يشاهد «الأمهات» وعالم الأجداد الخالي من الزمان والمكان ؟ ومن هنا كان هدوؤه وجلال سمته وهو يقول : «باسمك ، أيتها الأمهات ، يا من تتربعن على العرش اللا محدود ، وتقمن أبدا في وحدة ، ومع ذلك في جماعة حول رؤوسكن تحلق صور الحياة ، وهي صور متحركة بدون حياة وكل ما كان ذات يوم في تمام البهاء والنور ها هو ذا يتحرك هناك ، لأنه يريد أن يكون سرمديا . وأنت ، أيتها القوى التي لا تقاوم ، توزعين هذا في سرادق النهار ، وفي قبة الليل والمجرى المواتي للحياة يمسك بالبعض ، والساحر الجسور يسعى بحثا عن الآخرين ، وبموهبة نفيسة وثقة تامة يرى لكل واحد ما يريد : أعني ما هو عجيب» .

ويصف المنجم ما يتراءى على المسرح : المفتاح المشتعل لا يكاد يمس الكأس حتى يمتلئ المكان بضباب بخاري ، يتماوج على شكل سحب ، ويتمرد ، ويتكور ، ويتعانق ، وينقسم ، ويتزاوج . وينحدر الضباب ، من الستار الخفيف يتقدم فتى جميل انه باريس Par-is ، الشاب الغرنوق!

ولدى تجلي باريس تصيح السيدات وقد أخذن بجماله : يا لبهاء قوة شبابه المتفتحة! انه ذو طرواة ومليء بالعصارة كأنه ثمرة الخوخ!وشفتاه مرسومتان بدقة . كم يود المرء أن يشرب من مثل هذه الكأس مصة تلو مصة!

ويقول أحد الفرسان أنه يشتم فيه رائحة الراعي الفتي ، وليس فيه شيء من سمات أمير ولا من شمائل القصور . ويقول آخر ان الفتى جميل وهو عار ، وبودنا أن نراه شاكي السلاح . ويستاء أحد رجال القصر لأنه لا يجوز أن يمثل وهو شبه عار أمام الامبراطور . فترد سيدة بأنه يعتقد أنه وحده لأنه يمثل ، فيقول رجل القصر : ورغم ذلك يجب أن يكون التمثيل محتشما . وخلال هذه الأحاديث تتقدم هيلانة .

فيلاحظ مفستوفيلس أنها لا شك جميلة ، ولكنها لا تناسبه هو .

أما فاوست فتستولي عليه الدهشة والذهول ، فيقول : هل لاتزال لي عينان ؟ هل تدفق ينبوع الجمال بكامل تياره ونفذ في الروح ؟ لقد كان العالم قبل الآن عدما وغير مكشوف . لكنه صار الآن صلبا راسخا مرغوبا فيه! ان الشكل الجميل الذي كان قد تجلى لي ليس شيئا لو قورن بهذا الجمال! اليك ، أيها الجمال ، أبذل نفسي : حبي وعبادتي ،

وتعود السيدات الى التعليق على ما يشهدن ، ولكن على عكس ما فعلن مع باريس : انهن الآن ينتقدن لأن التي أمامهن امرأة ، والنسوة يحقدن على المرأة الرائعة الجمال ، ـ « حسدا حملنه من أجلها » ، كما قال عمر بن أبي ربيعة . أما الرجال فيتغزلون في جمالها : دبلوماسي ، ورجل في البلاط ، وشاعر . فالسيدة المسنة الأولى تقول ان رأس هيلانة صغير جدا ، والثانية الشابة تقول ان قدمها ضخمة ، والثالثة تجد باريس من الجمال بحيث تبدو هيلانة الى جواره قبيحة! وتقول سيدة أخرى سليطة اللسان أن هيلانة امرأة كثيرة الدلال تعبث مع هذا الراعي الأشقر (باريس) ، وتحاول أن تلقي عليه دروسا ، «وفي مثل هذه الحالة كل الرجال حمقى ، ان كل رجل يعتقد أنه سيكون الأول» . وتبلغ الوقاحة أقصاها فتقول احدى السيدات : ان هذه الحلية (هيلانة) قد تبادلتها أيد كثيرة ، ولهذا فان لمعانها قد بهت . فتعقب أخرى لتقول : انها منذ أن بلغت سن العاشرة صارت لا تساوي شيئا .

ويدلي أحد العلماء بدلوه فيقول أنه يشك في أنها هي هيلانة الحقيقية . وانه قرأ أنها فتنت كل أصحاب اللحى الزرقاء في طروادة . ولما كان هو أيضا مسنا ، فانها تعجبه!

ويعلن المنجم أن باريس يمسك بهيلانة ، وبساعد قوي يرفعها الى أعلى ، هل يريد أن يخطفها!

فيتدخل فاوست لينتهر باريس ، ويأمره أن يتوقف عما يفعل ، فقد تجاوز الأمر الحد .

وردا عليه يقول مفستوفيلس ان فاوست هو الذي صنع هذه التمثيلية الهزلية . ويقول المنجم ان عنوان هذه التمثيلية هو : «خطف هيلانة» . فيحتج فاوست قائلا : ماذا! خطف! وهل لا دور لي أنا في هذا الأمر ؟ أليس هذا المفتاح في يدي ؟ انه هو الذي اقتادني الى المكان الأمين ، خلال رهبة الخلوات . أنا هنا راسخ القدم . هذه وقائع ، والروح هنا تجرؤ على مصارعة الأرواح . اني أنقذها ، وهي ملكي أنا .

شجاعة! أيتها «الأمهات» ، أيتها «الأمهات» ساعدن في هذا .

وبعنف بالغ يمسك فاوست بهيلانة ، فيتحول شكلها . ويوجه المفتاح تجاه الفتى . ويلمسه! ويصيح المنجم : الويل لنا ، الويل! الآن! في الحال!

ويحدث انفجار ، ويجندل فاوست على الأرض . وتتلاشى الأرواح على شكل بخار . فيمسك مفستوفيلس بكتف فاوست ويقول : هذا ما نشدته أنت! ان التعامل مع المجانين يعود بالضرر في النهاية ، حتى على الشيطان . ويكون ظلام ، واضطراب .

* * *

وهكذا لا يفلح فاوست في محاولته الأولى هذه للظفر بهيلانة ، أي للظفر بالمثل الأعلى للجمال .

ما السبب في هذا الاخفاق ؟ يرى دونتسر (جـ٢ ص١٠٢ ـ ١٠٣) ان السبب هو أن فاوست أراد الحصول على المثل الأعلى للجمال بالعنف والعواطف الحارة والانفعالات المشبوبة ، بينما من ينشد ذلك ينبغي عليه أن يلتمس ذلك بالهدوء والتأمل والشعور الدفين العميق ، وبالحب المخلص المتفاني في خدمة المحبوب . ويؤيد هذا التفسير بأن هذا هو أيضا مغزى «بندورا» لجيته ، لكنه لم يتوسع في بيانه في «بندورا» لأنه على عزم أن يفعل ذلك في «فاوست» .

* * *

الفصل الثاني

١
مفستوفيلس وحامل البكالوريوس

تركنا فاوست صريع خيبة أمله في الظفر بهيلانة ، أي بالوصول الى المثل الأعلى للجمال . ثم انتشله مفستوفيلس من صرعته وحمله الى غرفة مكتبه القديمة ، فوجدها كما كانت على حالها العتيق ، اللهم إلا أن الزجاج الملون في النوافذ قد صار لونه كابيا من التراب ، والعناكب قد تكاثرت والحبر قد تجمد في المحبرة ، والورق أصفر . وما عدا ذلك بقي كل شيء على حاله .

ولايزال القلم الذي وقع به فاوست على عقده مع الشيطان كما هو ، بل ان في أعماق أنبوبة القلم قطرة دم متجمدة ، هي التي استلّها الشيطان من فاوست بخبث وحيلة . ومعطف الفراء العتيق لايزال معلقا على المسمار في الحائط .

ويغري معطف الفراء[١] مفستوفيلس بلبسه ليتخذ سمت الأستاذ ، كما فعل من قبل فينتزع المعطف من مكانه ، ثم يهزه لنفضه فاذا بصراصير وجعرانات وعثث تتطاير منه . وتتكون منها جوقة تحيي قدوم سيدها القديم ، وتقول انها تعرفه ، وها هي تأتي بالآلاف وهي ترقص ترحيبا به .

ويسر مفستوفيلس بهذه المخلوقات الصغيرة . فيهز المعطف مرة أخرى ، فتتطاير حشرات أخرى هنا وهناك . لقد اختبأت الحشرات في آلاف الأركان ، حيث صفت الصناديق

---

(١) يلاحظ أنه لم يرد ذكر لمعطف فراء فاوست ، في الجزء الأول . وكل ما ذكر هو «الروب» Robe الأسود الذي كان يلبسه الأساتذة في ألمانيا في القرن السادس عشر .

القديمة ، وفي البرشمان المسمار ، وفي قطع القدور العتيقة ، وفي ثقوب جماجم الموتى .

وبعد أن ارتدى معطف الأستاذية شد حبل الناقوس مناديا على التلاميذ ، فاهتزت الدهاليز وانفتحت الأبواب فجأة . واقترب تلميذ وهو يترنح في مشيه في الرواق الطويل . ويصف كيف ترنح السلم ، واهتز الجدار ، وتجلى بريق البروق من خلال النوافذ . وها هو ذا يبصر ماردا واقفا يلبس معطف فاوست . لكن نظرات هذا المارد وإشارته ترتعد لها فرائص التلميذ . فيفكر هل يهرب ، أو يبقى .

فيشير اليه مفستوفيلس بالاقتراب ، ويقول له : انك تدعى نيقوديموس[1] ، فيجيب التلميذ : هذا هو اسمي يا سيدي المبجل . ويقول انه مسرور لأنه (أي مفستوفيلس) يعرفه .

فيقول له مفستوفيلس : على رغم تقدم سنك فأنت لاتزال تلميذا . لكن العالم أيضا يستمر في الدراسة لأنه لا يستطيع أن يفعل غير ذلك ، لأن أكبر العقول لا يمكن أن يفرغ من التحصيل .

ثم يأخذ في الثناء على أستاذ هذا التلميذ ، وهو فجنر الذي كان تلميذا لفاوست ، قائلا ان فجنر قد صار أول علماء هذا العصر وهو الذي ينمي العلم في كل يوم . والطلاب المتلهفون للعلم يتجمعون حوله . ومثله مثل القديس بطرس ، هو يستعمل مفاتيح ، يفتح بها الأعلى والأسفل . ولم يعد يناقشه في الشهرة واللمعان أحد بل ان اسم فاوست قد علاه النسيان ، لأن فجنر وحده هو الذي اخترع اختراعات .

لكن التلميذ يعترض على هذا ، لأن فجنر متواضع جدا ، وهو في قلق دائم لاختفاء هذا الرجل العظيم فاوست ، ويدعوه بالعودة باستمرار . إن الغرفة لاتزال على عهدها منذ أن تركها فاوست .

فيسأل مفستوفيلس : وأين فجنر ؟ قدني اليه! أو آت به!

فيجيب التلميذ بأن فجنر منع منعاً باتا أن يزوره أحد ، لأنه منذ عدة أشهر مشغول بالعمل الكبير ، ولهذا يعيش في صمت تام . إنه وهو الرجل الرقيق يبدو وكما لو كان فحّاما :

فقد علاه السواد من الأنف حتى الأذن ، وعيناه محمرتان من نفخ النار .

ويذهب التلميذ ، ويجلس مفستوفيلس في سمت جاد ، واذا بحامل البكالوريوس يعدو

---

(١) نيقوديموس هو اسم الفريسي الذي جاء ليلا الى يسوع وتعلم منه أن انسانا جديدا سيولد ، كما ورد في انجيل يوحنا ٣ : ١ .

مسرعا في الممر وهذا الرجل هو التلميذ الذي عرفناه من قبل في «فاوست» الأول والذي جرى بينه وبين مفستوفيلس ذلك الحوار الشائق المليء بالسخرية . ومن هنا يقول مفستوفيلس انه يعرفه . «لكنه في هذه المرة صار من أحدث المحدثين ، وستتجاوز جسارة كل حد» . والمقصود بـ «المحدثين» أنصار مذهب فشته Fichte (راجع عنه كتابنا : «المثالية الألمانية» ، القاهرة سنة ١٩٦٥) . الذي قال بالأنا المطلق ، وأن كل ما هو موجود هو موجود في الأنا وبواسطة الأنا ، وهو من عمل العقل الواعي . وحامل البكالوريوس هذا مليء الشعور بذاته ، استنادا الى هذا المذهب . وهو يرى أن كل ما قيل ومايزال يقال من آراء ومذاهب قد عفى عليه وانهار ، شأنه شأن هذه الجدران ، التي تضم الأساتذة والطلاب وهو الآن قد تعرف المكان الذي تعلم فيه من قبل على أيدي فاوست ، كما تعرف أستاذه القديم بمعطف فرائه العتيق : «إنه لايزال جالسا بفرائه الأسمر ، تماما كما غادرته متدثرا بالصوف الخشن . وكان يبدو لي آنذاك بارعا طالما كنت لم أفهم ما يقول . أما اليوم ، فلن أنخدع بهذا» لقد صار الآن شخصا آخر ، متحررا من القيود الأكاديمية .

ويعلن مفستوفيلس عن سروره لرؤياه ، وعن اعتقاده أنه لم يكن يستهين بذكائه آنذاك ، فاليرقة تنبئ مقدما عن الفراشة المتعددة الألوان . ويقول له : يبدو عليك العزم والقدرة ، لكن لا تعد الى هذا البيت .

ويأخذ في السخرية من هذا الفتى المغرور ، شأنه شأن كل الشباب الذين شدوا بعض العلم فظنوا أنهم فاقوا أساتذتهم . لكن التجربة ستعلمهم خطأهم في غرورهم وادعائهم ، ويسأله مفستوفيلس منذ متى حصل ملء التجربة ؟

فيهزأ حامل البكالوريوس بالتجربة ويقول أنها زبد وتراب . إن ما عرفه الناس منذ قدم الأزمنة لا يستحق المعرفة .

وامعانا في السخرية يجيب فاوست بأن هذا هو أيضا رأيه : لقد كنت مجنونا ، والآن أجد نفسي تافها ساذجا .

فيفرح حامل البكالوريوس بهذا الاعتراف ، ويقول : إنك أول عجوز وجدته يتكلم كلاما معقولا . فيقول مفستوفيلس : كنت أبحث عن كنز من الذهب مخبأ ، لكني لم أجد الا فحما كئيبا .

فيزداد وقاحة حامل البكالوريوس ويقول له : اعترف بأن جمجمتك وصلعك لا يساويان أكثر مما تساوي هذه الجماجم الفارغة الماثلة هناك .

فيقول مفستوفيلس : لا شك أنك تعرف كم أنت جلف وقح ؟ فيجيب الآخر : في الألمانية ، من الكذب أن يكون المرء مؤدبا ـ ثم يستمر في التعاظم والوقاحة ، فيقول ان حياة الانسان تقوم بالدم ، وأين يضطرب الدم كما يضطرب في الشباب ؟ ان الدم الحار القوي هو الذي يخلق من الحياة حياة جديدة . بينما نحن الشباب فتحنا نصف العالم ، ماذا فعلتم أنتم أيها الشيوخ ؟ أملتم الرؤوس ، فكرتم حلمتم وأزنتم ، خطة بعد خطة ودائما خطة! ان من تجاوز سن الثلاثين صار شبه ميت . والأفضل القضاء على الشيوخ في الوقت المناسب .

فيقول مفستوفيلس انه ليس للشيطان كلام في هذا الموضوع ، فيرد حامل البكالوريوس : اذا أنا أردت ألا يوجد أي شيطان ، فلا يمكن أن يوجد أي شيطان .

ويبلغ الفتى حامل البكالوريوس قمة الغرور ، فيقول هذه هي أنبل مهام الشباب ، ان العالم لم يكن موجودا قبل أن أخلقه أنا وأنا الذي جعلت الشمس تصدر من البحر ، ومعي بدأ القمر مسيرة مراحله ، وهنالك أضاء النهار طرقي ، واخضرت الأرض ، وازهرت على لقائي . وبإشارة مني ، انتشر لألاء كل النجوم في الليلة الأولى . ومن غيري حرركم من كل أغلال الأفكار المتفيقهة المسببة للنضوب والتقلص ؟

انني حر ، بهذا أشعر في ذاتي ، وأتابع مبتهجا نوري الباطن ، وأسير في نشوة شخصية تامة ، الضوء أمامي ، والظلمات من ورائي ثم يخرج .

ويعلق مفستوفيلس على هذا الادعاء قائلا : أيها المأفون! اذهب مجللا بالرواء!

من ذا الذي فكر في شيء خطأ أو صوابا لم يسبق لأسلافنا أن فكروا فيه ؟ لكن لا خطر من هذا النوع من الناس : فبعد قليل من السنوات سيصير انسانا آخر . ولكي يفهم الشباب هذه الحقيقة فلينتظروا حتى يشيخوا .

* * *

وهذا المشهد بين مفستوفيلس وحامل البكالوريوس قد أجمع الباحثون على أن جيته قصد منه السخرية من فلسفة فشته ومن المثالية المتعالية[1] بعامة كما نمت في جامعة جينا Jena في الفترة من سنة ١٧٩٤ الى ١٧٩٩ ، وكما فتن بها الشباب آنذاك فامتلأوا غرورا بأنفسهم ، لأن هذه الفلسفة تقوم على توكيد الأنا ، ورد كل شيء اليه ، وحده هو الخالق للعالم .

---

(١) راجع عنها كتابنا : «المثالية الألمانية» ط١ القاهرة سنة ١٩٦٥ ، ط٢ ، بيروت سنة ١٩٧٩ .

وقد تطورت العلاقة بين جيته وفشته من النقيض الى النقيض فإنه لما عيّن فشته في سنة ١٧٩٤ خلفا لرينهولد ـ شارح كنت الشهير وأول من عمل على نشر فلسفته ـ توثقت العلاقة الحميمة بين جيته وفشته ، اذ اعتقد جيته أنه وجد فشته الفيلسوف الذي سيطامن من المثالية عند كنت ، ويعقد الصلح بين النقدية الكنتية وبين الواقعية ، ويؤمن التوازن بين الصور الذهنية وبين الظواهر الخارجية . ولما أرسل فشته اليه الملازم الأولى من كتابه «نظرية العلم» Wissenschaftslehre ، قرأها جيته وأبدى هذه الملاحظة لفشته : «أنا واثق أنك بتأسيسك ما قامت به الطبيعة في صمت تأسيسا علميا ، ستسدي الى الجنس البشري خدمة جلى ، وسيفيد منك كل مفكر وكل ذي شعور . وفيما يتعلق بي أنا ، فسأكون لك مدينا بأكبر الشكر اذا أنت أصلحت ذات البين بيني وبين الفلاسفة الذي لن أستغني عنهم أبدا ولكني لم أستطع التفاهم معهم .

وانما انتظر بشوق باقي كتابك لأصحح الكثير مما عندي أو أقويه ، كما أرجو اذا كان لديك متسع من الوقت الخالي من الأعمال الملحة ، أن أتحدث معك في موضوعات مختلفة . أؤجل تناولها حتى يتبين لي بوضوح كيف يتفق ما أريد القيام به مع ما نؤمل الظفر به منك» . (أورده دونتسر جـ٢ ص١١٠-١١١) .

لكن أمل جيته ضاع هباء! لأن فتشه تطور مذهبه الى المزيد من المثالية ، بل والى المثالية المطلقة التي لا ترى عارفا ولا فاعلا الا المطلق . فخاب أمل جيته فيه وصار عدوا لفلسفة فشته والمثالية المتعالية بعامة ، ورأى فيها مجرد أحلام مثالية لا تفيد في تفسير الطبيعة ، وهو ما كان جيته ينشده . ومن هنا كان هذا المشهد الذي سخر في جيته من مثالية فشته .

وفي الوقت نفسه أراد جيته من هذا المشهد أن يسخر بالشباب الألماني وغروره واندفاعه ودعاواه الفجة التي تسبب فيها مذهب المثالية المتعالية من ناحية ، وانتصار ألمانيا على نابليون من ناحية أخرى . ولهذا نجده يقول في حديثه مع اكرمن (جـ٢ ص١٥٢) إنه جسد في شخص حامل البكالوريوس الغرور الذي سيطر خصوصا على الشباب في السنوات الأولى التالية لحرب التحرير ، تحرير ألمانيا من غزو نابليون وسيطرته عليها .

٢
الانسان الصناعي

صنع انسان حي بواسطة عمليات كيميائية هو حلم قديم عند الكيماويين ، والصنعويين منهم بخاصة وممن قال بامكانه جابر بن حيان ، الكيميائي العربي الذي عاش في القرن الثاني للهجرة (الثامن الميلادي) ان صح ما زعم من اتصاله بالامام جعفر الصادق ، أو في القرن الثالث (التاسع الميلادي) على الأرجح . فقد قال «ان الطبيعة اذا وجدت للتكوين طريقا استغنت به عن آخر» ، أي أن من الممكن أن يولد الانسان عن غير طريق نطفة الرجل ورحم المرأة (راجع كتاب باول كرواس : جابر بن حيان ، جـ٢ ، القاهرة سنة ١٩٤٢ ، المعهد المصري) .

لكن أبرز الكيميائيين الذين اهتموا بخلق انسان صناعي هو برسلوس Paracelsus (١٤٩٣-١٥٤١) . وتكلم عن ذلك تفصيلا في كتابه بعنوان : «في تولد الأشياء الطبيعية De generatione rerum maturalium فقال : «لو وضع مني رجل في معوجة يحدث فيها أعلى درجات التعفن طوال أربعين يوما أو أكثر . فإنه يصير حيا ويضطرب . وبعد هذه المدة يصير شبيها بانسان ، ولكن بدون جسم . وبعد ذلك يغذى كل يوم بالوسيلة السرية للدم الانساني طوال أربعين أسبوعا . ويبقى في المعوجة في درجة حرارة ثابتة ـ ومن ثم يصبح طفلا انسانيا ، بكل أعضائه ، مثل أي طفل عادي يولد من امرأة ، لكنه يكون أصغر جدا في الحجم . ومن هذا الانسان الصغير الصناعي يتكون مع الزمن أناس ذوو معارف مستورة عجيبة تساوي في قواها وأفعالها الأرواح العنصرية . وبعد ذلك بواسطة الصنعة تحصل على حياتها ، وبواسطة الصنعة يكون لها جسم ، ولحم ، وساق ، ودم» .

وجيته قد درس مؤلفات برسلوس في الفترة ما بين سنة ١٧٦٨ و١٧٧١ .

وفي سنة ١٧٩١ ظهر كتاب بعنوان «بحث تاريخي نقدي في حياة وأعمال الدكتور يوهان فاوست المشهور بالسحر الأسود» وهو من تأليف كيلر Koeler وفيه يذكر «الإنسان الصناعي» الذي افتخر برسلوس بأنه صنعه بواسطة الصنعة السحرية والكيماوية ، والذي حال أتباع ـ مسمر Mesmer في باريس محاكاة صنعته ، وهو شكل انساني صغير له أعضاء قادرة على الحركة ، ويستطيع أن يحرك عينيه في وجهه بمهارة فائقة» . ـ ومن المرجح أن جيته قرأ كتاب كيلر هذا .

كـذلك رأى الفـيلسـوف الألمـاني يوهان يعـقـوب فـجنر Johann Jakob Wagner (١٧٧٤-١٨٤١) أن الكيـميـاء لابد ستنتج في صنع أجسـام عـضوية وفي تكوين انسـان بواسطة التبلر Krystallization وقد أحدث رأيه هذا ضجيجا واسعا في ألمانيا ، ولا بد أن جيته سمع به . ويرى دونتسر (جـ٢ ص١١٩) الذي ننقل عنه كل هذه المعلومات ـ ان جيته استعار اسم فجنر هذا لفجنر الذي سيقوم بتكوين انسـان صناعي صغير في المشهد الذي نتحدث عنه الآن من «فاوست» الثاني ، لأن فجنر الذي عرفناه تلميذا لفاوست في المشـهد الأول من فاوست الأول كان مجرد دارس للكتب القديمـة والمخطوطات وليست لديه أية نزعة للتجريب العلمي المبتكر كما هو الشأن في فجنر فاوست الثاني . وان اعترض على هذا بأنه ربما كان فجنر تلميذ فاوست قد أخذ ، بعد رحيل سيده ، في القيام بالتجارب التي كان يقوم بهـا أستاذه . ـ فان دونتسـر (جـ٢ ص١٢٠) يرد قائلا ان هذا التحول غير محتمل التصور . لكن الرد على رأي دونتسر هذا أبسط من ذلك بكثير ، وهو أن مفستوفيلس قد عاد الى غرفة فاوست القديمة ، وسأل عن فجنر القديم الذي عرفه من قبل ، أي فجنر تلميذ فاوست ، ولا أحد غيره . فما محل يوهان يعقوب فجنر هنا ، أو أي فجنر آخر غير تمليذ فاوست الأول ؟! نعم ، فجنر هذا الذي عرفناه في مستهل «فاوست» الأول تلميذا مخلصا لفاوست ، منكبا على كتب القدماء يرى فيها كل العلم التجريبي ، في غياب أستاذه . وها هو ذا يقوم بتجارب لتحضير انسان صغير بواسطة الكيمياء ، وقد أغلق على نفسه المعمل منذ عدة شهور ، وصار وجهه مثل فحام : أسود من الأذن حتى الأنف ، وعيناه حمراوان من لهب النار . ومفستوفيلس يريد أن يشترك معه ويعاونه في هذا المعمل العظيم . ولهذا حين يدخل المعمل يقول : «مرحبا! قصدي حسن» . ويجيب فجنر بتحية مماثلة لأن مفستوفيلس جاء في اللحظة المناسبة ، التي أوشك فيها تكوين انسان صغير صناعي على التحقيق : لقد انقشعت الظلمات ، وفي وسط القارورة اشتعال يشبه الفحم الحي ، وتنطلق خلال الظلام . ويظهر نور أبيض .

وحين يدخل مفستوفيلس ويسأل : ماذا هناك ؟ يجيبه فجنر : كائن بشري يتكون .

فيسخر مفستوفيلس قائلا : وأي زوج عاشق حبسته في الثقب ذي الدخان ؟ فيجيب فجنر شارحا الطريقة الجديدة للتوالد . قائلا ان الطريقة التقليدية في الانجاب ، وذلك عن طريق ذكر وأنثى ، صارت مجرد مزاح باطل . واذا كان الحيوان لايزال يلجأ اليها ، فجدير بالانسان ، بما لديه من ملكات عظيمة ، أن يتخذ طريقة أسمى وأصفى : نحن الآن نؤمل في تكوين الانسان عن طريق المزج بين مئات من المواد ، نضعها في معوجة فيحدث فيها

تفاعل في صمت يؤدي الى ميلاد انسان . «إن ما كنا نظنه سرا في الطبيعة ، قد تجاسرنا نحن على تجربته بطريقة عقلية ، وما كان قديما يتكون عضويا ، نحن الآن نجعله يتبلور» . ان المشروع العظيم يبدو في أول الأمر هوسا ، لكننا نريغ الى السخرية من الصدفة .

ثم يفحص فجنر ما في القارورة وهو في ذروة النشوة : ان الزجاج يرن بشدة حلوة ، ويحدث تعكر ثم صفاء ، اذن لا بد أن يتم التغير . اني أرى انسانا صغيرا لطيفا يتحرك حركات ظريفة .

وتكون المفاجأة العظمى : فمن القارورة يتحدث هذا الانسان الصغير الى فجنر ، أبي ، كيف الحال ؟ لم يكن ذلك مزاحا! تعال احتضنني بقلبك ، لكن برفق حتى لا ينكسر الزجاج . وتلك خاصة الأشياء : الكون لا يكاد يتسع لما هو طبيعي ، أما ما هو صناعي فيتطلب مكانا مغلقا . ثم يوجه هذا الانسان الصغير الكلام الى مفستوفيلس قائلا : «وأنت أيها الوغد ، يا سيدي وابن عمي ، أأنت ها هنا ؟ في اللحظة المناسبة ، فشكرا لك . ان قدرا حسنا قد أتى بك الينا . وما دمت أنا موجود فينبغي على أن أعمل . وأود أن أشمر عن ساعدي لأعمل ، وأنت كفيل بأن تقصر الطريق» .

ويشير مفستوفيلس الى باب جانبي قائلا : اظهر هنا عبقريتك! وينفتح الباب الجانبي فيشاهد فاوست ممددا على الفراش . فيشاهد الانسان الصناعي . وتقلب القارورة من يد فجنر وتحلق فوق فاوست وتلقي عليه ضوءا . ويصيح الانسان الصناعي : «ما أجمل ما أحاط به! مياه صافية في غابة كثيفة ، ونساء يتعرين ، آه ما أجملهن! وتتحسن الحال باستمرار . لكن من بينهن واحدة تتميز برداء ، انها من أسمى أجناس الأبطال ، لا شك أنها من جنس الآلهة» . ويستمر في هذه الأوصاف الجميلة لهذه الملكة . فلما يقول له مفستوفيلس أنه لا يرى شيئا من هذا ، يجيبه أنت من الشمال ، نشأت في عصر الضباب ، وفي عماء الفروسية والرهبانية ، فانّى لبصرك أن يكون حرا . انك لا تشعر بالراحة الا في الظلام . ويشير الى فاوست ، ويقول :

لو أن هذا استيقظ ، لأدى ذلك الى هم جديد ، وسيبقى ميتا في مكانه ، أن حمله كاد أن يكون بين الينابيع في الغابات ، وبين البلشونات والجميلات العاريات . فعليك أن تأخذ به بعيدا آه! أن الليلة هي ليلة فالبورج الكلاسيكية ، فخذه الى هناك .

ويدهش مفستوفيلس من قوله : «الكلاسيكية» ويقول أنه لم يسمع بها من قبل .

فيرد عليه الانسان الصناعي الصغير : انى لهذا أن يصل الى مسامعك (انك لا تعرف إلا الأشباح «الرومنتيكية») .

فيسأله مفستوفيلس : وما الطريقة اليها ؟ فيجيب الانسان الصناعي : ان وطنك المفضل هو الشمال الغربي ، أما هذه المرة فسنتجه نحو الجنوب الشرقي ـ وهو يقصد بلاد اليونان ـ حيث في سهل كبير يجري نهر بنايوس ، تحيط به في جونات هادئة خمائل وأشجار ، و سهل يمتد صوب الحلوق في الجبال ، وفي أعلى توجد فرسالا القديمة والحديثة .

ويعلن مفستوفيلس عن مشاعر الضيق بالرحيل الى هناك ، فليس ثم الا صراع الطغيان و عبودية . وهذا يبعث السأم في نفسي لأنه ما يكاد ينتهي حتى يعود جذعة ولا أحد منهم يدرك أن اسموديه من ورائه يرهقه . انهم فيما يقولون يتنازعون حول الحرية ، مع أنهم في حقيقة يتنازعون مع عبيد : «ان الشعب اليوناني لم يكن أبدا ذا قيمة كبيرة! انه يبهرك بانطلاق حواسه ، ويفتن صدر الانسان بخطايا بهيجة» .

فيعزيه الانسان بأن ثم ساحرات تساليات ، فيفرح بزيارتهن . ويقدم الى مفستوفيلس لمعطف الذي سيحمله الى بلاد اليونان ، وسيكون مرشده الذي يضيء الطريق هو هذا لانسان الصغير ، كما كانت اليراعة مرشدته هو وفاوست في ليلة فالبورج الآنفة الذكر .

ويسأله فجنر قلقا : وماذا يفعل هو ، أي فجنر ، فيجيب الانسان الصغير بأن على فجنر لبقاء لعمل شيء عظيم في البيت : يتصفح البرشامات القديمة ، ويجمع العناصر الحيوية ، وفقا لمواصفات .

ويرحل الانسان الصناعي ومفستوفيلس طائرين الى سهل فرسالا في بلاد اليونان حيث ليلة فالبورج الكلاسيكية .

٣
ليلة فالبورج

أ ـ سهل فرسالا

ليلة فالبورج الكلاسيكية هي من ابداع خيال جيته ولم يسبقه الى ذكرها أحد . وقد حددها جيته بالليلة السابقة مباشرة على معركة فرسالا . وفرسالا القديمة التي كانت أغنى وأقوى مدن تساليا . وفي شمالها يمتد حتى نهير أنيبيوس Enipeus (ويسمى الآن تشانرلي) السهل الذي جرت فيه ، في ٩ أغسطس سنة ٤٨ قبل الميلاد معركة حاسمة انتصر فيها يوليوس قيصر على بمبايوس Pompeius ، فكانت نقطة تحول كبرى في التاريخ الروماني . وقد ألف الشاعر الروماني لوكانوس ملحمة شعرية بعنوان : «فرسالا» حوالي سنة ٦٠ بعد الميلاد .

وتبدأ المشهد اريخو Erichtho ، الساحرة التسالية التي عدها أوفيد من بين الفوريات الطابع Furialis . وقد ذكر لوكانوس في ملحمة «فرساليا» أن سكستوس بومبايس سألها في اليوم السابق على المعركة ، عن مصير أبيه . وهي تقول انها تبغض الشعراء والغزاة : تبغض الشعراء لأنهم أساؤوا الى سمعتها ، وجعلوها بغيضة عند الناس ، وتبغض الغزاة لأنهم أفسدوا العالم لأنهم مولعون بحب السيطرة وبالحسد والتعاسة . فكل فاتح يحسد الآخر على سلطانه . انه لا يعرف كيف يحاكم نفسه ، وكذا يريغ الى حكم ارادة جاره . «لكن هنا انتصر مثال عظيم : كيف اعترضت الشدة شدة أكبر منها ، وكيف تمزق تاج الحرية ذو الألف زهرة ، واستدار حول رأس الظافر اكليل الغار الجاسي .» وهي تناجي يوليوس قيصر .

لكن يمر من فوقها مذنب غير متوقع ، يضيء كتلة حية ، تستشعر أنها حية . وهي لا تحب أن تقرب مما هو حي ، فلهذا تبتعد . وهذه الكتلة الحية هي : الانسان الصناعي . ومفستوفيلس وهو يحمل فاوست الذي لا يزال نائما .

ويشير الانسان الصناعي الى ارختو وهي تسير بخطى واسعة . ويطلب من مفستوفيلس أن يحط فاوست على الأرض وحينما يحط فاوست قدمه على الأرض يسأل : أين هي ؟ فيجيب الانسان الصناعي : لا ندري ، لكن من المحتمل أن تكون هنا . وفي وسعك أن تبحث عنها من شعلة الى أخرى ، ان من خاطر بالذهاب الى «الأمهات» لن يعز عليه شيء .

و«هي» التي ينشدها فاوست انما هي هيلانة التي تراءت له في الحلم . وهو الآن يشعر بأنه في بلادها ، في اليونان . انه يشعر أن حياة جديدة قد شاعت فيه . ولهذا عزم أن يستكشف «هذا التيه من الشعلات» . فراح يسعى .

أما مفستوفيلس فصار يتطلع حواليه ، فيجد نفسه في غير وطنه وان كل شيء عار : آباء الهول والتنانين! لكن لا عليه ان حياها جميعا . ويدور الحوار بينه وبين عنقاء مغرب Greif ثم بينه وبين النمل ، ثم مع الاريماسب ، ومع أبي الهول . انه تضايق خصوصا من الخنة التي في أصواتها . فحين يقترب من العنقاوات يخن أولها ويقول : هذا الكائن أنا أحبه ، والثاني يخن بصوت أعلى قائلا : ماذا يريد هذا منا ؟ وكلاهما يخن معا : هذا الوغد لا محل له هنا . وهكذا وقع مفستوفيلس في نزاع مع العنقاوات . ـ أما آباء الهول Sphinxe فالتعامل معهم أيسر وألطف ، لأنهم أسمى وأقرب الى بني الانسان انهم لا يخونون ، بل يرنون . وهم يسمحون لمفستوفيلس بالمقام بينهم ، لكنهم يعلمون أنه لن يستطيب هذا المقام . وآباء الهول فيهم حكمة ، ويحبون الألغاز ، لهذا يعرضون على مفستوفيلس لغزا ، ومضمون هذا اللغز هو مفستوفيلس نفسه . يقول له أبو الهول : «وضح حقيقة نفسك ، فهذه

عـ . دون أن تحلل نفسك بتعمق شديد : أنت ضروري للبار والفاسق ، ودرع لهذا كيما يـ .ـن تزهد ، ورفيق لذاك في مجونه ، وكلاهما معا لتسلية زيوس» .

ويـدع مـفسـتـوفـيلس آباء الهـول وشـأنهـا ، ويتـوجـه الى الحـوريات Sirenen اللواتي يحتـبنه . بينمـا آباء الهول يحذرونه قائلين : انهن يخبئن في الغصون مخالبهن التي هي مخالب الصقور ، من أجل أن يهاجمنه بضراوة ان القي اليهن السمع . لكنهن يصحن : سحقا للكراهية! سحقا للحسد! لنجمع أنصع المسرات المشتتة تحت السماء! ونقابل الضيف بوجه غاية في البشاشة ، فوق الماء أو على الأرض .

ثم يقترب فاوست ، مبديا اعجابه ، انه يستشعر مصيرا مواتيا . ثم يشير الى آباء الهول . فيقـول : أمام أمـثال هؤلاء ، تلوى أوليس في قيـود من التيل . ويـشير الى النمل ويقول : بأمثال هؤلاء ، جمع أغلى كنز . ثم يشير الى العنقاوات ويقول : بهؤلاء حرس الكنز بأمـانة ودون تهـاون . «اني أشعـر بالروح الجـديدة تسـري في داخلي ، الأشكال عظيمـة ، والذكريات عظيمة» .

وهنا يذكره مفستوفيلس بأنه كان قبل ذلك يزجر هذه الأشياء ، أما الآن فانه يرحب بها «فحيثما يبحث المرء عن المحبوبة ، فان المسوخ نفسها تكون موضوع ترحيب» .

ويخـاطب فـاوست آباء الهـول قـائلا : يا صـور النسـاء أجيـبيني : هل اهدت احداكن هيلانة ؟ فيجبن : نحن لا نصعد حتى ذلك البصر . وهرقل قتل الآخرين . وتستطيع أن تستطلع هذا من خيرون ، وهو يركض في ليلة الأرواح هذه .

وتعود الحوريات الى اغراء فاوست بالبقاء عندهن ، فان أوليس أقام فترة بينهن ، وهن سيكلن اليه كل شيء لو أراد أن يذهب مواطنهن بالقرب من البحر الأخضر . ثم يبتـعد فاوست .

ويتساءل مفستوفيلس عن تلك الطيور الشديدة السرعة المارة وهي تنعب . فيجيب أبو الهول : انها تشبه عواصف ريح الشتاء ، انها الاستـومفاليدات Stymphalides ، منقارها كمنقار الرخمة ، وقدمها كقدم الاوزة .

ويبدو مفستوفيلس كما لو كان خائفا ، فيسأل : ماذا يصفر هناك ؟ فيجيب أبو الهول : أما هذه لا تخف . انها رؤوس هيدرا لرنه Lerne ، فصلت عن الجذع ، وهي تظن نفسـها شيئا .

ومن ورائها تظهر جوقة من اللاميات Lamien ، وهي ليست فامبورات Vampyre بل هن كمـا قال أبو الهول : «بنات متفننات في اللذات ، ذوات ثغر باسم وجبين وضّاح» .

وهذه «اللاميات» هن الوحيدات بين شخوص الأساطير اليونانية ، التي تعجب مفستوفيلس ولهذا هو يهرع اليهن ، على أن يعود من جديد الى آباء الهول لأنهم وحدهم الذين يشرحون له ما يرى من شخوص أسطورية يونانية لم يألفها من قبل ، يعافها ولا يستريح اليها .

ب ـ على شاطئ بنايوس الأدنى

أما فاوست فقد ذهب الى الحوريات Sirenen على شاطئ بنايوس Peneios والمقصود هنا هو بنايوس تساليا لا بنايوس البلوبونيز . وبنايوس تساليا ينبع من جبل بندوس Pin-dos ، وبعد دخوله في سهل تساليا يتلقى عن شماله مياه سلسلة جبال خسيا Chasiaberg ثم يجري خلال أرض منخفضة عند جانوس Gannos ، ويمر بسهل تمبه Tempe ويصب في بحر ايجه . وكان يسمى في العصر الوسيط باسم : سلمبرياس Salambrias ولما استولت تركيا على اليونان أطلق الأتراك عليه اسم : كوستوم . وجيته يصور هذا النهر هنا بأنه محاط بالحوريات Nymphen .

ويقترب فاوست من النهر ، فيحس بأن وراء الخمائل يرن صوت كأنه صوت انسان . والموج يبدو كأنه يغمغم ، والنسيم العليل كأنه ملهاة . فتقول له الحوريات أن الأفضل له أن يتمدد ، وأن يروّح عن أعضائه المتعبة بهذا الجو المنعش ، وأنهن سيسهمن ويهدرن هدهدة له ، كي ينام .

فيقول فاوست : اني غير نائم ، ويأخذ في الاشادة بما يرى وكأنه حلم ، أو ذكريات : في المياه وهي تدب خلال طراوة الخمائل التي تهتز برفق ، والينابيع الوافدة من كل ناحية وهي تتجمع في المكان الصافي ، ونسوة شابات صحيحات الأبدان تعكسهن المرآة الرطبة . أي المياه وهن يستجمعن جماعات مبتهجات ، يسبحن بجسارة ، وفي النهاية صراخ ومصارعات مائية . وبلشونات تسبح خارج الجونات ، وهي تتحرك بجلال ناصع ، وهدوء ووقار وثقة بالنفس وخيلاء ، ورؤوسها ومناقيرها تتحرك وتتقدمها واحدة معتدة بنفسها . وتواصل السباحة بسرعة في وسطها ، وريشها منتفش ومنتفخ وهي تهرع الى المكان المقدس ، أما الأخريات فتسبحن هنا وهناك ، وريشهن يرف بهدوء ، وأحيانا تتصارع فيما بينها .

ثم يشعر فاوست كأن الأرض تهتز تحت فرس مسرع . ويتمنى أن يكون وراءه الخير . انه فارس يركض ويبدو أنه وافر العقل والشجاعة ، وهو يركب فرسا ناصع البياض . ثم يتعرفه ، انه ابن فيلور الشهير ، فيصيح : توقف يا خيرون! أريد أن أقول لك شيئا . فيجيب

خيرون . ماذا هناك ؟ فيقول فاوست : هدئ من سيرك! فيقول خيرون : اني لا أستريح . فيقول فاوست : خذني اذن معك . فيقول خيرون : اركب! الى أين تريد ؟ أنت هنا على شاطئ ، وأنا مستعد أن أعبر بك النهر .

ويصعد فاوست على الفرس ، وهو يقول : خذني الى أين تريد ، وسأدين لك بالشكر الى الأبد . أنت الرجل العظيم ، المربي النبيل الذي أنشأ جيلا من الأبطال ، وجماعة الأرجونوت النبلاء وكل أولئك الذين شيدوا عالم الشاعر . أنت الطبيب الذي يعرف اسم كل نبات ، ويعلم الأعشاب أدق علم ، ويجود بالصحة على المريض ، وبالراحة على الجريح .

فيقول خيرون : كنت اذا جرح بطل الى جواري ، سارعت اليه بالنجدة والنصيحة ، بيد أني في النهاية تركت صناعتي للباحثين عن الأعشاب ولرجال الدين .

وخيرون Khiron (أو في النقوش Kheiron) هو اله الصحة ، ومقامه في بليون Pelion . ويعد من القنطورات Kentauren ، لكنه يتميز عن سائرهم بالعدالة والرحمة والتقوى . (هوميروس : «الالياذة» ٤ :٢١٩ ، ١١ :٨٣٢) .

واسخولوس («بروميثوس» البيت رقم ١٠٢٧) وسوفكليس («الطروادیات» البيت رقم ٧١٤) ينعته بأنه اله . وكان مربيا وصديقا لعدد كبير من الأبطال اليونانيين ، وعلى رأسهم أخيلوس .

وكان يعلم الطب ، والصيد ، والعزف على القيثارة . وهو في الفنون يصور عادة مع بيليوس وأخيلوس .

ولأنه كان مربيا أو صديقا للكثير من أبطال اليونان ، فان فاوست يسأله عن هؤلاء الأبطال . فيخبره خيرون عن الأرجونت ، والديوسقوريين ، وياسون وأورفيه ولونقيوس ، ثم عن هرقل أجمل الرجال . لكن فاوست انما يمهد بذلك ليسأله السؤال الذي يهمه بخاصة ، أعني عن أجمل النساء فيقول خيرون ان جمال النساء لا يعني شيئا ، فهو في الغالب صورة جاسية . لكن هناك لطفا لا يقاوم عند بعض النساء ، مثل «هيلانة لما حملتها» . فيقول فاوست متعجبا : أنت حملتها ؟ فيجيب خيرون : نعم ، على ظهري هذا وقد أمسكت بي من شعري ، مثلما تفعل أنت الآن . فيزداد دهشة فاوست ويطلب اليه المزيد من الكلام عنها لأنها منيته الوحيدة ، ويسأله : من أي مكان حملها ؟ فيرد عليه خيرون بأن الديوسقوريين (كاستور وبلوكوس وهما اخواها) لما خلّصا أختهما (هيلانة) من أيدي مختطفيها ، عاد هؤلاء فطاردوا الأخوة الثلاثة (كاستور وبلوكوس وهيلانة) . لكن المستنقعات القريبة من الويسيس Eleusis أوقفت هربهم . فخاض الأخوان المستنقعات ، وسبحت أنا وعبرت بها ،

ونزلت الى الأرض وشكرتني . ما كان أجملها! كانت شابة! فيقول فاوست معلقا : كن عمرها سبع سنوات فقط .

فيعلق خيرون على كلامه قائلا : اني أرى أن الفيلولوجيين (علماء اللغات والآداب والتاريخ) قد خدعوك ، كما خدعوا أنفسهم . وهذا أيضا خاص بالمرأة في الأساطير . لأن الشاعر يصورها على النحو الذي يلائم غرضه : فيصفها بأنها دائما تحت الوصاية ، وأنها لا تشيخ أبدا ، وأن شكلها شهي دائما ، وانها اختطفت وهي شابة ، في السن التي تجعل منها هدفا للغزل .

ان الشاعر لا يقيده أي زمان .

فيقول فاوست : هيلانة أيضا لا يقيدها أي زمان! وأخيلوس عثر عليها في فيرس Pheres خارج كل زمان .

ذلك أن الأسطورة تروي أن أخيلوس نهض من العالم السفلي ، والتقى بهيلانة في جزيرة لويكا Leucke في البحر الأسود ، فتزوجا ، ومن الزواج ولد لهما ابن هو يوفوريون . فلم يحدث الشيء نفسه مع فاوست ؟! هذا هو حلم فاوست الآن .

وجيته هنا يشير الى الخلاف القديم حول السن التي فيها اختطف ثيسيوس Thereus هيلانة : فان دوريس Duris (توفي حوالي سنة ٢٨٠ ق .م) يروى أن سن هيلانة آنذاك كان سبع سنين ، بينما قال آخرون[١] ان سنها كان آنذاك عشر سنين . وجيته في القطعة الموسومة باسم «هيلانة» ينعتها بأنها غزال نحيل ذو عشر سنين . وكان الفيلولوجي جيتلنج Goettling قد دعا جيته الى تغيير «عشر سنين» الى سبع سنين ، لكن جيته عدل بعد ذلك عن هذه القراءة وعاد الى القراءة الأولى ، أي : سبع سنين[٢] . وهذا هو السبب في سخرية جيته من الفيلولوجيين هنا .

وأمام حماسة فاوست للقاء هيلانة ، يقول له خيرون أنه يبدو بين الأرواح مجنونا . ومن حسن حظ فاوست أن خيرون يمثل لبعض لحظات أمام مانتو Manto ، ابنة اسقلابيوس . وفي وسعها أن تشفي فاوست من جنونه بواسطة بعض الأعشاب .

فيرد فاوست بأنه لا يريد الشفاء ، لأن عقله قوي . ويسأل خيرون أين هما الآن ؟ فيجيب خيرون بأن : «ها هنا تحدت روما بلاد اليونان في القتال ، بنايوس عن يمين ، وجبل الأولمب عن يسار ، عند الجانب... الملك يهرب ، والمواطن ينتصر . أنظر الى أعلى!

---

(١) راجع ديورورس الصقلي ٤ :٦٣

(٢) راجع أحاديثه مع اكرمن جـ٢ ص٢٠١

عى مسافة قريبة من هنا يرتفع المعبد السرمدي ، على ضوء القمر . لقد صارا عند معبد مـنتو . وترحب مانتو بخيرون ، وتسأل عن الشخص الذي معه ، فيقول خيرون ان هذه الليلة ـسينة السمعة جاءت به الى هنا هن . انه يعيش في أوهام ، انه يريد الحصول على هيلانة ، ـكنه لا يعرف كيف ومن أين يبدأ ، انه في حاجة الى علاج من اسقلابيوس .

فتقول مانتو انها تحب من يشتاق الى المستحيل . وتدعو فاوست الى الدخول قائلة : ـ هذا الممر يؤدي الى برسفونيه ، وهي تترصد سرا سلامة ممنوعة . وأنا هربت أورفيت هـ . فاستفد من الفرصة المتاحة . هيا! تشجع! وينزلان الى العالم السفلي .

جـ ـ على شاطئ بنايوس الأعلى

ـما كان جيته في هذا المشهد سيسخر من مذهب «الفولكانية» Vulkanismus في جيولوجيا فعلينا أن نعرض هذا المذهب . ومضاده مذهب «النبتونية» Neptunismus . أما مذهب «النبتونية» فقد وضعه ابراهام جوتلوب فرنر Werner (١٧٥٠-١٨١٧) الجيولوجي ـروسي (الألماني) البارز ، الذي درس جيولوجيا اقليم ساكس ، وانتهى الى نظرية في تكوين عروق الصخر عرضها في سنة ١٧٩١ في بحث بعنوان : «نظرية جديدة في تكوين عروق الصخرية» . فوصف العديد من الصخور وحدد عمرها النسبي . وقال بثلاث مراحل ـطبقات الأرضية : أولية ، وسطى (انتقالية) ، وثانوية . وحاول تفسير كل تكوينات القشرة ـأرضية ابتداء من الماء . فقرر أن كل الصخور ذابت أولا في الماء ، ثم ترسبت . والبحر هو ـذي رسب ليس فقط الصخور ذات الطبقات والأحافير ، بل أيضا الجرانيت وكل الصخور ـبورية ، وهذه الأخيرة تكونت أولا ، بطريقة كيماوية ، وهي الصخور الأولية . وسلاسل ـجبال تكونت في البحر ، ثم انبثقت لما انحسر البحر في التجاويف الباطنية للكرة الأرضية . وهكذا يرى فرنر أن كل الصخور قد كونها البحر ، وليس للنشاط الباطن في داخل الكرة ـأرضية أي دور . كذلك يرى أن البازلت هو صخر ترسبي ، ووضعه الاوقيانوس الأولي الذي كـان يغطي الجبال العليا . أما الطفوح البركانية فهو يعزوها الى احتراق في باطن الأرض ـطبقات من الفحم . وسمي المذهب بـ«الفولكانية» نسبة الى فولكان ، اله النار .

وفي مقابل هذا المذهب كان مذهب جيمس هتون James Hutton (١٧٢٦-١٧٩٧) ـجيولوجي الاسكتلندي ، الذي عرض نظريته في كتابه «نظرية الأرض» (عرضه على ـجمعية الملكية في أدنبره سنة ١٧٨٥ وطبعه في سنة ١٧٩٥) . وفيه يحدد أولا طبيعة ومنشأ الصخور الترسبية ، فيقرر أن طبقات الميكا ، بل والجنيس Gneiss صخور قديمة جدا

ناشئة عن الترسب . وتصلب الرواسب انما تم بفضل الضغط المتزايد على الطبقات العميقة المعرّضة لنار مركزية . والثنايا تتجه من أسفل الى أعلى وتكون أشد كلما تناولت منحدر أقدم . وقسوتها تتناسب مع قوة تمدد الحرارة الصادرة عن النار الوسطى في قلب الكرة الأرضية . أما الصخور الطفحية ، وخصوصا الجرانيت ، فهي في نظره مواد صهرتها الحرارة وافلتت من أعماق المناطق المعدنية .

وقد انتصرت نظرية هتوت ، وتدعى «النبتونية» بفضل الكسندر فون هومبولت[1] (١٧٦٩-١٨٥٩) وليوبولد فون بوخ (١٧٧٤-١٨٥٣) Leopold von Buch وسميت النظرية بـ«النبتونية» نسبة الى نبتون ، اله البحر .

وجيته قد أولع بالجيولوجيا ، وصار من أنصار نظرية فرنر ، أي «الفولكانية» . وها هو ذا في «الاكسينيات» (سنة ١٧٩٦) يشيد بانتصار نظرية الفولكانية (الاكسينيات أرقام ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣) . وعلى الرغم من ازدياد أنصار مذهب «النبتونية» وخصوصا بعد أن أخذ به الكسندر فون هومبولت وليوبولد فون بوخ ، وايلي دي بومون Elie de Beaumont وهم أعلام الجيولوجيا في العشرينات من القرن التاسع عشر ، فقد ظل جيته متمسكا بمذهب «الفولكانيين» . وكانت نقطة انطلاق جيته في أبحاثه الجيولوجية من مناجم التعدين في المناو Ilmenau في سنة ١٧٧٦ وهو في السابعة والعشرين من عمره ، ثم قام بدراسات جيولوجية في غابة تورنج Wald Thurnger ، وفي جبال ساكس ، ثم سلسلة جبال الهارتس Harz ثم الفشتل Gebirye Fichtel ، وعلى وجه التخصيص في جبال بوهيميا بنواحي ايجر Eger وكالسبارد ومارينباد Marienbad .

ولا يستطيع المرء أن يفهم المشهد الذي نحن بصدده (الأبيات من ٧٤٩٥ حتى ٨٠٣٣) إلا على ضوء هذه المشكلة وتمسك جيته بمذهب النبتونيين وسخريته من مذهب الفولكانيين ، حتى أن هذه القطعة التي تستغرق ٥٣٨ بيتا من الشعر تعد بمثابة دراما ساخرة . ومن أجل عرض هذه الدراما حشد جيته هذه المجموعة العجيبة من الكائنات : الجريفونات والنمل ، الاسفنكسات والسيرنيات ، الأقزام والدكتولات Daktylen ، آباء قردان والكراكي ، مفستوفيلس واللاميات ، ثم الانسان الصناعي والفيلسوفين : طاليس ، وأنكساغورس .

ويبدأ المشهد على شاطئ بنايوس الأعلى بالحوريات (السرينات) وهن يدعين الى

---

(١) راجع كتابه .

خوض الماء ، وترديد الأغاني ، لأنه «لا نجاة بدون الماء» . لهذا هن يدعين الى الانتقال صوب بحر ايجه .

ويتلوهن الزلزال الذي يدعو الى العيد البحري حيث ترف الأمواج المهتزة وهي ترتطم بالشاطئ .

وفي الأعماق يزأر الزلزال وقد جعل منه جيته الها يدمدم في أعماق الأرض ، الها يدفع ويرفع . ويفخر بأنه هو الذي نظم الأرض وما عليها ، ولولاه لما كان هذا العالم الجميل : انى لجبالكم أن تشمخ هناك ، تحت زرقة الأثير الرائع ، لو لم أرفعها الى أعلى خلال العماء ؟! ـ وهو يعد نفسه من بين الطيطان ، الذين هم أجداد الآلهة ، أبناء أورانوس (السماء) وجايا (الأرض) ، الذين شيدوا الجبال ، ولعبوا الكرة مع بليون Pelion وأوسا Ossa وشيدوا عرش زيوس .

والزلزال هنا يمثل رأي الفولكانيين .

فيرد عليه آباء الهول (الاسفنكات) متضامنين : ما أقبح هذا الاهتزاز! ومع ذلك نحن لا نريم عن مكاننا ، حتى لو انفجر الجحيم . ثم يشيدون بـ «الشيخ» الذي شيد جزيرة ديلوس Delos ورفعها الى أعلى خارج الماء ، كرامة وحبا لامرأة جاءها المخاض . انه بجهوده وبسواعده المفتولة ، وظهره المنحني ، مثل أطلس رفع الأرض والمروج والتراب والحصباء والرمل والطين .

وتتدخل الجريفونات في الحوار ، قد شاهدت صفائح الذهب تلمع من خلال الشقوق في الصخور . فتهيب بالنمل أن يأتي لالتقاط كنوز الذهب هذه .

ويجتذب الذهب جماعات النمل ، كما يجتذب الأقزام ضد آباء قردان ، ليسلبوها أعرافها ، وتقتل آباء قردان . فتسرع الكراكي للانتقام لها ، الكراكي التي دلت على من قتلوا الشاعر اليوناني ابيقوس . و«كراكي ابيقوس» عنوان قصيدة جميلة لشلر .

* * *

وكنا قد تركنا مفستوفيلس بين اللاميات Lamien وقد رجا آباء الهول أن تبقى مكانها وتنتظر عودته . لكن جبلا قد صار يعوق بينه وبين الوصول الى آباء الهول ، فصار حائرا لا يدري كيف يتوجه . ولهذا صار يحن الى جبل البروكن حيث كان في وسطه الملائم ، وحيث يبقى كل شيء في مكانه : صخرة الزن ، ومرتفع هينرش ، والاشنارخر والالند Elend وليس أمامه الآن الا أن يمتع نفسه مع اللاميات : وهو يشعر بنفسه بين اللاميات مخدوعا ومفتونا معا . لقد سحرته اللاميات ، فأصبح يستمتع بصحبتهن .

وتقترب منه أقبح اللاميات ، وتدعى «امبوسا» Empusa ، ولها قدم واحدة ، وهي بنت هيكاتة Hekate ، وتتشفع اليه بالتشابه فيما بينهما : فان لها قدم حمار ، وهو له قدم فرس . وهكذا يجد مفستوفيلس حتى في بلاد اليونان ساحرات ، بعد أن كان يظن أنهن غير موجودات في بلاد اليونان . نعم ، من جبال الهارتس (في وسط ألمانيا) حتى هلاس (بلاد اليونان) ، وجد مفستوفيلس أبناء وبنات عم له . بيد أن امبوزا لها أيضا رأس حمار ، ومفستوفيلس لا يحب رأس الحمار!

وتجتذبه اللاميات الأخريات ، ويدعينه لاختبارهن . فيبدأ باختيار أجملهن ، حتى اذا ما عانقها ، وجدها مكنسة جاسية . ويختار ثانية ، فيجد وجهها غاية في القبح . ثم يمسك بصغراهن ، فتفلت من بين يديه كأنها حية ملساء . ويمسك بطويلة القد ، فيجدها تشبه جذع شجرة الصنوبر وأخيرا يمسك بسمينة قائلا ان «الشرقيين يدفعون لأمثالهن ثمنا غاليا» ـ لكنها تنكمش كالأنبوبة اذا ثقبت . ثم تتحول الباقيات الى خفافيش .

واللاميا Lamia هي في الأصل جنية مصاصة للدماء . والاعتقاد في وجود جنيات تمتص دماء الانسان وتلتهم قلبه اعتقاد واسع الانتشار في الأرض . وموجود عند اللاتين تحت اسم Lemures وفي الغالب يستعمل هذا الاسم «لاميا» للدلالة على اسم جنس من الأشباح . لكن يوجد أيضا أسماء لبعض اللاميات ، منها : سوباريس Sybaris ، ومورمو Mormo ، وجلو Gello وكركو Karko . ومقام اللاميات هو في أعماق الأرض ، وفي الغابات ، وفي الأخاديد والكهوف ، وأحيانا في الأبراج القديمة . وهن يتسمن خصوصا بالبشاعة والقبح حتى ضرب المثل ببشاعتهن . وفي الكوميديا اليونانية يوصفن بالتهتك وسوء السلوك (عند ارستوفانس Pax, 758) . وفي القرن الثاني بعد الميلاد ينتشر الاعتقاد عند الشعب اليوناني والروماني في وجود اللاميات . ويحدثنا فيلوستراس في كتابة عن «بلنياس الطواني» (٤ :٢٥ ، ٨ :٧ ، ٨) ان بليانس الطواني قد تعرف على فتاة جميلة من كورنتوس انها امبوزا أو لاميا ، كانت باسم الحب تفتن الشباب وتجتذبهم لتلتهم لحومهم وتمتص دماءهم .

* * *

وبعد هذا الحوار بين مفستوفيلس واللاميات يمضي مفستوفيلس في طريقه الى آباء الهول ، لكن الساحرات ترفعن جبلا يصده عن السير ، الساحرات التساليات (نسبة الى تساليا : اقليم في شمال اليونان) اللواتي هن أقوى من الساحرات الشماليات . ومن صخرة قريبة تناديه أورياس Oreas قائلة انه لن يستطيع تسلق هذا الجبل الذي ارتفع فجأة ، بل عليه أن يتجول في شعاب الصخور الوعرة ، ثم يشاهد عند حافة غابة سنديان ظاهرة مضيئة ،

فيحزر في الحال أنه لا بد أن يكون «الانسان الصناعي» . وها نحن نلقى «الانسان الصناعي» لأول مرة في بلاد اليونان .

ويشاهد مفستوفيلس في أحد الكهوف النماذج الأولية لكل أنواع القبح : «الجرايا» وهن نساء عجائز يولدن وشعورهن شيباء ، وهن أخوات الجورجونات ، وبنات بوركيس Porkys وكيتو Keto (يفريدو ، دينو ، انيو) ولهن جميعا معا عين واحدة وسن واحدة ، وهن الغاية في الدمامة والبشاعة : ومفستوفيلس يريد الانتساب الى هذه الأسرة ذات البشاعة الأولية . وبناء على نصيحتهن يتخذ شكلهن ، بأن يضغط على احدى عينيه ولا يرى من أسنانه الا سنا واحدة ، ويصيح : هأنذا صرت الابن المحبوب للعماء!

لكنه يجزع لأنه سيعامل الآن على أنه خنثى ، ويقول : أمام نواظر الجميع ينبغي أن أختبئ ، من أجل تخويف الشياطين في هاوية الجحيم .

وسنلتقي بمفستوفيلس في الفصل التالي (الثالث) على شكل فوركياس Phorkyas وهو ينتظر في قصر منلاس في اسبرطة مجيء هيلانة .

* * *

ونعود الى «الانسان الصناعي» وقد التقى به مفستوفيلس في غابة سنديان ، فصاح به : «الى أين ، أيها الرفيق الصغير ؟» فيرد «الانسان الصناعي» قائلا : اني أحلق طائرا من مكان الى مكان ، وأود أن أنشأ بالمعنى الأحسن ، وأن أكسر زجاجتي الى نصفين لأن صبري قد عيل ، انه يريد أن يتحقق في حياة طبيعية ، كأي انسان طبيعي .

هنالك يسمع فيلسوفين يتحدثان ويتجادلان عن «الطبيعة» و«نشأة كل الأشياء» . وأحدهما نبتوني المذهب ، وهو طاليس ، والثاني فولكاني المذهب وهو أنكساغورس ، فيصغي اليهما باهتمام شديد ، حتى يعرف الى أيهما ينبغي عليه أن يتوجه ، أي : برأي من منهما يجب أن يأخذ . ولهذا نراه يسير في صحبتهما ويستمع الى جدالهما .

وفي هذا الجدال نجد جيته يسخر من الفولكانيين في شخص انكساغورس . فحين يقول انكساغورس لطاليس : هل رأيت أبدا مثل هذا الجبل ينشأ من الطين في ليلة واحدة ؟ فيجيب طاليس : ان الطبيعة لا تحسب أبدا باليوم أو الليلة أو الساعة . فالطبيعة لا تعرف العنف . فيقول انكساغورس : لكن قوة الانفجار الهائلة تحرق القشرة الأرضية بحيث ينشأ جبل جديد في الحال . وينفتح الجبل سريعا بالمرميدونات اللواتي يسكن الشقوق في الصخور : الأقزام ، النمل ، البراغيث ، وسائر الحشرات النشيطة .

لكن شهابا يسقط من السماء فيقضي على كل هذه الكائنات . ويأسى «الانسان

الصناعي » لما حدث . فيطمئنه طاليس بأن هذا هو من نسج الخيال . وليرحل الآن الى الاحتفال البحري البهيج! فهناك الضيوف الممتازون ينتظرون ويكونون موضوعا للتشريف .

د ـ خلجان صخرية في بحر ايجه

وهكذا لم يحقق «الانسان الصناعي» الوجود الحقيقي الذي يصبو اليه . بل عليه في سبيل ذلك أن يمر بسلسلة من التحولات ، التي ليست مجرد تواليات ، بل هي نتيجة تطور عميق .

وها نحن أولا ، الآن في الخلجان الصخرية في مكان ما في بحر ايجه ، بالقرب من مصب نهر بنايوس . القمر في السمت مضيء يلقي بنور على المشهد الرائع الذي نحن بسبيل رؤياه ، لأننا في هذه الليلة القمراء التي يحتفل فيها سنويا بذكرى الليلة السابقة على نشوب معركة فرسالا بين يوليوس قيصر وبمباي . وها نحن نرى الحوريات (السيرينات) اللواتي التجأن الى شاطئ البحر عند بدء الزلزال ، نراهن هنا يغنين فوق الصخور . وفي غنائهن يرجين من القمر أن يظل هادئا في كبد السماء ، وأن ينير الموكب الذي سيطفو على الأمواج .

وبهذا الغناء العذب استطاعت الحوريات اجتذاب النيريديات Nereiden والتريتونات Tritonen . والتريتونات هم أبناء بوسيدون (اله البحر) من امفتريت Amphtrite وكانوا في الفنون التشكيلية يصورون على شكل أسماك أنصافها العليا أجسام بشرية . وبحسب بوسنياس Pausanias كان شعر رؤوسهم أخضر اللون ، وأجسامهم مغطاة بالفلوس الصلبة ، وتحت آذانهم أحزمة ، وأنوفهم أنوف بشرية ، وأشداقهم واسعة ، وأسنانهم أسنان حيوانات ، وعيونهم زرقاء ، وأياديهم مغطاة بالفلوس وكذلك أصابعهم وأظافرهم ، ولهم أذناب كأذناب الأسماك مثل الدلافين . ـ أما النيريديات فهن بنات نيريوس Nereus وأمهم دوريس ، ويمثلون في الفنون التشكيلية على شكل فتيات ملابسهن كانت أولا رفيعة ، ثم بعد ذلك يصورن عاريات ، وأجسامهن كثيرات الثنايا والالتواءات ، ومن النادر أن يكون لهن أذيال أسماك . وهن غالبا ما يظهرن بصحبة التريتونات . وجيته يصورهن على شكل أسماك تتحرك بنشاط في الماء .

ومن أجل تحول الانسان الصناعي الى انسان حقيقي أخذ طاليس هذا الانسان الصناعي الى نيريوس ، أبو النيريديات . ونيريوس هو ابن Pontos وأمه جايا Gaia . وأخوته وأخواته هم : ثوماس ، وفوركيس ، وكيتو ، ويوروبيا . وزوجته تدعى دوريس Doris وكان نيريوس

عند اليونان هو أقدم آلهة البحر ، فهو اذن أقدم من بوسيدون . وبناته هن النيريديات ، ويختلف عددهن بحسب المؤلفين .

فعند هيودس نجد ٥١ اسما ، وعند هوميروس ٣٣ ، وعند أبولودورس ٤٥ ، وجيته يمثله هنا بأنه شيخ عجوز ، جامد الرأس ، متقلب المزاج ، سوداوي ، كاره لبني الانسان . وهو أسدى الكثير من النصائح المفيدة للناس ، لكن عبثا ، لأن الانسان عنيد متصلب الرأي ، حتى لو أدى ذلك الى هلاكه . فهو مثلا قد حذر أوليس من سرسيه الغادرة ، ومن القوفلوفاس القساة ، وتكهن لباريس Pariss بخراب طروادة . ومع ذلك فانه لا يبخل على طاليس والانسان الصناعي بالنصيحة ، ونصيحته يعبر عنها في ثلاث كلمات : «امضي الى بروتيوس!» .

وبروتيوس Proteus شيخ من شيوخ البحر ، واله للبحر ، وكثيرا ما يخلط بينه وبين نيريوس . لكنه متميز منه بصفتين : بالقدرة على التنبؤ بالمستقبل ، وبالقدرة على تغيير شكله باستمرار . وهو مولع بما هو لامع براق مضيء ، ولهذا يرحب كثيرا بالانسان الصناعي . كذلك هو مولع بأحداث التأثير في الآخرين ، ولهذا يتكلم من جوفه ، ويريغ الى الادهاش والمفاجأة والخداع . وهو يوصف دائما بالحكمة والعدل والرحمة لكن الصفة البارزة التي ظلت مرتبطة باسمه هي : القدرة على تغيير شكله بسهولة . فبحسب هوميروس («الأوديسا» ٤ : (البيت رقم ٤٥٥ وما يليه) يتحول الى أسد ، وحية ، وببر ، أي الى أي حيوان يشاء ، والى ماء ، والى نار ، وبالفعل نجده (البيت رقم ٤٥٥ وما يليه) يتحول الى أسد ، وحية ، وببر ، وخنزير بري ، وماء ، وشجرة .

ويشرح طاليس لبروتيوس مشكلة الانسان الصناعي : انه يطلب النصيحة ، ذلك أنه يود أن يولد ولادة حقيقية ، لأنه ولد نصف ولادة ، انه لا تعوزه الصفات العظيمة ، وانما تنقصه الصلابة . حتى الآن ، الزجاج وحده هو الذي يهبه وزنا ، لكنه يريد أن يكون له جسم . ثم يهمس قائلا : ويبدو لي أنه خنثى .

فيجيب بروتيوس بأن الأمر ليس عسيرا ، ولا يحتاج الى تفكير طويل ، بل عليه أن يبدأ فورا النشوء في البحر الواسع : هناك يبدأ المرء صغيرا ويسره أن يبتلع الصغار ، ثم يكبر شيئا فشيئا ، ويتكون ابتغاء تحقيق غاية أسمى .

فيقول الانسان الصناعي : ان الهواء هنا ناعم جدا ، وتسري الرائحة هنا . فيرد بروتيوس قائلا ان الجو سيكون أفضل على لسان البحر الضيق ذاك ، تعال معي الى هناك .

ويمضي الثلاثة الى هناك .

* * *

٥

«الكبيرون» [١]

والرحلة البحرية تحتاج الى الآلهة الحافظة . لذا ذهبت النيريدات والتريتونات الى ساموثراقة Samothrace للاستعانة بهم . والآلهة الحافظة هم «الكبيرون» Die Kabiren .

وكان الفيلسوف شلنج (راجع كتابنا عنه : المثالية الألمانية : ١ : شلنج ، القاهرة سنة ١٩٦٥) قد القى في ١٢ أكتوبر سنة ١٨١٥ بمناسبة العيد الملكي - محاضرة عن «آلهة ساموثراقة» ، بين فيها أن هؤلاء الآلهة من أصل فينيقي ، وليس من أصل مصري كما ذهب الى ذلك اتسوئيجا Zoege وكرويتسر Kreutzer ، لأن هؤلاء الآلهة يسمون : «كبيري» أي الكبار ، وهي كلمة سامية الأصل ، وهم سلسلة من القوى الالهية الأولية : اكسيؤرس . اكسيوكرسا ، اكسيكرسوس ، كوميلوس = ديمتر ، برسفونيه ، ديونوسوس ، هرمس = سيرس ، بروسربينا ، باخوس ، مركريوس .

والقوى الالهية الأولى تعني السعي الى الماهية أو الاندفاع الى الوجود ، والثانية تعني : العالم المادي ، والثالثة تعني العالم الروحي ، والرابعة تعني الرابطة التي تجمع بين كلا العالمين .

والكبيرون هم آلهة السفر بالبحر ، وهم في عون البحارة . وهم قصار ، على شكل غصون ، ليكون من السهل وضعهم على مقدم السفينة .

والنيريديات والتريتونات يأتون بالكبيرين محمولين على ترسة سلحفاة في موكب يبدأ من ساموثراقة . فتحييها الجنيات . وعدد «الكبيرين» في الأصل سبعة ، لكن من يأتون الآن ثلاثة فقط ، وينقصهم الرابع الذي يربط بينهم . ولما كان عدد «الكبيرين» سبعة ، فان الحوريات يسألن : وأين تخلف الثلاثة الآخرون ؟

وجيته قد قرأ بحث شلنج عن «آلهة ساموثراقة» ، في سنة ١٨١٥ . كذلك ظهرت أبحاث أخرى عن «الكبيرين» ، منها بحث كتبه فلكر Welcker بعنوان : الثلاث الايجي

---

(١) في النصوص اليونانية يكتب المفرد هكذا Kabeiros والجمع Kabeiroi وكان اسكاليجيه Scaliger أول من رد هذا الاسم الى أصل سامي هو : كبير (= «كبير» في العربية والعبرية والفينيقية الخ) . ثم جاء فاكر ناجل ولوبك في أوائل القرن التاسع عشر ورفضا هذا الرأي ، وأرجعا الاسم الى أصل هندي . ثم جاء فلكر Welcker وغيره فردوه الى أصل يوناني . وتوالى الجدل حتى الآن دون الوصول الى رأي حاسم . راجع مقالا في دائرة معارف باولي فيسوفا (جـ١٠ ق٢ عمود ١٣٩٩-١٤٠١) .

بروميثيوس ونقديس الكبيرين في جزيرة لمنوس» (سنة ١٨٢٤) . لكن يبدو أن جيته لم يقرأه . وفي مقابل ذلك فان من المرجح أنه قرأ بحث لوبك Lobeck بعنوان Aglaophamus في نفس الموضوع .

لندع الفيلولوجيين في منازعاتهم التي لن تنتهي أبدا ، ولننظر في موكب النيريديات والتريتونات وهن يحملن على ترسة السلحفاة خيلونيه Chelonnee هؤلاء «الكبيرين» ، وهن يقلن : نحن جئنا بالكثيرين من أجل اقامة احتفال هادئ ، لأنهم حيث يحكمون ، يتصرف نبتون برقة ورحمة .

وتسألهن الحوريات ، وهن أتين بثلاثة من «الكبيرين» فقط ولم يشأ الرابع المجيء : وأين الثلاثة الآخرون ؟ فيجيب التريديات والتريتنات بأنهن لا يعلمن أين هم ، لا بد أنهم في الأولمب . ويهنئن الحوريات على هذا العمل العظيم : فان كان الأبطال القدماء قد جاءوا بالضفيرة الذهبية (اشارة الى ما فعله الارجونوت) ، فان هؤلاء النيريديات والتريتونات قد جاءوا بالكبيرين .

وفي هذا كله يسخر جيته من منازعات الفيلولجيين والباحثين في الأساطير حول اشتقاق سم «الكبيرين» ، وعددهم ، وحقيقتهم بل يسخر منهم أيضا على لسان طاليس حين يقول :

«هذا ما يريدون : فان الصدأ هو وحده الذي يجعل للعملة قيمة» ـ اشارة الى تعلق الاثريين بما هو صدئ متهدم ، لا بما هو سليم .

٦
التلخينات

ويفتتح الموكب تلخينات رودس وهم جالسون على الهبوكامبات[١] Hippokampen وتنانين البحر وفي أيديهم يحملون ذات الأسنان الثلاث ، رمز إله البحر نبتون .

والتلخينات هم أول عمال المعادن ، وهم يصنعون الحديد والصلب ، وقد صنعوا لخرولوس سكينا ، ولبوسيدون (نبتون ، آله البحر) ذي الأسنان الثلاث ، وصبوا أول تماثيل للآلهة . وكانوا يعدون أيضا من السحرة . وبالجملة فان التلخينات Telkhines هم الجن

(١) أفراس لها ذيول أسماك .

الموكلون بصناعة المعادن ، وهم سحرة ، وهم كائنات بحرية . ويرد في الأساطير أنهم كانو يقيمون في جزيرة رودس وجزر أخرى وسواحل البحر . ويذكر من اسمائهم : أكتايوس ، ميجاكسيوس ، وأورمينوس ، ولوكوس . وكان من المظنون سابقا أنهم شعب قديم (في رأي Lobeck) أو نقابة صناع (في رأي Welker وفنكلمن Winckelmann) . أما الآن فيعدون آلهة قديمة انحدروا فيما بعد الى مرتبة الجن . وخاصيتهم الرئيسية هي المهارة في صناعة المعادن . وليس من شك الآن في أن مقامهم الرئيسي هو في جزيرة رودس . بل ذهب Blin-kenberg الى القول بأن مقامهم الوحيد كان في جزيرة رودس . لكن لدينا الوثائق والاشارات التي تدل على أنهم أقاموا أيضا في جزيرة خيوس ، وفي جزيرة كريت .

وجيته يجعل التلخينات يعبدون اله الشمس ، وهو الاله المعبود خصوصا في رودس . وينسب اليهم أنهم هم الذين صنعوا التمثال الضخم لاله الشمس في رودس ، وهو التمثال الذي صنعه خارس Chares الذي من لندوس Lindos في المدة ما بين سنة ٢٩٢ ـ ٢٨٠ قبل الميلاد . وجيته في هذا يناقض أقوال الشاعر بندار Pindar .

وفي المشهد الذي نحن بصدده ، تعبر الجوقة أولا عن افتخار التلخينات بأنهم هم الذين صنعوا صولجان نبتون ذا الأسنان الثلاث ، والذي به يهدئ اله البحر اعتى الأمواج الهائجة . لكنهم جاءوا الآن للمشاركة في هذا الاحتفال بهدوء .

فتحييهم الحوريات بوصف التلخينات مكرسون لاله الشمس ، ومباركون من النهار المضيء ، وفي الوقت نفسه يحيون القمر ، أخا الشمس .

لكن التلخينات يريغون الى تمجيد إلههم ، الشمس ، التي تلقي بشعاعها علينا ، فتصير الجبال والمدن والشواطئ والأمواج بهيجة للعيون ، ولا يبقى أي ضباب ، وتصبح جزيرة رودس طاهرة صافية . هناك يتأمل الإله الشمس نفسه في مئات المخلوقات : وهو شاب ، وهو مارد ، وهو كبير ، وهو رحيم . ثم يتباهون بأنهم كانوا أول من صوروا الآلهة بصور انسانية ملائمة .

فيهزأ منهم بردنيوس قائلا ان أعمالهم هذه ليست شيئا اذا ما قورنت بأشعة الشمس الزاهية للحياة . ويكفي زلزال لتدمير ما صنعوه . ان الاضطراب على الأرض ليس الا عذابا ، والبحر أكثر فائدة : ان بروتيوس على شكل دلفين ماء يحملك على الموج الأزلي . ويتحول بروتيوس الى دلفين ، ويدعو «الانسان الصناعي» ليركب عليه . ويشجع طاليس «الانسان الصناعي» على ذلك قائلا له : نفذ هذا الطلب الحميد لاستئناف الخلق! كن متأهبا لعمل سريع! هناك تحول متخذا عدة أشكال حتى تصير انسانا حقا .

ويصعد «الانسان الصناعي» على ظهر بروتيوس الذي صار دلفينا ، لكن بروتيوس يحذره الا يتطلع الى المراتب العالية والتي فوق الانسان ، وحسبه أن يصير انسانا فحسب .

ورأي طاليس هنا هو رأي جيته ، الذي كان يرى أن التطور يبدأ من الماء الى الحيوانات الرخوية ثم الى المتعددة الأرجل Polypen وهكذا حتى الى الانسان . ولما كان الانسان هو اعلى درجات التطور ، فان بروتيوس ينصح «الانسان الصناعي» الا يتطلع الى ما فوق ذلك . غير أن طاليس يعقب على ذلك بأن في وسعه أن يصير رجلا عظيما في عصره .

وبعد ذلك تعلن الحوريات عن العلامات الدالة على مجيء الدوريدات Doriden . لقد لاحظن أن حول القمر حلقة من الغيوم الصغيرة ، فحسبن أنها حمامات مشبوبة بالغرام ، وأجنحتها بيض كالضياء ، وأن بافوس ، المدينة التي تعنى بتربية الحمامات المقدسة في معبد الالهة أفروديت ـ قد أرسلتها لأجل هذا الاحتفال . وهذه الحمامات انما هي طلائع تعلن عن وصول جلاتيه Galatee بدلا من أفروديت .

ويوافق نيريوس على حزر الحوريات ، ويقول لطاليس ان هذه الحلقة قد تبدو للمسافر العابر على أنها ظاهرة جوية فحسب ، كما فسرها كذلك أرسطو طاليس ، لكن الأرواح تعلم أن هذه إنما هي حمامات تصحب بنت نيريوس في رحلتها وهي في محارة . وهنا يلاحظ طاليس أنه لا يعجبه نزوع البعض الى تفسير كل الظواهر العجيبة تفسيرا طبيعيا دون تلمس أمر الهي فيها .

وعلى ثيران وعجول وكباش بحرية يقدم البسولون Psyllen والمارسون Marsen ، وأحدهما شعب ايطالي ، والآخر شعب ليبي (افريقي) ، اشتهروا باخراج الثعابين من جحورها ، واليهم أشار بلنيوس في كتابه : «التاريخ الطبيعي» (٨ : ٢) . وهم يتباهون هنا بأنهم يحرسون عربة قوبريس Cypris وها هم الآن جاءوا بأجمل فتاة ، وهي جلاتيه Galatee ، الخالدة خلود الآلهة ، ولكنها لطيفة مثل النساء الآدميات الرقيقات .

وتمر الدوريدات أمام نيريوس راكبات على دلافين ، ومعهن شبان قد أنقذنهم من الأمواج العاتية وأرقدنهم على اليراع والطحالب ، وأعدن اليهم الحياة . وها هن يقدمنهم الى نيريوس أزواجا أعزاء لهن .

فيحمد لهن نيريوس هذا الصنيع المزدوج الفائدة : ففيه احسان ، وفيه استمتاع في الوقت نفسه .

فيتوسلن الى نيريوس أن يجعلهن خالدات يعانقن صدور الدوريد أبدا . لكن نيريوس يعتذر بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ، لأن هذا من اختصاص زيوس وحده .

فتتوجه الدوريدات الى الفتية قائلات : أنتم أعزاء علينا ، وكنا نود أن تبقوا معنا أبدا . لكن الالهة لا تريد ذلك .

وتتقدم جلاتيا على المحارة البحرية ، فيحييها نيريوس ، ويحييها طاليس قائلا :

كل شيء ينشأ عن الماء! وكل شيء انما يبقى بالماء! أيها المحيط! هب لنا حكمك الى الأبد! لو لم ترسل السحب وتوزع الأنهار ، فماذا كانت ستكون الجبال والسهول بل والعالم كله انك أنت الذي تقيم الحياة الناضرة . ـ ويردد الصدى . منك تنبثق أنضر حياة .

ويشعر «الانسان الصناعي» بأن كل شيء في الماء رائع الجمال . ويقول بروتيوس ان مصباح «الانسان الصناعي» يرف في رواء وجلال . ويمجد نيريوس ما يرى حول محارة جلاتيا من بهاء ونور . فيقول طاليس انه «الانسان الصناعي» وقد فتنه بروتيوس ، انها أعراض الطموح المتسامي . انه سينكسر مرتطما بالعرش الباهر ، وها هو ذا اشتعال ، وها هي ذي عروق ، لقد انتشر النور .

ذلك أن الزجاجة التي فيها «الانسان الصناعي» قد ارتطمت بالمحارة التي فيها جلاتيا . فانكسرت . وترتب على ذلك منظر عجيب وصفته الحوريات فقالت : أي معجزة للنار غيرت الأمواج اللامعة! ثم التماع واضاءة نحو الأعلى : ان الأجسام اشتعلت على الطريق الليلي ومن حولها سالت النار . وهكذا فليحكم ايروس Eros الذي صنع كل شيء . سلام على البحر! سلام على الأمواج المغطاة بالنار المقدسة! سلام على الماء! سلام على النار!

ثم يهتف الجميع معا : سلام على الرياح المواتية! سلام على الكهوف المليئة بالأسرار! كوني ممجدة جميعا ، أيتها العناصر الأربعة .

وهكذا ينتهي جيته الى التوفيق بين النبتونيين والفولكانيين ، بين القائلين بأن الماء هو أصل كل شيء ، وبين القائلين بأن النار هي الأصل في تكوين تضاريس الأرض . ماذا أقول! بل ينتهي الى المصالحة بين العناصر الأربعة كلها : الماء والنار والتراب والهواء .

وبهذه المصالحة بين العناصر الأربعة تنتهي ليلة فالبورج الكلاسيكية .

وهنا أيضا نهاية «الانسان الصناعي» .

* * *

وعلينا الآن أن نتساءل : ما مغزى هذا «الانسان الصناعي» ؟

اختلف النقاد في تفسيره أيما اختلاف :

ـ فرأى فيسه Weisse ان «الانسان الصناعي» هو تجسد طموح فاوست الى خلق روحانية جديدة .

ـ ورأى اشرور Schroer وبيلشـوفسكي Bielschowsky انه يرمز الى النزعة الانسانية
ــ ننة عن الفيلولوجيا والتحصيل التاريخي .

ـ ورأى اشتنجه Schnetge وفالنتين Valentin ان ايجاده هو استهلال لتقديم هيلانة ،
وهو بمثابة الجرثومة التي ستنبثق منها هيلانة حين ترد الى الحياة كما راغ فاوست .

ـ وعده دونتسر تجسدا لنزوع الانسان نحو الجمال الكامل .

ـ ورأى فيه كارو Caro حنين الطبيعة الى الوجود .

ـ ووجد فيه عدد كبير من النقاد محاولة بطولية ولكنها مستحيلة ، لايجاد انسان أعلى من الانسان الطبيعي . ومن أبرز هؤلاء جوندولف Gundolf ، الذي قال عن هذا الانسان صناعي : «انه يصبو الى الوجود من خلال كل العناصر ، وكل ممالك الطبيعة ، وينزع الى ولادة واتخاذ جسم ، والى أن يكمل الفكرة المجردة عن الانسان بإعطائه لحما ودما وجنسا ، ومادة وامتداداً . لكن مصيره المحترم ، وهو مجرد تصور ذهني بدون حياة حقيقية ، كاد أن يزول لدى اتصاله بقوة الحب (الايروس) الذي هو خالق كل حياة ، وكل صورة ، وكل جسم ، وكل وجود . انه يندفع بشدة اليه وهو كامل الشعور بما يفعل ، لكن كمن معرفة لا تكفي لتحصيل الوجود الفعلي ، ولا يمكن معرفة قوانين الخلق أن تؤدي وحدها الى ايجاد انسان ، والى الصيرورة انسانا . ان الانتاج المحض للعقل محكوم عليه ، بفضل الحكمة المطلقة نفسها ، أن يتحطم عند اللقاء بالواقع الأعلى .

* * *

الفصل الثالث

مأساة هيلانة

١
أمام قصر منلاوس

عناية جيته بموضوع «هيلانه» عناية قديمة ، ترجع الى العام الأول من القرن التاسع عشر ، لأنه كان يرى فيها أعلى ثمرة للفن الكلاسيكي مع الفن الرومنتيكي لكنه ما لبث أن انصرف عنها الى كتابة «البنت الطبيعية» والى اتمام «فاوست» الأول .

انما استأنف العمل في «هيلانه» في سنة ١٨٢٥ . اذ قال في رسالة الى ريمر بتاريخ ٢٥ مارس سنة ١٨٢٥ أنه لن يستطيع أن يستقبل ريمر ، وانما يبعث بدلا من ذلك قسما من «هيلانه» لتنوب عنه . ثم استمر يعمل فيها بحماسة في الشتاء التالي سنة ١٨٢٥ ـ سنة ١٨٢٦ حتى أتمها في الأشهر الأولى من عام ١٨٢٦ ثم أرسلها الى المطبعة في نهاية شهر يناير سنة ١٨٢٧ ، وتم طبعها في خلال شهرين . وظهرت ضمن المجلد الرابع من مجموع مؤلفاته تحت عنوان : «هيلانة» مسرحية خيالية Phantasmagorie كلاسيكية رومنتيكية ، فصل من فاوست ، وقال جيته عن علاقة هيلانة بفاوست ما يلي : «ان شخصية فاوست في ذروتها ، التي يمكن استخلاصها من المادة الغليظة الواردة في الكتاب الشعبي ـ «تمثل انسانا لا يصبر على الاطار الضيق للحياة الأرضية ويسعى الى امتلاك المعرفة العليا ، والى الاستمتاع بأجمل الخيرات ، ولا يستطيع أن يحقق أمانيه ولو في أقل مستوى لها ، وروحا تتلفت في كل ناحية وهي في قلق بالغ . وهذا الشعور مشابه للروح الحديثة الى حد أن الكثير من الرؤوس وجدت نفسها مرغمة على التماس حل لهذه المهمة . والطريقة التي اتبعتها في هذا الشأن وجدت القبول ، وفكر أناس ممتازون في

صنعي هذا وفسروا النص الذي كتبته ، وأنا مدين لهم بالشكر . لكنني دهشت لأن أولئك الذين حاولوا القيام بإكمال «للشذرة» التي كتبتها لم يصلوا الى أفكار مقاربة ، لهذا فإن من الضروري تأليف جزء ثان يرتفع عن المجال البائس الذي اقتصر عليه حتى الآن . ويصور انسانا في مناطق عليا وفي ظروف ملائمة لذلك... لهذا قررت أن أهيء مكانا مناسبا في القسم الثاني من فاوست لهذه الدراما «هيلانة» الصغيرة... لكن الهوة بين النهاية الأليمة للقسم الأول (من فاوست) وبين مجيء بطلة يونانية ـ لا تزال قائمة... والأسطورة القديمة تقول ، ومسرحية العرائس تقدم في مشهد أن فاوست ، في نوبة استكبار ، وقد طلب من مفستوفيلس أن يأتيه من بلاد اليونان بهيلانة الجميلة وأن هذا قد حقق له ذلك بعد تمنع . فكان من واجبي الا أغفل هذا المعنى المهم في عرضي (لمأساة فاوست) . لكن مشكلة احضار هيلانة الحقيقية بنفسها من العالم السفلي الى الحياة الدنيا ـ كانت عسيرة المتناول . وحسبنا أن يستطيع أن تظهر هيلانة الحقيقية أمام مسكنها الأصلي في اسبرطة . وعلى المرء أن يلاحظ بعد ذلك الكيفية التي بها ينبغي على فاوست أن يعمل على اكتساب رضا هذا الجمال الملكي الذائع الشهرة في العالم . «النصف الأول من المجلد السادس من الفن والقدماء « Und Altercum Kunst » .

لكن ليتم التلاقي بين ما هو كلاسيكي وما هو رومنتيكي ، كان لا بد لهيلانة أن تظهر بكامل هيئتها اليونانية الكلاسيكية ، وكان على فاوست أن يظهر بكامل هيئته الرومنتيكية الجرمانية ، أعني على هيئة فارس مغوار من الفرسان التيوتونيين .

* * *

وفي المشهد الذي نحن بصدده نجد هيلانة أمام قصر منلاوس في اسبرطة . ومعها جوقة من الطرواديات الأسيرات . وهيلانة هنا هي الشبح الحقيقي لملكة اسبرطة ، وقد ردتها الى الحياة برسفونية Persephone بناء على رجاء فاوست ، حتى يلتقي فاوست بها .

وعلى رأس هؤلاء الأسيرات بنتاليس Panthalis ، وهو اسم قد أخذه جيته عن لوحة كبيرة رسمها بولجنوت Polygnot ، الرسام اليوناني ، وتوجد في دلف ، وفي هذه اللوحة تظهر هيلانة قبل الرحيل من طروادة ، بصحبة خادمتين هما بنتاليس والكترا ، والأولى منهما تقف ساكنة الى جوارها ، بينما الثانية تربط حذاء لها .

وهيلانة في المشهد تظهر في كل أبهة ملكة قديمة ، مملوءة بالنبالة ، شاعرة بمكانتها ، بينما الكورس يعبر عن الرغبة الحسية في الحياة . والجوقة وان أقرت بفضل هيلانة عليها ، فانها غير مستعدة للتضحية بنفسها من أجل هيلانة ، كما انها فيما بعد لا

تتبع سيدتها في العودة الى العالم السفلي ، وانما تنحل في العناصر الألى «لأن من لم يكتسب اسما ، ولا يريد نبالة ، انما ينتسب الى العناصر» .

وهذا القصر الذي أمامه تقف هيلانة والأسيرات كان قصر أبيها تونداريوس Tyndareos وكان هذا قد أمر ببنائه لما رجع من أثينا . وهنا نشأت هيلانة مع أختها قلوطمنسترة وأخويها كاستور ويوتودويكس (بولكس) . وعند بوابة هذا القصر تلقاها منلاوس لما أن تخذها زوجة له .

وها هي ذي قد عادت مع منلاوس من طروادة بعد أن انتصر على أهل طروادة ، واسترد زوجته هيلانة التي كان باريس ، البطل الطروادي ، قد اختطفها وحملها الى طروادة . ولكن منلاوس طلب اليها ، بعد نزولهما في أرض اسبرطة ، تسبقه الى القصر لتتولى ترتيبه الى حين مجيئه . والشاعر يورفيدس في مسرحية «أورست» (البيت رقم ٥٦ وما يتلوه) يقول ن منلاوس أرسل هيلانة ليلا الى قصره ، حتى لا يرحمها اليونانيون لو شاهدوها نهارا بسبب غضبهم عليها .

لكن هيلانة هنا تبدو بخلاف ما في الأسطورة اليونانية : اذ تبدو بريئة ، قد اختطفت بالقوة ، لا عن رضا منها . ولهذا تظهر هنا كزوجة جليلة ، لا كامرأة ضعيفة خائرة لا شرف لها . وهذا يجعلها أجدر بأن يتطلع اليها فاوست في طموحه الى المثل الأعلى للجمال . بيد أنها لا تعلم هل عاد بها زوجها كزوجة أو كأسيرة بعد أن استولى على طروادة وفيها هيلانة . والشكوك تمزق قلبها لأن منلاوس ، طوال رحلة العودة من طروادة الى بلاد اليونان ، لم ينظر اليها الا نادرا ، ولم يلاطفها بأية كلمة رقيقة بل كان يجلس قبالتها كما لو كان يضمر لها شرا . ولما انحدرت السفن في نهر ايروطاس الذي يصب في خليج بحر لافونيا ، أرسلها ومعها الخادمات من شاطئ البحر الى اسبرطة قائلا لها : أما أنت فاستمري قدما وصعدي باستمرار في شاطئ ايروطاس الخصب ، حتى تصل الى السهل الخصب المحاط بجبال قاسية وفيه بنيت اسبرطة . وادخلي بعد ذلك البيت الملكي ذي الابراج العالية . واستعرضي الخادمات اللواتي تركتهن هناك ومعهن ربة البيت العجوز الذكية . وعلى هذه أن تريك مجموعة الكنوز الفريدة التي تركها أبوك بعد وفاته ، والتي زدتها أنا باستمرار في الحرب والسلام .

ثم تتذكر هيلانة ان منلاوس أمرها بأن تجعل كل شيء مهيئا لتقديم القربان ، دون أن يحدد أي حي يريد أن يضحي به للالهة لكن ملامح منلاوس وتصرفاته معها ، جعلتها تشك في أنها ربما كانت هي الضحية . ومن هنا كانت مخاوفها .

وتحاول فتيات الكورس أن تبدد هذه المخاوف . ذلك أن هؤلاء الطرواديات لم يكن يتصورن أن بلدهن طروادة ستسقط ، ومع ذلك سقطت ، وكن يتصورن أن جزاءهن القتل لكنهن أفلتن من القتل ، فربما يحدث الأمر نفسه بالنسبة لهيلانة فلا تقتل .

وتصعد هيلانة درجات سلم القصر بعزم ، رغم مخاوفها ، وتدخل القصر ، فتجده خاليا لا يتردد فيه صوت ، ولم تظهر فيه خادمة من أولئك اللواتي تركهن منلاوس قبل رحيله . وأخيرا تبصر عند الموقد امرأة عجوزا متدثرة بالملاءات ، ساكنة لا تتحرك ، ولما اقتربت منها هيلانة رفعت ذراعها اليمنى كعلامة اشارة ، ولما صعدت هيلانة الى سرير الزوجية اعترضت هذه العجوز طريقها .

وهذه العجوز هي مفستوفيلس ، الذي اتخذ هيئة فوركياس واندس في قصر منلاوس انتظارا لمجيء هيلانة ، وكان قد تصنت على زوجها وعرف أنه سيقدم هيلانة قربانا للالهة : فانتهز هذه الفرصة كي يقنع هيلانة بترك القصر حتى لا يقدمها زوجها ضحية ، وأن يأخذها الى فاوست . وفي سبيل ذلك يخترع قصة لخداعها .

ومفستوفيلس في هيئة فوركياس يظهر أولا على أقبح هيئة ، في مقابل أجمل امرأة في العالم ، ثم يبدو بعد ذلك انه الحاكم الآمر الناهي في القصر بوصفه مدير شؤون القصر . وأخيرا يكون هو المخلص لهيلانة من المصير الذي رتبه لها منلاوس ، أي من الموت . ويجري هذا كله في مشاهد هي القمة في براعة التأليف المسرحي .

أ ـ لقد استقبل هيلانة بغطرسة ولهجة آمرة ، مما جعل هيلانة تطامن كبرياءها ،

ب ـ وتعبر الجوقة عن هول منظر مفستوفيلس ـ فوركياس ، على أنه أبشع من أهوال ما شاهدن في طروادة ، فينهلن عليه بالشتائم .

جـ ـ فيرد عليهن بما هو أشد اقذاعا واصفا اياهن بالدواب وبسرب الكراكي ، وبجماعة الكلاب ، وبارجال الجراد التي تنفض على البلاد فتخربها .

د ـ وتتدخل هيلانة في هذا الشجار ، وتحذر فوركياس ـ مفستوفيلس من اهانة خادماتها ومشاجرتهن فيرد فوركياس ـ مفستوفيلس بأنه هو الأقدم في الخدمة ، ولهذا فهو جدير بالاحترام والتوقير . فعلى هيلانة أن تمنع هذه الخادمات الشابات من السب .

هـ ـ لكن فتيات الجوقة يواصلن الهجوم على فوركياس ، فتقول له احداهن : من أبوك ؟ انه الظلام ، من أمك ، انها الليلة! فيرد فوركياس : تكلمي عن بنت عمك اسقولا . وتقول ثانية : في شجرة نسبك الكثير من الوحوش! فيرد فوركياس : ابحثي عن جماعتك في العالم السفلي . وتقول أخرى : أيها الجائع الى الجثث أنت جثة كريهة . فيرد عليها قائلا : أسنان

مصاصة دماء تلمع في شدقك الوقح . فتقول قائدة الجوقة : سأغلق فمك ان قلت من أنت . فيرد فوركياس : قولي أنت أولا من أنت ، ينحل اللغز .

و ـ وتشعر هيلانة بأن في اشارة فوركيايس الى العالم السفلي تعريضا بها هي ، فتتدخل في الشجار ، لاغاضته ، بل حزينة لأنه لا شيء أضر بالسيد من النزاع بين خدمه المخلصين وتسأله أن يقول كلاما معقولا .

ز ـ فينتهز مفستوفيلس ـ فوركياس الفرصة لتحقيق هدفه فيذكر هيلانة بما جرى لها من أحداث : كيف عدا ثيسيوس وراءها وهي في العاشرة من عمرها ، وحبسها في قصر فدنيه في اتيكا ، وكيف خلصها من هذا الحبس أخواها كاستور وبولكس ، وكيف طلبها بتروكل ، فرضيت به ، ولكن ارادة أبيها جعلتها تتزوج منلاوس ومنلاوس في غارة على كريت أسر فوركياس وجاء به خادما في قصره .

ح ـ وبعد أن حرك مفستوفيلس ، فوركياس عذاب الضمير في نفس هيلانة على ما اجترحته من آثام ، راح يتابع ارهابه النفسي لها فيقول أنها ظهرت ، فيما يقال ، في وقت واحد في طروادة وفي مصر . وجيته يشير في هذا الى ما رواه استيخورس Stesichore من أن هيرا بعثت بهيلانة الى مصر مع رسول الالهة هرمس ، وأبقت على شبح بديل لها في سبرطة ، وهذا الشبح البديل هو الذي اختطفه باريس ، ومن أجله قامت الحرب بين اليونان وطروادة! وهذه الرواية استخدمها يورفيديس في مسرحية «هيلانة» وبتذكير مفستوفيلس لها بهذا الأمر ، ازداد التياث هيلانة حتى أنها لم تعد تعرف الآن أي هاتين هي الآن : الأصلية أو الشبح البديل .

ط ـ ويواصل مفستوفيلس حملته الخبيثة ، فيقول : «انهم يقولون بعد ذلك أنه في على ، خارج المملكة الخارجة للاشباح ، اتصل بك أخيلوس اتصالا صحيحا ، وكان قد أحبك قبل ذلك حباً تعارض مع ما قرره المصير» . فتجيب هيلانة : «أنا كشبح أتحدث به كشبح هو الآخر : لقد كان ذلك حلما ، والكلمات تقول ذلك بوضوح . الاغماء يصيبني ، وحتى بالنسبة الى نفسي فأنا شبح ، ثم تسقط بين أذرع نصف الجوقة .

ونحن نجد في قصة «كوبريا» لهوميروس أن أخيلوس طلب رؤية هيلانة ، وأن أفروديت وثيتيس Thetis اقتادتا هيلانة الى أخيلوس ، على نحو غير معروف ، ومن المحتمل أن تكون أفروديت قد اختطفت هيلانة . لكن كتّابا يونانيين متأخرين قالوا أن هذا الارتباط بين هيلانة وأخيلوس قد تم في الحلم فقط (راجع Welcker: Der Epische Cyclus (II, 105 .

ي ـ فتتدخل الجوقة وتنتهر فوركياس ـ مفستوفيلس الذي تسبب في إصابة هيلانة بالغماء بواسطة ما أثاره من ذكريات أليمة وتشنع عليه بأن له سنا واحدة وعينا واحدة . ثم صاحت فيه : صه! صه! حتى تبقى روح الملكة ، وهي على وشك الرحيل ، وتحتفظ بالشكل الذي لم تشرق على نظيره الشمس .

وتثوب هيلانة الى وعيها وتقف في الوسط .

يا ـ وهنا يأخذ كلام فوركياس ـ مفستوفيلس اتجاها مضادا فيأخذ في الثناء على جمال هيلانة : تجلي خارج السحب العامرة ، يا شمس هذا اليوم السامية ، حتى وأنت محجوبة قد سحرت ، والآن تجلي في روائك! على الرغم من أنهن يصفنني بالقبح ، فاني مع ذلك مستعد للاقرار بالجمال .

وتخرج هيلانة من الوحدة التي غمرتها أثناء الاغماء ، وتقول ان من الجدير بالملكات ، بل وبكل الناس ، أن يستعيدوا رباطة الجأش والشجاعة .

فيقول لها فوركياس : أنت الآن في روعة جلالك وجمالك ، فبماذا تأمرين ؟

فتقول هيلانة : عجل بالاعداد لتقديم قربان ، كما أمر الملك .

فيرد فوركياس : كل شيء حاضر : الكأس ، الكرسي ذو الأقدام الثلاث ، البلطة الحادة ، ما يحتاج اليه للرش والبخور . فبيني من الذي سيذبح ؟

فقالت هيلانة : ان الملك لم يحدد .

فيقول فوركياس : الملك لم يحدد ؟ يا لهول المصيبة!

فتسأل هيلانة : أية مصيبة ؟

فيجيب فوركياس : أيتها الملكة ، أنت المقصودة!

فتصيح : أنا ؟ فيجيب فوركياس : وهؤلاء الفتيات : فتصيح جوقة الفتيات : يا للويل . ويعود فوركياس ليخبر الملكة هيلانة بأنها هي الضحية ، وأنها ستموت ميتة نبيلة ، أما أولئك الفتيات فسيشنقهن في حبل مربوط بخشبة السقف ويصرن مثل السمان في الحبالة . ويمضي في وصف ما سيحدث للملكة ولهؤلاء الفتيات على نحو بالغ الترويع .

يب ـ وأمام هذا الخطر الداهم سألت بنتاليس Pantalis كبرى هؤلاء الفتيات ، فوركياس عن الوسيلة للخلاص من هذه المذبحة المحتومة .

فيجيب مفستوفيلس ـ فوركياس : لا بد من اتخاذ قرار سريع جدا وحاسم .

فتقول له هيلانة . أنا لست متألمة ولا خائفة . لكن ان كنت تعرف وسيلة للخلاص ، سيكون لك الشكر وعرفان الجميل .

وبعد استطرادات لزيادة لهفتها هي وخادماتها يقول فوركياس أن منلاوس قد ترك اسبرطة منذ أكثر من عشر سنوات في أثنائها استقر في الوادي الجبلي المحيط بها جنس من ناس جريء شجاع ، وشيدوا قصرا حصينا منيعا لا يمكن الوصول اليه ، ومنه يشنون غارات على البلاد المجاورة كما يشاؤون .

فتدهش هيلانة وتسأل : هل لهم رئيس ؟ وهل هم قطاع طرق عديدون ؟ وهل هم أحلاف ؟ فيجيب فوركياس بأنهم ليسوا قطاع طرق ، وأن لهم رئيسا واحدا . وأنا لا أشكو منه : لقد كان في وسعه أن يستولي على كل شيء ، لكنه اكتفى ببعض «الهبات الاختبارية» كما سماها ، ولم يسمها جزية .

فتسأله هيلانة عن حاله فيقول فوركياس انه رجل لابأس به ، يقظ ، جسور ، شديد الأسر ، عاقل ، يندر وجود مثله بين اليونان . أما قصره ، فعليك أن تريه بعينيك! انه شيء آخر غير هذه الجدران الثقيلة التي كدسها أجدادك دون ذوق حجرا صلدا فوق حجر ، أما في ذلك القصر فكل شيء شيد بمقياس وميزان ووفقا لعادة . لو شاهدته من الخارج ، لوجدته ينطلق نحو السماء ، ثابتا مع ذلك ، محكم المفاصل ، مرآة مصقولة مثل الصلب . وفي الداخل أفنية واسعة محاطة ببدنات من كل نوع ولكل غرض . وهناك ترين الأعمدة ، والأعمدة الصغيرة ، والأقواس ، والعقود ، والشرفات ، والأبهاء المطلة على الخارج وعلى الداخل ، ثم الرنوك .

فتسأل هيلانة : وما الرنوك ؟

فيقول فوركياس : انها رسوم منقوشة لسباع ونسور ، وأحزمة من الذهب والفضة ، زرقاء وحمراء ، وهي معلقة بغير انقطاع على جدران قاعات واسعة لا نهاية لها ، يمكنك أن ترقصي فيها .

فتقول الجوقة بلهفة : وهل هناك أيضا راقصون ؟

فيجيب فوركياس : أحسن الراقصين : فتيان في ميعة الصبا محلّون بأساور من ذهب .

- وفي أثناء هذا الحوار المشوب بالفزع من جانب هيلانة والفتيات يسمع من بعيد صوت أبواق ، فيرددن خوفا . وفي الحال تقرر هيلانة أن تذهب مع فوركياس الى ذلك القصر الحصين . وبعملية سحرية من مفستوفيلس - فوركياس ينتشر ضباب يغطي المكان ، ثم يحمل الجميع طائرات مع فوركياس الى القصر الحصين الذي فيه ينتظر فاوست .

وقد لاحظنا من وصف فوركياس لهذا القصر الحصين أنه بني على الطراز القوطي الذي يمجده فوركياس مستهزئا في الوقت نفسه بالطراز اليوناني المتكتل الثقيل ، وأن الرنوك فيه

ترجع الى الأجداد ، وهي رنوك أسر علقت على الجدران في قاعات كبرى ، وهو ما كان يفعله الأمراء والفرسان في قصورهم في العصر الوسيط في ألمانيا وشمالي أوربا بعامة .

ومن هذا يلاحظ أيضا كراهية مفستوفيلس لبلاد اليونان وفنونها وأهلها ، وحماسته لبلاد الألمان والطراز القوطي والفرسان وتقاليدهم .

وهكذا أفلح مفستوفيلس في ترتيب اللقاء المنشود بين فاوست وهيلانة .

٢
الفناء الداخلي لقصر حصين في أركاديا

وها هو ذا يتم هذا اللقاء الذي التمسه فاوست من برسفونيه فردت هيلانة الى الحياة من جديد في قصرها في اسبرطة كما لو كانت قد عادت لتوها من طروادة بصحبة زوجها الظافر منلاوس . لكن براعة مفستوفيلس جعلتها تتطلب النجاة من هذا القصر في اسبرطة . بدعوى أن منلاوس سيقدمها قربانا جزاء وفاقا لخيانتها له والهرب مع باريس .

وتنطلي الحيلة على هيلانة ومرافقاتها الخادمات الأسيرات فيطلبن من مفستوفيلس وهو في صورة الخادمة العجوز فوركياس ، أن يقتادهن الى القصر الحصين الذي وصفه لهن ، وقال إنه لشعب غزا البلاد وعلى رأسه فتى جسور كريم . وبنوع من البساط السحري يحملهن مفستوفيلس ـ فوركياس الى هذا القصر الحصين ، قصر فاوست ورجاله . وكان لا بد من حيلة سحرية ، هي هذا البساط السحري ، للانتقال من القصر الكلاسيكي في اسبرطة الى القصر الحصين الرومنتيكي الذي شيده فاوست وصحبه . وكما يقول دونتسر (جـ٢ ص٢٤٣) : «ان نقل هيلانة الى قصر فاوست الحصين ينبغي أن ينظر اليه على أنه انتقال للعالم القديم الى عالم رمزي جديد قام بضربة قوية وبعد حروب طويلة بين الشعوب .

ان العالم القديم ـ بعد أن بلغ فيه الفن والشعر أوجهما لم يعد يجد في الفن الكامل ـ الذي لم يستمر طويلا متربعا على القمة ـ رضاه الوحيد ، بل حدث نزوع الى شيء أعلى . الى طمأنينة باطنة وارتفاع للروح ، لم يستطع بلوغهما القدماء عن طريق ديانات الأسرار . فصار يشعر رغم أنفه باندفاع الى عالم جديد . وكذلك هيلانة لم تعد تستطيع أن تستمر في عالمها ، لقد حدثت هوة بينهما وبين منلاوس الجاني القاسي ، هوة لا سبيل الى عبورها ، فكان عليها اذن أن تهرب من سلطان منلاوس» .

في هذا المشهد يظهر لنا فاوست في أعلى السلم ، بعد أن نزلت جماعة من الشباب

في صف طويل ، وهو يرتدي حلة فارس من فرسان العصر الوسيط ، ثم ينزل ببطء ووقار حتى يصل الى أسفل السلم ، وبجانبه شخص مقيد .

فتتفحصه رئيسة الجوقة باهتمام ، وتعلن اعجابها المشبوب بهذه القامة الرائعة والسمت حبيب ، والمشية الوقور ـ لفاوست . وتطلب من هيلانة أن تلتفت إليه .

ويتقدم اليها فاوست معتذرا بأنه لم يقم بالواجب المفروض من الترحيب بها منذ لحظة وصولها ، بسبب هذا الخادم المقيد . وهو الحارس المكلف لرصد كل ما يحدث ومن يقترب وبمراقبة السماء والأرض ليشاهد كل من يقدم أو يتحرك من دائرة الروابي المحيطة بالوادي حتى القصر الحصين . لقد أهمل هذا الديدبان . فحرمنا من القيام بواجب الترحيب نحو شخص رفيع المكانة مثلك . وها هو ذا محكوم عليه بالموت ، الا أن تتفضلي أنت بالعفو عنه .

فتجيب هيلانة ، أما وقد منحتني هذه المهمة ، فاني أمارس أول واجبات القاضي : وذلك بسماع الشهود . وليبدأ المتهم بالادلاء بإفادته .

فيقول لونقوس ، الديدبان : «اسمحي لي أن أركع ، اسمحي لي أن أتأمل ، اسمحي لي أن أموت ، اسمحي لي أن أعيش! لأنني صرت عبدا لهذه السيدة التي أعطاها الله .»

ثم يشرح لها ما حدث : إن جمالها الهائل قد بهره فلم يستطع الرؤية ، ونسي واجبات رقيب .

انه ليس مسؤولا اذن عما حدث من إهمال ، بل المسؤول هو جمال هيلانة ، ولهذا فإن هيلانة تعلن أن لنقوس بريء . ان ذنبها هذا ذنب قديم قد تسبب في الكثير من المآس : فان جمالها أوقع التشويش والاضطراب في نفوس الناس وحواسهم ، مما تسبب في الكثير من الأحداث العنيفة : من اختطاف ، وحرب شعواء بين اليونان وطروادة ، وظهور مزدوج في طروادة ومصر ، وبعث الى الحياة ، ووصول جديد الى اسبرطة وهي مهددة بأن يقدمها منلاوس قربانا ، وهروبها بمساعدة فوركياس الى أركاديا عند فارس أجنبي جاء من بلاد الشمال بصحبة جيوش .

ولنقوس ، الديدبان ، بفضل بصره النافذ الحاد النافذ في أعماق الأرض ، قد استطاع أن يكتشف الكنوز الدفينة التي خبأها الناس ابان تنقل الشعوب ، وأن يجمع منها مقدارا وفيرا من النفائس . وها هو ذا الآن يريد أن يضع تحت قدمي هيلانة هذه النفائس . لكن فاوست يأمر لنقوس بأن يأخذ هذه الصناديق من النفائس ، لأنه لا داعي لتقديم هدايا خاصة الى الملكة ، هيلانة ، لأن كل ما يحتوي عليه القصر الحصين هو ملك لها .

ان هيلانة ـ كما يقول كونوفشر (ج٤ ص٢١٤) هي مقياس كل شيء وكل قيمة في العالم ، لأن كل قيمة مستمدة منها : انها صورة الصور . وبغيرها يصير كل شيء تافها . عدما ، مجرد ألعوبة .

ولهذا يقول لنقوس : «في الخيرات وفي الحياة يتحكم دائما هوى هذا الجمال . فيصبح الجيش كله خاضعا ، وتفل كل السيوف وتشل . أمام الشكل الرائع تصبح الشمس نفسها شاحبة باردة ، وأمام ثراء الوجه ، يصير كل شيء خاويا ولا شيء» .

وتعجب هيلانة بلغة لنقوس الجميلة ، وتسأل فاوست : كيف تستطيع أن تتكلم هذه اللغة الجميلة ؟ فيجيب فاوست بأن الأمر سهل ، كل ما هنالك أن يصدر الكلام عن القلب . وحين يمتلئ القلب ويفيض فإنه يصدر عنه القول الجميل . ويجري غزل رقيق بين هيلانة وفاوست ، يقطعه فجأة فوركياس وقد دخل عليهما بعنف وهو ينذر ويتوعد قائلا إن منلاوس يزحف الى هنا بجيش عرمرم ظافر ، وأنه لو ظفر بفاوست فسيمثّل به مثلما مثل من قبل بديفوب Deiphobe . لكن فاوست واثق بقوة رجاله ، فيظل رابط الجأش ، ويقول مخاطب فوركياس : سترى على الفور دائرة متصلة من الأبطال . ويخاطب رؤساء الجيش : يا زهرة شباب الشمال ، ويا أيها القادمون من الشرق ، تغطيكم الدروع ، أنتم الجيش الذي حطم دولة إثر دولة . في بولوس Pylos نحن لم نكد نطأ الأرض حتى دمرنا الروابط الملكية . والآن عليكم أن تدفعوا منلاوس عن هذه الأسوار وتلقوا به في البحر . أيها الدوقات ، إني أحييكم وبأمر من ملكة اسبرطة ، ضعوا الآن الجبل والوادي عند قدميها . وأنت أيها الجرماني! دافع عن خلجان كورنثوس بالمتاريس والتحصينات . وأنت أيها القوطي أكل اليك أخايا بدروبها المائة ، فدافع عنها باصرار وعناد . أما جيوش الفرنجة فلتتوجه نحو الايليد Elide ، ولتكن مسينا من نصيب السكسون ، وعلى النورمندي أن يطهر البحار ويصنع من الأرجوليد ولاية عظيمة . ثم ينزل فاوست ، ويتحلق الأمراء حوله ليسمعوا منه المزيد من التعليمات والأوامر .

ستكون هيلانة اذن ملكة على اسبرطة ، وسيشاركها في الحكم فاوست . وجيوشهم هي من الشعوب الجرمانية بعامة ، ولكن جيته يذكر منها بخاصة : القوط ، وهم الذين اكتسحوا الامبراطورية الرومانية من الشرق الى الغرب ، والفرنجة وهم الذين غزوا بلاد الغال (فرنسا) ، والسكسون الذين فتحوا بريطانيا ، وأخيرا النورمان ، وهم الذين استولوا على ايطاليا .

ولهذه الجيوش ودوقاتها ستؤول كورنثوس ، وأخايا ، واليس ، وسينا ، وأرجوليس .

٣
الحياة السعيدة في أركاديا

ويتغير المنظر بعد ذلك تغيرا تاما . فبدلا من القصر الحصين ، نجد أمامنا سلسلة من الصخور العالية التي تحجبها خمائل كثيفة ، ومن الصخور يمتد مرج ظليل ، تتناثر عليه فتيات الجوقة . وفاوست وهيلانة ينعمان بالسعادة الكبرى وهما في كهفهما ، بعيدا عن أعين الناس . وليس في قربهما من بين الخادمات لا فوركياس التي تتخلى هنا عن دورها كمفستوفيلس لتصبح الخادمة الأمينة الوفية .

٤
يوفوريون

وعن هذه الخلوة السعيدة بين فاوست وهيلانة ينتج ولد يسمى يوفوريون Euphor-ion . وهذا الاسم قد ذكره بطليموس الغريب Ptolemaius Chennos ـ وهو عالم وشاعر من الاسكندرية عاش في بداية القرن الأول الميلادي ـ إنه هو ابن أخيلوس من هيلانة ، اللذين أنجباه بعد زواجهما على الجزر السعيدة . ومعناه ، بحسب بطليموس هذا : «الخطيب» . لكن معناه اللغوي هو : «السريع» . ويبدو أن جيته عرف خبر بطليموس هذا مما أورده فوس Voss مترجم هوميروس الى الألمانية ـ في الرسالة الرابعة والعشرين من «الرسائل الميثولوجية» ، حين قال : «إن الناس الخالدين ، الذين وضعتهم الآلهة في الجزر السعيدة ، يمثلون أحيانا مزودين بأجنحة . وبطليموس هفستيون Hephaestion (ص٢٤٧ ، الحاشية رقم ١٤٩ ب) يروي في قصصه العجيبة أن هيلانة أنجبت من أخيلوس في الجزر السعيدة ابنا ذا أجنحة يسمى يوفوريون ، وقد قضى عليه زيوس (في جزيرة ميلوس Melus) بأن أصابه بالبرق ، بسبب غيرته وحبه المهجور» .

أما في الأسطورة الشعبية لفاوست فيرد أنه نتج عن مجامعة فاوست لهيلانة الشبح في فتنبرج Wittenberg ابن دعي : يوستوس Justus ، وقد اختفى هذا الابن مع أمه بعد وفاة فاوست . وجيته ، في الصورة النهائية لـ «فاوست» الثاني ، يجعل يوفوريون يختفي .

لكن جيته في هذه الصورة يصور نهايته متأثرا بما حدث للورد بايرون Byron الشاعر

الانجليزي الرومنتيكي العظيم ، كما صرح بذلك جيته نفسه في حديثه مع اكرمن (جـ١ ، ص٣٦٧) ، اذ قال انه جعل نهاية يوفوريون مثل نهاية بايرون ، لكنه قبل وفاة بايرون كان قد خطط مشروعات أخرى لنهاية يوفوريون . غير أن جيته لم يذكر لنا هذه المشروعات ولم يقدم أية اشارة توحي بها . ومن ثم ذهب بعض الباحثين الى افتراض الفروض فيما كان جيته قد فكر فيه : من ذلك ما افترضه دونتسر (جـ٢ ص٢٦٦) من أن جيته ربما يكون قد تخيل أن يوفوريون سيذرع أنحاء العالم ـ بفضل سرعته وأجنحته ـ داعيا الى الشعر الرومنتيكي . أو ربما فكر جيته أن يفعل مثلما فعل سوفكليس في مسرحية «أوديب في كولونا» (البيت رقم ١٦٢٣ وما يتلوه) حين جعل اله العالم السفلي يستدعي أوديب ، وهنا تستدعي برسفونيه هيلانة ، وابنها يوفريون من حنينه اليها يتبعها الى هذا العالم السفلي ؟ . ويختم دونتسر افتراضيه هذين بقوله : «وما يؤسف له أن الشاعر (جيته) قد انصرف عن خططه السابقة بواسطة موت بايرون ، وقد أراد جيته أن يخلده هنا تقديرا وحبا له» .

وكان جيته قد انجذب الى شعر بايرون منذ سنة ١٨١٦ ، وكان النشيدان الأولان من «أسفار أتشيلد هارولد» لبايرون (راجع ترجمتنا لهذا الكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٤٥) قد ظهر قبل ذلك بأربع سنوات . ومنذ ذلك الوقت تابع جيته إنتاج بايرون وأخبار حياته . وجرى بينهما مراسلات عديدة ، وأرسل بايرون الى جيته في سنة ١٨٢١ ورقة بخطه فيها إهداء من بايرون الى جيته لقصيدته «سردنابال» ، ويسأل جيته رأيه هل يطبع هذا الإهداء في مستهل هذه القصيدة . وبسبب تأخر في طبع «سردنابال» أهدى بايرون الى جيته في السنة التالية (سنة ١٨٢٢) قصيدة «فرنر» Werner بهذه العبارة : «إلى جيته الشهير يهدي هذه المسرحية المأساة واحد من أكثر المعجبين به تواضعا .» غير أن اهداء «سردنابال» قد طبع بعد ذلك ، وفيه يقول بايرون : «الى جيته الممجد : أجنبي يسمح لنفسه بأن يقدم ، وهو التابع الأدبي ، عربون التقدير للسيد الذي هو الأول بين المؤلفين الأحياء ، الذي خلق أدب وطنه وأنار أدب أوربا ـ يقدم انتاجه المتواضع اهداء من المؤلف ، وهذا الانتاج عنوانه : «سردنابال»» . وقد أرسل اليه جيته رسالة شكر حملها اليه ابن قنصل انجلترا في جنوة (بايطاليا) في ٢٤ يوليو سنة ١٨٢٣ في ليفورنو .

وكان لورد بايرون قد زار بلاد اليونان عدة مرات فيما بين سنة ١٨٠٩ وسنة ١٨١١ ، وهناك ألف النشيدين الأول والثاني من «أسفار اتشيلد هارولد» ، واستلهم موضوعات بعض أروع قصائده : «جيارو» ، «عروس ابيدوس» ، «القرصان» ، «لارا» .

فلما قامت اليونان بالثورة على الحكم التركي فيها ـ وكانت مجرد ايالة عثمانية منذ

أكثر من ثلاثة قرون ـ في سنة ١٨٢١ وانتشرت في معظم أرجائها ، ما عدا تساليا ومقدونيا ، وفي مقاطعة البلوبونيز ، تحمس بايرون لهذه الثورة التي شهدت بعض الانتصار في سنة ١٨٢٢ ، لكنها ما لبثت أن دب فيها الضعف بسبب تفرق القائمين بها : وفي شبه جزيرة المورة ، وكان الخلاف على أشده بين أنصار الحكم المدني ، وبين أنصار الحكم العسكري ، بين زعماء الروملي (أي بلاد اليونان التي في القارة الأوربية) وبين زعماء الجزر اليونانية . وقامت بين الفريقين حرب أهلية استمرت حتى يوليو سنة ١٨٢٤ .

وهنا أراد بايرون أن يتدخل لفض الخلاف بين الجماعات اليونانية المتنافسة ، فسافر الى جزيرة كفالونيا (في البحر الادرياتي) في مستهل سنة ١٨٢٤ ، ولم يفلح في تحقيق الوفاق بين الأطراف اليونانية . وفي الوقت نفسه جهز مبلغا من خمسمائة سوليوت . وحاول أولا الاستيلاء على حصن ليبانتو Lepanto ، لكن فيلقه تخلى عنه . فحاول من جديد اقناع الأطراف اليونانية بوجوب الدفاع عن مسولنجي بخاصة ، لكن جهوده ضاعت سدى ، فكان لهذا المجهود تأثير مدمر على صحته ، ثم أصابته حمى شديدة ، فأجهزت عليه في ١٩ أبريل سنة ١٨٢٤ ، وهو اذن قد مات صريع الحمى ، لا صريع القتال .

ولما علم جيته بنبأ وفاة بايرون تأثر تأثرا شديدا ، خصوصا لأنه كان يود أن يلتقي «بهذا الروح الممتازة ، بهذا الصديق المكسوب عن حسن حظ ، بهذا الظافر الانساني» ، كما قال جيته . وكتب جيته في ١٦ يوليو سنة ١٨٢٤ يقول «انه يعتقد أن أمته (الانجليز) ستستيقظ من الضجة اللاحية التي أثارتها حوله ، وأن كل الخبث والرغوة للزمان وللفرد ، مما لا مفر لأفضل الناس من العمل في غمرتهما ، هما شيء عابر ، بينما الشهرة الجديرة بالاعجاب التي أوصل وطنه اليها لا حد لها وسيكون لها آثار مستمرة غير محدودة» .

وكذلك قرأ جيته باعجاب كتاب مدون Medwin بعنوان : «محادثات مع بايرون» وكتب عنه مقالا ، كما قرأ وصف بري Parry لأيام بايرون الأخيرة ، وقد وصله هذا الكتاب في يونيو سنة ١٨٢٥ .

لماذا اختار جيته بايرون إذن ممثلاً للشعر الرومانتيكي ؟

يقول جيته في حديثه مع اكرمن (جـ١ ص٣٦٤) : «لم أستطع أن أجد ممثلا للشعر الأحدث خيرا من بايرون ، انه من غير شك أعظم قريحة في هذا القرن . ثم ان بايرون ليس قديما (كلاسيكيا) ولا رومنتيكيا ، وانما هو مثل اليوم الحاضر ، وأنا كنت في حاجة الى مثله . كذلك كان مناسبا تماما بسبب طبعه الساخط ونزعته الجريئة ، تلك النزعة التي أودى بسببها في مسولونجي» .

ومن ناحية أخرى فان بين بايرون وبين فاوست بعض المشابه : الاندفاع الى طلب المعرفة والى الفعل ، عرامة الحواس ، شدة الانفعال للجمال وللطبيعة .

وهذا الطموح المتصاعد أبدا الى العلا ، يعبر عنه يوفوريون ـ بايرون فيقول :

« ينبغي علي أن أصعد دائما الى أعلى ، ودائما الى أبعد يجب أن أتطلع » . انه لا يحلم بالسلام ، بل هواه كله هو الحرب : « أتحلمون بيوم السلام ؟ ليحلم به من شاء أن يحلم : إن الحرب هي نداء الانضمام! النصر! » وهو يريد أن يهب لنجدة أولئك الذين يناضلون في سبيل حريتهم ، الحرية : هذه الفكرة المقدسة التي لا يجوز أن تخنق .

فان قيل انه طفل صغير ، رد بحماسة : « كلا! أنا لم أظهر طفلا ، بل شاب مدجج بالسلاح وصل ، انضم الى الأقوياء ، الى الأحرار ، الى الشجعان ، لقد عمل بمقتضى الروح! فلنرحل الآن! هناك ينفتح الآن الطريق الى المجد » .

فيقول له والده : انه قد جاء الى الوجود منذ قليل ، وها هو ذا يريد أن يغادر أبويه ؟ أليسا شيئا في نظره ؟

فيرد يوفوريون بحماسة وانفعال : « ألا تسمعون كيف ترعد على البحر ، ويردد الوادي الصدى بعد الوادي ، في التراب وعلى الأمواج ، جيش ضد جيش ، واندفاع وراء اندفاع ، للآلام والعذاب ؟ ان الموت أمر » .

فيفزع الوالدان والجوقة : يا للهول ؟ هل الموت أمر لديك ؟

لكنه يندفع في الجو ، وتحمله ثيابه لحظة ، وحول رأسه شعاع ، وفي أثره نور فتصيح الجوقة : ايكاريوس! ايكاريوس! كفى شقاء .

ويسقط فتى جميل عند أقدام والديه ، فيعرفان فيه ابنهما ، لكن الجزء الجسماني منه يختفي في الحال ، والهالة حوله تصعد نحو السماء كنجم مذنب ، تاركا ثوبه ومعطفه وقيثارته .

والمشابه بين مصير بايرون وبين يوفوريون واضحة تماما : فكلاهما ولد في النعيم في أسرة رفيعة المكانة ، وكلاهما شب مناضلا تواقا الى السمو والعلاء بالحياة ، وكلاهما مندفع متقلب المزاج ، وكلاهما سعى الى حتفه بنفسه غرورا واعتدادا بذاته ، لما أن هب لنجدة المناضلين في سبيل الحرية .

والجوقة تشبه يوفوريون بايكاريوس ، ابن ديدالوس . وتقول الأساطير اليونانية أن ديدالوس فرّ هو وابنه من غضب مينوس Minos ، ملك كريت ، بأن ركب لنفسه ولابنه أجنحة لصقها بالجسم بواسطة شمع . وغر الابن ، ايكاريوس ، بهذا الاختراع فأراد الصعود

ى قرب الشمس ، رغم تحذير والده ، فلم يكد يقترب من الشمس حتى انصهر الشمع وتفكك الجناح وسقط ايكاريوس في البحر وغرق[1] . ويوفوريون ، هنا في «فاوست» لما حاول الصعود في الجو ، سقط عند أقدام أبويه : وما فيه من جسماني دفن في الأرض ، وما فيه من روحي نوراني صعد مثل المذنب الى السماء ، وفي هذا اشارة الى خلود أفكاره وأعماله . ولا يبقى إلا ثيابه ومعطفه وقيثارته لتكون هدفا لسخرية فوركياس . وتعبر هيلانة وفاوست عن حزنهما البالغ لهذا المصاب ، ولكن صوت يوفوريون يدعو أمه من الأعماق ألا تدعه وحده في ظلمات العالم السفلي .

وبهذه الدعوة يتم الانفصال بين هيلانة وفاوست . اذ تعود هيلانة ، أم يوفوريون ، الى العالم السفلي لتلحق بابنها ، وتترك الحياة الأرضية التي جرها اليها فاوست بمساعدة برسفونيه ، لأن الرابطة الوحيدة بينها وبين فاوست كانت هذا الابن ، وهو قد رحل الى العالم السفلي ، فلم يعد هناك سبب لبقائها مع فاوست على ظهر الأرض .

وهكذا تنتهي مأساة هيلانة مع فاوست بما انتهت اليه مأساة فاوست مع مرجريت : مصرع الابن الناجم عن العلاقة في كلتا الحالتين ، ومصير الأم الى العالم السفلي ، وترك فاوست بعد ذلك وحيدا أسيان .

* * *

وقد أثير الكثير من الجدل حول سلامة اختيار جيته لبايرون ممثلا للشعر في شخص يوفوريون . وممن دافعوا عن موقف جيته هنا دفاعا جيدا هينرش ريكرت Heinrich Rickert في كتابه الممتاز : «فاوست جيته»[2] ، فقال : «ان لوم جيته على هذا الاختيار أمر ليس له ما يبرره حقا ، بل هو عديم المعنى . ذلك أن علينا ألا ننظر الى يوفوريون وبايرون على أنهما ممثلان للشعر الانسجامي . لقد أراد جيته في هاتين الشخصيتين أن يعرض الفاوستية في الفن ، والانسانية العليا Uebermenschemtum في مملكة الجمال . ولهذا لم يستطع أن يجد في الواقع التاريخي بين الشعراء الذين عرفهم من هو أصلح لتجسيد ذلك من بايرون . ان في بايرون تتمثل الرؤية التأملية للجمال مقترنة بالسعي المتجاوز كل ما هو معطى ، وعلى هذا الافتراض يتوقف في مأساة هيلانة كل شيء ، متى فكر المرء في شخصية فاوست . ان بايرون هو فاوست بالمعنى نفسه الذي به يوفوريون هو فاوست» (ص٣٨٤) .

ويمضي ركرت (ص٣٨٥) الى تأويل يوفوريون على أساس أنه يمثل الشعر الحديث

---

(١) Xenophon: Memorabilia 4, 2, 23, Diodore 4, 77, 9, Strabo 14, 1, 19, P. 619, Arrian. Anab. 7, 20, 5, Lucian, Gall. 23.

(٢) Heinrich Rickert: Goether Faust. Dia dramatische Einheit der Dichtung. Tubingen, 1932.

بما فيه من مبدأ ذاتي ، عاطفي ، رومنتيكي . لأن جيته أراد أن يبدي رأيه في المشكلة المثارة آنذاك ، ولا تزال مثارة حتى اليوم ، وحتى في شعرنا العربي : أيهما أفضل : الشعر القديم أو الشعر الحديث ؟ لكن ليس معنى هذا أن جيته ، في شخصية يوفوريون ، قد فضل الحديث على القديم ، لأن يوفوريون سرعان ما هوى الى الجحيم ولم يطل مقامه على الأرض ، أي أن الشعر الحديث قصير العمر يشتعل اشتعالا باهرا لكنه سرعان ما ينطفئ . بينما الشعر القديم ، بما فيه من اتزان واعتدال ، يبقى طويلا .

٥
نهاية مأساة هيلانة

لبّت الأم ـ هيلانة ـ دعوة ابنها للحاق به في العالم السفلي ، وانقطع الحبل الذي يربط بين فاوست وبين هيلانة . وها هي ذي هيلانة تندب حظها السيء دائما ، فتقول : «ان قولا قديما يتحقق معي أنا أيضا ، واحسرتاه ، وهو أن السعادة والجمال لا يجتمعان طويلا معا . لقد تمزقت رابطة الحياة كما تمزقت رابطة الحب ، اني أندبهما معا ، وأقول وداعا ، وألقي بنفسي مرة أخرى بين ذراعيك . يا برسفونيه ، استقبلي الطفل واستقبليني معه! » .

وتحتضن فاوست . ويختفي شكلها الجسماني ، لكن ثوبها وقناعها يبقيان على ذراعي فاوست .

هنا تقول فوركياس ـ مفستوفيلس لفاوست : «تمسك بما بقي لك من هذا كله! ولا تترك الثوب أبدا! ان الجن قد أخذوا في جذب أطرافه ، يريدون أخذه الى العالم السفلي . اصمد! انك لم تفقد الالاهة ، بل فقدت ما هو الهي . استفد من هذه النعمة العظيمة ، واسم الى أعلى! انه سيحملك سريعا الى الأثير ، الى فوق ما هو وضيع ، طالما استطعت البقاء . وسنلتقي بعيدا ، بعيدا جدا عن ها هنا » .

وتنحل ثياب هيلانة الى سحب تحيط بفاوست وترفعه وتمضي معه .

وهنا يأخذ فوركياس في التقاط ثياب يوفوريون ومعطفه وقيثارته ، ويتقدم الى مقدم المسرح ويرفع هذه البقايا في الهواء ويقول ان الشعلة اختفت ، ومع ذلك بقي ما يكفي لتكريس شعراء ، واثارة التنافس بين المهن والحرف .

وبينما فوركياس تستند الى أحد الأعمدة التي تحمل الستارة ، تطلب رئيسة الجوقة .

بنتايس من صواحبها أن يلحقن بسيدتهن في العالم السفلي ، حيث سيجدن هيلانة على مقربة من عرش الالاهة برسفونيه ، التي لا يدرك غورها .

لكن فتيات الجوقة يرفضن هذه الدعوة لأنه اذا كانت الملكات يشغلن مكان الصدارة اينما حللن وعلى علاقة وثيقة ببرسفونيه ، فماذا سيكون مصيرهن ، وهن اللواتي تربين في البراري المنحطة ومع أشجار الشوح الطويلة والصفصاف العقيم ؟!

انهن لن يفعلن غير أن ينعبن مثل الخفافيش ويهمسن همسا مزعجا .

فتقول لهن رئيسة الجوقة : حقا إن من لم يكتسب اسما ولم يرد ما هو نبيل ، ينتسب الى العناصر . اذهبن اذن وانحللن الى عناصر . أما أنا فسألحق بملكتي ، هيلانة .

فتقول الفتيات : عدنا الى ضوء النهار وان لم نعد أشخاصا ، لكننا لا نريد أن نعود أبدا الى العالم السفلي . ان الطبيعة ، وهي حية أبداً ، لها عندنا حقوق سليمة جدا .

لقد كان على الفتيات أن يعدن الى العالم السفلي ، لأنهن جئن من العالم السفلي مع سيدتهن الملكة هيلانة ورئيستهن بنتالس . لكن جيته أراد أن يختم مأساة هيلانة بشيء غير متوقع تماما ذي معنى رمزي ، وذلك بأن تنحل الفتيات الى العناصر الأولية للطبيعة ، لأن من يفعل شيئا يستحق الذكر من بعد وفاته ، يجب أن ينحل الى عناصر الطبيعة الأولية ، بينما الذي يفعل فعلا جليلا يستحق به طيب الأحدوثة بعد وفاته يحق له أن يلحق بتطور أعلى ، لأنه عامل فعال في تطور الانسانية الى مزيد من العلاء والسمو . وهذه الفكرة ، فكرة الانتلخيا (= الكمال) عند جيته ، قد عبر هو عنها مرارا ، خصوصا في أحاديثه مع اكرمن (جـ٢ : ٥٦ ، ١٤٩ ، ١٩٤ ، جـ٣ : ٢٣٤) وفي حديثه مع ريمر (١ :٢٥) ، وفي رسالة الى تسلتر Zelter (بتاريخ ١٩ مارس سنة ١٨٢٧) . ولقد شعرت الفتيات انهن لم يحصلن على فردية ، ولهذا لا حق لهن في وجود شخصي ، وعليهن أن ينحللن في حياة الطبيعة .

والجوقة ، وتتألف من اثنتي عشر فتاة ، تنقسم الى أربع مجموعات ، كل واحدة منها تتألف من ثلاث . مجموعة منها تتحول الى أشجار ، منها توجه الحياة من الجذر الى كل أجزاء الشجرة . ومجموعة ثانية تتحول الى حوريات جبلية تردد كل الألحان . ومجموعة ثالثة تتحول الى حوريات ينابيع ، نايادات ، وتظل في حركة دائمة . والمجموعة الرابعة تشكل بشكل حوريات كروم تتغنى بدور الكرام في انتاج العنب ، ولو أن ديونوسوس (باخوس) لا يحفل بعمله ، بل يستريح تحت التكاعيب ويمزح مع الفون الأصغر Faune . ويرسم جيته هنا لوحة حافلة فيها يصف قطف الكروم ، وتعبئة العنب ، ثم عصره في المعاصر ، الخ . وقد استلهم جيته هنا رسوم مواكب أعياد ديونوسوس كما رسمت على الآثار الفنية ، وخصوصا على النواويس .

ثم يسدل الستار ، ولا يبقى هناك غير فوركياس لتكون معقد الاتصال الى العالم الحديث . وها هي ذي الآن تنهض على شكل مارد ، وتخلع قناعها ليتجلى مفستوفيلس الحقيقي بنفسه .

* * *

فان نظرنا في هذا الفصل الثالث بوصفه كلا ، ويدعى «مأساة هيلانة» ، وجدنا الخلاف حول تقويمه شديدا بين المفسرين . فان امرش[١] يقول عن هذا الفصل : «هنا تمت الدورة : من الجمود المونولوجي القديم في ظهور هيلانة للمرة الأولى ، مرورا بالحوار الثنائي والذروة الموسيقية العالية كانت القوس من العصر القديم الى العصر الحديث رائعة ومشدودة نهائيا ، من أجل وضع أسس التكرارات الأبدية لعملية الخلق في الرجوع الى العالم السفلي أو الى الطبيعة . وبهذا فان الشمول الطبيعي والفني والتاريخي للجمال وللفن قد استنفد في نهاية الفصل الثالث وسيواجه في الفصلين الآخرين مشاكل من نوع آخر» (ص٣٦١) .

ويرى كولشمت[٢] ان فصل هيلانة هو امكان حقيقي ، وليس مجرد حلم ورمز . وكذلك يؤكد أوسكار زيدلن[٣] أن هيلانة في الفصل الثالث قد أصبحت متحققة تحققا كاملا وشخصية بينما كانت قبل ذلك تجول في مجال الأسطورة .

لكن باحثين آخرين يناقضون هذا التفسير ، ويقولون ان الأحداث في الفصل الثالث تجري في عالم باطن حالم . وفلومابر[٤] تقول «ان مكان الأحداث هنا هو الروح ، التي لا تعرف الترتيب الزماني» . ويقول ترونس[٥] أن «هذا التحول الى الأركادية هو مجرد رمز لحياة باطنة ، وتعبير عن منظر في داخل النفس... وهذه الرمزية للصور والألحان نمت على نحو محض بحيث أن كل ما هو واقعي لا يلعب أي دور بعد . إنه زمان سحري . وصيرورة يوفوريون تتم في عالم أسطوري لا يحتوي الا على مواقف رمزية» (ص٥٨٢) .

وفيما يتصل بالتأثيرات التي خضع لها جيته في هذا الفصل يقول : رودجر[٦] : «في فصل هيلانة تتبلور ست لحظات للأدب العالمي : الطراغورية اليونانية ، والمنيسانج Minnesang

---

(١) Wilhelm Emrich: Die Symbolik Von Faust II.2. Aufl Bonn 1957

(٢) W.Kohlschmidt: From Und Innerlichfeeit. Bern, 1955. 5. 97ff

(٣) Oscar Seidlin: Von Goeth bis Thomas Mann. Goettingen, 1963

(٤) Dorothea Lohmeyer: Faust Und die Welt. Munchen, 1975

(٥) Erich Trunz: Anmerkungen des Herausgebers Zu Goethes Faust in Goetle's Werke, III Hamburg, 1960

(٦) H. Rudiger: "Weltliteratur in Goeth's Helena" in Jahrbuch der Sehillrgesel, 8. (1964) 5. 172 ff.

لألماني والغزل الفارسي ، والرعويات الأوروبية ، والأوبرا الايطالية الألمانية ، والشعر لانجليزي الحديث ، فمن خلال الشعر الوارد في هذا الفصل يرن للفاهم العارف شعر يوريفيدس وهوميروس ، وغناء هينركس فون مورونجن ، وغزليات حافظ الشيرازي ، وأشعار تسو ، وأوفيد ، وفرجيل وبايرون وكأنها حاضرة عتيدة خلقت من جديد وانصهرت في لقطعة الوسطى من «مأساة فاوست» . ومن خلال هذا الحضور الشعري لهؤلاء الشعراء فإن هيلانة لا توجد فقط في الشعر الألماني اليوناني . بل هذه العناصر الستة هي بالأحرى صور مرآوية للفكرة التي استقرت عند جيته منذ التقائه بشعر الشرق والتي سماها ـ في الوقت نفسه مع انهاء فصل هيلانة ـ باسم : الأدب العالمي Weltlitteratur » .

الفصل الرابع

١
الكفاح في سبيل أرض جديدة

بعد أن عادت هيلانة الى العالم السفلي ، وأضحى فاوست وحده من جديد وقد نوّرته تجربته مع هيلانة ، انتقل من ميدان الجمال الحسي الى ميدان العمل الأخلاقي في معترك ـحياة الدنيوية . انه مر بمرحلتين أو مدرجين على طريق الحياة : المدرج الجمالي ، وعليه ـلآن أن يمر بالمدرج الأخلاقي ، ان صح لنا أن نستعمل مصطلحات كيركجورد هذه (راجع كتابنا : «دراسات في الفلسفة الوجودية» ، الفصول الخاصة بكيركجورد) .

ان الفصل الرابع عود الى المجتمع الانساني . وكان آخر فصل كتبه جيته من فصول «فاوست» الثاني ، اذ كتبه بعد أن أتم الفصل الخامس . ويلاحظ اكرمن بتاريخ ٦ يونيو ـسنة ١٨٣١ ، وكان جيته قد قرأ عليه بداية الفصل الخامس الذي لم يكتب بعد : «ان الفصل ـرابع الذي لم أكتبه بعد قد كتبه جيته في الأسابيع التالية ، حتى أنه في أغسطس (١٨٣١) كان القسم الثاني كله من «فاوست» قد ضم في مجلد وصار جاهزا تماما . ولما وصل جيته ـى تحقيق هذا الغرض الذي سعى اليه وقتا طويلا ، شعر بسعادة بالغة . وقال : «ان حياتي بعد ذلك أستطيع أن أعدها من الآن فصاعدا هدية خالصة ، ويستوي لدي الآن في الحقيقة أن ـفعل شيئا بعد ذلك وان لا أفعل» .

ان الفصل الرابع هو في الحقيقة فصل انتقالي بين فصل هيلانة وبين الفصل النهائي ـحاسم الذي فيه يصعد فاوست من المجال الحسي الجمالي الى المجال الأخلاقي . ولكونه

فصلا انتقاليا ، فان بعض النقاد ـ مثل بويتلر (ص٦٢٢) وترونس (ص٦٠٠) وماي May (ص٢٢٢ وما يليها) يصفونه بالضعف . بل يذهب بورداخ[١] K. Burdach الى حد الزعم «بأن فيه يتضح ضعف وافتقار شعر الشيخوخة» .

* * *

ولقد رأينا كيف طار فاوست من أركاديا على نوع من بساط الريح أو الرداء السحري بعد أن عادت هيلانة الى عالمها السفلي في أثر مصرع ابنها . وقد طار فاوست على بحر وجبال من أركاديا في جنوبي اليونان حتى حط على جبال عالية ذات قمم من الصخور المسننة .

واذا بسحابة تقترب وتشتد وتنزل على هضبة بارزة ثم تنقسم .

ويجد فاوست نفسه وحيدا وفي وحدة تامة . فينفض بنظره المكان في أسفل الجبال فتتراءى له صورة امرأة ، شبيهة بالآلهات ، مثل جونون وليدا وهيلانة وتترجح أمام ناظريه . وتكبر هذه الصورة البديعة ، ولا تتفرق ، بل ترتفع في الأثير وتجر معها خير ما في قلبه .

ثم يتقدم حذاء طوله سبعة فراسخ بخطى ثقيلة ، ويتلوه في الحال حذاء آخر ، وينزل مفستوفيلس على الأرض . أما الحذاءان فيستمران في السير بسرعة .

ويتطلع مفستوفيلس الى أعلى فيبصر القمة التي وقف عليها فاوست ، فيخاطبه قائلا :

أية فكرة استولت عليك فنزلت في وسط هذه الأماكن الموحشة ، في هذه الكتلة الصخرية المتشققة ؟ إني أعرفها ، لأننا معشر الشياطين شاهدنا نشأتها . ذلك أن الرب لما طردنا من الهواء وألقى بنا في الجحيم كنا في وضع سيئ للغاية : لأن الجحيم انتفخ بالأحماض والروائح الكبريتية ، وخرج غاز هائل شق القشرة الأرضية ، وما كان في الأعماق صار الآن قمة .

فيجيب فاوست بأن الكتل الصخرية تظل في نظره صامتة صمتا نبيلا . إن الطبيعة لما تكونت ، كورت الكرة الأرضية ، وفرحت بالقمم ، وبالأودية ، وضعت الصخر والجبل مقابل الجبل . وبعد ذلك شكلت الروابي على شكل منحدر ، ودحرجتها حتى الوادي في منحدر ناعم . فصارت خضرة . والطبيعة للتفريج عن نفسها ، ليست بحاجة الى دوامات حمقاء .

لكن فاوست يعارضه قائلا انه كان هناك حين تشكلت الأرض ، وحين انتفخت الهاوية وحملت شعلات هائلة ، وحين قام مولوخ بصنع الصخور بواسطة مطرقته ، راميا في البعد

---

(١) Konarad Burdach: "Faust und die Sorge" in Deutsch. Viertoljahr. F. Yiteratur, I (1923).

بقايا الجبال . كيف يفسر نشوء هذه الكتل الصخرية الغريبة ؟ الفيلسوف لا يعرف ، بل يقتصر على تسجيل ما يرى . والعامة وحدها تفهم ولا تنزعج ، وتقول : هذه معجزة . وحسبها هذا الايمان .

فيسأله فاوست : وكيف ينظر الشياطين الى الطبيعة ؟ فيجيب مفستوفيلس : وهل هذا يعنيني! لتكن الطبيعة ما تكون! لكن الشيطان كان حاضرا ، وهذا مما يدعونا الى الفخر . نحن قوم ننظر ما هو عظيم : اضطراب ، عنف ، عدم معقولية . ثم يسأل فاوست : أنت قد أحطت بنظرك « ممالك العالم وفخامتها » وأنت لا تشبع ، الا تختلج بنفسك الشهوة لامتلاكها ؟

ويشير جيته هنا الى ما ورد من كلام مماثل في انجيل متى (الفصل ٩ ، العبارة ٢٨) كما أن صعد الشيطان بيسوع على قمة جبل وأراه ممالك الدنيا الزاهية وأغراه بالطمع فيها .

فيجيب فاوست بأن شيئا أغراه ، ويطلب من مفستوفيلس أن يحزر ما هو . فيجيب مفستوفيلس بأن هذا الشيء هو : عاصمة ضخمة تحيط بها ضواح تمتد الى غير نهاية . وتحفل بالأسواق والعروض والعربات .

ويركب فاوست عربته في وسط المدينة محاطا بمئات الآلاف . وبعد ذلك تبنى قصرا فخما في مكان رائع ، تحيط به الغابات والروابي والسهول والمراعي والأرياف وقد تحولت الى بستان . وتبنى لأجمل النساء بيوتا لطيفة ، تقضي فيها وقتا غير محدود . ثم ربما تطمع بعد ذلك في اقتراب من القمر .

فيقول فاوست : أبدا فهذه الأرض تكفيني للقيام بأعمال عظيمة . إني أشعر بالقدرة على القيام بنشاط جريء .

فيقول مفستوفيلس : أنت اذن تريد المجد ، ولا غرو فأنت قادم من عند البطلات (في العالم السفلي) . فيقول فاوست : أريد القوة والملك . إن الفعل هو كل شيء ، أما المجد فليس بشيء .

فيطلب منه مفستوفيلس أن يحدد مطالبه . فيقول فاوست : ان البحر الشاسع اجتذب نظره : انه ينتفخ ويرتفع الى أعلى ، ثم يهدأ ويهز بأمواجه الساحل المنبسط . وهذا يضايقني . انها حركة عقيمة : يرتطم الموج بالساحل ، ثم يرتد عنه ، وهكذا باستمرار لهذا فكرت في خطة وهي إبعاد الشاطئ عن البحر الهائج ، وتضييق حدود الماء وإبعادها الى أقصى حد ممكن . وهذه رغبته ، فحاول أن تساعدني على تحقيقها .

وهنا يسمع على البعد ضرب طبول وموسيقى عسكرية . فيقول مفستوفيلس : ألا تسمع قرع الطبول ؟

فيقول فاوست : الحرب من جديد! الرجل العاقل لا يحب سماع ذلك . لكن مفستوفيلس يرد قائلا : الحرب أو السلام ، ان العقل هو السعي للاستفادة من الظروف . يراقب ، ويلاحظ كل فرصة مواتية . هذه فرصة لك ، يا فاوست ، فهيا .

فيسأل فاوست : أي فرصة ؟ فيجيب مفستوفيلس : ان الامبراطور في محنة عظيمة . انه اعتلى العرش وهو شاب ، وظن خطأ أن من الممكن الجمع بين الحكم وبين الاستمتاع . فيعقب فاوست قائلا : هذا خطأ كبير : ان على من يمارس الحكم أن يجد سعادته في الحكم نفسه . ان الاستمتاع يحط من كرامة الحاكم . فيتابع مفستوفيلس قائلا : لما سليناه . ووضعنا بين يديه ثروة زائفة (الأوراق المالية) ظن أن العالم كله للبيع . وخاب ظنه ، وانحلت الامبراطورية ، ووقعت في فوضى شاملة ، وتشاجر الكبار والصغار عن سبب ومن غير سبب ، وذبح الأخوة بعضهم بعضا ، وتعارك حصن ضد حصن ، ومدينة ضد مدينة . والنقابات ضد النبلاء ، والاسقف ضد هيئة القساوسة والرعية .

وفي هذا الموقف الشديد الاضطراب نهض بعض الكبراء وقالوا : السيد هو من يوفر لنا الهدوء . والامبراطور لا يريد ذلك ، ولا يقدر عليه . فلنختر امبراطورا آخر يوفر لنا السلام والعدل . ودس رجال الدين أنوفهم ، وكبرت الفتنة ، وصار التمرد حلالا . والامبراطور يتجه نحوها هنا ، للقيام بمعركة ربما كانت الأخيرة .

فيأسف فاوست على حال الامبراطور ويقول انه كان رجلا طيبا متفتحا وسرعا ما يقول مفستوفيلس : اذن فلنخلصه من هذه المحنة لندخل ، كي يتحقق له النصر . فيسأل فاوست : وكيف يتم لنا ذلك ؟ بالخداع ، بالأوهام السحرية ؟ فيجيب مفستوفيلس : بخيل حربية لكسب المعارك . إننا لو جعلنا الامبراطور ينتصر ، فستكون مكافأتك الحصول على شاطئ لا نهاية له .

فيقول فاوست : أنت مررت بالكثير من المواقف! فاكسب معركة أيضا! فيرد مفستوفيلس : بل أنت الذي ستكسبها . في هذه المرة ستكون أنت القائد الأعلى . فيقول فاوست : إني لا أفهم شيئا في قيادة الجيش . فيرد مفستوفيلس : دع أركان الحرب يقولون ذلك ، يكن الفيلد مارشال في أمان . منذ وقت طويل لما أدركت بلية الحرب كونت مجلسا حربيا ، وجيشت قوات من الناس البدائيين الذين من جبال بدائية .

فيقول فاوست : من هؤلاء الذين أراهم حاملين السلاح ؟ هل حركت شعب الجبال ؟ فيرد مفستوفيلس : كلا انهم خلاصة الغوغاء .

ويتقدم ثلاثة رجال أشداء ـ مثلما ورد في سفر صمويل الثاني (اصحاح ٢٣ :٨) فيقول

مفستوفيلس هؤلاء هم ، أعمارهم مختلفة وملابسهم وأسلحتهم مختلفة . ولن تضيق بهم .

ويتقدم الثلاثة وهم : راوفبولد Raufebald ، وهابيبلد Habebald ، وهالتفست Halt-fest ، ويفخر كل واحد منهم بقوته وشدة فتكه .

وهؤلاء الثلاثة هم أبرز رجال الحرب الثلاثين في جيش الملك داوود في حربه مع الفلسطينيين : وهم : يشب بشبت ، رئيس الحرس الذي قتل برمحه ثمانمائة رجل في لقاء واحد ، والثاني العازار ، الذي واجه الفلسطينيين المتجمعين للمعركة لما انسحب الاسرائيليون ، والثالث هو شماه بن اجا الهراري ، الذي دافع عن حقل العدس وهزم الفلسطينيين (راجع سفر صمويل الثاني ، اصحاح ٢٣ ، العبارات ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٣) لكن أسماء هؤلاء الجبابرة الثلاثة عند جيته مأخوذة من سفر أشعيا (الفصل الثامن ١ ، ٣) الذي تنبأ لشعب اسرائيل بالدمار على يدي ملك آشور وهو ما حدث فعلا في سنة ٧٢٢ ق .م بقيادة شلمنسر ملك آشور .

وقال أشعيا : وقال لي الرب : «خذ لوحا كبيرا ، واكتب عليه بحروف مقروءة للعامة : النهب قريب ، السلب عاجل»... واقتربت من البنية ، فحملت وانجبت ولدا . وقال لي الرب ، سمه مهر شلال حش بز - وهذا الاسم ترجمته : النهب قريب ، السلب عاجل ، وترجمته بالألمانية : Rubebald, Eilebeute وقد أخذ جيته الاسمين الأولين كما هو في الترجمة الألمانية لسفر أشعيا مع تعديل Eilebeute الى Eilebald وله نفس المعنى وعند جيته تصير Eilebeute امرأة بائعة سنلقاها بعد المعركة في خيمة الامبراطور المضاد .

والثلاثة الأشداء يظهرون مسلحين : رافبولد بسلاح خفيف ، وثياب عديدة الألوان ، وهابيبلد مدمج بالسلاح ، فاخر الثياب ، وهالتفست ، عالي السن قوي السلاح ، وبدون قماش : وهم جميعا بالهارنش Harnisch وبنيقة الفارس لأن تلك كانت بدع العصر .

٢
المعركة

ويرتب قادة الامبراطور الجيش في واد مناسب الموقع ، بحيث تتحكم ميمنة الجيش في منطقة واسعة متماوجة لا يصل اليها الفرسان ، بينما الميسرة تستند الى منطقة صخرية ، وتحرس مضيقا في الجبال ، وفي القلب توجد كتيبة قوية مصفوفة على شكل مربع ، مسلحة

بالرماح التي تلمع في نور الشمس ، مما أتاح للامبراطور نظرة مسرورة فقال : لأول مرة أحظى بنظرة جميلة . ان مثل هذا الجيش يساوي أضعافه .

لكن الموقف في داخل الامبراطورية كان سيئا . لقد أرسل الامبراطور في أنحاء بلاده رسلا وجواسيس لاذكاء حماسة اتباعه ولاختبار نياتهم ، فعادوا بأخبار سيئة : فالرسول الأول لم يعد الا بالقليل من التأييد من جانب الأتباع ، انهم يقسمون بالولاء ، لكنهم يستنكفون من المساعدة الفعلية . والرسول الثاني يعلن أن امبراطورا مضادا قد اختير وتبعه الكثيرون ، والكل في هياج وتمرد .

لكن الامبراطور يتلقى هذه الأنباء السيئة برباطة جأش ، بل يتخذ منها وسيلة لمزيد من الشعور بذاته بوصفه امبراطوراً فيقول : «قيام امبراطور مضاد هو مكسب لي ، فالآن فقط أشعر بأنني امبراطور حقا» .

ولا ننسى أنه ، في الكرنفال ، لما اندلعت الحرائق ، بقي هو صامدا وسط الحريق . ولم يخف ، وقال : انطلق العنصر (النار) مروعا يهاجمني ، لكنه كان مجرد مظهر ، غير أن المظهر كان عظيما .

ويحاول الامبراطور أن ينهي الحرب في مبارزة بينه وبين الامبراطور المضاد ، ليصرع هذا المدعي بقبضة يده ويبعث به الى مملكة الموتى . ويرسل فعلا منادين من قبله الى المعسكر الآخر ليعلنوا استعداد الامبراطور لمبارزة هذا الدعي ، لكن الناس في معسكر الامبراطور المضاد يسخرون من هذه الدعوة ويقولون ان الامبراطور قد (راحت عليه) وانتهى وصار في خبر كان .

فلم يعد أمام الامبراطور الا خوض معركة حربية يقرر فيها السلاح المصير .

وقبل عودة المنادين الذين أرسلهم للدعوة الى المبارزة يظهر فاوست شاكي السلاح . وخوذته نصف مغلقة ، بصحبته الأشداء الثلاثة مسلحين ومتدثرين على النحو الذي وصفناه من قبل . ويتقدم فاوست الى الامبراطور ويعلن استعداده لاشراك الأرواح الى صفّه في هذه المعركة «فيسأله الامبراطور : وكيف ذلك ؟ فيجيب فاوست بأن ساحر نورشيا Norcia (في وسط ايطاليا) ، الذي من جنس السابين ، هو خادمك المخلص ، لأنك خلصته من القتل احراقا في روما ، لما كنت هناك أثناء تتويجك امبراطوراً . وهو يحمل لك منة لا ينساها . وقد كلفنا بالوقوف الى جانبك في هذه الحرب وقد بعث بعلامة النصر ، فاوست يريها للامبراطور ويشرحها : في الأجواء العليا يحلق النسر والجريفون ، ويقع بينهما شجار حاد وفي النهاية يهرب الجريفون ويسقط ، بينما النسر ينتصر والنسر هو رمز الامبراطور» .

لكن سير المعركة لا يطابق هذه العلامة . صحيح أن ميمنة الامبراطور انتصرت وشتتت شمل جيش العدو وقضت عليه بفضل تدخل سريع من الكتيبة في القلب . لكن الميسرة كانت في محنة شديدة : يظهر العدو في أعلى الصخور ويندفعون للاستيلاء على المضيق الجبلي . ولو استولوا عليه لخسر الامبراطور المعركة ، ولن يجدي سحر السحرة .

وييأس القائد العام ، ويتنازل عن عصا القيادة . وهنا تصبح القيادة لمفستوفيلس ويتولى هو القيادة الفعلية وان لم يأخذ عصا القيادة . فيحضر أولا غرابين ويستطلع بواسطتهما ما يجري ، ويحملهما أوامره بالهجوم السحري ، ويجري كل شيء بسرعة هائلة وينتهي الأمر بانتصار جيش الامبراطور وهرب الأعداء في أقل زمن .

أهي القوى السحرية التي استعان بها مفستوفيلس لتحقيق الانتصار ؟ إنها الايهام والخداع : فقد غشي على أبصار جيش العدو وجعله يضل ولا يعرف ماذا يصنع . ذلك أن مفستوفيلس أرسل الغرابين الى الاونديات Udinen في بحيرة الجبل وأمرها أن تغمر جيش العدو بماء وهمي .

وجرى الأمر كما أراد مفستوفيلس . فقد تدفقت من الصخور أمواه الى أسفل ، تكونت منها جداول ، وهذه تحولت الى أنهار خاف العدو أن يغرق فيها ، ويشاهد المرء كيف أنهم يقومون بحركات سباحة وهكذا تنقذ ميسرة الامبراطور .

ثم تجري معركة بين الجيشين ، فيلجأ مفستوفيلس الى تمويهات نارية ، بعد أن لجأ قبل ذلك الى تمويهات مائية . فأرسل غرابة الى الجنومنات التي تسكن في بطن الجبال وتصنع المعادن . ويأمر هؤلاء أن يضعوا نيرانا وهمية ، وكرات يلقي بها في وسط جيش العدو .

والى سلاحي الماء الوهمي والنار الوهمية ، يضيف مفستوفيلس سلاحين آخرين هما : الضجيج الجهنمي ، والفرسان الأشباح . بيد أن هؤلاء الفرسان لا فائدة فيهم للامبراطور وجيشه لأنهم لم يكد يقترب الواحد منهم من الآخر حتى اشتعلت فيهم روح الخصام القديم ، فراحوا يتضاربون فيما بينهم . لماذا اذن أدخل جيته هؤلاء الفرسان الأشباح في المعركة ؟ لأنه أراد أن يتابع الذوق الرومنتيكي الذي انتشر في ألمانيا آنذاك ، وهذا الذوق هو الولع بالفرسان ومعارك الفرسان .

وهكذا انتصر الامبراطور في المعركة ، وولى الأعداء فارين ومعهم الامبراطور المضاد ، وقد ترك خيمته بما فيها كي تكون محل تصارع من أجل الغنيمة بين ايلبويته وهابيبلد ويتدخل حرس الامبراطور لوقف السلب والنهب .

وأخيرا يظهر الامبراطور نفسه مصحوبا بأربعة أمراء ، ليعلن أن الأنباء السارة تتوالى من كل مكان ، وأن الامبراطورية يسودها السلام ، وهي مخلصة له بسرور وابتهاج . و ذ كان تدخل السحر في القتال ، ففي النهاية هو وجيشه هم وحدهم الذين قاتلوا . وبعد ذلك يمنح منحة للأمراء الأربعة : فيعين الأول ماريشالا أعظم ، ويعين الثاني أمينا أعظم ، ويعين الثالث سائسا أعظم ، ويعين الرابع ساقيا أعظم ، ويتلقى كل واحد منهم هذا الاحسان بكلمة شكر وعبارة ولاء .

وهنا يظهر رئيس الأساقفة ، ليعلن عن قلقه من التجاء الامبراطور الى الشيطان وأعماله السحرية ، ويطلب منه أن يكفر عن ذلك بالأمر ببناء كنيسة عظيمة ، وبتخصيص ريع الاقليم لها : من عشور وضرائب ، الى الأبد . ثم يخرج ويعود مسرعا ليقول إن الرجل السيء السمعة ـ فاوست ـ قد منح شاطئ الامبراطورية لكن الحرم سيناله إن لم يخصص ريعه وضرائبه للكنيسة . فيرد الامبراطور بأن الأرض لاتزال تحت البحر . فيخرج رئيس الأساقفة وعنده أمل في أن ينال حتى ريع أرض لم تنشأ بعد! وهكذا سخر جيته أشد السخرية من شره وطمع رجال الدين .

* * *

الفصل الخامس

١
فاوست حاكما

وتمر أعوام عديدة . وها هو فاوست في سن عالية جدا ، في حدود المائة أو ما جاوزها بقليل . ولكن قوة روحه ، وإرادته في السيطرة لاتزال تامة . لقد اكتسب من البحر أرضا جديدة ، حصنها ضد التيارات المائية ، وحماها بالسدود الحصينة ، واستمر يتوسع في التجفيف وإبعاد ماء البحر باستمرار . وهذه الأرض الجديدة صارت عامرة بالسكان ، وأصبحت دولة تجارية تبعث بالسفن المحملة بالبضائع في البحار .

ويسكن فاوست في قصر بديع ، تحيط به حديقة غناء ، ومن القصر الى البحر تمتد قناة فخمة تجري فيها القوارب المحملة بالسلع التي أنزلتها السفن في الميناء .

ويظل مفستوفيلس في خدمة فاوست ومعه (الأشداء الثلاثة) الذين بمساعدتهم تحقق النصر للامبراطور . والرهان لايزال قائما بين فاوست وبين مفستوفيلس ، أو بين الله وبين مفستوفيلس بشأن فاوست ومفستوفيلس حريص على كسب الرهان . وقد اقتربت اللحظة التي سيحدد فيها من الكاسب ومن الخاسر .

غير أن الأرض لم تستكمل استصلاحها بعد ولا إعدادها للسكنى . فعلى طول الكثبان الرملية يمتد مستنقع ، تخرج منه الأوبئة في النواحي المحيطة ، ولا بد اذن من تجفيفه ، وتلك مهمة صارت شغل فاوست الشاغل .

وثم مشكلة أخرى ، صغيرة ولكنها تقلق بال فاوست ، فقد كان على شاطئ البحر كوخ

عتيق ، تظلله أشجار زيزفون ، وبجواره مصلى فيه ناقوس صغير . وفي هذا الكوخ يسـ
رجل وامرأته ، ويدعيان فليمون وبوكيس .

وقد صار هذا الكوخ قذى في عين فاوست ، لأنه كان يحجب النظر عن أرضه الجديـ
هذه وما أجراه فيها من أعمال انشائية . لهذا طلب من صاحبي الكوخ أن ينتقلا منه
سكن أجمل وأكبر وفرة لهما . لكن صاحبي الكوخ رفضا أن يستبدلا كوخهما أي منزل
مهما يكن فخما . فلم يكن أمام فاوست غير استعمال القوة لطردهما من الكوخ و
الكوخ .

لكن فاوست لا ينعم بهذا الملك طويلا : صحيح أنه صار بمأمن من الفقر . و
الديون ، ومن الضرورة ، ولكنه ليس بمأمن من الهم لأن من يستولي عليه الهم فلن يغيـ
العالم كله ، بل تنزل عليه الظلمة الدائمة ، ولا تشرق عليه الشمس ولا عنه تغرب
وسعادته وشقاؤه يصيران وهما ، ويموت جوعا وهو في وسط فيض الثراء .

ويصاب فاوست بالعمى ، ثم يموت ، فتتنازع روحه الملائكة من ناحية ، ومفستوفيـ
وزبانتيه من ناحية أخرى وتنتصر الملائكة وتنجو روح فاوست ، ويخسر مفستوفيـ
الرهان .

تلك خلاصة هذا الفصل الخامس ، الحافل بالمعاني العالية .

فلنتابع مشاهده على التوالي : أ ـ فليمون وبوكيس ب ـ وصول السفن جـ ـ هموم
فاوست د ـ عمى فاوست هـ ـ وفاة فاوست و ـ الصراع بين مفستوفيلس والملائكة حول
روح فاوست ز ـ نجاة فاوست .

أ ـ فليمون وبوكيس

على الرغم من قول جيته صراحة أنه لا علاقة بين فيلمون وبوكيس في «فاوست
وبينهما عند أفيد ، الشاعر اللاتيني ، فإنه لا شك في أن جيته استلهم أوفيد ها هنا . و
يقتصر الأمر في هذا على مجرد استعارة الاسم .

ان أوفيد (٤٣ ق .م ـ ١٧ م) يروي «التحولات» الفصل الثامن ، الأبيات من ٦٢٦ الى
٧٢٤ حكاية رجل وامرأته تقيين عجوزين يدعيان فليمون وبوكيس ، وانهما كانا العادلين
الوحيدين في اقليم افروجيا Phrygia (اقليم قديم في آسيا الصغرى كان يشغل الجزء الغربي
من هضبة الأناضول ، بين لوديا وقبدوقيا ، واختلفت مساحته جدا بحسب العصور) .

وقد حاول الالاهان : جوبتير ومركوريوس العثور على من يستضيفهما ، فـ

يستضيفهما الا فليمون وبوكيس في كوخهما الصغير فأخذهما جوبتير معه الى رابية ، حيث شهدا كيف أن الاقليم كله قد غطاه الفيضان ، بينما تحول كوخهما الى معبد . ولما سألهما جوبتير أن يطلبا أمنية لهما ، أجابا : نريد أن نكون خادمين للمعبد وأن نموت بعد ذلك في وقت واحد معا . فحقق لهما جوبتير أمنيتهما ثم تحول فليمون الى سنديانة ، وتحولت بوكيس الى زيزفونة .

وقد صار هذان الاسمان : فليمون وبوكيس رمزا لزوج وزوجته عجوزين مؤمنين تقيين .

بيد أن جيته ـ كما أشرنا ـ يقول في حديثه مع اكرمن (٢ :٣٤٨) : «ان فليمون وبوكيس عندي (في «فاوست» الثاني) لا شأن لهما بهذين الزوجين الشهيرين عند القدماء وما ارتبط بهما من أسطورة . وإنما أنا أطلقت اسميهما على ذينك الزوجين . عندي ، لأرفع من شأنهما . ان الأشخاص متشابهون والظروف متشابهة : ولهذا فان تشابه الأسماء يحدث انضباعا مواتياً» .

في مكان فسيح طلق ، على كثبان رمل شاطئ البحر القديمة ، يظهر مسافر أمام كوخ الزوجين العجوزين . وكان هذا الكوخ قبل ذلك قريبا جدا من البحر ، أما الآن فبسبب الأشغال التي قام بها فاوست صار بعيدا عن البحر كثيرا . وهذا المسافر ، الذي صار الآن كبير السن ، كان وهو شاب قد أنقذه فليمون من الغرق لما غرقت به السفينة واسترد حياته بفضل عناية فليمون وزوجته بوكيس . وهو قد جاء اليوم ليفيهما حق الشكر على إنقاذه .

ويجري الحديث بين الثلاثة : فتتكلم بوكيس كثيرا ، ويصحح لها زوجها بعض أقوالها . والمسافر مملوء بالذكريات ، ومشاعر عرفان الجميل ، وهو يشرح لنا في حديثه مع فليمون ما تعرض له من خطر البحر وكيف أنقذه فليمون . وترسل الزوجة القول المستفيض بالأخبار المروعة : أعمال السحر ، والضحايا البشرية في الليل أثناء الأعمال الانشائية . في النهار كان الخدم يحدثون ضجة في غير طائل ، وتهوي المساحي والجاروفات ، وحيث كانت تتطاير المشاعل في الليل ، وكان يقوم سد في النهار التالي . وراحت ضحايا بشرية ، وطوال الليل كانت ترن أصداء الشكاة ، وفي الصباح كانت هناك قناة . وتصف من فعل هذا (فاوست) بأنه كافر ، وكوخهما يغريه . ويرد زوجها بأنه عرض عليهما في مقابل ذلك أرضا جيدة في الأرض الجديدة ـ فتقول بوكيس : لاتثق بأرض نشأت من الماء ، واعتصم بما هو عال .

فيرد فليمون : «لنمضِ الى المصلى ابتغاء تأمل النظرة الأخيرة للشمس! لنقرع الناقوس ، ولنركع ، ولنصل ، ولنجعل ثقتنا في الله القديم» .

ب ـ وصول السفن

ثم ينتقل المشهد الى قصر تحيط به حديقة غنّاء واسعة ، تربطها بالبحر قناة كبيرة
وفاوست ، وهو في سن عالية جدا ، يتريض مفكرا حزينا ، لا تسليه أغاني حارس البرج ـ
ويدعى أيضا لنقيوس ، مثل حارس القصر الحصين في أركاديا ، ومثلما كان يدعي بان
سفينة الأرجونوت ، ـ ولا وصول السفن محملة بالبضائع النفيسة . أنه لا يسمح لا قرع
الناقوس في المصلى ، ولا يرى شيئا غير كوخ فليمون وبوكيس الذي يبدو له قذى في
عينيه : فيلعن قرع الناقوس لأنه يذكره بأن ملكه ليس نظيفا طاهرا من الغير : فموضع
الزيزفون ، والكوخ الكابي ، والمصلى المتهدم ليست له . ان هذه شوكة في عينيه . شوكة
في صفحة قدمية . ويعلن الديدبان لنقوس عن مجيء السفن .

ويدخل مفستوفيلس معه الأشداء الثلاثة . فيتباهى مفستوفيلس بالسفن وما حمته
لكن الأشداء الثلاثة يتذمرون لأنهم لم ينالوا حصتهم . فيهدئهم مفستوفيلس بأن فاوست
حين يشاهد ما جاؤوا به من مغانم من القرصنة البحرية ، لن يبخل عليهم بالمكافأة .

لكن فاوست مهموم بذلك القذى : كوخ الشيخين العجوزين ، فيأمر مفستوفيس
ورجاله الثلاثة بأن يزيلهما هما وكوخهما بالقوة .

ويعلق مفستوفيلس على هذا قائلا : «هنا يحدث ما حدث منذ زمن قديم لكرمه نابوت
اليزراعيلي ، كما ورد لك ذكرها في سفر الملوك الأول (الفصل ٢١) . ذلك أنه كانت لنابوت
اليزرعيلي (من يزرعيل) كرمة بالقرب من قصر احاب ، ملك السامرة .

فطلب منه احاب أن يتنازل له عن هذه الكرمة ليجعل منها بستانا للبقول لأنها قريبة من
قصره ، وفي مقابل ذلك سيعطيه كرمة أكبر وأفضل ، وان فضل المال ، أعطاه مالا . فأجاب
نابوت : « حفظني الله من أن أتنازل لك عن ميراث آبائي » .فتضايق احاب ، وعاد كسيفا الى
بيته . فقالت له زوجته ايزبل : ماذا يحزنك ؟ فأخبرها بالسبب . قالت له : ألست أنت من
اسرائيل ؟ انهض ولا تحزن ، سآتيك أنا بكرمة نابوت . ودبرت مؤامرة ضد نابوت بأن يشهد
عليه رجلان بلا ضمير أنه أهان الله والملك . ثم يخرج ويرجم بالحجارة . وتم تنفيذ المؤامرة .
وأخبرت ايزبل بما حدث . فقالت لزوجها احاب : الآن اذهب وخذ كرمة نابوت ، فقد مات
فنهض احاب وتوجه الى كرمة نابوت ليستولي عليها . لكن الله كلم ايليا ، النبي قائلا : انهض
واذهب الى احاب ملك اسرائيل الموجود في السامرة ، انه في كرمة نابوت وعلى وشك
الاستيلاء عليها . وقل له : يقول القديم : لقد قتلت والآن تستولي! وهكذا يقول القديم : في
هذا الموضع الذي فيه لعقت الكلاب دم نابوت ، دمك أنت أيضا ستلعقه الكلاب » .

وقال القديم أيضا ان الكلاب ستلتهم ايزبل في أرض يزرعيل . لكن احاب لما سمع هذا الكلام مزق ثيابه وغطى جسمه بالخشن وصام . وجزاء لكفارته هذه قرر الرب الا يكون البلاء في حكمه هو ، بل في زمان حكم ابنه .

جـ ، د ـ هموم فاوست وعماه

تتوالى وخزات الضمير على فاوست من جراء فعلته هذه وهي الأمر بطرد فيلمون وبوكيس بالقوة من كوخهما ونسف هذا الكوخ . ويقول وهو يقف في الشرفة المطلة على الكثبان في الليل العميق . « كنت أريد مبادلة ، ولم أرد سلبه . ان هذه الضربة الوحشية حمقاء ، أنا ألعنها! »

ثم يلمح أشباحا تتقدم نحوه ، أشباح أربع سيدات عجائز : الأولى تدعى : الفقر ، والثانية : الديون ، والثالثة : الهم ، والرابعة : الضرورة . ويقلن : الباب مغلق ، لا نستطيع الدخول في الداخل يسكن ثري . ويقول الفقر : هنا أصير شبحا . وتقول الديون : هنا نصير عدما . وتقول الضرورة : ستشيح عني الوجوه . أما الهم فيقول : انتن يا أخواتي لا تستطعن الدخول ، ولا تجرؤن . أما الهم فسيندس الى الداخل من ثقب المفتاح . ثم تنبأت بمصير فاوست : « السحب تجري ، والنجوم تغور! وهناك في الخلف ، هناك ؛ في الخلف! من بعيد ، من بعيد ها هو ذا أخونا قادم ـ انه الموت » .

ويعجب فاوست من هذه الأشباح التي رآها قادمة وهي أربعة ، لكنها وهي ذاهبة لم يذهب منها الا ثلاثة . ويدهش لكلمة : الموت : « لأنني لم أتحرر بعد بواسطة النضال . لو كان في استطاعتي أن أبعد السحر عن طريقي ، وأن أنسى تماما تعويذات السحر ، ولو وقعت أمامك ، أيتها الطبيعة ، انسانا فقط ، لكان من الخير أن يكون المرء انسانا . لقد كنت كذلك فيما مضى ، قبل أن أبحث عنه في الظلام ، وقبل أن ألعن نفسي وألعن العالم ، بكلمة آثمة . والآن صار الجو مليئا بظهور الأشباح ، حتى لا يدري المرء ماذا ينبغي عليه أن يفعل لتجنبها » .

ويشعر بالباب وهو يئز ، لكن أحدا لا يدخل . فيسأل : هل هنا أحد ؟ فيرد عليه الهم بالايجاب . فيسأله فاوست : ومن أنت ؟ فيقول الهم : أنا ها هنا . فيطلب منه فاوست أن يبتعد . فيقول الهم : إني في مكاني المناسب . لو لم تسمعني اذن ، فإني مع ذلك أرن في القلب .

وبشكل متغير أنا أمارس قدرة وحشية . أنا الرفيق في الطريق ، وعلى سطح الماء . يلتقي بي دائما دون أن يطلبني أحد مملق وملعون معا . ألم تعرف الهم ؟

فيجيب فاوست : لم أعبر الدنيا إلا مسرعا ، تعلقت بكل شهوة ، وما يرضيني تر...
يذهب ومـا أفلت مني ، تركته يمضي . أعرف الكرة الأرضيـة معرفة لابأس بهـ...
الماوراء ، فمحجوب عن النظر ، وأحمق من يتجه ببصره الى هناك . ما حاجة الانسـ...
التحول الشارد في الأبدية!»

فيقول الهمّ : «اذا استوليت على أحد ، لم يفده العالم كله في شيء ، بل تنزل عليـ...
الظلمة الدائمة ، ولا تشرق عليه الشمس ولا عنه تغرب ، ومع بقاء الحواس الخـارجية
سليمة ، تسكن الظلمات في داخله . ولا يستطيع أن يملك أي كنز من الكنوز . والسعـ...
والشقاء يصيران وهما ، إنه يموت في الوفرة ، سواء أكان ذلك نعمة أو نقمة ، فإنه يؤجـ...
الى الغد ، إنه لا يهتم الا بالمستقبل ، وهكذا لا يفرغ ويكفل أبدا» .

فيصرخ فاوست في الهمّ : لن تستولي علي! ولا أريد سماع مثل هذا الهراء! اغربـ...
عني! لكن الهم ينهال عليه بالتخويف والارهاب ، وينعت فاوست بالتردد ، وبالضيـ...
وبالخور ، وبالاختناق .

فيصيح فاوست : أيتها الأشباح المنحوسة! هكذا تعاملين الجنس الانساني آلاف
المرات وتحولين الأيام العادية الى سلسلة من العذابات . ولن أقرّ أبدا بقدرتك ، أيها الهم
مهما كانت سرّية وكبيرة!

فيعاوده الهم بالتقريع : جرب ذلك ، من النحو الذي عليه انصرف عنك بسرعة و...
ألعنك . ان الناس عميان طوال حياتهم كلها . والآن ، أي فاوست ، صر كذلك في النهاية .
ثم ينفث الهم أنفاسه في وجهه .

فيصير فاوست أعمى على الفور . وها هو ذا يشكو حاله وقد فقد الابصار : يبدو لي ...
الليل قد نفذ فيّ بعمق ، لكن في داخل باطني يتألق نور متلألئ . ما فكرت فيه لا بد من
تنفيذه ، ان كلمة السيد هي التي تعطي الوزن . هبّوا من فراشكم أيها الخدم! نفذوا بسرور
ما خططته أنا بجسارة . أمسكوا الأدوات ، حركوا المعاول والمنكاشات ، ما خططناه لا بد
أن ينجح . من النظام القاسي ، والجهد السريع ، تجني أفضل الثمار . كيما ينجز أعظم
الأعمال يكفي عقل واحد لتوجيه آلاف الأيدي .

وهكذا يستعيض فاوست عن عماه الحسي ، بالابصار الباطن ، عن عمى البصر بنور
البصيرة ، فيمجد الفعل ويدعو الى التحقيق ، ولا يحفل بما يجلبه الهم ، حتى لو كان
العمى ، فالعمى طبيعي الحدوث فيمن بلغ المائة .

هـ ـ وفاة فاوست

لكن فاوست ، رغم أنه أصيب بالعمى ، يريد أن يتم عمله . وهو الآن قد تخلى عن ـسحر ، واذا كان مفستوفيلس لايزال في صحبته ، فما ذلك الا بوصفه مشرفا على العمال فحسب . لكن لم يعد لمفستوفيلس أي سلطان عليه . كذلك هو يعلم جيد العلم أنه مضطر ى ارتكاب مظالم والى استخدام العنف من أجل تنفيذ مشروعاته . ذلك أن العامة لا تدرك ـ هو الهدف المقصود ، وليس لديها الحافز العام Gemeindrang الذي يدفعها الى تحقيق تصورات الطوباوية التي تختلج في ذهن فاوست .

إن عليه أن يجعل الجمهور يشعر بالحافز للخدمة العامة ، عليه أن يحرك عماله « بالمتعة والشدة » معا : وذلك باجتذابهم بالأجور العالية وبالضغط عليهم في آن واحد .

وعماه يحول بينه وبين رؤية الواقع ، اذ لا يدرك أن موته الوشيك سيضع نهاية ـمشروعاته ولتنفيذ مخططاته ، وأن مآل عمله ، كمآل كل شيء الى العدم ، كما نبهه الى ذلك مفستوفيلس (البيت رقم ١١٥٥٠) .

انه لم يقنع بما تم انجازه : من إقامة سد على شاطئ البحر يمنع مياهه من أن تغمر لأرض التي جففها واستصلحها ، ومن أبعاد العناصر المدمرة في عنصر الماء عنها ، ومن كتساب أرض جديدة عمّرها الناس . ذلك أن بين البحر وبين سلسلة الجبال مستنقعا يجب تجفيفه وزراعته ، لأنه يريغ الى جعل هذا الاقليم جنة خصبة مثمرة دائمة الخضرة : فالحقل خضر خصب ، والانسان وقطعان الماشية سعيدة على الأرض الجديدة (البيتان ١١٥٦٥-٦) .

عندئذ يتحقق عصر ذهبي ، لا بواسطة الطبيعة وحدها ، بل خصوصا بفضل سعي لانسان . وهذا يتطلب من الانسان مجهودا مضاعفا متواصلا . ولا بد لذلك من « شعب حر » ، و« أرض حرة » ، و« حافز عام » (البيت رقم ١١٥٧٢) . وليس المقصود بالحرية هنا في المقام الأول الحرية السياسية ، بل الحرية إزاء الطبيعة والبيئة . وهذه الحرية لا تكتسب الا بالنشاط المتواصل والفعل الدائب .

وكما يقول ترونتس : كلمة « حر » هنا تعني في المقام الأول : حر من العوز ، من الديون ، من الهم ، من الحاجة ، وأيضا حر من السحر (ص٦١٩) . وكلمة « أرض حرة » لا تعني الحرية السياسية في المقام الأول ، بل الأرض الحرة هي التي ليست وليدة قوانين الطبيعة ، بل هي الأرض التي من صنع الانسان ، والتي شكّلها مجهود الانسان . كذلك كلمة « شعب » كما لاحظ ترونتس : « ينبغي أن تفهم بالمعنى الذي قصده جيته وكان شائعا في

القرن الثامن عشر ، حيث كانت كلمة «شعب» تعني : جمهورا من الناس ، وليس بالمعنى المعاصر الذي صنعه الرومنتيك والقرن التاسع عشر» (الكتاب نفسه ، ص٦١٩) . أي الشعب هو مجموع الناس بكل طبقاتهم ودون أي تمييز .

ويتميز هذا الشعب الحر بالتكافل : فإن حدثت شروخ في السد ، فلتبادر روح التكافل العام لسدها (البيت رقم ١١٥٧٢) . يقول فاوست : «لهذه الفكرة كرست كل كياني . . فيها الدرس الأخير للحكمة : وحده يستحق الحرية والحياة من عليه أن يظفر بهما كل يوم وهكذا تدور الطفولة ، والسن الناضجة ، والشيخوخة دورتها الخصبة ، محاطة بالأخطار أريد أن أرى هذا الاحتشاد ، وأن أقف على أرض حرة بين شعب حر . هناك أستطيع أن أقول للحظة التي تمر : توقفي ، فلكم أنت جميلة! (الأبيات ١١٥٧٣-١١٥٨٢) . إنه توقف آني فحسب ، ابتغاء التملي والاستمتاع بما أنجز من أعمال عظيمة . «وفي الشعور المستبق بهذه السعادة السامية ، استمتع الآن باللحظة العليا» (البيتان ١١٥٨٥-١١٥٨٦) .

وما ينطق بهذه العبارة الأخيرة حتى يخر صريعا ، وتمسك به الليمورات وترقده على الأرض .

فيأخذ مفستوفيلس في رثاء حال فاوست : «لم تشبعه لذة ، ولم يقنع بأية سعادة ، لقد ظل يحلق باستمرار طلبا لأشكال متغيرة . وها هو ذا المسكين يتمنى أن يمسك باللحظة الأخيرة السيئة الخاوية . وها هو ذا من قاومني بكل قوة ، قد سيطر عليه الزمان ، ورقد الشيخ هنا على الرمل . ان الساعة وقفت» .

* * *

والمدينة الفاضلة التي نشدها فاوست قد اختلف الباحثون في تقديرها . وكان لكل مفسر في القرن الماضي وجهة نظر في التفسير أملتها عليه نظرته السياسية والاجتماعية .

لقد اتفقوا على أنها وليدة انتصار التكنولوجيا على الطبيعة . لكنهم اختلفوا في المثل الأعلى الذي تستهدفه بين لبراليين ، واشتراكيين ، ووطنيين . والاختلاف نفسه تقريبا نجده عند الباحثين في القرن العشرين :

فركرت[١] يقول : ان فاوست لم يعد يضع نفسه وحده في مركز عمله ، ليبقى هو «الأعلى» والآخرون خاضعون له ، بل يولج ذاته بين الملايين ، الذين من أجلهم يعمل . على المستوى نفسه من تأكيد الذات . وفي هذا الشعور بالتكافل مع الجمهور الذي يعمل ـ

(١) H. Rickert: Goethes Faust. Tubingen, 1932

وهو تفسير لا يتناقض مع حروف النص - يقوم التحول الأخير في تطور فاوست» . (ص٤٢٨) .

ويقول بويتلر[١] : «ان هنا تحولا حاسما في تحول فاوست عن «الأنا» ، عن الحياة المتعلقة بذاتها فقط ، الى «الأنت» ، الى العمل من أجل مجموع الشعب» .

ويقول كورف[٢] : «ان الأمر الواقع في فاوست الثاني يقوم في أنه استشرق الى شيء آخر (في المستقبل) وليس مجرد رمز لزمان مضى ، بل هو رمز لزمان قادم جديد . وقد تم هذا بعرض «عالم العمل» الذي انتقلنا به من القرن الثامن عشر الى القرن التاسع عشر : ذلك العالم الذي تناولته أيضا قصص جيته المتأخرة . إن فاوست لم يجعل فقط من عالم الجمال رمزا رائعا ، بل كان أيضا رمزا أسطوريا لعالم العمل وأهميته لنظرة الانسان الحديث الى الحياة . وهذا ما جعل «فاوست» قصيدة قومية عظيمة ، وجعله الى حد متزايد «الكتاب المقدس» للعصر الحديث .

* * *

أما قول فاوست للحظة : «توقفي ، فلكم أنت جميلة» - فهو أمنية حارة لنيل الخلود بوقف عجلة الزمان عن الدوران . لقد شعر فاوست وهو على وشك الموت أنه صار بين الزمان وبين السرمدية ، بين التناهي وبين اللانهاية . انه يود لو أن عمله يخلد ، لكن هيهات ، هيهات ، فالفناء لكل شيء بالمرصاد . وكما قال مفستوفيلس : «من القصر الشامخ الى البيت الضيق ، هكذا بحماقة يمضي كل شيء الى منتهاه» (البيت رقم ١١٥٢٩-١١٥٣٠) .

* * *

ومفستوفيلس ، بوصفه ناظر أشغال ، يستعين باللمورات Lemuren ، و«هي مخلوقات ناقصة فضفاضة ذات رباطات وعضلات وعظام» (الأبيات ١١٥١٢-١١٥١٤) . وقد عرف جيته اللمورات Lemuren من دراسته للفن القديم . اذ قد نشر كارل لودفج زكلر Sickler رسوم ملورات كانت منقوشة على قبر في كوما Cumae (في ايطاليا) ، وقد كتب عنها جيته مقالا في سنة ١٨١٢ بعنوان : «قبر الراقصة» . واللمورات هي أشباح الموتى ، وهي تتجول وتؤذي الناس .

---

(١) E. Beutler: Faust und Urfaust. Leipzig, 1940, 5. Lxxai

(٢) H. S Korff: Der Streit Um Faust II Seit 1900. Jena, 1939

و ـ من الذي كسب الرهان ؟

والآن وقد توفي فاوست ، يثار السؤال : من الذي كسب الرهان : فاوست ، مفستوفيلس ؟

وقد شغلت هذه المشكلة الباحثين منذ منتصف القرن الماضي حتى يوم الناس هذا. وقد استعرضت آدا م . كلث Ada M. Klett ، في كتابها : «الخلاف حول فاوست الثاني منذ سنة ١٩٠٠ » حتى تاريخ ظهور كتابها في سنة ١٩٣٩ مختلف الآراء في هذا الموضوع وانتهت الى أنه ما بين أربع وأربعين باحثا في هذه المشكلة نجد :

ـ أن ٢١ قالوا ان فاوست كسب الرهان ،

ـ وأن ١٠ أكدوا أن فاوست ، من حيث المعنى الحرفي ، خسر الرهان ، لكنه على مستوى أقل كسبه ،

ـ وأن ١٣ رأوا أن فاوست قد خسر الرهان .

ولمعرفة الأسباب التي بنوا عليها أحكامهم ، ينبغي الرجوع الى كتاب أدا كلت هذا .

ونجتزئ الآن بذكر تفاصيل آراء بعضهم :

أ ـ فان أوبناور[1] (ص٢٠٦) يقول : «مفستوفيلس خسر الرهان ، لأنه لم يظفر بسلطان مستمر على روح فاوست ، ولم يصرف هذه الروح عن ينبوعها الأصيل . ولم يستطع أيضا أن يشوش على شعوره باستمرار» .

ب ـ وركرت (كتابه المذكور ، ص٤٣٤) يقول : «بينما فاوست يتكلم هكذا (توقفي...) فانه يفعل شيئا لا يحق له أن يفعله بموجب رهانه مع مفستوفيلس . وهذا أمر لا شك فيه . ونص الشعر لا يسمح بأي تفسير آخر... يقول البعض : ان فاوست لا ينادي اللحظة أن تتوقف ، بل يقول فقط « كان علي» Durfteich ويتحدث فقط عن شعور سابق بسعادته السامية . وهذا صحيح ، لكن هذا لا يغير شيئا من الحقيقة وهي أن فاوست خسر الرهان بهذا .

ان الأمر الرئيسي الذي ينبغي تقديمه قبل كل شيء يبقى هو ، أعني أن فاوست الذي طعن في السن جدا يعرف في النهاية هدفا لو أنه وصل اليه لأرضاه على الدوام...... ولنفس الكلمات التي بها خاطر بحياته من قبل ، يقول الآن : «يوجد مثل هذه السعادة» . فمن رأي ركرت اذن أن فاوست خسر الرهان بهذه الأمنية .

---

(١) K. J. Obenauer: Der Faustische Mensch Jena, 1922

جـ ـ أما كورت هيلدبرنت[1] فيقول : «لقد أراد فاوست في الرهان أن يقول إنه يسعى ضلما هو يحيا ، لا أنه خالد جسمانيا . ان نهاية رهان فاوست مع مفستوفيلس مشتركة لمعنى : مفستوفيلس ينتصر ، لأن فاوست عبر عن هذه الأمنية (توقفي أيتها اللحظة...) وفاوست ينتصر ، لأنه لا يقولها الا عند الموت . لكن بالنسبة الى تنفيذ الميثاق فان هذا لاشتراك في المعنى لا أهمية له ، لأن الميثاق سيسقط مع الموت أيا كان الوضع » .

وفي اتجاه مشابه لما يقول كورت هيلدبرنت يقول فلتر هوف[2] : «انه من الحمق أن نسأل : من الذي كسب ، ومن الذي خسر كلا الرهانين . فمثل هذه الأسئلة القاطعة شأنها شأن الرهانات لا قيمة لها ، ولا معنى لها تجاه ما يحدث . ان في هذه المسرحية « فاوست » مستويين ، وفي العالم بوجه عام . الأول هو مستوى الرب ، الذي عليه كانت بداية لمسرحية ، وعليه تنتهي ، وهو يندرج تحته المستوى الثاني ، وهو المستوى الانساني . ان فاوست انسان « طيب » ، ولهذا لا يمكن أن يخسره الرب ، وهو لم يخسر بعقد الميثاق مع لشيطان ، لأنه اذا ما نظر الى الأمر من حيث المستوى الالهي فان فاوست لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه ، كما هو ظاهر من كلام الرب (البيت رقم ٣٤٠ وما يتلوه) . ولهذا فان الرهان لظاهري بين الرب والشيطان ليس أمرا غير لائق ، لأنه مجرد مظهر فحسب... وفقط من نوبة لحماقة الكبرى يجرؤ الشيطان على أن يفسد للرب انسانا طيبا . فكل شيء اذن مقدر قدرا سابقا ، وأنه لأمر مفهوم بنفسه أن تظهر في النهاية الكتائب السماوية (الملائكة) لانقاذ فاوست ، ولا يجرؤ مفستوفيلس بعده على أن يستغل ميثاقه » .

وعلى عكس هذا يقطع تيودورف . ادورنو[3] (ص١٦) فيقول : «لقد خسر الرهان في لعالم ، الذي تجري فيه الأمور بعدالة ، ويجري التبادل بين أنداد ، والرهان هو نفسه صورة سطورية للتبادل ـ فان فاوست خسر الرهان » .

ز ـ دفن فاوست

ومشهد دفن فاوست يعود بنا الى مجال «الاستهلال في السماء» ، حيث لا سلطان لمفستوفيلس . فصار يشك في جدوى الميثاق المكتوب بالدم من أجل الظفر بروح فاوست ، «لأنه صار هناك الكثير من الوسائل لانتزاع الأرواح (النفوس) من الشيطان» (البيت رقم

---

(١) Kurt Hildebrandt: Goethe. Seine Welt Weisheit Leipzig. 1941.

(٢) Walter Hof: "Fausts Ende" in German Roman Moutats. 1939.

(٣) Theodor W. Adorno: Noten Zur Yiteratur. II. Frankfurt. 1961.

١١٦١٤ وما يليه) . وراح يشكو من أن «الموت القديم» قد فقد «قوته المباغتة» (بيت رقم ١١٦٣٢) ، بل صار «متى» ، و«كيف» و«أين» يكون الموت ، بل «وهل» ثم موت - أمرا مشكوكا فيه (١١٦٣١ وما يليه) . لأن نقدم العلم ، والطلب بخاصة ، ونزعة التنوير قد حدا من سلطان الشيطان في الأرض ، وصار في وسع الانسان التغلب على الطبيعة . - وعلى سحر الشيطان وكيده . ومن هنا وجدنا الشيطان يوصف في «ليلة فالبورج» الأولى - «فاوست» الأول ، بعد (البيت ٤٠٩١) بأنه «يلوح أنه قد صار عجوزا جدا» .

وها نحن أولا نراه الآن أمام جثة فاوست قليل الحيلة ، بل عاجزا : «في الماضي كـ في وسعي انجاز الأمر بمفردي ، أما اليوم فلا بد لي من استدعاء أعوان . الأمر يسو بالنسبة الينا من كل ناحية! ولم يعد من الممكن الاعتماد على العادات التقليدية ، وعلى الحقوق القديمة . في الماضي كانت الروح تخرج مع آخر نفس . فكنت أترصدها ، ومثل الفأر السريع جدا كنت ألتقطها بين مخالبي المشدودة بثبات . أما الآن فانها تبدي عن حركات ، ولا تريد الخروج من المكان المظلم ، من البيت الكريه للجثة الردينة» (الأبيات ١١٦١٨-١١٦٢٧) .

ذلك أن روح فاوست ، أنطلاشياه Entelechia تبقى في الجسد طالما لم يتحرر الجسد ، وطالما بقيت الروح الخلاقة محتفظة بصورة البدن ، وطالما ظل البدن محتفظ بصورته ، أي طالما كانت القوة الفعالة والقوة لصورة لاتزال تفعل ، فان الانسان لا يموت بالمعنى الحقيقي . لكن الصراع بين العناصر يدمر الصورة شيئا فشيئا . «فلا يكون هناك ضمان محايث للسرمدية والقوة الفعالة والمصورة ، ولهذا لا بد حينئذ من ضمان يأتي من أعلى» . لكنه يختلف عن كل تصور ديني للنجاة والخلاص اختلافا أساسيا ، من حيث أنه في أساسه هو تكشف قوة النفس المصورة المحجوبة والنور الباطن ، وليس تدخلا للانقاذ غير مفهوم صادرا عن العالم الآخر» - كما قال امرش[1] .

والأعوان الذين يستنجد بهم فاوست هم ذوو القرن المستقيم ، وذوو القرن المعوج . هؤلاء الشياطين العريقون في الشيطانية ، هو يدعوهم أن يأتوا معهم بفوهة الجحيم ، لأن الجحيم لها عدة فوهات ، وهي تلتهم الناس بحسب مكانتهم .

وتنفتح فوهة الجحيم ، فيتدفق سيل من نار ، ومن خلال الأبخرة التي تغلي تشاهد مدينة اللهيب في لهيبها الدائم . والموجة الحمراء تتقدم حتى الأسنان ، والمدانون الآملون

(1) Wilhelm Emrich: Die Symbolik Von Faust II.2. Aufl. Bonn, 1957

في الخلاص يسبحون تجاه المخرج ، لكن الضبعة الهائلة تمسك بهم وتطحنهم طحنا . ويمضي مفستوفيلس في هذا الوصف المروع للجحيم ، الذي كان الديكور الجحيم في العصر الباروكي في المسارح في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ومن النماذج له ما قدمه بورنتشيني في فينا سنة ١٦٨٨ في ديكور الأوبرا التي عنوانها «التفاحة الذهبية» (الفصل الثاني ، المشهد السادس) فصار نموذجا يُحتذى في المسارح الألمانية .

* * *

وبعد ذلك ينزل «مجد سماوي» عن يمين الأعالي ، فيه يتجلى جند السماء ، وهم مرسلون من السماء ، وينشدون : «أعطوا المغفرة للخاطئ ، والبعث للتراب ، والى كل الطبائع وفروا السعادة» .

فيتضايق مفستوفيلس من هذا النشيد ، الآتي من أعلى ، وينعته بأنه نشيد أطفال جوقة يستطيبه ذوق الأنقياء . ويقول ان هؤلاء المرسلين من أعلى «قد سلبونا الكثير من الأرواح ، هم يحاربوننا بأسلحتنا نحن . انهم شياطين أيضا ، ولكن مستخفون . وستكون خسارتنا هنا عارا أبديا» .

وتستأنف جوقة الملائكة نشيدها العذب ، وهم ينثرون الورود ، ويملأون الجو عطرا . ذلك أن فيهم قوة الحب فعالة ، ولأنهم يبدعون الحياة ببعثهم الموتى من التراب ، ويسمون بالحياة بما يطبعونه على الأحياء من سمات خالدة . والورود التي ينثرونها هي رموز عن الحب الالهي . وقد استقى جيته هنا رمز الورود مما ذكره الشاعر الايطالي تسو في ملحمته «أورشليم محررة» (النشيد الثالث ، الفقرة١) .

والورود ، باعتبار أنها تؤسس الحياة بوصفها رموزا للحب ، تحول قبور الموتى الى فردوس (البيت رقم ١١٧٠٨ وما يليه) . ولون الورد : الفورفير والأخضر (البيت ١١٧٠٧) له معنى صوفي عميق : لأن لون الفورفير يعبر عن «الرضا المثالي» ، ويعطي انطباعا بالجد والجلال وباللطافة والرقة معا ، كما قال جيته في «نظرية الألوان» . والأخضر يحقق رضا واقعيا .

ثم ان أزهار الورد تعطي الشعور بالشعلات (البيت رقم ١١٧٢٧) : لأن الوردة تركز في داخلها النور السماوي الذي ينشر الحب والوجد في الدنيا ، ويشيع الوضوح في العالم السماوي .

وكون الملائكة ليسوا اناثا ولا ذكورا يجعل الحب الذي يبشرون به خاليا من كل شهوة حسية . وعلى عكس ذلك يفهم مفستوفيلس من الحب : انه يرى فيه الشهوة الجنسية

الخالصة . ولهذا سيكون ضحية للحب الشهواني ، بل وللشاذ منه! ذلك أنه سرعان ما يقع في غرام هذه الكائنات الصغيرة الجميلة ، أعني الملائكة . فيغازلهم قائلا : «أنتم لطاف وبودي أن أقبلكم ، ويبدو لي أنكم جئتم في الوقت المناسب . ان حضوركم لذيذ ، أنيس كما لو كنت شاهدتكم من قبل ألف مرة... تعالوا بالقرب مني ، وامنحوني نظرة واحدة» (١١٧٧١-١١٧٧٧) . ويتغزل بشكل شهواني فاضح في ملك طويل القامة منهم ، ويناشده أن يتعرى أكثر ، لأن قميصه أطول من اللازم . ويستدير الملائكة فيشاهدهم مفستوفيس من خلف ، فيقول : «هؤلاء الظرفاء يثيرون الشهوة حقا!»

ثم يتدارك نفسه من هذا الضعف الذي وقع فيه ، ويلعنهم .

وترتفع جوقة الملائكة الى السماء حاملة معها الجزء الخالد في فاوست .

ويلتفت مفستوفيلس حواليه فلا يجدهم : لقد طاروا الى السماء حاملين غنيمتهم روح فاوست . فيندب حاله : «ان كنزا عظيما ، كنزا فريدا قد أفلت مني . هذه الروح السامية التي أسلمت نفسها الي ، لقد اقتنصوها مني بمكر ودهاء . فلمن اذن سأشكو منذ الآن ؟ ومن سيرد الي حقوقي المكتسبة ؟ لقد خدعت في أواخر أيامك . وأنت تستحق ذلك ، وبليتك قاسية» .

لقد بدد الجهود الشاقة التي بذلها حتى الآن في سبيل الظفر بروح فاوست ، لكن «شهوة دنيئة ، وحبا أحمق ، استولى على الشيطان المحنك» .

وهكذا صعد الملائكة بروح فاوست الى السماء ، وأخفق الشيطان اخفاقا ذريعا في الظفر بها .

ح ـ أخاديد في الجبل

والمشاهد الأخيرة من «فاوست» الثاني تجري بين أخاديد في الجبل ، وغابة ذات مغارة على منحدر الجبل ، يقطنها رهبان خلوتيون يقطنون في صوامع يعلو بعضها فوق بعض على سيف الجبل . وبينهم يحلق علوا وسفلا «الأدب المجذوب» ، وهم جميعا يذكرون بأوصاف لا بأسماء ، وهذه الأوصاف تعبر عن النهج الذي اتخذه في العبادة ابتغاء الاتحاد بالألوهية .

ويبدأ هذا «الأب المجذوب» بتلاوة دعاء ، وهو يحلق مرتفعا ونازلا ، يقول فيه كلمات عشقية وذوقية : «لهيب السعادة الدائم ، رابطة العشق المشبوب ، ألم القلب العاصي ، النشوة الالهية الفياضة ، أيتها السهام انفذي في داخلي ، أيتها الرماح اقهريني .

أيتها العصي اسحقيني ، أيتها البروق مزقيني! حتى يزول العدم كله ويسطع نجم العشق الأبدي » ـ وهذه العبارات تذكرنا بالكلمات العشقية عند الصوفية المسلمين الاشراقيين بخاصة . انه ينشد بالعشق التخلص من الفاني حتى لا يبقى الا الدائم . وموضوع العشق هو المقصد الدائم Leitmotiv في كل هذه المشاهد الأخيرة .

ويتلوه في الانشاد «الأب العميق» ، وسمي بذلك لأنه يقيم في أعماق هذا الجبل ، وهو في الدرجة الدنيا من مدارج النفس . وكلامه يعبر عن مرحلة الليلة الظلماء في معراج الصعود . فحواليه صخب وحشي ، كما لو كانت الغابة والصخور تزلزلت . لكن العشق القدير ، الذي يصور كل شيء ، ويحفظ كل شيء . يبعث بالغيث لدى الوادي ، والبرق الخاطف سيصفي الجو المليء بالأبخرة والسموم . وهو يدعو الله أن يهدي أفكاره ، وأن يضيء قلبه المسكين . لأن الشلال ، والبرق ، وكل ما ينبت الخضرة هو من صنع العشق .

وفي المنطقة الوسطى من الجبل يقيم «الأب السرافي» (= الشبيه بالملائكة السرافيين) ، وهو يناشد الأطفال المولودين في منتصف الليل ، ولم تكد تتفتح عقولهم ولا حواسهم ، وضاعوا على آبائهم ، وكسبهم الملائكة ، أن تقترب منه لأن قلبه مشبوب بالعشق . وهو يدعوهم أن ينزلوا في عينيه ليروا بهما منظر الأشجار والصخور والنهر المتدفق كالشلال .

لكن هؤلاء الأطفال «السعداء» ، يرون ذلك المكان شديد الحلكة والظلام ، يملؤهم رعبا وفزعا .

لذا يطلبون من «الأب السرافي» أن يدعهم يرحلون!

فما كان منه الا أن قال لهم : اصعدوا اذن الى فلك أعلى . وأنمو دائماً دون شعور ، تشد أزركم حضرة الله ، لأن هذا هو قوت الأرواح : أعني : كشف العشق الخالد الذي يتفتح الى سعادة طوباوية .

وتدور جوقة الأطفال السعداء محلقة حول أعلى القمم ، متابعة أناشيدها ، بينما الملائكة يحلقون في عليين حاملين العنصر الخالد في فاوست قائلين : العضو النبيل في عالم الأرواح نجا من «الشرير» (= الشيطان) ، «لأن من يظل دائما في سعي واجتهاد ، نحن نستطيع أن ننجيه» وخصوصا أن تشفع له العشق في عليين فان الجماعة الطوباوية تتقدم اليه وترحب من كل قلبها بمقدمه .

وينبغي على فاوست أن يبدأها هنا بداية جديدة تماما ، إنه يشرع في تطور جديد ، قبل أن يصل الى حضرة الله . ولايزال فاوست في حالة الطفولة حين يستقبله الأطفال السعداء

بسرور (البيت ١١٩٨١ وما يليه) . ان حياته في الدنيا لم تكن الا تمهيدا لنمو انتلخياه . في كماله الجوهري . ويتعاون فاوست مع هؤلاء الأطفال ويساعد كلاهما الآخر ، فهذا هو جوهر العشق المحسن . والأطفال الذين ماتوا صغارا أعلى درجة من فاوست ، لأنهم لم يتمرغوا في أدران الدنيا ، ففي وسعهم اذن أن يساعدوه على التخلص من أدران الدنيا (البيت رقم ١١٩٨٥) . وفي مقابل ذلك هو يعرفهم بأحوال الدنيا ، لأنهم هم أيضا يحتاجون الى تجربة الدنيا من أجل تنمية انتلخياهم : «ان هذا تعلم ، ولهذا سيعلمنا نحن» (البيت ١٢٠٨٢ وما يتلوه) . وعن هذا الطريق يصلون الى مرحلة امكان أن يصيروا ملائكة .

* * *

وفي المكان الأسمى في مراتب هؤلاء الآباء ، «في الصومعة العليا والأكثر طهارة ، يقيم الدكتور مريانوس Doctor Marianus» (البيت رقم ١١٩٨٩ وما يليه) .

وهو «العالم بكل شيء ، المشاهد لكل شيء ، المبجل ، والمنذر . انه اللسان الذي ينطق عن العشق الأبدي بأعلى لغة أرضية ، وهو أصفى صدى لما هو الهي في العالم» كما قالت دورتيه لوماير[1] . وهو يقيم في المنطقة الأرضية التي تفضي الى مناطق السماء . ونظره موجه الى السماء ، تجتذبه النسوة المحلقات (البيت رقم ١١٩٩١) وبهاء ملكة السماء (١١٩٩٥ وما يتلوه) ، وزرقة السماء .

وهو في حالة جذبه ، لكن جذبته ليست من نوع جذبة الأب السرافي ، تلك الجذبة الانفعالية المشوبة بالحواس . بل جذبة الدكتور مريانوس تصدر عن العلم ، والعيان . والكشف . وعشقه يجمع بين الجذب ، والعلم ، والاحسان . وهو في الطريق الى معاينة الله وجها لوجه ، وعليه أن يدعو الله ليكشف له عن الأسرار الالهية .

* * *

والى جانب مراتب الآباء الأرضيين ، تبرز الأرواح السماوية ، أعني الملائكة . وهم ينقسمون الى ملائكة شباب ، وملائكة كمل . والملائكة الشباب يغتبطون بنجاح روح فاوست وبالانتصار على رأس الشياطين العجوز (البيت ١١٩٤٢ وما يليه) . وهم يسلمون روح فاوست الى الأطفال السعداء . أما الملائكة الكمل فأغنى معرفة ، وهم يتأملون في ماهية العشق . وهم أيضا يحملون «بقية أرضية» ، أي أنه لايزال فيهم أثر من الدنيا ، وعليهم أن يتخلصوا منها . والقوة الروحية في الكائنات الأرضية «تضم اليها العناصر» ،

---

(١) Dorothea Lohmeyer: Faust und die Welt. Munchen, 1957, 5. 139

وهذه هي ماهية الانسان ، فهو مؤلف من طبيعتين متكونتين عن المادة والروح (البيت ١١٩٦٢) . ومهمة العشق الأبدي هي فصل الروح عن العناصر . فالعشق لا يقوم بالضم والتجميع ، بل بالعكس هو عنصر تفريق وتمييز ، يفصل الروح عن المادة ويميزها منها .

فهذا العشق يضاد الحب الذي عن طريقه جاء الانسان الصناعي الى الحياة . ولهذا نجد جالاتيا لا تتفق مع العذراء المقدسة ، ولا تحتمل احداهما الأخرى . «لكن تضادهما ليس هذا التضاد بين الحب الأرضي والحب السماوي ، فان كلتيهما هما الحب الالهي الواحد . ولكنه يبدو مختلفا بحسب الفعل المنتج لكل منهما . أحدهما يجري في المادة التي هي موضوع التحول ، والثاني يفك الانتلخيا من المادة ، حتى تحتفظ بقوتها العالية وتستبد بشكلها الفاني شكلا أسمى وأليق . والموت ، شأنه شأن الميلاد ، وهو سر من أسرار الحب . كلاهما يسلك تجاه الآخر مثل الزفير والشهيق ، انهما الحركة القطبية لكل حياة» ـ كما تقول دوروتيه لوماير في كتابها السالف الذكر (ص١٤١) .

* * *

وفي أعلى درجات مراتب الملائكة تحت مريم ، الأم الماجدة ، توجد التائبات (البيت ١٢٠٢٢) . ومن بين أفراد جوقتهن تبرز أصوات مفردة لـ «الخاطئة الكبيرة» Magna Pec-catrix ، التي دهنت أقدام يسوع ، ثم السيدة السامرية التي تكلم معها يسوع عند بئر يعقوب في سيخر ثم مارية المصرية Maria Aegyptiaca التي عاشت في الصحراء أربعين عاما كفارة عن خطاياها ، والثلاث يلتمسن من الأم الماجدة أن يغفر لـ «نفس طاهرة نسيت واجبها مرة واحدة» ـ وهي مرجريت ، صاحبة فاوست ـ وأن يمنحها المغفرة الملائمة .

وهنا تتقدم مرجريت ، وهي تائبة ـ وتتوسل الى الأم الماجدة (= مريم العذراء ، أم يسوع) قائلة : اعطفي ، اعطفي ، أيتها المنقطعة النظير ، الغنية بالشعاع ، وجهك بلطف على سعادتي! ان الحبيب الذي أحببته في مطلع عمري ، قد عاد اليوم بعد أن شفي من الفساد» . (الأبيات ١٢٠٦٩-١٢٠٧٥) .

ويقترب الأطفال الطوباويون في حركة دائرية ، ويقولون ان فاوست ، بأعضائه القوية ، يفوقهم ، وعنايتهم به سيكون جزاؤها أن يعلمهم ، لأنه تعلم الكثير من تجارب الحياة ، بينما هم غادروا الدنيا مبكرا .

وتعود التائبة ـ التي كانت تسمى فيما مضى : مرجريت ـ لتعلن أن القادم الجديد ـ حبيبها السابق فاوست ـ يعود بصعوبة الى وعيها ، ولا يكاد يشعر بالحياة الجديدة التي دخلها . لكنه ها هو ذا يقطع كل علائقه بالدنيا ، ويتجرد من غلافه القديم ، وينبثق في

طرواة قوته الشابة . وتلتمس من الأم الماجدة أن تسمح لها بتعليمه وتدريبه ، لأن ... الجديد لايزال يبهره .

فتجيب عليها الأم الماجدة : «تعالي! ارتفعي الى أفلاك أعلى! انه إن أحس ... اتبعك» . لأن الاحساس المستشعر Ahnung هو الذي يقود الى استمرار الحياة .

وأما الدكتور ماريانوس فساجد ووجهه على الأرض يردد : «تطلعي الى ... المخلص ، أيتها النفوس اللطيفة التوابة ، حتى تتحولي الى المصير السعيد وأنت شاكرة (١٢٠٩٦-١٢٠٩٩)

وتختم الجوقة الصوفية كل مسرحية فاوست بالسبعة أبيات الخالدة :

«كل فان هو رمز فحسب ،

وكل ما لا يمكن الوصول اليه ، سيصير هنا حادثا ،

وما لا يمكن وصفه ، قد جرى ها هنا فعله ،

إن الأنوثة الخالدة تجذبنا الى أعلى» .

ووصف الجوقة بأنها «صوفية» Mysticus يشير الى ما في كلامها من أسرار ومغيبات تعجز عن التعبير عنها . وهي تصف العلاقة بين الدنيا الفانية وبين اللامتناهي والمطلق والدنيا ، وهي فانية ، هي مجرد مثل ورمز بالنسبة الى الآخرة . وما لا يمكن الوصول اليه لأنه مطلق ، سيتحقق هنا في العالم اللامتناهي ، وما لا يمكن وصفه يتحقق في العقل والفعل يقوم على الحب ، الذي يتجلى في جوهره على أنه الأنوثة الخالدة التي تجذب كل ما هو فان الى مزيد من القرب من الالهي .

ويرى جوندولف[١] ان جيته قصد بالأنوثة الخالدة : مبدأ العالم ، هذا المبدأ الذي يقبل ، ويفك ، ويخلص ، ويتجلى بالنسبة الى الرجل في حب المرأة . وما هذا الحب إلا علامة انسانية على مبدأ كوني . والقطب المقابل المضاد لهذه الأنوثة الخالدة بوصفها القوة الجاذبة ـ هو الايروس Eros ، الذي بدأ كل شيء . لكن الايروس ليس هو المخلص ، بل هو الخالق المبدع ، وبهذه المثابة هو الرابط ، والمصور ، والواضع للحدود . والايروس يسود في عالم الجسم ، ولهذا لا شأن له بالسماء ، لأن السماء هي ملكوت القيم .

وهرتس[٢] يفسر تصور جيته للحب هكذا : «ان قوة الطبيعة يسميها جيته باسم الحب . والقوة الخلاقة للآحاد (المونادا ، الذرة الروحية) هي في نظر جيته ليست قوم من

---

(١) F. Gundolf: Goethe. 8. Aufl. Berlin, 1920, S. 780

(٢) G. W. Hertz: "Fausts Himmelfahrt" in: Die Ents. Festsch. Fur F. Muncker. Halle, 1926, S. 82 ff.

عالم آخر ، بل هي قوة طبيعية ، وان كانت شكلا من الطاقة غير معروف الهوية ، ولا يمكن البحث عن مصدرها ، وما علينا الا أن نبجلها » .

ويؤكد الكثير من الباحثين التمييز بين الحب ، المقصود في هذه المشاهد الأخيرة من « فاوست » الثاني ، وبين الحب الالهي بالمعنى المسيحي . فمثلا يقول أمرش[١] :

« ان الحب هو تشكيل متدرج ، وربط ، وتطهير ، وتقديس ، وسمو بقوى الطبيعة » .

وبالمثل ينبغي أن نميز « الخلاص » بوصفه فعلا من أفعال اللطف الالهي بالمعنى المسيحي ، وبين الخلاص هنا عند جيته . اذ الخلاص عنده فعل من أفعال الطبيعة ، تقوم به الطبيعة للانسان بوصفه جزءا من الطبيعة . يقول أمرش[٢] « ان عملية خلاص (نجاة) فاوست هي تحويل للجسم والنفس ، وليست ابتعادا عن ، ولا اطراحا للطبيعة بعملية تحويل دينية عالية مجددة » .

ويجمع الباحثون المحدثون على أنه لا يجوز تفسير نهاية « فاوست » الثاني تفسيرا مسيحيا : فالسماء في الخاتمة لا علاقة لها بالسماء المسيحية ، وخلاص (نجاة) فاوست ليست خلاصا بالمعنى الديني المسيحي . ويتضح هذا بجلاء من أقوال جيته نفسه . ففي حديثه مع اكرمن بتاريخ ٦ يوينو سنة ١٨٣١ يقول ان ثم « انسجاما » Harmonie بين فكرة نشاط فاوست الساعي الى المزيد من الفعل المحض ، وفكرة الحب الخالد المساعد ، وبين « تصوراتنا الدينية » ـ أي أنه لا يوجد تعارض ، لكن في الوقت نفسه لا يوجد تطابق . واذا كان قد لجأ الى استخدام شخوص بارزة في التصورات الأخروية المسيحية ، ثم السيدة مريم العذراء ، والملائكة ، فما ذلك إلا لتلافي الغموض المصاحب لمثل هذه التصورات للأمور الروحية . وكما يلخص كوبلك الموقف . « ان المشاهد المسيحية هيأت لجيته وسطا ملائما من أجل عرض أفكاره . إن عالم المسيحية كان واحدا من عوالم تنشئة الشاعر (جيته) وكان مألوفا عنده وعنى به فترة من حياته . لكن كان واحدا من العوالم الروحية التي يسرتها له التقاليد وعصره ، والتي تغذي منها في ثراء حياته وشعره . وتبعا لهذا فان مجال الآباء الرهبان ، والتائبات وملكة السماء (= مريم العذراء) وخلاص فاوست ـ هي كلها مجرد رمز ، لا أكثر[٣] .

لكن اذا كان هذا موقف الباحثين اليوم ، فان القرن التاسع عشر شهد باحثين أخذوا

---

(١) W. Emrich: Die Symbolik von Faust II Bonn, 1957, S. 411

(٢) W. Emrich: "Das Ratsel der Faust II Dichtumg" in Padagog. Provinz, 1960, Heft 4, S. 412

(٣) Helmut Kobligk: Faust II. Grundlagen und Gedanken Zum Verstandnis des Dramas. Frankfurt, 4. Aulf. 1981. S,

على جيته هذه الخاتمة «الكاثوليكية» ـ في تفسيرهم . يقول بيلشوفسكي[1] :

«ان ما عيب على خاتمة «فاوست» جيته هو أنه صار فيها قوطيا رومنتيكيا ، وانه في النهاية حوّل المادة المولودة عن روح البروتستنتية وعدها جيته كذلك ـ الى صورة كاثوليكية . وهذا صحيح ، فان كل عالم العصر الوسيط المسيحي : من أساطير ، وعبادة لمريم ، ومطهر ، واسكولاستيك ـ كل هذا موجود فيها . وهذا من غير شك انحراف وسقوط عن الروح الأصلية والأسلوب الأصلي» (ص٦٦٧) .

بل إننا نجد في القرن العشرين من شارك في هذا التفسير الكاثوليكي لخاتمة فاوست . فقد رأى أوبناور[2] أن جيته في ذلك إنما عبر عن رأيه في ان انسان العصر الوسيط أسمى من «انسان العلوم الطبيعية وإدراك الطبيعة ، انسان النزعة الانسانية والبروتستنتية» (ص٢١٤ وما يليها) .

لكن الرأي السائد عند سائر الباحثين في القرن العشرين هو أن خاتمة فاوست ليست كاثوليكية ، بل ولا مسيحية . فنجد بورداخ يبرهن على أن اللغة الكاثوليكية الصور في المشاهد الأخيرة لا تتفق مع العقائد المسيحية . وتفصل دوروتيه لوماير هذا الرأي بدقة وتقرر أنه لا علاقة بين العقائد المسيحية وبين تصورات جيته في هذه الخاتمة : «ان المسيحية لا تعرف خلودا للنفس مشروطا ، وخصوصا ذلك الخلود المربوط بثراء الشخص وقوته . والمسيحية لا تعرف مراتب للأرواح ، وانما الارواح كلها أمام الله سواء . وهي أيضا لا تعرف تصعيدا في الموت ، لأن الموت هو فقط خلاص يعود الى الحرية الأصلية . والبعد عن الدنيا ليس في نظرها نقصا ، بل ميزة وكرامة . والهرب من الدنيا أمر أساسي» . (كتابها المذكور ، ص ١٤١ وما يليها) .

ويقول فيئتير[3] : أن جيته يستخدم في هذه المشاهد تصورات وشخصيات تنتسب الى عالم العقيدة الكاثوليكية لأنه في هذا الميدان ، المسيحية وحدها هي التي خلقت شخوصا أسطورية . والسماء (هنا في هذه الخاتمة) ، قليلة الشبه بالأخرويات المسيحية ، وكذلك بأخرويات الديانات القديمة . فليس هنا (في سماء «فاوست») سكون ، ولا يسود هنا راحة الطوباويين . بل ان حركة الحياة يبدو أنها تستمر قدما متجاوزة الحدود الكبيرة . والموت ما هو الا درجة من درجات التحول الدائم ، والنفس لا تقف عن مواصلة النمو

---

(١) A. Bielschowsky: Goethe. B. II. 32. Aufl Munchen, 1918

(٢) K. J. Obenauer: Der faustische Mensch. Jena, 1922

(٣) K. Victor: Goethe. Dichtung, Wissenschaft, Weltbild. Bern, 1949, S. 359.

والتطور . فاوست نفسه لا يتكلم ها هنا . بل الملائكة والأرواح تروي كيف أن انتلخياه تمضي من تحول الى تحول اصفى منه ، صوب المركز الالهي الذي تنشده وتستشعره . كذلك ترفعه الى الدرجة الأخيرة العالية السورة الدائبة نحو المزيد من العلاء ، تلك السورة التي تهب وجوده المعنى والاتجاه» .

* * *

والحق ان استخدام الشاعر لرموز دينية لا يعني أبدا أنه يقصد المعنى (الديني) الذي يعطيه أهل ذلك الدين لهذه الرموز . ففي شعر عمر بين أبي ربيعة ذكر للراهب في محرابه ، وفي شعر ابن الفارض «شد الزنار» ـ ولا يقصد أي واحد منهما المعاني المفهومة لهذه التصورات عند النصارى . وجيته وبخاصة في المرحلة الأخيرة من حياته ، صار يكثر من استعمال الرموز . وقد قال في رسالة الى شوبرت Schubarth (بتاريخ ٢/٤/١٨١٨) : «كل ما هو رمز . وبينما هو يعبر عن ذاته تعبيرا كاملا ، فانه يشير الى غيره . ويبدو لي في هذه الفكرة أعلى درجات الادعاء وأعلى مراتب التواضع» .

ومن الرموز التي أكثر من استعمالها رمز : «الحجاب» Schleier . وفيما يتصل بـ «فاوست» الثاني نجده يستعمل «الحجاب» ورمز الحجاب فيما يتعلق بمشكلة الحقيقة :

«تحت طوايا حجاب الشباب» (البيت رقم ٤٧١٤) . اذ مهمة الحجاب هي أن يحجب شيئا وفي الوقت نفسه يسمح باستشفاف ما تحته ، وحقيقة الفن تقوم في الحجب والكشف معا لما هو الحق . فالفن يعبر عن الحقيقة ، لكنه هو نفسه ليس الحقيقة : وليس المقصود بالحقيقة هنا الواقعة التجريبية ، بل مظهر المطلق ، هذا المظهر الذي لا يستطيع الانسان أن يدركه مباشرة ، كما أن ضوء الشمس لا يمكن العين أن تحدق فيه مباشرة ، والا بهرها وكفها عن الرؤية .

و«**الذهب**» هو رمز للقوة الروحية الغلابة ، وفي الوقت نفسه هو رمز للقوى الشريرة القاهرة ، وللبخل ، وللشهوانية الجنسية ـ كما يتجلى ذلك في مشهد الأقنعة في الفصل الأول من «فاوست» الثاني .

و«**ايريس**» Iris رمز للمشروط واللا مشروط .

و«**الأزهار**» و«**الثمار**» رموز للتحول والتطور .

وتعدد العلاقات بين الواقع ، والرمز ، والفكرة يسميه جيته باسم : «الانعكاس» وفيه يقول في رسالة الى ايكن K. J. L. Iken (بتاريخ ٢٢/٩/١٨٢٧) .

«لما كان الكثير من تجاربنا لا يمكن التعبير عنه وابلاغه بصراحة ودقة ، فإنني منذ

وقت طويل اختر هذه الوسيلة وهي أن أكشف عن المعنى المستتر بواسطة الصور التي يعكس بعضها بعضا » .

ويسوق ترونتس (ص٤٨٢) الأمثلة التالية على الانعكاس في « فاوست » بقسميه الانعكاس بين فجنر ، والتلميذ ، وحامل البكالوريوس ، والتابع ، والانعكاس بين المناظر التي فيها يتعلق الكلام بالحكم ، والحرب ، والسلطان ، والانعكاس بين الأمهات ، والعالم السفلي وهيلانة وفتيات الجوقة ، والانعكاس بين الصبي السائق للعربة ، وبين يوفوريون . فبفضل انعكاس أعضاء كل مجموعة من هذه المجموعات بعضهم على بعض يتم التعبير والايضاح .

وقد يكون الانعكاس هو انعكاس عدة عوالم في عمل فني واحد . ففي مسرحية « فاوست » ينعكس العالم اليوناني ، والعصر الوسيط ، والكلاسيكية المحدثة والرومنتيكية . وعالم ألف ليلة وليلة ، وعالم دانته Dante وشيكسبير ، وغيرها .

ومما يفيدنا نحن العرب في دراستنا للشعر العربي في مختلف عصوره أن نلحظ الانعكاس عند كل شاعر : فمثلا نلحظ في شعر امرئ القيس انعكاس التصورات العربية الوثنية ، والتصورات البيزنطية المسيحية ، ونلحظ في شعر أبي نواس انعكاس العالم الايراني القديم والأوسط ، والعالم الذي كونه الاسلام ، الخ .

* * *

ولا عجب في أن تتضارب التأويلات بين المفسرين لـ « فاوست » الثاني ، لأن لغة القسم هي لغة « الشفرة » .

« وحدة فاوست »

والآن وقد فرغنا من تحليل « فاوست » الثاني ، فلننظر في مشكلة شغلت الباحثين كثيرا وهي : هل هناك وحدة في « فاوست » بقسميه ؟ وهل ثم وحدة في « فاوست » الثاني وحده ؟

ومن أوائل من وضعوا هذه المشكلة في صورة حادة فريدرش تيودور فشر[1] Vischer (١٨٠٧-١٨٨٧) ، عالم الجمال الألماني الشهير : فقد أخذ على « فاوست » بقسميه عدم

---

(١) على القارئ أن يراعي عدم الخلط بينه وبين كونوفشر Kuno Fischer (١٨٢٤-١٩٠٧) مؤرخ الفلسفة العظيم وصاحب الشرح الوافي على « فاوست » وغيره من مؤلفات جيته ، ورسم الاسم في الكتابة بالحروف اللاتينية مختلف بينهما فلا مجال للخلط ، وإنما حدوث الخلط في الرسم العربي فقط .

وحدة في الأسلوب بين كلا القسمين : فأسلوب القسم الأول يتسم بالواقعية الجرمانية ، بينما أسلوب القسم الثاني هو الرمزية المتصلة ، وهو مليء بالغرائب والصنعة اللغوية . ولهذا فإن فشر Vischer اثنى كثيرا على «فاوست» الأول ، بينما لم يشد بـ «فاوست» الثاني من حيث الأسلوب .

ومنذ فشر Vischer توزع الباحثون في هذه المسألة بين القائلين بوجود وحدة ـ سواء في القسمين وفي القسم الثاني ـ وبين المنكرين لوجودها الزاعمين أن «فاوست» يتسم بطابع الشذرات .

على أن وجهة النظر تختلف بحسب فهم المقصود من الوحدة : هل هي وحدة اتصال الفعل ؟ أو وحدة حضور البطل الرئيسي ، فاوست ؟ هل المقصود : وحدة الفكرة ، أو وحدة الأسلوب ؟

ولعرض هذه المشكلة وكيفية حلها ، نرجع أولا الى أقوال جيته هو نفسه :

أ ـ ففي «فاوست» الأول يقول مفستوفيلس (البيت رقم ٢٠٥٢) ، وصفا لرحلته مع فاوست :

«سنشاهد العالم الصغير ، ثم بعد ذلك نشاهد العالم الكبير» . ومن هذا يتبين الارتباط الوثيق بين قسمي فاوست : فالأول رحلة في العالم الصغير ، عالم الانسان العادي ، والثاني رحلة في العالم الكبير ، عالم الامبراطور وأصحاب السلطان ، وعالم الآلهة ، والعالم العلوي . ومعنى هذا أن القسم الثاني مكمل ضروري أساسي للقسم الأول ، وكلاهما معا يؤلف ملحمة ، أو مأساة واحدة متصلة ، ذات وحدة جوهرية لا انفصام لها .

ب ـ وفي المخطط الذي وضعه جيته في المدة من سنة ١٧٩٧ الى سنة ١٨٠٠ ، وهو الذي وجد بين ما خلفه جيته من مخطوطات بعد وفاته (وقد نشره ، من بين من تولوا نشره ، ترونتس في كتابه السابق الذكر مرارا ، ص٤٢٧) نجد جيته قد خطط القسمين كما يلي :

«استمتاع الشخص (فاوست) بالحياة ، منظورا اليه من خارج . ـ القسم الأول ـ في ضباب الوجدان . الاستمتاع بالفعل ـ نحو الخارج ـ القسم الثاني ـ والاستمتاع مع الشعور . الجمال . الاستمتاع بالخلق ـ من الداخل ـ خاتمة في العماء (الخاوس) ـ على الطريق الى الجحيم» .

جـ ـ كذلك صرح جيته في حديثه مع اكرمن (بتاريخ ١٧/ ٢/ ١٨٣١) بما يلي :

«ان القسم الأول ذاتي تماما تقريبا . فكل شيء انبثق عن شخص أناني شهواني ، يود

في غموض أن يحسن الى الناس مع ذلك . أما في القسم الثاني فلا يكاد يوجد فيه أي شيء ذاتي Subjektiv ، بل يتجلى ها هنا عالم أعلى ، وأوسع ، وأنصع لا مجال فيه للشهوات ومن لم يبحث عن شيء ولم يحي شيئا ، فانه لن يقدر على فعل شيء فيه » .

ز ـ وصرح جيته لسولبيس بواسريه Sulpice Boisseree بتاريخ ٨/٩/ ١٨٣١ ما يلي : «لهذا كان ينبغي ألا يكون القسم الثاني شذري الطابع مثل الأول . ان للعقل في هذا القسم نصيبا أكبر» .

ويؤكد المعنى نفسه رسالة الى فلهلم فون هومبولت بتاريخ أول ديسمبر سنة ١٨٣١ : «ان للعقل نصيباً أوفر في القسم الثاني منه في القسم الأول ، ولهذا كان هذا القسم الثاني يقتضي من القارئ العاقل مجهودا ذهنيا أكبر» .

ومفاد هذين التصريحين أن القسم الثاني يتجه الى العقل أكثر مما يفعل الأول ذلك .

هـ ـ والأقوال السابقة تتعلق بالتمييز بين القسمين . وثم أقوال أخرى لجيته تتعلق «بفاوست» كله . فهو يقول في حديثه مع اكرمن بتاريخ ٣/ ١/ ١٨٣٠ ان فاوست ، عمل لا وسيلة لقياسه Inkommensurable «وكل المحاولات التي ترمي الى تقريبه من الذهن هي محاولات عابثة لا طائل وراءها» . كذلك أحداث فاوست «هي دوائر عالمية صغيرة يقوم كل واحد منها بذاته ، واذا كانت في مجموعها يؤثر بعضها في بعض ، فإنها لا تتلاءم فيما بين بعضها وبعض كثيرا .

لقد كان قصد الشاعر أن يعبر عن عالم متنوع ، وقد استخدم حكاية بطل مشهور (فاوست) كنوع من الخيط لينظم فيه ما يشاء .»

ومن أقوال جيته هذه يتبين أن جيته نفسه أكد وجود فارق واضح بين القسم الأول وبين القسم الثاني من «فاوست» : فالأول ذاتي وجداني ، والثاني عقلي موضوعي ، كما أكد ما في مشاهده من استقلال بعضها عن بعض ، بحيث جاءت عوالم مستقلة قائمة برأسها . لكن ليس معنى هذا أن جيته أنكر «وحدة» «فاوست» بوصفه كلا . ان «فاوست» مثله مثل أسرة واحدة ، أفرادها متميزون في الشخصية .

* * *

وبعد أن عرضنا رأي المؤلف في مؤلفه ، لنعد الى رأي الباحثين . أما الذين أنكروا وجود «وحدة» فيه ، فنذكر منهم الى جانب فشر Vischer الآنف الذكر : كونراد اتسيجلر Konrad Ziegler في كتابه : «خواطر عن فاوست الثاني» (اشتوتجرت ، سنة ١٩١٩) . وبندتو كروتشه Benedeyyo Croce في كتابه عن جيته (ترجمة ألمانية ، دوسلدورف سنة

١٩٤٩) . ولكنهم على كل حال قلة ، بينما الغالبية من الباحثين اليوم تميل الى توكيد ما في «فاوست» من وحدة ، مع تقرير فارق واضح بين القسمين ، كما يسعون الى تبرير ما في «فاوست» من تفكك ، على أساس طول المدة التي استغرقها تأليفه : لقد أمضى جيته في تأليفه قرابة ستين عاما ، توالى فيها من الأحداث الخارجية ومن المذاهب الفكرية والفنية ، وعانى فيها المؤلف من تجارب الحياة وفرة وافرة ، كان لا بد أن تنعكس في «فاوست» لقد عاش «فاوست» في نفس جيته ستين عاما ، وفي هذا العمر الطويل جرى له ما جرى لكل حي : من تطور وتغير ، من شباب الى رجولة وشيخوخة ، من انفعالية وشهوانية الى موضوعية ونصاعة وصوفية .

أجل ، لقد كانت مأساة «فاوست» «كالصورة المطبوعة التي تنمو حية وتتطور» .

عبد الرحمن بدوي

باريس /صيف ١٩٨٤

فاوست

تأليف

جيته

النص المسرحي

«١»

اهداء[١]

ها أنت ذي تقتربين من جديد ، أيتها الأشكال المترنحة التي تجلّيت مبكّراً للبصر لمضطرب . فهل أحاول هذه المرّة الامساك بك ؟ وهل أشعر أنّ قلبي لايزال مولعاً بهذا لخيال ؟ أنت تتدافعين! ليكن وتحكّمي كما تشائين ، كما تصاعدت حولي من بين الغبار والضباب .

إنّ صدري يستشعر هزّة الشباب من الأنفاس السحريّة التي تنتشر حول موكبك .

أنت تأتين معك بصور الأيّام السابقة ، وكثيراً من الأشباح العزيزة[٢] تتصاعد ، فيتصاعد معها الحب الأوّل والصداقة الأولى[٣] كأنهما اسطورة قديمة نصف بالية ، فيتجدّد الألم ، وتتكرّر الشكاة من سبيل الحياة الضال فيما يشبه التيه ، وتذكر الأخبار الذين مضوا وفارقوني وقد خيّبت آمالهم في السعادة إبان الساعات الجميلة .

إنها لن تسمع الأغاني التالية ، تلك النفوس التي غنّيت لها أوّل[٤] ما غنّيت ، وتشتّت جماعة الأصدقاء أباديد ، وخفت تجاوب الصدى الأوّل ، واأسفاه ، إنّ شكاتي ترن لجمهور مجهول ، وثناؤه يشيع في قلبي الجزع ، ومن[٥] لايزال يسرّ بنشيدي يهيم على وجهه شريداً في هذا العالم إن كان لايزال على قيد الحياة .

ويستولي عليّ حنين كنت فطمت عنه منذ زمان طويل ، حنين الى ذلك الملكوت الساكن الجاد لتلك الأرواح . ونشيدي الهامس الشبيه بعزف الهارب ألا يولى يحلّق الآن في نغمات غير محدّدة ، وتتملكني قشعريرة ، والدموع تنحدر تلو الدموع ، وقلبي القاسي يشعر بأنه صار رقيقاً طريّاً ، وما أملكه أراه كما لو كان في البعد ، وما اختفى تحوّل عندي الى وقائع .

استهلال على المسرح[٦]

المدير. شاعر المسرح. شخص مرح

المدير[٧] : أنتما ، يا من عاونتماني مراراً وقت الحاجة والمحنة الشديدة ، خبّراني ماذا تؤملان لعملنا هذا في بلاد الألمان ؟ لقد تمنّيت كثيراً إمتاع الجمهور ، خصوصاً لأنه يعيش ويمكّن غيره أن يعيش . أقيمت الأعمدة ومدّت الألواح[٨] ، وكلّ واحد يترجّى الاستمتاع بما يشبه العيد . وها هم أولاء يجلسون مرفوعي الحواجب هانئين هناك يتمنّون الاندهاش . وإنّي لأعلم كيف أجتذب روح الشعب ومع ذلك لم أستشعر من قبل ما أنا فيه الآن من حيرة وارتباك : صحيح أنهم لم يتعوّدوا على الأفضل ، بيدَ أنهم قد قرأوا الكثير . فماذا نعمل نحن كيما يكون كل شيء جديداً وطازجاً وفي الوقت نفسه ساراً وذا مدلول ؟ حقّاً يطيب لي أن أشاهد الجمهور وقد تدافع سيله نحو مسرحنا ، وفي آلام مخاض متكرّرة عنيفة يشق طريقه الى باب النعمة الضيّق[٩] في رابعة النهار ، بل وقبل الساعة الرابعة[١٠] ، ويتصارع بالصدمات حتّى يصل الى شبّاك التذاكر ، ومثلما يحدث حين المجاعة طلباً للخبز أمام أبواب الخبّازين ، يكاد أن يندقَ عنقه ابتغاء الحصول على تذكرة . إنّ هذه المعجزة لايصنعها في الناس إلاّ الشاعر . فهيّا يا صديقي واصنعها اليوم .

الشاعر : أوه! لا تحدّثني عن هذا الجمهور العديد فإنّ الروح تفرّ منّا لدى مرآه! واحجب عنّي هذا الزحام المائج الذي يجرّنا الى الدوّامة رغماً عن إرادتنا . كلا ، بل اقتدني الى مضيق السماء الساجي ، حيث لا يزهر للشاعر إلاّ السرور الصافي ، وحيث الحب والصداقة يبعدان ـ بعون الله ـ بركة قلوبنا ويوليانها العناية .

آه! إنّ ما ينبثق لنا من أعماق الصدر ، وما تتلعثم به الشفة عن خجل ، حيناً بإخفاق وحيناً آخر ربّما بنجاح ، كل هذا تلتهمه قوّة اللحظة

المتوحّشة . حتّى إذا مانفذت فيه السنون فغالباً ما تجلّي في شكلٍ تامّ . مايلمع إنّما يولد للحظة ، أمّا الصحيح فيبقى للأجيال المقبلة .

الشخص المرح : ليتني لم أسمع شيئاً عن الأجيال المقبلة! ولو فرض أنني أريد الكلام عن الأجيال المقبلة ، فمن ذا الذي سيوفّر المزاح للعالم الحاضر ؟ لأنه يريد المزاح وينبغي له أن يحصل عليه! وأنا أعتقد أنّ حضور فتى شريف هو أمر دائماً مفيد . ومن يعرف كيف يتحدّث حديثاً ممتعاً ، فلن يعكّر مزاج الشعب . إنه يتمنّى جمعاً كبيراً كي يهزّه على نحوٍ أصدق . لهذا كونوا كرماء واكشفوا أنكم قدوة مثلى . وذروا الخيال بكل حواشيه من عقل وذهن واحساس ووجدان ينفذ الى مسامعكم نفوذاً لا يخلو من الحماقة ، لاحظوا هذا!

المدير : وخصوصاً ذروا كثيراً من الأمور تحدث[١١]! فالمرء يأتي هنا ليشاهد ، وأمتع ما يمتعه هو أن يرى . فليتوال الكثير أمام العيون حتّى يمكّن الجمهور أن يفغر فاه دهشة ، ها أنت قد ربحت على طول الخط وأنت رجل محبوب جداً . أنت لاترغم الجمهور إلا بالجمهور ، وكلّ واحد ينشد في النهاية شيئاً لنفسه ، ومن يأت بالكثير يعط شيئاً للكثير ، فيغادر كل واحد المسرح راضياً . قدّم مسرحية ، وسرعان ما تتحوّل الى قطع من مسرحيّات[١٢]! ومثل هذا الخليط من قطع اللحم لابدّ أن يطيب لكم . ومايقدّم بسهولة ، ويتخيّل بسهولة . وماذا يفيد لو عرض الكل ؟ إنّ الجمهور سيمزّقه إرباً إرباً .

الشاعر : أنت لا تدرك كم هو رديء هذا الصنيع ، وأنه قليلاً مايروق للفنّان الحقّ! إنّي ألاحظ أنّ النصب على السادة الشرفاء قد صار عندك مبدءاً وقاعدة .

المدير : مثل هذا اللوم يدعني آمن البال : إنّ من يحسب أنه يحسن الصنع لابدّ له أن يستمسك بالأداة الفضلى تأمّل ، ما عندك إلا خشب رقيق لتنشره ، فانظر اذن لمن تكتب! أنت تكتب لمن يدفعه الملال ، ومن تضلّع من ألوان الطعام ، ومن اعتلّ من قراءة الصحف[١٣] ، ويظلّ هذا الأخير أسوأهم . إنّ المرء يسرع إلينا مشتّت الخاطر وكأنه قادم الى حفلات تنكّرية ، وحب الاستطلاع يزوّد كل خطوة من خطواته

بجناح . والسيدات يأتين وقد تبرّجن بأجمل زينة ، ويلعبن دون رهان . بماذا تحلم أنت إذن في علياء شعرك ؟ كمَ يسرّك أن ترى المسرح ملآن ؟ انظر الى الحُماة عن قرب! إنهم أنصاف باردين ، وأنصاف خشناء . إنّ بعضهم ، بعد التمثيل ، يؤمل في لعب الورق ، وبعضهم الآخر يرجو قضاء ليلة موحشة بين أحضان مومس . بماذا تعذّبكم آلهة الفن الجليلة ، أيها الحمقى المساكين ، تجاه مثل هذا الهدف ؟ أقول لكم أعطوا أكثر فأكثر ، ودائماً أكثر ، فلن تضلّوا أبداً عن الهدف . انشدوا فقط أن تُرْبكوا الناس ، فإنّ ارضاءهم عسير - ماذا يصيبكم ؟ الافتتان أو الآلام ؟

الشاعر : اغرُب عنّي وابحث لنفسك عن عبدٍ آخر! أيجوز للشاعر أن يبدّد مازحاً عابثاً ذلك الحق الأعلى ، حق الانسان ، الذي منحته الطبيعة إيّاه ، يبدّده من أجلك أنت! بماذا يحرّك الشاعر إذن كلّ القلوب ؟ وبماذا يتغلّب على كلّ عنصر ؟ أليس هو الانسجام الذي ينبثق من الصدر ، ويضم العالم في قلبه ؟ حينما تمرّر الطبيعة خيطها الدائم الطول في غير اكتراث ، وحينما يرن خليط الكائنات غير المنسجم بعض في بعض على نحو يثير الضيق - من ذا الذي يقسّم التسلسل المتدفّق الرتيب مشيعاً فيه الحياة حتّى يهتزّ في إيقاع ؟ من يدعو الفرد الى مباركة عامّة ، وأين ترنّ التوافقات النغمية الرائعة ؟ ومن يدع العاصفة تزمجر بالوجدانات ؟ ومن يدع الشفق الأحمر يتوهّج بالمعنى الجادّ ؟ ومن ينثر كل أزهار الربيع الجميلة على الطريق الذي تسلكه المحبوبة ؟ ومن يضفر من الأوراق الخضراء التافهة إكليلاً من المآثر من كل نوع ؟ من يؤمّن الأولمب(١٤) ؟ ويوجد الآلهة ؟ إنّ قدرة الإنسان تتجلّى في الشاعر .

الشخص المرح : استثمر إذن قواك الجميلة ، وأنجز أعمالك الشعرية ، كما يخوض المرء مغامرة غرامية . صدفةً يقترب المرء ، ويشعر ، ويتلبّث ، وبالتدريج يتورّط ، تنمو السعادة ، ثمّ تتلاشى ، ويفتن الإنسان ، وها هو ذا الألم في إثره ، وقبل أن يتبيَن له الأمر ، مايلبث أن يصير قصّة خيالية . فلنقدّم مسرحية من هذا النوع! وما عليك إلا الغوص في

أعماق الحياة الإنسانية المليئة . الكل يحياها ، لكنّها ليست مفهومة للكثيرين ، وأينما أمسكت بها ، فهي باعثة على الاهتمام والتشويق بصور عديدة الألوان لكنها قليلة الوضوح ، وبكثير من الأخطاء مع شعاع من الحقيقة ـ يحضّر أحسن شراب ينعش العالم ويهذّبه . هنالك تحتشد أجمل زهرات الشباب أمام تمثيليّتك . وتصغي السمع للوحي ، ويرضع من عملك كلّ مزاج رقيق غذاء حزينا وسرعان ما يهتزّ هذا المشاهد وذاك الآخر ، حتّى يعصر كلّ واحد ما يحمل في قلبه . إنهم متأهّبون للبكاء والضحك ، ولايزالون يمجّدون سَبَحات الخيال ويستمتعون بالمظاهر الوهمية . أمّا الشخص الناضج فلا حيلة معه ، أمّا النامي الصائر فسيكون شاكراً لك دائماً .

الشاعر : أعِدْ إليَّ إذن الأزمنة التي كنت فيها لاأزال في صيرورة ، يتدفّق فيه ينبوع من القصائد المتزاحمة دون انقطاع ، ويحجب الضباب عني العالم ، والبراعم تعد بالعجائب ، وأنا أقطف آلاف الأزهار التي تملأ كل الأودية بثراء! لم يكن عندي شيء ، ومع ذلك كان عندي الكفاية أعني التطلّع الى الحقيقة والاستمتاع بالوهم . أعِدْ إليَّ تلك الدوافع التي لا تقيّدها قيود ، أعِدْ إليَّ السعادة العميقة المليئة بالآلام ، أعِدْ إليَّ قوة الكراهية ، وقدرة الحب ، أعد اليَّ شبابي!

الشخص المرح : أيْ صديقي الطيّب! أنت في حاجة حقّاً الى الشباب حين يدفعك الأعداء الى خوض المعارك ، وحين تتشبّث برقبتك أحبّ الفتيات ، وحين يلوّح اكليل النصر من بعيد في العدو السريع بأنّ بلوغ الهدف عسير وحين يُفْرِغ المرء كأس الليالي معربداً قاصفاً بعد رقص مدوّم عنيف لكنّ العزف على الأوتار المألوفة بحميّة ورشاقة ، والتجوال الشارد النبيل نحو هدف وضعه المرء لنفسه ، ذلك هو واجبكم أيها الشيوخ . ومن أجل هذا لايقل إجلالنا لكم . إنّ علوّ السنّ لا يردّ المرء طفلا كما يقولون ، ولكنه يلفينا لانزال بَعْدُ أطفالاً حقيقيّين .

المدير : تبادلنا من الكلمات بما فيه الكفاية ، فدعوني أشهد الآن أفعالاً! بينما يتوالى هذا التقريظ المتبادل يمكن صنع شيء مفيد . ماذا يجدي التحدّث عن المزاج ؟ إنه لاينجلي أبداً لمن هو متردّد مراوغ . إن

حسبت نفسك شاعراً ، فاملك ناصية الشعر! أنت تعرف مانحتاج اليه : نحن نريد أن نرتشف شراباً قوياً ، فأعدّ لي منه على الفور! ما لاتنجزه اليوم لن يُنجَز غداً ، ولايجوز للمرء أن يفرّط في أي يوم ، إنّ العزم ينبغي عليه أن يمسك بالممكن من ناحيته بشجاعة وعلى الفور ، إنه لايريد له أن يفرّ منه ، بل يواصل العمل لأنه ليس من ذلك بدّ . أنت تعلم أن على مسارحنا الألمانية يحاول كل إنسان مايستطيع ، لهذا لاتقتصد اليوم في المناظر[١٥] ولا في الآلات! استعمل نور السماء الكبير والصغير[١٦] ، وابذل النجوم بسخاء ، الماء ، والنار ، ووجدان الصخور ، والحيوانات والطيور ـ كلّها موفورة لا يُعْوز منها شيء . فانشر في هذا المسرح الضيّق كل دائرة المخلوقات ، وتنقّل بسرعة معقولة من السماء ، الى الجحيم من خلال العالم[١٧] .

استهلال في السماء[١٨]

الرب . جند السماء . مفستوفيلس[١٩] (يظهر بعد فترة) . رؤساء الملائكة الثلاثة (يدخلون)

رفائيل : على عهدها منذ القدم ، تعزف الشمس نشيدها الذي تنافس فيه اخوتها الأفلاك[٢٠] ، وتتمّ رحلتها المقدّرة لها مصحوبة بدوي الرعد . ومرآها يهب القوة للملائكة ، وإن كان لايقدر أحدها على سبر غورها ، والأعمال السامية التي تُعجِز التصوّر لاتزال على روعتها كما كانت في اليوم الأوّل .

جبريل : وبسرعة ، بسرعة لا تتصوّر ، تدور أبّهة الأرض ، ويتعاقب ضياء الفردوس مع الليل العميق الرهيب ، ويُرْغي البحر بتيّاراته الواسعة منبثقاً من أعماق الصخور ، والصخر والمجر يتدافعان في مسيرة أفلاك تسرع أبداً .

ميكائيل : والعواصف تتنافس في الزئير من البحر الى البرّ ، ومن البرّ الى البحر ، وتؤلّف غاضبة سلسلة من التأثير العميق حواليها . هنالك يتوهّج دمار

مبرق على الطريق أمام ضربات الرعد ، بيد أنّ رُسُلَك ، أيها الرب .
يمجّدون التحوّل الرقيق ليومك .

الثلاثة معاً : المرأى يهب القوّة للملائكة ، لأنه لا يقدر أحد على أن يسبر غورك .
وكل أعمالك السامية لاتزال على روعتها كما كانت في اليوم الأوّل .

مفستوفيلس : مادمت ، أيها الرب ، تقترب من جديد مرّة أخرى وتسأل كيف تجري الأمور كلّها عندنا ، ومادمت يطيب لك أن تراني ، لهذا تشاهدني أنا أيضاً ها هنا بين خُدّامك[٢١] . سامحني إن كنت لا أستطيع تدبيج الكلمات السامية ، ولو سخرت منّي كل الجماعة . وتفخيم عبارتي كان من شأنه أن يدعوك الى الضحك ، لولا أنك أقلعت عن عادة الضحك . عن الشمس والعوالم لا أستطيع أن أقول شيئاً ، وقصاراي أن أشاهد كيف يعذّب الناس بعضهم بعضاً . إنّ الاله الصغير[٢٢] للعالم لايزال بنفس الطابع ، ولايزال عجيباً كما كان في اليوم الأوّل . وكان سيحيا على نحو أحسن قليلاً ، لو أنّك لم تهبه وَهْمَ نور السماء ، إنّه يسمّيه العقل ، لكنّه لايستعمله إلا إبتغاء أن يصير أكثر حيوانية من أي حيوان . ويبدو لي ـ إن أذن لي لطفكم ، أنه يشبه جُنْدُباً[٢٣] طويل الساق ، يطير دائماً ويتواثب طائراً منشداً في العشب نشيده العتيق ، بودّي لو رقد دائماً في العشب! لكنه يدسّ أنفه في كلّ السفاسف .

الرب : أما عندك شيء آخر تقوله ؟ أتأتي دائماً لتشكو ؟ أليس على الأرض في نظرك شيء سليم أبداً ؟

مفستوفيلس : كلا ، أيها الرب! إنّي أجد الأمور هناك سيّئة حقّاً . إنّ بني الانسان يثيرون إشفاقي على أيّامهم الحافلة بالشكوى ، حتّى أنّي لا أود أنا الآخر أن أعذّبهم ، هؤلاء المساكين .

الرب : هل تعرف فاوست ؟

مفستوفيلس : الدكتور ؟

الرب : خادمي!

مفستوفيلس : حقّاً إنه يخدمكم على نحو غريب! ليس أرضيّاً شراب هذا الأحمق ولا طعامه . لقد دفعه التطلّع الى ما هو بعيد ، ووعيه بحماقته نصف وعي . ومن السماء يتطلّب أجمل النجوم ، ومن الأرض يُريغ الى أعلى

الشهوات . والقرب والبعد لا يرضيان صدره المضطرب اضطراباً عميقاً .

الرب : إن كان يخدمني الآن على نحوٍ مشوّش ، فسأقتاده الى الوضوح عمّا قريب . إنّ البستاني يعرف ، متى اخضرّت الشجيرة ، إنّ الأزهار والأثمار ستزيّنانها في الأعوام المقبلة .

مفستوفيلس : بِمَ تراهن ؟ لابدّ أنّك ستفقده إن أنت أذنت لي بأن أقتاده بهدوء في طريقي .

الرب : طالما يحيا على الأرض ، فلا شيء ممنوع عليك : الانسان يخطىء طالما هو يسعى .

مفستوفيلس : شكراً لك ، لأنّي مع الأموات لم أحب أبداً أن أتورّط . وفي الغالب أؤثر الخدود المليئة الطريّة . أمّا الجثّة فليست من شأني : بل شأني هو شأن القط مع الفأر .

الرب : حسناً ، ليكن ما تريد! جُرَّ هذه الروح من ينبوعها الأصيل واقتَدْها ، وفي وسعك أن تمسك بتلابيبها ، وأن تنحدر بها في طريقك . لكن اقْنَ حياء ، حين تضطر الى الإقرار بأنّ الانسان الطيّب في اندفاعه الغامض إنّما هو على وعي بالطريق المستقيم .

مفستوفيلس : حسنا ، لكنّ الأمر لايدوم طويلاً . وما أنا بقلقٍ على رهاني . اذا بلغت غرضي ، فأذن لي أن أملأ صدري بنشوة النصر . لابدّ أن أطعمه التراب[٢٤] وبشهيّة ، مثل عمّتي : الحيّة المشهورة[٢٥] .

الرب : لك الحرّية في هذا أيضاً . وأنا لم أبغض أبداً من هو على شاكلتك . من بين الأرواح التي تنكر أجد الخبيث[٢٦] أقلّها ثقلاً على نفسي . إنّ نشاط الانسان يمكن أن يستنيم بسهولة ، وهو يستلذ الراحة بغير حدود ، لهذا يطيب لي أن أزوّده برفيق يستحثّه ويؤثّر فيه ويكون له بمثابة شيطان . أمّا أنتم[٢٧] ، ياأبناء الله الحقيقيّين ، فتمتّعوا بالجمال الثري الحيّ ، ليت الصائر[٢٨] ، الذي يفعل دائماً ويحيا ، يحيطكم بأسوار الحب المواتية . أمّا مايحلّق في ظهور مترنّح فثبّتوه بالأفكار الصامدة!

(السماء تغلق ، ورؤساء الملائكة يغادرون)

مفستوفيلس : (وحده) بين الحين والحين يطيب لي أن أرى «القديم» . و.ني لأتحاشى القطيعة معه . وإنه لجميل حقّاً من ربّ عظيم أن يتحدث حديثا إنسانيّاً مع الشيطان ذاته .

الجزء الأوّل من المأساة

ليل(٢٩)

(في غرفة ضيقة قوطية(٣٠) الطراز ذات عقد عال فاوست يجلس على كرسي أمام كُتُبه وهو في حالة من القلق)

فاوست : أوّاه! هأنذا قد استبحرت بسعي محموم في دراسة الفلسفة والقانون والطب ، وفي دراسة اللاهوت أيضاً واأسفاه(٣١) . فهأنذا أقف الآن . . . الأحمق المسكين ، ولا نصيب لي من الفطنة الا ما كان عندي من قبل! نعم! أنا أدعى بالاستاذ ، بل وبالدكتور ، ومنذ عشر سنوات و . . . أقتاد تلاميذي من أنوفهم علواً وسُفْلاً وتقاطعاً والتواء ـ وأبصر أننا لانستطيع أن نعرف شيئاً! وهذا أمر يوشك أن يحرق قلبي . صحيح أنني أبرع من كل الأدعياء ، والدكاترة والأساتذة والكتّاب والكهّان . ولا يعذّبني أيّ اعتبار ولا أي ارتياب ، ولا أخاف الجحيم ولا الشيطان ـ ولهذا أيضاً أنتزع منّي كلّ سرور ، ولا أوهم نفسي بأنّي سأعرف شيئاً صواباً ، ولا أتصوّر أنني قادر على أن أعلّم الناس شيئاً يفيدهم في إصلاح أنفسهم وتقويمها . وليس عندي أموال ولا نقود ، ولا لقب تشريف وتفخيم في هذه الدنيا . إنّ الكلب نفسه لايروم أن يحيا بعد هذه الحياة!

لهذا أسلمت نفسي للسحر(٣٢) ابتغاء الحصول من قوّة الروح وفمه على بعض الأسرار القليلة ، وحتّى لا أحتاج بَعْدُ أن أقول والعرق المرّ يتصبّب منّي أموراً أنا أجهلها ؟ وحتّى أتعرّف ما يمسك بالعالم في باطنه ، وأشاهد كل القوى الفعالة والبذور وأكفُّ عن التشدّق بالألفاظ . ألا ليتك ، أيها البدر الساطع ، تشاهد عذابي لآخر مرّة . كم مرّة سهرت على هذا المكتب حتّى منتصف الليل ، فتجلّيت لي .

أيها الصديق الحزين ، وألقيت ضياءك على كتبي ، أوراقي! آه! ليتني كنت أستطيع أن أسير في ضوئك الحبيب فوق دورة الجبل ، وأن أحلّق مع الأرواح حول مغارات الجبال ، وأن أتجوّل في المروج وأنت تجنح للمغيب ، وأن أتخلّص من كل عذابات المعرفة ، وأن أستحم في نداك وأنا سليم معافى!

ياويلتاه! أأستمر قابعاً في سجني هذا ؟ في ثقب الحائط الرطب اللعين الذي لا ينفذ اليه نور السماء العزيز إلاّ خلال أقراص من الزجاج الملوّن! محاصراً من أكداس الكتب التي قرضها الدود وعلاها التراب وتصاعدت حتّى القبّة العليا ، بينما الورق الأدخن[٢٣] ملصق على الجدران ، والقوارير والصناديق[٢٤] وضعت حواليك ، والمكان مملوء بالآلات ، وأواني الأجداد حشرت حشراً ـ هذا هو عالمك! فأي عالم هذا!

ومع ذلك لاتزال تسائل نفسك لماذا يخفق قلبك في صدرك بالضيق والقلق ، ولماذا يعترض ألم غامض كل نشاط لك في الحياة ؟ ذلك أنّك ـ بدلاً من الطبيعة الحيّة التي خلق الله فيها الناس ـ قد أحطت نفسك بين الدخّان والعفن ، بهياكل الحيوان العظمية وعظام الموتى .

اهرب! هيّا! الى الأرض الواسعة! وكتاب نوسترادموس[٢٥] المليء بالأسرار والمكتوب بخط يده ـ ألا يكفيك رفيقاً ؟ هنالك ستعرف مسار النجوم ، وإذا ما تلقّيت العلم على يد الطبيعة ، سمت بك قوّة الروح[٢٦] ، ومثلما تتكلّم روح مع روح أخرى . إنّ التفكير الجاف لن يفيدك في شرح هذه العلامات المقدّسة : ها أنت تحلّقين بالقرب منّي ، أيّتها الأرواح ، فأجيبيني إن كنت تسمعينني!

(يفتح الكتاب ، ويبصر علامة العالم الكبير[٢٧])

ها! أي حبور يسري من هذا المنظر الى كل احساسي دفعة واحدة! إنّي أشعر بسعادة الحياة الشابّة المقدّسة وهي تجري في أعصابي وعروقي بتوهّج جديد .

أكان إلهاً ذلك الذي رسم هذه العلامات التي تهدّىء عاصفتي الباطنة ، وتملأ قلبي المسكين بالسرور ، وبدفعة حافلة بالأسرار تكشف حواليّ

عن قوى الطبيعة ؟ هل أنا إله ؟ تبيّنتْ لي جليّةُ الأمر!
إنّي أبصر في هذه الملامح الصافية الطبيعية الفعّالة ماثلة أمام نفسي الآن فقط أدرك ماقاله الحكيم ، «إنّ عالم الأرواح ليس مغلقاً . بـ ادراكك هو المغلق ، وقلبك هو الميّت . هيّا اذن أيها التلميذ . و حم صدرك الأرضي في ندى الفجر[٣٨]» .
(يتطلّع في العلامة)
كيف[٣٩] يلتحم كلّ شيء مع «الكل» ، ويفعل الواحد في الآخر ويحي وكيف تتصاعد قوى السماء وتتنزّل ، وتتعاطى فيما بينها الأباريق الذهبية![٤٠] وبأجنحة تعطّر بالبركة تتدافع من السماء الى الأرض وهي ترنّ خلال «الكل» في انسجام!
يا له من منظر! لكنه ، مع الأسف ، منظر فحسب[٤١]! أين أمسك به أيتها الطبيعة اللامتناهية ؟ وأين أنت ، أيّتها الصدور[٤٢] ؟ أأنت ينابيع كلّ حياة ، وبك تتعلّق السماء والأرض وصوبك يندفع الصدر الذابل ـ أنت تتدفّقين وتسبقين ، فهل أتطلّع هكذا عبثاً[٤٣] ؟
(يقلّب صفحات الكتاب كارهاً ، ثمّ يبصر علامة روح الأرض)
لكنّ هذه العلامة ما بالها تؤثّر في نفسي على نحو مختلف تماماً . أنت ، أي روح الأرض ، أنت أقرب اليّ ، وها أنذا أشعر كأن قواي قد نشأت ، وصرت أتوقّد كما لو كنت تجرّعت من خمر جديدة . وأستشعر الشجاعة على خوض غمار العالم ، وعلى تحمّل متاعب الأرض وسعادة الأرض ، وعلى مغالبة العواصف ، وعلى عدم الفزع من تهديد تحطّم السفينة .
الغيوم تتراكم من فوقي ـ والقمر يحجب ضياءه ـ والمصباح ينطفيء! ـ والضباب ينتشر ـ والشعاعات الحمر تنطلق حول رأسي ـ ومن العقد تتنزّل الرعد وتمسك بي! أيّتها الروح التي دعوتها ، إنّي أشعر أنّك تحومين حواليّ . اكشفي عن نفسك! ها!
كم يتمزّق قلبي! إنّ كل أحاسيسي تتواثب نحو مشاعر جديدة! وأشعر أنّ قلبي قد استسلم لك كل الاستسلام! يجب عليك[٤٤]! يجب عليك! حتّى لو كلّفني ذلك حياتي!

(يمسك الكتاب وينطق سراً بعلامة الروح)
تتوهّج شعلة حمراء وتظهر الروح في وسط الشعلة .

الروح : من يدعوني ؟

فاوست : (مشيحاً) يا له من منظر مروّع!

الروح : لقد دعوتني بقوّة ، ورضعت[٤٥] طويلاً من فلكي ، والآن...

فاوست : يا ويلتاه! أنا لا أحتملك!

الروح : أنت توسّلت ، مبهور الأنفاس ، أن تراني ، وأن تسمع صوتي ، وتشاهد وجهي ، وقد استمالني توسّل نفسك القوي ، وها أنذا أمامك!
ـ فأي فزع مثير للشفقة ، هذا الذي استولى عليك أيّها الإنسان الأعلى!
وأين نداء الروح ؟ وأين الصدر[٤٦] الذي خلق عالماً في باطنه ، حمله وحنا عليه ، ثمّ شرحته النشوة وسعى الى السموّ إلينا ، نحن الأرواح ؟
أين أنت ، أي فاوست ، يامن رنّ صوته في سمعي ، واندفع نحوي بكل قوّة ؟ هل أنت من اضطرب في كل أعماق حياته لمّا أحاطت بك أنفاسي ، وصار شبيهاً بدودة ملتوية مذعورة ؟

فاوست : يا مخلوق اللهب ، أيليق بي أن أخنع لك ؟ نعم أنا هو ، أنا فاوست ، أنا نِدٌّ لك!

الروح : في تيّارات الحياة ، وفي عاصفة الأفعال أنا أسبح علواً وسفلاً ، وأهبّ هنا وهناك!
الميلاد والقبر ، بحر دائم ، تحرّك متغيّر ، حياة مشبوبة : هكذا أخلق جالساً أمام نول الزمان ذي الأزيز ، وأنسج لباس الألوهية الحيّ .

فاوست : أنت يا من تجوب أنحاء العالم الفسيح ، أيها الروح المشغول ، كم أشعر أنّي قريب منك!

الروح : أنت إنّما تشبه الذي تتصوّره ـ ولا تشبهني أنا! (يختفي)

فاوست : (منهاراً) لا أشبهك أنت! تشبه من إذن ؟ وأنا صورة الألوهية ، ولا أشبهك أنت!
(يسمع قرعاً على الباب)
يا للموت! أنا أعرف من الطارق ـ إنه مساعدي[٤٧] ـ أجمل سعادتي ستتبدّد! أيفسد عليّ فيض رؤاي هذا المندسّ الأعجف! (فجنر يلبس

معطف النوم وعلى رأسه قلنسوة الليل ، وفي يده مصباح . فاوست يشيح بوجهه متضايقاً) .

فجنر : معذرة! إنّي أسمعك تفيض في الإلقاء . يقيناً كنت تقرأ مأساة يونانية ؟ وهذا فنّ بودّي لو أدركت ذرواً منه ، لأنه اليوم ذو تأثير كبير .وطالما سمعت من يقولون أن الممثّل الهزلي يمكنه أن يعلّم القسّيس[٤٨] .

فاوست : أجل ، حينما يكون القسيس ممثّلاً هزليّاً ، وهو أمر قد يحدث في بعض الأحيان .

فجنر : آه ، إذا أغلق على المرء في موسيون[٤٩] ، ولايكاد يرى الدنيا ولا في يوم عيد ، أو لا يكاد يراها الا من خلال مقراب ، من بعيد فحسب . فأنّى له إذن أن يقودها بالإقناع ؟

فاوست : إذا لم تشعر بالأمر ، فلن تستطيع الظفر به ، بل لابدّ أن ينبثق من النفس وأن يقهر قلوب كل السامعين بمتعة بالغة القوّة . اجلس قابعاً في مكانك دائماً! والصق بعضاً ببعض ، وحضّر طبقاً مصنوعاً من فتّات موائد الآخرين ، وانفخ شعلة هزيلة من بين أكداس الرماد! وهذا أمر يعجب الأولاد والنسانيس ، إن ساغ هذا لحلقك ـ لكنّك لن تجعل الأمر يسري من القلب الى القلب ، مادام لم يصدر عن قلبك أنت .

فجنر : لكنّ نجاح الخطيب يتوقّف على حسن الإلقاء ، وأنا أشعر أنّي لاأزال متخلّفاً في هذا المجال .

فاوست : لا تطلب إلا الكسب الحلال! ولاتكن طبلاً أجوف[٥٠]! إنّ العقل والإدراك السليم يُغْنى معهما قليل من الصنعة ، وإذا كان لديك شيء جاد لتقوله ، فهل أنت في حاجة الى اصطياد الألفاظ ؟ نعم ، إنّ خطبكم البرّاقة التي تنمّقونها بتزويقات لخداع الناس[٥١] ، لاتهزّ أحداً ، مثلها مثل ريح الضباب التي تهزم في الأوراق الجافة إبان الخريف!

فجنر : آه ، يا الهي! الصناعة طويلة والعمر قصير[٥٢] . وكثيراً ماينتاب الضيق رأسي وصدري أثناء تحصيلي النقدي . ما أصعب الحصول على الوسائل التي بها يرتفع المرء الى الينابيع والأصول[٥٣]! وقبل أن يبلغ منتصف

الطريق لابدّ أن يموت مثلما يموت شيطان مسكين .

فاوست : لعلّ البرشمان[٥٤] هو الينبوع المقدّس ، الذي تكفي الجرعة الواحدة منه لتسكين العطش الى الأبد ؟ إنّك لن تحظى بالإنعاش إذا لم ينبثق من ذاتك أنت .

فجنر : معذرة! إنه من دواعي الغبطة العظيمة أن يلقي المرء بنفسه في روح الأزمان الماضية ، وأن يشاهد كيف فكّر رجل حكيم ، وكيف تقدّمنا نحن بعده شوطاً عظيماً .

فاوست : أي نعم ، حتّى بلغتم النجوم! يا صاحبي ، إنّ أزمنة الماضي هي بالنسبة إلينا كتاب مختوم[٥٥] بسبعة خواتم . وماتسمّيه أنت روح الأزمنة هو في الحقيقة روح الناس ، التي فيها تنعكسُ الأزمنة . وهي غالباً ماتدعو الى الرثاء حقّاً! وسرعان ما يهرب منها المرء لدى النظرة الأولى ، سلة مهملات ،ومستودع نفايات ، وفي أحسن الأحوال أعمال سياسية ورنيسية[٥٦] ، مع أمثال عملية جيّدة[٥٧] ، يليق بها أن تصدر عن أفواه الدُمى!

فجنر : لكنّ العالم! وقلب الانسان وروحه! هذه أمور يود كل امرىء أن يعرف عنها شيئاً .

فاوست : نعم ، مايدعوه الناس[٥٨] معرفة! لكن من ذا الذي يجرؤ أن يسمّي الولد باسمه الحقيقي ؟ القلّة التي تعرف شيئاً في هذا الأمر ، وكانت من الحماقة بحيث لم تحتفظ بما امتلأت به قلوبها ، كشفوا عن مشاعرهم ونظراتهم ـ فكان جزاؤهم الصلب والاحراق[٥٩] . أرجوك يا صديقي ، نحن في أعماق الليل ، فعلينا الآن أن نتوقّف .

فجنر : كان بودّي الاستمرار في السهر لأفيد علماً من الحديث معك . لكن إئذن لي غداً ، في صبيحة اليوم الأوّل من عيد الفصح ، أن أوجّه اليك سؤالاً أو سؤالين . إنّي مجدّ في الدراسة بحماسة . صحيح أنّي أعلم الكثير ، بيد أنّي أريد أن أعرف كلّ شيء (يخرج) .

فاوست : (وحده) كيف لا يتبدّد الأمل في رأس يتشبّث دائماً بالتوافه ، وينقّب بيدٍ طمّاعة عن الكنوز ، ويسعد إذا وجد دوداً!
أكان يحقّ لمثل هذا الصوت الإنساني أن يرن ها هنا حيث وفد

الأرواح يحـيط بي ؟ آه! ولكن شكراً لك هذه المـرّة ، ياأبأس بـنـ
الأرض جميعاً ، فقد انتزعتني من اليأس الذي رام أن يدمّر وعيي . ـ ـ
لقد كان المشهد هائلاً الى حدٍّ أنني شعرت أنني قزم حقّاً .
أنا صورة الألوهية ، الذي حسبت أنّي قريب من مرآة الحقيقة الأزلية
وأمتعت نفسي برواء السماء ووضوحها ، ونزعت عنّي بنوّة الأرض
أنا الأعظم من ملك كروبيّ(١٠) ، تسري قوّته الحرّة في عروق الطبيعة
ويتمتّع بحياة الآلهة وهو يخلق ، لقد أسأت تقدير نفسي على نحو
غريب ، فأنّى لي أن أكفّر عن هذا! إنّ كلمة رنّت رنين الرعد قد
قذفت بي بعيداً . لايحق لي أن أشبّه نفسي بك : إن كانت عندي
القدرة لاجتذابك ، فليست عندي القدرة للاحتفاظ بك . في تلك اللحظة
السعيدة ، شعرت بنفسي صغيراً جداً ، وعظيماً جداً ، ثمّ دفعتني
بقسوة الى مصير الانسانية المظلم . من يعلّمني ؟ وماذا يجب عليّ أن
أتجنّب ؟ هل ينبغي لي أن أطيع هذا الاندفاع ؟ آه! إنّ أفعالنا ذاتها
شأنها شأن آلامنا ، تعيق مسيرة حياتنا .
في أنبل الأمور التي تتلقّاها الروح تندسّ مواد غريبة متزايدة الغرابة .
وإذا وصلنا الى خير هذا العالم ، هنالك يكون الأحسن خداعاً ووهماً .
والمشاعر الجليلة التي زوّدتنا بالحياة تتحجّر في المزدحم الأرضي .
وبينا يتّسع الخيال الى مدى الأبدية بجناح جسور وملاء من الرجاء .
فإنّ قليلاً من المكان قد صار يكفيه الآن وقد تهاوت السعادة تلو
السعادة في تيّار الزمان . إنّ الهم قد استقرّ في أعماق القلب ، محدثاً
فيه آلاماً مستسرّة ، ويهدهد نفسه بغير انقطاع ويفسد اللذة
والسكون ، ويتستّر دائماً بأقنعة جديدة ، فيبدو مرّة قصراً وبلاطاً .
وأخرى زوجة وولداً ، وثالثة ناراً وماءً وخنجراً وسمّاً ، فنقلق على أمور
ربّما لا تحدث ، ونبكي دائماً على ما لن نفقده أبداً .
أنا لست مثل الآلهة! إنّي أشعر بهذا شعوراً عميقاً ، وإنّما أنا كالدودة
التي تزحف في التراب ، وبينما تعيش في التراب ومنه تتغذّى إذ
بوطأة قدم عابر السبيل تسحقها وتدفنها .
أليس تراباً هذا الجدار العالي الذي يغلق عليّ هنا برفوفه المائة ؟ وكل

سَقْط المتاع هذا ، وهذه الترّهات التي تضغط عليَ بالآلاف في عالم العثث هذا ؟ هل ينبغي عليَ أن أعثرها هنا على ما أحتاج اليه ؟ هل يجب عليَ أن أقرأ ربّما في آلاف الكتب أنّ الانسان في كلّ مكان يعذّب نفسه ، وأنه كان بين الحين والحين أسعد مما هو ؟ .

وأنت أيتها الجمجمة الفارغة أراك تتهانفين بي ، فماذا تقولين لي غير أنّ دماغك ، مثل دماغي ، حار في البحث عن النهار المضيء فضلّ سعيه نحو الحق عند الغسق ضلالاً مؤلماً ؟ وأنت أيّتها الآلات ، أنت تسخرين منّي بهذه العجلة والأسنان وهذه الاسطوانات والأقواس : لقد وقفت بالباب ، وكان عليك أن تكوني المفاتيح . صحيح أنّ أسنانك مفلّجة ولكنّك لا تستطيعين رفع الترباس . الطبيعة تتلفّع بالاسرار ، ولن تسمح أبداً بأن يمزّق عنها الحجاب ، وما لاتريد هي أن تكشفه لعقلك ، لن تستطيع أنت إرغامها على كشفه بواسطة الروافع واللوالب . وأنت أيتها الأجهزة التي لم أستعملها ، أنت ماثلة ها هنا فقط لأنّ أبي استعملك .

وأنت أيّها الملف العتيق لقد صرت أدخَن لأنّ المصباح العكر ظلّ طويلاً يلقي بالدخان على هذه المنضدة . كان الأولى بي لو أنني بدّدت مقتنياتي الضئيلة بدلاً من أن أثقل كاهلي بهذا القليل حتّى تصبّب عرقي! إنّ ما ورثته عن أجدادك كان ينبغي عليك أن تكسبه أوّلاً من أجل أن تمتلكه! إنّ ما لا يفيد منه المرء يصبح حملاً ثقيلاً ، وما تخلقه اللحظة هو وحده مايمكنه أن يستفيد منه . لكن لماذا تتوقّف نظرتي على هذا الموضع ؟ هل هذه القارورة الصغيرة هناك مغناطيس يجذب عينيّ ؟ ولماذا أشعر فجأة بارتياح ناصع ، مثلما يحدث لمعان القمر في الغابة إبّان الليل ؟

إنّي أحييك ، أيّتها القارورة الوحيدة ، إنّي آخذك الآن بخشوع! فيك أمجّد ذكاء الانسان وفنّه . ياصفوة الأشربة المنوّمة الشريفة ، ياخلاصة كل القوى اللطيفة القتّالة ، بيّني لسيّدك ألطافك! أراك ، فتخفّ آلامي ، وأمسك بك ، فيقل مجهودي ، وتيّار فيض الروح يتناقص شيئاً فشيئاً . والى أعالي البحار يقذف بي ، ومرآة الأمواج

تلمع عند أقدامي ، ونهار جديد يجتذبني الى شواطىء جديدة .
عربة ناريّة[٦١] تحلّق مترنّحة بخفّة وهي قادمة إليّ! أشعر أنّي مستعد لإختراق الأثير سائراً في طريق جديد إلى أفلاك جديدة للنشاط المحض . هذه الحياة السامية ، هذه الغبطة الالهيّة! ـ هل تستحقّهما أنت ، وما أنت بعدُ إلاّ دودة ؟ نعم ، وماعليك إلا أن تدير ظهرك بعزم صادق لشمس الأرض النبيلة! وتجاسر على تحطيم الأبواب التي يود الآخرون لو مرّوا أمامها متسلّلين . لقد آن الأوان لإثبات أنّ مكانة الإنسان لا تقعد عن علياء الآلهة ، ولا ترتجف أمام ذلك الكهف المظلم[٦٢] الذي يتصوّره الخيال تعذيباً لنفسه . بل على الانسان أن يسعى الى هذا الممرّ الذي يشتعل الجحيم كله حول فوهته الضيّقة . وعليه أن يصمّم على القيام بهذه الخطوة ثابت الأقدام ، حتّى لو أدّى ذلك الى المخاطرة بالانسياب في العدم .
تعالي الآن اذن أيّتها القارورة البلّورية الصافية ، وهأنذا أستخرجك من علبتك العتيقة ، إنّي لم أفكّر فيك منذ سنوات عديدة ، وكنت تلمعين وسط حفلات الأجداد السارة ، وتشيعين البهجة في نفوس الضيوف العابسين حينما يقدّمها الواحد منهم الى الآخر . وكان من واجب كلّ شارب أن يشرح نظماً ما رسم عليه من صور فنّية فخمة ، وأن يفرغ ما فيها جرعة واحدة ـ وهو أمر يذكّرني بكثير من ليالي شبابي . أمّا الآن فلا أستطيع أن أقدّمك إلى أي جار ، ولا أن أكشف عن ذكائي في تفسير فنّك : ها هنا شراب يسكر بسرعة ، وهو يملأ جوفك بسائل أسمر . لقد حضّرته بنفسي ، وهأنذا أختاره . والآن فلأتجرّع الجرعة الأخيرة بملء نفسي كتحيّة سامية احتفالية ألقيها على الصباح!
(يرفع القارورة الى فمه ، رنين نواقيس وإنشاد جوقة)

جوقة الملائكة : اليوم قد رفع المسيح
فمسرّة للهالكين
أسرى نقائص[٦٣] موبقات
متسلّلات مُورَثات

فاوست : أي قرع للنواقيس عميق ، أي لحن صافٍ ينتزع الكأس بشدّة من

فمي ؟ هل تعلنين ، أيّتها النواقيس عن ساعة الإحتفال الأولى بعيد الفصح ؟ وأنت أيّتها الجوقات ، هل تنشدين نشيد العزاء الذي تردّد على شفاه الملائكة عند ظلام القبر توكيداً لميثاق جديد ؟

جوقة النساء : وحنّطناه بالطيب
وأرقدناه في القبر
وإنّا مُخلِصاتٌ له ،
وبالأكفان والرُبُط
لففناه على طهر
فياويلاه لم نعثر
عليه الآن في قبره

جوقة الملائكة : اليوم قد رفع المسيح
طوبى وطوبى للمحبّ
جاز امتحاناً مؤلماً
ومُصحّحاً ومحنّكاً

فاوست : أنت أيتها النغمات السماوية ، الرقيقة القويّة ، لم تدعونني أنا الذي في التراب ؟ اعزفي هناك حيث الناس الليّنون! عن طيب خاطر اسمع الرسالة ، لكن يعوزني الايمان ، إنّ المعجزة هي الابن الأحبّ للإيمان . أنا لا أجرؤ على التطلّع الى تلك الأفلاك التي فيها تطنّ البشارة اللطيفة . لكنّ هذا الرنين الذي تعوّدت عليه منذ شبابي ، يدعوني الآن الى العودة الى الحياة . في الماضي كانت قبلة الحب السماوي تنزل عليّ في سكون السبت الجاد هنالك كان ملاء نغمات الأجراس يطنّ حافلاً بالأسرار ، وكانت الصلاة متعة حارّة ، وحنين لطيف لا يمكن تصوّره كان يدفعني الى التجوال بين الغابات والمروج ، وتحت فيض من آلاف الدموع الحارّة ، كنت أشعر في نفسي بأنّ عالماً قد نشأ . وهذا النشيد كان يؤذن بألعاب الشباب المرحة وبالسعادة الحرّة بعيد الربيع . إنّ الذكرى تمنعني الآن ، بشعور صبياني ، من أن أخطو الخطوة الأخيرة الخطيرة . فواصلي رنينك أيّتها الأناشيد السماوية العذبة! الدمعة تنهمر ، والأرض قد استردّتني!

جوقة الحواريين : هل المقبور قد رفعا

الى أعلى ، وفي مجد
هو السامي ، هو الحيّ
وهل في مُتْعة الصَّيُّور[٦٤]
من بشْر البِنا[٦٥] اقتربا
فيا ويلاه! لازلنا
على بحبوحة الأرض!
وخلاّنا هنا نهفو
إليه ونحن أنصاره
فواهاً أيّها السيّد!
على نعماك ها نبكي!

جوقة الملائكة : اليوم قد رفع المسيح
من جوف أرحام العفن
فتحرّروا بسعادة
من كلّ قيدٍ وأهنأوا
والحامدون بفعلهم
والباذلون لحبّهم
والمطعمون أخوّةً
والواعظون سياحةً
والواعدون مسرّةً :
إنّ المسيح لهم قريب
هو ذا هناك

أمام البوّابة

متريّضون من كل صنف يتجوّلون

صبية عمال : لماذا تذهبون الى هناك ؟
آخرون : نحن صاعدون الى بيت الصيّاد .

الجماعة الأولى : لكنّنا نريد الذهاب الى الطاحونة .

صبي عامل : أنصحكم بالذهاب الى حانة النهر .

صبي عامل آخر : الطريق اليها ليس جميلاً .

آخرون : وماذا ستفعل أنت إذن ؟

ثالث : سأمضي مع الآخرين .

رابع : تعالوا نصعد الى بورجدروف Burgdorf! فمن المؤكّد أنكم ستجدون هناك أجمل الفتيات وأحسن الجعة ومشاجرات من الطراز الأوّل .

خامس : أيها الرفيق الفاحش المجون ، هل يدغدغك جلدك لثالث مرّة ؟ لا أريد الذهاب الى هناك ، لأنّي أتوجّس خوفاً من ذلك المكان .

خادمة : لا ، لا ، أنا عائدة الى المدينة .

أخرى : سنجدك قطعاً عند أشجار الحور القائمة هناك . .

الأولى : هذا لا يسرّني كثيراً . إنه سيمشي الى جانبك ، وسيرقص معك وحدك على مرتصفة[٦٦] في الهواء الطلق . فماذا يعنيني من مسرّاتك!

أخرى : من المؤكّد أنه ليس اليوم وحده ، لقد قال، إنّ ذا الشعر المتجعّد سيكون عنده .

تلميذ : واعجبا ، انظر كيف تتمشّى هؤلاء الفاجرات المستهترات ، تعال يا أخي ، لابدّ لنا أن نضاجعهن جعة قويّة ، وطباق عاضّ ، وخادمة بملابس نظيفة ، هذا هو ذوقي الآن .

بنت البندر : انظروا الى هؤلاء الأولاد الحسان! إنه وأيم الله لعار : ففي وسعهم أن يصاحبوا أفضل الفتيات ، لكن ها هم أوّلاً يجرون وراء هؤلاء الخادمات!

تلميذ ثان : (مخاطباً الأوّل) لا تسرع هكذا! فمن ورائنا تأتي اثنتان ، متأنّقتان في ملبسهما ، واحداهما جارتي ، وأنا كلفٌ بها كثيراً . هما تمشيان بخطى هادئة ، ولن يبخلا علينا في النهاية بمصاحبتهما .

الأول : لا . يا أخي! أنا لا أحبّ أن أتحرّج . أسرع حتّى لا نضيّع لحم القنّيص! إنّ اليد التي تجيل مكنستها في يوم السبت هي خير ما يلاطفك في يوم الأحد .

أحد أبناء المدينة : كلا ، رئيس المدينة الجديد لايعجبني! ومنذ توليه هذا المنصب وهو
يزداد كلّ يوم عتوّاً . وماذا يعمل إذن من أجل المدينة ؟ أوَ لا تزداد
الأحوال كلّ يوم سوءاً ؟ وعلينا السمع والطاعة أكثر وأكثر ، وعلينا أن
ندفع أكثر من ذي قبل .

الشحاذ : (يغنّي) أيها السادة الكرام ، أيتها السيدات الجميلات .
ثيابكم نظيفة ، وخدودكم متورّدة .
تفضّلوا واعطفوا عليّ بالتفاتة
انظروا وخفّفوا محنتي!
لا تدعوني أعزف دون طائل!
من يعطي هو وحده السعيد
إنّ يوماً يحتفل به كلّ الناس
ليته يكون لي يوم حصاد!

آخرون من أبناء المدينة : لا أعرف شيئاً أمتع في أيّام الآحاد والأعياد من حديث عن الحرب
وضجيج الحرب ، حين تتقابل الشعوب هناك بعيداً في تركيا[٦٧]
يجلس المرء عند النافذة ، ويفرغ كأسه في جوفه ، ويشاهد السفن
المنوّعة تتهادى في النهر . ثمّ يعود المرء في المساء مبتهجاً الى
بيته ، ويبارك السلام وأزمنة السلام .

ثالث من أبناء المدينة : نعم يا جاري ، إنّي أرى الأمر كما تقول : فَلْيَشْجُجْ كل واحد منهم
رأس الآخر ، وليشتبك كل شيء بكل شيء ، أمّا ها هنا عندنا فليبق
كل شيء على مايكون عليه .

امرأة عجوز[٦٨] : (مخاطبة بنات البندر) آه! ياللأناقة! هذا الدم الشاب الجميل! من ذا
الذي لا يستهيم بكنّ حبّاً ؟ ـ لكن لا داعي لكل هذا التكبّر! ليكن[٦٩]!
وما تتمنّينه أنا أعرف كيف أوفّره لكنّ .

بنت البندر : أجاتي ، هيّا بنا! يجب أن نحاذر من أن نُشاهَدَ علانيةً مع مثيلات هذه
الساحرة ، وإن كانت قد مكّنتني من رؤية عزيزي المقبل عياناً بلحمه
ودمه في ليلة القدّيس أندريا[٧٠] .

لبنت الأخرى : لقد أرتني إيّاه في البلّور على هيئة جندي بصحبة العديد من الجسورين . إني أتلفّت حولي وأبحث عنه في كلّ مكان ، لكنّه لا يريد أن ألقاه .

جنود : حصون ذات أسوار عالية وأسنان ، وفتيات فيهنّ خيلاء واستهزاء بودّي لو أكسبها! المسعى جسور ، لكنّ الجزاء عظيم! ولتكن في الأبواق داعية الى السرور والى الهلاك . هذه عواصف! هذه حياة! الفتيات والحصون لابدّ أن تستسلم لنا . المسعى جسور ، لكنّ الجزاء عظيم ، والجنود زاحفون .

فاوست وفجنر[٧١]

فاوست : من الجليد يتحرّر النهر والجداول بفضل نظرة الربيع اللطيفة ، وفي الوادي اخضوضرت نعمى الأمل ، والشتاء العجوز انسحب هزيلاً الى الجبال الصلدة . ، وإبّان هروبه يرسل من هناك رذاذاً ضعيفاً من الثلج المحبّب[٧٢] يتساقط في خطوط على المرج الأخضر لكنّ الشمس لا تحتمل أي بياض[٧٣] : فالخلق والسعي دائبان في كلّ مكان ، والشمس تريد إحياء كلّ شيء بالألوان ولمّا كان المكان خالياً من الأزهار ، فإنها تستبدل بها الناس المتأنّقين . استدر لتشاهد المدينة من هذه الأعالي .

من بوّابة المدينة الخاوية الكئيبة تندفع جموع شتّى ، وكل واحد يود أن يتشمّس اليوم .

إنّهم يحتفلون بقيامة السيّد ، لأنّهم هم أنفسهم قاموا : من الحجرات الرطبة في البيوت الواطئة ، ومن قيود العمل والمهنة ، ومن ضغط المسنّمات[٧٤] والسقوف ، ومن مضايق الأزقّة العاصرة ، ومن ظلام الكنائس الرهيب ـ قد خرجوا جميعاً الى النور . انظر كيف تتشتّت الجموع مستطارين خلال الحدائق والحقول ، وكيف يحرّك النهر ، في طوله وعرضه ، كثيراً من الزوارق المرحة ، وكيف يبتعد هذا الزورق الأخير وقد حُمّل فوق طاقته حتّى ليوشك أن يغرق! ومن طريق الجبل

البعيد تتراءى لنا الملابس الزاهية الألوان . وهأنذا أسمع جلبة القرية
وهنا جنّة الشعب الحقيقية ، والكبير والصغير كلاهما يصيح : «هـ هـ
أنا إنسان . وها هنا يحقّ لي أن أكونه» .

فجنر : التنزّه معك ، سيّدي الدكتور ، تشريف ومكسب . بيد أنّي لايطيب لي
أن أضيّع نفسي ها هنا وحدي ، لأنني عدوّ لكل ما هو خشن . فصرير
العزف ، والصياح ، وتصادم الأكَر كلّها أصوات كريهة عندي . إنّهم
يضجّون وكأن روحاً خبيثة تسوقهم ، ويسمّون هذا مع ذلك سرور
وغناء .

فلاحون (تحت شجرة زيزفون: رقص وغناء)

تأنّق الراعي من أجل الرقص
ولبس سترة زاهية عليها أشرطة وطاقيّة زهر للزينة
وحول الزيزفونة امتلأ المكان
ورقص الكل كالمجانين
يهَو! يهَو!
ويّها! ها ، ها!
هكذا عزف الكمان .
انطلق مسرعاً فصدم بكوعه فتاة
فالتفتت الفاجرة النضرة وقالت :
«أرى هذا حمقاً»
يهَو! يهَو!
يهَا! ها ، ها!
«لا تكن قليل الأدب هكذا!»
وفي الحلقة ازداد الرقص إسراعاً
وكانوا يرقصون عن يمين ، وكانوا يرقصون عن شمال
وتطايرت كلّ الثياب
وتضرّجوا بالحمرة ،وسرت فيهم الحرارة
ثمّ استراحوا والتقطوا أنفاسهم والذراع حول الذراع

يهَو! يهَو!
يهَا! ها ، ها!
والفخذ عند الكوع .
وليس بينك وبيني ألفة ومودّة!
كم فتى كذّب على محبوبته وخدعها! »
لكنّ كان مع ذلك يغازلها متنحياً جانباً
وابتعد صوت الموسيقى عن الزيزفونة :
يهَو! يهَو!
يهَا! ها ، ها!
صراخ وعزف كمان .

فلاح عجوز : سيّدي الدكتور! جميل منك ألا تتعالى اليوم علينا ، وأن تسير بين هذا الزحام الشعبي وأنت العالم الكبير . تناول اذن أجمل الأباريق وقد ملأناه بشراب منعش! إنّي أقدّمه اليك وأتمنّى ألا يكون فقط وسيلة لتسكين عطشك : بل ليكن عدد ما فيه من القطرات أياماً تضاف الى أيّام عمرك .

فاوست : أقبل الشراب المنعش ، وأتمنّى لك كلّ سلامة وشكراً لك .
(يتجمّع الناس في حلقة حوله)

فلاح عجوز : الحقّ أنّك أحسنت صنعاً بظهورك في هذا اليوم السعيد . وفي الماضي كم أحسنت صنعاً في الأيّام السوّد . وكثيرون هنا من الأحياء الذين أنقذهم أبوك من بحران الحمّى الساخنة ، لمّا أن وضع حدّاً للطاعون . وأنت أيضاً ، وكنت في ريّق الشباب ، كنت تذهب الى كل مستشفى ، صحيح أنّ الكثير من الجثث كانت تنقل خارجاً ، لكنّك خرجت سالماً ، بعد أن قاسيت الكثير من المحن الشديدة ، إنّ المعين في السماء أعان المعين على الأرض .

الكل : الصحّة للرجل الممتحن ، حتّى يستطيع أن يساعد زماناً أطول!

فاوست : اركعوا لمن هو في عليائه ، إنه يدعونا الى المعاونة ويرسل عونه!
(يستمر في سيره مع فجنر)

فجنر : أيها الرجل العظيم! أي شعور يغمرك من تقدير هذا الجمع! وما أسعد

من يستطيع أن يستمد من مواهبه مثل هذه الميّزة! الوالد يلفت ـ
ابنه مشيراً اليك ، وكلّ واحد يسأل ويتدافع ويسرع ، ولكن ـ
يصمت ، والراقص يتوقّف . أنت تسير ، وإذا بهم يقفون صفّاً صفـ
وقبّعاتهم تتطاير الى أعلى ، ويكادون يركعون ، كما لو كان الخبز ـ
المقدّس[٧٥] يمرّ .

فاوست : خطوات قليلة ونبلغ تلك الصخرة ، وعندها نود أن نستريح من جولتـ
هذه . لطالما جلست هناك مملوءاً بالأفكار والخواطر ، وعذّبت نفسي
بالصلاة والصوم .
كنت حافلاً بالآمال ، صلب الإيمان ، فظننت أنّي بدموعي وزفراتي
وكفّي سأحمل ربّ السماء على أن يضع نهاية لذلك الطاعون . ـ
مديح الجمع يطنّ في أذنيّ الآن كما لو كان توبيخاً . ولو استطعت ـ
تقرأ مافي باطن نفسي لأدركت أنّ الأب والابن كليهما لا يستحق
مثل هذه الشهرة! كان أبي رجلاً شريفاً ولكنه مغمور ، وكان مولعـ
بالتفكير في الطبيعة وفي دوائرها المقدّسة ، بأمانة ولكن على طريقته
الخاصّة ، باذلاً في ذلك جهوداً غريبة . وبحضرة الصنعويّين كان يغلق
على نفسه في المطبخ الأسود[٧٦] ، وبعد إجراء وصفات لا نهاية لها
كانوا يحاولون التأليف بين المعادن المتنافرة . هنالك يزاوج في حمّام
فاتر أسد أحمر ، جسور طليق ، مع زنبقة ، وبنار شعلة عالية يرغم
كلاهما على الإنتقال من غرفة العرس الى الأخرى[٧٧] . وبعد ذلك
تتجلّى الملكة الشابة بألوان متعدّدة في زجاجة ، وكان ذلك هو
الدواء ، فمات المرضى ، ولم يسأل أحد من ذا الذي شفى . وهكذا
أحدثنا في هذه الأودية وفي هذه الجبال ، بواسطة أوديتنا الجهنّمية ـ
أسوأ ممّا أحدث الطاعون . وأنا بنفسي قد أعطيت السمّ لآلاف
الناس : فطاحت أرواحهم ، وكان عليّ أن أعيش حتّى أسمع من يمدح
القتلة الوقحين .

فجنر : كيف تأسى على هذا! حَسْب الرجل الشريف أن يمارس الصنعة التي
بلغت اليه بدقّة وضمير حيّ . إذا أنت أكرمت أباك وأنت شاب ،
فسيقبلك قبولاً حسناً ، وإن أنت نمّيت العلم وأنت كهل ، فسيكون

في وسع ابنك أن يبلغ غرضاً أسمى .

فاوست : ما أسعد من لايزال يؤمل في إمكان النهوض حيّاً من بحر الأخطاء هذا! ما لا يعرفه الإنسان ، هو في حاجة اليه ، ومايعرفه هو لايحتاج اليه . لكن لا ندعنّ النعمة الجميلة لهذه الساعة تعكّرها مثل هذه الخواطر الأليمة! انظر كيف تلمع الأكواخ المحاطة بالخضرة في لهيب شمس المغيب! الشمس تدلف وتتباعد ، والنهار قد ولّى ، وها هي ذي تهرع الى هناك لتنشّط حياة جديدة . واأسفاه على كوني لا أملك جناحاً يرفعني من الأرض ، كيما أسعى دائماً في أثر الشمس! إذن لكنت قد شاهدت في شعاع المساء الأبدي العالم الهادىء عند أقدامي ، وكل الأعالي وهي تشتعل ، وكظ واد وهو ساكن ، والجدول الفضّي وهو ينساب في تيّار ذهبي . ولن يستطيع الجبل الوحشي حينئذ بكل شعابه أن يعترض السير الشبيه بسير الألهة . وها هو ذا البحر يتجلّى بخلجانه المستدفئة أمام عينيَ المدهوشتين . لكن يبدو أن الإلاهة (الشمس) قد غاصت نهائيّاً ، واستيقظت غريزة جديدة . وهأنذا أسرع كيما أشرب نورها الأبدي ، والنهار أمامي والليل من ورائي ، والسماء من فوقي والأمواج من تحتي . يا له من حلم جميل ، بينما هي تولّى . آه! لو انضمّ الى جناح الروح جناح جسماني(٧٨)! لكن الانسان فطر على شعور يدفعه الى أعلى والى الأمام ، حينما تتغنّى القبّرة بنشيدها المدوّي وهي تهيم في الفضاء الأزرق من فوقنا ، وحينما يحلّق النسر تحليقاً واسعاً فوق أعالي أشجار الصنوبر الخشنة ، وحين يسعى الكركي فوق السهول والبحيرات عائد الى وطنه .

فجنر : وأنا أيضاً كثيراً ما مرّت بي ساعات غريبة ، أمّا تلك الغريزة فلم أستشعرها أبداً . فالمرء لا يلبث أن يسأم من الغابة والحقول . ولن أحسد أبداً الطير على جناحه . وعلى خلاف هذا كم نشعر بنشوات روحيّة ونحن ننتقل من كتاب الى كتاب ، ومن ورقة الى ورقة! هنالك تصبح ليالي الشتاء لطيفة جميلة ، ونشعر أنّ الحياة سعيدة تدفىء كل أعضائنا . آه! تصفح برشماناً جيّداً ، تتنزل لك السماء كلّها!

فاوست : أنت لا تعي إلا غريزة واحدة ، أوه! لا تعرف أبداً الغريزة الأخرى! إن

في صدري ، واأسفاه تسكن روحان ، وكلتاهما تريد الإنفصال عن الأخرى : إحداهما تتشبّث ـ في شهوة قويّة ـ بالعالم بواسطة أعضاء متمسّكة ، والأخرى تسمو على التراب بقوّة صاعدة الى ساحات الأجداد(٧٩) السامين . آه ، لو وجدت أرواح تحلّق سائرة بين السماء والأرض ، فدعها تتنزل من الجو الذهبي وتقتّدني الى حياة جديدة متعدّدة الألوان! أجل ، يا ليت لي عباءة سحرية(٨٠) تحملني الى البلاد الأجنبية! إذن لما بعت بها أفخر الثياب حتّى لو كان عباءة الملك .

فجنر : لا تدع الطائفة المعروفة(٨١) جيدا المنتشرة كالتيّار في دائرة التراب ، وهي تعدّ الآن بالأخطار للانسان من كل النواحي! من الشمال(٨٢) تندفع سنّ الأرواح الحادّة وتعضّك بألسنة مدبّبة كالسهام ، ومن الشرق تأتي بالجفاف وتتغذّى على رئتيك ، وحين تبعث في الظهيرة من الفيافي وتصب الحرارة بعد الحرارة على دماغك ، ثمّ يبعث الغرب دفقة ، تنعشك في البداية ، ثمّ تغرقك أنت والحقل والمرج فيما بعد . ولأنهم يسرّون بالإيذاء ، فإنهم يحبّون الاستمتاع ، ويطيب لهم الاطاعة ، لأنهم يطيب لهم الخداع ، ويتصرّفون كما لو كانوا مرسلين من السماء ، ويهمسون كالملائكة ، حين يكذبون .

لكن . لنذهب! الدنيا اكفهرّت ، والهواء ابترد ، والضباب يرخي سدوله! والمرء لا يقدر البيت حقّ قدره إلاّ في السماء ـ لماذا تقف هكذا وتتطلّع مدهوشاً الى هناك ؟ ماذا عسى أن يكون هذا الذي يقبضك هكذا في الغسق ؟

فاوست : أوَ لا ترى هذا الكلب الأسود(٨٣) وهو يجول بين الحَبّ والتبن ؟

فجنر : لقد رأيته منذ مدّة ، لكن لم يبد لي أنّ فيه ما يلفت النظر .

فاوست : تطلّع فيه جيّداً! ماذا تظن أي حيوان هو ؟

فجنر : أظنّ أنه كلب يقتفي على طريقته آثار سيّده .

فاوست : أوَ لا تلاحظ أنه يقترب منّا دائماً وهو يمشي في دوائر حلزونية واسعة ؟ وإذا لم يخطئ ظنّي فإنّ دوّامة من النار تجرّ نفسها في طريقه وأثره .

فجنر :أنا لا أرى غير كلب أسود ، ربّما انتابك خداع بصر .

فاوست : يخيّل إليّ أنه يرسم حبائل سحرية حول أقدامنا لتكون أحبولة .

فجنر : أنا أرى أنه يتواثب حوالينا في خوف وعدم يقين ، لأنه أبصر شخصين غير مألوفين له بدلاً من سيّده .

فاوست : الدائرة تزداد ضيقاً ، وها هو ذا قد اقترب!

فجنر : إنّ ما تبصره هو كلب ، وليس ها هنا شبح . إنه يزمجر ويتحيّر ، ويرقد على بطنه ، ويحرّك ذيله : وكلّها أمور من عادة الكلاب .

فاوست : تعال إلينا! تعال هنا!

فجنر : إنه كلب غبي . إذا وقفت ساكناً ، انتظر . وإذا كلّمته ، شبّ عليك . وإذا أضعت شيئاً ، مضى وأعاده اليك ، ويلقي بنفسه في الماء ليلتقط عصاك .

فاوست : أنت على حق ، إنّي لا أجد أثراً لروح ، الأمر كلّه تدريب .

فجنر : إنّ الكلب إذا ما أحسن تدريبه ، يجتذب حتّى الرجل الحكيم . نعم ، إنه يستحقّ تماماً أن يحظى برعايتك . إنه أبرع تلميذ بين التلاميذ . (يدخلان باب المدينة)

غرفة الدراسة

(فاوست يدخلها ومعه الكلب[٨٤])

فاوست : غادرت الحقل والمروج يغطّيها ليل بهيم يملأ أحسن النفوس قشعريرة مقدّسة حافلة بالتوجّسات . والآن رقدت الغرائز الوحشية ورقد معها كل فعل عنيف ، وتحرّك حب بني الإنسان ، كما تحرّك الآن حبّ الله .

اهدأ ، أيها الكلب ، ولا تَعْدُ هنا وهناك! ماذا تتشمّم عند الوصيد ؟ ارقد خلف الموقد ، وسأعطيك خير ما عندي من حشايا . وكما أمتعتنا هناك في شعب الجبل بعدوك ونُزائك ، فتلق منّي الآن الرعاية بوصفك ضيفاً هادئاً يستحقّ الترحيب به .

أواه! حينما يضيء المصباح من جديد بلطف في صومعتنا الضيّقة ، ينشرح الصدر ويستنير القلب الذي يعرف ذاته . ويبدأ العقل في الكلام من جديد ، ويزهر الأمل مرّة أخرى ، ويتشوّق المرء الى جداول الحياة ، آه! الى ينبوع الحياة .

لا تزمجر ، أيها الكلب! إنّ الصراخ الحيواني لايتلاءم مع الأنغام المقدّسة التي تحيط بنفسي كلّها . لقد اعتدنا أن نرى الناس يزدرون ما لا يفهمون ، ويتضجّرون أمام الخير والجميل اللذين كثيراً ما يشقّان عليهم . فهل يريد الكلب أن يحاكيهم في الضجر ؟

لكن يا ويلتاه! مهما تذرّعت بأحسن نيّة ، فإن الرضا لاينبثق من صدري . لكن لماذا على السيل أن يفيض عمّا قليل ، ونصبح من جديد في عطش ؟ لدي عن هذا العديد من التجارب . لكن هذا النقص يمكن تعويضه : فنتعلّم كيف نقدّر ما هو فوق الأرض ، ونشتاق الى الوحي ، وهو لا يضيء على نحو أجدر وأجمل ممّا نراه في «العهد[٨٥] الجديد » .

وإنّي أشعر بدافع يحثّني على أن أفتح النص الأصلي ، وأن أترجم الأصل المقدّس الى لغتي الألمانية العزيزة ، وفي نفسي يسري شعور نبيل .

(يفتح مجلّداً ، ويتهيّأ) مكتوب فيه : «في البدء كانت الكلمة»[٨٦] هأنذا أتوقّف! من يساعدني على الاستمرار ؟ إن اللفظ «الكلمة» لا أراه وافياً بالمقصود ، فلا بد من استبدال غيره به ، وأن أترجمه بلفظ آخر ، إن نوّرتني الروح حقّاً . فلأقل مثلاً : «في البدء كان المعنى» . لكن تأمّل جيّداً في هذا السطر الأوّل حتّى لايتسرّع قلمك! هل «المعنى Sinn» هو الذي يفعل كل شيء ويخلقه ؟ كلا ، يجب أن يكون هكذا : «في البدء كانت القوّة Kraft» ، لكن بينما أنا أكتب هذا ، إذا بما يحذّرني ألا أجتزئ بهذا . فلتساعدني الروح! فجأة أصيب الحق ، وأكتب راضياً : «في البدء كان الفعل Tat» .

إن كنت تريد أن تقاسمني الغرفة ، أيها الكلب ، فكف عن النباح ، وتوقّف عن الصراخ! إنّي لا أحتمل بالقرب منّي رفيقاً مزعجاً مثلك .

لابد لأحدنا أن يترك هذه الصومعة .
أنا لا يطيب لي أن ألعن حقّ الضيافة ، ها هو ذا الباب مفتوح ، فانطلق في الهواء! لكن ماذا عليّ أن أشاهد! هل من الممكن أن يحدث هذا على نحو طبيعي ؟ أهذا وهم ؟ أم هذه حقيقة ؟ كيف صار كلبي هذا طويلاً عريضاً! إنه يرتفع بقوة ، هذه ليست هيئة كلب! أي شبح أحضرته معي الى البيت! ها هو ذا قائم مثل فرس النيل ، بعينين من النار وأسنان مخيفة . آه ، أنا أعرف من أنت! لمثل هذه الوحوش الجهنّمية يصلح مفتاح[٨٧] سليمان .

أرواح
(عند المدخل) : في الداخل محبوس واحد منّا! ابقوا هنا ، ولا يتبعه أحد! . مثل ثعلب في الحديد يتحيّر ضبع جهنّمي عجوز . لكن انتبهوا! تطايروا هناك ، تطايروا هنا ، علواً وسفلاً ، لينطلق من عقاله . إن كنتم تستطيعون أن تقيّدوه ، فلا تدعوه يجلس! لأنه نفحنا جميعاً بما يسرّ .

فاوست : أولاً للقاء هذا الحيوان لابدّ لي من تعزيمة[٨٨] الأربعة :
لابدّ للسمندر أن يشتعل
ولأندين أن يتلوّى
ولسولفا أن يختفي
ولكوبولد أن يبذل جهده
من لايعرف العناصر وقوّتها وخواصها لايمكنه أن يسخّر الأرواح .
اختف في اللهيب ، يا سلمندر!
سل هادراً ، يا أوندين!
نوّري بنور الشهب الجميلة ، يا سولفا!
انت بمساعدة منزلية ، يا انكوبس ، يا انكوبس
أظهر واصنع الختام!
لا واحد من الأربعة مقيم في هذا الحيوان . إنه يرقد هادئاً تماماً ، ويتهانف بي ، وأنا لم أوذه حتّى الآن .
لابدّ أن تسمعني إذا ماعزمت بشكل أقوى .
أيها الرفيق ، هل أنت هارب من الجحيم ؟

إذن تطلّع في هذه العلامة[٨٩] التي تركع أمامها الزمر السوداء!
ها هو ذا ينفتح بشعره المشعث :
أيها الكائن اللعين ،
هل تستطيع أن تقرأه ،
إنه رمز اللامخلوق
وعلامة اللاّمسمّى[٩٠]
وقد صبّ في كلّ السماء
وثقب بوقاحة ؟

حصر وراء الموقد ، وها هو ذا ينتفخ مثل الفيل ، ويملأ كل مكان ، ويودّ أن يتحوّل الى ضباب . لاتصعد حتّى السقف! أرقد نفسك عند قدميّ سيدك! أنت ترى أنّي لا أهدّد عبثاً : بوسعي أن أحرقك بالشعلة المقدّسة! لا تنتظر حتّى النور المثلّث الشعلات! لا تنتظر حتّى أصنع أقوى صنائعي!

مفستوفيلس : (يظهر وراء الموقد ، وهو يلبس زي طالب علم جوّال ، بينما الضباب يتبدّد) : علام هذا الضجيج ؟ أي خدمة أستطيع أن أقدّمها للسيد ؟

فاوست : كان هذا إذن نواة الكلب! طالب علم جوّال ؟ هذا أمر يجعلني أضحك .

مفستوفيلس : إنّي أحيّي السيد العالم! لعد جعلني أتصبّب عرقاً بشدّة .

فاوست : ما اسمك ؟

مفستوفيلس : هذا سؤال يبدو لي تافهاً عند من يزدري الكلمة ازدراءً شديداً ، ويتباعد عن كل مظهر ، ولا يحفل الا بأعماق الماهية .

فاوست : عندكم ، أيها السادة ، أنّ في وسع المرء أن يستقرئ الماهية من الاسم عادة ، وهو أمر يتجلّى بكل وضوح حين ينعتك أحد بأنّك : ربّ الذباب[٩١] مفسد ، كذّاب ، والآن ، من أنت إذن ؟

مفستوفيلس : أنا جزء من تلك القوّة التي تريد الشر دائماً ، وتفعل الخير دائماً .

فاوست : ماذا تعني بهذا اللغز ؟

مفستوفيلس : أنا الروح التي تنكر دائماً! وهذا بحق : لأنّ كل ما ينشأ يستحق أن يُفنى . ولهذا كان سيكون الأفضل ألا يكون قد نشأ شيء . وهكذا ، فإنّ كل ماتسمّيه خطيئة ، تدمير ، وبالجملة : شرّ ـ هو عنصري الحقيقي .

فاوست : أنت تصف نفسك بأنّك جزء ، ومع ذلك ها أنت ذا تمثل أمامي كلاً ؟

مفستوفيلس : إنّي أتواضع في ذكر الحقيقة . لمّا كان الإنسان هذا العالم الصغير من الحمقى ، قد اعتاد أن يحسب نفسه كلاً ـ فأنا جزء من جزء كان في البداية كلّ شيء[٩٢] ، جزء من الظلمة ، التي ولدت النور ، النور المتكبّر المختال ، الذي ينازع الآن الليلة الأمّ مكانتها القديمة ومكانها ، ورغم ذلك لم يفلح ، لأنه طالما كان يسعى فهو لاصق بالأجسام سجين بها . إنه ينساب من الأجسام ، ويجعل الأجسام جميلة ، لكنّ الجسم يعترض مساره ، ولهذا فإنّي أؤمل ألا يمضي وقت طويل قبل أن تزول وتفنى الأجسام .

فاوست : الآن أعرف ما هي واجباتك الجليلة! إنّك لا تستطيع أن تفني شيئاً في جملته ، وها أنت ذا تبدأ جزءاً جزءاً .

مفستوفيلس : ولم ينجز من ذلك شيء كبير . ما يعترض العدم ، هذا الشيء ، هذا العالم الغليظ ، لم أستطع أنا ، على كثرة ماقمت به من محاولات ، أن أتغلّب عليه بالأمواج ، والعواصف ، والهزّات ، والحرائق ـ بل في النهاية بقي البحر والبرّ في هدوء! ثمّ هذه الأداة اللعينة ، هذه العصابة من الحيوان والإنسان ، لاسبيل الى التعامل معها : ما أكثر من دفنت منهم! ورغم ذلك يدور دائماً دم جديد طري . ويستمر الأمر على هذا النحو ، وليودّ المرء أن يزداد غلواً وجنوناً! ومن الهواء والماء ومن التراب تنطلق آلاف البزور في اليابس ، والرطب ، والحار ، والبارد! ولو لم أحتفظ لنفسي بالنار ، لما بقي لي شيء خاص بي .

فاوست : أنت تضع إذن قبضة الشيطان الباردة في مواجهة القوّة الدائبة الخالقة الشافية ، تلك القبضة التي تتكوّر بخبث! حاول شيئاً آخر ، أيها الابن العجيب للعماء!

مفستوفيلس : نريد حقّاً أن نمعن في هذا الأمر ، وأن نزيده فحصاً في المرّات القادمة! أتسمح لي هذه المرّة بالذهاب ؟

فاوست : لا أرى وجهاً لهذا السؤال . لقد تعرّفت عليك الآن ، زرني كما تشاء . ها هو ذا الشبّاك ، وهذا هو الباب ، وهذه هي أيضاً المدخنة لك أن تستخدمها .

مفستوفيلس : لأصارحك القول! يمنعني من الخروج عقبة صغيرة : هذه النجمة[٢٠] المخمّسة على عتبتك .

فاوست : أتضايقك النجمة المخمّسة ؟ خبّرني إذن يا ابن الجحيم : إن كنت مسحوراً ، فكيف دخلت ها هنا ؟ أنّى تخدع مثل هذه الروح ؟

مفستوفيلس : انظر بإمعان! إنّ النجمة المخمّسة لم ترسم بإحكام : فالزاوية المتّجهة الى الخارج مفتوحة قليلاً كما ترى .

فاوست : صدفة جميلة! اذن قد صرت سجيناً عندي ؟ هذه فرصة طيبة .

مفستوفيلس : إنّ الكلب لم يلحظ شيئاً حينما وثب الى الداخل ، لكنّ الأمر يتراءى الآن على نحو آخر : إنّ الشيطان لا يستطيع أن يخرج من البيت .

فاوست : لكن لماذا لا تخرج من الشبّاك ؟

مفستوفيلس : إنه لقانون عند الشياطين والأشباح يقضي عليهم بأنّهم من حيث دخلوا ، فعليهم بالضرورة أن يخرجوا . نحن أحرار في الأمر الأوّل (الدخول) ، لكنّنا مستعبدون في الأمر الثاني (الخروج) .

فاوست : حتّى الجحيم له قوانينه ؟ أرى هذا أمراً طيّباً ، لأنّ هذا يسمح بعقد ميثاق معك يا سيّد!

مفستوفيلس : ما توعد به ستستمتع به متعة خاصّة ، ولن تحرم من شيء منه . لكن هذا لا يمكن أن يتم في وقت وجيز هكذا ، فلنتباحث في هذا الموضع في المرّة القادمة . أمّا الآن فأرجوك رجاءً حارّاً مفرطاً أن تدعني أمضي لشأني هذه المرّة .

فاوست : ابقَ مع ذلك لحظة لتخبرني بأخبار حسنة .

مفستوفيلس : الآن دعني أرحل! سأعود عمّا قريب ، وحينئذ اسأل ما بدا لك .

فاوست : أنا لم أنصب لك حبّالة ، بل أنت من تلقاء نفسك دخلت فيها . فليحتفظ بالشيطان من أمسك به! فإنه لن يصاد مرّة أخرى عمّا قريب .

مفستوفيلس : إن شئت فأنا مستعد للمكوث ها هنا بصحبتك ، لكن على شرط هو أن نقضي الوقت في إظهار فنوني أمامك .

فاوست : أقبل هذا عن طيب خاطر ، وأنت حرّ في ذلك لكن ليكن الفن ساراً حقّاً .

مفستوفيلس : ستكسب ، يا صديقي ، لمشاعرك في هذه الساعة أكثر ممّا تستفيده طوال عام رتيب . ما تنشده الأرواح اللطيفة ، والصور الجميلة التي تأتي بها ، ليست ألعاباً سحرية فارغة . إنه سيمتّع أيضاً شمّك ومشاعرك ستغمرها النشوة . والأمر لايحتاج الى إعداد ، فها نحن أوّلاً مجتمعون ، فلنبدأ على الفور!

أرواح : اختفي أيتها الأقواس الكابية من فوقنا!
إنّ الأثير الأزرق يطل علينا بتودّد!
ألا ليت السحائب الداكنة تنقشع!
ولتلمع النجوم بالشرر ، ولتسطع شموس أرقّ فيها
وليحلّق الجمال الروحي للأنباء السماوية
في أنحاء مترجّح من فوقنا
وليتبعه هناك الميل المشتاق .
والأشرطة المرفرفة في الأثواب
دعها تغطّي الحقول والأشجار
التي في ظلالها يقسم العشّاق وهم غارقون في الخواطر
قسم الحبّ مدى الحياة .
الأوراق فوق الأوراق!
والسروع(٩٤) ذات البراعم!
وعناقيد العنب ذات الثقل تتهاوى في جُرن المعاصر
العاصرة والنبيذ ذو الحبب يتساقط في جداول ويتدفّق
خلال أحجار طاهرة شريفة مخلّفاً الروابي وراءه
منتشراً الى بحيرات تكفي الروابي الخضر .
والطير يتمزّز منها في نشوة ، ثمّ يطير تجاه الشمس ،
صوب الجزر المشرقة التي تتهاوى مرحة على الأمواج
حيث نسمع الزاجلين في جوقات ،
ونشاهد الراقصين على المروج ،
وقد تفرّقوا جميعاً في الهواء الطلق
والبعض يصعدون الى الأعالي

والبعض الآخر يسبحون على مياه البحيرات
وثالثون معلّقون
الكل يصبو الى الحياة
والكل يهفو الى البعيد
الى النجوم الحبيبة
السعيدة النبيلة

مفستوفيلس : لقد غلبه النعاس! أحسنتم ، أيّها الشباب الهوائيّون الرقاق! لقد هدهدتموه بالغناء مخلصين حتّى نام! من أجل هذا الكونسرت أنا مدين لكم . لست بعد ذلك الرجل الذي يستطيع أن يمسك بالشيطان! أحيطوه بأشكال الحلم العذبة ، وأغرقوه في بحر من الجنون! لكن لفكّ السحر المعمول في هذه العتبة ، أحتاج الى أسنان فأر ، ولاحاجة بي الى التعزيم طويلاً ، فها هو ذا فأر يعدو الى ناحيتي وحالاً سيستمع اليّ . ربّ الفئران والقطط ، والذباب والضفادع ، والبق والقمل ، يأمرك أن تتجاسر وتتقدّم لقرض هذه العتبة متى مادهنتها بالزيت ـ ها أنت ذا قد جئت عادياً! هيّا للعمل! إنّ الطرف المدبّب الذي حبسني يجلس في مقدم الحافّة .
عضّة أخرى ، ويقضى الأمر ـ والآن ، أرى فاوست ، استمرّ في أحلامك ، حتّى نلتقي من جديد!

فاوست : (مستيقظاً) هل خدعت مرة أخرى ؟ أهكذا اختفت هذه الدفعة الغنيّة بالأرواح ؟ وهل أراني الحلم شيطاناً ، وأوهمني أنّ كلباً قد فرّ منّي ؟

غرفة الدراسة

فاوست . مفستوفيلس

فاوست : من الطارق ؟ ادخل! من ذا الذي يريد من جديد أن يضايقني ؟
مفستوفيلس : إنه أنا .
فاوست : ادخل!

مفستوفيلس : عليك أن تقولها ثلاث مرّات .

فاوست : ادخل إذن .

مفستوفيلس : أنت تعجبني هكذا . آمل أن يتحمّل كلانا الآخر . فمن أجل طرد الهموم عنك ، جئت اليك كرجل نبيل ، متدثّراً بثوب أحمر مطرّز بالذهب ، وعلى عباءة من الحرير المشدود ، وعلى رأسي قلنسوة مزوّدة بريش الديكة ، ومعي خنجر طويل مدبّب . وأنصحك الآن باختصار أن ترتدي مثل ذلك ، ابتغاء أن تجرّب - وأنت حرّ طليق - ما هي الحياة .

فاوست : مهما يكن الثوب الذي ارتديه فسأشعر بآلام الحياة الأرضية المحدودة الضيّقة . إنّي من الهرم بحيث لا أستطيع الاكتفاء باللعب ، ومن الشباب بحيث لا أخلو من الأماني . ماذا يمكن العالم أن يحقّقه لي ؟ عليك بالحرمان! يجب عليك أن تحرم نفسك! تلك هي الأنشودة الدائمة التي يلقيها كلّ واحد في المسامع ، والتي غنّتها كل ساعة طوال ساعات حياتنا كلّها . في كلّ صباح أستيقظ متضجّراً ، وأودّ أن أذرف دموعاً مرّة بسبب اليوم الجديد الذي لن يحقّق لي رغبة واحدة ، نعم رغبة واحدة : اليوم الذي سيقلّل من توقّع أية لذّة بما يثيره من مماحكات عنيدة ، اليوم الذي يحدّ قوّتي الخلاّقة بآلاف من سفاسف الحياة . ولهذا ، فإنّ عليّ ، حين يرخي الليل سدوله ، أن أتمدّد على فراشي وأنا مملوء بالقلق : وحتّى هنا لا أشعر بأية راحة ، إذ تزعجني الأحلام الوحشية . إنّ الاله الذي يسكن في صدري يستطيع أن يهزّ أعماقي ، والاله الذي يتربّع على عرش قواي كلّها لايستطيع أن يحرّك شيئاً في الخارج ، وهكذا فالوجود عبء ثقيلٌ عليّ . الموت صار أمنيتي ، والحياة بغيضة عندي .

مفستوفيلس : ومع ذلك فالموت ليس ضيفاً مرحّباً به أبداً .

فاوست : طوبى لمن يلفّ صدغيه بأغصان الغار الدامية وهو في لألاء الانتصار ، وطوبى لمن يرتمي بين أحضان فتاة بعد رقصة سريعة مثيرة! ياليتني وقعت أمام قوّة الروح العالية صريعاً مسحوراً!

مفستوفيلس : ومع ذلك فإنّ أحدهم لم يفرغ في جوفه السائل الاسمر في تلك الليلة!

فاوست : يبدو لي أنّ التجسّس هو هوايتك .

مفستوفيلس : أنا لا أعرف كلّ شيء ، بيد أنّي أعرف الكثير .

فاوست : لئن انتزعتني من الغمّة الرهيبة نغمة عذبة مألوفة ، خدعت بقيّة مشـ ـر
الطفولة برنين الزمان الهانيء ، فإنّي ألعن الآن كل ما أحاط نفسـ
بأعمال السحر والمخرقة ، وسجنها في جحر الأحزان هذا بواسطة قو
البَهْر والتملّق! وألعن مقدّماً حسن الظن الذي به تخدع الروح ذ تـ
وألعن بهر الظاهرة التي تلقي بنفسها على احساسنا! وألعن مايد هـ
في الأحلام ، وخداع الصيّت وبقاء الذكر! وألعن كل مايتملّقنا بوصـ
مُلكاً لنا ، من زوجة وولد ، وخادم ومحراث! وألعن مامون[٨٥] حيـ
يدفعنا الى القيام بأعمال جريئة طمعاً في كنوز ، وحين يوطئ فر ـ
ابتغاء توفير المتعة الكسلى! اللعنة على شراب العنب ، هذا الشر ـ
البلسم! اللعنة على متعة الحب ، تلك المتعة العليا! اللعنة على الأمـ
اللعنة على الإيمان واللعنة ، قبل كل شيء ، على الصبر!

جوقة أرواح : (غير مرئيّة) :

الويل! الويل
لقد دمّرته ، دمّرت العالم الجميل بقبضة قويّة ،
وها هو ذا يتهاوى ، ويتحطّم!
لقد دمّرت نصف إله!
ونحن نحمل الأنقاض الى العدم
ونأسى على الجمال الضائع
فأعيدوا بناءه أقوى وأفخم ، ياأبناء الأرض
ابنوه في قلوبكم!
وليبدأ مجرى جديد للحياة
وبإحساس واضح وأناشيد جديدة
تغنّوا به!

مفستوفيلس : هؤلاء صغار أتباعي . اسمع كيف يدعون الى اللذّة والفِعال وفي دعوتهم حكمة عنيفة! إنهم يريدون اجتذابك من الوحدة حيث ينضب الإحساس والعصارات ـ الى العالم الفسيح .

كفّ عن التلاعب بأحزانك ، فإنّها تلتهم حياتك مثل الرّخم . إنّ أسوأ الجماعات تجعلك تشعر أنّك إنسان بين الناس . لكنّي لا أقصد بذلك أن تلقي بنفسك في غمرة الناس . أنا لست من الكبار ، ومع ذلك ألا تريد أن توحّد خطاك في الحياة مع خطاي ؟ وحينئذ أريد أن أوطّئ أكنافي وأن أكون في خدمتك على الفور . أنا رفيقك ، وسأحسن الصحبة أنا خادمك ، أنا عبدك!

فاوست : وماذا ينبغي عليّ أن أفعل في مقابل ذلك ؟

مفستوفيلس : بالنسبة إلى هذا الأمر لديك فسحة طويلة من الوقت .

فاوست : لا ، لا! إنّ الشيطان أناني وليس من السهل عليه أن يصنع لوجه الله شيئاً يفيد الغير . قل ما هي شروطك بصراحة! إنّ مثل هذا الخادم يأتي في البيت بالأخطار .

مفستوفيلس : أريد أن أرتبط بخدمتك ها هنا ، وبإشارة منك لن أهدأ ولن أستريح . وحينما نلتقي من جديد هناك ، فينبغي عليك أن تفعل من أجلي نفس الأمر .

فاوست : ما هناك قليلاً ما يعنيني ، أبداً فدمّر هذا العالم الى أنقاض ، ولربّما ينشأ العالم الآخر بعد ذلك . من هذه الأرض تنبثق مسرّاتي ، وهذه الشمس هي التي تشرق على آلامي ، فإنّ فارقتهما فليكن ما يمكن وما يريد أن يكون . عن هذا لا أريد أن أسمع المزيد ، سواء كره الإنسان في المستقبل أو أحبّ ، وسواء وجد في تلك الأفلاك فوق أو تحت .

مفستوفيلس : بهذا المعنى تستطيع أن تخاطر . ارتبط! وينبغي لك في هذه الأيام أن تشاهد فنوني وأنت مسرور ، سأعطيك ما لم يره بشر .

فاوست : ماذا تريد أن تعطي ، أيها الشيطان المسكين ؟ هل فهم أمثالك روح الإنسان في مسعاه السامي ؟ نعم ، عندك طعام ولكنه لايشبع ، وعندك ذهب أحمر لكنه كالزئبق ينساب من يدك ، وعندك قمار ، لكن لا أحد فيه يكسب ، وعندك فتاة ، ولكنّها وهي بين أحضاني تغازل جاري بعيونها وتصل حبلها بحبله . إنّك قد تعطي لذّة الشرف الالهيّة الجميلة ، لكنه يزول كما يزول الشهاب! أرني الثمرة التي لا

تعطب قبل أن يقطفها الإنسان ، والأشجار التي تخضوضر كل يوم من جديد!

مفستوفيلس : مثل هذه المطالب لا تخيفني ، وفي وسعي توفير مثل هذه الكنوز لكن ، يا صديقي الطيّب ، سيأتي الوقت الذي سنستطيع فيه أن نستمتع بالطيّبات في أمان وهدوء .

فاوست : لو تمددت هادئاً على سرير كسول ، فلتكن نهايتي في الحال. وإن استطعت أن تخدعني متملّقاً ، بحيث أرضى عن نفسي ، ولو استطعت أن تختالني بالاستمتاع ، فليكن هذا آخر يوم بالنسبة إليّ! أراهن على ذلك!

مفستوفيلس : موافق!

فاوست : موافق ، وموافق! وإذا قلت لأية لحظة : «تلبّثي ، فأنت رائعة الجمال»[٩٦] ، ففي وسعك حينئذ أن تقيّدني في الأصفاد . وبودّي حينئذ أن يدركني الموت . وليدق ناقوس الموتي ، ولتتحرّر من خدمتك ، ولتتوقّف الساعة ، وليسقط عقربها ، لقد حان هنالك حيني.

مفستوفيلس : فكّر في هذا جيداً ، ونحن لن ننساه .

فاوست : أنت في هذا على حق تماماً . إنّي لم أقدّر نفسي تقديراً طائشاً . لكن إن توقّفت عن السعي صرت عبداً ، سواء لك ، وهو ما أتساءل عنه ، أو لغيرك!

مفستوفيلس : اليوم حالاً في مأدبة الدكتوراه[٩٧] سأؤدّي واجبي بوصفي خادماً . بقي شيء واحد! أرجوك أن تكتب لي سطرين تحسّباً لحالة الحياة أو الموت .

فاوست : أوَ تريد إذاً شيئاً مكتوباً أيّها المتحذلق ؟ ألم تعرف رجلاً ، ولا كلمة رجل ؟ ألا يكفي أن تنصرف كلمتي المنطوق بها في أيّام حياتي الى الأبد ؟ أو لا يجري العالم في كلّ تيّار ، بينما يمسكني أنا وعد قطعته ؟ لكنّ هذا الجنون مستقرّ في قلوبنا! فمن ذا الذي يود أن يتحرّر منه عن طيب خاطر ؟ ما أسعد الإنسان الذي يحمل في قلبه الإخلاص صافياً ، إنه لن يندم على أية تضحية! لكنّ البرشمان . المكتوب المدموغ ، شبح يفزع منه الجميع . إنّ الكلمة تموت في

القلم ، لكن الشمع والرق لهما الحكم والسيطرة . ماذا تريد منّي ، أيّها الروح الشرّيرة ؟ برونز ؟ مرمر ، برشمان ، ورق ؟ بماذا عليّ أن أكتب : بإزميل ، بمقص من الصلب ، بريشة ؟ إنّي أدع لك حرّية الاختيار .

مفستوفيلس : لماذا تفرط في فصاحتك المشبوبة الأوار ؟ أيّة وريقة تكفي . ووقّع عليها بقطرة من دمك(٩٨) .

فاوست : إن كان هذا يكفيك تماماً ، فلتكن هذه الشكلية .

مفستوفيلس : الدم سائل من نوع خاص تماماً .

فاوست : لكن لا خوف أبداً من أن أنتهك هذا الميثاق . إنّ مسعى كل قواي هو هذا : ما أعد به . لقد حسبت نفسي فوقك بكثير ، لكن هأنذا صرت في نفسي مرتبك . إنّ الروح الكبيرة احتقرتني ، والطبيعة أغلقت نفسها دوني . وانقطع حبل التفكير . وصرت أتبرّم بكلّ علم . دعنا نهدّىء في أعماقنا الحساسة مايعتلج فينا من وجدانات مشبوبة . ولتهيّأ فوراً كل معجزة وراء حجاب السحر الذي لا ينفذ فيه شيء! ولنلق بأنفسنا في دوّامة الزمان ، وفي مجرى الواقع! وليتعاقب الألم والاستمتاع ، والنجاح والسخط الواحد مع الآخر ، حسبما يمكن ، أنّ النشاط الدائم هو نصيب الإنسان .

مفستوفيلس : لن يوضع لك مقدار ولا هدف . افعل مايحلو لك : تذوّق من كلّ شيء ، والتقط في طيرانك ما تشاء ، واحصل على كل ما يطيب لك . انطلق ولا تحتشم .

فاوست : اسمع! الأمر ليس أمر سرور . فأنا مستعد للنشوة ، وللمتعة الأليمة ، وللكراهية المحبوبة ، وللسخط المنعش على قلبي . وقلبي قد شفي من دافع العلم ، ينبغي عليه ألا يغلق نفسه دون أي ألم ، وماقسّم للإنسانيّة كلّها أريد في أعماق ذاتي أن أستمتع به ، وأريد بكل روحي أن أبلغ الأعلى والأعمق ، وأن أكدّس سعادتها وشقاءها على قلبي ، وهكذا تتّسع ذاتي الى ذات الانسانية ، وفي النهاية أتداعى كما تتداعى هي .

مفستوفيلس : أوه! صدّقني أنا الذي قضمت من هذا الطعام الجاسي آلاف السنين :

من المهد الى النعش لم يهضم الخميرة القديمة إنسان! صدقني : إن
هذا الكل لم يصنع الا من أجل إله! إنه في نور أزلي ، وقد ألقى بنا
نحن(الشياطين) في الظلمة ، وحسبكم أنتم أن يكون ثمّة ليل ونهار .

فاوست : لكنّي أريد!

مفستوفيلس : لا بأس! لكنّي أخشى من أمر واحد : فالزمان قصير والصناعة طويلة .
ظننت أنك ستتعلّم . تَشَارَك مع شاعر[٩٩] ودعه يهيم في وادي الأفكار
ويكدّس على رأسك المبجّل كلّ الصفات النبيلة : شجاعة الأسد .
وسرعة الظبي ، ودم الإيطالي الفائر ، ومثابرة رجل الشمال . دعه
يكشف لك السرّ : في أن تجمع بين عظمة النفس والدهاء ، وفي أن
تعشق ، وفقاً لخطّة موضوعة ، وأنت مشبوب غرائز الشباب . وبودّي
أنا أن أتعرّف الى مثل هذا السيّد ، وسأسمّيه : السيّد العالم الأكبر .

فاوست : من أنا إذن ، إذا لم يكن في وسعي أن أظفر بتاج الانسانية الذي
تندفع نحوه كل الحواس ؟

مفستوفيلس : أنت في النهاية من أنت . ضع على نفسك شعراً مستعاراً ذا ملايين
الضفائر ، وضع على قدمك جورباً طوله ذراع ـ فستبقى دائماً من
أنت .

فاوست : أنا أدرك هذا : فعبثاً كدّست على نفسي كلّ كنوز العقل الانساني ،
فإنّي حين أقعد في النهاية لا تنبثق منّي مع ذلك أية قوّة جديدة ، ولم
أزدد سموّاً بما مقداره عرض شعره ، ولم أقترب من اللامتناهي .

مفستوفيلس : سيّدي الطيّب ، ها أنت ذا ترى الأمور مثلما يراها الانسان ، لابدّ لنا
أن نجعل الأمر أفضل ، قبل أن يهرب منّا سرور الحياة .
واها! إنّ لك يدين وقدمين ورأساً و... هل كل ما أستمتع به عفواً أكون
أقل له امتلاكاً ؟ وإن كنت أقدر على شراء ستة أفراس ، أفلا تكون
قواها ملكاً لي ؟ أنا أعدو مسرعاً وأنا رجل بحق ، كما لو كانت لي
أربع وعشرون ساقاً . هيّا اذن! ودّع كل هذه التأمّلات وخض غمار
العالم! أقول لك : الشخص الذي يكثر التأمّل مثله مثل حيوان على
أرض مَرْت[١٠٠] تدور به روح شرّيرة بينما من حواليه مراع خضراء
جميلة .

فاوست : بأي شيء نبدأ ؟

مفستوفيلس : ها نحن ذاهبون . أي مكان عذاب هذا ؟ أتسمّي هذه حياة : أن تضايق نفسك وتضايق الشباب[١٠١] دع هذا لجارك أبي كرش! لماذا تريد أن تعذّب نفسك في درس التبن ؟ وخير ما تعلم ينبغي عليك ألا تقوله للأولاد[١٠٢] . وهأنذا أسمع أحدهم في البهو .

فاوست : لا يمكنني أن أراه .

مفستوفيلس : الولد المسكين ينتظر منذ وقت طويل ، فينبغي ألاّ يصرف دون مواساه . هيّا ، أعطني عباءتك وقلنسوتك! لابدّ للقناع أن يظهرني في أفخم مظهر(يلبس العباءة والقلنسوة) . والآن دع الأمر لذكائي! وأنا لا أحتاج إلا الى ربع ساعة من الزمن ، وفي أثناء ذلك هيّىء نفسك للسفرة الجميلة .

(فاوست يخرج)

مفستوفيلس : (مرتدياً ملابس فاوست الطويلة) : احتقر العقل والعلم ، وهما مع ذلك أسمى قوّة في الإنسان . وقوّ ذاتك بروح الأكاذيب وسط أعمال السحر والمخرقة ـ هنالك تصبح ملكاً لي دون قيد ولا شرط! ـ لقد حباه القدر روحاً تندفع دائماً بغير قيد الى الأمام ، وسعيها المفرط في السرعة يتخطّى مسرّات الأرض ، سأقتاده خلال الحياة الوحشية ، وخلال التفاهات السطحية . وعليه أن يتخبّط أمامي ، ويتحجّر ، ويلتصق ، وبسبب جوعه الذي لا يشبعه شيء سأجعل الطعام والشراب يتراءيان أمام شفتيه النهمتين . وعبثاً سيتوسّل ضارعاً طالباً الاشباع . وحتّى لو لم يسلّم قياده الى الشيطان ، فإنه هالك لا محالة!

تلميذ[١٠٣] (يظهر)

تلميذ : أنا هنا منذ وقت قصير ، وقد جئت مملوءاً بالخضوع لأتحدّث وأتعرّف الى رجل يذكره لي الجميع بإجلال واحترام .

مفستوفيلس : أدبك يسرّني كثيراً . أنت ترى رجلاً كسائر الناس . هل توجّهت الى آخرين من قبل ؟

التلميذ : أتوسّل إليك أن تشملني برعايتك . لقد جئت اليك بعزم صادق ، وقليل من المال ودم غضّ ، وأمّي لم ترد أن أفارقها ، وبودّي لو

حصّلت قدراً حسناً من العلم .

مفستوفيلس : أنت الآن في المكان المناسب لهذا .

التلميذ : بصراحة أقول لك أنّي أريد الرحيل! فبين هذه الجدران . وفي هـ القاعات ، لا أشعر بأي ارتياح . هذا مكان محصور حقّاً ، ولمر . . يرى شيئاً أخضر ، ولا أية شجرة . وفي قاعات الدرس وعلى المقـ ـ يفلت منّي السمع والبصر والتفكير .

مفستوفيلس : الأمر يتوقّف على التعوّد . والطفل في البداية لا يقبل على ثدي مه لكن بعد قليل تراه يرضع منه بلذّة . والأمر هكذا بالنسبة الى ثـ ي الحكمة : فمع كل يوم يمرّ يزداد المرء استمتاعاً به .

التلميذ : بكل سرور أريد أن أتعلّق برقبتك . لكن خبّرني ، كيف أفلح في هـ

مفستوفيلس : قبل المضيّ في الكلام ، وضّح لي : أية كلّية أخترت ؟

التلميذ : أتمنّى أن أكون علاّمة حقّاً ، وأريد أن أحيط علماً بما على الأرض وبما في السماء ، وأن أتبحّر في العلم وفي الطبيعة .

مفستوفيلس : أنت على الطريق الصحيح . لكن ينبغي عليك ألاّ تتشتّت .

التلميذ : لقد نذرت لهذا روحي وبدني ، بيد أنّي بصراحة أود لو استمتعت ببعض الحرّية وإزجاء الفراغ إبان العطلة الصيفية الجميلة .

مفستوفيلس : استثمر الوقت ، فإنه يمرّ بسرعة . بيد أنّ النظام يعلّمك كيف تكسب الوقت . ياصديقي العزيز ، أنا أنصحك بأن تبدأ بحضور دروس في المنطق[١٠٤] فبه يتدرّب عقلك جيّداً ، ويشدّ كما لو كـ في حذاء اسباني[١٠٥] ، حتّى يصير أشد احتياطاً في سيره في طريق الأفكار ولا يسلك طريقاً ملتوياً هنا وهناك مثل الشعلة المجنونة . ثمّ تتعلّم يوماً بعد يوم أنّ ماتفعله دفعة واحدة ، مثل الطعام والشراب أصبح يحتاج الى عمله بنظام : واحد! إثنان! ثلاثة. ذلك أنّ صناعة الأفكار هي مثل النسيج الممتاز : خطوة واحدة تتحكّم في آلاف الخيوط ، ينطلق المكوك هنا وهناك ، فتنساب الخيوط ، وضربة واحدة تحرّك آلاف الارتباطات . ثمّ يدخل الفيلسوف ويبرهن لك على أنّه من الضروري أن يكون الأمر هكذا : إن كان الأوّل هكذا ، والثاني هكذا ، فلابدّ أن يكون الثالث والرابع

هكذا . وإذا لم يكن الأوّل والثـانـي ، فلن يكون الثـالـث والرابع .
والتلاميذ في كلّ مكان يشيـدون بهذا ، غيـر أنهم لم يصيـروا
نسّاجين . من يرد أن يتعـرّف ويصف شيئـاً حيّاً ، يسعَ أوّلاً الى
استخلاص الروح ، وبعد ذلك تصير الأجزاء في يده ، لكنّ الرابطة
الروحية تُعوِز مع الأسف . والكيمياء تسمّي ذلك «ممارسة الطبيعة»
encheiresin natvrae وتسخر من ذاتها ولا تدري كيف .

التلميذ : لا أستطيع أن أفهمك جيّداً .

مفستوفيلس : سيتحسّن الأمر فيما بعد حين تتعلّم أن تختزل كل شيء وتصنّفه كما ينبغي .

التلميذ : كلّ هذا مـلأني تشـويشـاً ، كـمـا لو كـانت تدور في رأسي رحى طاحونة .

مفستوفيلس : بعد هذا ، وقبل أي شيء آخر ، عليك أن تدرس الميتافيزيقا! ففيها ستجد أنك تحيط علماً بما لايناسب عقل الإنسان . ولما يدخل فيه أو لا يدخل توجد كلمة فخمة تحت التصرّف ـ وقبل مرور نصف سنة ستـدرك أحسن النظام! عندك خمس ساعات في اليوم للدراسة ، فاحضرها مع قرع الناقوس! واستعدّ جيّداً قبلها ، وتعمّق في دراسة الفقرات ابتغاء أن ترى تماماً أنك لا ترى إلا ما هو مذكور في الكتب . واجتهد أيضاً في تحسين الخط كما لو كانت تملي عليك الروح القدّس .

التلميذ : أنت لا تحتاج أن تقول لي هذا مرّتين! فأنا أدرك جيّداً كم هذا مفيد ، لأنّ ما يحوزه المرء من أسود على أبيض يمكنه أن يحمله الى البيت منشرح الصدر .

مفستوفيلس : لكن عليك أن تختار كلّية من الكليّات!

التلميذ : أنا لا أستطيع التكيّف مع علوم القانون .

مفستوفيلس : وأنا لا أستطيع أن ألومك على هذا ، فأنا أعلم الأحوال التي تحيط بهذا العلم . إنّ القـانون واللوائح تتـوارث مـثلمـا تتـوارث الأمـراض المستديمة ، وتتسلّل من جيل الى جيل ، وتنتقل من مكان الى مكان . والعقل يصير جنوناً ، والاحسان عذاباً[١٠٧] . وويل لك إن

كنت حفيداً! أمّا الحقّ[١٠٨] الذي ولد مع مولدنا فلا حديث عنه ولا خبر .

التلميذ : كلامك زادني فزعاً . ما أسعد من تتولّى أنت تعليمه أكاد أودّ دراسة اللاهوت الآن .

مفستوفيلس : أنا لم أقصد الى تضليلك . وفيما يتعلّق بهذا العلم (اللاهوت) ، فإنّ من العسير تجنّب طريق الضلال لأنه يكمن فيه كثير من السموم ، ومن الصعب تمييزها من الأدوية الشافية . والأفضل ها هنا أيضاً ألا يكون لك غير أستاذ واحد ، وأن يكون حلفُك بكلمات الأستاذ . وبالجملة ـ تمسك بالألفاظ! فبواسطتها تدخل من أوكد باب يؤدّي الى معبد اليقين .

التلميذ : لكن يجب أن تكون هناك فكرة واء اللفظ .

مفستوفيلس : حسن! لكن ينبغي على الانسان ألاّ يعذّب نفسه كثيراً : فحتّى حين تعوز الأفكار فقد تحلّ محلهّا الكلمات في الوقت المناسب . وبالألفاظ يمكن الجدل جدالاً بارعاً ، وبالألفاظ يمكن إقامة مذهب ، وبالألفاظ يسهل الإقناع والإيمان الوثيق ، ومن اللفظ لايمكن سلب مثقال ذرّة .

التلميذ : اعذرني إن كنت أثقل عليك بالأسئلة . لكن لابدّ لي أن أتعبك بالسؤال . أوَ لا تريد أن تقول لي كلمة قويّة عن الطب ؟ إنّ ثلاث سنوات هي وقت قصير والميدان ، يا ربّاه ، واسع جدّاً . لو ظفر المرء بمشورة صدق في هذا الباب ، لتشجّع على المضي قدماً .

مفستوفيلس : (منتحياً جانباً) : لقد شبعت من اللهجة الجافّة الجادّة ، فلا بدّ لي أن أستأنف القيام بدور الشيطان . (بصوت عال) : من السهل إدراك روح الطب وعليك أن تستقصي دراسة العالم الكبير والعالم الصغير ، ابتغاء أن تدعه يسير في نهاية الأمر كما يشاء الله . عبثاً تُعنّي نفسك في تحصيل العلم ، فكل إنسان لا يتعلّم إلا ما يستطيع أن يتعلّمه ، أمّا من يهتبل اللحظة فذاك هو الرجل الحقّ . أنت لا تزال حسن التقويم ، ولا تعوزك الجرأة ، وإذا أنت وثقت بنفسك فقط ، فإنّ النفوس الأخرى ستثق بك . وعليك خصوصاً أن تتعلّم كيف تروّض النساء! إنّ جميع

آهاتهنَ وتأوهاتهنَ الأبدية ذات الألف نوع يمكن علاجها من نقطة واحدة . وإذا تصرّفت معهنَ بلباقة مقبولة ، صرن جميعاً طوع يمينك . إنّ اللقب(١٠٩) لابدّ أن يجتذب ثقتهنّ بأنّ فنّك يفوق فنوناً كثيرة . استفتح بتحسس كل المواضع التي يقضي غيرك سنوات للوصول الى التربيت عليها ، وافهم كيف تتحسّس النبض ، وبعد ذلك وبنظرة مشبوبة ماكرة عانق الخصر البتيل لترى كم هو موثوق الشدّ .

التلميذ : يبدو هذا شيئاً أحسن . والمرء يشاهد أين وكيف .

مفستوفيلس : يا صديقي المخلص ، كل نظرية هي غبراء ، أمّا الشجرة الذهبية للحياة فخضراء .

التلميذ : أقسم لك أنني فيما يشبه الحلم! هل لي أن أضايقك مرّة أخرى فأستمع الى حكمتك بتعمّق ؟

مفستوفيلس : ما أستطيعه ، سأفعله عن طيب خاطر .

التلميذ : لا يمكنني أن أفارقك دون أن أقدّم اليك دفتري لتتفضّل فتخطّ فيه عبارة .

مفستوفيلس : نُعامَ عين!(١١٠) (يكتب جملة في الدفتر ثمّ يعيده اليه) .

التلميذ : (يقرأ الجملة) : «ستكونون مثل الله ، عالمين بالخير والشر»(١١١) (ينحني باحترام ويودّع) .

مفستوفيلس : ما عليك إلا أن تتّبع المثل القديم وبنت عمّي الحيّة ، ومن المؤكّد أنّك ستشفى ، رغم مشابهتك لها .

(فاوست يظهر)

فاوست : الى أين علينا الآن أن نذهب ؟

مفستوفيلس : الى حيث تهوى أنت . ستشاهد العالم الصغير ، وبعد ذلك العالم الكبير(١١٢) . وما أعظم سرورك وأجزل إفادتك من قطع أشواط هذه الرحلة وأنت متطفّل!

فاوست : لكن مع لحيتي الطويلة يعوزني فنّ الحياة السهل . ولن تفلح معي المحاولة . إنّي أجهل كيف أتصرّف في الدنيا . وأمام الغير أشعر بنفسي صغيراً جداً ، سأكون دائماً مرتبكاً .

مفستوفيلس : يا صديقي الفاضل ، كلّ هذا سينجلي وتنصلح الحال . متى ماوثقت

بنفسك ستعرف كيف تحيا .

فاوست : كيف سنخرج إذن من البيت ؟ هل لديك فرس وسائس عربة ؟

مفستوفيلس : ما علينا إلا أن نبسط العباءة التي ستحملنا في الهواء . في هذه الخطوة الجريئة لا تأخذ معك متاعاً كبيراً . قليل من الهواء الحار الذي حضّرته ، سيرفعنا سريعاً عن هذه الأرض ، ومادمنا خفيفين ، فسنصعد بسرعة الى أعلى . إنّي أهنّئك على حياتك الجديدة!

حانة أورباخ في ليبستك[١١٣]

مأدبة من الأصحاب المرحين

فروش Frosch[١١٤] : أما مِنْ راغب في الشراب ؟ أما مِنْ راغب في الضحك ؟ سأعلّمكم كيف تصنعون وجوهكم! أنتم اليوم مثل القش المبتلّ ، ومع ذلك فأنتم تشتعلون دائماً .

براندر Brander[١١٥] : أنت الملوم ، لأنك لا تروي لنا أية حماقة ، ولا أية فاحشة .

فروش : (يصبّ كأساً من الخمر على رأسه) : عليك بكلتيهما!

براندر : أنت خنزير مضاعف!

فروش : أنت أردت هذا ، فعلى الإنسان أن يكون كذلك!

زيبل Siebel[١١٦] : كل من يتشاجر فليلق به خارج الباب! وليغنّ الدوْر بصدر مفتوح ولتشرب ولتصرخ! هيّا! هوو! هو!

ألتماير Altmayer[١١٧] : يا ويلتاه ، لقد ضعت! أيتوني بقطن ، فقد أطار هذا الفتى أذنيّ .

زيبل : حين تردّد القبّة الصوت ، يشعر الإنسان جيّداً بقوّة نغمة الباص[١١٨] .

فروش : هذا صحيح ، وبُعداً لمن يسخط! آ! تارا لارارا!

ألتماير : آ ! تارا لارارا !

فروش : الحناجر صارت متناغمة . (يغنّي) :

الامبراطوريّة الرومانية المقدّسة[١١٩] العزيزة أنّى لها أن تتماسك بعد ؟

براندر : أغنية قبيحة! أف! أغنية سياسية ، أغنية لعينة! احمدوا الله كلّ صباح لأنّكم لستم في حاجة الى الإهتمام بأمر الامبراطورية الرومانية! وأنا

أعدّ مكسباً عظيماً ، على الأقل ، إنني لست امبراطوراً ولا مستشاراً .
ومع ذلك ينبغي ألاّ نخلو من رئيس نحن نريد أن ننتخب بابا! أنتم
تعلمون ما هي الصفة التي ترجح الميزان وترفع الإنسان .

فروش : (يغنّي) حلّقي في السماء ، أيّتها العندليبة وحيّي باسمي ألف مرّة!

زيبل : لا تحيّة للمحبوبة! لا أريد سماع شيء من هذا!

فروش : للمحبوبة تحيّة وقبلة! أنت لن تمنعني من ذلك! (يغنّي) :

أرفع مزلاج الباب في الليل الساكن
ارفع مزلاج الباب ، فالأحب ساهر
أغلق مزلاج الباب ، فالوقت هو الفجر

زيبل : نعم ، غنّ ، استمرّ في الغناء وامدحها ومجّدها! وحين يجيء دوري
أريد أن أضحك . لقد جرّتني ، وستعمل معك نفس الأمر . أهدوا
المحبوب عفريتاً يحبّ أن يلعب معه عند مفارق الطرق «لتعرّت[١٢٠]
معها معزة عجوز ، حين تعود من جبل بلوكن[١٢١] وهي راكضة بتحيّة
المساء» . إنّ الفتى المليح الصحيح اللحم والدم هو أسمى جداً من أن
يتعلّق بقحبة . لا أريد أن أعلم شيئاً عن أيّة تحيّة غير أن أهشّم
نافذتها!

براندر : (ضارباً بقبضة يده على المنضدة) : انتبهوا! انتبهوا! اصغوا اليّ!
واعترفوا ياسادة أنني أعرف أن أعيش : العشّاق جالسون ها هنا ،
وينبغي أن نقدّم إليهم ـ وفقاً لأقدارهم ـ خير تحيّة في المساء :
انتبهوا! أغنية من أحدث تفصيل! ثمّ غنّوا الدور بقوّة : (يغنّي) :

كان في جحر المخزن فأرة
وكانت تتعيش من الشحم والزبدة
حتّى صار لها كرش مثل كرش الدكتور لوثر[١٢٢]
فوضعت لها الطبّاخة سمّاً ،
فضاق عالمها كما لو كان في بطنها حُب .

الكورس : (بصوتٍ عال) :

كما لو كان في بطنها حب .

براندر : راحت الفأرة تعدو ها هنا وها هناك

وراحت تشرب من كلّ مستنقع ماء
وتقرض وتخربش كلّ البيت
ولم يفد شيء في تسكين ثائرتها
وتواثبت مذعورة عدّة مرّات
حتّى كان لهذا الحيوان المسكين كفاية من العذاب
كما لو كان في بطنها حُب .

الكورس : كما لو كان في بطنها حُب .

براندر : ومن الخوف جاءت الى وضح النهار
عارية في المطبخ
فوقعت على الموقد وارتعدت ورقدت
وأنفاسها تتهدّج على نحوٍ يثير الشفقة
فتضاحكت واضعة السمّ (الطبّاخة) قائلة :
«ها! أنها تَصفِر على آخر ثقب
كما لو كان في بطنها حُب» .

الكورس : كما لو كان في بطنها حُب[١٢٣] .

زيبل : كم هم مسرورون هؤلاء الصبية الأغرار!
إنه في نظري لفنّ حقيقي
إعطاء السم للفئران المسكينة!

براندر : يبدو أنّك تؤثرهم كثيراً برعايتك ؟

ألتماير : الحوشب[١٢٤] ذو الصحن الأصلع! المصيبة تجعله أنيساً رقيقاً ، إنه يرى في الفأرة المنتفخة شبيهاً له طبيعياً تماماً .

فاوست ومفستوفيلس

مفستوفيلس : قبل كل شيء عليّ أن آتي بك الى الجماعات المرحة لتشاهد كيف تجري الحياة في يسر . كلّ يوم هنا هو عند العامّة عيد . بقليل من روح الدعابة وكثير من حب الانبساط يدور كلّ واحد في دائرة رقص ضيّقة ، مثل القطط الصغار وهي تطارد ذيولها .

إذاً لم يشكوا الصّداع ، وطالما كان صاحب الملهى يستمر في معاملتهم بالأجل ، فهم راضون خالون من الهموم .

براندر : هذان قادمان من سفر ، يبدو هذا من هيئتهما العجيبة . لم تمض عليهما ساعة ها هنا في هذه المدينة .

فروش : صحيح ، أنت على حق! إنّي فخور ببلدك ليبستك إنها باريس[١٢٥] صغيرة وتهذّب طباع أهلها .

زيبل : من تظنّهما هذين الغريبين ؟

فروش : دعوني لهما! بكأس ملأى سأستخلص بسهولة من كلا الرجلين الدود من الأنف[١٢٦] ، مثلما تخلع أسنان الصبي . يبدو لي أنهما ينحدران من بيت نبيل ، إذ يظهر عليهما الكبرياء وعدم الرضا .

براندر : أراهن على أنّهما دجّالان[١٢٧]

ألتماير : ربّما .

فروش : انتبه ، سأكشف لك عن سرّهما!

مفستوفيلس : (مخاطباً فاوست) : الدهماء لايشعرون بالشيطان ، حتّى ولو أمسك بمخنقهم .

فاوست : السلام عليكم ياسادة!

زيبل : شكراً جزيلاً بالمقابل . (هامساً ، وهو ينظر الى مفستوفيلس عن عرض) لماذا يعرج هذا الرجل برجل واحدة ؟[١٢٨] .

مفستوفيلس : أتأذنون في أن نجلس معكم ؟ بدلاً من شراب جيّد لايستطيع المرء الحصول عليه ، سنستمتع بالصحبة .

ألتماير : يبدو عليك أنّك صعب الإرضاء جداً .

فروش : هل أنت قادم لتوّك من رباخ Rippach ؟ هل تعشّيت مع السيّد هانز ؟[١٢٩] .

مفستوفيلس : لقد مررنا به اليوم في الطريق ، وتحدّثنا معه في هذه المرّة الأخيرة فاستطاع أن يخبرنا بالكثير عن أبناء عمّه . وحملنا تحيّات عديدة لكل واحد منهم . (يميل ناحية فروش)

ألتماير : (بصوت منخفض) أنت أمام داهية! فاهم للأمور!

زيبل : رجل خبيث!

فروش : صبراً قليلاً وأنا أطويه!

مفستوفيلس : إن لم أكن مخطئاً ، فقد سمعت أصواتاً محنّكة تغنّي على هيئة كورس ؟

حقّاً ، لابدّ أن الغناء يرنّ رنيناً رائعاً تحت هذه القبّة!

فروش : وهل أنت أيضاً مطرب بارع ؟

مفستوفيلس : كلاّ! القدرة ضعيفة ، لكنّ الرغبة عظيمة .

ألتماير : غنّنا أغنية!

مفستوفيلس : لديّ العديد ، إن شئتم .

زيبل : لكنّنا نريد مقطوعة جديدة تلمع .

مفستوفيلس : نحن عائدون لتوّنا من اسبانيا ، بلد الخمر والأغاني الجميلة .

(يغنّي) :

يحكى أنّ ملكاً كان عنده برغوث كبير .

فروش : اسمعوا! برغوث! هل فهمتم هذا ؟ في نظري أنّ البرغوث ضعيف نظيف .

مفستوفيلس[١٢٠] : (يغنّي) :

يحكى أنّ ملكاً كان عنده برغوث كبير

وكان يحبّه حبّاً لايقل عنه في المقدار ،

وكأنّه ابنه . فاستدعى خيّاطه الخاص

ولمّا حضر الخيّاط قال له الملك :

« خذ مقاس هذا السيّد النبيل

وفصّل له سروالاً أيضاً »!

براندر : لا تنسَ أن تؤكّد على الخيّاط حتّى يأخذ مقاسي بكلّ دقّة ، وإذا كان رأسه عزيزاً عليه ، فلا يجعلنّ في السروال ثنايا!

مفستوفيلس : والآن صار البرغوث

مكسوّاً بالقطيفة والحرير

وازدانت ملابسه بالأشرطة

وزيّنت أيضاً بصليب

وعلى الفور صار وزيراً

وحمل نجمة كبيرة .
وأقاربه صاروا هم أيضاً
سادة كباراً في البلاط .
فتضايق السادة في البلاط والسيّدات
وشعرت الملكة والوصيفة كما لو كانتا لسعتا وقرصتا ولم يكن يحقّ
لهؤلاء أن يقصعوها[١٣١] أو يحكّوها أمّا نحن فإن لسعنا برغوث قصعناه
وخنقناه على الفور .

الكورس : (وهي تصيح) أما نحن فإن لسعنا برغوث قصعناه وخنقناه على الفور .

فروش : مرحى! مرحى! كان ذلك جميلاً!

زيبل : هذا يجب أن يكون جزاء كلّ برغوث!

براندر : حدّد أصابعك وإجعلها مرهفة!

ألتماير : فلتحيا الحرّية! فلتحيا الخمر!

مفستوفيلس : كان بودي أن أشرب كأساً على شرف الحرية . لو كانت خموركم أحسن قليلاً .

زيبل : لا نحب أن نسمع هذا مرةً أخرى .

مفستوفيلس : لولا خوفي من أن يتضايق صاحب الحانة ، لكنت أتيت لكم من كهفنا بخمر أفضل .

زيبل : هيّا هات! وأنا أتحمّل وزر مايحدث .

فروش : لو أتيت لنا بكأس طيبة ، أثنينا عليك ومدحناك . لكن لاتحضر نماذج صغيرة إذ لابدّ لي ، كي أحكم ، أن يكون فمي مملوءاً تماماً .

ألتماير : (هامساً) يخيّل إليّ أنهما من إقليم الراين Rhein .

مفستوفيلس : هاتوا مثقاباً!

براندر : ماذا يصنع به ؟ إنّ الخوابي لم تضعها أنت هناك أمام الباب ؟

ألتماير : هناك في الخلف وضع صاحب الحانة سلة فيها أدوات .

مفستوفيلس : (يأخذ المثقاب ، ويخاطب فروش قائلاً) : أي نوع تريد أن تذوق ؟

فروش : ماذا تقصد بهذا ؟ هل عندك أنواعاً عديدة ؟

مفستوفيلس : أترك لكلّ واحد منكم حرّية الإختيار .

ألتماير : (مخاطباً فروش) : آه! هاأنت ذا قد بدأت تلعق شفتيك .

فروش : حسناً إذا كان لي أن أختار ، فإنّي أريد من خمر الراين . إنّ الوطن يهبنا أحسن عطاياه .

مفستوفيلس : (يثقب ثقباً عند حافة المائدة أمام فروش ، ويقول) هات قليلاً من الشمع لعمل سدّادات في الحال!

ألتماير : آه ، هذه آلاعيب سحرية!

مفستوفيلس : (مخاطباً براندر) وأنت ؟

براندر : أريد شمبانيا ، يعلوها حَبَبٌ حقيقي!

(مفستوفيلس يثقب ثقباً ، وواحد منهم كان في تلك الأثناء قد صنع سدّادات من الشمع وسدّ الثقب) .

براندر : لا يستطيع المرء أن يتجنّب دائماً السلع الأجنبية ، وكثيراً ما تكون البضائع الجيّدة في أماكن قاصية . إنّ الألماني الحقيقي لا يحتمل أي فرنسي ، لكنه يجب أن يشرب خمره .

زيبل : (بينما مفستوفيلس يقترب من مكانه) : عليّ الإعتراف بأنني لا أحبّ ما هو مرّ ، لهذا أعطني كأساً من الخمر الحلو حقّاً!

مفستوفيلس : (يثقب ثقباً) : سيتدفّق لك خمر توكاي[١٣٢] فوراً!

ألتماير : لا ، ياسادة ، تطلّعوا في وجهي! لقد ضحكتم علينا .

مفستوفيلس : آي! آي! مع ضيوف نبلاء مثلكم لن يكون الأمر لائقاً أبداً . أسرع! قل لي بسرعة ، أي خمر أستطيع أن أقدّم اليك ؟

ألتماير : أي نوع! لكن لا تبطئ!

(بعد أن أتمّ ثقب كلّ الثقوب وسدها)

مفستوفيلس : (بحركات غريبة) :

العناقيد تحملها الكروم ،
والقرون تحملها التيوس ،
الخمر مليء بالعصارة ، وداليات الكروم من خشب
والمائدة الخشبية يمكنها أيضاً أن تعطي خمراً .
نظرة عميقة في الطبيعة!
ها هنا معجزة ، وما عليكم إلا الإيمان .
هيّا انزعوا السدّادات وتمتّعوا!

الجميع : (وهم ينزعون السدّادات ، فيتدفّق لكل واحد في كأسه ما تمنّاه من خمر) :

يا له من ينبوع رائق يتدفّق لنا!

مفستوفيلس : لكن خذوا حذركم حتّى لا تهدروا أية قطرة!

(يشربون عدّة مرّات)

الجميع : (يغنّون) صرنا تماماً مثل أكلة لحوم البشر ، ومثل خمسمائة خنزير!

مفستوفيلس : الشعب منطلق ، أنظر كم هزّه الطرب!

فاوست : بودّي أن نرحل حالاً .

مفستوفيلس : انتبه أوّلاً لترى كيف تتجلّي الحيوانية[١٣٣] بكل روعة!

زيبل : (يشرب بنهم ودون تحفّظ ، فيتدفّق الخمر على الأرض وتتحوّل الى شعلة نار) :

النجدة! نار! النجدة! اشتعل الجحيم!

مفستوفيلس : (وهو يخاطب النار) :

اهدأ ، أيها العنصر الصديق! (مخاطباً الحاضرين) : في هذه المرّة ، هذه مجرّد قطرة من المطهّر .

زيبل : ما معنى هذا! ستدفع ثمن هذا غالياً! يظهر أنّك لاتعرفنا من نحن .

فروش : إيّاك أن تعود الى هذا مرّة أخرى!

ألتماير : أعتقد أنّ علينا أن ندعه يمضي لحال سبيله بهدوء .

زيبل : ماذا ، يا سيّد ؟ هل تريد أن تخلع قناع الحشمة ، وتزجي ها هنا ألاعيبك السحرية ؟

مفستوفيلس : اخرس ، يا خابية الخمر العتيقة!

زيبل : يا يد المكنسة! أتريد أيضاً أن تشتمنا ؟

براندر : انتظر حتّى تنهال عليك الضربات!

ألتماير : (ينزع سدّادة من المائدة ، فتشبّ النار في وجهه) : أنا أحترق ، أنا أحترق!

زيبل : سحر! اهجموا عليه! إنّ هذا الرجل مُهْدر الدم!

(يستلّون سكاكينهم ويهاجمون مفتسوفيلس)

مفستوفيلس : (بسمت جادّ) :

الصور والكلمات الزائفة
تزيّف المعنى والمكان
كونوا هنا وهناك
(يقفون حيارى مبلسين ويتطلّع بعضهم في بعض)

ألتماير : أين أنا ؟ يالها من بلاد جميلة!

فروش : روابي كروم! هل أبصر جيّداً ؟

زيبل : والعناقيد في متناول اليد!

براندر : هنا تحت هذه الخميلة الخضراء ، انظروا أيّ كروم!
أنظروا أي عنب!
(يمسك بزيبل من أنفه . والآخرون يفعلون نفس الشيء بعضهم لبعض على التبادل ويرفعون السكاكين)

مفستوفيلس : (بسمت جادّ) خطأ ، ارفعوا الرباط عن العيون! ولاحظوا كيف يمزح الشيطان .
(يختفي مع فاوست ، الشبّان ينفصلون بعضهم عن بعض)

زيبل : ماذا جرى ؟

ألتماير : كيف ؟

فروش : أكان هذا أنفك ؟

براندر : (مخاطباً زيبل) وأنفك في يدي!

ألتماير : كانت ضربة نفذت في كلّ الأعضاء! هاتوا كرسيّاً ، فإنّي أسقط!

فروش : لا ، قل لي فقط ماذا جرى ؟

زيبل : أين الرجل ؟ إذا عثرت عليه ، فلن يفلت حيّاً من بين يديَ!

ألتماير : شاهدته هناك عند باب الحانة راكباً خابية نبيذ ـ لكنّي أشعر في قدميَ بثقل الرصاص . (متوجّهاً نحو المائدة) واعجباً!
هل لايزال الخمر يتدفّق ؟

زيبل : كل هذا كان خداعاً وكذباً وتمويهاً .

فروش : لكن خيّل اليّ كما لو كنت أتجرّع خمراً .

براندر : لكن ماذا كانت الحال مع عناقيد العنب ؟

ألتماير : لكن اسمع ، يجب على الإنسان ألا يؤمن بمعجزة!

مطبخ الساحرة

(على موقد واطىء وضعت غلاّية كبيرة على النار . وفي الدخان ، المتصاعد منها في الأعالي ، تتراءى صور متعدّدة . نسناسة تجلس بالقرب من الغلاّية وتزيل الرغوة ، وتعمل كي لايطفح القدر .
وبالقرب من هنا يجلس نسناس ذكر ومعه صغاره ويستدفىء . والجدران والسقف مزيّنة بأعجب أواني الساحرة) .

فاوست. مفستوفيلس

فاوست : كم تضايقني أمور السحر الحمقاء! أتعدني بالشفاء في بيداء الجنون هذه ؟ هل أنا في حاجة الى استشارة امرأة عجوز ؟ وهل تستطيع هذه الطبخة المستنقعة أن تنقص من عمري وجسمي ثلاثين سنة ؟ الويل لي ، إن لم يكن لديك شيء أفضل! لقد تبدّد أملي . ألم تكتشف الطبيعة روحُ نبيلة أيّ بلسم مناسب ؟

مفستوفيلس : يا صديقي ، ها أنت ذا قد عدت الى لغة العقل! نعم ، توجد وسيلة طبيعية لكي تعود شاباً ، لكنها مدوّنة في كتاب آخر ، تكوّن فيه فصلاً عجيباً .

فاوست : أريد أن أعرفها .

مفستوفيلس : حسناً! وسيلة لايحتاج معها الى مال وطبيب وسحر : اذهب توّاً الى الحقل ، وإبدأ في الحفر والحرث ، واحصر نفسك وشعورك في دائرة محدّدة جداً ، وتغذّ بطعام غير مخلوط ، وعش مع القطيع كأنّك من القطيع . ولاتترفّع عن تسميد الحقل الذي ستحصده بسمادك . تلك هي أحسن وسيلة ــ صدّقني ـ كي تظلّ شابّاً وأنت في سن الثمانين!

فاوست : على هذا لم أتعوّد ، ونفسي لاتطاوعني على الإمساك بالمر[١٣٤] . والحياة الضيّقة لاتلائمني أبداً .

مفستوفيلس : إذن لا بد لنا من الساحرة .

فاوست : ولماذا هذهِ المرأة العجوز بالذات! ألا تستطيع أنتَ أن تصنع الشراب ؟

مفستوفيلس : سيكون ذلك إزجاء للوقت جميلاً! في أثنائه أستطيع أن أبني آلاف الجسور . إنّ هذا العمل لا يحتاج الى الفن والعلم فقط ، بل لابدّ فيه من الصبر . إنّ الروح الهادئة تظلّ تشتغل فيه طوال سنوات ، لأنّ الزمان وحده هو الذي يجعل الإختمار الدقيق قوياً . وكل ماينتسب الى هذا هو من الأمور الرائعة العجيبة ، صحيح أنّ الشيطان تعلّمها . لكنّ الشيطان لايستطيع صنعه . (وهو يتطلّع في الحيوانات) تأمّل . يالها من ذرّية بديعة! هذه هي الخادمة! وهذا هو الخادم! (مخاطباً الحيوانات) : يبدو أن المرأة ليست في الدار ؟

الحيوانات : هي في حفلة ، وقد غادرت الدار من خلال هذه المدخنة .

مفستوفيلس : كم من الوقت تمضي عادة في القصف والعربدة ؟

الحيوانات : المدّة التي تحتاجها أقدامنا لتدفأ .

مفستوفيلس : (مخاطباً فاوست) :

كيف ترى هذه الحيوانات اللطيفة ؟

فاوست : لم أر شيئاً كريهاً مثلها من قبل أبداً!

مفستوفيلس : كلاّ ، إن الحديث معها هو أمتع ما أستمتع به!

(مخاطباً الحيوانات) :

خبّريني ، أيتها العرائس اللعينة ، ماذا تقلّبون في قدر الحساء هذا ؟

الحيوانات : نحن نطبخ حساء خفيفاً للشحّاذين .

مفستوفيلس : سيكون عندكم لهذا جمهور كبير .

النسناس الذكر : (يقترب من مفستوفيلس ويلاطفه) :

ارم النرد فوراً
واجعلني ثرياً
ودعني أكسب!
أنا سيّء الحظ ،
لو كان عندي مال
لكان عندي عقل

مفستوفيلس : كم كان هذا النسناس سيعدّ نفسه سعيداً ، لو أنه استطاع أيضاً أن

يراهن في اليانصيب!

(في تلك الأثناء يلعب النسانيس الصغار بكرة كبيرة يديرونها)

النسناس : هذه حال الدنيا : تصعد وتهبط وتدور دائماً ، ترنّ مثل الزجاج متى ما انكسر! داخلها فارغ أجوف . هنا هي تلمع كثيراً ، وهنا تلمع أكثر : «أنا حيّ!» يابنيّ العزيز ، احذر من هذا! لابدّ أن تموت : إنها من طين ، وثمّ شظايا .

مفستوفيلس : ومن أجل ماذا هذا الغربال ؟[١٢٥]

النسناس : (ينزل الغربال) :

لو كنت لصّاً ، لتعرّفتك فوراً .(يعود الى النسناسة ويدعها تنظر من خلال الغربال) انظري من خلال الغربال! هل تتعرّفين اللص ، وهل يحقّ لك أن تذكري اسمه ؟

مفستوفيلس : (مقترباً من النار) : وهذا القدر ؟

النسناس والنسناسة : ياله من ساذج أبله!

لايعرف القدر ،

لايعرف الغلاّية!

مفستوفيلس : حيوان عديم الأدب!

النسناس : خذ هذه المنفضة

واجلس على الكرسي

(يحمل مفستوليس على الجلوس)

فاوست : (وكان في تلك الأثناء واقفاً أمام مرآة ، يقترب منها مرّة ويبتعد أخرى) :

ماذا أرى ؟ أية صورة[١٢٦] سماوية تتجلّى في هذه المرآة السحرية! أيها الحب ، أعرني أسرع أجنحتك وأدخلني في مجالك!! آه ، إذا لم أبق في هذا المكان ، وإذا تجاسرت على الإقتراب ، هل في وسعي أن أراها ولو كما في الضباب! أجمل صورة لإمرأة! أهذا ممكن ، هل المرأة بهذا الجمال هل ينبغي لي أن أشاهد في هذا الجسم الراقد السرّ الكامن في كلّ السموات ؟

أيوجد على الأرض مايشبه هذا ؟

مفستوفيلس : طبعاً ـ حين يجهد الإله نفسه طوال ستة أيام ، ويصيح هو نفسه في

النهاية قائلاً : مرحى! فلا بدّ أن يصير هناك شيء رائع! هذه المرّة تطلّع مِلء بصرك ، أنا أعرف كيف أعثر لك على مثل هذا الكنز ، وما أسعد من يقيّض له حسن الطالع أن يقتادها الى بيته عروساً له!

(فاوست يديم التطلّع في المرآة . مفستوفيلس يدير نفسه على الكرسي متلاعباً بالمنفضة ويواصل الكلام قائلاً) :

هأنذا أجلس هنا كملك على عرشه ، أحمل الصولجان ، ولاينقص إلاّ التاج .

الحيوانات : (وكانت حتّى الآن تزاول مختلف ألوان الحركات العجيبة ، تُحضِر الى مفستوفيلس تاجاً وهي تصرخ صراخاً عالياً) : تلطّف والصق التاج بالعرق والدماء!

(يلتاثون في الامساك بالتاج فينكسر الى قطعتين ، يتواثبون بهما)

الآن قضي الأمر! إنّا نتكلّم ونشاهد ، ونسمع وننظّم .

فاوست : (أمام المرآة) ويحي! سأجنّ جنوناً .

مفستوفيلس : (مشيراً الى الحيوانات) :

وأنا أيضاً بدأ الدوار يصيب رأسي .

الحيوانات : إذاً نحن أفلحنا وتيسّر الأمر ، كان ثمّ أفكار!

فاوست : (وهو لايزال أمام المرآة) : أخذ قلبي في الإحتراق! فلنبتعد مسرعين!

مفستوفيلس : (مشيراً الى الحيوانات) :

لكن على المرء أن يقرّ بأنهم شعراء حقّاً!

(تبدأ الغلاية في الطفح ، وكان النسناسان قد غفلا عنها ، فتنشأ شعلة هائلة ، تصاعدت حتّى المدخنة . تنزل الساحرة من خلال الشعلة وهي تصرخ صراخاً فظيعاً) .

الساحرة : أوه! أوه! أوه! أوه! أيها الحيوان اللعين ، أيها الخنزير الرجيم! أتغفل عن الغلاّية ، وتحرق المرأة! أيها الحيوان الرجيم!

(تشاهد فاوست ومفستوفيلس فتقول) :

ماذا ها هنا ؟

ومن أنتما ها هنا ؟

وماذا تريدان ؟

من تسلّل الى هنا ؟

عذاب النار

في أحشائكما!

(تجيل ملعقة الرغوة في الغلاّية ، وتقذف بالشعلات نحو فاوست ومفستوفيلس والحيوانات تهمهم) .

مفستوفيلس : (يدير المنفضة التي في يده ويقرع بها الكؤوس والقدور) :

كسّر! كسّر!

هاهو ذا الحساء!

هاهو ذا الزجاج!

الأمر كلّه مزاح ،

الإيقاع ، أيتها الجيفة ،

مع أنغامك .

(تتراجع الساحرة ملأى بالغضب والضيق)

ألا تعرفينني ؟ أيها الهيكل العظمي! أيتها السعلاة ؟ أتتعرّفين مولاك وسيّدك ؟

ماذا يمنعني من أن أضربك وأمزّقك أنت وعصابتك من النسانيس! ألم يعد لديك احترام للعباءة الحمراء ألا تستطيعين أن تتعرّفي ريش الديك (في قبّعتي) ؟ هل أنا أخفيت وجهي هذا ؟ أينبغي عليَّ أن أسمّي نفسي ؟

الساحرة : أوه! مولاي! أغفر لي سوء التحيّة! بيد أنّي لا أرى رجل حصان[١٣٧] . أين اذن غراباك[١٣٨] ؟

مفستوفيلس : هذه المرّة تستطيعين التخلّص هكذا من الورطة . وصحيح أننا لم نلتق منذ زمان طويل . ثمّ إن الثقافة ، التي تلعق العالم كلّه ، امتدّت الى الشيطان ، لم يعد هناك من يشاهد الشبح[١٣٩] الشمالي : فأين ترين القرون والذيل والمخالب ؟ وفيما يتعلّق بالقدم ، ولاأستطيع إغفالها ، إنها تسيئ إليَّ عند الناس ، ولهذا فإنّي منذ العديد من السنوات أستعمل باطن ركبة مزيّفاً مثلما يفعل الكثير من الشباب[١٤٠] .

الساحرة : (وهي ترقص) فقدت وعيي وعقلي تماماً لمّا أبصرت مولاي الشيطان

هنا من جديد!

مفستوفيلس : أنا أمنع ذكر هذا الاسم ، يا امرأة!

الساحرة : ولماذا ؟ ماذا أصابك منه ؟

مفستوفيلس : لقد صار هذا الاسم مدوّناً في كتاب الخرافات منذ وقت طويل ، بيد أن حال الناس لم تتحسّن بهذا : لقد تخلّصوا من «الشرّير»[١٤١] ، لكن الأشرار بقوا . أنت تلقّبينني بالسيد البارون ، وهذا أمر حسن ، فأنا فارس مثل سائر الفرسان ، وأنت لا تتشكّكين في نبالة دمي ، انظري ، هذا هو الرنْك[١٤٢] الذي أحمله! (يعمل بادرة غير لائقة) .

الساحرة : (تستغرق في الضحك) : ها! ها! هذا من شيمتك! أنت وَغْد ، كدأبك دائماً!

مفستوفيلس : (مخاطباً فاوست) : تعلّم أن تفهم! هذا هو الأسلوب للتعامل مع الساحرات .

الساحرة : الآن قولا ياسادة ، ماذا تريدان ؟

مفستوفيلس : كأساً جيدة من الشراب الشهير! لكن عليّ أن أرجوك أن يكون أكثرها تعتيقاً ، فالسنوات تضاعف قوّته .

الساحرة : عن طيب خاطر! عندي هنا قارورة ، أنا أتجرّع منها سرّاً في بعض الأحيان ، وهي أيضاً لا تفسد أبداً . ويطيب لي أن أقدّم إليكما كأساً منها . (بصوت خافت) لكن لو شرب منها هذا الرجل دون أن يكون مستعداً ، فإنه لا يستطيع أن يعيش ساعة واحدة ـ اعلم هذا جيّداً .

مفستوفيلس : إنه صديق طيب وينبغي له أن يفيد منه ، ويطيب لي أن أقدّم اليه أحسن ما في مطبخك . ارسمي دائرتك ، وعزّمي تعزيماتك ، وأعطه كأساً ملأى!

(بحركات غريبة ترسم الساحرة دائرة وتضع في داخلها أشياء عجيبة . تبدأ الكؤوس في الرنين ، والغلاّية في النشيش ، ويصدر عنها موسيقى . وأخيراً تحضر كتاباً ضخماً ، وتضع النسانيس في داخل الدائرة ، وتستخدمهم كمنبر وهم يحملون الشعلات . وتشير الى فاوست كي يقبل عليها) .

فاوست : (مخاطباً مفستوفيلس) كلاّ ، خبّرني الى ماذا سيقود هذا ؟ الجهاز المخبول والحركات الجنونية ، والتمويه الخالي من كل ذوق ـ هذه

كلها أمور أعرفها وأكرهها كثيراً .

مفستوفيلس : كل هذا مـزاح! ولايهـدف إلا إلى الاضحـاك . فـلا تكن جـاداً الى هذا الحدّ! بوصفها طبيبة هي تريد عمل بعض التعزيمات ، حتّى يفيدك الشراب الفائدة المطلوبة .

(يحمل فاوست على الدخول في الدائرة)

الساحرة : (تبدأ في القراءة من الكتاب بلهجة مفخّمة[١٤٣])

عليك أن تفهم!

من واحد اعمل عشرة ،

ودع الاثنين تذهب

ومثلها الثلاثة ـ وبهذا تصير ثرياً

أضع الأربعة!

ومن خمسة وستة ــ

هكذا تقول الساحرة ـ

اعمل سبعة وثمانية

فيتمّ الأمر :

وتسعة هي واحد

والعشرة هي لا شيء .

هذا هو واحد في واحد عند الساحرة

فاوست : يبدو لي أن هذه العجوز تتكلّم وهي في بحران الحمّى .

مفستوفيلس : الأمـر لاينتـهي عند هذ بـل لايزال هناك الكثيـر ، أنا أعـرفـه جـيّداً ، والكتـاب كلّه يرن على هذه الشـاكلة . وقـد أضـعت وقـتاً طـويلاً في الإطّلاع عليه ، ذلك لأنّ التناقض التام يبقى دائماً حافلاً بالأسرار لدى العقلاء والحمقى على السواء .

يا صديقي ، الفن قديم وجديد . وكان هو الفن في كلّ الأزمان ، بواسطة ثلاثة وواحد ، وواحد وثلاثة ينشر الخطأ بدلاً من الحقيقة[١٤٤] .

هكذا يثرثر الإنسان ويعلّم هادئاً دون اضطراب ، من ذا يريد أن يعنى نفسه مع الحمقى ؟ الانسان يؤمن عادة ــ من مجرّد سماعه الألفاظ فقط ـ إنه لابد وراءها أفكار ومعان .

الساحرة : (تواصل الكلام) :
القوّة العالية للعلم
محجوبة عن كل العالم
مَنْ لا يفكّر يوهب العلم دون عناء .

فاوست : ما هذا الكلام الفارغ الذي تلقيه علينا ؟ يكاد رأسي منه أن يتحطّم ، يخيّل اليّ أنّي أسمع كورساً كاملاً مؤلّفاً من مائة ألف مجنون يتغمغمون .

مفستوفيلس : كفى ، كفى ، أيّتها الكاهنة الممتازة! هات شرابك واملأي الكأس فوراً حتّى الحافة ، لأنّ هذا الشراب لن يضرّ بصديقي ، فهو رجل حاز الكثير من الدرجات[١٤٥] ، وتجرّع الكثير من الجرعات الجيدة .
(الساحرة تصب الشراب في كأس مع ترديد مراسم عديدة ، وحين يُقرّب فاوست الكأس من فمه ، تنشأ شعلة خفيفة)

مفستوفيلس : هيّا! تناول! سينعش قلبك على الفور . أتكون مع الشيطان رفيقاً حميماً ، وتفزع مع ذلك من الشعلة ؟
(الساحرة تفكّ الدائرة . فاوست يخرج منها)

مفستوفيلس : هيّا . انطلق الآن! لايحقّ لك أن تستريح[١٤٦] .

الساحرة : أرجو أن تفيدك الجرعة!

مفستوفيلس : (مخاطباً الساحرة) : إذا كان في استطاعتي أن أسدي اليك خدمة ، فلا تخبريني بها إلاّ فوق الجبال الفالبورج[١٤٧] .

الساحرة : ها هي ذي أنشودة[١٤٨] ، لو تغنّيت بها بين الحين والحين ، شعرت بمفعول خاص .

مفستوفيلس : (مخاطباً فاوست) : تعال بسرعة واسلم قيادك : لابدّ لك أن تعرق حتّى تنفذ القوّة في باطنك وظاهرك . وبعد ذلك سأعلّمك كيف تستمتع بالفراغ النبيل وتستشعر بلذّة عميقة وكيف يهتزّ كوبيدون[١٤٩] ويتواثب هنا وهناك .

فاوست : دعني أتطلّع مرّة أخرى بسرعة في المرآة! فإن صورة المرآة كانت رائعة الجمال .

مفستوفيلس : لا! لا! ينبغي لك أن تشاهد نموذج النساء جميعاً هي بلحمها ودمها

عمّا قريب أمام ناظريك . (هامساً) : بهذا الشراب في جوفك ستشاهد هيلانة[١٥٠] في كل امرأة تراها .

شارع

فاوست ـ مرجريت (عابرة)

فاوست : يا آنستي الجميلة ، أيحق لي أن أتجاسر فأقدّم اليك ذراعي وصحبتي ؟

مرجريت : لست آنسة ، ولا جميلة ، وفي وسعي أن أعود الى البيت غير مصحوبة بأحد .

(تُفلت وتمضي لسبيلها)

فاوست : بحقّ السماء ، هذه الطفلة جميلة! لم أرَ نظيرة لها من قبل أبداً . إنها غنية بالأخلاق والفضيلة ، لكنّها مع ذلك ذات كبرياء . حمرة الشفّة ونور الخد لن أنساهما طوال أيّام الدنيا! أما كيف تسبل عينيها فهذا ما انطبع عميقاً في قلبي . أما أنها مشمعلّة[١٥١] فهذا ما يفتن حقّاً .

مفستوفيلس (يظهر)

فاوست : اسمع ، لابدّ أن تأتيني بهذه المرأة!

مفستوفيلس : أية إمرأة ؟

فاوست : تلك التي مرّت لتوّها .

مفستوفيلس : تلك هناك! لقد جاءت من عند قسّيسها ، وقد غفر لها كلّ خطاياها ، وأنا تسلّلت واقتربت من الكرسي[١٥٢] . إنها فتاة بريئة حقّاً ، وقد ذهبت للاعتراف دون ذنب اقترفته . لا سلطان لي عليها!

فاوست : ومع ذلك فقد ذرّفت على الرابعة عشرة من عمرها .

مفستوفيلس : ها أنت ذا تتكلّم كأي ماجن ، فاجر ، يشتهي لنفسه كل زهرة عزيزة ، ويتخيّل أنه لا يوجد أي شرف أو رضا لا يمكن اقتطافه . لكن لا تسلك هذا المسلك دائماً .

فاوست : سيّدي الأستاذ الجليل[١٥٣] ، دعني في سلام من القانون! وأقول لك باختصار : إذا لم يسكن الدم الفتيَ العذب بين أحضاني هذه الليلة ،

فهذا فراق ما بيني وبينك ابتداء من منتصف الليل .

مفستوفيلس : تأمّل فيما عسى أن يصير!إنّي أحتاج الى أربعة عشر يوماً على الأقل ، كيما أعثر على الفرصة المناسبة فحسب .

فاوست : لو كان في وسعي أن أهدأ سبع ساعات فقط ، لما كنت في حاجة الى الشيطان لاجتذاب مثل هذه المخلوقة .

مفستوفيلس : أنت تتكلّم مثل فرنسي تقريباً . لكنّي أرجوك ألا تتململ : فأي جدوى في أن تمتّع بها فوراً ؟ إن المتعة لن تكون كبيرة مثلما ستكون لو أنّك اخلبت هذه العروسة واستوليت عليها بعد ألوان عديدة من الترّهات هنا وهناك ، كما يحكى العديد من القصص الفلشية(١٥٤) .

فاوست : بدون هذا أنا عندي الشهوة أيضاً .

مفستوفيلس : بدون هزل ولا مزاح : أقول لك أنّ الأمر مع هذه الطفلة الجميلة لا يتم أبداً بسرعة . والاندفاع لا يجدي في هذا شيئاً ، فعلينا التذرّع بالمكر والحيلة .

فاوست : ايت لي بشيء من أشياء هذا الملك! خذ بي الى مخدعها! أحضر لي منديلاً من صدرها ، أو ربطة ساق تشفي غليل حبّي!

مفستوفيلس : حتّى تدرك مقدار استعدادي لخدمتك وتأثّري لألمك ، فإنّي لا أريد أن أضيّع أية لحظة ، وأريد أن أقتادك اليوم الى غرفتها .

فاوست : وسأراها ؟ وسأمتلكها ؟

مفستوفيلس : كلاّ! ستكون هي عند جارتها . وفي تلك الأثناء تستطيع أن ترعى شبعاً من كلّ آمال مسرّاتك المقبلة في دائرة ترابها .

فاوست : أيمكننا الذهاب الآن ؟

مفستوفيلس : الوقت لايزال مبكّراً جداً .

فاوست : أعدّ لي هديّة لأقدّمها إليها . (يخرج)

مفستوفيلس : يقدّم هدية فوراً ؟ هذا بديع! سيفلح اذن! أنا أعرف أماكن جميلة كثيرة ، وكنوزاً مدفونة من القدم عديدة . عليّ القيام ببعض الاستكشاف . (يخرج)

المساء

غرفة صغيرة نظيفة

مرجريت : (تضفر ضفائرها وتربطها) : أراهن بكلّ غالٍ لو عرفت من هو ذلك السيّد الذي شاهدته اليوم! لقد بدا رجلاً شهماً وهو من بيت نبيل يقيناً : هذا أمر استطعت أن أقرأه على جبينه ـ وإلاّ لما كان جريئاً معي على هذا النحو . (تخرج)

مفستوفليس . فاوست

مفستوفيلس : ادخل بكل هدوء ، ادخل!

فاوست : (وبعد قليل من السكوت) : أرجوك ، اتركني وحدي!

مفستوفيلس : (يتلفّت حواليه) : ماكلّ فتاة حريصة هكذا على النظافة . (يخرج)

فاوست : (يتطلّع فيما حواليه) : مرحباً أي ضوء الأصيل العذب ، الذي تحلّق خلال هذا المكان المقدّس! خذي قلبي ، ياآلام الحب العذبة ، يامن تتعيّشين من ندى الأمل وأنت تشوّقين! الشعور بالسكون ، والنظام والرضا يتنفّس من حولي .

ما أكبر الثراء في هذا الفقر! وما أعظم السعادة في هذا السجن! (يلقي بنفسه على كرسيّ من الجلد بجوار السرير) أوه ، يا من[١٥٥] تقبّلت بذراعين مفتوحتين مسرّات وآلام عالم مضى لسبيله ، آه! كم تعلّق بعرش الآباء هذا أعداد من الأطفال! ولربّما جاءت حبيبتي الصغيرة هنا بخدّيها الممتلئين ، خدّي الطفولة ، لتقبّل يد الجد المتغضّنة بخشوع شكراً له على هدية عيد الميلاد . إنّي أستشعر ، أيّتها الفتاة ، روحك تزمزم حولي في هذا الملأ وهذا النظام وتدعوك كلّ يوم ـ على نحو ما تفعل الأم الرؤوم ـ أن تفرشي السجّادة على المنضدة نظيفة ، وأن تفرشي الرمل تحت قدميك . أيتها اليد العزيزة! الشبيهة بيّد الله! بك

يصير الكوخ ملكوت السماء . وهنا! (يرفع ستارة السرير) أيّة نشوة تستولي عليّ! هنا أودّ أن أقضي ساعات مليئة . أيتها الطبيعة ، أنت تنشئين هنا في أحلام رقيقة من هو مَلَكٌ بالفطرة! هنا رقدت الطفلة . وصدرها الرقيق مملوء بالحياة الدافئة ، وهنا بنسيج مقدّس طاهر صنعت الصورة الالهيّة!

وأنتَ! ماذا أتى بك ها هنا ؟ كم أشعر بهزّة في أعماقي! ماذا تريد هنا ؟ ماذا يثقل على قلبك ؟ أي فاوست المسكين ، لم أعد أعرفك!

أيحيط بي هنا عطر من السحر ؟ ساقتني الشهوة للاستمتاع على الفور ، وإذا بي أشعر الآن أنّي أنساب في حلم الغرام! هل نحن ألعوبة لكلّ لفحة هواء ؟

لو أنّها دخلت هنا في هذه اللحظة ، فبماذا ستكفّر عن وقاحتك هذه! اذن لصار هانز الكبير صغيراً واأسفاه ، ولألقي عند قدميها وهو يتمعّك في ردغة[١٥٦] الذل .

مفستوفيلس : أسرع ، أراها قادمة في أسفل .

فاوست : هيّا بنا! هيّا! لن أعود الى هنا أبداً .

مفستوفيلس : ها هو ذا صندوق صغير ، لكنه ثقيل ، وقد أحضرته من مكان قصيّ . ضعه في الصوّان ، وأنا أقسم لك أنّ وعيها سيطير منه . وقد وضعت فيه أشياء تكفي لإختلاب عقل أي إنسان آخر . ويقيناً البنت هي البنت ، واللعب هو اللعب .

فاوست : لست أدري ، هل ينبغي لي ؟

مفستوفيلس : لماذا تكثر السؤال ؟ أتنوي الإحتفاظ بالكنز ؟ إن كان الأمر كذلك ، فإنّي أنصح شهوتك أن توفّر على نفسها إزجاء الوقت العزيز الجميل ، وتوفّر عليّ أنا مزيد من التعب والجهد . اعمل ألا تكون بخيلاً! إنّي أخدش رأسي ، وأمسح عن يديّ ـ (يضع الصندوق الصغير في صوّان الملابس ويضغط على القفل) والآن هيّا بنا! بسرعة! ـ حتّى تستميل الطفلة الشابة العذبة الى رغبة قلبك وارادته . لكنّي أراك تتطلّع هناك كما لو كنت ستدخل قاعة المحاضرات ، وكما لو كانت الفيزياء والميتافيزيقا ماثلتين أمامك بلحمهما! والآن! ، هيّا! (يخرجان)

مرجريت : (وبيدها مصباح)

الجوّ هنا ثقيل خانق (تفتح النافذة) ومع ذلك فهو في الخارج ليس حارّاً هكذا . بهـذا أحسّ ، لست أدري كـيف . بودّي لـو جـاءت أمّي الى البيت! في كلّ يد تسري رعدة ــ بيد أنّي إمرأة رعديدة حمقاء!

(تبدأ في الغناء ، بينما تخلع ملابسها)

كان[١٥٧] في «توليه» ملك مخلص حتّى اللحد وقد أهدته محبوبته ، وهي تموت ، كأساً ذهبية ، لم يكن لديه أعزّ منها . وكان يفزعها في كلّ مأدبة وكلّما شرب منها اخضلّت مسارب عينيه .

ولمّا أحضرته الوفاة ، راح يعدّ المدائن في دولته ،

ويوصي بكلّ شيء لوريثه ، بإستثناء الكأس .

ثمّ جلس الى المائدة الملكية تحيط به الفرسان

في قاعة الآباء العالية في القصر المطلّ على البحر .

هنالك وقف هذا الشارب العجوز

واحتسى آخر جرعة من حميّا الحياة

ثمّ ألقى بالكأس المقدّسة في الماء

وشاهدها وهي تسقط وتغطس وتغوص في أعماق البحر

وغادرت عيناه ولم يشرب بعد ذلك قطرة (تفتح صوان الملابس لتضع فيه ثيابها فتبصر صندوق الزينة) كيف جاء هذا الصندوق الجميل هنا ؟ من المؤكد أنني أغلقت الصوان . إنه مع ذلك رائع! ماذا عسى أن يكون فيه ؟ ربّما جاء به أحد الناس كرهن لقرض اقترضه من أمّي . وفي الشريط مفتاح ، ومن رأيي أن أفتحه . ما هذا ؟ يا إله السماء انظر ، لم أر في حياتي شيئاً رائعاً كهذا! حليّ! بها تستطيع المرأة النبيلة أن تختال وتتيه في أجمل الأعياد . كيف تليق بي هذه القلادة ؟ لمن عسى أن تكون هذه الحلية الرائعة ؟ (تلبسها وتقف أمام المرآة) آه! ولو كان لي ولو هذا القرط فقط! منظري يبدو مختلفاً تماماً . وماذا يجديك الجمال . أيّها الدم الشاب ؟ كلّ هذا جميل وحسن ، لكن ليس وراءه شيء ، وحسب الناس أن يثنوا عليك عن شفقة . لكن لكل شيء ينساق وراء الذهب ويتوقّف على الذهب . واحسرتاه علينا نحن الفقراء!

نزهة

فاوست (يغدو ويروح مستغرقاً في أفكاره . ثمّ يقبل إليه) مفستوفيلس

مفستوفيلس : بحق كلّ حبّ مرفوض! بحق العناصر الجهنّمية! بودّي لو كنت أعرف ماهو أسوأ من هذا لألعنه!

فاوست : ماذا بك ؟ ماذا يقرصك قرصاً شديداً هكذا ؟ لم أرَ طلعة كنيبة كهذه في حياتي!

مفستوفيلس : كان بودّي أن أسلّم نفسي الى الشيطان ، لو لم أكن أنا الشيطان هو نفسه!

فاوست : هل حدث اختلال في دماغك ؟ لقد انتابتك نوبة جنون!

مفستوفيلس : انظر : الحلي التي جئت بها الى جرتشن (مرغريت) اقتنصها القسّيس! ـ طلبت الأم أن ترى الحلي ، وفي الحال بدأ يخالجها الوسواس : فهذه المرأة لها حاسة شمّ مرهفة ، وتتشمّم دائماً كتاب الصلوات ، وتتشمّم كل قطعة أثاث ، لتعرف هل هي طاهرة أو نجسة . فلمّا تشمّمت الحليّ بدا لها جليّاً أنه ليس فيها الكثير من البركة . فصاحت : «يابنيّتي ، إنّ المال الحرام يفسد الروح ، ويستهلك الدم . سنكرّسها لله ، لينزل علينا المنّ من السماء!» فكرّهت لها مرجريت من وجهها وفكّرت : «الفرس المهدى مقبول ولاحرج ، وليس عديم الإيمان من أحضر هذه النفائس هنا» . لكنّ الأم استدعت قسّيساً ، فجاء ولم يأخذ الأمر مأخذ المزاح ، ومتّع عينيه بما رأى وقال :
«هذا عين الصواب! من يتغلّب على شهوته يربح . إنّ للكنيسة معدة قويّة . وقد التهمت الكثير من الأراضي ومع ذلك لن تشبع أبداً! ياسيّدتيّ العزيزتين ، إنّ الكنيسة وحدها هي التي تستطيع أن تهضم المال الحرام» .

فاوست : هذا عرفٌ عام ، فاليهودي والملك يستطيعان ذلك أيضاً .

مفستوفيلس : والتقف القسّيس سواراً وقلادة وخاتماً كما لو كانت هذه أشياء

تافهة ، وشكر لهما شكراً لم يزد ولم ينقص عن شكره لو أنّ أحداً أهداه سلّة من الجوز ، ووعدهما بخير الجزاء في السماء - فامتلأ قلباهما ورعاً من هذا!

فاوست : ومرجريت ؟

مفستوفيلس : إنها تجلس الآن رهينة البلابل لاتدري ماذا تريد وماذا ينبغي لها ، تفكّر في الحلي أثناء الليل وأطراف النهار ، وتفكّر أكثر فيمن عسى أن يكون قد أتى بها .

فاوست : حزن الحبيبة يؤلمني ، فأحضر لها على الفور حلياً جديدة! على أنها في المرّة الأولى لم تكن كثيرة .

مفستوفيلس : طبعاً . كلّ شيء عندك لعب أطفال!

فاوست : ورتّب الأمور حسبما أهوى ، وتعلّق بجارتها! ياشيطان لاتكون رخواً ، وأحضر حلياً جديدة!

مفستوفيلس : حاضر ، يامولاي ، ومن صميم قلبي! (فاوست يخرج)

مفستوفيلس : وهكذا يفرقع الأحمر العاشق في الهواء الشمس والقمر وكلّ النجوم ازجاء للوقت من أجل الحبيبة . (يخرج)

بيت الجارة

مارتا : (وحدها) غفر الله لزوجي العزيز! إنه لم يحسن صنعاً معي! مضى لوجهه يهيم في أرجاء الدنيا ، وتركني هنا وحدي على القش . إنّي لم أسئ اليه أبداً ، ولقد أحببته - علم الله! - بكلّ قلبي . (تبكي) ربّما مات! - يا للهول! بودّي أن أحصل على شهادة وفاة!
مرجريت (تُقدم)

مرجريت : سيدة مارتا!

مارتا : ماذا هناك يا مرجريت ؟

مرجريت : ركبتاي تسوخان! وجدت مرّة أخرى في صوّاني صندوقاً من خشب الأبنوس ، وفي داخله أشياء رائعة جداً ، أثمن مما كان في الصندوق الأوّل .

مارتا : عليك ألا تخبري أمّك بشيء ، وإلاّ ذهبت به مرّة أخرى الى كرسي الاعتراف!

مرجريت : آه! انظري فقط! آه! انظري فقط!

مارتا : (تلبس الحليَ) يالك من مخلوقة سعيدة!

مرجريت : لكن لا ينبغي لي أن ألبسها وأنا في الشوارع أو في الكنيسة .

مارتا : تعالي عندي مراراً ، وتحلّي بها سرّاً هنا . وتمشّي بضع ساعة أمام المرآة ، فهذا أمر يسرّنا . ثمّ إن وجدت مناسبة أو كان عيد ، دعي الناس يرونها واحداً تلو الآخر : القلادة أوّلاً ، وبعد ذلك لؤلؤة في الأذن ، وربّما لا تلحظ أمّك شيئاً . وحتّى لو لاحظت فسندبّر حيلة لمواجهة الموقف آنذاك .

مرجريت : لكن من عسى أن يكون الشخص الذي أحضر الصندوقين ؟ الأمور السليمة لا تجري على هذا النحو . (قرع الباب)

مرجريت : يا إلهي! ربّما كانت أمّي ؟

مارتا : (وهي تنظر من خلال الستائر) إنه سيّد أجنبي ـ ادخل!

مفستو فيلس (يظهر)

مفستوفيلس : لقد سمحت لنفسي بالدخول ، وينبغي عليّ أن أسأل السيّدتين المعذرة .

(يتراجع في احترام أمام مرجريت) أريد أن أتكلّم مع السيدة مارتا اشفرتلين schwerdtlein

مارتا : ها أنذا ، ماذا يريد السيّد أن يقول ؟

مفستوفيلس : (يخاطبها بصوت خفيض) : الآن أنا أعرفك ، ويكفيني هذا الآن ، إنّ عندك زيارة كريمة . أعتذر عن جرأتي ، وسأعود فيما بعد الظهر .

مارتا : (بصوت عالٍ) تصوّري ، يا طفلتي ـ وما أعجب هذا الأمر ـ أنّ السيّد يحسبك آنسة نبيلة .

مرجريت : إني فتاة مسكينة . يا إلهي! السيّد رجل في غاية الطيبة : إنّ هذه الحلي ليست ملكي .

مفستوفيلس : ليست الحلي وحدها ، إنّ لها جواهراً ، ولها نظرة مرهفة! وكم سأسرّ لو سمح لي بالبقاء .

مارتا : بماذا أتيت ؟ بودّي لو أعرف ـ

مفستوفيلس : كم كنت أتمنّى أن آتيك بخبر سار! وأرجو ألاّ تحمليني إصر ذلك : إنّ زوجك مات ، ويبعث اليك بالتحيّة .

مارتا : مات ؟ هذا القلب المخلص! يا ويلتاه! زوجي مات! آه ، قضي عليّ!

مرجريت : آه ، يا سيّدتي العزيزة ، لا تقنطي .

مفستوفيلس : لكن اسمعي القصّة الأليمة!

مرجريت : من أجل هذا لا أريد أبداً في حياتي أن أحب . فإنّ خسارة كهذه تفضي بي الى الموت .

مفستوفيلس : لابدّ للسرور من ألم ، ولابدّ للألم من سرور .

مارتا : قصّ عليّ كيف كانت خاتمة حياته ؟

مفستوفيلس : إنه مدفون في بادوفا بالقرب من القدّيس أنطونيوس في مكان مبارك على سرير الراحة الأبدية الطرية .

مارتا : هل أتيت إلي بأشياء أخرى ؟

مفستوفيلس : نعم : رجاء عظيم وثقيل : هو أنّ تكلّفي إقامة ثلاثمائة قدّاس لراحة روحه . وفيما عدا هذا فإنّ جيوبي خاوية .

مارتا : ماذا! ولا قطعة نقود للزينة ؟ ولا حلية ؟ أي شيء ممّا يحتفظ به أي عامل في قاع حقيبته تذكاراً لا يفرّط فيه حتّى لو جاع أو تسوّل!

مفستوفيلس : سيّدتي ، إنّي في غاية الأسف من قلبي . إلاّ أنّه في الحقيقة لم يبدّد نقوده . وهو أيضاً قد ندم كثيراً على أخطائه ، نعم ، ولشدّ ماندب سوء حظّه .

مرجريت : أواه! يا لشقاء بني الإنسان! يقيناً أنّي سأصلّي مراراً لراحة نفسه .

مفستوفيلس : أنت تستحقّين أن تعتدّي زواجك فوراً ، أنت طفلة خليقة بكل حبّ .

مرجريت : كلا ، لم يئن بعد الأوان

مفستوفيلس : إن لم يكن زوج ، فليكن مؤقّتاً عاشق وامق! إنها لنعمة من أعظم نعم السماء أن يعانق المرء جمالاً كهذا .

مرجريت : هذا ليس هو العرف الجاري في هذه البلاد .

مفستوفيلس : عرف أو غير عرف! هذا موجود أيضاً .

مارتا : لكن إحك لي .

مفستوفيلس : كنت عنده على فراش الموت ، كان هذا الفراش أفضل من روث الماشية : لقد كان من القش نصف العفن . بيد أنّه مات مسيحيّاً ، وأدرك أنه لايزال عليه ديون كثيرة . وصاح : كم ينبغي عليّ أن أمقت نفسي تماماً ، لأنّي هجرت مهنتي وزوجتي على هذا النحو! أواه ، إنّ الذكرى تقتلني . ليتها تغفر لي وأنا لاأزال على قيد الحياة!

مارتا : (وهي تبكي) هذا الرجل الطيب! لقد غفرت له منذ وقت طويل .

مفستوفيلس : «لكن ـ يعلم الله! ـ هي أذنبت أكثر ممّا أذنبت أنا» .

مارتا : هو في هذا يكذب! ماذا! حتّى وهو على حافّة القبر يكذب!

مفستوفيلس : لا شكّ في أنه كان يخرّف في لحظاته الأخيرة ، إن كان عندي بعض المعرفة في هذا الأمر . لقد قال : «لم أنعم بأي فراغ : كان هناك الأولاد أوّلاً ، ثمّ كفالة الخبز بأوسع معانيه . ولم يكن في مقدوري أن آكل نصيبي منه في هدوء» .

مارتا : أهكذا نسي كلّ إخلاص وكلّ محبّة ، وماكنت أعاني من المشقّة نهاراً وليلاً!

مفستوفيلس : كلاّ ، لقد فكّر فيك بقلبه . قال : «لمّا رحلتُ من مالطه ، دعوت لزوجتي وأولادي بحرارة ، وكانت السماء راضية علينا ، فاستطاعت سفينتنا أن تأسر مركباً تركيّاً يحمل كنزاً من كنوز السلطان الكبير . ونالت الشجاعة مكافأتها ، وحصلت ـ كما يقضي الحق ـ على نصيبي الوفير من هذه الغنيمة» .

مارتا : كيف ؟ وأين ؟ ربّما دفنه في مكان ؟

مفستوفيلس : من يدري ماذا صنعت به الريّاح الأربع! لقد أخذت قلبه آنسة جميلة بينما كان يتنزّه في ربوع نابولي Napoli . وهي بذلت له الكثير من الحب والإخلاص ممّا جعله يحس به حتّى نهاية حياته .

مارتا : الوغد! اللص الجاني على أولاده! حتى كل الشقاء وكلّ البؤس الذي عانيناه لم يَحُلْ بينه وبين السلوك الشائن في الحياة!

مفستوفيلس : نعم ، أنت ترين ، ولهذا مات . لو كنت الآن في مكانك ، للبست عليه الحداد لمدّة عام بسيط ، وفي نفس الوقت أتلمّس كنزاً آخر .

مارتا : يا الله! لن أجد بسهولة في هذا العالم شخصاً آخر مثل زوجي الأوّل! صحيح

أنه كان مجنوناً ظريفاً شيئاً ما ، ولم يكن يحبّ غير التجوال باستمرار والنساء الأجنبيّات والخمور الأجنبيّة والمقامرة اللعينة بالنرد .

مفستوفيلس : نعم ، نعم ، كان من الممكن أن تسير الأمور لو تغاضى عن الكثير من هفواتك . إنّي أقسم لك أنني على استعداد لتبادل الخواتم معك!

مارتا : أوه! السيّد يلذّ له المزاح!

مفستوفيلس : (مخاطباً لنفسه) الآن عليّ أن أرحل ، وإلا أُخِذ حتّى الشيطان نفسه بكلمته! (مخاطباً مرجريت) : وأنت كيف حال فؤادك ؟

مرجريت : ماذا يعني السيّد بهذا ؟

مفستوفيلس : (مخاطباً نفسه) يالها من طفلة طيبة بريئة! (بصوت عال) وداعاً أيتها السيّدتان!

مرجريت : وداعاً!

مارتا : لكن خبّرني بسرعة! بودّي أن أحصل على شهادة أين وكيف ومتى توفّي كنزي (زوجي) ودفن ، إنّي دائماً أحب النظام . وأودّ أيضاً أن أقرأ نعيه في الصحيفة الاسبوعية .

مفستوفيلس : حسن ، أيتها السيدة الطيبة ، ستعرف الحقيقة على لسان شاهدين : إنّ لي رفيقاً لطيفاً ، سآتي به معي أمام القاضي . أنا مستعد للمجيء به .

مارتا : أوه! افعل ذلك قطعاً!

مفستوفيلس : وستكون هذه الفتاة حاضرة أيضاً ؟ إنه شاب طرير قام بالكثير من الأسفار ، وأبدى للأوانس أحلى الشمائل .

مرجريت : سأحمرّ خجلاً أمام هذا السيّد .

مفستوفيلس : كلاّ ، ولا أمام أي ملك من ملوك الأرض .

مارتا : هناك في حديقتي خلف البيت نريد أن ننتظر السيّدين .

شارع

فاوست . مفستوفيلس

فاوست : كيف الحال ؟ هل تتقدّم الأمور ؟ هل سيتحقّق المرغوب عمّا قريب ؟

مفستوفيلس : آه ، مرحى! أجدك تتوقّد شوقاً اليها ؟ بعد وقت قصير ستكون مرجريت ملكاً لك . ستراها مساء اليوم عند جارتها مارتا : هذه إمرأة بارعة في القيام بدور القوّاد والنَّوَرية!

فاوست : هذا حسن!

مفستوفيلس : لكنّها تريد منّا شيئاً في مقابل هذا .

فاوست : الخدمة تستحق في مقابلها خدمة .

مفستوفيلس : مطلوب منّا أن نقدّم شهادة وثيقة على أنّ رفات زوجها ترقد في مقبرة مدينة بادوفا .

فاوست : بارع جدّاً! لكنّ علينا أوّلاً أن نسافر الى هناك!

مفستوفيلس : يا للسذاجة المقدّسة! لا حاجة بنا الى ذلك : ما عليك إلا أن تشهد دون أن تعلم الشيء الكثير!

فاوست : إن لم يكن لديك ماهو أفضل من هذا ، فإنّ الخطّة تبدّدت .

مفستوفيلس : أيها الرجل القدّيس! أهذه حكايتك! هل هذه هي المرّة الأولى في حياتك ، التي تشهد فيها زوراً ؟ ألم تؤكّد بكل قوّة تصوّرات عن الله ، والعالم وما يتحرّك فيه ، والانسان ومايختلج في رأسه وقلبه ، وعليك الاعتراف الصريح ، هل عرفت من أمرها أكثر ممّا تعرف من أمر وفاة السيّد اشفرتلين ؟!

فاوست : أنت كذّاب ، وسفسطاني ، وستظلّ كذلك أبداً .

مفستوفيلس : أجل ، إذا لم يتعمّق المرء أكثر! وإلاّ ، أو لن تغرّر غداً ـ وبكلّ شرف ـ بمرجريت المسكينة وتقسم لها بكل يمين على فرط حبّك لها ؟

فاوست : وهو بالفعل حبّ من القلب .

مفستوفيلس : حسن وجميل! وستحدّثها عن إخلاصك وحبّك الأبديين ، وعن مشاعرك الغامرة المستولية عليك فهل هذا أيضاً سيصدر من صميم قلبك ؟

فاوست : دعك من هذا! نعم سيصدر! ـ حينما أشعر وأبحث عن اسم لهذا الشعور والاهتياج ، فلا أجد ، ثمّ أجوب العالم بكل مشاعري لاقتناص أسمى الكلمات ، ثمّ أنعت هذا اللهيب الذي احترق منه بأنه أبدي ،

بلا نهاية ـ فهل هذا تلاعب بالكذب شيطاني ؟

مفستوفيلس : أنا على حق مع ذلك!

فاوست : اسمع! الحظ هذا لنفسك ـ أرجوك وأوفر عليّ رأيي ـ من يصمّم على أنه على صواب ولديه لسان ، فمن المؤكّد أنه سيحقّق ذلك . ثمّ تعال لقد سئمت من الثرثرة ، أنت على حق خصوصاً لأنّي مضطرّ .

حديقة

مرجريت (ذراعها في ذراع) فاوست ، مارتا مع مفستوفيلس (يتنزّهان ذُهوباً وجيئة) .

مرجريت : أشعر أنّ السيّد يطويني على غرى ، ويتواضع ليلفّ رأسي بالخجل . إنّ الرحّالة يتعوّد على التلطّف والاحسان . وأنا أعلم جيّداً أنّ رجلاً محنّكاً مثلك لايستطيع أن يستريح الى حديثي .

فاوست : إنّ نظرة منك ، بل كلمة تمنحني أكثر من كل حكمة هذا العالم . (يقبّل يدها) .

مرجريت : لا تضايق نفسك! لمَ تعن نفسك بتقبيل يد خشنة جافية مثل يدي! كم من أعمال كان عليّ أن أؤدّيها! إنّ أمّي متشدّدة جداً . (يمضيان بعيداً)

مارتا : وأنت يا سيّدي ، هل أنت في سفر دائم ؟

مفستوفيلس : أواه! إنّ الكسب والواجب يحملانني على ذلك! ولكم نأسف على مغادرة الكثير من الأماكن ، لكنّنا لا نملك حق المكوث فيها!

مارتا : في سنوات النشاط يطيب للمرء الإنطلاق في أنحاء الدنيا . لكن لابدّ أن يأتي الوقت السيّء ويدلف الأعزب وحده الى قبره ، وماهذا بالأمر السار .

مفستوفيلس : بغمٍّ يتراءى لي هذا من بعيد .

مارتا : لهذا ، يا سيّدي الفاضل ، عليك أن تقدّم لنفسك زَنْدَ النصيحة في أوانها .

(يمضيان بعيداً)

مرجريت : نعم ، البعيد عن العين بعيد عن الذهن . إنّ التأدّب مألوف لديك .

ولديك الكثير من الصديقات اللواتي هنّ أذكى منّي .

فاوست : يا عزيزتي! صدّقيني إن قلت لك بأنّ من يوصف بأنه أذكى ، إنّما هو الأوفر غروراً وضيق ذهن .

مرجريت : وكيف ؟

فاوست : آه! إنّ البساطة والبراءة لايقدّران ذاتيهما حقّ قدرهما . أمّا التواضع والضعة وهما أسمى مواهب الطبيعة المليئة بالحب والجود ـ

مرجريت : فكّر فيّ للحظة فقط ، أمّا أنا فسيكون لديّ متّسع من الوقت للتفكير فيك .

فاوست : هل تكونين وحدك كثيرا ؟

مرجريت : نعم ، فشؤوننا قليلة ، لكنها مع ذلك تحتاج الى من يعنى بها . ليست لدينا خادمة ، وعليّ أنا أن أطبخ ، وأكنس ، وأعمل التريكو ، وأخيط ، وأقوم بالمشاوير في وقت مبكّر أو متأخّر . وأمّي في كل الأمور متشدّدة جداً . لا لأنّ عليها أن تضيّق على نفسها هكذا جداً : فإنّ أبي خلف لنا ثروة لا بأس بها : بيتاً صغيراً وبستاناً في أرباض المدينة . والآن فإنّني أمضي أيّاماً هادئة نسبيّاً : وأخي جندي ، وأختي الصغرى ماتت ، وكانت لي معها متاعب لذيذة ، بيد أنّي على استعداد لتحمّل كل عذاب مرّة أخرى ، لأنّ هذه الطفلة كانت أثيرة جداً عندي .

فاوست : إن كانت تشبهك فلا بدّ أنها كانت ملكاً!

مرجريت : لقد ربّيتها ، وهي من قلبها أحبّتني . وقد ولدت بعد وفاة أبي . واعتقدنا أنّ أمّنا في عداد المفقودين ، لأنها كانت ترقد وهي في حالة بائسة جداً . ثمّ استردّت عافيتها شيئاً فشيئاً ولكن ببطء شديد . ولم يكن بوسعها أن ترعى بنفسها الدودة[١٥٨] المسكينة ، فتولّيت أنا كلّ أمرها وغذّوتها باللبن والماء ، حتّى صارت كأنها ابنتي . وعلى ذراعي ، وفي حجري ، كانت لطيفة ، تتواثب ، حتّى كبرت .

فاوست : لابدّ أن استشعرت أصفى هناء .

مرجريت : الى جانب ساعات عصيبة عديدة . كان مهد الصغيرة في الليل بجوار سريري : ومتى ماتحرّكت ، كنت أستيقظ ، فمرّة كان عليّ أن

أسقيها ، وأخرى كان عليّ أن أرقدها الى جواري ، وثالثة إذا لم تسكت ، كان عليّ أن أنهض من فراشي وأن أتمشّى في الغرفة ذهاباً وجيئة وأنا أتراقص ، وفي الصباح الباكر أقف أمام حوض الغسيل . وبعد ذلك أذهب الى السوق ، ثمّ أتولّى الطبخ ، وهكذا باستمرار : اليوم مثل غد . وهكذا يا سيّدي لا يمضي الأمر سهلاً باستمرار ، لكنّ هذا كان من شأنه أن يجعل الطعام أشهى ، والراحة أمتع .
(يمضيان بعيداً)

مارتا : ونحن النساء المسكينات نعاني من ذلك الأمرّين : إذ من العسير إعادة الأعزب الى رشده .

مفستوفيلس : يتوقّف الأمر على نساء مثلك أنت لتعَلمي ما هو أحسن .

مارتا : قل لي بصراحة ، ياسيدي ، ألم تعثر بعد على أحد ؟ ألم يرتبط قلبك بعد في مكان ما ؟

مفستوفيلس : يقول المثل : «بيت تملكه وزوجة كريمة يساويان الذهب واللؤلؤ» .

مارتا : أقصد : ألم تعشق أبداً ؟

مفستوفيلس : لقد استقبلت في كلّ مكان بأدب وافر .

مارتا : أردت أن أقول ، ألم يهو قلبك عن جدّ ؟

مفستوفيلس : ينبغي على المرء ألا يهزل مع النساء أبداً .

مارتا : أوّاه ، أنت لا تفهم قصدي .

مفستوفيلس : هذا يؤلمني جدّاً! لكنّي فاهم : أنت طيبة جداً .
(يمضيان بعيداً)

فاوست : ألم تعرفينني ، أيها الملاك اللطيف ، لمّا دخلت الحديقة ؟

مرجريت : ألم تلاحظ ذلك ؟ لقد أطرقت بصري .

فاوست : وتغفرين لي جرأتي ؟ وما ارتكبته وقاحتي ، لمّا أن كنت خارجة من الكنيسة ؟

مرجريت : ارتبكت ، فلم يحدث لي هذا من قبل ، ولا يستطيع أحد أن يقول عنّي كلمة سوء . فكّرت : «أاه! هل رأى في تصرّفاتي شيئاً وقحاً أو غير ذلك ؟ حتّى بدا له في التوّ أن يتعامل مع هذه القحبة» ؟ لكنّي أعترف بهذا : لم أعرف ماذا جعلني أبداً بالميل نحوك . لكن من المؤكّد

أنني غضبت على نفسي أشدّ الغضب لأنّي لم أستطع أن أكون أكثر إساءة إليك .

فاوست : يا حبيبتي الحلوة!

مرجريت : انتظر لحظة! (تلتقط زهرة النجمة وتنزع وريقاتها وريقة بعد وريقة)

فاوست : ما معنى هذا ؟ أتنظّمين باقة ؟

مرجريت : لا ، هي مجرّد لعبة .

فاوست : كيف ؟

مرجريت : دعني . ستسخر منّي . (تنتزع الوريقات وتدندن)

فاوست : بماذا تدندنين ؟

مرجريت : (بصوت نصف مرتفع) : يحبّني ـ لا يحبّني .

فاوست : أيها الوجه السماوي الرائع!

مرجريت : (تستمر) : يحبّني ـ لا ـ يحبّني ـ لا ـ (تنتزع الوريقة الأخيرة وهي تصبح مسرورة) يحبّني!

فاوست : نعم ، يا طفلتي! لتكن كلمة الزهرة هذه نطقاً إلهيّاً . إنه يحبّك! أتفهمين ما معنى هذا ؟ إنه يحبّك!
(يمسك كلتا يديها)

مرجريت : أشعر بقشعريرة!

فاوست : لا ترتعدي! دعي هذه النظرة ، دعي ضغطة اليدين هذه تقول لك ما لا يمكن الإفصاح عنه : اسلام النفس واستشعار وجدان يجب أن يستمر الى الأبد! الى الأبد! ـ
إن نهايته ستكون اليأس . كلاً ، بغير نهاية! بغير نهاية!
(مرجريت تضغط على يديه ، ثمّ تفلت منه وتعدو . يتوقّف لحظة مفكّراً ، ثمّ يعدو في أثرها) .

مارتا : (قادمة) بدأ الليل .

مفستوفيلس : نعم ، ونحن نريد الذهاب .

مارتا : كان بودّي أن نبقى هنا وقتاً أطول . لكنّ المكان هنا شرّير ، كما لو لم يكن عند الناس من شاغل ومن عمل غير التجسّس على خطوات الجار وحركاته . ويصبح المرء مضغة في الأفواه ، مهما يكن سلوكه .

لكن أين طائرانا العاشقان ؟

مفستوفيلس : إنهما يحلّقان على الطريق هناك . يالهما من فراشتين طيّارتين!

مارتا : يبدو أنه مسرور بها .

مفستوفيلس : وهي أيضاً مسرورة به . هكذا تجري أحوال الدنيا .

بيت في الحديقة

(مرجريت تدخل واثبة . وتختبىء خلف الباب ، وسبّابتها في شفتيها وتتطلّع من خلال الثقب) .

مرجريت : إنه قادم!

فاوست : (وقد جاء) آه ، يا عفريتة ، أنت تعاكسينني! الآن أمسكت بك . (يقبّلها)

مرجريت : (وهي تمسك به وتردّ له القبلة) : يا أعزّ رجل! أحبّك من صميم قلبي!

مفستوفيلس : (يقرع الباب)

فاوست : (يضرب الأرض بقدمه) : من هناك ؟

مفستوفيلس : صديق طيّب .

فاوست : حيوان!

مفستوفيلس : آن وقت الفراق .

مارتا : (وقد أتت) نعم ، الوقت متأخّر يا سيّدي .

فاوست : أينبغي لي أن أصحبك ؟

مرجريت : وأمّي حينئذ... وداعاً!

فاوست : ينبغي عليّ أن أذهب إذن ؟ وداعاً .

مارتا : وداعاً .

مرجريت : الى لقاء قريب!

مرجريت (فاوست و مفستوفيلس يذهبان) .

: يا إلهي العزيز! أثمّ إنسان مثل هذا الرجل يستطيع أن يفكّر في كلّ شيء! لقد كنت واقفة أمامه خجلى ، لا أملك إلا أن أقول نعم لكلّ شيء . إنّي طفلة جاهلة مسكينة ، ولا أفهم ماذا عساه يرى فيّ . (تخرج) .

غابة وكهف

فاوست : (وحده) : أيّتها الروح السامية[١٥٩]! لقد وهبتني كلّ شيء ، كلَّ مارجوت . لم يكن عبثاً أن تجلّي لي وجهك في النار . لقد أعطيتني الطبيعة الرائعة ملكوتاً ، والقدرة على الشعور بها والاستمتاع ، ولم تمكّنيني فقط من زيارة باردة ذاهلة لقلبها العميق ، كما لو كانت مجرّد مشاهدة في قلب صديق . بل اقتدت صفوف الأحياء أمام ناظريّ وعلّمتني أن أعرف إخوتي في الخميلة الساجية وفي الهواء والماء . وحين تدوّي العاصفة في الغابة وتصلصل مجندلة الصنوبر الضخم الذي يدمّر ، في سقوطه ، الأغصان والجذوع المجاورة فيحدث في الروابي فراغاً يجلجل فيه صوت الرعد . ثمّ تقتادينني الى كهف أمين ، وتكشفين لي عن ذات نفسي ، وعمّا في أعماق قلبي من أسرار عميقة وعجائب . ثمّ يتصاعد القمر الصافي أمام نظراتي فتشيع فيها الرقّة ، وترنق أمامي ، آتية من جدران الصخور ومن الخميلة الرطبة أشكال الماضي القصيّة ، فتهدئ من شهوة التأمّل العارمة .

أوه! أمّا أنه لن يتاح للإنسان شيء كامل ، فهذا ما أشعر به الآن! وقرنت بهذه النشوة ، التي قرّبتني من الآلهة أكثر فأكثر ـ رفيقاً لا أملك الآن الاستغناء عنه ، رغم أنه يحطّ من قدر نفسي أمام نفسي ببرود ووقاحة ، وبنسمة من الكلمات يحيل عطاياك الى عدم .

إنه يحضأ في قلبي ناراً وحشيّة ، نار الشوق الى تلك الصورة الجميلة ، في إصرار واهتمام . وهكذا صرت أترنّح من شهوة الى استمتاع ، وفي الاستمتاع أتلهّف الى شهوة جديدة .

(مفستوفيلس يظهر)

مفستوفيلس : هل استمتعت من الحياة بما فيه الكفاية ؟ وهل يمكن أن يكون في الاستطالة متاع ؟ حسن أن يجرّب المرء مرّة ، لكنّ عليه بعد ذلك أن يتطلّع الى شيء جديد!

فاوست : كنت أود لو أنّ لديك ما تعمل خيراً من مضايقتي في يوم طيّب!

مفستوفيلس : حسن ، حسن! إنّي أدعك في هدوء ، وليس لك أن تقول لي هذا عن جد . إنّ فقدان رفيق خشن ، حاد المزاج أحمق هو في الحق خسارة ضئيلة . طوال النهار اليد ملأى! ولايستطيع المرء أن يشتمّ من أنف السيّد(١٦٠) ماذا يعجبه وماذا ينبغي تركه .

فاوست : هذه هي اللهجة المناسبة تماماً! إنه يريد منّي أن أشكر له كونه يُضجِرني ويُملّني .

مفستوفيلس : يا ابن الأرض المسكين ، كيف كنت ستقضي حياتك بدوني ؟ لقد شفيتك من ترّهات الخيال لوقت طويل ، ولولاي أنا ، لكنت قد قذف بك خارج الكرة الأرضية منذ مدّة . ماذا تفعل ها هنا في الكهوف وشقوق الصخور قابعاً مثل البومة الضخمة ؟ أي غذاء تستمدّه من الطحلب الرطب والصخر النزّاز كأنّك علجوم(١٦١) ؟!

يا له من إزجاء للوقت جميل عذب! لايزال «الدكتور» يختبىء في بدنك .

فاوست : ألا تستطيع أن تفهم أية طاقة للحياة جديدة يعطيني هذا التجوال في البرّية ؟ لو استطعت أن تدرك هذا لكنت شيطاناً الى الحد الذي عنده تحسدني على سعادتي هذه .

مفستوفيلس : استمتاع فوق أرضي! الركود على الجبال في الليل وتحت الندى ، والإحاطة بالأرض والسماء في شغف ونشوة ، والإنتفاخ الى مقام الألوهيّة ، مفتّشاً في نخاع الأرض باندفاع مستطلع ، شاعراً في قلبك بأعمال الأيّام الستة ، وبقوّة فخور تستمتع بما لست أدري ما هو ، وتتدفّق في كلّ شيء بنشوة كنشوة الغرام ، وقد زال تماماً ابن الأرض ، وبعد ذلك يكون الوجدان العالي - (بتفخيم) - أمّا كيف ينتهي بك هذا : فهو ما لا ينبغي لي أن أقوله .

فاوست : سُحقاً لك!

مفستوفيلس : هذا أمر لا يسرّك . لك الحقّ في أن تقول : سُحقاً! لاينبغي للمرء أن ينطق أمام الآذان العفيفة بما لا تحتمله القلوب العفيفة .

والخلاصة هي أنّي لا أستكثر عليك أن تستمتع بالأوهام في بعض

الأحيان ، لكنّك لا تستطيع أن تتمادى في هذا طويلاً .
ها أنت ذا موهون القوى ، ولو استمرّت الحال هكذا طويلاً لأفضت بك الى الجنون أو القلق أو الفزع . كفى اذن! حبيبتك الصغيرة في انتظارك ، وقد ضاقت بكلّ شيء وهامت في أودية الأحزان ، وأنت لا تفارق عقلها ، وقد تولّهت بك حبّاً . في البداية تدفّق طوفان غرامك كما يتدفّق الجدول من الثلج الذائب . وصببتها في قلبك ، والآن جفّ جدولك . فبدلاً من التربّع على العرش في الغابات ، أرى أنّ من اللائق بالسيد العظيم أن يجازي الدم الشاب عن حبه .
إن الوقت يتمطّى لديها على نحو يثير الشفقة . تقف عند النافذة ، وتشاهد السحب وهي تمرّ على أسوار المدينة القديمة وتردّد طوال النهار وأنصاف الليالي هذا النشيد «لو كنت طائراً صغيراً!» أحياناً تسري فيها حيويّة ، لكنها في الغالب محزونة كاسفة البال ، وأحياناً تستنفد العبرات ، ثمّ تعود الى الهدوء في الظاهر ، لكنّها دائماً مشبوبة الغرام .

فاوست : أفعى! أفعى!

مفستوفيلس : (مخاطباً نفسه) هذا صحيح ، ولكنّي سأصيدك!

فاوست : ملعون أنت! اغرب عنّي ولا تذكر المرأة الجميلة! لا تهيّج شهوتي الى بدنها الحلو من جديد وحواسّي في نصف جنون .

مفستوفيلس : ماذا ينبغي إذن ؟ إنها تعتقد أنّك هربت ، وأنت فعلاً بين بين .

فاوست : أنا قريب منها ، وحتّى لو كنت بعيداً هكذا عنها ، فإنّي لا أستطيع أن أنساها ولا أن أفقدها . بل إنّي أغار من القربان المقدّس حين يمسّ شفتيها .

مفستوفيلس : حقّاً ، ياصاحبي! ولكم حسدتك على هذا التوأم من الشفاه التي ترعى بين الورود .

فاوست : امش ، أيها القوّاد!

مفستوفيلس : حسن! أنت تشتم ، وعليّ أنا أن أضحك . إنّ الله حين خلق الذكر والانثى ، أقرّ بنبالة هذه المهمّة العظمى ، وهي تمكين اللقاء .
والآن هيا ، إنها مصيبة كبيرة! وعليك الذهاب الى مخدع حبيبتك ، لا

الى الموت .

فاوست : أي سرور سماوي أشعر به بين ذراعيها! دعني أستدفىء في صدرها! أو لا أشعر بمحنتها ؟ ألست هارباً ، وبغير مأوى . ألست لا إنسان دونما هدف أو راحة ، يهدر كالسيل من صخر الى صخر ، مزمجراً نازعاً الى السقوط في الهاوية ؟ بينما هي محبوسة في عالمها الصغير ، تنتابها المشاعر الصبيانية الغامضة ، وهي تقيم في كوخ صغير على مرج صغير من مروج الألب محاطة بهمومها المنزلية . وأنا ، المكروه من الله ، لم يكفني أن أمسك بالصخور وأكسرّها إرباً إرباً! وهي ، أكان عليّ إذن أن أدمّر سلامها!
وأنت أيّها الجحيم ، أكان عليك أن تتقاضى هذه التضحية ؟!
أعنّي ، أيها الشيطان ، على تقصير وقت القلق! فليتهدّم مصيرها على أمّ رأسي ، وليقضى علينا معاً!

مفستوفيلس : فيمَ كلّ هذا الغليان والإشتعال! اذهب اليها ، أيّها الأحمق ، وواسها! حينما لايبصر العقل الضيّق مخرجاً ، يتصوّر أنّ هذه هي النهاية لكل شيء ، ليحيا من يتحلّى بالشجاعة! ومع ذلك فأنت قد لعبت دور الشيطان ببراعة كافية . لا أجد في العالم شيئاً أبغض الى ذوقي من شيطان ينتابه اليأس .

غرفة جرتشن[١٦٢]

جرتشن : (أمام عجلة الغزل) :
راحتي ولّت بعيداً
أثقلت قلبي الهموم
لا أراها ، لا أراها
راحتي من بعدُ قطّ
حيث لا ألقاه يبدو
في خيالي ثمّ لحد
كلّ هذا الكون يغدو

حنظلاً مرّ المذاق
عقلي المسكين خولط
وعيي المسكين فُتّت
راحتي ولّت بعيداً
أثقلت قلبي الهموم
لا أراها ، لا أراها ،
راحتي من بعد قطّ
إن تطلّعت من الشبّا
كِ يوماً فلأجله
إن تسلّلت من البيت
لو إذا فلأجله
سيره فيه السمّو
وجهه فيه النبالة
بسمة في شفتيه ـ
صولة في ناظريه ـ
مثل فيض السحر قوله
مسّ كفيه ، وآه!
قبلة من فيه حلوة
راحتي ولّت بعيداً
أثقلت قلبي الهموم
لا أراها ، لا أراها!
راحتي من بعد قطّ
إنّ في قلبي اندفاعا
نحوه أيّان يذهب
ليتني أمسك خصره
دون أن يفلت منّي
ليتني أمضي حياتي
فيه تقبيلاً ولثما

بعد هذا لا أبالي
إن يكُنْ في اللثم موتي!

حديقة مارتا

مرجريت . فاوست

مرجريت : عدني ، يا هينرش![١٦٣]

فاوست : لا أستطيع .

مرجريت : خبّرني الآن ، ما هو موقفك من الدين ؟ أنت رجل طيب القلب ، لكنّي أعتقد أنَك لا تقيم للدين كبير وزن .

فاوست : دعيك من هذا يا طفلتي! أنت تشعرين أني طيّب معك ، ومن أجل محبوباتي أنا مستعد للتضحية ببدني ودمي ، ولا أريد أن أسلب من أحد مشاعره وكنيسته .

مرجريت : ليس هذا بصحيح ، لابدّ للانسان أن يؤمن بالدين .

فاوست : لابدَ ؟

مرجريت : آه ، لو كنت أستطيع التأثير عليك! وأنت لا تحترم الطقوس المقدّسة أيضاً .

فاوست : بلى ، إنّي أحترمها .

مرجريت : لكن دون أن تشارك فيها . فأنت لم تذهب لحضور القدّاس ولا من أجل الإعتراف منذ زمن طويل . هل تؤمن بالله ؟

فاوست : يا عزيزتي ؟ من ذا الذي يحقّ له أن يقول : أنا أؤمن بالله! في وسعك أن تسألي القسّيس أو الحكماء ، لكن جوابهم سيبدو مجرّد سخرية بالسائل .

مرجريت : إذن أنت لا تؤمن ؟

فاوست : لا تسيئي فهم كلامي ، يا وضيئة الوجه! من ذا الذي يحق له أن يسمّيه ، وأن يقرّ قائلاً : «أنا أؤمن به»! ومن ذا الذي يشعر أو يتجاسر على أن يقول : «أنا لا أؤمن به»! وهو المحيط بالكل وهو

الحافظ للكل . أليس هو الذي يحيطك ويحفظك أنت ، وإيّاي ، وذاته هو ؟ أليست قبّة السماء قائمة هناك ، ألا تقوم الأرض ها هنا راسخة في أسفل ؟ ألا تتصاعد النجوم الخالدة رانية بمودّة ؟ ألا تتطلّع عينيَ في عينيك فيتدافع الى رأسك وقلبك كلّ شيء وينسج في سرّ خالد المرئي والخفيّ الى جوارك ؟ املأي بهذا قلبك ، مهما يكن عظيماً ، وحينما تنعمين تماماً في هذا الشعور فسمّيه حينئذ بماشئت من أسماء : سمّه : السعادة! القلب! الحبّ! الله! ليس عندي اسم لهذا! الشعور هو كلّ شيء ، أمّا الاسم فصوت ودخَان ، يغشّى بالضباب على لهيب السماء .

مرجريت : كلّ هذا جميل حقّاً وحسن ، والقسّيس يقول قريباً من هذا ، لكن بألفاظ تختلف قليلاً .

فاوست : تقول هذا في كل مكان كلّ القلوب تحت النور السماوي ، كلّ بلغته ، فلماذا لاأقوله أنا بلغتي ؟

مرجريت : مثل هذا الكلام يبدو لابأس به حين يسمعه المرء ، لكنّ فيه مع ذلك ما يثير القلق : إذ ليست لديك أيّة مسيحيّة .

فاوست : طفلتي العزيزة!

مرجريت : يؤلمني منذ وقت طويل أن أراك بصحبة...

فاوست : كيف ؟

مرجريت : ذلك الرجل الذي يصحبك بغيض جداً الى أعمق عمائق نفسي! في طوال حياتي لم يطعنّي في قلبي شيء أفظع من الوجه الكريه الذي لهذا الرجل .

فاوست : يا عروستي العزيزة ، لا تفزعي منه!

مرجريت : حضوره يجعل دمي يفور . وإلاّ فأنا طيّبة مع كلّ الناس ، لكن بقدر ما أشتاق الى رؤياك أشعر بفزع غريب أمام هذا الرجل! وبالإضافة الى ذلك أعتقد أنه وغد . وليسامحني الله إذا كنت له ظالمة!

فاوست : لكن لابد من وجود أمثال هؤلاء الغريبي الأطوار .

مرجريت : لا أريد أبداً أن أعيش مع أمثاله! إنه إذا جاء مرّة عند الباب ، تطلّع في الداخل متهانفاً ساخراً وشبه غاضب ، والمرء يلحظ أنه لايتعاطف مع

أي شيء . مكتوب على جبينه أنه لا يستطيع أن يحب أحداً . أمّا بين ذراعيك فإنني أشعر بأنني حرّة ، مطواعة دافئة ، لكن حين يحضر يتمزّق باطني .

فاوست : يا لكِ من مَلَكٍ مليء بالمشاعر!

مرجريت : الأمر يتغلّب عليّ الى حد أنه متى ما جاءَ إلينا أشعر بأنني لا أعود أحبّك . كذلك حين يكون حاضراً لا أستطيع أن أصلّي ، ذلك أنه يلتهم داخل قلبي ، لابدّ أن هذا هو شعورك أيضاً ، يا هينرش .

فاوست : أنت الآن تكرهينه .

مرجريت : عليّ الآن أن أذهب .

فاوست : أوّاه! أوَ لا أستطيع أبداً أن أتعلّق بصدرك مستريحاً طيلة ساعة وأن أدفع قلبي الى قلبك وروحي الى روحك ؟

مرجريت : أوّاه ، لو كنت أنام وحدي ، إذن لتركت الليلة الباب دون مزلاج ، لكنَ أمّي لا تنام نوماً عميقاً ، ولو ضبطتنا نحن الاثنين معاً ، لسَقَطَتُ أنا ميتّة في الحال!

فاوست : أيها المَلَك ، ليس ثمّ مشكلة . فها هي ذي قارورة صغيرة ، ثلاث قطرات منها فقط لو وضعت في شرابها لاستغرقت في نوم عميق يسرَ الطبيعة .

مرجريت : أي شيء لا أفعله من أجلك ؟ أرجو ألاّ تضرّها .

فاوست : هل كنت أنصح بها يا حبيبتي لو كان الأمر كذلك ؟

مرجريت : يا أحسن الرجال ، متى ما رأيتك لست أدري ماذا يحملني على إطاعة إرادتك ، لقد صنعت من أجلك الكثير بحيث لم يبق شيء تقريباً كيما أعمله .

(تخرج)

مفستوفيلس (يدخل)

مفستوفيلس : النسناس الصغير! هل ذهب ؟

فاوست : هل تجسّست مرّة أخرى ؟

مفستوفيلس : سمعت ما قيل بالتفصيل ، وكيف نال الدكتور نصيبه من الوعظ ، وأرجو أن تنال من وراء ذلك الخير . بيد أنّ الفتيات حريصات جداً

على أن يعرفن هل الشخص تقي وساذج على حسب العُرف القديم .
إنهنّ يظنّن : متى استسلم هناك ، فسيستسلم لنا نحن أيضاً .

فاوست : أيها الوحش! أنت لا تدرك كيف أنّ هذه النفس العزيزة المخلصة الممتلئة بإيمانها ، الذي يجعلها ـ هو وحده سعيدة ، تعنّى نفسها عناءً صادقاً ورعاً ابتغاء ألا تعتقد أنّ رجلها الأحبّ هو من الهالكين (في الجحيم) .

مفستوفيلس : وأنت أيها الطليق الحسّي مرّة ، الفوق حسّي مرّة أخرى ، إنّ بنتاً صغيرة صارت تقتادك من أنفك .

فاوست : وأنت ياوليد البراز والنار ، ياهُزَأة!

مفستوفيلس : وهي تفهم جيّداً في علم الفراسة : في حضرتي تتوسّم ـ ليست تدري كيف ـ أنّ قناعي ينبىء عن معنى مستور ، إنها تشعر بأنني جنّيً قطعاً ، وربّما أكون الشيطان نفسه . والآن ، هذا المساء ـ ؟

فاوست : ماذا يعنيك من هذا الأمر ؟

مفستوفيلس : إنّ لي في هذا أيضاً لمتعة!

عند الينبوع

جرتشن وليشن[١٦٤] Lieschen
(ومع كل واحدة منهما جرّة)

ليشن : ألم تسمعي شيئاً عن بير بلشن[١٦٥] ؟

جرتشن : ولا كلمة . فأنا قليلة الاختلاط بالناس .

ليشن : مؤكّد ، اليوم أخبرتني سبيله Sibylle أنّها أخيراً غرّر بها ، رغم كل غطرستها وخيلائها .

جرتشن : كيف ؟

ليشن : الرائحة فائحة! إنها تطعم اثنين حين تأكل الآن وتشرب .

جرتشن : واحسرتاه!

ليشن : أخيراً أصابها ما تستحق . فيا لطول ما تعلّقت بذلك الشخص! كانت

نزهات ، واصطحاب الى الأرياف وأماكن الرقص ، وكان لابدّ لها أن تكون الأولى دائماً ، وكان يغازلها دائماً بالفطائر والخمر . وتخيّلت في نفسها ما تخيّلت من جمال . ولم تصن كرامتها ، إذ لم تخجل من قبول الهدايا منه . وكانت ملاطفات ومداعبات : وإذا بالزهرة[١٦٦] تضيع .

جرتشن : يا للمسكينة!

ليشن : أترثين لحالها! بينما كنّا نحن ندير عجلة الغزل ، وفي الليل لا تسمح لنا الأم بالخروج ، كانت هي تتساقى كؤوس الغرام مع حبيبها ، وعلى المقعد عند الباب وفي الممشى المظلم لم يكونا يشعران بطول الوقت . والآن عليها أن تخفض جناح الكبرياء ، وأن ترتدي قميص الخطأة وتكفّر عن خطاياها في الكنيسة!

جرتشن : من المؤكّد أنه سيتّخذها زوجة له .

ليشن : سيكون حينئذ مجنوناً! إنّ فتى حركاً مثله لقادر على أن يجد متّسعاً في مكان آخر . وهو على كلّ حال قد رحل .

جرتشن : هذا ليس حسناً!

ليشن : ولو استطاعت الظفر به فسينالها السوء : الأطفال سيمزّقون اكليل العرس وسننثر نحن ذرّات التبن أمام بابها . (تخرج)

جرتشن : (عائدة الى بيتها) : كم كنت أشدّد النكير بثقة واعتزاز ، حينما تسقط في الخطيئة فتاة مسكينة! حتّى أنّي لم أكن أجد على لساني ما يكفي من الكلمات الموجعة لتقريع خطايا الآخرين! تلك الخطايا التي كانت تبدو لي سوداء بالغة السوء ، بل وسوادها غير كافٍ . وكنت أحمد نفسي ، وأتباهى وأختال ـ أمّا اليوم فقد أصبحت الخطيئة نفسها! ومع ذلك ، فإنّ كل ما دفعني الى هذا كان ـ وأيم الله! ـ حسناً جداً ، آه ، ومحبوباً جداً!

سور محصّن[١٦٧]

في مشكاة السور صورة «الأم الحزينة» وأمامها أصص أزهار .

جرتشن : (تضع أزهاراً نديّة في الأصص) : تلطّفي وتلفّتي بوجهك نحو محنتي ، أيّتها الغنيّة بالآلام!

بالسيف في قلبك وأنت تعانين آلاف الآلام
أنت تنظرين الى موت ابنك .
وتتطلّعين الى الأب
وتصعّدين الزفرات الى أعلى
رثاء لمحنة ابنك ومحنتك أنت .
من ذا يستشعر كيف يضطرم الألم في أوصالي ؟
ما يمزّق قلبي المسكين ويزلزله ، ومايتوق اليه
لايعرفه أحد غيرك ، غيرك أنت!
أينما أذهب فيا ويلي ، يا ويلي ، يا ويلي
ممّا يعتلج في قلبي ها هنا ،
وما أكاد أختلي بنفسي
حتّى أبكي ، أبكي ، أبكي
ويتحطّم قلبي .
الأصص أمام نافذتي
قد بلّلتها بالدموع ، أوّاه!
لمّا أن جئتك في الصباح الباكر بهذه الأزهار .
ولمّا سطعت الشمس مبكّراً في غرفتي
جلست في سريري مجلّلة بالغموم .
ساعديني! أنقذيني من العار والموت!
تلطّفي وتلفّتي بوجهك نحو محنتي ، أيتها الغنيّة بالآلام .

ليل

شارع أمام باب جرتشن

فالنتين Valentin : (جندي ، وهو أخو جرتشن) : حينما كنت أجلس في حفلة شراب حيث كان الكثيرون يتفاخرون ، ويصوغ الصحاب قلائد المديح لزهر الفتيات ، ويرطّبون الثناء بالكؤوس المترعة ، كنت أنا أجلس متكئاً

على كوع ذراعي وأنا في هدوء أمين وأستمع الى كل طرمذاتهم ، ثمّ أمسح على لحيتي مبتسماً وأمسك بالكأس المليئة في يدي وأقول : « كلٌّ على شاكلته! لكن هل يوجد في هذه البلاد كلّها من تشبه جريتلي[١٦٨] الصادقة السريرة ، أو من تستحق أن تناول أختي[١٦٩] الماء ؟ هنالك يتصاعد الهتاف بالثناء العريض ، ويصيح البعض : « هو على حق ، إنها زينة جنسها كله! » ويجلس المنتفجون (بمدح الأخريات) صامتين .

أمّا الآن! فأنا أشد شعري ، وأنطح الجدران برأسي! وكل لنيم خسيس صار من حقّه أن يسبّني بالكلمات الساخرة اللاذعة ، وأن يتغامز عليَّ استهزاءً وتهكّماً . وصار عليّ أن أجلس مثل مدين مفلس لأكون هدفاً لقوارص الكلام! وبودّي لو مزّقتهم جميعاً ، بيد أنّي لاأستطيع أن أصفهم بالكذب .

من القادم ؟ من المتسلّل الى هنا ؟ إن لم يخطىء ظنّي ، هما اثنان . إن كان إيّاه فسأمسك به من جلده ، ولن يغادر هذا المكان حيّاً .

فاوست . مفستوفيلس

فاوست : مثلما يتصاعد من نافذة مخزن الكنيسة لهب المصباح الأبدي ، ثمّ يتضاءل في الجوانب أضعف فأضعف ، وتتدافع الظلمه حوله ـ تكون الحال في قلبي إبان الليل .

مفستوفيلس : أمّا أنا فأصير كالقط النحيل الذي يتسلّل على سلّم الحريق وفي هدوء يتمدّد على الأسوار . وهنالك أشعر بالفضيلة ، الممزوجة بقليل من شهوة السارق ومن فجور الكبش . فتسري في كل أعضائي ليلة فالبورج الرائعة . إنّ موعدها بعد غد ، وهنالك يعرف المرء لماذا يسهر .

فاوست : أليس كنزاً هذا الذي يرتفع الى أعلى[١٧٠] وأراه يلمع هناك ؟

مفستوفيلس : عن قريب ستسرّ برفع هذا الكنز بنفسك . لقد نظرت فيه حديثاً ، فوجدت فيه دنانير أسدية[١٧١] رائعة .

فاوست : أليس فيها حليّ ، أو خاتم تتزيّن به حبيبتي ؟

مفستوفيلس : رأيت فيه ما يشبه ذلك ، رأيت نوعاً من عقد لآلىء .

فاوست : هذا عظيم! وإلاّ سيؤلمني أن أذهب اليها وليس معي هديّة .

مفستوفيلس : ينبغي عليك ألا تتضايق اذا أصبت متعة مجّاناً . والآن السماء مرصّعة بالنجوم ، فينبغي لك أن تسمع قطعة(١٧٢) فنّية حقيقية سأغنّي لها أغنية أخلاقية ابتغاء إغرائها حقّاً ويقيناً . (يغنّي بمصاحبة قيثارة) :

ماذا تفعلين يا كترينه
أمام باب الحبيب ،
هنا في الصباح الباكر ؟
دعيك ، دعيك من هذا!
ستدخلين اليه فتاة
لكنّك لن تخرجي من عنده فتاة .
خذي حذرك!
إن قضي الأمر
فسلام عليك!
أيتها المسكينة ، المسكينة!
إن كنتما في غرام
فلا تمكّني أي سارق
من نيل أي شيء عزيز
إلاّ إذا كان الخاتم في الإصبع!

فالنتين : (يظهر) بمن تغرّر هنا ، وحقّ العنصر!
يا صائد الفنران اللعين ،
الى الشيطان أو الآلهة!
ثمّ الى الشيطان بعدها المغنى!

مفستوفيلس : تحطّمت القيثارة ، ولم تعد تصلح لشيء .

فالنتين : والآن لابدّ من فَلقِ جمجمة!

مفستوفيلس : (مخاطباً فاوست) : سيدي الدكتور ، أثبت! انتبه! التصق بي ، وأتبعني حيث أقودك . هيّا امتشق خنجرك(١٧٣)! اهجم! وأنا أصدّ!

فالنتين : صدّ هذه!

مفستوفيلس : ولمَ لا ؟

فالنتين : وهذه أيضاً

مفستوفيلس : مؤكّد!

فالنتين : أعتقد أنّ الشيطان هو الذي ينازلني! ما هذا اذن ؟ ها هي ذي يدي مشلولة .

مفستوفيلس : (مخاطباً فاوست) صدّ!

فالنتين : (يسقط على الأرض) : أوّاه!

مفستوفيلس : الآن استكان هذا الجلف الشرس! وعلينا الآن الانطلاق! علينا أن نختفي فوراً ، فقد قام صراخ يدور حول القتلى . أنا أعرف جيّداً كيف أتعامل مع الشرطة ، أمّا مع القضاء الجنائي[١٧٤] فيعسر عليَ التخلّص .

مارتا : (من النافذة) : تعالوا! تعالوا!

جرتشن : (من النافذة) هاتوا نوراً!

مارتا : (من النافذة) إنهم يتشاتمون ، ويتقاتلون ، ويتصايحون ويتضاربون .

ناس : ها هو أحدهم قتيل .

مارتا : (وقد برزت) : والقتلة ، هل فرّوا ؟

جرتشن : (وقد برزت) : من الراقد هنا ؟

ناس : أخوك الذي من أمّك .

جرتشن : يا للعليّ القدير! أيّة مصيبة هذه!

فالنتين : إنّي أموت أقولها بسرعة ، وستصير واقعاً على نحو أسرع . لماذا تقفن هنا أيّتها النسوة ، وتصرخن وتولولن ؟ تعالين جميعاً واستمعن إليّ! (الكل يقترب منه) ياجرتشن ، انظري! أنت لا تزالين شابّة . ولست حصينة بدرجة كافية ، لقد أسأت تدبير أمورك . أقول لك بكل أمانة وثقة : أنت الآن قحبة ، فكوني أيضاً قحبة كما يجب!

جرتشن : أخي! يا إلهي! ماذا تعني بهذا ؟

فالنتين : اتركي الإله الرب خارج الموضوع! ماحدث قد حدث واأسفاه ، والأمور ستسير كما يمكنها أن تسير . لقد بدأت سرّاً مع شخص واحد ، وعن قريب سيأتيك كثيرون ، حتّى إذا تمّ عددهم الإثنى عشر

فستكون المدينة كلّها قد امتلكتك .

حينما يولد العار يأتي الى الدنيا سرّاً ، ويسحب على رأسه وأذنيه ستار الليل . نعم ، ويودّ المرء لو يقتله . لكنّه ينمو ويكبر ، ثمّ يسير في وضح النهار ، ومع ذلك لم يصبح أكثر جمالاً . بل كلّما كان وجهه أقبح كان نشدانه لنور النهار أقوى .

وإنّي أبصر حقّاً الوقت الذي سيصرف فيه كل أهل المدينة الشرفاء نظراتهم عنك . أيّتها القحبة . كما لو كنت جيفة معديّة . ولابدّ أنّ قلبك سيتمزّق في بدنك ، حينما ينظرون اليك! ولاينبغي لكِ بعد الآن أن تحملي سلسلة ذهبية! ولا أن تقفي أمام المذبح في الكنيسة! ولا أن تستمتعي بالرقص لابسة بنيقة محدّبة جميلة! بل عليك أن تختبئي في ركن شقاء مظلم بين الشحّاذين والمشوّهين . وحتّى لو غفر الله لك ، فستظلّين على الأرض هدف اللعنات باستمرار .

مارتا : ادْعُ الله ليلطُفَ بروحك! أتريد أن تضيف القذف الى ذنوبك ؟

فالنتين : لو كنت أستطيع أن أصيب بدنك الأعجف ، أيّتها القوّادة المطوّقة بالعار ، إذن لانتعش أملي في غفران ذنوبي وزيادة!

جرتشن : أخي! أي عذاب جحيم هذا!

فالنتين : أقول لك ، دعي هذه الدموع! أنت لمّا فقدت شرفك ، طعنت قلبي أقسى طعنة . وها أنذا أذهب ـ من خلال رقدة الموت ـ الى الله جنديّاً وشجاعاً . (يموت)

كاتدرائيّة

قدّاس[١٧٥] أرغن، وكورس غناء

جرتشن وسط العديد من الناس. روح شرّيرة وراء جرتشن

روح شريرة : « كم كان الأمر ، ياجرتشن ، بخلاف ما أنت فيه الآن . لمّا كنت وأنت لاتزالين ملأى بالبراءة ، تأتين الى المذابح وتتلين الصلوات من كتيّب عتيق ، وكان هذا بعضه لعب أطفال وبعضه إيمان

بالله من قلبك! أي جريشن! أين يقف رأسك ؟
وفي قلبك أيّة ذنوب ؟
أتصلّين من أجل روح أمّك التي بسببك أنت
مضت الى عذاب طويل طويل ؟
دم من هذا الذي أريق عند عتبة بابك ؟
- وتحت قلبك ما الذي يتحرّك وينتفخ(١٧٦)
ويقلقك ويقلق نفسه بحضوره المستسر ؟ » .

جرتشن : ويلي ، ويلي! هلاّ تخلّصت من الخواطر التي تحاصرني . ذاهبة آئبة وهي تؤنّبني!

الكورس : « يوم الغضب(١٧٧) ، ذلك اليوم الذي ينحلّ فيه العالم الى رماد » (بمصاحبة الأورغن)

الروح الشريرة(١٧٨) : الغضب يقبض عليك! نُفخ في الصور! واهتزّت القبور! وقلبك يرتعد ، بعد أن أعيد من سكون الرماد الى عذاب النار!

جرتشن : يا ليتني لم أكن ها هنا! يبدو لي كما لو كان الأورغن يكتم أنفاسي ، والغناء يمزّق أعماق قلبي .

الكورس : « ولمّا يجلس القاضي يظهر ما خفي ، ولا يبقى شيء دون انتقام » .

جرتشن : ضاق بي كلّ شيء! وأعمدة الجدران تحصرني! والقبّة تسحقني! الهواء!

الروح الشريرة : اختبئي! إنّ الخطيئة والعار لا يبقيان مخبوئين . الهواء ، النور ، ويل لك!

الكورس : « وماذا عساي أقول ، أنا الشقيّة ؟ وبأي وليّ أتشفّع إذا كان العادل يكاد يكون غير مطمئن ؟ » .

الروح الشريرة : الأرواح النورانية تشيح بوجهها عنك . والأصفياء يرتعدون من أن يمدّوا اليك أيديهم . ويل لك!

الكورس : « وماذا عساي أقول ، أنا الشقيّة ؟ » .

جرتشن : يا جارتي! هات قارورتك! (تصاب بإغماء)

ليلة فالبورج[١٧٩]

جبال الهارتس ـ شيركة وإلند(١٨٠) Schierke und Elned

فاوست . مفستوفيلس

مفستوفيلس : ألا تشتاق الى عصا مكنسة ؟ أمّا أنا فأودّ لنفسي كبشاً مصكّاً[١٨١] . فعلى هذا الطريق لانزال بعيدين عن الغابة .

فاوست : طالما بقيت أشعر بالنشاط في ساقيّ ، فتكفيني هذه العصا العقداء . ماذا يجدي اختصار الطريق! التسلّل في تيه الأودية ، ثمّ ارتقاء هذه الصخرة ، التي فيها ينحدر الينبوع في تدفّق أبدي ـ تلك هي المتعة التي توفّر أفاويهها أمثال هذه الطرق!
ها هو ذا الربيع يرنّق في أشجار البتولا[١٨٢] ، وحتّى الصنوبر الأحمر يستشعره . ألا ينبغي أن يؤثر في أعضائنا أيضاً ؟

مفستوفيلس : الحقيقة هي أنّي لا أستشعر أي شيء من هذا! بل أشعر بالشتاء في بدني ، وبودّي أن ألقي الثلج والصقيع على طريقي . كم هو محزن صعود القرص الناقص للقمر الأحمر مع توهّج متأخّر ، ويلقى ضوءاً رديئاً بحيث يصطدم المرء في كل خطوة بشجرة أو صخرة! اسمح لي أن أدعو يراعاً![١٨٣] هناك أبصر واحداً ، يتلهّف بلذّة وشغف . هلّم يا صديقي! هل لك أن تساعدنا ؟ ماذا ترجو من إحراق نفسك عبثاً ؟ تفضّل علينا وأنِرْ لنا ونحن صاعدان!

اليراع : إجلالاً لك أرجو أن أفلح في قهر طبعي السهل ، فإنّ طريقنا هو في العادة متعرّج .

مفستوفيلس : أي ، أي! إنه يحبّ أن يحاكي بني الإنسان . سرّ مستقيماً باسم الشيطان! وإلاّ نفخت وأطفأت حياتك المشتعلة .

اليراع : إنّي ألاحظ أنّك ربّ البيت ، وأريد الامتثال لأمرك لكن فكّر : إنّ الجبل اليوم مجنون سحراً ، وإذا كان على اليراع أن يدلّك على الطريق ، فعليك ألا تلتزم بإرشاداته بكل دقّة .

فاوست، مفستوفيلس، واليراع
في غناء متبادل[١٨٤]

ـ ١ ـ

في مجال الحلم والسحر دخلنا فيما يبدو
فاهدنا سواء السبيل وشرّف نفسك
حتّى نبلغ قُدُماً وعمّا قريب
الأماكن القصيّة المقفرة!

ـ ٢ ـ

انظر الأشجار وراء الأشجار
كيف تمرّ بسرعة ،
والقفاف[١٨٥] التي تنحني
وأنوف الصخور الطويلة
كيف تشخر[١٨٦] وتنخرَ وتهبّ!

ـ ٣ ـ

وخلال الأحجار والأعشاب
ينحدر الجدول والجُدَيْول مسرعاً
هل أسمع هزيماً! هل أسمع أناشيد ؟
هل أسمع شكوى[١٨٧] غرام رقيقة ،
هي أصوات لتلك الأيّام السماوية ؟
ما نرجوه ، وما نهواه!
والصدى يتردّد من جديد
كأنه اسطورة الأزمان القديمة .

ـ ٤ ـ

« أوهو! شوهو » : رنين يزداد قرباً
البومة والزقزاق والزرياب[١٨٨]
هل بقيت كلّها ساهرة ؟

هل يزحف السلمندر[١٨٩] في الأيك ؟
سيقان طويلة ، وكروش سمينة!
والجذور ، مثل الأفاعي ، تتلوى بين الصخور والرمال
وتمد أشرطة عجيبة لتخيفنا وتصطادنا ،
ومن عُقَد خشنة منتعشة بالحياة تمدّ
ما يشبه جراميز الأخطبوط نحو المارّة .
والجرذان بآلاف الألوان وعلى هيئة كتائب
تجري خلال الطحالب والمروج
والحباحب تطير في جماعات مكتظّة
مشوّشة الصحبة .

- ٥ -

لكن قل لي : هل تتوقّف ، أو تستمر في السير ؟
يبدو أنّ الكل ، الكلّ يدور ،
والصخور والأشجار تنفصّل وجوهاً ،
واليراع يتزايد وينتفخ .

مفستوفيلس : تمسّك بذيل ردائي بقوّة! فإنّ ها هنا قمّة وسطى منها يشاهد المرء مدهوشاً كيف يتوقّد الذهب[١٩٠] في الجبل .

فاوست : ما أغرب ما يلمع في الأعماق ضوء عكر لونه بلون الفجر! ويتسلّل الى المهاوي العميقة في الهاوية . هنا يتصاعد بخار ، وهناك ينتشر غبار ، وها هنا يلمع اللهب مع التراب وحجاب الضباب ، ثمّ ينساب مثل الخيط الرقيق ، ثمّ ينبثق كالينبوع . وهنا يتلوى في ساحة شاسعة بعروق عديدة خلال الوادي ، وهنا في الركن المحشور يتفرّد مرّة واحدة وهناك تتناثر شرارات في القرب مثل الرمل الذهبي المنثور . لكن أنظر : إنّ جدار الصخر في كلّ علوّهِ يحترق ويشتعل .

مفستوفيلس : ألم يضئ السيّد مامون[١٩١] قصره بمناسبة هذا العيد إضاءة فخمة ؟ إنها سعادة حقّاً أن تكون شاهدت هذا ، وإنّي لأستشعر حضور الضيوف الصخّابين .

فاوست : كم يزمجر الإعصار في الهواء! وأيّة ضربات يصبّها على قفاي!

مفستوفيلس : تشبّث بأضلاع الصخر العتيقة ، وإلاّ سقطت في قاع هذه الهاوية . ها هو ذا الضباب يغلّف الليل . تسمع القصف في أرجاء الغابة . واليوم يطير في فزع . تسمّع كيف تتشقّق الأعمدة[١٩٢] في القصور الدائمة الخضرة . حفيف الأغصان وتكسّرها! والإهتزاز القوي للجذوع! ودوي الجذور وتشقّقها![١٩٣] كلّها تتهاوى بعضها على بعض في حالٍ من الإختلاط المروّع ، وخلال الأخاديد المتهدّمة تصفّر الرياح وتعوي . ألا تسمع أصواتاً في الأعالي ؟ في الأقاصي ، والأداني ؟ نعم على طول الجبل يتدفّق غناء ساحر هائج!

الساحرات في كورس : أقبلت الساحرات الى البروكن . اللقاط[١٩٤] أصفر ، والبذر أخضر . هناك يحتشد جمع كبير ، ويتربّع فوقهم السيّد «اوريان»[١٩٥] . وهكذا يحدث على الحجر والعصا ، تفرط الساحرة ، ويفسو التيس .

صوت : باوبو[١٩٦] الهرمة تأتي وحدها ، راكبة على خنزيرة أمّ .

كورس : بجّلوا إذن من يستحقّ التبجيل! السيدة باوبو في المقدّمة لتقود الحشد . خنزيرة ماهرة وأمّ أيضاً ، فيتبعها كل حشد الساحرات .

صوت[١٩٧] : عن أي طريق أتيت ؟

صوت : عن طريق الزنشتين Ilsenstein! هناك شاهدت البومة في عشّها . فتطلّعت فيَّ بعينين!

صوت : أواه! اذهب الى الجحيم! لماذا تسرع في ركوبك هكذا!

صوت : لقد سحجتني[١٩٨] ، فانظري الى جراحي!

ساحرات ، كورس : الطريق واسع ، الطريق طويل ، ما هذا التدافع الجنوني[١٩٩] ... ، المكنسة تخدش ، والطفل يختنق ، والأم تفرقع .

رؤساء الساحرات نصف كورس[٢٠٠] : نحن نزحف مثل الحلزون في بيته ، والنساء كلّهن في المقدّمة . لأنه إذا كان الأمر أمر الذهاب الى دار الشر فإنّ المرأة تسبق اليه بألف خطوة .

النصف الآخر من الكورس : نحن لا نوافق على هذا تماماً : صحيح أن المرأة تخطو (الى دار الشرّ)

هنا ، يا دكتور ، تمسّك بي! باختصار ، دعنا نخلص من هذا الزحام ، هذا جنون حتّى بالنسبة الى أمثالك . هناك في ناحية جانبية يلمع شيء بضوء خاص جداً ، إنّ أمراً يجذبني الى هذه الخميلة . تعال ، تعال! سنندسّ فيها .

فاوست : يا روح التناقض! ليكن ، تستطيع أن تقودني . ومع ذلك أعتقد أنّك أحسنت صنعاً . نحن على البروكن في ليلة فالبورج نتجوّل ، وها نحن هذان نفضّل أن ننتحي جانباً ، اعتزالاً للحشد .

مفستوفيلس : انظر هناك ، يا لها من شعلات متعدّدة الألوان! تلك ندوة حيّة . في جماعة صغيرة لايكون المرء وحيداً .

فاوست : لكنّني أفضّل لو كنت هناك في أعلى(٢٠٥) هأنذا أشاهد توهّجاً ودخاناً يدور . وهناك تتدفّق الجموع الى الشرّير ، لابدّ أنّ كثيراً من الألغاز تحلّ هناك .

مفستوفيلس : وكثيراً منها أيضاً يعقد هناك . دع العالم الكبير يضجّ ودعنا نحن نمكث هنا هادئين . ثمّ مثل قديم يقول إنّ الإنسان يصنع عوالم صغيرة في العالم الكبير . هناك أرى ساحرات شبه عاريات ، وأخر عجائز تغطّي نفسها بمهارة . كن ودوداً معي ، من أجل خاطره : المجهود صغير ، والمزاح كبير . إنّي أسمع رنين آلات! ضوضاء لعينة! لكن لابدّ للمرء أن يتعوّد عليها . تعال معي! تعال معي! لاسبيل الى غير هذا ، سأبدأ العمل وأقتادك معي ، وأربطك بميثاق من جديد . فماذا تقول في هذا ياصديقي ؟ ليس هذا بالمكان الصغير . ما عليك إلاّ أن تنظر الى هناك . من العسير عليك أن ترى منتهاه . مائة نار تحترق في صفّ ، ثمّ من يرقص ، ومن يثرثر ، ومن يطبخ ، ومن يشرب ، ومن يعشق . خبّرني الآن إذن هل يوجد أحسن من هذا ؟

فاوست : هل ستقدّم نفسك هنا بوصفك ساحراً أو شيطاناً ، وأنت تقدّمنا اليهم ؟

مفستوفيلس : الحق أنّي تعوّدت جداً على أن أسلك طريقي وأنا مجهول الهويّة ، لكن في يوم احتفال لامانع من إظهار علامات مرتبتك . ربطة(٢٠٦) الساق لا تبرز مكانتي هنا ، لكنّ حافر الفرس له ها هنا شأن عظيم . أترى الحلزون(٢٠٧) هناك ؟ إنه زاحف إلينا . بوجهه الشمّام قد تعرّفني .

فحتّى لو أردت إخفاء نفسي ، فإنّي لا أستطيع . تعال إذن! سنمضي من نار الى نار ، أنا الخاطب وأنت طالب الزواج (مخاطباً بعض الجالسين حول فحم خامد) أيها السادة الشيوخ(٢٠٨) ، ماذا تفعلون ها هنا عند النهاية ؟ كنت سأثني عليكم لو وجدتكم في الوسط حقّاً ، محاطين بالعجيج ومرح الشباب ، فحسب كل امرىء مايعانيه في البيت من وحدة .

قائد حربي(٢٠٩) : من ذا الذي يستطيع أن يثق بالأمم ، مهما فعل من أجلها! فعند الشعب كما عند النساء الشباب هو دائماً ذو الحظوة .

وزير : الآن ابتعد الناس جداً عمّا هو حق وعدل ، وإنّي لأثني على الأزمنة الماضية ، ففيها كانت لنا المكانة ، فكان ذلك العصر هو العصر الذهبي حقّاً .

واصل(٢١٠) : لم نكن أغبياء حقّاً ، وفعلنا ما لم يكن واجباً علينا ، أمّا الآن فكلّ شيء قد دار وانقلب ، وكنّا نريد له أن يظلّ ثابتاً راسخاً .

مؤلف : من ذا الذي يجد اليوم على وجه العموم كتابة ذات محتوى بارع ولو كان معتدل البراعة! وفيما يتعلّق بالشباب العزيز فإنه لم يكن أبداً أشدّ وقاحة ممّا هو الآن .

مفستوفيلس : (وهو يبدو الآن عجوزاً جدّاً) : أشعر بأنّ الشعب قد صار ناضجاً ليوم الحساب ، وأنا أصعد جبل الساحرات لآخر مرّة ، ولأن غرارتي بدأت في النقاء ، فالعالم هو الآخر آيل للزوال .

ساحرة بائعة أشياء عتيقة : يا سادة ، لا تمرّوا هكذا عابرين! لا تدعوا الفرصة تفلت .
انظروا الى بضاعتي بانتباه : إنّ فيها العديد من الأنواع ، ومع ذلك فليس في دكاني ما يشبهه شيئاً على الأرض ، وليس فيه شيء لم يسبّب أضراراً بالغة للناس والعالم . لا يوجد هنا خنجر لم تتدفّق منه دماء ، ولا كأس لم يصبّ منه سمّ حارُ يستهلك أصحّ الأبدان ، ولا حلية لم تغو امرأة جديرة بالحب ولاسيف لم ينتهك ميثاقاً وحلفاً ، ولم يطعن خصماً من الخلف .

مفستوفيلس : أيتها السيدة الثرثارة ، أنت تسيئين فهم الزمن . ما فعل حدث ، وما

حدث فعل! تلمّسي الأمور الجديدة! فالأمور الجديدة هي وحدها التي تجذبنا .

فاوست : حتّى لا أنسى نفسي! أليست هذه سوقاً![٢١١]

مفستوفيلس : الدوّامة كلّها تسعى الى فوق : تحسب أنّك تسوق ، ولكنّك في الحق مسوق .

فاوست : ومن هذه ؟

مفستوفيلس : تأمّلها جيّداً! إنهّا ليلت[٢١٢] Lllith .

فاوست : من ؟

مفستوفيلس : الزوجة الأولى لآدم ، احترس من شعرها الجميل ، ومن تلك الزينة التي تنفرد بإتّخاذها! إنّها متى ما اصطادت بها شاباً ، فلن تدعه بعد ذلك يفلت من قبضتها .

فاوست : هناك تجلس اثنتان :امرأة عجوز وفتاة ، لابد أنهما رقصتا بما فيه الكفاية!

مفستوفيلس : اليوم لا مجال لأيّة راحة . سيبدأ الرقص من جديد . تعال ، ولنشارك فيه!

فاوست : (وهو يرقص مع الفتاة) : ذات يوم حلمت حلماً جميلاً : فرأيت تفّاحتين جميلتين تلتمعان ، اجتذبتاني ، فصعدت اليهما .

الجميلة : أنتم مولّعون جداً بالتفّاحات اللطيفة منذ أيّام المقام في الجنّة[٢١٣] . إنّي أهتزّ سروراً لأنّ حديقتي فيها مثلها .

مفستوفيلس : (يرقص مع الامرأة العجوز) : ذات يوم حلمت حلماً رهيباً : فرأيت شجرة مشقوقة ذات...[٢١٤] وكان[٢١٥]... ، لكنّ مع ذلك لذّ لي .

المرأة العجوز : أقدّم أحسن تحيّة الى الفارس ذي حافر فرس! وليتهيّأ للحصول على... ، إن لم يفزع من...

بروكتوفنطسمست[٢١٦] : يا لك من شعب لعين! كيف تتجاسرون على هذا ؟ ألم يبرهن لكم منذ وقت طويل على أنّ الشبح لا يقوم أبداً على أقدام عارية ؟ والآن أنتم مع ذلك ترقصون مثلنا نحن بني الانسان!

الجميلة : (وهي ترقص) ماشأن هذا الرجل ورقصتنا ؟

فاوست : (وهو يرقص) آي! إنه في كل مكان . مايرقصه الآخرون ، عليه هو أن يقدّره ، ويحكم عليه . وإذا لم يقدر على التكلّم عن كلّ خطوة ، فهذه الخطوة كأن لم تكن . ويتضايق خصوصاً إذا تقدّمنا الى الأمام . فإن أردتم أن تدوروا في الدائرة بالطريقة التي كان يسير عليها في طاحونته القديمة(٢١٧) ، فإنه يثني عليكم ، خصوصاً إذا ماحيّيتموه لهذا .

بروكتوفنطسمست : أنتم لا تزالون هنا! كلا ، هذا أمر لم يسمع به . زولوا! لقد قمنا بالتنوير(٢١٨)! إنّ عصابة الشيطان لا تحسب حساب أيّة قاعدة . نحن عقلاء ، ومع ذلك فإنّ الأشباح تظهر في تيجل Tegel . منذ وقت طويل وأنا أحاول تخليص الناس من هذا الجنون ، ومع ذلك لم يطهّروا منه ، إنّ هذا لأمر عجاب!

الجميلة : كفّ اذن عن إملالنا هنا!

بروكتوفنطسمست : أقول لكنّ في وجوهكنّ أيتّها الأرواح : إنّي لا أحتمل استبداد الأرواح! روحي لا تستطيع ممارسته .

(يستمرّون في الرقص)

أرى أنّي لن أفلح اليوم ، لكنّي أحمل دائماً معي نسخة من «الرحلة»(٢١٩) ولايزال يداعبني الأمل في أن أرغم الشياطين والشعراء قبل أن أخطو خطوتي الأخيرة .

مفستوفيلس : سيجلس فوراً في مستنقع(٢٢٠) : فتلك هي الطريقة التي بها يروّح عن نفسه . حتّى إذا ما تمتّع العلق بشرجه ، شفي من الأرواح والروح .

(مخاطباً فاوست الذي خرج من حلبة الرقص) لكن لماذا تركت الفتاة الجميلة تذهب وهي التي غنّت لك أثناء الرقص غناءً لذيذاً ؟

فاوست : أوّاه في أثناء الغناء وثب من فمها فأر أحمر .(٢٢١)

مفستوفيلس : هذا لاغبار عليه! وما للمرء أن يتضايق منه . يكفي أنّ الفأر لم يكن أغبر! ومن ذا الذي يحفل بهذا في ساعة غزل وغرام ؟

فاوست : ثمّ رأيت...

مفستوفيلس : ماذا ؟

فوست : يا مفستو ، أترى[٢٢٢] هناك طفلة جميلة شاحبة واقفة بعيداً وحدها ؟ إنها تتهاوى في مكانها ببطء ، ويبدو كما لو كانت تمشي وقدماها مغلولتان . وعليّ أن أعترف بأنّه يخيّل اليّ بأنّها تشبه جرتشن الطيّبة .

مفستوفيلس : دع هذه وشأنها! فليس من ورائها خير لأحد . إنها صورة سحرية ، ليس فيها حياة ، إنها صنم . الإلتقاء بها ليس من الخير في شيء : بنظرتها المتحجّرة هي تحجّر دم الإنسان ، ويكاد يتحوّل الى حجر ، لقد سمعت عن ميدوسا[٢٢٣] قطعاً .

فاوست : حقّاً ، إنهما عينا ميّت لم تغلقهما يد عزيزة . هذا هو الصدر الذي قدّمته إلي جريشن ، وهذا هو الجسم الحلو الذي تمتّعت أنا به .

مفستوفيلس : هذا كلّه سحر ، أيّها الأحمق السهل الإنخداع! إنه يتجلّى لكل انسان كما لو كان محبوبه .

فاوست : أية نشوة! وأي ألم! لا أستطيع أن أفارق هذه النظرة! إنه لابد لهذه الرقبة الجميلة أن يزيّنها حبل[٢٢٤] أحمر واحد ، ليس أعرض من ظهر السكّين!

مفستوفيلس : صحيح تماماً! وأنا أيضاً ألاحظ هذا . وهي تستطيع أيضاً أن تحمل رأسها تحت ذراعيها ، لأنّ برسيوس[٢٢٥] حزّ رأسها . أنت دائماً مولَع بالأوهام! تعال[٢٢٦] الى الرابية فهنا بهجة مثلما في بستان البراتر[٢٢٧] . وإذا كنت لا أزال في وعيي ، فإنّي أشاهد مسرحاً حقّاً . ماذا هناك إذن ؟

متطوع للخدمة : تبدأ على الفور التمثيل من جديد : مسرحيّة جديدة ، هي الأخيرة من سبع مسرحيّات ، فالعادة هنا هي تقديم الكثير . وقد كتبها هاوٍ ، ويمثّلها أيضاً هواة . اسمحوا لي ياسادة أن أذهب : فأنا أهوى[٢٢٨] أن أرفع الستار .

مفستوفيلس : أنا سعيد بأن أجدكم[٢٢٩] هنا على البلوكسبرج ، لأنّكم تنتسبون اليه .

حلم ليلة فالبورج[٢٢٠]

أو

الزفاف الذهبي لأوبرون وطيطانيا

فاصلة مسرحية

مدير المسرح : اليوم سنستريح يا أبناء ميدنج[٢٢١] الشهّام . جبل عالٍ ، واد رطب هذا هو كلّ المنظر .

هيرولد : كيما يكون الزفاف ذهبيّاً لابدّ أن يكون قد مرّ خمسون عاماً ، لكن إذا انقضى النزاع ، كان الذهب عندي أفضل .

أوبرون : إن كنتِ هنا ، أيتــهــا الأرواح ، فــاكــشــفي عن ذلك الآن في هذه الساعات ، إنّ الملك والملكة يجدّدان الآن رباط الزواج .

بوك : أتى بوك وها هو ذا يدور ويشحذ القدم على ترتيب ، ووراءه منة قادمون ، ليفرحوا ويمرحوا معه .

آريل : آريل يحرّك الغناء بألحان سماوية صافية ، وصوته يجتذب الكثير من الترّهات ، لكنه يجتذب الجميلات أيضاً .

أوبرون : أيها الأزواج الذين تريدون أن يتحمّل بعضكم بعضاً ، تعلّموا منّا! إذا كان على الزوجين أن يحب كلاهما الآخر ، فما على المرء إلاّ أن يفرّق بينهما .

طيطانيا : إذا تكشّر الزوج ، وطاشت الزوجة ، فابعثوا بها الى الجنوب ، وابعثوا به الى نهاية الشمال .

اوركسترا : الجميع (بقوّة شديدة) خرطوم الذبابة وأنف الفراشة مع أقاربهما ، ضفدعة في الخميلة وجدجد في العشب ـ أولئك هم الموسيقيّون!

صوت وحيد : (صولو) أنظر ، ها هي ذي قربة الموسيقى قادمة! إنها فقاعات صابون! اسمع : اشنك ، اشنك ، اشنك ـ من خلال أنفه الأفطس!

روح في دور التكوين : قدم عنكبوت وبطن علجوم ، وجناح صغير لمخلوق حقير! صحيح أنه لا يوجد حيوان حقير ، ولكن يوجد شعر حقير .

زوج صغير : خطوة صغيرة ووثبة عالية خلال الندى العسلي والعطور ، صحيح أنّك تدلف بما فيه الكفاية ، ولكنّك لا تصعد في الهواء .

مسافر مستطلع[٢٣٢] : أليست هذه مسخرة ؟ هل أصدّق ماتراه عيناي : أوبرون ، الاله النبيل ، أراه هنا اليوم ؟

شخص مستقيم العقيدة : لا مخالب ، ولا ذيل![٢٣٣] لكن لاشكّ في الأمر : مثله مثل آلهة اليونان ، هو أيضاً شيطان .

فنان شمالي[٢٣٤] : ما أتناوله هو اليوم على سبيل التخطيط فحسب ، بيد أنّي في تلك الأثناء أعدّ نفسي للرحلة الى إيطاليا .

حريص على نقاء اللغة[٢٣٥] : ساقني الى هنا سوء الحظ ، يا ويلتاه! كل شيء هنا ينحو نحو الفحشاء! ومن بين جيش الساحرات كلّه اثنتان فقط عليهما ذرور (بودرة) .

ساحرة شابة : الذرور هو مثل الجونلّة من أجل النسوة العجوزات المتغضّنات ، لهذا أجلس عارية على تيس وأكشف عن بدن خشن .

سيدة بيت : إنّ عندنا من حسن الشمائل ما يمنعنا من التنازع معك هنا ، لكن على الرغم من إنّك شابة وأنيقة فإنّي آمل أن يدب فيك العفن .

رئيس فرقة موسيقية : يا خرطوم الذبابة وأنف الفراشة لا تتطايرا حول العارية! وأنتِ يا ضفدعة في الخميلة وياجدجداً في اللعب التزما بالإيقاع!

وردة الرياح : (من ناحية) : جماعة كما يتمنّى المرء : عرائس لامعات حقّاً! وشبّان عزّاب حافلون بالآمال!

وردة الرياح : (من ناحية أخرى) : وإذا لم تنشقّ الأرض وتبتلع كلّ هؤلاء ، فإنّي أريد بوثبة عاجلة أن أقذف بنفسي في الجحيم .

اكسينيات[٢٣٦] : نحن هنا مثل حشرات ذوات إبر صغيرة حادّة كيما نمجّد الشيطان أبانا كما ينبغي له .

هننجس : انظر! كيف يمزحون في جمع مزدحم تسري فيهم السذاجة .
وسيقولون في النهاية أنّ قلوبهم طيبة .

موساجت[٢٣٧] : بودّي أن أضيع في حشد الساحرات هذا ، لأنّي أستطيع أن أقودهن
خيراً ممّا أقود ربّات الفن

عبقرية العصر
سابقاً : مع الناس الأكابر يمكن المرء أن يصير شيئاً . تعال ، أمسك طرف
ردائي! بلوكسبرج ، مثله مثل البرناسوس[٢٣٨] الألماني ، واسع
القمّة .

المسافر المستطلع : خبّروني ، من هذا الرجل المتكبّر المشدود[٢٣٩] ؟ إنه يخطو خطوات
تياهة ، وينخر على كل ما يستطيع أن ينخر عليه . «إنه يفتّش عن
اليسوعيين»!

كركي[٢٤٠] : يلذّ لي أن أصيد في الماء الصافي ، وكذلك في الماء العكر . لهذا
تشاهد السيّد التقي يختلط مع الشيطان أيضاً .

ابن الدنيا : نعم ، صدّقني ، عند الأتقياء كلّ شيء ذريعة ، وهم فوق البلوكسبرج
هنا يكوّنون اتحادات عديدة .

راقص : هل قادم من هناك كورس جديد! ؟ أسمع من بعيد قرع طبول . «لا
تنزعجوا! بين القصب يطلق البلشون[٢٤١] ألحاناً منسجمة» .

معلم رقص : انظر كيف يرجع كلّ واحد ساقه! وكيف يتخلّص قدر ما يستطيع!
الأعرج يقفز ، والسمين يتواثب ، ولا يتساءل كيف مظهره .

الموسيقار الغشيم : هؤلاء الرعاع يكره بعضهم بعضاً ويودّ كلّ منهم أن يفتك بالآخر .
وتجمعهم هنا قريبة الموسيقى مثلما كانت قيثارة أورفيوس[٢٤٢] تجمع
الوحوش .

دوجماتيقي[٢٤٣] : أنا لا أدع نفسي تسلك سبيل الضلال ، لا بالنقد ولا بالشكّ .
الشيطان لابدّ موجود ، وإلاّ فلماذا يوجد أيضاً شياطين ؟

مثالي[٢٤٤] : الخيال مسيطر على شعوري هذه المرّة سيطرة شديدة حقّاً إن كنت
هذا كله ، فإنّي اليوم مصاب بالجنون .

واقعي : الماهيّة[٢٤٥] تعذّبني ، وتبطرني ذرعي . وللمرّة الأولى لا أقف ها هنا
ثابتاً على قدميّ .

فوق طبيعي(٢٤٦) : أشعر هنا بسرور بالغ وأنا مسرور بهذه الأمور ، ذلك أنّي أستطيع أن أستدل من وجود الشياطين على وجود الأرواح الخيّرة .

شكّاك : إنهم يقتفون أثر الشعلة ويعتقدون أنهم يقتربون من الكنز . الشيطان والشكّ يبدآن بالحرف نفسه[٢٤٧] ولهذا أجد نفسي هنا في المكان المناسب .

مدير فرقة موسيقية : ضفدعة في الخميلة وجدجد في العشب ، أيّها الهواة الملاعين! خرطوم ذبابة وأنف فراشة ، وأنتم مع ذلك موسيقاتية!

البارعون : جميع المخلوقات المرحة يقال عنهم أنهم خالون من الهموم ، لم يعد هناك من يسير على قدميه ، ولهذا نسير نحن على رؤوسنا .

من لا عون لهم : حقّاً إنّا تطفّلنا واقتطفنا العديد[٢٤٨] ، أمّا الآن : فليساعدنا الله! أحذيتنا استهلكت من كثرة الرقص وصرنا نمشي حفاة الأقدام .

اليراع[٢٤٩] : نحن قادمون من المستنقعات ، التي منها نشأنا في البداية ، بيد أننا ها هنا في الصفوف ألمع الفتيان العاشقين .

شهاب : من الأعالي انطلقت في مظهر نجم ونار ، أمّا الآن فأنا أرقد في العشب ملتوياً فمن يساعدني لأقوم على ساقيّ ؟

الغلاظ : افسحوا ، افسحوا! وحوالينا! ولتهبط الأعشاب . الأرواح قدمت ، هم أرواح أيضاً ، ولكن أعضاءهم عظيمة[٢٥٠] .

بوك : لا تسيروا غلاظاً ثقالاً هكذا مثل صغار الفيلة . وليكن أثقلهم اليوم هو بوك ، هو نفسه ، هذا الغليظ الفظّ .

آريل : لو أعطتكم الطبيعة المحبوبة والروح أجنحة ، فاتبعوا آثاري الخفيفة الى رابية الورد[٢٥١]! .

اوركسترا : (بهدوء شديد) قطار السحب وحجاب الضباب تستضيئان من أعلى . الهواء في الخميلة والريح في القصب ـ وكلّ شيء تبدّد[٢٥٢] .

يوم مكفهرّ ـ حقل

فاوست . مفستوفيلس

فاوست : في الشقاء! يائسة! كل هذا الوقت الطويل شاردة في الأرض تستجدي الرحمة ، والآن سجينة! هذه المخلوقة النبيلة الشقية أغلق عليها في سجن تعاني فيه أبشع ألوان العذاب باعتبارها مجرمة! الى هذا الحد وصلت بها الحال! الى هذا الحدّ ـ أيّها الغدّار ، غير الجدير بأي تقدير ، وأخفيت هذا عنّي! قف مكانك ، قف! أدر حواليك عينيك الشيطانيّتين غيظاً في رأسك! قف وتحدّاني بحضورك الذي لا يطاق. سجينة! في شقاء لا سبيل الى الخلاص منه! أسلمت الى الأرواح الشريرة[٢٥٣] والى حكم بني الإنسان المجرّدين من كلّ شعور! وفي تلك الأثناء تهدهدني أنت بصوارف[٢٥٤] لا طعم لها ، وتخفي عنّي بؤسها المتزايد وتتركها دون معين نهباً للفساد!

مفستوفيلس : إنها ليست الأولى!

فاوست : يا كلب! يا وحش! ياكريه! ـ أيها الروح[٢٥٥] اللانهائي! حوّل هذه الدودة[٢٥٦] الى شكل كلب من جديد ، مثلما بدا لي ليلاً عدة مرّات ، وهو يعدو أمامي أنا السائر البريء ، أو يتكوّر عند قدمي . أو يتواثب على كتفيّ حين أهوى الى الأرض! حوّله من جديد الى صورته الأثيرة ، حتّى يزحف أمامي على بطنه في الرمل ، وأطأه بقدميّ ، هذا الخسيس! ـ «إنها ليست الأولى!» ياويلتاه! ياويلتاه! إنه لأمر يتجاوز تصوّر كلّ عقل إنساني ، إن أكثر من مخلوقة غرقت في أعماق هذا الشقاء ، وأن الأولى في محنة موتها القاصمة لم تكفّر عن خطايا الباقيات أمام عين الغافر الدائم! إن شقاء هذه الواحدة يسري في نخاعي وفي حياتي وأنت تتهافت راضياً عن مصير الآلاف منهن!

مفستوفيلس : ها نحن أولاء من جديد عند طرف ذكائنا ، حيث تتجاوزون يابني

الإنسان حدود الإدراك . لماذا إذن تصاحبنا ، مادمت لاتستطيع أن تتحمّل كل عواقب هذه الصحبة ؟ تريد أن تطير ، لكنّك تخشى من الدوار ؟ هل نحن الذين ارتمـينا عليك ، أو أنت الذي ارتمـيت علينا ؟

فاوست : لا تكشّر عن أسنانك الشرهة هكذا في وجهي! فهذا يثير اشمئزازي! وأنت أيها الروح العظيم الجليل ، الذي تفضّلت فظهرت لي ، أنت يا من تعرف قلبي وتعرف نفسي ، لماذا ربطتني برفيق العار الذي يتعيّش على الأذى ويتلذّذ بالإفساد ؟

مفستوفيلس : هل فرغت من كلامك ؟

فاوست : أنقذها! وإلاّ فالويل لك! واللعنة الهائلة عليك آلاف السنين!

مفستوفيلس : لا أستطيع أن أفكّ قيود المنتقم ، ولا أن أفتح مزاليجه . ـ « أنقذها » . ـ من ذا الذي ألقى بها في الفساد ؟ أنا أو أنت ؟

(فاوست يتطلّع فيه بشراهة)

مفستوفيلس : أتسعى للحصول على الرعد ؟ من حسن الحظ أن هذا الأمر غير متاح لكم أيها الفانون الأشقياء! هذه هي طريقة الطغاة ، حين يريدون الخلاص من الورطة : أن يسحقوا خصومهم الأبرياء .

فاوست : خذني الى هناك! لابدّ من تحريرها!

مفستوفيلس : والخطر الذي تعرّض نفسك له ؟ اعلم أنّ جريمة الدَم الذي أهرقته يدك لاتزال ترنّ بها المدينة! وفوق مكان القتيل تحلّق أرواح الإنتقام وتترصّد عودة القاتل .

فاوست : أمنك أسمع هذا ؟ ألا ليت عالماً من القتل والموت ينقضّ عليك أيّها الوحش! قدني الى هناك ، أقول لك ، وحرّرها!

مفستوفيلس : سأقودك الى هناك . والآن اسمع ماذا أستطيع أن أفعل . هل تظنّ أنّ لديّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض ؟ سأغشى على كلّ عقل السجّان ، وعليك أنت أن تأخذ منه المفاتيح ، وأطلق سراحها أنت مقتاداً إيّاها بيد الإنسان! وسأراقب ، إنّ الأفراس السحرية قد أعدّت ، وسأخطفكما هذا هو ما أقدر عليه .

فاوست : هيّا بنا على الفور!

ليل ـ حقل فسيح

فاوست، ومفستوفيلس (يركضان على فرسين أسودين)

فاوست : ماذا يصنعون هناك حول صخرة الغراب ؟

مفستوفيلس : لا أدري ماذا يطبخون ويعملون .

فاوست : إنهم يصعدون وينحطّون ، ويميلون وينحنون[٢٥٧] .

مفستوفيلس : إنه اجتماع نقابة الساحرات .

فاوست : إنهم ينثرون ويباركون[٢٥٨] .

مفستوفليس : تجاوزوهم! تجاوزوهم!

سجن

فاوست : (ومعه حزمة مفاتيح وبيده مصباح أمام بوابة حديدية) : تستولي عليّ رعدة لم أتعوّدها منذ زمان طويل ، وشقاء الإنسانية كلّها يأخذ بمخنقي . هنا هي تقيم ، وراء هذه الجدران الرطبة ، ومع ذلك فإنّ جرمها كان نزوة جميلة! أترتعد من الذهاب اليها ؟ أتخشى أن تلتقي بها ؟ هيّا! إنّ تردّدك يقرّب ساعة موتها ، (يمسك المغلاق . يسمع في الداخل غناء) :

أمّي القحبة قتلتني![٢٥٩]
وأبي النذل تلقّمني!
أختي جمعت عظمي
دفنته بمكان رطب
فتحوّلت الى طير أملح
وأطير دواماً وأطير

فاوست : (وهو يفتح الباب) : إنها لاتشعر أنّ حبيبها يتنصّت ، ويتسمّع صليل القيود ، وخشخشة القش .

(يدخل)

مرجريت : (وهي تختبئ في فراشها) : ويلي! ويلي! لقد جاؤوا[٢٦٠] . موت زؤام!

فاوست : (هامساً) صه! صه! جئت لإطلاقِ سراحك .

مرجريت : (تلقي بنفسها أمامه) : إن كنت ذا إنسانيّة ، فاعطف عليّ في محنتي!

فاوست : ستوقظين الحرّاس من نومهم! (يمسك بالقيود ويأخذ في فكّها)

مرجريت : (جاثية على ركبتيها) من الذي منحك ، أيها الجلاد ، هذه السلطة عليّ ؟ أنت تريد أن تأخذني في منتصف الليل . ارحم نفسك ، ودعني أعشْ . أليس الصباح الباكر موعداً مناسباً ؟ (تنهض واقفة) ومع ذلك فأنا لا أزال في ريعان الشباب ، نعم في ريعان الشباب! وينبغي عليّ أن أموت ؟! ثمّ إنّي كنت جميلة ، وتلك كانت مصيبتي . كان الحبيب قريباً ، والآن صار بعيداً . تمزّق الاكليل ، وتناثرت الأزهار : لاتقبض عليّ بشدّة هكذا! أبق عليّ! ماذا صنعت ضدّك ؟ لاتدعني أتضرّع عبثاً ، إنّي لم أرك من قبل في حياتي!

فاوست : هل أحتمل هذا الشقاء ؟

مرجريت : إنّي الآن مِلْك يديك . لكن دعني فقط أرضع ابني أوّلاً! لقد بقيت طوال الليل ألاطفه ، لكنّهم أخذوه منّي تعذيباً لي ، وهم يدعون أنني قتلته ، ولن أسعد بعد ذلك أبداً . وهم يتغنّون بالأغاني الساخرة منّي! هذا من الناس سلوك شرّير! إن أسطورة قديمة تنتهي هكذا ، فلماذا يطبّقونها عليّ أنا ؟

فاوست : (يجثو) حبيبك يحبو عند قدميك ، وقد جاء لإنقاذك من هذا الشقاء .

مرجريت : (تلقي بنفسها عليه) : لنركع ولندع القدّيسين! انظر ، تحت هذه الدرجات ، تحت العتبة ، يزفر الجحيم! الشرير ، في غضبة مروّعة ، يحدث ضجيجاً وعجيجاً!

فاوست : (بصوت مرتفع) : جرتشن! جرتشن!

مرجريت : (بانتباه) كان ذلك صوت الحبيب! (تثب واقفة . تسقط عنها الأغلال) أين هو ؟ لقد سمعته الآن ينادي . أنا حرّة! لا يستطيع أحد أن يمنعني . أريد أن أطير اليه ، وأن أرقد على صدره . لقد نادى : « جرتشن! » إنه واقف عند الوصيد .

وسط زفير الجحيم وصراخه ، ومن خلال السخرية الشيطانيّة الغاضبة النبرة العذبة الحبيبة .

فاوست : أنا هو!

مرجريت : أنت هو! قلها مرّة أخرى! (ممسكة به) إنه هو! إنه هو! أين مضت كلّ أحلامي ؟ أين ذهب رعب السجن ؟ والأغلال ؟ أنت هو! تعال ، لتنقذني! لقد أنقذت! وها هو ذا الشارع من جديد أمامي . الشارع الذي رأيتك فيه لأوّل مرّة ، وهذه هي الحديقة الساجية ، التي انتظرتك فيها أنا ومارتا .

فاوست : (وهو يحثّها على الذهاب معه) : تعالي معي! تعالي معي!

مرجريت : أوه! امكث! فإنّي أحبّ جداً أن تمكث معي .
(تغازله)

فاوست : أسرعي! إن لم تسرعي ، علينا أن ندفع عن هذا غالياً .

مرجريت : كيف ؟ ألم تعد تستطيع تقبيلي ؟ حبيبي ، افترقت عنّي فترة قصيرة ، فقط ، فهل نسيت التقبيل ؟ لماذا أنا قلقة وأنا أعانق رقبتك ، بينما كلماتك ونظراتك كانت منها تنزل عليّ السماء بأسرها ، وكنت تقبّلني كما لو كنت تريد أن تخنقني ؟ قبّلني! وإلاّ قبّلتك أنا! (تعانقه) يا حسرتاه! إنّ شفتيك باردتان ، صامتتان ، أين ذهب غرامك ؟ من التي تسبّبت لي في هذه الحال ؟ (تشيح بوجهها عنه)

فاوست : تعالي! اتبعيني! حبيبتي ، تشجّعي! إنّي أعشقك عشقاً ذا ألف لهيب ، ما عليك إلا أن تتبعيني! أتوسّل اليك في هذا فقط!

مرجريت : (إليه) أنت هو ؟ أواثق أنت من هذا ؟

فاوست : نعم أنا هو! تعالي معي!

مرجريت : أنت تفكّ قيودي ، وتأخذني في حضنك من جديد ، فكيف اذن لا تفزع منّي ؟ ـ هل تعرف جيّداً ، ياحبيبي ، من التي حرّرتها ؟

فاوست : تعالي! تعالي! لقد أوشك الليل على الإنقضاء .

مرجريت : لقد قتلتُ أمّي ، وأغرقتُ ابني . ألم يوهب اليك واليّ ؟ إليك أنت أيضاً! ـ أنت هو! أكاد لا أصدّق . هات يدك! هذا ليس حلماً! إنها يدك الحبيبة! ـ أوّاه ، ولكنّها مبتلّة! امسحها! يخيّل اليّ أنّ عليها دماً .

يا إلهي! أوّاه ، ماذا فعلت! ضع سيفك في غمده ، أتوسّل اليك .

فاوست : ما مضى قد مضى . أنت تعذّبينني .

مرجريت : كلاّ ، ينبغي أن تبقى حيّاً! سأصف لك القبور ، وعليك أن تعنى بها غداً صباحاً : أعط الأم أفضل مكان ، وإجعل أخي الى جوارها مباشرة ، أمّا أنا فادفنّي جانباً قليلاً ، لكن غير بعيد جداً! وضع طفلي عند ثديي الأيمن . ولا يرقدّن أحد أبداً الى جواري! أن ألتصق بجانبك كانت تلك سعادة حلوة بديعة! أمّا الآن فقد تغيّر الأمر ولا سبيل الى هذا بعد . إلاّ كنت كمن يريد أن يفرض نفسه عليك ولكنّك تردّني وتدفعني بعيداً . ومع ذلك فأنت هو ، ونظراتك طيّبة جداً وتقيّة .

فاوست : مادمت تشعرين أنني هو ، فهيّا تعالي معي!

مرجريت : الى أين ؟

فاوست : الى الحرّية .

مرجريت : إن كان القبر هناك ، والموت بالمرصاد ، فسآتي معك! من هنا الى الراحة الأبدية ، ولا خطوة بعد ـ هل أنت ذاهب ؟ ياهينرش ، هل أستطيع أن أذهب معك ؟

فاوست : نعم تستطيعين! ما عليك إلا أن تريدي! فالباب مفتوح .

مرجريت : ليس من حقّي أن أذهب . بالنسبة إليّ لا يوجد أيّ أمل . ماذا يجدي الهروب ؟ إنهم يترصّدون لي . من البؤس أن يضطر المرء الى التسوّل ، مضافاً اليه عذاب الضمير!
ومن البؤس أن يهيمَ المرءُ على وجههِ في الخارج ، ومع ذلك سيقبضون عليّ!

فاوست : سأبقى معك .

مرجريت : أسرع! أسرع! أنقذ الطفل المسكين! هيّا! هيّا نفس الطريق الصاعد الى الجدول ، فوق الجسر ، في داخل الغابة ، عن شمال حيث تقوم الألواح في البركة . أمسك به فوراً! إنه يريد أن يطفو ، إنه يتحرّك ، أنقذ! أنقذ!

فاوست : فكّري وتدبّري! خطوة واحدة فقط ، وتصبحين طليقة!

مرجريت : آه ، لو كنّا مررنا بالجبل! هناك تجلس أمّي على حجر ، الرعدة تسري

في جُمّة شعري! هناك تجلس أمّي على حجر وتهزّ رأسها ، هي لا تشير ، ولا تنحني ، ورأسها ثقيل ، نامت طويلاً ، ولن تسهر بعد . نامت لكي نستمتع نحن . لقد كانت أوقاتاً سعيدة .

فاوست : لا جدوى من التوسّل ، لا جدوى من الكلام . لهذا ينبغي عليّ أن أحملك بعيداً .

مرجريت : دعني! لا ، أنا لا أحتمل أيّ قهر! لا تمسك بي على هذا النحو القاتل! ألم أفعل من أجلك كلّ ما أحببته!

فاوست : النهار يتنفّس! يا حبيبتي! يا حبيبتي!

مرجريت : النهار! نعم . سيبزغ النهار! آخر نهار يجيء! كان ينبغي أن يكون يوم زفافي! لا تقل لأحد أنّك كنت عند جرتشن . واأسفاه على اكليلي! لقد مضى وولّى! سنتلاقى ، لكن ليس في الرقص . الجمهور يتزاحم ، لا يسمعهم أحد . لا المكان ، ولا الشوارع قادرة على احتوائهم .
الناقوس[٢٦١] ينادي ، العصا تنكسر . سيربطونني ويحزمونني! وهأنذى قد حملت الى كرسيّ الدم . وها هو ذا الحدّ الذي استلّ ليهوى على قفاي قد استلّ ليهوى على كل قفا . والعالم صامت صمت القبور .

فاوست : ألا ليتني لم أولد أبداً .

مفستوفيلس : (يظهر في الخارج) : هيّا ، وإلاّ ضعتما . تردّد لاجدوى منه! تعويق وثرثرة! أفراسي ترتعد ، والفجر بزغ .

مرجريت : ماذا يصعد من الأرض ؟[٢٦٢] إنه هو! إنه هو! اطرده! ماذا يريد في هذا المكان المقدّس ؟[٢٦٣] إنه يريدني!

فاوست : ينبغي أن تعيشي!

مرجريت : يامحكمة الله! عليّ أن أسلّم نفسي اليك!

مفستوفيلس : (مخاطباً فاوست) : تعال! تعال! وإلاّ تركتك وإيّاها!

مرجريت : إنّي عَبدَتُك ، أيها الأب! نجّني! ويا أيّها الملائكة[٢٦٤] ويا أيّها الجنود السماويّون ، عسكروا من حولي لتحفظوني! ياهنريش ، أنا خائفة منك .

مفستوفيلس : قضي عليها!

صوت : (من أعلى) نجّيت .

مفستوفيلس : (مخاطباً فاوست) تعال إليّ

(يختفي مع فاوست)

صوت : (من الداخل ، يخفت شيئاً فشيئاً) : هينرش! هينرش!

الهوامش

١ نظَم جيته هذا الإهداء في ٢٤/٦/١٧٩٧ ، وطبعه لأوّل مرّة في سنة ١٨٠٨ . ويتألّف من أربعة مقاطع ، كلّ واحد منها يتألّف من ثمانية أبيات من بحر الايامبو ذي الخمسة أقدام ، والقافية تجري على النحو التالي Abababee أي أنّ الأبيات ١ ، ٣ ، ٥ من قافية واحدة ، و٢ ، ٤ ، ٦ من قافية أخرى واحدة ، و٧ ، ٨ من قافية ثالثة واحدة .

٢ الأشباح العزيزة : مثل والده واخته كورنليا ، وسوزنا فون كلتنبرج ، ومرك Merck ولنتس Lenz .

٣ الحبّ الأوّل والصداقة الأولى : مثل جرتشن فرنكفورت ، وفردريكابريون في زيزنهايم ، وشرلوت بوفBuff ، وليلى شينمان من النساء - وبيرشBehriseh وكلنجر ، والكونتين فون اشتولبرج ، وياكوبي ، وكلوبستوك .

٤ صديقاه مرك ولنتس ، وكذلك أخته كورنليا وغيرهم من شجعوا جيته على كتابة «فاوست» وقد توفّوا جميعاً لمّا ظهر هذا الكتاب .

٥ مثل كلنجر وياكوبي .

٦ نظَمه جيته في نفس الوقت الذي نظّم فيه «الإهداء» ، وطبع في سنة ١٨٠٩ . وقد حاكى فيه استهلال المسرحيّة الهندية التي ألفها كليداسا وعنوانها «شكونتالا» ، وكان جيته قد قرأها في الترجمة الألمانية التي قام بها فوستر Forster ، في سنة ١٧٩١ .

٧ مدير أحد المسارح الجوالة ، ويذكر منها في زمان لسنج جماعة نويبرن Neuberin .

٨ لأنّ هذه المسارح الجوّالة كانت تقام بمناسبة الأعياد والأسواق السنوية ، لهذا تقام بالأعمدة وألواح الخشب .

٩ إشارة الى العبارة الواردة في انجيل متى (٧ :١٣) : «ادخلوا من الباب الضيّق» .

١٠ كان التمثيل يبدأ في الساعة السادسة مساءً ، لكن الجمهور كان يتزاحم على شبّاك التذاكر قبل ذلك بساعتين .

١١ إشارة الى ما استنكره لسنج من تقطيع المسرحيّات الكبيرة الى قطع مسرحيّة صغيرة حتّى تكون أيسر على فهم عامّة الجمهور .

١٢ في قصة «سنوات تحصيل فلهلم مايستر» لجيته يقول سرلو (إحدى الشخصيّات) فيما يتعلّق بإخراج مسرحيّة «هملت» : «إنّ المؤلفين هم الذين يرغموننا على هذا البتر المزعج ، والجمهور يسمح بذلك... أفلا يحقّ لنا أن نستفيد من هذه الفائدة ، ما دمنا نستطيع أن نعد من المسرحيّات المقطعة مثلما نعد من المسرحيات الكاملة ؟» .

١٣ كتب جيته الى شلر بتاريخ ٩/٨/١٧٩٧ يقول أنّ الصحف والقصص غالباً ماتلقى بالتشتت في التشتت . وكتب الى ملر في ٩/٣/١٨٢٥ عن «التشتت الخطير الناجم عن قراءة الصحف اليومية» .

١٤ جبل الأولمب في شمالي اليونان وفيه تقيم الآلهة اليونانية .

١٥ المناظر prospekte : أي المناظر في الخلف وفي الجوانب .

١٦ الكبير = الشمس ، الصغير = القمر .

١٧ يقول جيته في حديثه مع اكرمن بتاريخ ١٨٢٧/٥/٦ : «هذه ليست فكرة ، بل سير الأحداث . ـ ذلك لأنّ المسرحية تبدأ في السماء ، وتنتقل الى الأرض ، وكان جيته يريد أن يختمها ـ بحسب ما ورد في مسودات من سنة ١٧٩٧ وما بعدها ـ بخاتمة في العماء على الطريق الى الجحيم . لكنه لم يحقق هذا المشروع ، إذ ينتهي الجزء الثاني من «فاوست» بالتوجّه نحو السماء .

١٨ نظّمه جيته حوالي سنة ١٨٠٠ ، وطبعه سنة ١٨٠٨ . وقد استلهم فيه ما ورد في سفر أيوب من الكتاب المقدّس (١ : ٦ ـ ١٢) : «في اليوم الذي مثل فيه أبناء الله أمام يهوا ، كان الشيطان أيضاً من بينهم . هنالك قال يهوا للشيطان : «من أين قدمت ؟» ـ فأجاب : «كنت أجوب الأرض وأتجوّل فيها» . فقال يهوا : «هل لحظت عبدي أيوب ؟ إنه لا نظير له على الأرض : رجل أمين مستقيم ، يخشى الله وينأى عن الشر! «فردّ الشيطان قائلاً» : وهل أيوب يخشى الله لغير سبب ؟ ألم يحطه بسور ، كما أحاط بيته وضيعته ؟ لقد باركت كلّ أعماله ، وقطعانه تتكاثر في البلاد . لكن أبسط يدك وأمسس أمواله ، هنالك أقسم لك أنه سيلعنك في وجهك! » فقال يهوا للشيطان : «ليكن! ها هي ذي كلّ أمواله تحت سلطانك . لكن تجنّب فقط أن تبسط يدك عليه . «ثمّ انصرف الشيطان من حضرة يهوا» . وهذا هو الرهان بين الله والشيطان . وسيكون هو موضوع مسرحية «فاوست» ، ولكن في صورة أخرى .

١٩ مفستوفليس= الشيطان ، ابليس . واشتقاق هذا اللفظ غير معروف على وجه اليقين .

٢٠ بحسب مذهب فيثاغورس تجري الشمس والكواكب في مجاريها وتصدر عنها ألحان منسجمة (موسيقى الأفلاك) .

٢١ أو : حاشيتك . وهو يتهكم هنا على الملائكة بوصفهم حاشية الربّ .

٢٢ ينعته يعقوب بيمه ـ الصوفي الفيلسوف الألماني (١٥٧٥ ـ ١٦٢٤) ـ Jecob Boehme الانسان بأنه «اله صغير» ، وليبنتس leibniz يقول عن الإنسان أنه «اله صغير في جنسه» .

٢٣ الجندب (ويعرف في مصر باسم : النطاط) واسمه اللاتيني Cicada : حشرة تشبه الجرادة ولكنه أصغر منها حجماً ، وهو دائم التواثب والطيران في المزارع .

٢٤ ورد في سفر «التكوين» (٣ :١٤) . «على بطنك تزحفين ، وتراباً تأكلين طوال حياتك» .

٢٥ هي الحية التي أغرت حواء ، وهذه أغرت زوجها آدم ، بالأكل من الشجرة المحرّمة في الجنة .

٢٦ Schalk : فسّره جيته بأنه «الشخص الذي يسخر من غيره وهو هادىء يلذّ له الإضرار به» .

٢٧ الرب يوجّه الكلام الآن الى الملائكة .

٢٨ das Werdende : أي ما هو في تغيّر وتطوّر .

٢٩ الأبيات المائتان وخمسون الأولى ترجع الى أقدم أجزاء هذه المسرحية ، وقد نظّمها جيته في أواخر أيام مقامه في فرنكفورت .

٣٠ الطراز القوطي يتميّز بالعقود المدببة العالية ، وبالزجاج الملون في النوافذ .

٣١ يأسف على تضييعه جهوده في دراسة اللاهوت ، لأنّ موضوعات اللاهوت ليست ميسورة للمعرفة الإنسانية ولا للعقل الإنساني . ولهذا صار فاوست لايؤمن بجدوى دراسة اللاهوت ، كما يئس أيضاً من كشف أسرار العلم ، ومن الظفر باليقين عن طريقة دراسة الفلسفة . وإذن فقد صار يائساً من العلم كله .

٣٢ أي استحضار الأرواح من جن وشياطين ليتحقّق بواسطتهم ما لم يستطع تحقيقه بالعلم الوضعي واللاهوت ، ولكي يطلعوه على أسرار العالم الخفية .

٣٣ لفائف المخطوطات التي اسودّت من دخان المصباح قد علّقت في كلّ موضع على الجدران الى جانب رفوف الكتب .

٣٤ الآلات والأواني والقوارير المختلفة التي كان فاوست يستعين بها في إجراء عملياته في علوم الصنعة والكيمياء .

٣٥ Nostradmus هو الاسم اللاتيني لميشيل دي نوتردام (١٥٠٣ ـ ١٥٦٦) وهو منجّم فرنسي ، صار طبيباً ومارس الطب في أجان Agen وليون ، ألخ . لكنه بدأ التكهّن والتنبؤ حوالي سنة ١٥٤٧ . وصدرت له مجموعتان (سنة ١٥٥٥ ـ ١٥٥٨) من التنبؤات المصوغة في عبارات رمزية غامضة ، فاستطارت بهما شهرته . وقد نشر H.C. Roberts «مجموعه نبوآته» سنة ١٩٤٧ .

٣٦ أي ستصير روحك ذات نسب بروح الطبيعة .

٣٧ العالم الكبير أي الكون كلّه ، في مقابل العالم الصغير الذي هو عالم الانسان .

٣٨ أي في ندى فجر «معرفة أسمى» ، وقد سمّى يعقوب بيمه كتابه الأول في التصوّف باسم : «الفجر» (سنة١٦٣٤) .

٣٩ هذه الفقرة هي خلاصة كتاب نوسترادموس .

٤٠ كما يتعاطى مطفئو الحرائق الجرادل المملوءة بالماء ليطفئوا الحريق . وقد قرأ جيته وصفاً لسلم (النبي) يعقوب عند الطبيب الفيلسوف البلجيكي هلمونت (١٥٧٧ـ ١٦٤٤) . ورد فيه مايلي : «وهكذا تتنزل القوى الحية الجوهرية أو الأجساد الروحية للأنوار السماوية باستمرار من أعلى الى أسفل خلال الهواء الأثيري حتّى تصل الى العالم السفلي . كما لو كان ذلك من الرأس الى الأقدام ، وبعد ذلك ، بعد أن تنجز فعلها ، تتصاعد لمنفعتها هي ولإصلاحها من جديد من أسفل الى أعلى حتّى الرأس وتتحدَ بالرأس من جديد» .

٤١ أي أنَ العلامة (أو الرمز) تبقى دائماً علامة ، ومثلاً .

٤٢ أي ينابيع العلم والمعرفة ، إذ العلم في الصدور .

٤٣ إن الروح الانسانية الأرضية المحدودة لاتستطيع أن تحيط علماً بجوهر العالم كله وما فيه من انسجام . فلما استيأس فاوست من إدراك علامة العالم الأكبر ، راح يقلّب الصفحات كارهاً غير راضٍ لأنه كان يودّ لو استطاع تفسيرها .

٤٤ أي يجب عليك أن تظهري أمامي .

٤٥ كل روح لها فلكها وملكوتها . والساحر الذي يستحضر روحاً من الأرواح يرتضع على نحو ما ، من فلكها .

٤٦ يلاحظ أن جيته يستخدم كلمة : صدر Brust بمعنى : القلب ، العقل ، النفس ، الباطن ، الخ .

٤٧ Famulus وهو لفظ لاتيني معناه : خادم ، تابع ، كاهن في خدمه اله . لكنه يستخدم في لهجة التدريس العالي بمعنى : مساعد في خدمة الاستاذ في التعليم العالي .

٤٨ طالبَ اللاهوتي باردت Bahrdt ـ وهو من أنصار نزعة التنوير ـ في سنة ١٧٧٣ بأن يتولى الممثلون تعليم رجال الدين ، غير أن هردر في سنة ١٧٧٤ اعترض على هذا الرأي بشدّة .

٤٩ كلمة يونانية معناها الحرفي : مكان ربّات الفنون ، ومن ثمّ أطلقت على دار الآثار الفنية . وكان العلماء في أوربا حتّى أواخر القرن الثامن عشر يطلقون هذا اللفظ على الغرف التي يفرغون فيها للبحث والاطّلاع .

٥٠ حرفيّاً : «أحمق يقرع أجراساً بصوت عالٍ» ـ إشارة الى مايفعله الحمقى والممرورون الذين يلبسون قلانس فيها شخاشيخ صغيرة ، ويهزّون القلانس وهم يمشون ، فتصدر منها أصوات عالية .

٥١ حرفياً : «فيها تتماوج قطع (لخداع) الناس» اشارة الى ماتفعله النساء من وضع قطع من الورق الملمّع صعب[illegible] في ضفائرهمّ لحفظ تصفيفها .

٥٢ عبارة مشهورة تنسب الى أبي الطب : بقراط . وقد ذكرها الجاحظ في إحدى رسائله .

٥٣ أي كتب الأوائل ، وهي لايمكن الاطلاع عليها إلاّ بإتقان اللغات القديمة ، وهذا أمر شاق جداً .

٥٤ لولا شيوع هذا اللفظ لترجمناه : الورق الفرغاني ، نسبة الى فرغانة ، مدينة في آسيا الصغرى كان يصنع فيه

٥٥ إشارة الى ماورد في سفر «الرؤيا» ليوحنا اللاهوتي ، وهو آخر أسفار العهد الجديد من الكتاب المقدس أصحاح ٥ عبارة ١ـ ٢ : وشاهدت في اليد اليمنى لمن يجلس على العرش كتاباً ملفوفاً ، مكتوباً على [illegible] الوجهين ، ومختوماً بسبعة خواتم . وشاهدت ملكاً قوياً يصيح ملء صوته : «من هو الجدير بفتح الكتاب وكسر أختامه ؟» .

٥٦ وصف للمسرحيّات التي كانت تجري فيها أحداث سياسية هامة ، وتقلب فيها عروش ، ويصعد فيها [illegible] مشهورون ثمّ ينهارون ويقضى عليهم . وظلّ هذا اللون من الفن المسرحي يمارس طويلاً في مسارح العرائس (أو الدمى) في ألمانيا ، وقد هاجمه جوتشد Gottsched (١٧٠٠ ـ١٧٦٦) الاستاذ في جامعة ليبتسك .

٥٧ الأمثال العلمية الجيدة : أي الحكم التي يصفها جيته ساخراً بـ«الجيدة» ، وكانت تقال لتفسير الأحداث المعروضة .

٥٨ يشير فاوست ها هنا الى التعارض بين مجرّد معرفة الشيء وبين أن يحيا المرء الشيء من الباطن ويعيشه .

٥٩ يسوع المسيح صلب ، ويان هوس وسافونرولا وجوردانو برونو أُحرقوا ، والحلاّج صلب وأحرقت جثّته بالنار والسهروردي المقتول قتل في محبسه في قلعة حلب جوعاً ، الخ الخ .

٦٠ ينقسم الملائكة الى كروبيين (بالعبرية : كروبيم) وسرافيين (سرافيم ـ بالعبرية) .

٦١ يتمنّى فاوست أن يعرج الى السماء راكباً «عربة نارية» مثل النبي ايليا (الياس) بحسب ماورد في سفر الملوك (الثاني أو الرابع أصحاح ٢ عبارة ١١) .

٦٢ أي الموت .

٦٣ هي الخطينة الأصلية التي توراثها أبناء آدم ، بحسب عقيدة النصارى .

٦٤ الصيور : الصيرورة ، منتهى الأمر ومايؤول اليه .

٦٥ أي الفرح بالخلق والإبداع .

٦٦ مرتصفة Plan ، وبالفرنسية Parquet أي «بيست» للرقص مؤلف من ألواح مضمومة بعضها الى بعض .

٦٧ كانت الحروب مع الدولة العثمانية آنذاك ـ أي في القرن السادس عشر ـ قريبة من المانيا .

٦٨ واضح من كلامها أنه كانت قوّادة ، أو في القليل : خاطبة .

٦٩ هذا جوابها فيما يبدو على إشاحة الفتيات عنها ، وكأنها تريد أن تقول : أنا أعلم أنّكن لاتردن الكلام معي . أو التعرّف اليّ .

٧٠ في الخرافات الشعبية أن ليلة القدّيس أندريا (وتقع عشية ٣٠ ديسمبر) تهيئ حبيب المستقبل (أو الزوج) أمّا باللقاء به عياناً ، وأمّا تجلّيه في مرآة من البلّور مصقولة عند الساحرات .

٧١ فجنر يصحب فاوست في نزهة ، وهنا نرى التفاوت الشديد بين فاوست المشتاق الى احتضان الطبيعة وبين فجنر ، سوسة الكتب ، الذي يكره لقاء الطبيعة والناس .

٧٢ أي الذي يشبه في حجمه حب القمح .

٧٣ بياض الثلج الذي غطّى الأرض إبان فصل الشتاء .

٧٤ Giebel : السقف المسنّم ، أي الذي يشبه السنام .

٧٥ في المواكب الدينية في أيام أعياد معلومة حيث يحمل القربان المقدّس .

٧٦ معمل تجري فيه تجارب كيماوية وصنعوية وسحرية . والصنعة Alchimie هي تحويل المعادن الخسيسة (مثل الحديد والنحاس والرصاص) الى المعدنين الشريفين (الذهب والفضة) بواسطة مايسمّى باسم «حجر الفلاسفة» والصنعوي : هو من يمارس الصنعة . ووالد فاوست وفاوست كانا كلاهما صنعوياً .

٧٧ الاسد الاحمر= اكسيد الزئبق . ـ الزنبقة= حمض الهيدروكلوريك . وبوضعهما معاً في حمّام فاتر على نار هادئة يحدث ارتباط (مثل الزواج بين الرجل والمرأة ، أو بين الملك والملكة) . ثمّ يصبّ كلاهما معاً على نار قوية من معوجة (غرفة العرس) في معوجة أخرى . ومع استمرار تبخّر المواد الصلبة تتكون على جدران الزجاجة ترسبات ألوانها كألوان قوس قزح (الألوان المتعدّدة) . ونتيجة كل هذه العملية هي مقطّر يعتبر أنه «أرض عذراء» (الملكة الشابة بوصفها بنت الملك الأسد والملكة الزنبقة) . وبفضل هذا المقطر ينال المريض الشفاء . وفاوست لايرى فيه إلا سمّاً ، على الرغم من حسن القصد عند من حضروه .

٧٨ يقول جيته مايشبه هذا في الرسالة المؤرخة بالثامن عشر من أغسطس في الكتاب الأوّل من «آلام الفتى فرتر» ـ حين يقول : «كم تمنيت أن أستعير جناح الكركي الذي يطير فوقي لأطير به الى ساحل البحر الذي لانهاية له ، وأن أشرب من كأس اللامتناهي ذات الحبب ، وأن أشعر للحظة واحدة فقط في قوّة صدري المحصورة ، بقطرة من سعادة الذات التي تخلق كلّ شيء في ذاتها وبواسطة ذاتها» .

٧٩ ساحات الأجداد : المناطق السعيدة التي يقطن فيها الأجداد الذين صاروا أبطالاً .

٨٠ هذه الأمنية سيحققها له مفستوفيلس بعد قليل .

٨١ دعوة الأرواح المحلقة بين الأرض والسماء وماسيقوله فجنر بعد ذلك فيهما تهيئة لظهور مفستوفيلس .

٨٢ ريح الشمال تبعث بالثلج المدبب ، وريح الشرق تأتي بالجفاف القابض ، وريح الجنوب تأتي بلهيب الحمى ، وريح الغرب الخداعة تصبّ الأمطار الغزيرة المدمرة .

٨٣ كثيراً مايطيب للشيطان أن يظهر في شكل كلب . وكان عند فاوست كلب كبير أسود اللون ، كثيف الشعر ، وعيناه ترميان بالشرر ، وكان يسمّيه Prastigiar . ويقال أن لونه كان يتغيّر حين يمسح المرء على شعره ، وأنه كان في الأصل روحاً وعفريتاً .

٨٤ نظّم جيته هذا الفصل في سنة ١٨٠٠ ، طبعه في سنة ١٨٠٨ .

٨٥ أي القسم الثاني من الكتاب المقدّس ، ويشمل الأناجيل ورسائل بعض الحواريين وبولس .

٨٦ هذه العبارة هي أوّل مايرد في انجيل يوحنا (١ : ١) . وفاوست يرى أنّ لفظ «لوغوس» Logos لا يستطيع لفظ الكلمة الوفاء بترجمتها .

٨٧ هو كتاب تعزيمات سحرية لاستحضار الجن والعفاريت . والنبي سليمان يوصف في «التلمود» ـ وفي «القرآن» ـ بأنّ الجن سخّر له .

٨٨ تعزيمة الأرواح العنصرية الأربعة : سلمندر : هو روح النار (لأنه يقال أن السلمندر يبقى في النار ولا يحترق) ، واندين روح الماء ، وسولفا ، روح الهواء ، وكوبولد Koboed (أوIncubus) هو روح الجبل ، الذي يقوم على الكنوز ثمّ هو روح الأرض (التراب) بوجه عام . وهذه التعزيمة من صنع جيته ، ولا توجد في كتب السحر .

٨٩ علامة الصليب ، وعليها الحروف INRI (=يسوع الناصري ملك اليهود) .

٩٠ اللا مخلوق : على أساس أن الإنجيل يقول أن المسيح موجود منذ الأزل ، اللامسمّى : على أساس ما قيل عن المسيح بأنه لايفي به اسم .

٩١ هو بعلزبون عند الفلسطينيين وفي «العهد الجديد» من الكتاب المقدس (متّى ١٢: ٢٤ ، لوقا ١١ : ١٥ ، مرقس ٣ : ٢٢) ـ مفسد : ورد هذا الوصف في سفر «الرؤيا» (٩ :١) . ـ كذاب : ورد هذا الوصف في انجيل يوحنّا (٨ :٤٤) حيث ورد : «أنتم من الشيطان أبيكم . وكان قاتلاً منذ البداية ، ولم يستمسك بالحق ، اذ ليس فيه حق ، إنه حين يكذب ، فإنّما يكذب من أعماق ذاته ، لأنه كذّاب ، ولأنه أبو الكذب» .

٩٢ فيما بعد سيسمّيه فاوست : «الابن العجيب للعلماء» . وفي القسم الثاني من فاوست يسمّي الشيطان نفسه بأنه «الابن الأحب للعماء» . ذلك أن الأصل في الكون هو العماء (خاوس) Chaos وعنه نشأ الكون . والعماء ظلمة ، وابليس من الظلمة . وجيته يمزج ها هنا بين المعلومات العلمية وبين التصورات اللاهوتية .

٩٣ النجمة المخمّسة ★ : وترد كثيراً في كتب السحر ، وتستعمل في التعاويذ والتمائم . وتسمّى بالألمانية Drudenfuss (= قدم الجنّية) لأنها كانت تستعمل للتعوّذ من الجنّيات . ولاتزال تستعمل حتّى اليوم عند العامة لدرء الجنّيات عن اسطبلات المواشي ، وعتباب الأبواب ، وأسرّة الأطفال والكبار الخ...

٩٤ جمع سرع : وهو قضيب الكرم وسائر النباتات المعترشة .

٩٥ Mommon : لفظ عبري معناه : الكسب الدنيوي ، المال النقود ـ بوصفها معبودات .

٩٦ عبارة جميلة مشهورة ، وربّما كانت أشهر كلمات جيته تردّداً على ألسنة الناس . وخلاصة التعاقد بين فاوست وبين مفستوفيلس : إذ استطاع مفستوفيلس أن يقتاد فاوست خلال الشهوات الى الحد الذي عنده يتخلّى فاوست عن السعي الى الحقيقة ، ويبلغ به الرضا أن يقول لأية لحظة ، أو للحظة : «تلبثي فأنت رائعة الجمال» فإن عليه أن يسلّم قياده لمفستوفيلس .

٩٧ كان على الحاصل على الدكتوراه ، بعد اجتيازه الامتحان أن يقيم مأدبة للأساتذة والمعلّمين . ومفستوفيلس يريد أن يعمل كخادم لفاوست في هذه المأدبة .

٩٨ في الأساطير أن المواثيق مع الشيطان يجب أن تكتب بالدم .

٩٩ لأن الشاعر هو الذي يستطيع وحده بخياله أن يخلق هذا الانسان الكامل .

١٠٠ هي الأرض لايجف ثراها ولاينبت مرعاها .

١٠١ الطلاب الذين يدرس فاوست لهم .

١٠٢ لتلاميذك .

١٠٣ في هذا المنظر يقوم مفستوفيلس بدور استاذ عادي في البداية وبعد ذلك يبدي ملاحظات متهكّمة ، وفي الختام يعود الى نفسه ويلعب دور شيطان حقيقي .

١٠٤ راجع ذكريات جيته عن دروس المنطق التي تلقّاها في ليبتسك وذلك في كتابه «الشعر والحقيقة» قسم٢ ، فصل٦ .

١٠٥ الحذاء الاسباني كان أداة من أدوات التعذيب . وكان حذاء من حديد مزوّد بحابس أمامي وحابس خلفي وفي داخله أسنان مدببة ، ويشدّ هذا كله بقلاويظ محكمة .

١٠٦ شعلة صغيرة تنشأ عن تصاعد غاز (هيدروجين فسفوري) مشتعل تلقائيّاً Irrlichteliere .

١٠٧ لأنّ القوانين واللوائح التي صدرت في ظروف معينة تطبّق في ظروف أخرى مختلفة تماماً .

١٠٨ أي الحقوق الطبيعية للانسان مثل الحرّية ، المساواة ، الخ .

١٠٩ لقب : «دكتور» .

١١٠ نعام عين (بضم النون وفتح الميم) : أي افعل ذلك إنعاماً لعينك وإكراماً لك .

١١١ هذه عبارة وردت في سفر التكوين (٣ :٥) .

١١٢ العالم الصغير هو موضوع فاوست الأول ، والعالم الكبير هو موضوع فاوست الثاني .

١١٣ هذه الحانة كانت موجودة في ليبتسك وبهذا الاسم ، وكان جيته وهو طالب في ليبتسك يتردّد عليها .

١١٤ المعنى الحرفي : ضفدعة ـ لكن المعنى المجازي هو : طالب مبتدىء في الدراسة الجامعية .

١١٥ المعنى الحرفي : ثعلب أحمر ، فرس أحمر ، شخص أحمر الشعر ، والمعنى المجازي : طالب في الفصل الدراسي الثاني .

١١٦ المعنى الحرفي : شبيه بالغربال ، كثير الشرب مثل الغربال ، والمعنى المجازي : طالب قديم في الدراسة وسيصفه الثماير فيما بعد بأنه «حوشب وصحن أصلع» .

١١٧ أي : السيد العجوز .

١١٨ Bass أغلظ النغمات .

١١٩ الامبراطورية الرومانية المقدّسة للأمة الألمانية : لقب أطلق على الامبراطورية الألمانية منذ أواخر العصور الوسطى حتّى سنة ١٨٠٦ .

١٢٠ يعرت الشاة أو المعزى (من باب ضرب وحسب) تيعر يعاراً : صاحت .

١٢١ Blocksberg : اسم شائع لكثير من الجبال والقمم في ألمانيا خصوصاً جبل بروكن Brocken الذي يلعب دوراً كبيراً في الأساطير الشعبية باعتباره تسكنه الجنّيات ، وتقيم عليه حفلات في ليلة فالبورج وليلة يوحنّا ، فيها تجري ألعاب غريبة ورقصات .

١٢٢ مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) : المصلح الديني المسيحي الشهير ، مؤسّس المذهب البروتستنتي .

١٢٣ هذه الحكاية الأغنية إنما هي صياغة قام بها جيته لأغنية شعبية كانت شائعة في القرن السادس عشر .

١٢٤ الحوشب : الكبير الكرش .

١٢٥ لأنّ كثيراً جداً من الناس كانوا يأتون لزيارة ليبتسك إبان معرضها الشهير ، ولشراء الكتب وقد كانت آنذاك عاصمة طباعة الكتب والنشر في ألمانيا .

١٢٦ تعبير مستعار من الطب والعلاج ، ومعناه : سأعرف فوراً جليّة أمرها .

١٢٧ Marktschreier : ناس يصيحون لترويج بضاعتهم في الأسواق خصوصاً أدعياء الطب ، والدجّالون ، وكان فاوست الحقيقي التاريخي من هذا النوع .

١٢٨ يرد في الأساطير الشعبية أن الشيطان يعرج برجله اليسرى لأنها رجل فرس .

١٢٩ رباخ : قرية تقع بين ليبتسك وناومبورج ، وتدور حولها نكات ونوادر كثيرة مثل مدينة شلدا التي وصف نوادرها كتاب شعبي ظهر في سنة ١٥٩٨ ـ «هانز فون رباخ» : مثل يضرب على الفلاح الثقيل الذي يحشر أنفه في كلّ شيء ، ومفستوفيلس يرد عليهم هذه النكته بأن يصفهم بأنهم أبناء عم هذا الثقيل .

١٣٠ أغنية البرغوث هذه نظمها جيته للتهكّم بها على رجال الحاشية في بلاط الأمراء .

١٣١ قصع (من باب قطع) القملة بظفره أو بين ظفريه : قتلها . والضمير يعود على البرغوث وأقاربه .

١٣٢ Tokajer موضع في بلاد المجر (هنغاريا) يشتهر بكرومه وخموره .

١٣٣ مفستوفيلس مغتبط من تجلّي النزعة الحيوانية في الانسان .

١٣٤ المر Spaten (وبالفرنسية beche) ، والجمع : مرار ومرور : أداة يقلب بها التراب ، ويستعملها البستانيّون بدلاً من المحراث .

١٣٥ كان هناك اعتقاد خرافي مفاده أنه لو نظر الانسان من خلال غربال ، وهو في مكان حدوث السرقة ، ومع إجراء بعض الطقوس ، فإنه يستطيع تعرّف السارق .

١٣٦ مفستوفيلس يجعل فاوست يشاهد في المرآة السحرية صورة فاتنة لهيلانة الرائعة الجمال وفي عروض المسرحية تعرض لوحة تتسيانو : «فينوس راقدة» .

١٣٧ مفستوفيلس يخفي رجله التي هي رجل حصان في حذاء .

١٣٨ كان إله الشمال ، فوتان ، مصحوباً دائماً بغرابين .

١٣٩ الأشباح التي كانت تشاهد قبل ذلك في ألمانيا .

١٤٠ كان الشبّان ذوو السيقان النحيلة يلبسون بطون ركب صناعية لتضخيمها .

١٤١ النعت المعتاد للشيطان .

١٤٢ الرنك (بفتح الراء وسكون النون) ، فارسية معرّبة : رنك . ومعناها شارة الأسرة النبيلة من الأسلحة .

١٤٣ تهكّم على علم الأوفاق (أي السحر بالأعداد) .

١٤٤ سخرية من عقيدة التثليث المسيحية .

١٤٥ الدرجات الأكاديمية الرفيعة : ماجستير ، دكتوراه ، الخ .

١٤٦ أي على فاوست أن يتحرّك ، حتى يحدث الشراب مفعوله .

١٤٧ أي في ليلة اجتماع الشياطين والسحرة والعفاريت على جبال فالبورج (بلوكسبرج) ، وذلك في ليلة ٣٠ أبريل مساء الى غداة وآل مايو من كل عام . وسيكون لها فصل خاص في مسرحية فاوست فيما بعد .

١٤٨ هذه الأنشودة على فاوست أن يتغنّى بها بين الحين والحين ، وهي إمّا أنشودة غرامية أو تعزيمة سحرية ، ومن شأنها تقوية مفعول الشراب .

١٤٩ كوبيدون : اله الحب الجنسي الشهواني عند الرومان

١٥٠ هيلانة : في الأساطير اليونانية هي بنت زيوس من زوجته ليدا ، وأخت الديوسقوريين . وقد اختطفها ثسيوس في مطلع شبابها . وبعد عودتها من هذه المغامرة تزوّجت منلاوس ، ملك اسبرطة . وبعد ذلك أغراها باريس وحملها الى طروادة ، وكان هذا الحادث سببا في حروب طروادة ويضرب بها المثل في الجمال الخارق .

١٥١ امرأة مشمعلّة : كثيرة الحركة خفيفة نشيطة .

١٥٢ كرسي الاعتراف .

١٥٣ يقولها فاوست ساخراً متهكّماً .

١٥٤ Welsche : أجنبية ، وخصوصاً : إيطالية أو فرنسية . وسويسرة الفلشية هي القسم الناطق بالفرنسية في سويسرة .

١٥٥ هو هنا يخاطب الكرسي الذي جلس عليه كثير من الأفراد الذين مضوا وعانوا الآلام والمسرّات .

١٥٦ يتمعك : يتمرّغ . ردغة : وحل .

١٥٧ كان جيته قد نظّم هذه القصيدة في سنة ١٧٧٤ .

١٥٨ كناية عن وليدتها .

١٥٩ روح الأرض ، وهي التي يناجيها فاوست في هذا الفصل .

١٦٠ أي السيّد فاوست . والكلام هنا وفيما يتلوه في صيغة الغائب ، لكنه في الحقيقة موجه الى المخاطب .

١٦١ العلجوم : جنس من الضفدعيّات ، يقال له أيضاً : ضفدع الجبل .

١٦٢ جرتشن : تصغير لاسم مرجريت .

١٦٣ الاسم الأوّل لفاوست في اسطورة فاوست هو : يوهان .

١٦٤ تصغير اسم : ليزا Elisabeth وهذا بدوره تصغير اسم اليصابات .

١٦٥ تصغير اسم بربارة .

١٦٦ كناية عن البكارة .

١٦٧ Zwinger : المعنى الأصلي هو المكان المحصور بين السور الخارجي والسور الداخلي للمدينة أو بين المدينة والبيوت الأولى ، وكان يترك خاوياً لأغراض الدفاع عن المدينة . ولمواساة الجرحى كانت توضع في مشكاة السور صورة «الأم الحزينة» أي السيدة مريم وهي تبكي على ابنها يسوع ، وقلبها قد نفذ فيه سيف ، وهي تتطلّع الى الصليب وابنها مصلوب عليه ، أو الى السماء . وفي ذلك رسم لما قاله شمعون عند عرض الطفل يسوع في المعبد مخاطباً أمه مريم : «وأنت أيضاً سينفذ في نفسك سيف» . (انجيل لوقا ٢ :٢٥)

١٦٨ جرتيل : تصغير جرتشن ، تصغير مرجريت . والياء للمتكلّم .

١٦٩ أي تقوم على خدمتها ، أو تكون خادمة لها .

١٧٠ من الخرافات الشعبية أن الكنز يرتفع بمقدار خطوة ديك بعد ثلاث سنوات ، وبمقدار خطوة إنسان بعد سبع سنوات ويبين الموضع الذي خبّىء فيه بواسطة نور أو شعلة . وفاوست يريد أن يهدي هذا الكنز الى مرجريت .

١٧١ نقود فضّية متداولة في البلاد الواطئة المتحدة ، وقد ضربت منذ سنة ١٥٧٥ : وكان على وجهها : درع أسد ، وعلى ظهرها أسد ضخم .

١٧٢ هذه الأغنية ليست أخلاقية ، بل شهوانية ، والتحذير الموجه الى مرجريت في خاتمتها هو تهكّم . وهذه الأغنية محاكاة لأغنية أوفليا في مسرحية «هملت» لشكسبير (الفصل الرابع ، المنظر الخامس) . ولمّا ترجمها اشليجل Schlegel وضع اسم «القديسة كترينة») مكان «القديس فالنتين» («بحق زوجتي والقديسة كترينة») ، وهذا هيّأ الفرصة لوضع اسم Katrinchen في أغنية جيته هذه . أمّا المقطع الثاني من الأغنية فهو من عند جيته . وقد اعترف جيته في حديثه مع اكرمن (بتاريخ ١٨/١/١٨٢٥) بأنه أخذ المقطع الأول عن شكسبير ، وكان الشاعر الانكليزي لورد بايرن قد نبّه الى ذلك من قبل وأخذ على جيته أنه لم يذكر ذلك!

١٧٣ Flederwisch : المعنى الأصلي هو جناح الأوزّة الذي يستعمل لنفض التراب ، ثمّ استعمل بعد ذلك بمعنى «الخنجر» الذي «ينظف به» الانسان انساناً آخر .

١٧٤ Blutbann : سو حق حاكم البلاد في إصدار أحكام بالإعدام على رعيته . ولمّا كانت هذه الأحكام تصدر «باسم الله» فعلى الشيطان أيضاً أن يمتثل لها .

١٧٥ ربّما كان هذا القدّاس قدّاس الموتى لنجاة روح فالنتين .

١٧٦ إشارة الى الجنين الذي تحمله في أحشائها ، ثمرة إتصالها بفاوست .

١٧٧ هذه بداية نشيد ديني لاتيني عن يوم الحساب ، ويُرجّح أن مؤلفه هو الراهب الفرنشسكاني توما اتشلانو Celano .

١٧٨ الروح الشريرة : تجسيد لعذاب ضمير مرجريت . وكانت أمها قد توفّيت فجأة بعد عذاب طويل تسبب عن فضيحة بنتها ومصرع ابنها .

١٧٩ هذه الليلة تبدأ من مساء يوم ٣٠ أبريل وتنتهي في صباح أول مايو من كل عام . والأصل فيها هو أنه لمّا انتصرت المسيحية على الوثنية في البلاد الجرمانية انزل آلهة الجرمان القدماء الى مرتبة الجن والعفاريت والشياطين ، وحوّلت أعياد الأضاحي الوثنية الى أعياد للشيطان . ويلوح أن احتفال ليلة فالبورج كان في الأصل عيداً ليليّاً يقام على شرف آلهة الربيع أستارا Ostara . وكان البروكن Brocken أو جبل بلوك Block-sberg في قلب جبال الهارتس Harz جبلاً تقدّم عليه الأضاحي ، وبمرور الزمن ونظراً الى موقعه المتوسّط بين الجبال وصعوبة الوصول اليه صار موضعاً للاحتفالات الوثنية التي سمّيت «سبت الساحرات» Hex-ensabbat . والساحرات كنّ في الأصل هنّ الكاهنات لآلهة الجرمان . وقد تأثر جيته في وصفه لهذه الليلة هنا بلوحة منقوشة على النحاس صنعها ميكائيل هر Herr (١٥٩١ـ ١٦٦١) .

١٨٠ موضعان على الطريق الى جبل بروكن ، وقد عرّفهما جيته أثناء رحلة في الهارتس .

١٨١ مصك : قوي ، شديد الخلق .

١٨٢ Birke, Boulean, Betulla : جنس أشجار تنمو في الغابات .

١٨٣ اليراع (كسحاب) : ذباب يطير في الليل كأنه نار تلمع .

١٨٤ المفروض أن الثلاثة ينشدون معاً ، لكن صوت مفستوفيلس يبرز أقوى في المقطعين الأوّل والرابع ، وصوت فاوست في الثالث والخامس ، وصوت اليراع في الثاني .

١٨٥ جمع قف (بضم القاف وتشديد الفاء) : Klippe : جبل ليس بطويل في السماء ، فيه إشراف على ما حوله ، أو صخور عالية ، وتوجد أيضاً على شواطىء البحر فإذا اصطدمت بها السفن تحطّمت .

١٨٦ إشارة الى صخرتين في ذلك المكان تسمّيان : «الشاغرتين» ، والى هبوب الريح في الجبال .

١٨٧ يتذكّر فاوست هنا غرامه الضائع .

١٨٨ الزرياب Haher (بالألمانية) ، Jay (بالانكليزية) ، Geai (بالفرنسية : طائر كالغراب أصدأ اللون ، كثير التصويت ، ويسمّى أيضاً : قيق ، أبو زريق . ـ الزقزاق Kiebitz (بالألمانية) ، Vanneau (بالفرنسية) ، Lapwing (بالانكليزية) : طائر من طيور الماء .

١٨٩ Salamandre (بالفرنسية) ، molche (بالألمانية) : نوع من السحالي ، زعم القدماء أنه يدخل النار ولايحترق .

١٩٠ حرفياً : كيف يتوقّد «مامون» في الجبل ـ ومامون : Mammon : اله الثراء عند العبرانيين (راجع انجيل متّى ٦ :٢٤ ، لوقا ١٦ : ١٣) والكلمة آرامية وانتقلت الى اليونانية .

١٩١ في «الفردوس المفقود» للشاعر الانكليزي ملتون أن مامون يقدّم الى الشيطان قصراً تلمع فيه عروق نارية .

١٩٢ جذوع الأشجار ذات الأوراق الإبرية .

١٩٣ الناجم عن اقتلاع الأشجار .

١٩٤ اللقاط : مايبقى بعد حصاد القمح في الأرض .

١٩٥ اسم الشيطان باللغة الألمانية الدنيا .

١٩٦ Baubu : هي ظئر الاهة الأرض ديميتر ، وتظهرها هنا بوصفها ساحرة هرمة . ولهذا يطلب منها أن تقود حشد الساحرات .

١٩٧ كل هذه الأصوات مختلفة .

١٩٨ أي قشرت جلدي وهي مارة بسرعة .

١٩٩ شوكة العظام . ومعظم الكلام هنا لغواً لامعنى له .

٢٠٠ الساحرات ذوات المظاهر «الرجولية» .

٢٠١ عند بحيرة صخور النقد يجلس النقاد المخفقون الذين ينقدون كل شيء ويدينونه ، بينما هم أعجز مايكونون عن أن ينتجوا شيئاً . وكم لقى جيته وشلر من أمثال هؤلاء ، وما أكثرهم في هذا العصر الذي نعيش فيه خصوصاً في البلاد العربية .

٢٠٢ نموذج للقليل العبقرية والهاوي العاجز الذي لايستطيع أن يجاري العباقرة الحقيقيين .

٢٠٣ بحسب المعتقدات الشعبية كانت الساحرات ، قبيل الحج الى البروكن ، يدهنّ بطون أقدامهن وآباطهنّ بمرهم الداتوره . وبذلك كنّ يحصلن على القدرة على الطيران .

٢٠٤ Voland : باللغة الألمانية الوسطى = مغوي ـ وهو لقب الشيطان

٢٠٥ بدافع حب الاستطلاع الملازم له ، يود فاوست أن يكون في أعلى حيث يتربع الأمير الأعلى للجحيم ، على عرش الشيطان في ديوان الشيطان القائم على البروكن ، وحيث تعرض الساحرات أمامه أفظع ممارستهن وفنونهنّ .

٢٠٦ وسام ربطة الساق هو أرفع وسام في انكلترا .

٢٠٧ الحلزون رمز لمن يشيدون بالزمان الماضي ويسخرون من الزمان الحاضر .

٢٠٨ أي : الرجعيّون .

٢٠٩ هنا نماذج (قائد حربي ، وزير ، واصل) من عصر الثورة الفرنسية لأناس تركوا فرنسا ولجأوا الى المانيا ، فكانوا ساخطين على الثورة الفرنسية وأعمالها .

٢١٠ Parvenu هو الشخص الذي نال بسرعة ودون استحقاق مركزاً رفيعاً في الدولة أو المجتمع .

٢١١ سوق كبيرة تقام كلّ عام فيها يبتاع المرء أشياء عديدة من كلّ نوع ، عرف جيته هذا اللون من الأسواق في بلدة فرانكفورت ، وخصوصاً في ليبتسك وسوقها شهيرة لاتزال تقام كلّ عام حتّى الآن .

٢١٢ اسم عبري معناه : «ليليت» (وربّما جاء منه الاسم العربي ليلى) ، وفي المنقول الربّاني عند اليهود إنها كانت زوجة آدم الأولى ، لكنها انفصلت عنه بعد نزاع ، وصارت شيطانة تفتن الشباب وتنصب لهم الحبالات والفخاخ .

٢١٣ اشارة الى قصة آدم وحواء في الجنة ، وكيف أن حوّاء أغرت آدم على الأكل من شجرة محرّمة عليهما هي شجرة تفّاح في أكثر التفاسير شيوعاً (راجع سفر التكوين ٣ :٦) .

٢١٤ إشارة الى عضو التأنيث في المرأة ، وقد ترك جيته مكانه ثلاث شرط .

٢١٥ ترك جيته مكانه شرطة ، وعلى القارىء أن يتخيّل الوصف الناقص! وكذلك الأمر في الشرط التالية .

٢١٦ roktophantasmist : كلمة صنعها جيته من الكلمتين اليونانيتين : بروكتوس ، است وفنطسما : شبح وأضاف اليهما اللاحقة الدالة على معنى : متخصّص ، مشغول بكذا ، ألخ . وهو يقصد منه فريدرش نيكولاي Nikolai (١٧٣٣ـ ١٨١١) وكان كاتباً وصاحب مكتبة ، وعدّ نفسه زعيم «عصر التنوير» وقد أصدر في سنة ١٧٩٩ رسالة عن الأشباح . وقد هاجمه جيته وشلر في اكسنياتهم Xenien هجوماً لاذعاً مرّاً . وعلى الرغم من أنه هاجم كل الخرافات ، فإنه زعم ، مع ذلك ، أنه شاهد في تيجل Tegel بالقرب من برلين أشباحاً للموتى ،

وألقى في ٩فبراير سنة ١٧٩٩ محاضرة في هذا الموضوع . وكعلاج ضد رؤية الأشباح غير المرغوب فيها أوصى بوضع علق طبّي على فتحة الشرج!

٢١٧ يقصد جيته مجلة «المكتبة الألمانية العامة» التي كان يصدرها نقولاي ، وكان يورد فيها آراءه ويكرّرها باستمرار ، لهذا شبهه جيته بفرس يدور باستمرار في طاحونة .

٢١٨ لها عينان : (ا) أن تسود روح (شبح) عصر التنوير ، (ب) أن تسود الروح (العقل) وكلاهما تهكّم بنيقولاي .

٢١٩ إشارة الى كتاب نيقولاي : «وصف رحلة في ربوع المانيا وسويسرة» ويقع في إثنى عشر مجلّداً ، وهو ممل جداً . والمعنى المقصود هنا هو أنني سأدرج الآن هذه الزيارة الى جبل بلوكسبرج ضمن كتابي هذا .

٢٢٠ حيث يوجد العلق .

٢٢١ بحسب الخرافات الشعبية فإنّ روح الساحرات النائمات تخرج من أفواههن على هيئة فأر أحمر وتتجوّل في العالم ، لكن قبيل استيقاظهن تعود من جديد فتدخل أفواههن . أمّا عند الموت فإنها تخرج من الجسم على شكل فأر أغبر .

٢٢٢ فاوست يتكهّن بمصير جرتشن .

٢٢٣ ميدوسا Medusa : كانت واحدة من الجورجونات الأخوات ، وكانت النظرة منها تحيل المنظور الى حجر .

٢٢٤ علامة من احتزّت رؤوسهم وعادوا الى الحياة .

٢٢٥ Perspus ابن زيوس والدانايات ، الذي احتزّ رأس ميدوسا بمنجل الإله هرمس مستخدماً مرآة الآلهة أتينا تجنّباً لنظرة ميدوسّا .

٢٢٦ يريد مفستوفيلس الآن أن يصرف فاوست عن ذكرى جرتشن .

٢٢٧ بستان واسع حافل بالملاهي في مدينة فيينا لايزال قائماً حتّى اليوم .

٢٢٨ الأمر كله هواية في هواية ، حتّى رفع الستارة!

٢٢٩ أي : الهواه . وجيته يكره الهواة ولهذا يقول أنهم ينتسبون الى عالم الشيطان ، أي فليذهبوا الى الجحيم!

٢٣٠ نظّم جيته هذه الفاصلة خلال سنة ١٧٩٧ في أعقاب نظم «الاكسينيات» وفكر أولاً في نشرها في العدد التالي من مجلة Musenalmanach التي كان يصدرها شلر . لكن لمّا كان شلر قد أرجأ نشرها الى العدد التالي ، فقد تبيّن لجيته أن موضعها الأفضل هو في «فاوست» . وكان يهدف الى اتباع هذه «الفاصلة المسرحية» بمواصلة ليلة فالبورج في مناظر يلعب فيها الشيطان أدواراً عديدة . لكنه أضرب عن هذه الفكرة ، وهكذا بقي «حلم ليلة فالبورج» غير مرتبط بمجرى الأحداث في «فاوست» .

وقد استلهم جيته في هذه الفاصلة مسرحية «حلم منتصف ليلة صيف» لشكسبير ، كما استلهم خصوصاً أوبريت : «أوبرون ، ملك العفاريت» تأليف فرانتسكي Wrantsky الذي عمل جيته على عرضها في مسرح فيمار سنة ١٧٩٦ ، وتنتهي بزواج اوبرون من طيطانيا . ومن مسرحية «حلم منتصف ليلة صيف» أخذ جيته شخصيّة Puck ، ومن مسرحية «العاصفة» لشكسبير أيضاً اقتبس شخصية آريل Ariel روح الهواء الصديق لبني الانسان وفي هذه الفاصلة يتوالى الممثّلون وراء بعض ومختلطين بعضهم ببعض ، على طريقة المسرح الرومنتيكي .

٢٣١ كان يوهان مارتن ميدنج Mieding وهو واضع وصانع مناظر المسرح في مسرح الدولة في فيمار الذي كان جيته مديراً له ، وكان لجيته نعم عون .

٢٣٢ المقصود به : نقولاي .

٢٣٣ كلام المستقيم العقيدة يقصد به الكونت فريدروش ليوبولد فون اشتولبرج Stolberg الذي نشر سنة ١٧٨٨ في مجلة «المتحف الألماني» مقالاً نقدياً عنوانه «خواطر عن قصيدة شلر : آلهة اليونان» .

٢٣٤ لا يستطيع الفنّان الشمالي على جبل بلوك إلا أن ينشىء تخطيطات ، ولابدّ له من الرحلة الى أيطاليا والاطّلاع على ما فيها من آثار الفنون القديمة ليتعلّم كيف يبدع روائع فنّية .

٢٣٥ المقصود به هو Campe.

٢٣٦ Xenien : من الكلمة اليونانية Xenion= هدية الضيف . وهو اسم أطلقه جيته وشلر على قصائد مثنويات سخرا فيها من خصومهما النقّاد الأدبيين ، وكان ينشرانها في مجلّة Musenalmanach («تقويم ربّات الفن») لسنة ١٧٩٧ . وكانت لاذعة رغم تبدّيها في شكل بريء .

٢٣٧ Musaget (= قائد ربات الفنون) : والمقصود به هو أوجست فون هننجز (١٧٤٦ ـ ١٨٢٦) الذي هاجم في عامي ١٧٨٨ ، ١٧٩٠ مجلتي شلر : «الساعات» و «تقويم ربات الفنون» ، وذلك في مجموعة شعرية بعنوان : «الموساجت ، مرافق عبقرية العصر» .

٢٣٨ Parnassus : سلسلة جبال في اليونان ، وكان مقدّساً لأبولون وربات الفنون .

٢٣٩ المقصود هنا أيضاً نيقولاي وكان ، بوصفه رجل تنوير ، يستهزىء (ينخر) بالكاثوليكية .

٢٤٠ المقصود به هو اللاهوتي والكاتب الشهير لافاتر Lavater من زيورخ (١٧٤١ ـ ١٨٠٢) ويقول عنه جيته في حديثه مع أكرمن أنه «كان مزدوج الطبيعة : كان طيّباً ، لكنه في الوقت نفسه خدع نفسه وخدع الآخرين ، وكان سلوكه سلوك كركي» . والكركي ـ ويعرف أيضاً بالغرنوق ، والدهو ـ طائر كبير أغبر اللون أبتر الذنب طويل العنق والرجليين مثل أبي قردان .

٢٤١ المقصود بالبلشون (وهو طائر مائي تصدر عنه ألحان حزينة) : الفلاسفة الذين يتنازعون دائماً حول مسألة واحدة هي : «هل توجد أرواح ؟»

٢٤٢ موسيقار ومنشد يوناني أسطوري كان بغنائه وعزف قيثارته يجتذب الحيوانات المتوحشة بل والأشجار والصخور ، وكان في الأصل إلاهاً تراقيّاً قديماً .

٢٤٣ أي : شخص متعصّب لمعتقداته متشدّد فيها ، حريص على توكيدها ، دون برهان عقلي .

٢٤٤ المثالي : هو الذي يرى أن العالم الخارجي من صنع عقولنا نحن وتصوّراتنا . وربّما كان جيته يشير هنا الى يوهان جوتليب فشته Fichte (١٧٦٢ ـ ١٨١٤) .

٢٤٥ الماهية : مايجعل الشيء هو هو ، والواقعيّون ينكرون أن يكون للماهيات وجود حقيقي ، ويقرّرون أن ما يمكن إدراكه بالحس والتجربة هو وحده الحقيقي .

٢٤٦ هو من يؤكّد وجود الأمور فوق الطبيعة وهي الأمور التي تجاوز الحس والطبيعة مثل الكائنات العليا ، الله ، والموجودات الإلهية .

٢٤٧ في الأصل الألماني : الشيطان Teufel يسجع مع الشكّ Zweifel ، فحاولنا إيجاد ما يناظر هذا تقريباً في العربية .

٢٤٨ هم رجال الحاشية والمنافقون المتملّقون لأصحاب السلطان ، الذين ظفروا ـ بغير جدارة ، بعض المنافع ، ثمّ ما لبثوا أن غضب عليهم وطردوا من نعيم أصحاب السلطة .

٢٤٩ هم الذين كسبوا من الثورة وصاروا في الطليعة ومراكز القوى ، مع أنهم جاءوا من أخس الطبقات ، ومن أرذل الأصول .

٢٥٠ المقصود بهم : الجماهير التي تريد الحط من كل ما هو رفيع مادّياً ومعنوياً .

٢٥١ في «اوبرون» تأليف فيلند نجد أنّ قصر العفاريت يقوم على رابية ورد .

٢٥٢ بناء على إشارة آريل طارت جماعة الأرواح الى رابية الورد . وعلى موسيقى هادئة قبيل تنفّس الصباح اختفت أشباح فالبورج كلها .

٢٥٣ عذاب الضمير ودوافع اليأس .

٢٥٤ مثل تلهية بليلة فالبورج .

٢٥٥ روح الأرض التي تجلّت له في المشهد الأوّل من المسرحية .

٢٥٦ وصف للشيطان . ولايظهر مفستوفيلس على شكل كلب إلا في المشهد الثاني ، ولم يكن ذلك ليلاً بل عند بداية المساء .

٢٥٧ مثل القسّيس أمام المذبح .

٢٥٨ مثلما يحدث في القدّاس مَن نثر البخّور ورشّ الماء المقدّس على الحاضرين .

٢٥٩ هذه الأغنية مأخوذة من اسطورة Machandelboom ، وقد أوردها جرم Grimm في المجموعة التي نشرها بعنوان «أساطير الأطفال والبيت» . وبهذه الأغنية يتغنّى الطفل القتيل . ومرجريت هنا تفكّر في ولدها الذي قتلته .

٢٦٠ مرجريت لم تتعرّف فاوست ، بل تظنّ أن الجلاد جاء لتنفيذ حكم الإعدام فيها .

٢٦١ كان من المعتاد حين تنفيذ حكم الإعدام في شخص أن يقرع الناقوس الحزين إيذاناً بذلك ، ثمّ تكسر عصا بيضاء فوق رأس المحكوم عليه علامة أن حياته قد قضي بإعدامها ، ثمّ يربط المحكوم عليه في كرسي الدم .

٢٦٢ تعرّفت مرجريت أنه مفستوفيلس ، وسرعان ما أحسّت من جديد بالفزع منه ، كدأبها دائماً أمامه .

٢٦٣ في نظر مرجريت أنّ السجن «مكان مقدّس» لأنه يعني في نظرها الكفارة عن الذنوب ، مثل المحكمة تماماً .

٢٦٤ اشارة الى ماورد في المزمور رقم ٣٤ عبارة ٨ «ملك الرب سيعسكر حول من يخشونه وسيخلّصهم» .

فاوست

النص المسرحي

«٢»

الفصل الأول

بقعة بهيجة[١]

فاوست : يرقد على مرج مفوف بالأزهار ، وهو في حالة الاعياء والقلق ينشد النوم .

شفق

جماعة من الأرواح[٢] : تتحرك محلقة ، أشكال صغيرة مرحة

آريل[٣] : (غناء ، مصحوب بعزف على الهارب[٤]) :

حينما تتساقط الأزهار كمطر الربيع
وهي تحلق فوق جميع الأشياء ،
وحينما ترف البركة الخضراء للحقول
على كل أبناء الأرض ،
فان جماعة الأرواح من العفاريت الصغار
تهرع الى حيث تستطيع أن تساعد ،
وتشفق على الانسان البائس ،
بَرّاً كان أو شريرا .

وأنتم ، يا من تحلقون حول هذا الرأس في دائرة هوائية ، تجلوا هنا وفق سلوك العفاريت النبيل : لطفوا صراع القلب المرير ، وأبعدوا سهام التأنيب[٥] المسمومة الملتهبة ، وطهروا باطنه من الفزع المُعانَى! أربعة هي أقسام الليل ، فاملؤوها الآن دون تلكؤ بالمودة[٦] .

أرقدوا رأسه أولا على وسادة رطبة ، ثم أحمُّوه في ندى من فيض الليثية[٧] .
وسرعان ما تصير الأعضاء المتصلبة مرنة ، حين يسترد قواه لمواجهة النهار ، أنجزوا أجمل واجبات العفاريت ، وأعيدوا اليه النور المقدس!

الكورس : (مفرد ، ومثنى ، وكثيرون ، على التبادل ، ومجتمعين) :

حين يمتلئ الهواء بالنسيم العليل
حول هذه البقعة المحاطة بالخضرة ،
يسدل الشفق عطورا زكية وحجابا من الضباب
ويهمس بالسلام الرقيق العذب
ويهدهد القلب في راحة الطفولة .
ويغلق باب النهار أمام عيون هذا المنهوك .
وها هو ذا الليل قد أرخى سدوله
وتوالى النجم في أثر النجم على نظام قدسي ،
الأنوار الكبيرة ، والشرارات الصغيرة
تلمع عن قرب وفي البعد ،
تلمع هنا في البحيرة وقد انعكست عليها
وتلمع هناك في الليل الساجي
وضوء القمر الباهر يسود
مُصدقا لنعيم الراحة البالغة العمق .
ها هي ذي الساعات ولَت
واختفى الألم والهناء ،
استشعر هذا ، تُشْفَ!
وثق بطلعة اليوم الجديد!
الأودية تخضوضر ، والروابي تنتفخ
والخمائل تمتلئ بسكون الظلال
وفي الأمواج الفضية المترجحة
تسري سنابل قمح الحصاد

تمنّ تحقيق الأماني
وتأمل في اللمعان هناك!
أنت مقيد بقيود رقيقة
إن النوم قشرة ، فاقذف بها بعيدا .
لا تتوان عن التجاسر
حين يتردد الجَمع فَرَقا :
النبيل يستطيع أن ينجز كل شيء
اذا فهم وبادر مسرعا .
(ضجيج هائل يعلن عن مقدم الشمس)

آريل : استمعوا الى عاصفة الساعات![٨]
ولد اليوم الجديد ، وهو يرنّ في آذان الروح .
أبواب الصخر تصرّ وتعجّ
وعجلات فيبوس[٩] تدور في ضجيج
يا لها من ضوضاء يحدثها النور!
قرع طبول ونفخ أبواق
وعيون تبرق وآذان تصطك
والأمر العجيب لم يعد يسمع عنه .
انزلقي الى تيجان الأزهار
واسكني في أعمق أعماقها في سكون
وفي الصخور وتحت الخمائل!
فان أصابكم الأمر صرتم صُماً .

فاوست : نبض[١٠] الحياة يخفق في انتعاش حيّ ، متأهبا لتحية الفجر الأثيري في رقة ، وأنت ، أيتها الأرض ، كنت أيضا راسخة هذه الليلة ، وها أنتِ ذي تتنفسين بنشاط عند قدمي ، وقد بدأتِ في الاحاطة بي في شهوة ، أنت تثيرين في نفسي عزما قويا على السعي الدائب نحو الوجود الأسمى .
وها هو ذا العالم قد تفتح في ضوء الفجر ، والغابة ترنّ بآلاف أصوات الحياة . ومن الوادي والى داخل الوادي تنساب أشرطة الضباب .

وصفاء السماء ينزل في الأعماق ، والفرع والغصن يستردان الحياة وينبثقان من الهاوية المظلمة التي رقدا فيها . واللون تلو اللون يخلص صافيا من الأرض ، حيث الورق والزهر يرتعدان بقطرات الندى . وأيما ولَيت وجهي من حولي أبصرت فردوسا .
تطلع الى أعلى! إن ذرى الجبال الهائلة تعلن عن أفخم ساعة ، وينبغي لها أن تستمتع مبكرا بالنور الأبدي ، الذي سيهبط الينا نحن فيما بعد . والآن سيضفي لألاء جديد وصفاء على مروج الألب الخضراء .
وخطوة فخطوة يصل الضوء . ها هي ذي الشمس تتقدم! لكنها جَهَرتْني ، ويا أسفاه ، وعليّ أن أصرف عنها وجهي وقد نفذ الألم في عيني .
وهذا هو ما يحدث حين تؤمل ونشتاق الى شيء وتشق طريقك الى تحقيقه وتظن أنك منه قريب . فتجد أبواب التحقيق مفتوحة على مصاريعها . والآن تنطلق من تلك الأصول الأبدية مزيد من اللهيب ، يلفحنا ، كنا نريد إيقاد شعلة الحياة ، فأحاط بنا بحر من النار ، وأيَ نار! أهي حب ؟ أهي كراهية ؟ يُحدقان بنا في اشتعال ، مع ألم وسرور هائلين على التبادل ، حتى أننا ننظر من جديد الى الأرض ، ابتغاء أن نحمي أنفسنا بقناع مفرط في الشباب .
فلتبقَ الشمس اذن في ظهري! إني أتأمل بمزيد من الافتتان مسقط المياه وهو يشق الصخور في ضجيج . وها هو ذا يدور من سقوط الى سقوط متدفقا في آلاف وآلاف من التيارات ، وفي الهواء تَنُش[١١] الرغوة تلو الرغوة .
لكن من هذه العاصفة ما أروع أن تنعقد قوسُ قزح ذات الألوان العديدة وهي حينا مرسومة بصفاء ، وحينا آخر منسابة في الهواء ، دائمة التغير ، ومن حولها ينتشر رشاش رطب عطر ، وهذا يعكس سعي الانسان . ففكر فيه جيدا تفهم على الأدق أن حياتنا تقوم في البريق ذي الألوان[١٢] .

قصر الامبراطور

قاعة العرش

مجلس الدولة (في انتظار قدوم الامبراطور)

نفخ أبواق

الحاشية : (من كل نوع في ثياب فاخرة ، تدخل)

الامبراطور : (يجلس على العرش ، وعن يمينه المُنجّم) .

الامبراطور : السلام على المخلصين ، الأحبّاء ، الذين تجمّعوا من الداني والقاصي . أرى الحكيم الى جانبي ، أما المجنون فأين هو ؟

نبيل : لقد سقط على السلم وراء ذيل ردائكم ، فحملوه بعيدا بوزنه الثقيل ، ميتا أو سكران ؟ لا أحد يدري .

نبيل ثان : وفي الحال وبسرعة عجيبة اندفع مكانه شخص آخر . إنه يلبس ثيابا فاخرة ، ولكنه هولة من الهول[١٢] حتى ليدهش منه كل أحد ، وقد أوقفه الحرّاس عند العتبة برماحهم المتقاطعة ـ لكن ها هو ذا ، الأحمق الجسور .

مفستوفيلس : (وهو يجثو أمام العرش) : من هو المكروه ولكنه دوماً مرحّب به ؟ من هو المرغوب ولكنه دوماً مطارد ؟ من هو المدافع عنه دوماً ؟ ما الموبّخ بشدة وهدف للاتهام ؟ من الذي ينبغي عليك ألا تدعوه ؟ من الذي يطيب لكل انسان أن يسمع ذكره ؟ من الذي يقترب من عرشك ؟ من الذي نفى نفسه بنفسه ؟

الامبراطور : هذه المرّة وفّر عليك الكلام! إن الألغاز لا تليق بهذا المكان ، هذا شأن هؤلاء السادة . حُلّ لغز نفسك ، فهذا ما أريد سماعه . أخشى أن يكون مجنوني القديم قد مضى بعيدا في الأقاصي ، احْلل مكانه ، وتعال الى جانبي!

(مفستوفيلس يصعد الدرج الى العرش ويقف عن يسار)

لغط الجمهور : مجنون جديد ، متاعب جديدة . من أين جاء ؟ كيف دخل هنا ؟

ـ انهار المجنون القديم ـ قضى عليه ـ كان الأول برميلا . أما الجديد فهو لوح .

الامبراطور : اذن أيها المخلصون الأعزاء ، مرحبا بكم من الأداني والأقاصي! لقد اجتمعتم تحت طالع سعيد : في أعلى كُتب لنا الهناء والخلاص . لكن خبروني لماذا في هذه الأيام التي نريد فيها أن نتحرر من همومنا ، ونلبس أقنعة المساخر ونستمتع في صفاء ـ أقول :

لماذا ينبغي علينا أن نعذب أنفسنا بالاجتماع للتشاور ؟ لكن ما دمتم ترون أنه لا مفر من ذلك ، وها نحن قد اجتمعنا ، فليكن .

المستشار : أسمى الفضائل تحيط برأس الامبراطور كهالة القديس ، وهو وحده الذي يملك أن يمارسها بحق ـ أعني : العدالة! ـ ما يحبه كل الناس ، وما يطالب به الجميع ، وما يتمنونه ، وما يصعب عليهم الاستغناء عنه ، يتوقف على الامبراطور أن يمنحه للشعب .

لكن . ويا حسرتاه! لكن أي فائدة يفيدها العقل من الذكاء ، والقلب من الطيبة ، واليد من الهمّة اذا كانت الحمّى تسري في الدولة بعنف ، والشـرّ يلقّح الشـرّ ويفـرّخـه ؟ من ينظر من هذا المكان العالي في الامبراطورية الواسعة يبدُ له أنه في حلم مروّع ، حيث الفساد يجول بين المفاسد ، واللا قانون يتحكم في القانون ، وعالم من الأخطاء يعرض نفسه ، هذا يسلب قطيعا من الماشية ، وذاك ينهب زوجة ، وثالث يسرق كأسا وصليبا وشمعدانا من فوق المذبح ، وكلٌ يستمتع بهذا طوال سنوات دون أن يخدش بشرته خدشاً أو يجرح جسمه جرحا ، والشاكون يتدافعون في المحاكم ، والقاضي يتربع لامعا على وسادته العالية ، بينما الجمهور الغاضب في الخارج يتزايد ويزمجر متمردا ثائراً . هذا يفخر بالعار والشنار ، وذاك يستند الى شركائه في الإجرام . ويصدر الحكم بالادانة على من لا دفاع له غير البراءة . وهكذا يمزق الناس بعضهم بعضا ويدمّر كل ما هو ذو قيمة . أنّى للعقل اذن أن ينمو ويتطور ، وهو وحده الذي يقودنا إلى الحق ؟ وفي النهاية يتحول الرجل الكريم السجايا الى متملق وراشٍ ، والقاضي الذي لا يستطيع أن يعاقب ينضم في آخر الأمر الى المجرم . لقد

رسمت اللوحة بلون أسود ، وكنت أفضّل لو رسمتها بلون أكثر سوادا .

(وقفة)

لا نستطيع أن نتفادى اتخاذ قرارات ، إذا كان الكل يؤذّون ، والكل يتأذون ، فقد صارت جلالة الامبراطورية ذاتها في خطر .

رئيس الجيش[١٤] : أيّ جنون يسري في هذه الأيام الوحشية! كل امرئ يضرب ويضرب والآذان صمّاء عن الأوامر . والمدني وراء أسوار مدينته ، والفارس في وكره الصخري قد أقسما على مقاومتنا والحفاظ على قواهما . والجندي المرتزق صار غير صبور ، ويطالب براتبه بعنف . وإذا صرنا غير مدينين لهم بشيء ، لَولّوا عنا ومضوا . وإذا طالبوا جميعا بشيء فان من يمنعهم منه سيكون كمن يضع رأسه في عشّ زنابير . والامبراطورية التي يجب عليهم أن يحموها صارت هدفا للنهب والتخريب . وقد أخلي لشغبهم السبيل ، حتى صار نصف العالم أشتاتا ، لا يزال في الخارج ملوك ، لكن لا أحد منهم يظن أن الأمر يعنيه .

رئيس الخزانة : من الذي يستطيع أن يعتمد على الحلفاء! ان المساعدات التي وعدونا بها قد نضبت مثل ماء المواسير . وفي دوَلك الواسعة ، يا مولاي ، لمن صارت الممتلكات ؟

أينما تذهب ، تجد[١٥] بيتا جديدا ، ويريد أن يعيش مستقلا . وما على المرء إلا أن ينظر كيف يتصرف : لقد تنازلنا عن حقوق كثيرة ، حتى لم يبق لنا أيّ حق في أي شيء .

وحتى الأحزاب ، كما تسمى ، لم يعد ثم مجال للثقة بها اليوم ، وسواء عليهم أوبّخوا أم مدحوا ، فلا وزن للحب والكراهية ، والجبّلينيون والجلفيون[١٦] اختبأوا جميعا ايثارا للراحة . ومن ذا الذي يريد اليوم أن يساعد جاره ؟! حسب كل واحد شؤونه الخاصة ، فعنده منها ما يكفيه شاغلا يشغله . أبواب الذهب أغلقت بالمزلاج ، وكل واحد يخدش ويحفر ويكنز وخزائننا صارت خاوية .

مدير شؤون القصر : وأنا أيضا كم من متاعب عليّ أن أعانيها! نريد كل يوم أن ندّخر ،

لكننا نحتاج في كل يوم الى مصروف أكبر . وكل يوم تتوالد متاعب جديدة . أما الطباخ فلا ينقصه شيء : فالخنازير البرّية ، والظباء ، والأرانب البرية ، والغزلان ، والديوك الرومية ، والدجاج والإوز والبط ـ هذه كلها موفورة بوصفها أنصبة مستحقة عينا . لكن الخمر تنقصنا . في الكهف كانت الخوابي تتكدس على الخوابي ، وفيها خمور من أجود الروابي ومن محاصيل أفضل السنين ، لكن مجالس الشراب التي عقدها النبلاء دون انتهاء قد استنفدت آخر قطرة . وعلى مجلس المدينة أيضا أن يبيع ما في مخازنه ، هذا يمسك زِقّاً ، وذاك يمسك زُكرة[١٧] ، تحت المائدة يقع الاحتفال والشراب[١٨] . وعليّ أن أحسب ، وأن أدفع للجميع أجورهم . واليهودي لا يعفيني ، انه يدفع لي مقدما على حساب موارد سنوية ، مما يستهلك مقدما ما نحصله عاما بعد عام[١٩] . والخنازير لا تسمن ، وكل شيء صار مرهونا : الوسادة التي على السرير ، والخبز الذي على المائدة .

الامبراطور : (بعد تفكير يقول لمفستوفيلس) : وأنت أيها المجنون ألا تعرف ضائقة أخرى ؟

مفستوفيلس : أنا ؟ أبدا ـ حين أرى الفخامة من حولك أنت ورجالك! ـ وكيف تُعوز الثقة والطاعة لجلالتك لا حدّ لها ، وقوتك متأهبة لتشتيت شمل الأعداء ، وإرادتك خيّرة يسندها العقل ، ونشاطك متعدد وحاضر دوماً ؟ كيف تتحالف قوى الشرّ والظلام هناك حيث تسطع أمثال هذه النجوم ؟

لغط : هذا رجل خبيث ـ انه يعرف كيف يصل ـ انه يراهن ـ طالما سارت الأمور ـ أنا أعرف ماذا يختبئ وراءه ـ ثم ماذا بعد ذلك ؟ ـ مشروع .

مفستوفيلس : وأين يوجد نقص في هذا العالم ؟ هذا ينقصه هذا ، وذاك ينقصه ذاك ، أما هنا فالناقص هو النقود . والنقود لا تُستخرج من الأرض ، بيد أن الحكمة تعرف كيف تستخرجها من أعمق الأعماق . في عروق الجبل وفي أساس الجدران يمكن العثور على الذهب المسكوك أو غير المسكوك . فان سألتني من الذي يستطيع أن يستخرجه ، أجبتك : قوة الطبيعة والعقل في رجل موهوب .

المستشار : الطبيعة والعقل ـ هذه لغة لا يُخاطب بها المسيحيون! ومن أجل ذلك أُحرق الملحدون ، لأن هذه الكلمات في غاية الخطورة . ان الطبيعة خطيئة ، والعقل شيطان ، وهما فيما بينهما يؤرثان الشك ، الذي هو ابنهما النّغل المشوه . لا تخاطبنا بمثل هذا الكلام ، ان بلاد الامبراطور القديمة انما نشأت من جنسين يدعمان عرشه بجدارة : وهما القديسون والفرسان ، وهما يقاومان كل عاصفة ، وجزاؤهما الكنيسة والدولة ان قامت فتنة في المشاعر المشوشة للجمهور فمن السبب فيها ؟ الملاحدة وأرباب السحر! انهم يفسدون المدن والأرياف وأنت تريد تهريبهم إلى هذه الدوائر العالية بمزاحك الوقح ، أنتم تتعلقون بالقلب الفاسد ، والمجنون قريب منهم .

مفستوفيلس : من هذا أتبين السيّد العالم! ما لا تلمسونه فهو عندكم على مبعد أميال عديدة . وما لا تمسكونه فانه يعوزكم تماما . وما لا تحسبونه تعتقدون أنه ليس بحقيق . وما لا تزنونه ، ليس له عندكم وزن . وما لا تسكّونه ، فهو عندكم خال من القيمة .

الامبراطور : بهذا لا تقضى حوائجنا . ماذا تريد الآن بموعظة الصوم التي ألقيتها ؟ سئمت من «كيف» و«إذا» الأبديتين . تنقصنا النقود : هات بها إلينا إذن!

مفستوفيلس : سآتي بما تريد ، وأكثر . هذا أمر سهل ، لكن السهل صعب ، ها هي ذي موجودة ، لكن الحصول عليها ـ هذا هو الفن ، فمن يعرف كيف يبدأ في ممارسته ؟ لكن فكّر في هذا : في تلك الأزمنة الرهيبة التي فيها أغرقت الطوفانات البشرية الأرض والشعب كم من شخص خبأ ـ من الخوف والرهبة ـ أعزّ ما لديه في هذا الموضع أو ذاك . فعلوا ذلك في زمان الرومان القويّ ، واستمروا يفعلون ذلك حتى أمس الدابر بل حتى اليوم . وكل هذا مدفون في الأرض . والأرض ملك الامبراطور ، وينبغي أن يحصل عليه .

رئيس الخزانة : رغم أنه مجنون فإنه يقول كلاما لابأس به ، ان هذا حق قديم للامبراطور[٢٠] .

المستشار : ان الشيطان ينصب لكلٍّ حبائلَ ذهبية : الأمر لا يجري هكذا في الأمور المستقيمة الورعة .

مدير شؤون القصر : لا مانع عندي من ارتكاب بعض الظلم إن كان ذلك يؤدي إلى تزويد القصر بالهبات الطيبة!

رئيس الجيش : المجنون بارع حكيم ، انه يعد بما يفيد الجميع ، والجندي لا يسأل من أين أتى!

مفستوفيلس : ربما تعتقدون أنني أخدعكم ـ ها هو ذا رجل! اسألوا المنجم! انه يعرف الساعة والبرج في دائرة بعد دائرة . خبّرنا إذن : ما هو الطالع في السماء ؟

لغط : هما وغدان ـ وهما متفاهمان ـ المجنون وصاحب التخيلات ـ قريبان من العرش ـ أغنية عتيقة ـ قصيدة قديمة ـ المجنون يلقّن . والعاقل يتكلم .

المنجم : (يتكلم ، ومفستوفيلس يلقّن) :

الشمس هي ذهب صاف ، وعطارد ، الرسول ، يخدم من أجل الرضا والمرتّب ، والسيدة الزّهرة قد دثرتكم جميعا به ، وهي ترمقكم ، مبكرا ومتأخرا ، بمحبة ، والقمر العفيف تنتابه نوبة غريبة ، والمريخ إذا لم يصب يهدد بقوته ، والمشتري يبقى الأجمل لألاء ، وزحل عظيم ، بعيد عن البصر وصغير . من حيث هو معدن نحن لا نقدّره كثيرا ، فقيمته قليلة ، لكن وزنه ثقيل . نعم! حين تُجْمع الشمس مع القمر ، والذهب مع الفضة ، يسود العالم الصفاء . ويمكن الحصول على سائر الأشياء : القصور ، والبساتين ، والنهود ، والخدود الحمر . هذا كله يستطيع أن يخلقه الرجل العالم ، فهو يقدر على ما لا يقدر عليه أحد منا .

الامبراطور : ما يقوله أسمعه مزدوجا ، لكن رغم ذلك لا يقنعني .

لغط : ما معنى هذا ـ مزاح عتيق ـ تقويميات ـ كيماويات ـ كثيرا ما سمعته ـ وخابت آمالي ـ ليأت هو أيضا ـ انه نصّاب .

مفستوفيلس : ها هم أولاد يقفون حوالينا ويدهشون ، ولا يثقون بالكنز العظيم ، أحدهم يهذر عن اليبروج[٢١] والآخر عن الكلب الأسود . ماذا يجديهم

إذا أخذ أحدهم في المزاح ، واتهم الآخر بأن ثمة أعمالا سحرية ، بينما نِعالهم تتمزق ولا تستطيع أن تخطو بأمان ؟
أنتم جميعا تشعرون بالفعل المستسرّ للطبيعة المسيطرة أبدا ، ومن أسفل المناطق ينبعث الأثر الحيّ . حين تسري القرصة في كل الأعضاء ، وحين يستوحش المكان ، فما عليك إلا أن تحفر بعزم فهناك يقوم العازف ، وهناك يقوم الكنز!

لغط : في القدم ثقل من رصاص ـ وفي الذراع تشنج ـ هذا نقرس ـ أشعر بدغدغة في ابهام الرِجْل ـ ظهري كله يؤلمني ـ تبعا لمثل هذه العلامات ستكون هنا أغنى منطقة بالكنوز .

الامبراطور : الآن أسرع! لا تتهرب من جديد ، برهن على صحّة فقاقيعك الكاذبة ، وأرنا فورا تلك الأماكن النبيلة! سأدع السيف والصولجان جانبا ، وبيدي الساميتين أريد أن أنجز العمل ، إن كنت لم تكذب ، وأما إن كنت تكذب ، فسأبعث بك الى الجحيم .

مفستوفيلس : أنا أعرف جيدا الطريق المؤدي الى هناك ـ لكني لا أستطيع أن أحسب جيدا ما هو موجود هناك في كل موضع ولا مالك له . الفلاح ، وهو يحرث بمحراثه ، يستخرج إبريقا من الذهب مغطى بالطين فيؤمل أن يستخرج نطروناً من القشرة اللاصقة به ، لكنه يجد في داخله لفائف من الذهب ، فيفزع ثم يسرّ بما في يده الخشنة البائسة . كم من أقبية لا بد من نسفها ، وفي أي أخاديد وممرات لا بد للعارف بالكنز أن يمر منها حتى يكون في جوار العالم السفلي! في كهوف قصيّة محفوظة منذ القِدم يرى صفوفا من الكؤوس والأطباق والصحون المصنوعة كلها من الذهب . والقوارير هناك من العقيق ، ولو شاء استخدامها لوجد هناك خمرا معتقة . لكن ـ هل تصدق أهل العلم بالأمور ؟ ـ اهترأ خشب ألواح البراميل منذ مدة طويلة ، ولكن كِلس الخمر هيأ للخمر وعاء حافظا . ليس الذهب والجواهر هي وحدها ، بل أيضا عصّارات هذه الخمور النبيلة تعطي نفسها بالليل والظلام . والحكيم يفتش هنا دون ملل ، ما يُدرك في وضح النهار انما هو خزعبلات ، أما في الظلام فهناك منزل الأسرار .

الامبراطور : هذه أدعها لك! فيم يفيد الظلام ؟ إن كان للشيء قيمة ، فيجب أن يتجلى في

رائعة النهار . من ذا الذي يستطيع أن يميّز الوغد في الليل العميق ؟ سود هي البقرات ، ورمادية هي القطط . انك لكي تحصل على القدور المدفونة والمملوءة بالذهب لا بد لك أن تجّر محراثك وتبرزها في ضوء الشمس .

مفستوفيلس : خذ المرّ والمنكاش[٢٢] ، واحفر بنفسك ، ان عمل الفلاح يجعلك عظيما ، ينطلق من الأرض قطيع من العجول الذهبية . بعد ذلك دون خوف بل بنشوة تستطيع أن تزين نفسك وتزين محبوبتك ، ان الحجر اللامع الملون يزيد في الجمال كما يزيد في الجلالة .

الامبراطور : لكن أسرع ، أسرع! كم من الزمن عليّ أن أنتظر!

المنجم : (يتكلم ، ومفستوفيلس يلقّنه) : مولاي ، خفّف من هذا الاشتياق الجامح ، دع لعبة السرور المتنوع تأخذ دورها . ان التشتّت لا يقودنا الى الغاية .
علينا أولا أن نصلح من أمر أنفسنا ، وأن تحصل على الأدنى بالأعلى . من يرد خيرا ، فليبدأ بأن يكون خيّرا ، ومن يرد السرور ، فليهدئ من فورة دمه ، ومن يطلب الخمر ، فليعصرْ العنب الناضج ، ومن يؤمل في معجزة ، فليقوِّ إيمانه .

الامبراطور : ليُقْضَ الوقت اذن في البهجة والحبور! وليأت أربعاء الرماد ونحن له في اشتياق . وحتى ذلك الحين لنحتفل بالكرنفال[٢٣] الوحشي في مرح على كل حال .
(أبواق - يخرجون)

مفستوفيلس : الحمقى لا يدركون أبدا الارتباط بين الاستحقاق والسعادة[٢٤] ، وحتى لو كانوا يملكون حجر الحكماء ، فان الحكيم يعوزه الحجر .

قاعة فسيحة

تحيط بها حجرات، وقد زُينت ونُظفت من أجل حفلة أقنعة

المنادي : لا تحسبوا أنفسكم في داخل حدود ألمانيا حيث رقص الشيطان والمجانين والأموات! فان احتفالا أبهج ينتظركم . ان المولى من رحلته

الى روما أتى لنفسه بالمنفعة ولكم بالانبساط ، فعبر جبال الألب العالية وكسب دولة أبهج . إن الامبراطور ظفر عند القدمين المقدستين [٢٥] أولا بالحق في السلطان ولما ذهب لأخذ التاج أتى الينا معه أيضا بالقلنسوة الآن نحن ولدنا من جديد ، وكل انسان يعرف الدنيا يشدّها بلذة على رأسه وأذنيه ، فتجعله يشبه المجانين الممرورين ، لكنه يبقى مع ذلك عاقلا قدر الامكان . وإني أتمثل الآن كيف يتجمعون ، وكيف ينفصلون مترنحين ، وكيف يصيرون أزواجا مخلصين ، وكيف تنضم الجوقة الى الجوقة بشدّة . ها هنا ، هناك ، دون أدنى ضيق! وفي النهاية يبقى العالم كما كان بمئات الآلاف من الخزعبلات ، يبقى مجنونا كبيرا .

بستانيات : (غناء مصاحب بعزف على المندولين)

لنوال مديحكم تزيّنا هذه الليلة ،

فلورنتينيات[٢٦] فتيات يتبعن فخامة البلاط الألماني .

نحمل في غدائر سُمْر زينة من الأزهار الصافية العديدة ، وخيوط الحرير ، وخصلات الحرير تقوم بدورها ها هنا .

ونرى أننا نستحق الاطراء حقا :

فأزهارنا الصناعية اللامعة ، تزهر طوال العام كل أنواع النثائر الملونة قد صنّعت بالتماثل ، فإن سخرتم منها قطعة فقطعة ، فالكل مع ذلك جذّاب

منظرنا أنيق نحن البستانيات الظريفات ،

لأن طبع النساء قريب النسب بالفن .

المنادي : أرونا السّلال الغنية التي تحملنها على رؤوسكن .

وتزهر بألوان عديدة على الذراع ، ليختار كل واحد ما يلذّ له!

ولنسرع كيما يتجلى في الخميلة والمخارف بستان!

انهن جديرات بالتدافع حولهن ، والبائعات مثل البضاعة التي يبغيها .

بستانية : أتماكسون الآن في هذا المكان البهيج ؟ لا محل هنا للمساومة!

وليخبر كل واحد بكلمات موجزة عاقلة عمّا عنده .

غصن زيتون

فيه ثمار : أنا لا أحسد أية زهرة ، أنا أتجنب كل نزاع ، فهذا يخالف طبعي :
لكني خلاصة الريف ، ورمز السلام في كل مكان وضمانة الأمين
وأرجو أن أفرح اليوم في أن أزين عن جدارة رأسا جميلا .

تاج من السنابل : (ذهبيّ) : عطايا سيرس[٢٧] اذا زينتم ستتجلّى نبيلة عزيزة : إن أحوج
ما يحتاج اليه الانسان ستكون أجمل زينة لكم .

تاج : أزهار متعددة ، شبيهة بالخبازى ، هي أزهار رائعة من وسط الطحالب
ليست معتادة بحسب الطبيعة ، ولكن البدْع أبرزها .

طاقة : لن يجرؤ ثاوفرسطس[٢٨] على أن يذكر لكم أسمي ، ومع ذلك فإني
أؤمل في أن أنال اعجاب الكثيرين إن لم يكن إعجاب الجميع .
خصوصا إعجاب فتاة تربطني في شعرها أو تحملني على قلبها إن
استطاعت العزم على ذلك .

براعم الورد : (تتحدى) : دع التخيّلات المتعددة تزهر كبدْع هذه الأيام ، متخذة
أشكالا غريبة عن الطبيعة ، والجذوع الخضراء والنواقيس الذهبية تطل
من الظفائر الغنية! ـ
لكننا سنبقى مختبئات : وسعيد هو من يكتشفنا ونحن ناضرات .
حين يقبل الصيف وتشتعل براعم الورد ، فمن ذا الذي يستطيع
الاستغناء عن هذه المتعة ؟ إن هذا الوعد ، وهذا الانجاز في مملكة
النبات يجتذب النظر والشعور والقلب .
(البستانيات يعرضن بضاعتهن على طول المخارف المفروشة بالأشجار)

بستانيون : (غناء مصحوب بعزف على التيورب)[٢٩] : أنتم تشاهدون الأزهار وهي
تنمو في هدوء وتزين رؤوسكم بفاتن الزينة ، أما الفاكهة فلا تريد أن
تغوي ، وإنما يتمتع بها المرء إذا ذاقها . نحن نعرض كريزا وخوخا
وبرقوقا لوحتها الشمس ـ فاشتروا منها! في مواجهة اللسان والحلق
العين تكون قاضيا ضعيفا .
تعالوا لتأكلوا من كل الفاكهة الناضجة بذوق وشهية! في الورد يمكن
المرء أن ينظم الأشعار ، أما التفاح فيجب عليه أن يعضه .
اسمحن لنا بالانضمام الى أزهاركن الغنية الغضة ، ولنزيّن البضاعة

الناضجة بفيض مما يجاورها . تحت طاقات بهيجة في ركن من الخمائل المزدانة يمكن الحصول على كل شيء في آن واحد : البراعم ، والأوراق ، والأزهار ، والفاكهة .
(مع غناء على التبادل ، مصحوب بقيثارات وتيوربات ، تسير الجوقتان وهما يعرضان بضاعتهما على درجات في أعلى ويزينان) .

أم وابنتها

الأم : يا ابنتي ، لما رأيت النورَ زيّنتُك بزينة جميلة . كنتِ لطيفة الوجه بضّة الجسم . وفي الحال تصورتك عروسا ، وزوجة لأغنى الناس .
أواه! الآن طارت عدة سنوات دون فائدة ، فجماعة الخطّاب مضوا مسرعين ، على الرغم من أنك رقصت مع الواحد برشاقة ، ومنحت الآخر اشارة رقيقة بكوعك . وأية حفلة دبّرت مضت بغير جدوى ، فاللعبة البريئة والرجل الثالث لم يشأ أن يصاد .اليوم انطلق المجانين من عقالهم ، فيا حبيبتي افتحي حِجْرك! فربما تعلق به أحد .
(فتيات أخريات ينضممن الى الحفل وهن شابات جميلات ، وتسمع أحاديث بصوت عال .
صيادو أسماك وقناصة طيور ومعهم الشباك والصنانير والعصي المصمغة وأدوات أخرى يظهرون ويختلطون بالصغيرات الجميلات .
وتجري محاولات على التبادل للاكتساب ، والصيد والتخلّص والامساك ، مما يؤدي الى أجمل ألوان الحوار) .

حطابون : (يظهرون ، وهم مندفعون شرسون) : أفسحوا في المكان! أخلوا المكان! نحن نريد مكانا فسيحا ، لأننا نقطع الأشجار وهي تقصف وتقعقع وحين نحملها تحدث مصادمات . واطراء لنا نظفوا هذا المكان . لو لم يعمل الأجلاف في البلاد ، فأنّى للرفاق أن يوجدوا مهما يكن من براعتهم ؟ اعلموا هذا : لو لم نعرق نحن لأصابكم البرد .

مهرّجون : (مغفّلون ، شبه حمقى) : أنتم المجانين ، ولدتم محدّبين ، نحن

الأذكياء ، لم نحمل أية أشياء ، لأن قلانسنا وستراتنا وخِرقنا خفيفة الحمل .

ويلذ لنا أن نكون دائما متعطلين ، خلال السوق والحشد نمشي وفي أقدامنا بنطوفلات ، ونقف فاغري الأفواه صائحين بأعلى الأصوات . وعلى هذا الدوّي ننساب مثل الأحناش خلال الزحام والحشود . نقفز معا ، ونعصف معا . لكم أن تمدحونا ، ولكم أن توبّخونا ، فالأمر يستوي لدينا .

طفيليون : (طامعين متملقين) :

أيّها الحمالون الشّهام وأصهاركم وقّادو الفحم ، أنتم رجالنا . فكل أحد يدأب ، وكل انحناء وكل عبارات ملتوية ونفخ مزدوج ، يسخّن ويبرّد ، بحسب الظروف ـ ماذا يفيد ؟ وماذا تنفع النار ، حتى لو جاءت من السماء ، إن لم توجد أجزال[٢٠] وأحمال فحم لتملأ فوّهة الموقد فتشتعل النار ، فيحدث قَلْوٌ وطهو ونشيش ؟! الذوّاقة الحقيقي ، ولاعق الصحن يستروح رائحة المحمّرات ، ويتشمم السمك . وهذا يدعوه إلى فعل الأفاعيل على مائدة ولّي نعمته .

سكران : (فاقد الوعي) لا يضايقني شيء اليوم! أشعر أني صريح وحرّ ، جئت اليوم باللذة النضرة والأغاني المرحة . وهكذا أنا أشرب! أشرب . أشرب! اقرعوا الكؤوس بالكؤوس! تنك[٢١] ، تنك! وأنت يا من هناك تعال ها هنا! اقرع الكأس بالكأس تسير الأمور على ما يرام .

صاحت زوجتي غاضبة ، وسخرت من هذه البزة المتعددة الألوان . ولما تباهيت بها قالت عنّي إنني دُمية خياط . ومع ذلك فأنا أشرب . أشرب أشرب! رنين الكؤوس! تنك ، تنك! أيّها الدمّى ، اقرعوا الكؤوس بالكؤوس! تكُن الأمور على ما يرام! لا تقولوا اني تُهتُ ، بل أنا حيث أودّ . إذا صاحب الحانة لم يَسْقنا على الحساب ، فزوجته ستسقينا على الحساب ، وفي النهاية ستسقينا الخادمة على الحساب . دائما أنا أشرب ، أشرب ، أشرب!

هيا ، أنتم الآخرون! تنك ، تنك! كل واحد لكل واحد! وهكذ باستمرار! يبدو أن الأمور تسير على ما يرام .

كيف وأين أستمتع ـ ليكن هذا كيفما وأينما كان . دعوني أرقد حيث أرقد ، لأني لا أريد الوقوف أكثر من ذلك .

جوقة : كل أخ يشرب ، يشرب! تبادلوا الأنخاب تنك ، تنك! اجلسوا على المقاعد والألواح! انه تحت المائدة! لقد قضي عليه .

(المنادي يعلن عن شعراء عديدين وشعراء طبيعة ، ومغنّين في القصر ومغنين فرسان ، يتسمون باللطافة والحماسة . وفي زحمة المتنافسين من كل نوع لا أحد غيره يتكلم . غير أن أحدهم يتسلل عابرا ناطقا بكلمات قليلة) .

هجّاء : أتعرفون ما هو الشيء الذي من شأنه أن يسرني ؟ أن أغني وأن أقول ما لا يريد أحد سماعه .

(شعراء الليل والمقابر يستميحون عذرا ، لأنهم مشغولون بحديث شائق جدا مع فمبيرة[٣٢] بعثت منذ وقت قصير ، وربما أدى هذا الحديث إلى ابداع نوع جديد من الشعر . وكان على المنادي أن يتركهم وشأنهم ، ثم ينادي الأساطير اليونانية التي لم تفقد شخصيتها ولا جاذبيتها رغم أنها أتخذت أقنعة حديثة) .

اللطائف[٣٣]

أجلايا : نحن نشيع البهجة في الحياة . فاجعلوا المرح في الاعطاء .

همجونه : اجعلا البهجة في الأخذ! ما أجمل بلوغ الأماني!

يوفروسونه : وفي نطاق الأيام الساجية ليكن الشكر أعظم باعث على البهجة!

آلهات المصير

أتروبوس : أنا ، الأكبر سنا ، دعيت هذه المرة من أجل الغَزْل ، ان في خيط الرقيق لعبرة ودعوة إلى التفكير .

كي أجعل الخيط مرنا وناعما اخترتُ أدق كتان . وأناملي البارعة ستجعله مصقولا ودقيقا .

وبارعات في الملاطفات . فان كان من بينكم من له حبيبة ، فسنظل نخمش أذنيه ، حتى نقول له عينا في عين : إنها تغازل بعينيها هذا أو ذاك ، وأن رأسها غبيّ ، وظهرها منحن ، وأنها تعرج ، وإذا كانت عروسا له نهمس إليه بأنها لا تليق به أبدا .

كذلك نعرف كيف نضرم غيظها فنقول لها : ان حبيبها تكلم عنها منذ أسابيع قليلة مع فلانة بازدراء واستهزاء! ـ وحتى لو عاد الوئام بينهما ، فسيبقى دائما شيء عالقا .

هذا لا شيء! فانهما ان ارتبطا ، فسآخذ أنا على عاتقي في كل الأحوال أن أفسد أجمل سعادة بواسطة النزوات : فالانسان غير مستوي المزاج ، والساعات هي الأخرى ليست من نمط واحد . ولا أحد يضم بين ذراعيه متمنّاة الا ويتشوق بجنون إلى من هي متمناة منه أكثر ، فيتحول عن أجمل سعادة بعد أن تعوّد عليها : انه يهرب من الشمس ، ابتغاء أن يدفئ الصقيع .

مع كل هذا أعرف كيف أتصرّف ، وآتي بأسمودي[٢٧] المخلص ، في الوقت المناسب ، وأجعله يبذر الشقاء ، هكذا أفسد بني الانسان زوجا زوجا .

تيسيفون : إني أخلط السم والخنجر بدلا من الألسنة السيئة ، وأحدّ الخنجر المسموم لأطعن به الخائن . فان عشقت واحدة أخرى فعاجلا أو آجلا سينفذ فيك الفساد .

لا بد لأحلى الأوقات أن تتحول إلى خبث ومرارة لا مماكسة هنا ولا تجارة ـ مثلما ارتكب من ذنب لا بد أن يكفّر عنه . لا يتغنين أحدٌ بالمغفرة! أشكو أمري إلى الصخر ، فيجيب : الانتقام! الذي يتغير لا ينبغي أن يعيش .

المنادي : تفضلن فتنحين جانبا ، لأن ما يأتي الآن ليس على شاكلتكن . انظروا ، ها هو ذا جبل يقترب ، وجوانبه مغطاة ، في فخر ، بسجّاد متنوع الألوان ، وله رأس ذو أسنان طويلة ، وخرطوم كالأفعى ، وهذا أمر حافل بالأسرار لكني سأقدّم إليكم المفتاح[٢٨] . على الرقبة تجلس امرأة رقيقة أنيقة ، وبعصا دقيقة تقوده بدقة ، امرأة أخرى[٢٩] تقف في

أعلى رائعة سامية ويحيط بها بريق يُغَشّي علي كثيرا . وعلى الجانب تسير سيدتان[٤٠] نبيلتان مقيّدتان بالسلاسل : احداهما خائفة ، والأخرى سعيدة ، احداهما تتمنى ، والأخرى تشعر أنها حرة . فلتخبرنا كلتاهما من هي!

الخوف : شعلات مدخنّة ، ومصابيح وأنوار تضيء الحفل المختلط بضوء خافت . وبين هذه الأشباح تقيدني السلاسل بشدّة . سُحقاً لكم أيها الضاحكون المضحكون! سخريتكم تدعو إلى الاتهام وعدم الثقة ، كل خصومي يطاردونني في هذه الليلة . ها هنا! صار الصديق عدوًا ، وأنا أعرف قناعه هذا كان يريد أن يقتلني ، والآن ، لما اكتشف ، هرب متسللا . أواه! كم أودّ أن أهرب إلى أي ناحية في العالم! لكن من أعلى يهددني الافناء ، الذي يمسك بي بين التراب والفزع .

الرجاء : تحياتي لكنّ ، أيتها الأخوات العزيزات! لقد استمتعتنّ بالأقنعة اليوم والأمس ، لكنني أعلم علم اليقين أنكن ستخلعن الأقنعة غدا . وان كنتنّ غير مستريحات تماما في ضوء المشاعل هذا ، فسرعان ما نجوس خلال الحقول الجميلة وفق ارادتنا نحن في أيام بهيجة ، أحيانا في جماعة ، وأحيانا كلٌ بمفردها ، ونسعى في حياة خالية من الهموم دون أن نحرم من شيء ، وسندخل في كل مكان ضيوفا على الرَحب والسعة . من المؤكد أن الأحسن لا بد أنه موجود في مكان ما .

الحصافة : اثنان من أكبر أعداء بني الانسان ، وهما الخوف والرجاء ، مقيدان بالسلاسل أنا أحمي الجماعة منهما . أفسحوا في المكان ، لقد نجوتم .

إني أقود المارد الحيّ ببرج ، كما ترون ، وهو يسير دون صعوبة خطوة فخطوة على طريق وعر .

وهناك في أعلى ، على الذروة ، تلك الإلاهة ذات الأجنحة الواسعة النشيطة تتلفّت في كل جانب ابتغاء المكاسب .

وبها يحيط البهاء والمجد ، وهي تضيء إلى بعيد في كل الجوانب .

وهي تسمى «فكتوريا» إلاهة كل نشاط .

زويلوس ـ ثرسيتس[٤١] : هو! هو! لقد جئت في الوقت المناسب ، إني أذمكم جميعا وأنعتكم

بالسوء! لكن هدفي هو السيدة «فكتوريا» في أعلى هناك .
إنها بسبب جناحيها الأبيضين تتوهم أنها نسر ، وأنها أينما توجهت فكل شيء ملكها : الشعب والأرض ، لكنّ أينما يحدث شيء خليق بالتمجيد فإنه يثير سخطي على الفور . أن يصبح الأحط عاليا ، والأعلى واطنا ، والمعوج مستقيما ، والمستقيم ملتويا ، هذا كله هو وحده الذي يشعرني بالصّحة والعافية ، وهذا ما أريد أن يكون على ظهر الأرض .

المنادي : تلقّ اذن هذه الضربة القاضية من عصاي التقيّة ، أيها الكلب[٤٢] الوغد! حتى تعوّج وتلتوي على الفور! ـ أنظر هذا القزم المزدوج كيف يتكوّر الى كتلة كريهة! ـ لكن يا للعجب! ـ الكتلة الكروية صارت بيضة ، انتفخت الى اثنتين ، خرج منهما توأم : أفعى ووطواط . احداهما راحت تزحف في التراب ، والأخرى طارت سوداء على السقف . وهما يهرعان الى الخارج للاتحاد ، وأنا لا أريد أن أكون ثالثهما .

لغط : هيّا! انهم يرقصون هناك ـ أوه ، بودّي لو لم أكن ها هنا . ألا تحس بهذه المخلوقات الغريبة من حولنا ؟ ـ أشعر بدغدغة في شعري ـ أحس بها في قدمي ـ لا أحد منّا أُصيب ـ لكننا وقفنا جميعا في خوف ـ فسد المزاج ـ وهؤلاء الدّواب أرادوا ذلك .

المنادي : لما كنتم قد عينتموني مناديا في مثل هذه المناسبات فاني أراقب الباب بكل حرص ولا أتركه خوفا من دخول ما يفسد علينا البهجة ، ولا أتوانى ولا أتهاون . لكنني أخشى أن تدخل من النوافذ أشباح هوائية ، وأنا لا أملك أن أحميكم من الأشباح وأعمال السحر .
لئن كان القزم قد أثار الريبة ، فالآن هناك في الخلف سيل قويّ .
بودي أن أكشف عن معاني هذه الوجوه وفقا لمهمّتي . لكن ما لا أفهمه لا أستطيع أن أفسره . فساعدوني جميعا على الفهم! ـ ألا ترون ذلك المارق بين الزحام ؟ انه عربة فاخرة تجرّها أربعة خيول تشق طريقها بين الجميع ، لكنها لا تقسّم الحشد ولا أشاهد أي زحام .
وفي البعد لمعان ذو ألوان ، ونجوم عديدة تسطع حائرة وكأنها صور فانوس سحري ، وتحمحم بقوة كقوة العاصفة .

افسحوا! إني أشعر بقشعريرة .

صبي العربة : توقفي أيتها الخيول وكفكفي أجنحتك ، واستجيبي للُجُم كالعادة . اضبطي نفسك ، حين أضبطك ، وانطلقي حين استثيرك . لكن لنحترم هذه الأماكن! أنظري حواليك كيف يحتشد المعجبون دائرة في اثر دائرة . لكن هيا ، أيها المنادي ، أدّ مهمتك قبل أن نرحل عنكم : أذكر أوصافنا وأسماءنا ، لأننا رموز وأمثال ، وينبغي عليك أن تعرفنا .

المنادي : لا أعرف أسماءكم ، لكنني ربما أقدر على وصفكم .

صبي العربة : جرّب اذن!

المنادي : على المرء أن يقرّ أولا بأنك شاب وجميل . أنت صبيّ في مقتبل العمر ، بيد أن النساء يوددن أن يرينك في تمام النضوج . يبدو لي أنك ستكون خِلْبَ نساء ، وفي طبعك إغواؤهن .

صبي العربة : ليكن! استمر ، واستخرج لنفسك كلمة اللغز الواضحة .

المنادي : بريق العيون الأسود ، دليل الضفائر ، وشريط جواهر يبث بعض الصفاء . ويا له من ثوب أنيق يسيل من الأكتاف الى الجوارب ، مزوّد بهدّاب من الديباج وزخارف برّاقة!

في وسع المرء أن يعدّك فتاة ، لكن الفتيات مع ذلك يعجبن بك ، لهنائك كان هذا أو لشقائك ، وقد علّمنك حروف الهجاء .

صبي العربة : وهذا الذي يتجلى على عرش العربة مثل صورة فاخرة ؟

المنادي : يبدو أنه ملك ثريّ ورقيق ، وما أسعد من يحظى برضاه! إنه لا يطمع في أكثر مما عنده ، ونظرته تبصر أين ينقص شيء ، ولذته تَبَصُّر أين ينقص شيء ، ولذته الصافية في الاعطاء أكبر من الامتلاك والسعادة .

صبي العربة : لا يحق لك أن تتوقف عند هذا ، بل ينبغي عليك أن تصفه بالدقة .

المنادي : الجدير لا يحتاج الى وصف . وجه سليم جميل كالقمر ، وفم مليء ، وخدود متفتّحة ، تتجلى تحت زينة العمامة ، وفي ثنايا القفطان بهجة ثريّة! وماذا ينبغي لي أن أقول عن مرتبته ؟ بوصفه حاكما يبدو أنه معروف لي .

صبي العربة : انه بلوتوس[٤٢] ، المدعو بإله الثراء : وقد قدم في جلال وأبهة لأن

الامبراطور يتمناه جدا .

المنادي : لكن خبّر عن نفسك من أنت!

صبي العربة : أنا التبذير ، أنا الشّعر ، أنا الشاعر الذي يكمل ذاته حين يبذل ما يملك . ولهذا فأنا غنيّ غِنىً لا نهاية له ، وأعدّ نفسي نظيرا لبلوتوس ، أنا الذي أحيي رقصه وفرحه وأزّينهما ، وأنا الذي أوفّر ما ينقصه .

المنادي : التفاخر لائق بك تماما ، لكن أرنا فنونك .

صبيّ العربة : انظر . يكفي أن أفرقع أصابعي فاذا بما حول العربة يلمع ويبرق . هنالك يثب عقد من اللؤلؤ . (يفرقع أصابعه باستمرار من حوله) خذوا سوارا ذهبيا للرقبة والأذن! ومشطا وتاجا بلا عيب ، وجوهرة ثمينة في الخاتم . كذلك أبذل شعلات بين الحين والحين ، منتظرا أين يمكن أن تشعل .

المنادي : انظر كيف يأخذ الحشد العزيز ويلتقط! يكاد المُعطي أن يختنق في الزحام . ويرمي بالأحجار الكريمة كما لو كان الأمر حلما . والكل يلتقطون في المكان الفسيح . وهأنذا أشاهد حِيلا جديدة : ما يمسك به الواحد بحماسة واجتهاد ، يلقى منه في الواقع جزاء سيئا ، اذ تطير من يده العطيّة . فعقد اللؤلؤ تحول في يد الواحد منهم الى عدة خنافس . فرمى بها بعيدا ، هذا المسكين ، لكن ها هي ذي تطنّ حوالي رأسه . وآخرون كانوا يتوقعون شيئا صلبا ، وجدوا أنهم انما أخذوا فراشات حمقاء .

يا له من وغد ، وعد بالكثير لكنه لم يعط الا ما يلمع لمعان الذهب!

صبي العربة : ألاحظ أنك تستطيع حقا أن تكشف عن الأقنعة ، أما أن تسبر غور الأشياء فهذه ليست مهمة المنادي الرسمية : ان هذا يقتضي نظرة أحدّ . لكني أحترز من كل نزاع ؟ وأتوجه اليك أنت يا مولاي بالسؤال والكلام (ملتفتا الى بلوتوس) ألم تكل اليّ أنا بعروس الريح ، العربة ذات الأربعة خيول ؟ ألم أسقها سوقا سعيدا الى حيث أردت أنت ؟ ألست طوع اشارتك أكون حيث تشير ؟ ألم أفز من أجلك بقصب السبق مسرعا بسرعة جسور ؟ ولكم ناضلت من أجلك ، وفي كل مرة

كنت أنتصر : واذا كان الغار يزيّن جبينك ، أولم أضفّره بفهم ومهارة ؟

بلوتوس : اذا احتاج الأمر الى منحك شهادة فانه يطيب لي أن أقول : انك روح من روحي . أنت تتصرف دوماً بحسب قصدي ، وأنت أكثر ثر . مني . وأنا أقدّر الغصن الأخضر الذي أكافئك به أكبر من كل تيجاني . وأقول للجميع كلمة حقة :
يا ولدي العزيز ، أني مسرور بك .

صبي العربة : (مخاطبا الحشد) : انظروا! ان أجمل عطايا يدي قد بذلتها حواليّ . وعلى كل رأس تتقد شعلة أنا الذي أوقدتها وهي تثب من الواحد الى الآخر ، وتبقى مع الواحد ، وتفلت من الآخر . وأحيانا ، لكن ليس غالبا ، تتوقد في لهب سريع ، لكن في الكثير من الحالات تنطفئ تماما دون أن يشعر بها أحد ، تنطفئ على نحو محزن .

ثرثرة نساء : هناك فوق العربة ذات الخيول الأربعة مهرّج من غير شك ، ومن خلفه يُقعي البُهلول ، وهو مستهلك من الجوع والعطش على نحو لم يشاهده عليه أحد ، ولو قُرص لا يحسّ .

الهزيل : ابعدن عني ، أيتها النسوة البغيضات! أنا أعلم أنني غير مقبول لديكن . لما كانت المرأة تعنى بالبيت ، كان اسمي هو «البخل» . وكانت أحوال البيت طيّبة : دخل كثير وخرج معدوم! وكانت عيني ساهرة تحرس الصندوق والصوان . ولا بد أن هذه كانت رذيلة! لكن لما لم تعد المرأة في السنوات الأخيرة متعودة على الادخار ، ومثل أيّ حاسب رديء صار عندها من الرغبات أكثر جدا مما عندها من الدنانير ، صار على الزوج أن يتحمل الكثير ، وأينما تلفّت لم يجد غير الديون . وهي إذا ظفرت ببعض المال بدّدته على جسمها وعلى عشيقها . وصارت تأكل أحسن ، وتشرب أكثر مع عصابة العُزّاب العاشقين ، وهذا يزيد عندي فتنة الذهب : أنا البخل ، جنسي مذكّر .

رئيسة النساء : دع التنّين يتمسك بالتنانين . الأمر كله في النهاية كذب وخداع! لقد جاء ليستثير الناس ، مع أنهم قلقون بما فيه الكفاية .

جمع من النساء : انه مجرد قشّة! ناولنه لكمة! أنّى لهذا الصليب الخشبي أن يهددنا ؟ هل نفزع من تقطيباته! ان التنانين من خشب وورق ، هيّا انقضّوا عليه!

المنادي : بحق صولجاني ، التزموا الهدوء! لكن لا حاجة إلى مساعدة مني . انظروا إلى هذه الوحوش الغاضبة وهي تتحرك في متسع من المكان أُخلي بسرعة . إنها تنشر أجنحتها المزدوجة وتنفث النار بغضب من بين فكوكها المفلّسة ، الحشد يهرب والمكان خال .

(يثب بلوتوس من العربة)

المنادي : انه ينزل نزلة الملوك! يهز رأسه ، فتتحرك التنانين ، وتُنْزَل الصندوق المحمّل بالذهب والبخل من العربة ومُقَنّعةُ عند قدميه . هذه معجزة .

بلوتوس : (يخاطب صبي العربة) : أنت الآن طليق من عقال واجباتك الثقيلة . أنت حرّ صريح ، فهيا إلى مجالك! هنا ليس مكانك ، إذ تحيط بنا أشياء معقدة ، رقشاء ، وحشية ، عابسة . هناك حيث لا تشاهد إلا الصافي النبيل ، وحيث تكون ملك ذاتك ، ولا تثق إلا بذاتك ، هناك حيث لا يسرّ إلا الجميل والخير ، وحيث الوحدة ـ هناك اخلق عالمك!

صبي العربة : اذن سأقوّم نفسي على أني رسولك الأمين ، واذن سأحبّك كما لو كنت لي أقرب قريب . الوفرة تحلّ أينما تحلّ أنت . وحيث أحلّ أنا يشعر كل امرئ أنه الرابح الماجد . كثيرا ما يترنح المرء في هذه الحياة المنافية للمعقول : أينبغي له أن يسلم قياده إليك ، أو إليّ أنا ؟ أتباعك يستطيعون أن يخلدوا إلى الدعة والبطالة ، أما من يتبعني فلديه دائماً شغل يشغله . أنا لا أعمل أبدا في السرّ ، ما عليّ إلا أن أتنفس وإذ بأمري ينكشف . وداعا اذن! أنت لا تحسدني على سعادتي . ومع ذلك أهمس بشيء ، وأنا أعود أدراجي فورا .

(يذهب كما جاء)

بلوتوس : والآن جاء وقت فتح الكنوز! إني ألمس الأقفال بصولجان المنادي . لقد انفتح الصندوق . شاهدوا! في أوانٍ برنزية يتواثب ويتماوج دم ذهبي ، أولا الحلي : من تيجان ، وسلاسل ، وخواتم ، انه يغلي ويهدد بصهرها وابتلاعها .

صرخات الحشد على التبادل : انظروا هنا ، هناك! كيف يتدفق بقوة ، ان الصندوق مملوء حتى الحافة! ـ أوان ذهبية تنصهر ، لفائف من النقود تتراقص . ـ دوقات تتطاير

جديدة السّكّة . أوه! كم يهتزّ لهذا قلبي! هأنذا أشاهد كل أماني! ها هي ذي تتكور على الأرض . ـ ها هي تقدّم إليكم ، استفيدوا منها فورا ، ما عليكم إلا أن تنحنوا فتصبحوا أثرياء! ـ ونحن الآخرين سنأخذ الصندوق ، بأسرع من لمح البرق .

المنادي : أيها الحمقى ، ماذا تفعلون ؟ أمعي أنا ؟ هذا مجرد مزاح بالأقنعة! ومساء اليوم لن يبقى شيء يُرْغب فيه ، أتعتقدون أنكم يُعطَى لكم ذهب ونقود ؟ في هذه اللعبة حتى الفلس الواحد كثير عليكم . أيّها الأغرار! مظهر خدّاع صار في نظركم هو الحقيقة المحضة! وماذا تعني الحقيقة عندكم ؟ أنتم تلتقطون الجنون الأبله من كل الأركان . أي بلوتوس المقنّع ، يا بطل الأقنعة ، اطرد هذا الجمهور من هذا المكان .

بلوتوس : صولجانك متأهب لهذا ، فأعرني إياه لوقت قصير! سأجعله يغوص في الغليان واللهيب .والآن خذي حذرك أيتها الأقنعة! أنظري كيف تُبْرق الدنيا وتنفجر وتتطاير شررا! والصولجان قد اشتعل . ومن يقترب جدا سيشوى ويُحمّر دون رحمة . ـ والآن ابدأ الجولة .

صياح وازدحام : يا للويل ، لقد قُضي علينا! ليهرب من يستطيع الهروب . إلى الوراء ، إلي الوراء يا من في الخلف هناك! ـ هناك رش في وجهي حارّ ـ ثقل الصولجان الملتهب يضغط عليّ . ـ ضِعنا عن بكرة أبينا . ـ إلى الوراء ، إلى الوراء ، أيها الحشد الأحمق! آه لو كان لي أجنحة لأخذت في الطيران .

بلوتوس : ها هو ذا الحشد قد دُفع إلى الوراء ، ولا أحد ، فيما أعتقد ، ناله شواء واحتراق . الجمهور استسلم وتفرّق . ـ لكن ضمانا لهذا النظام سأرسم حدودا غير مرئية .

المنادي : لقد قمت بعمل رائع ، كيف أشكر لقوّتك الحصيفة!

بلوتوس : يا صديقي النبيل ، لاتزال في حاجة إلى الصبر : فثم ما يهدّد بألوان عديدة من الاضطراب .

البخيل : الآن يستطيع المرء ، ان شاء ، أن ينظر الى هذا الحشد بلذة واستمتاع . فالنساء هن دائما في المقدمة ، حينما يكون ثم شيء

للمشاهدة أو التطعم لكني لست صدئا تماما! فالمرأة الجميلة هي دائما جميلة . واليوم ، لأن الأمر لن يكلفني شيئا ، نحن نريد أن نغازل ونحن راضون . لكن لأنه في الموضوع الكثير الزحام لا يمكن كل اذن أن تدرك كل الكلمات ، فسأحاول ، وأرجو أن أفلح ، التعبير عن نفسي بوضوح بوساطة الايماءات . ان اليد ، والقدم ، والهيئة لا تكفيني لذا لا بد لي من اللجوء إلى بعض ألاعيبي : سأعالج الذهب كما لو كان طينا مبتلا ، لأن هذا المعدن قابل للتحوّل إلى أيّ شيء .

المنادي : ماذا يقول هذا الأحمق الهزيل! وهل عند جائع مزاج للمزاح ؟ انه يحوّل كل ذهب الى عجين يصير بين يديه طريّا . لكنه مهما لتّه وعجنه ، فانه يبقى دائما عديم الشكل . انه يتوجه إلى النسوة هناك ، فيصرخن جميعا ويردن الفرار ، ويبدو عليهن الامتعاض . وهذا الخبيث يكشف عن مهارة في الأذى ، وأخشى أنه يستمتع حين يجرح الأخلاق . لهذا ينبغي عليّ ألا أظل صامتاً ، فأعطني عصاي لطرده!

بلوتوس : انه لا يدرك ماذا يهددنا من الخارج ، دعه يَخُضْ في ترّهاته! فلن يتسع مكانه لخزعبلاته ، ان القانون قويّ ، لكن الحاجة أقوى منه .

ضجيج وغناء : الجمع المتوحش يأتي خصوصاً من أعالي الجبال وأودية الغابات ، ويسير دون أن يقاومه مقاوم : انهم يحتفلون بإلههم[٤٤] «بان» Pan العظيم . وهم يعلمون ما لا يعلمه أحد ، ويتدافعون في الدائرة الخالية .

بلوتوس : أنا أعرفكم جيدا أنتم «وبانكم» العظيم! وقد خطوتم معا خطوة جسورة . وأعلم جيدا ما لا يعرفه كل واحد ، وأفتح على مسؤوليتي هذه الدائرة الضيقة .
ليت أن الحظ السعيد يرافقهم! ان أعجب الأمور يمكن أن تحدث ، أنتم لا تعلمون إلى أين هم سائرون ، وهم لم يحتاطوا .

غناء وحشيّ : أيها الشعب المنظّف ، يا ذا البريق الزائف! جاءوا جفاة ، وقدموا خُشَناء ، بوثبة عالية ، ومسيرة مندفعة ، وعليهم سيماء الفظاظة والمهارة

فونات[٤٥] : جماعة الفونات ، في رقصة مرحة ، واكليل السنديان في الشعر

الجعد ، وأذن دقيقة محدودبة تبرز من الرأس المزّود بالغرائز وأنف أفطس ، ووجه واسع ، ـ كل هذا لا يضر عند النساء : ان الفون إذا بسط حافره فمن الصعب على أجمل النساء أن يرفضن مراقصته .

ساتور : الساتور يطفر الآن في الخلف بقدم ماعز وساق متصلّبة هما بالضرورة هزيلتان ومعوجّتان . ويلذ له أن يتجول مثل الوعل فوق أعالي الجبال ، في هواء الحرية ينشط مزدريا الولد والزوجة والرجل الغائصين في بخار الوادي ودخانه ، لأن العالم هناك في أعلى مِلْكُ يديه في صفاء وسكينة .

جنومات[٤٦] : ها هي ذي الجماعة الصغيرة تخطو خطى قصيرة ، ولا تحب أن تكون أزواجا أزواجا ، وفي أثواب طحلبية تتحرك بسرعة فيما بينها ومعها مصباح صغير مضيء ، وكل واحد يشتغل لنفسه ، وتتزاحم مثل النمل البرّاق وتجري هنا وهناك باجتهاد ، مشغولة بهذا وذاك .

نحن ننتسب إلى أهل الخير ومعروفون جيدا بوصفنا جرّاحي[٤٧] الصخور : نحن نمتص الجبال العالية مثلما تفعل كاسات الهواء ، ونمتتح من عروق ملينة ، ونهيل المعادن مهللين بالتحية : حظ سعيد! حظ سعيد! وهدفنا من ذلك هو الاحسان : ذلك أنّا أصدقاء الطيبين من بني الإنسان . لكننا نستخرج الذهب ، ابتغاء أن يسرق المرء ويتوسط في الزواج . الحديد لا يعوز الرجل المتكبر الذي يفكّر في الاغتيال العام . ومن ينتهك الأوامر الثلاثة[٤٨] ، لن يصنع بالبواقي الأخرى شيئا . ذلك كله ليس ذنبنا . ولذلك عليكم الاعتصام بالصبر مثلنا .

انهم يسمّون : «الرجال المتوحشون» ، وهم معروفون جيدا في جبال الهارتس ، عراة بالطبيعة في كل قوتهم ، جاءوا جميعا مَرَدة جبابرة . في اليد اليمنى جذع صنوبر ، وحول الخصر حزام مُبطّن وميدعة خشنة من الأغصان والأوراق : حرّاس شخصيون لم يكن عند أحد من البابوات مثلهم .

حوريات في جوقة : (يحطن «ببان» Pan العظيم) : ها هو ذا يجيء أيضا! ـ كل العالم يتمثّل في «بان» العظيم . أيتها المرحات تحلّقن حوله وأحطنه برقصة ذات

ألاعيب . فعلى الرغم من أنه جادّ وخيّر ، فانه يطيب له أيضا أن يكون الناس فرحين مبتهجين . لقد ظلّ دائما ساهرا تحت سقف القبة الزرقاء ، ومع ذلك ظلّت الجداول تهمس له بالخرير ، والأنسام تهدهده في سكون . وحين ينام في وقت الظهيرة لا تتحرك ورقة على غصن والعطر البلسمي المنبعث من النباتات السليمة يملأ الهواء الساكن الصامت . لا يحق للحورية أن تكون نشيطة يقظة ، وأينما تكن تَغْرُها نعسة . لكن إذا رنّ صوت «بان» «Pan» بشدة وغير متوقع مثل هزيم البرق وهدير البحر ، فن أحدا لا يدري أين هو ، ويتبدد شمل الجيش الشجاع في الميدان ، ويرتعد البطل في المعمعة . فمجّدوا اذن من يستحق التمجيد ، وحيّوا من قادنا إلى هنا .

وفد من الجنومات : (يخاطب «بان» Pan العظيم) : حين يتمدد الخير الثمين اللامع على شكل خيوط خلال الأخاديد ، لا يستطيع أن يدل على تيهه غير عصا التحسّس البارعة في الكهوف المظلمة نقيم عقود بيتنا مثل سكان الكهوف ، وفي هواء النهار الصافي تقوم أنت بتوزيع الكنوز بكرم وتفضّل . والآن قد اكتشفنا بالقرب من هنا ينبوعاً عجيبا يَعِد بإعطاء ما لا يكاد يمكن الوصول اليه .

فتفضل وأتّم الأمر ، وخذه ، يا مولاي ، تحت رعايتك : ان كل كنز في يديك سيفيد منه كل العالم .

بلوتوس : (يخاطب المنادي) : علينا الآن أن نحشد خاطرنا ، وأن ندع ما يحدث يحدث ، ونحن في رخاوة بال . وأنت أبديت دائماً عن شجاعة بالغة . والآن سيحدث أمر مروّع ، سينكره العالم والعالم المقبل بعناد وإصرار : فاكتبه بدقة في سجلّك .

المنادي : (ممسكا بالعصا التي يحتفظ بها بان Pan في يده) : ان الأقزام يقودون «بان» العظيم الى مصدر النار ، انها تفور من أعمق عمائق الأخدود ، ثم تغوص من جديد في القاع ، بينما تبقى الفوّهة المفتوحة مظلمة . ثم يغلي من جديد في اللهب والغليان ، «وبان» العظيم يقف جذلاناً مستمتعا بهذا الأمر العجيب ، ورغوة اللآلئ تتطاير ذات اليمين وذات الشمال . أنىّ له أن يثق بهذا الأمر ؟ انه ينحني بعمق لينظر في

الداخل . ـ بيد أن لحيته سقطت في الداخل! ـ لمن يكون هذا الذقن الناعم ؟ لقد وضع يده عليه فاستتر عن أبصارنا . ـ وبعد ذلك حدثت مصيبة كبيرة ؛ لقد احترقت لحيته وطارت عائدة ، فاشتعل كتفيه ورأسه وصدره ، وتحول السرور الى ألم! ـ ويهرع الحشد الى اطفاء النار لكن لم يَنْجُ أحد من اللهيب ، وحيث جرى الصفع والضرب كانت تلتهب شعلات جديدة ، وكوكبة كاملة من الأقنعة اشتبكت في هذا العنصر (النار) فاحترقت .

لكن ماذا يعلنون لنا متنقلا من فم الى فم ، ومن أذن الي أذن ؟ أيتها الليلة الكئيبة ، أية آلام سبّبتها لنا! في اليوم التالي سيُعلن ما لا يريد أحدٌ سماعه ، لكني أسمع في كل مكانه هذه النصيحة : «الامبراطور يعاني مثل هذا العذاب!» ألا ليت الحقيقة كانت غير ذلك!

إن الامبراطور يحترق هو وجماعته! اللعنة على أولئك الذين أضلوا السبيل وقد شدّت نفسها في أغصان صمغية وجاءت هنا تضج بنشيد صارخ وتبعث الكآبة في نفوس الجميع . أيها الشباب ، أيها الشباب . ألن تقدروا أبدا على حصر السرور في نطاقٍ صافٍ معقول ؟ أيتها الجلالة ، أيتها الجلالة ، ألا تسطيع أبدا أن تجمع بين التعقل السلطة ؟ ها هي ذي الغابة[٤٩] قد صارت نهبا للنيران ، التي تلعق بألسنتها السقف الخشبي وتهدد باحراق شامل . لقد طفح كأس الشقاء ، ولا أعلم من ينبغي عليه أن ينقذنا . كل الفخامة الامبراطورية الثرية ستصبح غدا تلاً من الرماد الذي تكدّس في ليلة واحدة[٥٠] .

بلوتوس : انتشر الفزع بما فيه الكفاية ، فلتقدم المعونة الآن! اضربي يا قوة العصا المقدسة حتى تتزلزل الأرض وترنّ! وأنت أيها الهواء الفسيح املأ نفسك برائحة باردة! اسحب الى هنا أبخرة الضباب والغازات[٥١] المحمّلة (بالرطوبة) وغطّ بها الحشد المشتعل! انهمر ، زمزم ، تموّج أيها السحاب ، انزلق متموجا ، بخّر بهدوء ، كافح وأطفئ في كل مكان ، وحوّلي ، أيتها الرطبة المهدّئة لعبة الشعلة العابثة الى بروق متناثرة! ان الأرواح اذا هدّدت بالاضرار بنا ، فعلى السحر[٥٢] أن يتولى العلاج .

حديقة ترفيه

شمس الصباح

الامبراطور، رجال القصر، فاوست، مفستوفيلس
(الأخيران في وقار وثياب محتشمة ولا يثيران
الدهشة، يركعان)

فاوست : هل تغتفر ، يا مولاي ، اللعبة السحرية بالنار ؟

الامبراطور : (وهو يشير اليه بالوقوف منتصبا) : إني مولع بالكثير من أمثال هذه الألوان من المزاح! ــ دفعة واحدة خيّل الي أنني في نطاق مشتعل ، وبدا لي كما لو كنت أنا بلوتو(٥٣) .
من الليل والفحم كان أخدود صخري يشتعل باللهيب . وفي هذه الحفرة وفي تلك تناوحت آلاف من الشعلات الوحشية وتجمعت على هيئة قبة . وتعالت ألسنة النيران على شكل أعلى كاتدرائية ، وكانت تتحول دوماً وتتبدد . وخلال أعمدة النار الملتوية شاهدتُ من بعيد صفوفا من الشعوب تتدافع في دائرة أوسع وتقدّم لي فروض الولاء كما كانت تفعل دوماً . ومن بلاطي تعرفت واحدا أو اثنين . وشعرت بنفسي أميرا على ألف سمندل .

مفستوفيلس : وأنت هذا يا مولاي! لأي كل عنصر يقرّ بجلالتك دون أي شرط . لقد جرّبتَ الآن طاعة النار . ألق بنفسك في البحر حيث تبلغ الزمجرة أقصاها ، وما تكاد تمشي على القاع الغني باللآلئ ، حتى تتكون حولك دائرة رائعة من الأمواج . ستشاهد في أعلى وفي أسفل أمواجا خضراء صافية ذوات حواش أرجوانية تصلح أن تكون أجمل مسكن وهي تتزايد حواليك وأنت المركز . وفي كل خطوة تخطوها ، أينما ذهبت ذهبت معك القصور . والجدران ذاتها تتمتع بالحياة ، والاحتشاد السريع سرعة السهم ، والسعي في كلا الاتجاهين المتضادين . وتتدافع عجائب البحر الى مظهر جديد رقيق وتقذف

بنفسها الى الأمام ، لكن لا واحد منها يجرؤ على الدخول . وتتلاعب تنانين مختلفة الألوان ذوات فلوس ذهبية ، وسمك القرش يفغر فاه . فتسخر أنت منه في جوف حلقه . ومهما يكن من افتتان الحاشية الآن من حولك ، فانك لم تشهد مثل هذا الزحام من قبل . ومع ذلك فلا تَبْقَ مفصولا عن أعزّ محبوب : اذ تقترب عرائس البحر[٥٤] الطُّلَعة من مسكنك الفخم في الرطوبة الدائمة ، وصغراهن خَفِرةٌ شهوانية مثل السمك ، وأما اللواتي يأتين بعدهن فهن أكثر رزانة وحصافة . وثيتس ستستطلع الأنباء ، وتقدم يدها وفمها الى بيليوس الثاني . أما مقعدك على منطقة الأولمب...

الامبراطور : الأماكن الهوائية أنا أتركها لك : فسأرتقي ذلك العرش[٥٥] في وقت مبكر .

مفستوفيلس : والأرض ، أيها المولى الأعظم ، هي ملكك فعلا .

الامبراطور : أيّ حظ سعيد جاء بك هنا مباشرة من ألف ليلة وليلة ؟ لو كنت أنت في الخصوبة وسعة الحيلة مثل شهرزاد ، لأمّنت لك أسمى النّعم . كن دائماً على أهبة الاستعداد ، حين يضايقني عالمك اليومي ، وهو أمر كثيرا ما يحدث .

مدير شؤون القصر : (يظهر وهو مسرع) : يا صاحب الجلالة ، لم أحلم طوال حياتي أن يكون من حظي السعيد أن أعلن هذا النبأ ، الذي يملؤني بالسعادة : وأنا في حضرتكم لقد دفعنا كل ما علينا من ديون ، وتخلصنا من براثن المرابين ، ونجوت أنا من عذاب الجحيم هذا ، ولو كنت في الجنة لما كنت أسعد مما أنا الآن .

رئيس الجيش : دُفِعت المرتبات على أقساط ، ودخل الجيش كله في الطاعة من جديد ، حامل الرمح يستشعر دما جديدا ، وصاحب الحانة والمومسات لديهم عمل كثير .

الامبراطور : كم انشرحَتْ صدوركم! وكم حلّ الصفاء في وجوهكم العابسة! وكم أسرعتم في المجيء الى هنا!

رئيس الخزانة : (وهو يدخل) : اسأل هذين[٥٦] ، فهما اللذان قاما بهذا العمل .

فاوست : يخلق بالمستشار أن يشرح الأمر .

المستشار : (وهو يقترب ببطء) : كم أشعر بالسعادة في أخريات أيامي! اسمع اذن وانظُر الى هذه الورقة الحبلى بالمصير ، والتي حوّلت كل شقائنا الى هناء . (يقرأ :) «الى من يهمه الأمر ، هذه الورقة قيمتها ألف كورونة ، وهي مضمونة تماما بما لا يحصى من الأموال المخزونة في بلاط الامبراطور وقد اتخذت الاجراءات اللازمة ليكون الكنز الغنيّ المدفون ، متى ما استخرج ، بديلا عنها » .

الامبراطور : إني أتوجس في هذا جريمة وتزويرا هائلا . من الذي زوّر هنا توقيع الامبراطور ؟ وهل مضت هذه الجناية دون عقاب ؟

رئيس الخزانة : تذكّر : «أنت الذي وقّعت عليها بنفسك في الليلة الماضية فقط ، كنت واقفا بصفة «بان» Pan العظيم ، والمستشار جاء وقال لك ونحن حاضرون : اسمح لنفسك بهذا السرور العظيم في هذه المناسبة بأن تؤمّن لشعبك السعادة والنجاة بوساطة بضع جرّات من قلمك! » فخططتها بخط رائق ، وفي نفس الليلة قام آلاف الفنانين فانتسخوا منها آلاف النسخ بسرعة . ولكي تعمّ النعمة الجميع على السواء ، ختمنا المجموعة كلها فورا بالأرقام : عشرة ، ثلاثون ، خمسون ، مائة . أنت لا تتصور كم أفاد الشعب من هذا . أنظر الى مدينتك كيف صار كل شيء فيها يحيا ويستمتع بالهناء ، ولولا ذلك لكانت بقيت غارقة في الموت . وعلى الرغم من أن اسمك أسعد العالم منذ زمان طويل ، فان الناس لم يتطلعوا فيه بمحبة مثلما يفعلون الآن . وما عاد الناس في حاجة الآن الى باقي حروف الهجاء ، بل حسبهم حروف توقيعك ليصيروا الآن سعداء .

الامبراطور : وهل رجالي يعتبرونها ذهبا صحيحا ؟ وهل تكفي لدفع كل رواتب الجيش والبلاط ؟ الأمر يبدو لي غريبا جاء ، لكن عليّ أن أدعه يسير .

مدير شؤون القصر : كان من المستحيل الامساك بالهاربين[٥٧] . لقد تشتتوا أباديد في لحظة . وفتح الصرّافون أبوابهم على مصاريعها ، وصرفوا كل الأوراق بالذهب والفضة ـ مع خصم[٥٨] ، طبعا . ومن هناك مضى الناس الى القصّابين والخبازين أو الى الحانات ونصف الناس بدا أنهم لم يعودوا

يفكّرون الا في الاستمتاع ، والنصف الآخر راحوا يتباهون بملابسهم
الجديدة . تاجر الأجواخ يقص ، والخياط يخيط ، وفي الحانات كان
الناس يتزاحمون ويشربون صانحين : «يحيا الامبراطور» وهنا وهناك
كان طبخ ونشيش حساء وصحون تصلصل .

مفستوفيلس : ومن يتربص وحده بالقرب من المقاهي كان يشاهد أجمل النساء وهن
في أجمل زينة ، والواحدة منهن كانت تغطي احدى عينيها بمروحة
طاووس مستكبرة ، وبالعين الأخرى ترمقنا وترمي بنظراتها نحو أمثال
هذه الأوراق النقدية ، وبهذه الوسيلة الأنجع من كل ذكاء وبلاغة كانت
تمكن من أثمن مواهب الحب لديها . ولم يَعُدْ ثَمّ داعٍ أن يضايق
المرء نفسه بحمل كيس أو حقيبة ، فورقة النقد الصغيرة يسهل حملها
في العبّ مع ما يحمل فيه من خطابات غرامية . والقسيس يستطيع أن
يحملها بورع وتقى داخل كتاب الصلوات ، والجندي يخفف بها عن
الثقل الموضوع على ساقيه فتسهل عليه الحركة بحرّية . وليغفر لي
جلالتك اذا كنت قد أسهبت في التفاصيل من أجل الاشادة بهذا
الانجاز العظيم .

فاوست : ان القدر الهائل من الكنوز المدفونة بعمق في الأرض في بلادك ظل
غير مستفاد منه . وأوسع تصوّر لا يمكن أن يفي بوصف هذه الثروة
ومداها . والخيال ، في أعلى تحليقاته سيجهد نفسه سدى دون أن يبلغ
حدودها . لكن العقول العميقة الأفكار لها ثقة لا نهائية بما هو لا
نهائي .

مفستوفيلس : مثل هذه الورقة ، البديلة عن الذهب واللؤلؤ ، يسيرة الاستعمال ،
بحيث يعرف الانسان ما معه ، ولا يحتاج المرء إلى المساومة
والمبادلة ، ويستطيع بها أن يسكر بالخمر والحب حسبما يهوى .
وان أراد معدناً فها هو الصرّاف مستعد ، فان لم يوجد معدن فما على
المـــرء إلا أن ينقب بعض الوقت . ويمكنك أن ترهن الكأس
والسلسلة ، والورقة متى ما فكّ رهنها أخجلت الشاكّ الذي سخر منا
بوقاحة . ولا يعود الناس يرغبون في غير ذلك ، لأنهم صاروا متعودين
عليه . وعلى هذا النحو يبقى من الآن فصاعدا ما يكفي من الجواهر

والذهب والورق في كل بلاد الامبراطور .

الامبراطور : ان امبراطوريتنا تدين لكما بالرفاهية المالية ، فلتكن المكافأة على قدر الخدمة متى كان ذلك مستطاعا . وليوكل لكما ما في باطن أرض الامبراطورية ، فأنتما أجدر من يحرس الكنوز . أنتما تعرفان الكنز الواسع المحفوظ جيدا ، واذا حدث تنقيب فليكن ذلك وفقا لكلمتكما . فلينضمّ بعضكم إلى بعض يا سادة كنزنا ، أدّوا بشغف مهامّ وظيفتكم حيث يأتلف العالم العلوي مع السفلي في هناء .

رئيس الخزانة : ولا ينبغي أن يقوم بيننا أي نزاع مهما يكن! ويطيب لي أن يكون الساحر زميلا لي .

(يخرج مع فاوست)

الامبراطور : سأهدي كل من في البلاط رجُلا فرجُلا ، هدية ، لكن ليذكر كل واحد ماذا سيعمل بها .

وصيف : (وهو يأخذ الهدية) : سأعيش في مرح وصفاء واستمتاع بأطايب الأشياء

وصيف آخر : (وهو يأخذ الهدية) : سأشتري فورا لحبيبتي سلسلة وخاتما .

أمين في القصر : (وهو يتلقى الهدية) : من الآن فصاعدا سأشرب الضّعْفَ من أجود الخمور .

أمين آخر : (بالمثل) صار النرد[٥٩] يتحرك في جيبي .

سيد إقطاع[٦٠] : (وهو يفكر) : قَصْري وحقلي سأجعلهما خاليين من الدّيْن .

سيد اقطاع آخر : (وهو يفكر) : هذا كنز ، أدخر ، إلى جانب الكنوز الأخرى .

الامبراطور : كنت آمل أن تتولد فيكم الرغبة والحميّة للقيام بأعمال جديدة . لكن من يعرفكم ، يستطيع أن يجْزِركم بسهولة . وهأنذا ألاحظ أنه على الرغم من هذا الفيض من الكنوز فقد بقيتم مثلما كنتم من قبل! .

المجنون : (قادما) : أنت تهب نِعَما ، فامنحني أنا أيضا منها .

الامبراطور : لو بعثت حيّا من جديد ، لأضعتها في الشراب .

المجنون : الأوراق السحرية! أنا لا أفهمها جيدا .

الامبراطور : أعتقد هذا ، لأنك تسيء استعمالها .

المجنون : أوراق أخرى تسقط هناك ، ولا أعرف ماذا أعمل بها .

الامبراطور : خذها فقط ، فهي لك . (يخرج)

المجنون : خمسة آلاف كورونة ـ أتكون هذه لي ؟!

مفستوفيلس : أيّها القربة ذات القدمين ، هل بعثت حية من جديد . ؟

المجنون : هذا أمر يحدث لي مرارا ، لكن ليس في حالة طيبة مثل هذه المرة

مفستوفيلس : أنت في غاية البهجة حتى أنك تتصبب عرقا .

المجنون : لكن قل لي ، هل لهذه قيمة النقود ؟

مفستوفيلس : لك بها ما يُمتّع الحلق والبطن .

المجنون : وبها أستطيع أن أشتري حقلا وبيتا وماشية ؟

مفستوفيلس : طبعا! ما عليك إلا أن تعرضها وستحصل على ما تطلب .

المجنون : وقصراً له غابة ومكانَ صيد وحوضَ سمك ؟

مفستوفيلس : مؤكّد! وبودي أن أراك سيّدا نبيلا!

المجنون : مساء اليوم سأهدهد نفسي في أرض مملوكة لي! (يخرج)

مفستوفيلس : (وحده) : من ذا الذي يشك بعدُ في ذكاء مجنوننا هذا ؟!

رواق مظلم

فاوست ـ مفستوفيلس

مفستوفيلس : ماذا يجعلك تجرّني إلى هذه الممرّات المظلمة ؟ أليست هناك متعة كافية ؟ أليس في زحمة القصر الكثيفة المتعددة الألوان فرصة للمزح والخداع ؟

فاوست : لا تقل لي هذا ، فطالما وطنت هذا بقدمك[11] في الأيام الماضية . أما الآن فان ذهابك هنا وهناك انما هو كي لا تكلمني . غير أني في ورطة ولا بد أن أفعل ، فان مدير شؤون القصر والأمين يستحثانني . الامبراطور يريد أن يرى هيلانة وباريس أمامه ، يريد أن يشاهد نموذج الرجال ونموذج النساء في أشكال واضحة . أسرع إلى العمل! لا يحق لي أن أخلّ بوعدي .

مفستوفيلس : هذا غير معقول ، ومن التهور الوعد به .

فاوست : انك ، يا صاحبي ، لم تقدّر إلى أين تقود فنونك ، لقد جعلناه أولا غنيا ، وعلينا الآن أن نرفّه عنه .

مفستوفيلس : أنت تتوهم أن هذا أمر يمكن انجازه في الحال . نحن هنا أمام درجات وعرة ، فأنت تريد أن تخوض في ميدان بالغ الغرابة ، وفي النهاية ترتكب جرائم جديدة ، وتحسب أن من السهل استحضار هيلانة كما استحضرت أشباح أوراق النقد هاتيك . ــ لو أنك طلبت ساحرات أو أشباح أشباح ، أو أقزاما مشوّهين ، لكنت طوع أمرك . ولكن معشوقات الشيطان لا يمكن أن يعتبرن بطلات ، وان كن غير جديرات بالازدراء .

فاوست : هأنت ذا تعود إلى نغمتك القديمة! معك يظل المرء دوماً في قلق وغموض . أنت أبو كل العقبات ولكل وسيلة تريد مكافأة جديدة . أنا أعرف أنه يكفيك أن تهمس ببضع كلمات ، ويتم الأمر . وما يتلفت المرء حواليه الا ويكونان ها هنا .

مفستوفيلس : الشعب الوثني ليس من شأني ، انه يقيم في جحيم خاصّ به ، ومع ذلك فثمّ وسيلة .

فاوست : تكلمّ ، ودون ابطاء!

مفستوفيلس : يشقّ عليّ أن أكشف سرًا عاليا . ــ ثَمَ آلهات[٦٢] يستوين على عروشهن في الخلوة ، خارج المكان ، وبالأحرى خارج الزمان . ومجرد الكلام عنهن يوقع في حيرة وارتباك . انهن الأمهات[٦٣] .

فاوست : (في دهشة وفزع) : أمّهات!

مفستوفيلس : أهذا يفزعك ؟

فاوست : الأمهات! أمّهات! ـ هذا يرنّ رنينا عجيباً!

مفستوفيلس : وهن فعلا كذلك : أمّهات غير معروفات لكم أيها الفانون ، ويشقّ علينا نحن أن نذكر أسماءهن وللوصول إلى مسكنهن عليك أن تحفر إلى أعمق الأعماق ، وأنت وحدك المسؤول عن كوننا في حاجة إليهن .

فاوست : وأين الطريق إليهن ؟

مفستوفيلس : لا يوجد طريق! ستسلك اللا مطروق ، وما لا ينبغي سلوكه ، إنه

طريق إلى غير المسموح به ، وما لا يمكن السماح به ، هل أنت مستعد ؟ لن يكون هناك أقفال ولا مزاليج ، بل ستساق من خلاء إلى آخر . هل عندك فكرة عن الخواء والخلاء ؟

فاوست : ظننت أنك ستعفيني من مثل هذه الرطانة! إني أستروح فيها مطبخ الساحرة وزمانا مضى منذ عهد بعيد ، كان عليّ فيه أن أحتفظ بالعالم ، وأن أتعلم ما هو خاو ، وأعلمّ غيري ما هو خاو ، وإذا تكلمت بعقل ، كما كنت أعتقد ، كان النقيض يتردد صداه ، مزدوجا وحدثت حوادث مزعجة ، فكان عليّ أن أهرب إلى الغابات وأن أكون وحيدا . وأخيرا ، وحتى لا أكون في عزلة تامة وحتى لا أحيا وحدي ، كان عليّ أن أسلم نفسي للشيطان .

مفستوفيلس : ولو أنك سبحت الاوقيانوس المحيط ، وشاهدت هناك اللامحدود ، لكنت شاهدت الموجة تتلو الموجة ، حتى لو كانت تهددك بالفناء ، إذن لكنت قد شاهدت شيئا على كل حال : شاهدت في خضرة البحار الساكنة الدلفين السابح ، وشاهدت السحب والشمس والقمر تجري . ولن تشاهد شيئا في الأقاصي الخاوية أبدا ، ولن تسمع وقع الخطوة التي تخطوها ، ولن تجد شيئا ثابتا تستريح عليه .

فاوست : أنت تتكلم مثل أول الممخرقين[٦٤] الذين خدعوا تلاميذهم المخلصين ،لكن بطريقة عكسية[٦٥] . أنت تبعث بي الى الخواء ، كيما أزيد من فنّي وقوّتي ، وأنت تعاملني مثل تلك القطط التي تلتقط لك الكستناء من النار . ليكن لك ذلك . نريد أن نختبر الأمر : إني آمل أن أعثر على الكل في لا شيئك هذا .

مفستوفيلس : إني أثني عليك قبل أن تفارقني ، وأتبيّن حقا أنك تعرف الشيطان حق المعرفة . خذ هذا المفتاح إذن!

فاوست : هذا الشيء الصغير!

مفستوفيلس : أمسكه أولا ، ولا تقلّل من شأنه .

فاوست : إنه ينمو في يدي! إنه يضيء ، ويبرق!

مفستوفيلس : أتدرك الآن ما له من خواص ؟ إن المفتاح سيدل على الموضع الصحيح ، فاتبعه إلى هناك ، فسيقودك إلى الأمهات .

فاوست : (مرتعدا) : الأمهات! إن لها وقعاً شديدا في نفسي . ما هذه الكلمة التي لا أودّ سماعها ؟

مفستوفيلس : هل أنت محدود الفهم إلى أن كلمة جديدة تثير الاضطراب في نفسك ؟ ألا تريد أن تسمع إلا ما سمعته من قبل ؟ لا يزعجنك شيء مهما كان رنينه ، الآن وقد تعودت منذ زمان طويل على أعجب الأشياء .

فاوست : لكني أيضا لا أنشد نجاتي في الجمود والتحجّر[٦٦] ان القشعريرة هي خير نصيب قُسِم للإنسانية . مهما غلا الثمن الذي يتقاضاه العالم من الشعور ، فانه إذا أصيب استشعر بعمقٍ أروع الأمور .

مفستوفيلس : انزل اذن! وفي وسعي أيضا أن أقول : اصعد! فالأمر سواء[٦٧] . أهرب من العالم المخلوق وادخل عالم الأشكال المفارقة ، واستمتع بما لم يعد حاضرا[٦٨] منذ زمان طويل! ان الحشد يتلوى مثل السحب الجارية ، حرّك المفتاح وأبعده عن جسمك[٦٩]!

فاوست : (متحمسا) : حسن! إني أشعر بقوة جديدة حين أمسك به جيدا ، وصدري ينشرح . فهيا إلى العمل العظيم!

مفستوفيلس : حين تصل إلى مقعد[٧٠] ذي ثلاث قوائم مشتعل سيكون ذلك ايذانا بأنك صرت في القاع الأعمق . وعلى ضوئه ستبصر الأمهات : بعضهن جالسات ، والبعض الأُخر واقفات أو ماشيات ، حيثما اتفق . تشكيل ، تحويل ، حديث أبدي للمعنى الخالد . تحيط بهن صور كل المخلوقات . انهن لا يرينك ، لأنهن لا يرين إلا الصور الشبحية . عليك بالشجاعة لأن الخطر كبير . امضِ مباشرة إلى المقعد الثلاثي القوائم والمسه بالمفتاح .

(فاوست يتخذ مع المفتاح موقف الآمر المسيطر)

مفستوفيلس : (وهو ينظر إليه) : هكذا تماما! إنه ينضم إليك ويتبعك كالعبد الأمين . ستصعد مستريحا ، وسيرفعك الحظ السعيد ، وقبل أن يلاحظ ذلك أحد ستعود معه إلى هنا . ومتى ما أتيت به إلى هنا ، تستطيع أن تنادي البطل والبطلة من بين الظلمة . وستكون أول من تجاسر على القيام بهذا العمل : لقد قمت به ، وتم الأمر . وسُحب البخور ستتحول

إلى آلهة وفقاً لهذه العملية السحرية .

فاوست : وماذا أفعل الآن ؟

مفستوفيلس : لتسع طبيعتك إلى أسفل! انزل ضاربا الأرض بقدميك ، واصعد من جديد ضاربا الأرض بقدميك .

(فاوست يضرب الأرض بقدميه وينزل)

مفستوفيلس : ألا ليت المفتاح ينفعه على خير نحو! ليت شعري هل يعود .

قاعات باهرة الاضاءة

الامبراطور والأمراء، البلاط في حركة

الأمين : (مخاطبا مفستوفيلس) : أنت لا تزال مديناً لنا بمنظر الأرواح ، هيّ اعرضه! إن مولاي متلهّف لرؤيته .

مدير شؤون القصر : كان جلالته يسأل عنه منذ لحظة ، لا تتردد ، وإلا جلبت على نفسك سخط جلالته .

مفستوفيلس : ان رفيقي ذهب من أجل القيام بهذه المهمة ، وهو يعرف كيف يقوم بالعمل ، وهو مشغول به في هدوء ، والأمر يحتاج الى مجهود خاص جدا ، لأن من يرد الحصول على الكنز ، أعني الجمال[٧١] ، يحتاج إلى أعلى الفنون ، وهو سحر الحكماء .

مدير شؤون القصر : لا يهمني أيّ فنون تحتاج اليها . ان الامبراطور يريد أن ينجز كل شيء .

شقراء : (تخاطب مفستوفيلس) : كلمة ، يا سيدي! أنت ترى وجهي صافيا . لكنه مع الأسف لا يكون كذلك في الصيف! اذ تنبت عليه مئات من البقع الحمراء المُسْمَرّة تغطي البشرة البيضاء ، وهو أمر يزعجني . فهل من دواء ؟!

مفستوفيلس : واأسفاه! أن يتصور المرء فتاة جميلة مثلك تنتشر على بشرتها البقع في شهر مايو فتصبح مثل قط نمريّ . خذي بيض ضفادع واخلطيه بألسنة العلاجيم . ثم قَطّري ذلك في ليلةِ القمرُ فيها بدر ، وضعيه على

جلدك حين يكون القمر في التناقص ، وحين يأتي الربيع ستجدين البقع قد زالت .

سمراء : الجمهور يتدافع الى هنا ليتودّد اليك . أرجو منك علاجاً! ان قدمي عرجاء وتمنعني من المشي ومن الرقص ، وبصعوبة أنحني للتحية .

مفستوفيلس : هل تسمحين لي أن أضع قدمي على قدمك!

السمراء : هذا يحدث بين العشاق .

مفستوفيلس : يا بنيّتي ، وطأة قدمي لها معنى أكبر من ذلك . الشبيه[٧٢] للشبيه دواء ، مهما تكن الأدواء! القدم تشفي القدم ، وهكذا الأمر بالنسبة الى كل أعضاء الجسم . تعالي! انتبهي! لا ترديها!

السمراء : (وهي تصرخ) : أواه! أواه! هذا يحرقني! لقد كانت وطأة قاسية ، كوطأة حافر فرس .

مفستوفيلس : لكنك شفيت . وفي وسعك منذ الآن أن ترقصي ما حلا لك الرقص ، وأن تطئي قدم حبيبك تحت المائدة .

سيدة : (مندفعة) : دعوني أمرَ . إني في محنة شديدة تجعلني أَغْلي غضبا . حتى أمس كان ينشد الشفاء في نظراتي ـ . لكنه الآن يثرثر معها ويدير لي ظهره .

مفستوفيلس : هذا أمر خطير ، لكن اسمعي : عليك الآن أن تتسللي بخفة اليه ، وخذي هذه الفحمة واضربيه بها على كمّه ومعطفه وكتفه ، حيثما أمكن ، هنالك سيشعر في قلبه بلسعة ندم حادّة . لكن عليك بعد ذلك أن تبلعي هذه الفحمة فورا ، وألا تقربي من شفتيك خمرا ولا ماء . وستجدينه يبث زفرات العشق أمام بابك هذه الليلة .

السيدة : لكنها ليست سما ؟

مفستوفيلس : (محتدّا) : الاحترام ، حيث يليق الاقدام! ان عليك أن تبحثي عن مثل هذه الفحمة في أماكن بعيدة ، انها أخذت من كومة حطب أحرقناه نحن بكل اجتهاد وحميّة .

وصيف : أنا عاشق ، لكنهم يستصغرونني على الحب .

مفستوفيلس : (منتحيا جانبا) : لا أعرف بعد ماذا عساي أن أسمع! (مخاطبا الوصيف) عليك ألا تبني سعادتك على الصغيرات السّن ، فان كبيرات السَن

يعرفن كيف يقدّرنك .
(آخرون يندفعون اليه)
وآخرون جديدون أيضا! يا له من صراع مرير! سأتذرع في النهاية بالحقيقة : وهي أسوأ معين! ان الأزمة هائلة . ـ أيتها الأمهات ، أيتها الأمهات! أطلقي سراح فاوست! (يلتفت حواليه) الأنوار بدأت تخفت في القاعة ، والبلاط كله يتحرك دفعة واحدة . وبوقار أراهم يسيرون في توالٍ خلال الممرّات الطويلة والأروقة البعيدة . والآن هم يتجمّعون في المكان الفسيح في قاعة الفرسان القديمة وهي لا تكاد تسعهم . والسجاجيد معلقة على الجدران . والرنوك في المشكايات والزوايا . وأعتقد أنه لا حاجة هنا الى كلمات السحر ، فالأرواح ستعرف طريقها من تلقاء نفسها الى هذا المكان .

قاعة الفرسان

اضاءة خافتة
الامبراطور والبلاط في خلوة

المنادي : مهمّتي القديمة ، وهي أن أعلن عن التمثيلية ، ينغّصها عليّ السيطرة الخفية للأرواح . وعبثا يتجاسر المرء على ايضاح هذا الوضع المتشابك المضطرب عن طريق أسباب معقولة . الأرائك صفَت ، والكراسي أعدّت . والامبراطور جلس في مواجهة الجدار ، وفي وسعه أن يتأمل على السجاجيد صور المعارك التي خاضها في الفترة العظيمة ، يتأملها على أيسر نحو . هنا جلس الجميع الآن : المولى والبلاط من حوله . والمقاعد تتزاحم في الخلف . وحتى العاشق قد وجد مكانا الى جانب معشوقته في ضوء خافت . وهكذا ، وبعد أن أخذ كلٌ مكانه ببراعة ، نحن مستعدون ، وللأرواح أن تأتي! (نفخ في الأبواق) .

المنجم : لتبدأ المسرحية . الامبراطور أمر بذلك . انفتحي أيتها الجدران . لا

يوجد أي مانع بعد ، والسحر تحت تصرفنا . ان السجاجيد تختفي كما لو أن الحريق لفّها . والجدار ينشقّ وينقلب . ويبدو أن مسرحا يأتي لينير لنا ، وهأنذا أصعد على المسرح .

مفستوفيلس : (مطلاً برأسه من ثقب الملقّن) : من عملي ها هنا أرجو أن أنال رضا عاما ، ان بلاغة الشيطان تقوم في الايحاء والتلقين .
(مخاطبا المنجّم) :
أنت تعرف الايقاع الذي بحسبه تسير النجوم ، ولهذا ستفهم تلقيني فهما جيدا .

المنجم : بناء معبد قديم يتجلّى ها هنا بفضل قوة السحر ، بناء شامخ . وصفوف من الأعمدة تقوم ها هنا شبيهة بأطلس[٧٣] الذي كان يحمل السماء . وهي تكفي لحمل الصخر لأن اثنين منها يحملان فعلا بناء ضخما .

المعمار : هذا عتيق! ولا أريد الثناء عليه ، انه غليظ ثقيل جدا . الخشن يسميه الناس نبيلا ، والعُتلّ : عظيما . أما أنا فأفضل العمود النحيل النازع إلى اللامحدود ، إنّ سَمْت العقد المحدّب يسمو بالروح . مثل هذا البناء هو الأقدر على تهذيب الروح .

المنجم : تلقوا باحترام ورهبة ساعات السّعود التي منحتها النجوم! وليرتبط العقل بكلمة السحر . وليتحرك بحرية واسعة الخيال الرائع الجسور! وبعيونكم شاهدوا الآن ما تشتاقون اليه بجسارة! انه أمر غير ممكن ولهذا هو جدير بالإيمان .

فاوست : (يصعد على الجانب الآخر من المسرح)

المنجم : في مسوح الكهنوت وعلى رأسه اكليل ، ورجل عجيب يتّم الآن ما بدأه عن ثقة . ومقعد مثلث القوائم يصعد من الأخدود الأجوف . وهأنذا أستروح من المبخرة رائحةَ البخور . إنه يتأهب لانجاز العمل السامي ، ومن الآن فصاعدا لن نلقي إلا ما هو سعيد .

فاوست : (بتعبير فخم) : باسمكنّ ، أيتها الأمّهات ، اللواتي تستوين على العرش في اللامحدود ، دائما وحدكن ، ومع ذلك تحببن العشرة! حول رؤوسكن تحوّم صور[٧٤] الحياة ، متحركة لكن بدون حياة . ما كان في

الماضي بكل جلال ورواء يتحرك هناك ، لأنه يريد أن يكون أبدا وأنت ، أيتها القوى القديرة كل القدرة ، تقسمينه قسمين : واحد إلى خيمة النهار ، وواحد إلى قبة الليالي ، واحد يمسك بمجرى الحياة النبيل ، والآخر ينشده الساحر الجسور ، وما يتمناه كل واحد من عجائب ، فانه يكشفه له كرم وافر وثقة تامة .

المنجم : ولا يكاد المفتاح المشتعل يمسّ المبخرة حتى يغطي المكان على الفور ضباب ذو بخار ، يتمشى ويموج مثل السحاب ، ويمتد ، ويتكوّر ، ويضيق ، ويتقسّم ، ويتزاوج . والآن شاهدوا رائعة سحرية : ان السحب وهي تسير تعزف موسيقا! ومن نغمات هوائية ينبثق ما لست أدري ، وبينما هي تسير ، يصبح كل شيء لحنا . وعود العمود ، وكذلك النقش المحفور الثلاثي يرنّان ، بل أعتقد أن المعبد كله يغنّي . والأبخرة تهبط ، ومن الإزهار الخفيف يبرز شاب جميل يمشي على ايقاع . هنا تصمت وظيفتي ، ولا أحتاج إلى أن أسمّيه : فمن ذا الذي لا يعرف باريس الفاتن!

(باريس[٧٥] يظهر)

سيدة : أوه! يا لرواء قوة الشباب الزاهر!

سيدة ثانية : مثل خوخة طازجة مليئة بالعصارة!

ثالثة : شفته عذبة منتفخة رقيقة!

رابعة : أتتشوقين إلى التمزّز من مثل هذه الكأس ؟

خامسة : انه جميل ، حتى لو لم يكن رقيقا .

سادسة : يمكنه مع ذلك أن يكون أبرع قليلا .

فارس : إني أشتم فيه صبيّ راعٍ[٧٦] ، أما صفات الأمير وسلوك أهل البلاط فليس عنده منها شيء .

فارس آخر : إنّ هذا الشاب نصف العاري جميل ، لكن ينبغي أن تراه أولا على سرج فرس .

سيدة : انه يجلس لينا لطيفا .

فارس : على حِجْره أتشعرين أيضا بالراحة ؟

سيدة أخرى : إنه يسند ذراعه إلى رأسه على نحو لطيف .

الأمين : هذه الوقاحة! أجدها غير مسموح بها!
سيدة : أنتم يا سادة تفتّشون عن عيب في كل شيء .
الأمين : أيتمطى هكذا في حضرة الامبراطور .!
سيدة : إنه يمثّل فقط! هو يعتقد أنه وحده .
الأمين : وحتى التمثيل يجب أن يكون هنا بأدب .
سيدة : غلب النعاس برفق على الشاب اللطيف .
الأمين : وها هو ذا يشخر على الفور ؟ وهذا أمر طبيعي لا تثريب عليه .
سيدة شابة : (مفتونة) : أي عطر مختلط ينبعث من بخار البخور هكذا ، حتى إنه لينعش أعمق عمائق قلبي ؟
سيدة أكبر سناً : هذا حق! إن نسمة تنفذ في أعماق الشعور ، انها هبت منه!
أكبر النسوة سناً : انه ازدهار النماء وقد أُعِدّ في الشاب مثل الامبروزيا(٧٧) وانتشر في الجوّ المحيط .

هيلانة (تظهر)

مفستوفيلس : أهذه هي اذن! أمام هذه سأستشعر الراحة : صحيح أنها جميلة ، لكنها لا تثير في نفسي شيئا .
المنجم : بالنسبة اليّ لا يمكن عمل شيء هذه المرة ، أنا أعترف بهذا الآن . متى ما جاءت الجميلة ، وددت لو أن لي ألسنة من نار ـ بالجمال كثيرا ما تغنّى الناس حتى الآن ، ومن يظهر له الجمال ، يخرج عن طوره ، ومن ملك الجمال كان يظفر بسعادة عظمى .
فاوست : هل أبصر بعينيَ ؟ أو أنه في أعماق عقلي تدَفَّق نَبْعُ الجمال هكذا أمامي ؟ ان سفرتي المروّعة أتت بأسعد مكسب . كم كان العالم عَدَماً قبل أن يتفتّح لي! وما هو الآن منذ كهنوتيتي ؟ لقد صار مرغوبا فيه ، عميق الأساس ، باقيا دوماً! لِتَزُلْ عنّي قوة نَفَس الحياة ، لو أنني عدت الى التعوّد عليك! ـ ان الصورة البديعة التي فتنتني ذات يوم ، وأسعدتني في المرآة السحرية ، لم تكن الا صورة زائفة لمثل هذه الجميلة وفقاعة بالنسبة اليها! لك أدين بينبوع كل قوة ، وبخلاصة الوجدان ، واني أكرّس نفسي للشغف بك ، وحبك ، وعبادتك ، والجنون بك .

مفستوفيلس : (من ثقب الملقن) : تماسك ولا تخرج عن دورك!
سيدة أكبر سناً : فارعة القوام ، مطهّمة الخلق ، بيد أن رأسها صغير جدا .
سيدة أصغر سناً : انظري الى قدمها! أيوجد ما هو أغلظ منها!
دبلوماسي : رأيت أميرات من هذا النوع ؛ ويبدو لي أنها جميلة من رأسها حتى قدميها .
رجل بلاط : انها تقترب من النائم ببطء ومكر .
سيدة : ما أقبحها اذا ما قورنت(٧٨) بصورته الشابة الصافية!
شاعر : نور جمالها يتألق عليه .
سيدة : كأنهما صورة اندوميون ولونا(٧٩) .
الشاعر : هذا صحيح تماما! الإلاهة يبدو أنها تنحني وتريد أن تتشرب أنفاسه . انه لأمر يدعو الى الحسد! ـ قبلة! ـ لقد طفح الكيل .
سيدة محترمة : أهكذا أمام جميع الناس! هذا جنون!
فاوست : نعمة مروّعة منحتها للصبي! ـ
مفستوفيلس : هدوء!! سكونا! دعوا الشبح يفعل ما يريد!
رجل البلاط : انها تتسلّل بقدم خفيفة . وهو استيقظ .
سيدة : انها تتلفّت حواليها! هذا فعلا هو ما تصورته .
رجل البلاط : وهو مندهش . ان ما حدث له هو معجزة .
سيدة : أما بالنسبة اليها فليس معجزة ما تراه أمامها .
رجل البلاط : بوقار تعود هي اليه .
سيدة : اني ألاحظ أنها تلقي عليه دروسا . في مثل هذه الحالة كل الرجـ ـ أغبياء : انه يحسب أنه أول واحد .
فارس : دعوها تفعل ما تفعل! هذا رائع حقا!
سيدة : هذه الفاجرة! اني أسمي هذا انحطاطا!
وصيف : بودّي لو كنت أنا مكانه!
رجل البلاط : من ذا الذي لا يصاد بمثل هذه الشبكة ؟
سيدة : الحلِية تبادلتها أيد كثيرة... ولهذا فان بريقها صار باهتا .
سيدة أخرى : منذ سن(٨٠) العاشرة وهي لم تكن حسنة السلوك .
فارس : بحسب المناسبة يأخذ المرء لنفسه الأفضل ، وأنا راض عن هذه البقية

من الجمال .

عالم : اني أراهم بوضوح ، بيد أني أعترف صراحة بأن من المشكوك فيه أن تكون هي (هيلانة) الحقيقية . ان الحاضر يضلّنا الى المبالغة ، وأنا أتمسك بما هو مكتوب قبل كل شيء . وقد قرأت[٨١] أنها فتنت حقا كل شيوخ طروادة . وأعتقد أن هذا مطابق تماما لما نحن فيه هنا : صحيح أنني لست شابا ، ومع ذلك فهي تعجبني .

المنجم : لم يعد غلاما . بل هو بطل جسور . انه يحتضنها ، وهي لا تستطيع أن تحمي نفسها منه . لقد رفعها على ذراعه القويّ .
هل سيخطفها ؟

فاوست : يا للمجنون الجريء! أتتجاسر ؟ أو لا تسمع! توقّف . هذا كثير جدا .

مفستوفيلس : ألم تصنعها أنت ، مسرحية الأشباح الغريبة هذه ؟!

المنجم : كلمة أخرى! بعد كل الذي حدث ، فاني أُسمّي المسرحية باسم « خطف هيلانة »[٨٢] .

فاوست : أيّ خطف! هل أنا في هذا الموضع لا شيء ؟ أليس هذا المفتاح في يدي ؟ انه هو الذي اقتادني خلال بحار الهول والموج الى الشاطئ الأمين . هنا يرسخ قدمي . هنا وقائع . وروحي هي واقفة هنا تستطيع أن تنازل الأرواح وأن تتحكم في المملكة المزدوجة[٨٣] الكبيرة . لقد كانت[٨٤] بعيدة جدا ، وها هي ذي الآن أقرب من كل قرب! اني أنقذها ، وهي مُلكي مُلكا مضاعفا[٨٥] . سأتجاسر على ذلك . أيتها الأمهات الأمهات! عليك أن تحققي لي هذا . من يتعرّفها[٨٦] لا ينبغي له أن يستغني عنها .

المنجم : ماذا تفعل يا فاوست! فاوست! انه يمسكها عنوةً واقتداراً ، وها هو ذا يُعكر صفو صورتها . وهو يدير المفتاح ناحية الشابّ ، ويمسّه به! ـ يا ويلتاه علينا ، يا ويلتاه! لحظة! في لحظة! (انفجار ، فاوست راقدا على الأرض . الأرواح تتصاعد في دخان) .

مفستوفيلس : (وهو يحمل فاوست على كتفه) : الآن وقعنا فيها! التكفّل بأمر المجانين يفضي بالشيطان نفسه الى الضرر المبين .
(ظلام ، هرج ومرج)

الفصل الثاني

حجرة قوطية الطراز ضيقة ذات قبة مدببة عالية
كانت في السابق حجرة فاوست، ولم يتغير فيها شيء

مفستوفيلس : (يظهر من خلف ستارة . يرفع الستارة ويتطلع الى فاوست وهو راقد متمدّد على سرير من النوع العتيق جدا) : ارقد هنا ، أيها الشقيّ! لقد وقعت في حبالة الحب التي يصعب التخلص منها! من شَلَّتْهُ[٨٧] هيلانة ، لا يثوب الى رشده بسهولة . (يتلفت حواليه) اني أتطلع في أعلى ، وهنا ، وهناك فأجد أنه لم يتغير شيء ولم يتلف شيء .

كل ما هنالك أن الزجاج الملوّن يبدو لي أكثر عكارة ، وخيوط العنكبوت ازدادت ، والمداد جف ، والورق اصفرّ ، وعدا ذلك بقي كل شيء في مكانه . وحتى القلم الذي به وقع فاوست الميثاق مع الشيطان لا يزال هنا . وفي موضع عميق بالقصبة أثر نقطة الدم التي انتزعها منه! هذه القطعة وحدها كفيلة بنشر السعادة في نفس أكبر الجمّاعين للعاديات .

ومعطف الفرو العتيق معلّق على الخُطاف العتيق ، وهو يذكرني بالأفكار الغريبة التي وضعتها في دماغ ذلك الصبي ، وربما لا يزال يتغذى منها الآن وقد صار شابا . وتراودني الرغبة ، أيها المعطف الأدخن ، أن ألبسك من جديد بوصفي معلّما ، وأنا مملوء الثقة بنفسي . ان العلماء يقدرون على ذلك ، أما الشيطان فقد قَدُمَ جداً عهدُه بذلك .

(يهزّ المعطف بعد أن أنزله ، فتتطاير منه الجداجد ، والعثة والخنافس) .

جوقة حشرات[٨٨] : مرحبا ، مرحبا ، أيها الرئيس القديم! نحن نحلّق ونطنّ ، ونحن نعرفك . لقد غرست منا آحادا في هدوء ، وها نحن أولاء صرنا بالآلاف ، وقد جئنا اليك ، أيها الأب ، راقصين . ان الوغد يخبئ نفسه جيدا في الصدر ، أما القمل فيفضل البروز من الفراء .

مفستوفيلس : كم أشعر بالسرور المفاجئ من هذه المخلوقات الصغيرة! ما على المرء الا أن يبذر ، فانه سيحصد مع مرور الزمان . وهأنذا أهزّ هذا القماش العتيق مرة أخرى ، فتتطاير واحدة هنا وأخرى هناك . فوق! حواليّ! في مئة ألف جُحُر أسرعي يا عزيزاتي ، واختبئي : هناك حيث العلب القديمة موضوعة ، وهنا في مجدات البرشمان المسمارّة ، وفي شقف القدور القديمة المغطاة بالتراب ، وفي ثقوب عيون جماجم الموتى هذه . في هذا الخواء وفي حياة التعفن هذه ، لا بد من وجود الجداجد أبدا .

(يتدثر بمعطف الفرو) تعال غطّ أكتافي مرة أخرى! انني اليوم أستاذ من جديد . لكن ماذا يجديني أن أدعو نفسي هكذا : اذ أين الناس الذين يقرّون لي بذلك ؟

(يشد حبل الناقوس فيدق بصوت نافذ مصلصل ، فتهتز القاعات وتنفتح الأبواب)

تلميذ : (يترهوك[٨٩] خلال الممر الطويل المظلم) : أيّ رنين! أية رعدة! السلَم يترنح ، والجدار يتزلزل ، ومن خلال اهتزازات زجاج النوافذ الملوّن أشاهد بروقا تلمع . والأرض تسوخ تحت أقدامي ، ومن أعلى يتساقط الملاط والجير . والأبواب وكانت محكمة الاغلاق ، انفتحت بقوة السحر . ـ وهناك ، يا للهول ، يقف مارد مرتديا معطف فاوست العتيق! نظراته وشزراته تجعلني أغوص الى ركبتيّ . هل ينبغي عليّ أن أهرب ؟ هل ينبغي عليّ أن أقف ؟ يا ويلتاه ، ماذا عسى أن يحدث لي!

مفستوفيلس : (ينظر شزرا) : تعال ، يا صديقي! أنت تدعى نيقوديموس[٩٠] .

التلميذ : أيها السيد الجليل ، نعم! هذا هو اسمي[٩١] ـ فَلْنُصَلِّ!

مفستوفيلس : دعنا من هذا!

التلميذ : كم أنا سعيد لأنك عرفتني!

مفستوفيلس : أنا أعرفك جيدا ، أنت في سنّ عالية ومع ذلك لا تزال تلميذا ، أيها السيّد العتيق! والانسان العالم يستمر في الدراسة ، لأنه لا يستطيع أن يفعل غير ذلك ، وهكذا يبني لنفسه بيتا ضخما من الورق ، وان كان أعظم العقول لا يستطيع أن يتم بناءه . غير أن أستاذك من الفطاحل : ومن ذا الذي لا يعرف الدكتور فجنر النبيل ، انه الأوّل الآن في عالم العلماء! وهو وحده الذي يجعله متماسكا ، وفي كل يوم يضيف جديدا الى الحكمة والمشغوفون بكل العلم يحتشدون حوله سامعين منصتين . نوره يسطع فريداً من فوق المنبر ، ويمارس المفتاح مثل القديس بطرس ، يفتح به العالم السفلي والعلوي على السواء . ولما كان يلمع ويتلألأ أسطع من الجميع ، فليس في وسع أية شهرة ، وأيّ صيت أن يدانيه ، وحتى اسم فاوست نفسه يخفت أمام اسمه ، ان فجنر هو وحده قُطْب أهل العلم .

التلميذ : أستميحك عذرا ، أيها السيّد الجليل ، اذا تجاسرتُ فاعترضتُ قائلا ان الأمر ليس كما تقول . فان التواضع هو السمة البارزة في أخلاق فجنر ، وهو لا يسليه شيء عن اختفاء الرجل العظيم (فاوست) على نحو غير مفهوم ، وهو يرجو العزاء والنجاة في عودته . والحجرة بقيت كما كانت في أيام الدكتور فاوست ، لم تمسّ منذ أن رحل ، وهي تنتظر إياب سيدها القديم . وأنا لا أكاد أجرؤ على دخولها . ماذا يحدث الآن في هذه اللحظة العجيبة الطالع ؟ ان الجدران تبدو لي أنها تهتز فَرَقاً ، ومفصّلات الأبواب تتحرك ، والمزاليج تطايرت ، والا لما استطعت أنت الدخول ها هنا .

مفستوفيلس : أين ذهب فجنر ؟ خذني اليه ، أو أحضره هنا .

التلميذ : أواه! ان أمره بالمنع مشدّد جدا ، ولا أدري هل أستطيع ذلك . من أجل عمله العظيم يعيش طوال شهور في أسكن سكون . انه أرقّ أهل العلم ، ومع ذلك يبدو مثل وقدة الفحم ، مسوداً من أذنه حتى أنفه ، وعيناه محمرّتان من لهب النار . وهو يتلهف على كل لحظة ورنين الملاقط يرنّ في سمعه كالموسيقا .

مفستوفيلس : هل ينبغي له أن يمنعني من الدخول عليه ؟ انني الرجل الذي سيعجّل له

بالظفر بالسعادة . (يخرج التلميذ ، ومفستوفيلس يجلس بكل جدّ ووقار)
لا أكاد أجلس هنا ، الا ويتحرك شيء هناك في الخلف ، أنا أعرف من هو ، إنه ضيف . ولكنه هذه المرة من الطليعة دُعاة الحداثة ، من المؤكد أن سيتجاوز الحدود .

حامل البكالوريوس : (مهرولا في الممّر) : البوابة والباب أجدهما مفتوحين! الآن صار من المأمول ألا يعيش الحيُ كما عاش حتى الآن في الاضمحلال مثل الأموات يذبل ويتعفن ويموت وهو حيّ .هذه الأسوار ، وهذه الجدران تدلف إلى النهاية فان لم نخلص منها ونفرّ عن قريب ، فسيصيبنا السقوط والتهدم . أنا جريء أكثر من أيّ انسان أخر ، لكن لا أحد يدفعني إلى الأمام .

لكن ماذا أريد أن أعاني اليوم! ألم يكن ذلك منذ العديد جدا من السنوات لما أن جئت هنا قلقا ضيّق الصدر مثل ثعلب طيب ، واضعا ثقتي في هذه اللّحى ، أتلقى العلم والأدب من نوادرهم ومضحكاتهم ؟
من مجلداتهم العتيقة كذبوا عليّ بما عرفوه ، وما عرفوه هم أنفسهم لم يصدقّوه ، فسلبوني وسلبوا أنفسهم الحياة . كيف ؟ ـ هناك في الخلف في الصومعة لا يزال يجلس رجل في جو يجمع بين النور والظلمة . وهأنذا أقترب فأراه بدهشة : انه لا يزال يجلس مرتديا معطف الفراء الأسمر كما تركته متدثرا بالرداء الخشن! وقد بدا لي آنذاك ماهرا . لما كنت لم أفهمه بعد ، أما اليوم فلن تكون له في نفسي مهابة . فلأمض إليه إذن .

لكن ، أيها السيّد القديم ، إذا كانت أمواج نهر الليثية العكرة لم تغمر رأسك الأصلع المنحني ، فان في وسعك أن تتعرف على تلميذك السابق وقد شب عن الأطواق الأكاديمية . اني لا أزال أجدك كما شاهدتك من قبل ، أمّا أنا فأنا هنا شخص آخر .

مفستوفيلس : أنا مسرور لأن ناقوسي قد أتى بك إلى هنا . وما كان تقديري لك في الماضي قليلا . ان اليرقة تكشف مقدما عن الفراشة المقبلة البديعة الألوان . ولقد كنت تستشعر بهجة طفولية برأسك ذي الضفائر وبنيقتك ذات الدنتلّه . وأعتقد أنك لم تلبس أبدا ذيلا ؟ واليوم أراك

قصير الشعر[٩٢] . ويبدو عليك أنك مليء بالعزم والحميّة ، لكن اياك والمبالغات والاطلاقات .

حامل البكالوريوس : يا سيّدي القديم! نحن هنا في المكان القديم . لكن فكّر في مجرى الأزمنة الجديدة ، وتجنّب الكلمات المشتركة المعاني! نحن الآن مختلفون تماما عما كنا عليه . لقد كنت تسخر من الشاب الطيب المخلص وقد أفلحت في هذا دون مهارة وصنعة ، أما اليوم فلا يجرؤ على ذلك أحد .

مفستوفيلس : إذا قال المرء للشباب الحقيقة المحض ، فان المناقير[٩٣] الصفراء تتضايق . لكن إذا جرّبوا بجلودهم خشونة الأمر طوال سنوات بعد ذلك ، فانهم يتصورون أن هذا الادراك جاء من عندهم هم . وهذا معناه أن الأستاذ كان[٩٤] مغفلا!

حامل البكالوريوس : ربما كان وغدا! فمن هو المعلّم الذي يقول الحقيقة صراحة ومباشرة في الوجه ؟ كل واحد منهم يعرف كيف يزيد وكيف ينقص ، كيف يكون مرة جادا ومرة أخرى مرحا مع الأولاد الأبرياء .

مفستوفيلس : للتعلُّم زمانه . وأنا ألاحظ أنك مستعد لتعليم الآخرين . وأنك اكتسبت فيض التجربة منذ عدة أقمار ، وبضع شموس[٩٥] .

حامل البكالوريوس : التجربة! ان هذه الاّ فقاعة وضباب ، وليست كفئاً للعقل[٩٦] . اعترف : بأن ما عرفه الانسان حتى الآن ليس أبدا جديرا بالعلم .

مفستوفيلس : (بعد وقفة) : بدا لي ذلك منذ زمن . لقد كنت أحمق . والآن أشعر أنني تافه مغفل .

حامل البكالوريوس : هذا يسرني كثيرا! أنا أسمع في هذا صوت العقل ، أنت أول عجوز وجدته عاقلا!

مفستوفيلس : لقد كنت أبحث عن كنز من الذهب مخبوء ، لكني لم أحصل الاّ على فحم مخيف .

حامل البكالوريوس : خبّرني هل جمجمتك ، ورأسك الأصلع أفضل من تلك الجمجمة الفارغة هناك! ؟

مفستوفيلس : (بمرح) : أنت لا تدري ، يا صاحبي ، كم أنت وقح .

حامل البكالوريوس : في الألمانية اذا كان الانسان مؤدبا ، فانه يكذب .

مفستوفيلس : (وهو يتحرك دائما على كرسيه الدوّار مقتربا من الجمهور) : هناك في أعلى يعوزني النور والهواء . هل أجد لي مكانا بينكم ؟

حامل البكالوريوس : أرى من الصفاقة أن يريد المرء شيئا في أسوأ مراحل العمر حين لا يعود المرء بَعْدُ شيئا . ان حياة الانسان تحيا في الدم ، وأين يجري الدم مثلما يجري في الشباب ؟ انه دم حيّ في قوة طازجة ، يخلق لنفسه من الحياة حياة جديدة . في الشباب يتحرك كل شيء ، وبه ينجز كل شيء ، والضعيف يسقط والكفؤ يبرز . بينما نحن ظفرنا بنصف العالم ، ماذا فعلتم أنتم ؟ أملتم رؤوسكم ، تأملتم ، حلمتم ، وازنتم ، ووضعتم خطة تلو خطة باستمرار . الحق هو أن الشيخوخة حمىً باردة في صقيع من الأزمنة المروّعة . ان المرء اذا تجاوز سن الثلاثين صار شبه ميت . والأفضل هو قتلكم في الوقت المناسب .

مفستوفيلس : ليس لدى الشيطان ما يقوله أكثر من هذا .

حامل البكالوريوس : يجب ألا يكون هناك شيطان اذا لم أرد أنا .

مفستوفيلس : (منتحيا جانبا) عما قريب سيوقعك الشيطان في حبائله .

حامل البكالوريوس : هذه هي أنبل رسالة للشباب : العالم لم يكن شيئا قبل أن أخلقه أنا ، أنا الذي رفعت الشمس من البحر ، بي بدأ القمر في الدوران . وعلى طريقي ازدان النهار ، واخضرّت الأرض ، وازدهرت للقائي . وباشارة منّي في تلك الليلة الأولى تجلّى رواء كل النجوم . من غيري حرّركم من كل القيود التي تحد الأفكار بالحذلقة ؟ وأنا الحرّ ، وكما يتكلم عقلي ، أتابع سعيدا نوري الباطن وأتقلب سريعا في افتتاني بنفسي . النور أمامي ، والظلمة وراء ظهري .

(يخرج)

مفستوفيلس : أيها الفتى الغريب ، امض إلى رُواء مجدك! ـ كم سيؤذيك أن يقال : من ذا الذي يستطيع أن يفكر في شيء أحمق أو في شيء معقول لم يسبق أن فكّر فيه العالم من قبل ؟ ـ ومع ذلك فلا خطر علينا من مثل هذا الفتى : فانه بعد عشرين سنة سيصبح انسانا آخر : مهما اضطرب الزّبد وتصرّف تصرّفا غريبا ، ففي النهاية سيبقى الخمر .

(مخاطبا المشاهدين الشبان الذين لم يصفقوا له)

لم تؤثر فيكم كلماتي ، وأنا أدعكم وشأنكم أيها الألاد الطيّبون . لكن تذكروا أن الشيطان عجوز فصيروا عجائز كيما تفهموه!

معمل

على نظام العصر الوسيط، فيه أجهزة عديدة لا فائدة منها تستعمل لأغراض خيالية

فجنر : (عند الموقد) : النواقيس تدقّ رهيبة تهز الجدران المغطاة بالهباب . لا يمكن أن يدوم طويلا هذا المجهول من الأمور المتوقعة جدا . والظُلمات بدأ يشيع فيها الضياء ، وفي أعماق القارورة يتوقد ما يشبه الفحم الحيّ ، بل مثل أجمل الياقوت القاني ، ناثرا بروقا في الظلام . يتجلى نور أبيض ناصع! ألا ليتني لا أضيع هذه المرة! ـ يا الهي! ما هذه الضجة عند الباب ؟

مفستوفيلس : (داخلا) : مرحبا! قصدي حسن .

فجنر : (في انزعاج) : مرحبا بنجم الساعة! (بهمس) لكن احتفظ بالقول والنَفَسِ في فمك . فقد تم انجاز عمل رائع .

مفستوفيلس : (بهمس أخفت) : ماذا هناك ؟

فجنر : (بصوت أخفت) : يُصْنَع إنسان .

مفستوفيلس : انسان ؟ وأي عاشقين أغلقت عليهما في المدخنة ؟

فجنر : معاذ اللّه! ان الطريقة التي كان يتم بها الانجاب صرنا نعدّها مزاجا عابثا . والنقطة الدقيقة التي منها انبثقت الحياة ، والقوة المواتية التي اندفعت من الباطن ، وأخذت وأعطت ، وقررت أن تحدّد نفسها بنفسها ، أولا الأقرب ، ثم الأبعد تكسبه لنفسها ـ هذه القوة سلبت مكانتها ، إذا كان الحيوان يرضى بها ، فيجيب على الانسان أن يكون له ـ بما لديه من مواهب عظيمة ـ أصل أعلى وأعلى في المستقبل . (وهو ينحني على الموقد) انه يضيء! انظر! ـ الآن قد صار من المأمول حقا أننا حين نؤلف مادة الانسان من مئات كثيرة من المواد عن

طريق المزج ـ لأن الأمر يتوقف على المزج ـ ونغلق عليها في بوطة ونقطّرها كما ينبغي ، فان العمل ينجز في سكون (وهو ينحني على الموقد) سيكون! الكتلة تتحرك بصفاء أكبر! الاقتناع أقوى وأمتن . ما تعوّدنا أن نقول عنه إنه سرّ الطبيعةنحن نحاول الآن أن ننجزه بعقولنا . وحيث اعتادت الطبيعة أن تنمّي الأشياء ، نحن نبلورها .

مفستوفيلس : من يعش طويلا يجرّب كثيرا . لا جديد يمكن أن يحدث في هذا العالم بالنسبة إليه . وأنا خلال سنوات أسفاري شاهدت قوما من الناس مُبَلْوَرين .

فجنر : (حتى الآن منتبه دائما الى القارورة) : يَصّاعد ، يبرق ، يتكوّم ، وفي برهة يتم الأمر . ان الخطة العظيمة تبدو في بداية الأمر حماقة ، بيد أننا نريد في المستقل أن نسخر من المصادفة . وهكذا سيضع مفكر مخاً يفكر تفكيراً ممتازا .

(يتأمل في القارورة وهو في غاية الاعجاب)

الزجاج يرنّ بقوة عاشقة . يحدث ضباب ، يتلوه صفو لا بد أنه آت . أشاهد أُنَيْساناً[٩٧] ذا وجه أنيق يتصرّف . ماذا نريد نحن ، وماذا يريد العالم الآن أكثر من ذلك ؟ لقد اتّضح السرّ في رائعة النهار : ما عليك إلا الاصغاء إلى هذا الرّنين ، فانه سيتحول إلى صوت ، وسيصير لغة .

الانسان الصناعي : (وهو في القارورة يخاطب فجنر) : والآن يا أبي ؟ كيف الحال ؟ لم يكن الأمر مزاحا . تعال ، ضمّني برقة إلى قلبك! لكن ليس بقوة ، وإلا انكسر الزجاج . تلك خاصية الأشياء : الطبيعي لا يكاد يكفيه العالم كله ، أما الصناعي فيتطلب مكانا مغلقا محصورا . (مخاطبا مفستوفيلس) وأنت أيها الوغد ، يا ابن العم ، هل أنت هنا ؟ في اللحظة المناسبة أشكر لك . حظ سعيد اقتادك إلينا ها هنا : طالما أنا موجود ، فلا بد أن أعمل . وبودي أن أزاول العمل فورا . وأنت قادر على أن تختصر لي الطريق .

فجنر : كلمة أخرى! حتى الآن كان عليّ أن أشعر بالخجل ، لأن الشيوخ والشباب انهالوا عليّ بالأسئلة والمشاكل . وأسوق مثالا واحدا : لا يستطيع أحد أن يعرف كيف تتوافق النفس مع الجسم على نحو

جميل ، ويتماسكان معا كما لو كانا لا يريدان الانفصال أبدا ، ومع ذلك يؤذي كلاهما الآخر باستمرار . ثم -

مفستوفيلس : توقّف! أفضّل أن أسأل هذا السؤال : لماذا لا يطيق الرجلُ المرأةَ ولا المــرأةُ الرجلَ ؟ في هذا الأمـر ، يا صـاحـبي ، لن تصل إلى جـواب واضح . ها هنا مجال للعمل ، وهذا ما يريده هذا الصغير .

الانسان الصناعي : ما هو هذا العمل ؟

مفستوفيلس : (مشيرا إلى باب جانبي) : اكشف هنا عن مواهبك!

فجنر : (مديما التطلع في القارورة) : حقا إنك طفل عزيز جدا!

(الباب الجانبي يفتح ، يشاهد فاوست راقدا على السرير)

الانسان الصناعي : (مدهوشا) : مهمّ! -

(القـارورة تفلت من يدي فجنر ، وتحلّق فوق فاوست وتلقي عليه الضوء) اطار جميل . بركة صافية في مرعى كثيف . نساء يخلعن ملابسهن ، نساء فاتنات . ـ الجمال يزداد . لكن تبرز بينهن من تفوق الأخريات في البهاء ، امرأة انحدرت من سلالة أبطال ، كلا بل من سلالة الآلهة . وهي تغمس قدمها في الصفاء الشّفاف . وشعلة الحياة المواتية لجسمها النبيل تبترد في البلور اللدن للأمواج . ـ لكن أيّ أزيز للأجنحة ذات الخفق السريع! غوص ورش يهزّ المرآة الصقيلة . والفتيات يجرين مذعورات ، أما هي ـ الملكة ـ فتتطلع بهدوء ، وبزهو المرأة ولذتها تراقب أمير البجع يأوي الى ركبتيها ويلحّ على البقاء ثَمّ . ويبدو أنه يهوى ذلك . لكن فجأة يتصاعد ضباب ويحجب بأزهار محلّقة كثيفة . هذا المنظر الذي هو أعزّ المناظر .

مفستوفيلس : هذا بخلاف ما عندك لتقصّه علينا! بقدر ما أنت صغير فأنت واسع الخيال جدا . أنا لا أرى شيئا ـ

الانسان الصناعي : أعتقد هذا . ذلك أنك من بلاد الشمال ، ونشأت في عصر الظلام ، وعشت في عماء الفروسية ورجال الدين ، فأنّى لعينك أن تكون حرّة! في الظلام وحده تشعر بأنك في مكانك الطبيعي . (ناظرا حواليه) ما هذه الأحجار المسمّرة العفنة الكريهة والعقود المدبّبة ، الحلزونية ، الكاتمة للأنفاس! ـ اذا استيقظ هذا ، ازداد البلاء . سيسقط ميّتا في

مكانه . ينابيع في الغابات ، بجع ، جميلات عاريات : ذلك كان حلمه
الحافل بالهواجس . أنّى له أن يتعود على ما هو موجود هنا! أنا نفسي
لا أكاد أحتمله ، رغم أني أيسر الناس تكيّفا مع الظروف!
والآن خذوه من هنا!

مفستوفيلس : المخرج من هذه الورطة لا بد أن يسرني!

الانسان الصناعي : أأمر المحارب بخوض المعركة ، واقتد الفتاة الى الرقص ، يكن كل
شيء على ما يرام ، الآن خطر ببالي بسرعة أن الليلة هي ليلة فالبورج
الكلاسيكية : وهي أحسن ما يمكن العثور عليه . خذه الى عنصره .

مفستوفيلس : لم أعلم بشيء كهذا من قبل .

الانسان الصناعي : كيف تريد أن يبلغ نبؤها أسماعك ؟ أنت لا تعرف الا الأشباح
الرومنتيكية ، ان الأشباح ، لكي تكون صحيحة ، يجب أن تكون
كلاسيكية أيضا .

مفستوفيلس : الى أينَ تفضي بنا الرحلة اذن ؟ اني أكره الزملاء الكلاسيكيين[٩٨] .

الانسان الصناعي : ان مكانك المفضل هو الشمال الغربي ، أيها الشيطان لكننا هذه المرة
سنبحر ناحية الجنوب الشرقي[٩٩] : في سهل فسيح يجري نهر
بنايوس[١٠٠] طليقا تحيط به الخمائل والأشجار ويتسع الى خلجان
ساكنة رطبة . ويمتد السهل الى أخاديد الجبال ، وفي أعلى تقوم
مدينته فرسالوس[١٠١] القديمة والجديدة .

مفستوفيلس : يا ويلتاه! سحقا لهذا ودع جانبا ذلك النزاع بين الطغيان والعبودية!
انه يثير في نفسي الملل ، لأنه لم يكد ينتهي حتى ابتدأ جَذَعة . ولا
أحد يلاحظ أن اسموديوس كان وراء ذلك كله . لقد زعموا أنهما
تنازعا بسبب حق الحرية ، لكن لو أُمْعِن في الأمر لوجد أنه كان
صراع عبيد ضد عبيد .

الانسان الصناعي : دع لبني الانسان طبائعهم المتشاحنة . يجب على كل انسان أن
يحمي نفسه قدر ما يستطيع ابتداء من سنّ الصبا ، فانه بذلك يصير
رجلا حقا . لكن الأمر الذي يفيدنا هنا هو : كيف يمكن شفاء هذا
الرجل ، فاوست ؟ إن كان عندك وسيلة فجرّبها هنا ، فان لم تستطع ،
فدع لي الأمر .

مفستوفيلس : يمكن أن نجرّب بعض حِيَل بروكن . غير أن أبواب الوثنين مغلقة دوني بالمزاليج . ان الشعب اليوناني لم يكن يساوي كثيرا أبدا ، لكنه بهركم بمفاتن الحسّ الحر ، وأغوى قلوب الناس بخطايا مبهجة ، أما خطايانا نحن فيجدها الناس دائما كئيبة . والآن ماذا ؟

الانسان الصناعي : في العادة أنت لست غبيا ، وحين أتكلم عن الساحرات التساليات فأظن أني قلت شيئا .

مفستوفيلس : (باشتهاء) : الساحرات التساليات! أجل! هؤلاء أشخاص طالما اشتقت إليهن . أن يسكن المرء معهن كل ليلة هذا فيما أعتقد ليس أمرا مرغوبا ، لكن من أجل الزيارة ـ فلنحاول ـ

الانسان الصناعي : هات المعطف[١٠٢] ولفّه به . انه سيحملكما معا مثلما حدث في الماضي ، وسأسير في المقدمة وأضيء لكم .

فجنر : (بتلهّف) : وأنا ؟

الانسان الصناعي : عليك الآن أن تبقى في البيت لتعمل الأهم . وافْتَح البرشمانات العتيقة ، واجمع عناصر الحياة بحسب التعليمات ، وامزجها بعضها في بعض بحذر وانتباه . فكّر في «أي»[١٠٣] ، وفكر أكثر في «كيف» . وبينما أنا أجول في جزء صغير من العالم ، ربما أكتشف النقطة التي على حرف i . وبعد ذلك نصل إلى الغرض العظيم . مثل هذه المكافأة تستحق مثل هذا المجهود : الذهب ، الشرف ، الصّيت ، الحياة السليمة الطويلة ، والعلم والفضيلة ربما أيضا . وداعا!

فجنر : (حزينا) : وداعا! هذا أمر يسْحَق القلب . وأخشى ألا أراك أبدا مرة أخرى .

مفستوفيلس : والآن هيا بنا نصعد إلى جبل بنايوس . ان السيد ابن العم لا ينبغي أن يستخفّ به . (مخاطبا جمهور المشاهدين) : في النهاية نحن نتوقف على مخلوقات نحن الذين صنعناها .

ليلة فالبورج الكلاسيكية

سهول فرسالا

ظلام

أرخنثو[١٠٤] : هأنذى ، أنا أرخثو الكئيبة ، قد جئت إلى حفلة الأشباح هذه الليلة . كما فعلت من قبل مرارا ، لكني لست مروّعة على النحو الذي وصفني به الشعراء[١٠٥] الأشرار فبالغوا في تحميلي بالرذائل . انهم لا يعرفون للمدح والذم حدودا ينتهون عندها . يبدو لي أن الشحوب المفرط يغطي أمواج الغبراء على مدى السهل كرؤيا تالية لتلك الليلة الحافلة بالهموم والغموم . وكم مرة تكرر هذا! وسيتكرر هذا إلى الأبد . لا أحد يهب الامبراطورية للآخر ، ولا يهبها خصوصا من ظفر بها بالقوة وحكمها بالقوة .

ان من لا يعرف كيف يحكم ذاته الباطنة ، يلّذ له أن يتحكم في ارادة الجار بحسب ما تملي عليه كبرياؤه . ـ لكن هنا جرى مثال عظيم للقتال : كيف قاومت القوة ما هو أقوى منها ، ومزّقت اكليل الحرية المؤلف من آلاف الأزهار الجميلة ، وانحنى الغار الجاسي حول رأس الظافر . هنا حلم بمبايس بتكرار انتصاراته السابقة العظيمة ، بينما ظل قيصر يراقب باهتمام تذبذب لسان الميزان[١٠٦] عملية الوزن جارية . بيد أن العالم يعرف الآن من الذي انتصر[١٠٧] .

نيران السّهر تشتعل ناشرة اللهيب الأحمر . والأرض تتنفّس انعكاس الدم المسفوح . وشخوص[١٠٨] الأساطير اليونانية تتجمع هنا مجذوبة بالرواء العجيب النادر لهذه الليلة .

وحول كل النيران تحوّم غير وثيقة أو تجلس بهدوءٍ الصورُ الخرافية للأيام الخالية . والقمر ، وإن لم يكن بدرا ، فانه يضيء بوضوح . ويرتفع ناشرا لمعانا رقيقا في كل مكان . وسراب[١٠٩] الخيام يختفي . والنار تتقد بلون أزرق .

لكن من فوقي ما هذا الشهاب(١١٠) غير المنتظر ؟ إنه ينير ويضيء كرة جسمانية(١١١) . إني أشم حياة . لكن لا يليق بي أن أقترب من الحيّ ، لأني أذى له . وهذا يجلب لي سوء السّمعة ولا يفيدني في شيء . وها هو ذا يغيب . الاحتشام يدعوني إلى الابتعاد!
(تبتعد)

المسافرون في الهواء

الانسان الصناعي : أحلق مرة أخرى في دورة على فظائع النار والفزع ، ان في الوادي وعلى الأرض منظر أشباح .

مفستوفيلس : اني أرى ، كما لو كان ذلك من خلال نافذة ، في عماء الشمال ورُعْبه أشباحا مروّعة جدا ، بيد أني ها هنا وها هناك في مكاني الأليف .

الانسان الصناعي : انظر! هناك تمشي أمامنا ماردة بخطى واسعة .

مفستوفيلس : نعم ، ويبدو كما لو كانت منزعجة ، لقد شاهدتنا ونحن نشق الهواء .

الانسان الصناعي : دعها تمشي! أَرْقِدْ فارسك(١١٢) تَعُدْ إليه الحياة فورا من جديد ، لأنه انما ينشد الحياة في مملكة الخرافات .

فاوست : (وهو يمسّ الأرض) : أين هي ؟

الانسان الصناعي : لا أستطيع أن أقول شيئا ، لكن من المحتمل أن تجدها هنا . وفي وسعك ، قبل أن يبزغ النهار ، أن تتلمسها من شعلة الى شعلة : مَنْ تجاسر وذهب إلى الأمهات ليس له أن يخاف من أي شيء .

مفستوفيلس : وهنا أيضا أنا في نصيبي المقدّر لي ، لكن هل هناك ما هو أفضل لنجاتنا من أن يحاول كل واحد منا أن يقوم بمغامراته الخاصة خلال النيران ؟ ثم لكي نجتمع من جديد إجعل ، أيها الصغير ، أنوارك تلمع وتطنّ .

فاوست : (وحده) : أين هي ؟ ـ لا حاجة بي إلى المزيد من السؤال . ان لم تكن الأرض التي حملتها ، ولا الموجة التي ارتطمت بها ، فلا بد أنه الهواء الذي تكلم بكلامها . هنا! بمعجزة ، هنا في بلاد اليونان! لقد استشعرت الأرض التي وقفت عليها ، وكيف اتّقدت فيّ ، أنا النائم ،

روحٌ ، وهأنذا أقف مثل أنتايوس[113] وكلي مشاعر . وأجد نفسي ...
مع أغرب الأشياء ، فلأتفحص جيدا تيه الشعلات هذا . (يبتعد)
(عند أعالي نهر بنايوس)

مفستوفيلس : (وهو يتشمّم حواليه) : وبينما أنا أجوس خلال هذه النيران ، فإني ...
بنفسي غريبا تماما . كل شيء هنا عار تقريبا ، فقط هنا وهناك ...
يلبس قميصا . ان الاسفنكسات[114] بلا حياء ، والجروفات[115] ...
عِذارَ الاحتشام ، وما ليس ذا شعر وجناح يتجلى في العين من ...
ومن قدام! ـ صحيح أننا لسنا في قرارة قلوبنا مهذبين بيد أن ...
أفرطوا في الحيوية ، الأمر يحتاج إلى الأخذ بالروح الجديدة ...
ملصقات متنوعة بحسب البِدَع . ـ شعب معاد! لكن هذا لا يمنعني ...
تحيته باحترام بوصفي ضيفا جديدا . السلام عليكن أيتها ...
الجميلات ، والسلام عليكم أيها الشيوخ الحكماء .

جروف : (يصفر) : لا تقل «شيوخ» ، بل «جروف» . لا أحد يحب أن ...
أحدا يقول عنه انه شيخ . كل لفظ يرن بحسب أصله ، الذي ...
انحدر : قطع ،قطف ، قطّ ، قطب[116] ، قطّر ، قطّط ،قطيع ، قطيعة
قطل ، قطم ـ كلها من باب اشتقاق واحد يدل على القطع ، لكنها ...
أنفاسنا .

مفستوفيلس : لكن . وحتى لا نخرج على الموضوع ، المقطع Grei في اللقب ...
fen يبعث على السرور[117] .

جروف : (يصفر باستمرار) طبعا! ان القرابة بينهما محقّقة ، وان كانت ...
مذمومة ، فانها مع ذلك ممدوحة أكثر مما هي مذمومة . والناس ...
تجرف الفتيات والكرونات ، والذهب ، والجراف هو في الغالب ...
سعيد الحظ .

نمل : (من النوع الضخم جدا) : أنتم تتكلمون عن الذهب ، ونحن قد جمعنا
منه الكثير ، وخبأناه في الصخر والكهوف بعناية ، ولكن شعب
الاريماسب[118] وصلوا اليه ، وهم يضحكون هناك لأنهم حملوه ...
بعيد .

جروفات : نريد حملهم على الاقرار بذلك .

الأريماسب : لكن ليس الليلة لأنها ليلة احتفال وانطلاق . وحتى الغد يكون الكل أُنْفِقَ ، هذه المرة سنفلح .

مفستوفيلس : (وقد وضع نفسه بين الاسفنكسات) : كم أشعر باليسر والراحة بينكم هنا! لأني أفهم كل واحد منكم .

اسفنكس : نحن نتنفس أصواتنا الروحانية ، وأنت تتجسدها في التو . الآن أذكر اسمك ، ولن يمضي وقت طويل حتى نعرفك حق المعرفة .

مفستوفيلس : الناس يطلقون عليَّ أسماء كثيرة[119] . ـ هل بينكم بريطانيون ؟ انهم عادة يكثرون الأسفار ليشاهدوا ميادين المعارك ، ومساقط المياه ، والأسوار المهدمة ، والأماكن الكلاسيكية الكئيبة هنا هدف لائق بهم . وهم شهدوا أيضا :

ففي مسرحية قديمة رأوني هناك في دور «الظلم القديم»[120] .

اسفنكس : وكيف توصلوا الى هذا ؟

مفستوفيلس : أنا نفسي لا أعرف كيف .

اسفنكس : ربما! هل عندكم بعض العلم بالنجوم ؟ ماذا تقول عن الساعة الحاضرة ؟

مفستوفيلس : (وهو يتطلع) : النجم يطلق على النجم ، القمر المشقوق يبدو واضحا ، وأنا أشعر بالراحة في هذا المكان الأليف ، وألتمس الدفء على فروة أسدك أما الصعود إلى أعلى فسينجم عنه ضرر ، هات بعض ألغازك ، هات بعض فوازيرك[121] .

اسفنكس : أفصح عن نفسك ، يَكُنْ هذا لغزا . حاول مرة أن تحلل باطن نفسك : هكذا : «التقيَ في حاجة إليك مَثَلُه مَثَلُ الشرير . الأول يحتاج إليك كدرع يحتمي به على سبيل الزهد ، والثاني يحتاج إليك كشريك في القيام بالحماقات ، وكل هذا فقط من أجل تسلية زيوس[122]» .

جروف أول : (يصرصر) : أنا لا أحب هذا الشخص!

جروف ثان : (يصرصر على نحو أشد) : ماذا يريد منا هذا الشخص ؟

كلاهما : هذا الوغد لا مكان له هنا!

مفستوفيلس : (بشراسة) : لعلكم تظنون أن أظافري ليست حادة مثل مخالبكم . حاولوا اذن ، وسنرى .

اسفنكس : (بلطف) : يمكنك أن تبقى ، لكنك من تلقاء نفسك ستتركنا في
بلادك ثَمَّ ما يرضيك ، أما هنا ـ اذا لم يخطئ ظني ـ فسيتعكر
مزاجك .

مفستوفيلس : أعلى جسمك يثير الشهية عند النظر ، أما أسفله فوحش[123] يثير
الفزع .

اسفنكس : أيها الزائف ، ستدفع عن هذا كفّارة مُرّة ، لأن مخالبنا سليمة
أنت يا ذا رجل فرسٍ متعفنة فلن تسر بالوجود بيننا في جماعتنا
السيرينات[124] (يتدربن في أعلى)

مفستوفيلس : ما هذه الطيور التي تتأرجح على أشجار الحور القائم على حافّة النهر ؟

اسفنكس : أدرك ذلك بنفسك! ان مثل هذا الغناء قد استولى على الأفاضل .

سيرينات : أواه! ماذا تريدون من هذا التودد إلى القبح العجيب! استمعوا إلينا
لقد جئنا زُمراً ، ونحن نغني غناءً عذباً منسجما ، كما هو خليق
بالسيرينات .

الاسفنكسات : (ساخرين بنفس النغمة) : اجعلوها تنزل . إنها تخبئ في الغصون
مخالبها التي تشبه مخالب البزاة القبيحة . وستنقضّ عليكم ان أرعيتم
إليها أسماعكم .

سيرينات : سُحْقا للبغضاء! سحقا للحسد! نحن نجمع أصفى الأصدقاء المشتتين
تحت السماء! وعلى الماء ، وعلى البّر نتصرف أجمل تصرف ونهيئ
أجمل لقاء وترحيب .

مفستوفيلس : هذه هي التجديدات السليمة التي تخرج من الحنجرة ومن الأوتار
نغمات تلف كل واحدة منها حول الأخرى . لقد ضاعت الدندنة
عندي : حول أذني يطن الطنين ، بيد أنه لا ينفذ إلى قلبي .

الاسفنكسات : لا تتكلم عن القلب! فهذا عبث ، كيس جلدي متغضّن : هذا هو الأليق
بوجهك .

فاوست : (داخلا) : ما أروعه! رؤية هذا تملأ نفسي رضا : ملامح عظيمة قوية
رغم ما فيها من ازعاج . ينبئني حدسي أن ثمّ حظا سعيدا ، لكن إلى
أين تقودني هذه النظرة الجادّة ؟
(مشيرا إلى الاسفنكسات) أمام أمثالهم وقف أوديب[125] ،

(مشيرا إلى السيرينات) أمام أمثالهن قيّد أوليس نفسه في حبال من العنب .

(مشيراً إلى النمل) : ادّخر أمثالهم أعظم كنز .

(مشيرا إلى الجروفات) : وهؤلاء حافظوا عليه باخلاص ودون أن يغفلوا . وأنا أشعر بنفوذ هذه الروح اليقظة في داخلي . الأشكال عظيمة ، والذكريات عظيمة .

مفستوفيلس : أنت في العادة لا تحتمل أمثالهم ، أما الآن فيبدو أنهم يسرونك . ذلك أنه حيث يبحث المرء عن محبوبته ، فان الوحوش نفسها تعدّ مقبولة .

فاوست : (مخاطبا الاسفنكسات) : أنتم يا من صُوَرُكم صُوَرُ نساء ، لابد أن تجيبوا قولي : هل رأى أحد منكم هيلانة ؟

الاسفنكسات : لم يمتد بنا العمر إلى أيامها ، وآخرنا[١٢٦] قضى عليه هرقل . وفي وسعك أن تسأل عنها خيرون . وهو يقفز ها هنا في هذه الليلة ذات الأرواح . فان وقف لك ، فستنال طَلِبَتَك .

السيرينات : لن نبخل عليك بالمعلومات! ان أوليس[١٢٧] لما أقام بيننا ، ولم يتعجل في المسيرة ازدراء بنا ، علينا الكثير ، وسنفضي إليك بكل ما نعرف ، إذا أتيت إلينا في بلادنا القائمة على الماء الأخضر .

اسفنكس : لا تنخدع أيها النبيل! بدلا من أن يربط أوليس نفسه ، دع نصيحتنا الغالية تربطك : لو استطعت العثور على شيرون ، لعرفت منه ما وعدتك به .

(فاوست يبتعد)

مفستوفيلس : (متضايقا) : ما الذي يصرصر بضرب أجنحته وبسرعة فائقة لا تسمح برؤيته ، الواحد منها بعد الآخر دوماً ؟ انها تتعب الصائد .

اسفنكس : هي تشبه عاصفة رياح الشتاء ، وسهام أَلْكيدس لا تكاد تصيبها ، انها الاستومفاليات[١٢٨] السريعة ، وصرصرتها تحية ذات قَصد حسن ، ومنقارها مثل منقار الرخمة ، وقدمها مثل قدم الاوزة . وهي تود أن تلحق بجماعتنا بوصفها من أقاربنا .

مفستوفيلس : (وكأنه يشعر بخوف) : ثم كائن آخر يطنّ هنا بينها .

اسفنكس : وهذا أيضا لا تفـزع منه! انها رؤوس الأفعى اللرنانية[١٢٩] وقد فصلت عن باقي جسمها ، وتظنها أنها ذات شأن . ـ لكن قل لي ، ماذا ستصير أنت ؟ ما هذا التصرف المتّسم بالقلق ؟ وماذا تريد ؟ ارحل! اجعل نفسك كرْكيّا . لا تتورّع ، امضِ إلى هناك ، وحيِّ هذه الوجوه الفاتنة العديدة! انها اللاميات[١٣٠] وهن فاجرات (شهوانيات باسمات الثغور ، وقحات الجباه ، على النحو الذي يسرّ جماعة الساتير . وفي وسع من له قدم تيس أن يتجاسر هناك على كل شيء) .

مفستوفيلس : وهل تمكثون أنتم ها هنا حتى ألقاكم من جديد ؟

الاسفنكسات : نعم! اختلط بالجماعة الهوائية! منذ عهدنا بمصر نحن تعوّدنا من زمن طويل أن يتربعوا على العرش طوال ألف سنة . ومكانتنا محترمة : فنحن ننظّم الأيام القمرية والأيام الشمسية . نحن نجلس أمام الأهرام بمثابة محكمة عليا للشعوب ، الفيضان ، والحرب والسلام ـ ووجوهنا لا ترتسم عليها أية علامة تأثّر .

(عند المجرى الأدنى لنهر بنايوس[١٣١])

بنايوس : (تحيط به المياه والحوريات) : تحرّك يا حَمْسَ اليراع! تنفسّي برقة يا أخوة القصب ، وحفّي يا خمائل الصفصاف الرقيقة ، واهمسي يا غصون الحور المهتزة ، في أحلامي المتقطّعة!

ـ ان اهتزازاً مقلقا غريبا في كل مكان قد انتزعني من مجراي الناعس .

فاوست : (قادما إلى شاطئ النهر) : إنْ صَدَق سمعي فلا بد أن أؤمن أن وراء الأوراق الملتوية لهذه الغصون وهذه الشجيرات يرنّ صوت شبيه بصوت الانسان . ان ضجيج الأمواج يبدو كالثرثرة ، والهواء يبدو كأنه مزاح .

الحوريات : (مخاطبة فاوست) : الأفضل لك أن ترقد ها هنا ، وأن تريح أعضاءك المتعبة في هذا المكان البليل حتى تستمتع بالراحة التي طالما تجنبتك باستمرار! نحن نترنّم ، نحن نَرْدَ[١٣٢] ، نحن نهمس لك .

فاوست : نعم أنا يقظان . فلتتصرف معي هذه الأشكال المنقطعة النظير كما

تتراءى لعيني ها هنا . إني متأثر تأثرا عجيبا! أهذه أحلام ؟ أهذه ذكريات ؟ لقد نعمت بمثل هذا السرور مرة من قبل . والمياه تنساب خلال النُّدُوَة[١٣٣] السارية في الخمائل الكثيفة الرقيقة الاهتزاز ، وهي لا تخرّ ، ولا تكاد ترذّ . ومن كل النواحي مئات الينابيع تتجمعَ في مكان صاف نظيف قريب الغور يصلح للسباحة . أعضاء نساء شابات صحيحات الأبدان تتراءى مزدوجة في المرآة الرطبة وتمتع العيون! ويستحممن جماعات في حبور ، ويسبحن بجسارة ، أو يخضن في الماء بحذر ، أو يصرخن وترشّ كل واحدة منهنّ الأخرى . وحسبي أن أستمتع بهذه ، وأن أمليَ نظري منها ، لكن احساسي يطمح إلى ما هو أبعد . إن النظرة تستشرف بارهاف نحو ذلك الفيض : إذ الأوراق الوفيرة في الملاء الأخضر تحجب الملكة السامية . يا للعجب! بجع أيضا يسبح قادما من الخلجان ويتحرك بجلال تام . إنها تسير بسكون ، وتتجمع في رفق ، لكن باعتداد بالنفس وكبرياء ، وما أروع حركة الرأس والمنقار! لكن واحدة[١٣٤] من بينها تبدو أنها معجبة بنفسها أكثر من غيرها ، قد أبحرت بسرعة واندفاع بينها . وريشها ينفش ، كأنها موجة فوق الأمواج ، وتنطلق إلى المكان المقدس .
ـ أما الأخرى فتسبح هنا وهناك ، وريشها يلمع هادئا ، لكنها أحيانا تنطلق لتدخل في نزاع رائع مع الفتيات الخجولات ابتغاء صرفهن عن مهمتهن والانشغال بسلامتهن فحسب .

حوريات : يا أخواتي ، ضعن آذانكن على درج الساحل الأخضر! إنْ صَدَق سمعي ، فاني أظن أني أسمع ما يشبه وقع سنابك فرس . ليت شعري من ذا الذي يأتي بنبأ سريع هذه الليلة!

فاوست : يخيّل إليّ أن الأرض تهتّز صائتة تحت فرس مسرع : نظرتي تنطلق إلى هناك! فهل أحظى بحظّ سعيد ؟ يا لها من معجزة منقطعة النظير! هناك فارس قادم راكضا ، ويلوح أنه ذو رجاحة عقل وشجاعة ، يحمله فرس أبيض ناصع ـ اني لا أخطئ ، بل أنا أعرفه ، انه الابن[١٣٥] الشهير لفلورا! ـ توقف يا خيرون! توقف! فعندي ما أقوله لك ـ

خيرون : ماذا هناك ؟ ما الأمر ؟

فاوست : هدّئ خطوتك!

خيرون : أنا لا أقف أبدا .

فاوست : إذن خذني معك ، أرجوك!

خيرون : اركب! حينئذ أستطيع أن أسألك ما أشاء : إلى أين تريد الذهاب ؟ أنت هنا على الشاطئ ، وأنا مستعد أن أعبر بك النهر .

فاوست : (راكبا) : إلى حيث تشاء . سأشكر لك ذلك إلى الأبد . ـ أنت رجل عظيم ، ومُرَبٍّ نبيل ، ربّى شعبا من الأبطال على طلب المجد ، هو الجمع الجميل للأرجنوت النبلاء وكل أولئك الذي أدّبوا عالم الشاعر .

خيرون : لندع هذا لوقته ومناسبته! حتى بلآس[١٣٦] (أثينيه) لم تَخْلُ من الطعن في حكمتها ونصائحها وفي النهاية ترى الناس يتصرفون كما لو كانوا لم يؤدّبوا أبدا .

فاوست : أنت الطبيب الذي يعرف كل نبات ، ويدرك دخيلة كل الأعشاب ، أنت تكفل للمريض الشفاء ، وللجرح الالتئام . اني أعانقك هنا بقوة روحي وبدني .

خيرون : كان البطل إذا جُرح إلى جواري أعرف كيف أقدم له الاسعاف والنصيحة ، بيد أني في آخر الأمر تركت صناعتي للنساء العشّابات ولرجال الدين .

فاوست : أنت الرجل العظيم الحقيقي الذي لا يحب سماع كلمات المديح . أن تسعى للتخلصّ من الاجابة متواضعا ، وتتصرف كما لو كان لك نظير .

خيرون : يبدو لي أنك بارع في النفاق ، تحسن تَمَلُّق الأمراء والشعب على السواء .

فاوست : لكنك ستعترف لي بأنك رأيت أعظم من في عصرك ، وسعيت في أفعالك نحو الأنبل ، وأمضيت الأيام شبه إله حقا ، لكن بين الأشكال البطولية من تعتقد أنه الأمهر ؟

خيرون : في جماعة الأرجنوت هؤلاء كان كل واحد ماهرا على طريقته الخاصة به ، ووفقا للقوة التي كانت تشيع في نفسه كان يجزئ فيما يعوز الآخرين عمله . ان وَلَدَيْ زيوس[١٣٧] (ديوسقوروي) انتصرا دائما حيثما سيطرت نضرة الشباب وفيض الجمال . وكان النصيب الأوفر

للبورياد[١٢٨] حين يقتضي الأمر العزم والفعل السريع لانقاذ الآخرين .
أما ياسون فكان صائب الفكر ، قويا ، حكيما ، ومشير صدق ، ومقبولا عند النساء . ثم أورفيوس : هذا الرقيق الهادئ التفكير ، عزف باقتدار على كل القيثارات . واللنقوس[١٣٩] الحادّ البصر ، الذي كان يقود السفينة المقدسة ليلا ونهارا خلال الصخور والجنادل إلى شاطئ الأمان . ان اجتياز الخطر لا يتحقق إلا في جماعة ، حين يعمل الواحد ، ويثني عليه الآخرون .

فاوست : ألا تريد أن تذكر شيئا عن هرقل ؟

خيرون : يا ويلتاه! لا تُهجْ اشتياقي! لم أكن قد رأيت فيبوس[١٤٠] ، ولا آرِس ولا هرمس كما يسمّون . ثم رأيت ماثلا أمام عينّي ما يمدحه كل الناس وينعتونه بأنه الهي . لقد كان ملكا بالفطرة ، وفي شبابه كان رائع المنظر ، وكان مطيعا لأخيه[١٤١] الأكبر وكذلك لكل النساء المحبوبات جدا ، ان الأرض لم تر له نظيرا ، ولم ترفع هيبا[١٤٢] إلى السماء من يماثله .
وعبثا[١٤٣] تعنّي القصائد نفسها في وصفه ، وعبثا يعذّب المرمر نفسه في محاكاة تمثاله!

فاوست : مهما تباهى الفنانون بما فعلوه له ، فانه لم يتجلّ أبدا في روعة جلاله . انك تحدثت عن أجمل رجل ، فحدّثنا الآن عن أجمل امرأة .

خيرون : ماذا! جمال النساء لا يعني شيئا ، انه غالبا ما يكون صورة جامدة ، إني لا أستطيع أن أمدح الا الكائن الذي يتدفق سرورا وعشقا للحياة . ان الجميلة تظلّ سعيدة بنفسها ، واللطافة[١٤٤] لا تقاوم ، مثل هيلانة ، وأنا قد حملتها .

فاوست : أنت حملتها ؟

خيرون : نعم ، على هذا الظهر .

فاوست : أما كفاني ما أنا فيه من تشوّش والتياث! ما أسعدني بمقعدي هذا الآن!

خيرون : وكانت تمسك بي من شعري كما تفعل أنت الآن .

فاوست : أوه! أنا تائه تماما! خبّرني ، كيف ؟ انها مشتهاي الوحيد! من أين ،

إلى أين ، أواه ، حملتها ؟

خيرون : هذا سؤال من السهل الجواب عنه . ان ابنَيْ زيوس ، الديوسكورَيْن ، كانا في ذلك الوقت قد خلّصا أختهما من أيدي اللصوص . لكن هؤلاء ، وهم لم يتعودوا أن يُهزموا تشجعوا وطاردوهم . ثم أوقفت عَدْو الأخوة السريع المستنقعات الكائنة في نواحي الوسيس[١٤٥] - فخاض الأخوة غمار الوحل ، وخِفْتُ أنا ، وسبحت إلى هناك ، فلما اجتزنا نزلت من فوقي ، وربَتتْ على عرفي المبتلّ ولاطفتني وشكرت لي على نحو رقيق حصيفٍ واع بذاته . آه! كم كانت فاتنة! انها بشبابها متعة الشيخ!

فاوست : كانت في العاشرة من عمرها فقط!

خيرون : أرى أن الفيلولجيين قد خدعوك كما خدعوا أنفسهم . ان الأمر مع المرأة الأسطورية عجيب جدا : الشاعر يعرضها حسبما يحتاج اليها ، لا تبلغ سن الرشد أبدا ، تُختطف وهي صغيرة ، واذا تقدمت بها السن تظل تُخْطب وتُطلب يدها باستمرار . كفى! الشاعر لا يلزمه أيَ زمان .

فاوست : وهي أيضا لم يربطها أيّ زمان! ألم يعثر عليها أخيلوس[١٤٦] في مدينة فيرا خارج كل زمان ؟! يا له من حظ نادر ، حبّ يُنال في تحدّ للحظ! ولماذا لا ينبغي لي أنا أن أعيد إلى الحياة ، بفضل قوة الشوق والحنين ، هذا الوجه المنقطع القرين ؟ هذا الكائن الخالد ، تِرْبُ الآلهة ، العظيم الرقيق ، السامي المحبوب ؟
لقد رأيتها مرة في الماضي ، واليوم أنا رأيتها ، جميلة بقدر ما هي فاتنة . ومشرقة بقدر ما هي جميلة . لقد ملكت عليَ الآن مشاعري ووجودي لست أحيا ، ان لم أصل إليها .

خيرون : أيها الرجل الغريب! بوصفك انسانا أنت مفتون ، لكنك بين الأرواح تبدو مجنونا . لكنك اليوم محظوظ . ذلك أني أزور مانتو ، بنت اسقلابيوس مرة واحدة في كل عام[١٤٧] ، ولبضع دقائق فقط . وهي في صلاة صامتة تدعو أباها ، اسقلابيوس ، أن ينير عقول الأطباء تمجيدا له وأن يمنعهم من قتل الناس بغير اكتراث - ومانتو هي عندي أحب

العرّافات ، لأنها ليست عبوسا ، بل هي مُحْسنة رقيقة المشاعر . ولو حظيت بالمكث معها بعض الوقت ، لكان من المحتمل أن تشفيك أعشابها شفاء تاما .

فاوست : أنا لا أريد الشفاء ، لأن عقاي قويّ ، والا لكنت خسيسا مثل الآخرين .

خيرون : اياك أن يفوتك شفاء الينبوع[١٤٨] النبيل . أسرع وانزل ، فنحن هنا في مكانه .

فاوست : إلى أين جئت بي خلال هذه المياه ذات الحصى في هذه الليلة الليلاء ؟

خيرون : ها هنا تحاربت روما مع اليونان[١٤٩] : بنايوس على يمينك ، والأولمب عن يسارك ؛ الامبراطورية العظمى التي ضاعت في الرمال : هرب الملك ، ورجل المدينة انتصر . أنظر! هنا بالقرب منا تشاهد في ضوء القمر المعبد الخالد[١٥٠] .

مانتو : (تحلم في داخل نفسها) : سُنْبك فَرَس يرنّ عند العتبة المقدسة ، ان أنصاف آلهة قادمون .

خيرون : هذا صحيح تماما . افتحي عينيك!

مانتو : (وقد استيقظت) : مرحبا! أرى أنك لم تتخلّف عنّي .

خيرون : ومعبدك لا يزال قائما .

مانتو : ألاتزال تجهد نفسك دون كَلَلٍ ؟

خيرون : أنت تقيمين بهدوء في معبدك ، بينما أنا أحب التجوال .

مانتو : أنا أنتظر ، والزمن يدور حولي . ومن هذا ؟

خيرون : الليلة اللعينة جاءت به إلى هنا في دوّامة . لقد جنّ بهيلانة ويريد الظفر بها ، لكنه لا يعرف كيف ومن أين يبدأ : انه يستحق قبل غيره علاجا اسقلابيا .

مانتو : وأنا أحب من ينشد المستحيل . (خيرون مضى بعيدا)

مانتو : ادخل ، أيها الجسور ، ينبغي لك أن تستبشر . ان الممر المظلم يقود إلى برسفوني[١٥١] في القدم الجوفاء لجبل الأولمب حيث تتسمَع سرا التحية الممنوعة[١٥٢] .

وفي ذات مرة هَرَّبْتُ أنا أورفيوس(١٥٣) . اهتبل الفرص! هيّا! تشجّع! (ينزلان)

عند أعالي نهر بنايوس (مثلما سبق)

سيرينات : ألقوا بأنفسكم في تيار نهر بنيوس! ما أجمل الخوض فيه للسباحة ، وانشاد الأغاني تلو الأغاني للشعب(١٥٤) البائس . لا نجاة بغير ماء! نحن نمضي بجيش صاف إلى بحر ايجه(١٥٥) مسرعين ، وسنحظى بكل لذة . (زلزال)

سيرينات : عاد الموج من جديد وهو يرغي ويزبد ، ولم يعد النهر يجري في مجراه في أسفل(١٥٦) ، الأرض زلزلت ، والماء يتلاطم ، والحصى والشاطئ ينفجران ويدخّنان . فلنهرب! تعاليّن جميعا ، تعاليّن! لا أحد يفيد من هذا الأمر العجيب .

هيّا! أيها الضيوف النبلاء السعداء ، إلى العيد البحري الساجي ، المتألق ، حيث الأمواج المتلاطمة تنتفخ بهدوء وتأوي الى الشاطئ ، هناك حيث يسطع القمر بنور مزدوج ، ونبلل أنفسنا بالندى المقدس . هناك حياة حرة الحركة ، أما هنا فزلزال يثير الفزع ، على كل عاقل أن يهرع! هنا موضع مروّع .

الزلزال : (يزمجر في الأعماق ويقصف) : هزّة مرة أخرى ، وبالأكتاف لنرفع رفعة متينة! على هذا النحو نصعد الى أعلى حيث لا بد لكل شيء أن يستسلم لنا .

اسفنكسات : يا لها من هزّة مزعجة ، ومن زلزلة بغيضة مروّعة! أي ترنح ، أي اهتزاز ، وتدافع من خبيث هنا وهناك! أيّ عذاب لا يُحتمل! بيد أننا لا نغيّر المكان ، حتى لو انفجر كل الجحيم .

والآن ترتفع قبة عجيبة . انه نفس ذلك العجوز المخوف منذ زمان طويل الذي بنى جزيرة ديلوس(١٥٧) ، من أجل امرأة جاءها المخاض . فرفع هذه الجزيرة من الماء الى فوق .

بالسعي والدفع والضغط وشد الذراع وحني الظهر ، مثل أطلس(١٥٨) رفع الأساس والعشب والأرض ، والحصى ، والحصباء والرمل والطين . والمرقد الهادئ لشاطئنا . وشق طريقاً في الغطاء الهادئ للوادي .

بجهد شديد ، دون أن يتعب أبدا ، مثل كرياتيد[١٥٩] هائلة ، يحمل كتلا من الصخر مخيفة ، من القاع حتى الخصر ، ولا يذهب الى أبعد من هذا ، لأن الاسفنكسات أخذت هناك مكانها .

الزلزال : تمّ كل هذا بواسطتي[١٦٠] ، لا بد في النهاية من الاعتراف لي بذلك : ولو لم أهزّ أنا وأَخُضّ فكيف كان يمكن لهذا العالم أن يكون جميلا ؟!
ـ وكيف كانت جبالكم ستقوم هناك في زرقة الأثير الصافية الفخمة ، اذا لم أرفعها الى منظر تصويري ساحر ؟ أمام أعلى الأجداد ، الليل ، والخاوس ، تصرّفت بقوة ، وبصحبة الطيطان[١٦١] كنا نتقاذف بليون وأوّسا مثل الأُكَر ، وصخبنا في حرارة الشباب ، وأخيرا وقد سئمنا ، وضعنا كلا الجبلين على جبل البرناس[١٦٢] كأنهما طاقيتان!
وأبولّو يقيم هناك سعيدا مع جوقة من ربّات الفنون السعيدات . وأنا الذي رفعت العرش عاليا لجوبيتر وصواعقه .
وبسعي هائل أرتفع الآن من الهاوية وأدعو الساكنين[١٦٣] السّعداء كي يبدأوا حياة جديدة .

الاسفنكسات : كان على المرء أن يقرّ بأن مارُفع هنا قديم جدا ، لولا أننا شاهدنا بأنفسنا كيف تملص قهرا من القاع والغابات ذوات الأشجار تمتد هناك ، والصخر يندفع من الصخر . لكن الاسفنكس لا يلتفت إلى هذا : لأننا لا نسمح بأيّ ازعاج لنا في مقامنا المقدس .

جروفات : أرى خلال الشقوق[١٦٤] ذهبا على شكل أوراق ، وذهبا علي شكل شرائح ، فلا تَدَعْ ، أيها النمل ، هذا الكنز يفلت منك . هيّا التقطه!

جوقة النمل : لما كان المردة[١٦٥] قد رفعوه ، فأسرعي إلى أعلى يا ذوات الأقدام المتلهفة وتحوّلي بكل مهارة هنا وهناك! في هذه الشقوق كل قطعة صغيرة تستحق أن تُمتلك . وعليك أن تكشفي عن أَدَقّها في كل الزوايا وبأسرع ما تستطيعين . عليك بذل أقصى الجهد أيتها الجماعات الحاشدة ، لا تأتين الا بالذهب! ودعي الجبل يذهب!

جروفات : تعالي ، تعالي! لا تجمعي الا الذهب! سنضع مخالبنا عليه ، عندنا مزاليج من أمتن نوع ، وسنحافظ جيدا على الكنز العظيم .

أقزام[١٦٦] : لقد اتخذنا مكاننا ، ولا ندري كيف حدث هذا! لا تسألوا من أين

جئنا ، لأننا ها هنا الآن! كل بلد يوائم الحياة البهيجة . ولو وجِدت
شقوق في الصخور كان القزم مستعدا : قزم وقزمة يشمرَان عن ساعد
الجد بسرعة ، وكل زوج هو بمثابة نموذج ، ولست أدري هل كان
الأمر كذلك في الفردوس . بيد أننا نشعر ها هنا بأننا في خير حال .
ونبارك طالعنا شاكرين . ان في الشرق كما في الغرب الأرض الأم
تنجب عن طيب خاطر وخصوبة .

الكستبان(١٦٧) : إذا كانت قد أنجبت الصغار في ليلة ، فانها ستنجب أصغر الكائنات
أيضا ، وستجد أشباهها كذلك .

أقزام شيوخ : أسرعوا ، احتلوا هذا المكان الملائم ، خذوا في العمل . نحن لا نزال
في سلام . ابنو الأفران لصنع الذخيرة .
أنت أيها النمل النشيط إتتنا بالمعادن . وأنت أيتها الكستبانات
الصغيرة العديدة ، أحضروا إلينا الخشب . اعملوا نيرانا خفيّة لاحراق
الفحم .

قائد عظيم : امضوا الآن بقِسِيِّكم وسهامكم إلى تلك البركة واصطادوا البلشونات
العديدات المستقرات هناك بكبرياء . اصطادوها كلها برمية واحدة .
هنالك نستطيع أن نضع ريشها في خوذاتنا .

النمل والكستبانات : ومن سينقذنا ؟ لقدصهرنا الحديد . وهم يصنعون السلاسل والأغلال .
لم يئن الأوان للتمرد . علينا التزام الطاعة .

كركي ابيقوس(١٦٨) : صرخة القتل وشكاة الموت! الأجنحة ترفرف مؤذنة بالخطر . أيَ
نواح ، وأيَ زفرات شكايات تصّاعد إلى أعالينا! الكل قتلوا ، واحمَرت
البحيرة من دمائهم . الشهوات الدنيئة قد سلبت البلشون زينته
البديعة ، التي صارت ترفرف على خوذات هؤلاء الأوغاد السمان
الكروش ، المعوجيَ السيقان . فيا رفاق جماعتنا ، أيها الرحالة صفوفا
عند البحر ، إنا نُهيب بكم أن تهبّوا للانتقام في هذه القضية المشتركة
بيننا . ولا يوفّرنَ أحد قوّته ودمه :
ولنقسم يمين العداوة الدائمة لهذه العصابة!
(تتفرق في الهواء وهي تصيح)

مفستوفيلس : (في السهل) : لقد عرفت كيف أسيطر على الساحرات الشماليات .

أما مع هذه الأرواح الأجنبية فلا أعرف ماذا أصنع . إن جبل بلوك يبقى مكانا مواتيا : فأينما تكن فيه تجد الزمر ميسورا . السيدة[١٦٩] إلزا تسهر على حجرها من أجلنا وهينرش في أعاليه مبتهج ، يعنّف الالند ، لكن كل شيء استقر لألف سنة . أما هنا فمن ذا الذي يعرف أين يذهب وأين يقف ، وما اذا كانت الأرض تحته لن تنشقّ ؟ يطيب لي أن أجوس خلال واد منبسط مصقول ، ومن ورائي يرتفع جبل ، صحيح أنه لا يستحق أن يسمى جبلا ، لكنه يفصلني عن اسفنكساتي ، بما له من ارتفاع كاف ـ ولا يزال الكثير من النيران يهزّ الوادي ويشتعل خَبْط عشواء . الجوقة المرحة لا تزال ترقص وتحلق وتغريني ، وتتلاعب تلاعب اللصوص . خذ حذرك اذن! اذا ما تعود المرء على أطايب الطعام فانه أينما كان يفتش دوماً عن طعام يلتقطه .

لاميات : (تجذب اليها مفستوفيلس) : بسرعة ، بسرعة أكبر! ودائماً المزيد! ثم التردد من جديد ، والخوض في الثرثرة : انه شيء سارّ أن نجرّ وراءنا الخاطئ القديم الى كفّارة قاسية . بقدمه المتحجّرة يمشي متعثرا متكفّنا ، انه يجر ساقه وراءنا ونحن نفلت منه .

مفستوفيلس : (وهو يقف ساكنا) : حظ لعين! أناس مخدوعون! من آدم حتى الآن والانسان البليد مغرّر به! الانسان يصير شيخا ، لكن من يصير حكيما ؟ ألم يمسسك من الجنون كِفاؤك ؟ المرء يعلم أن الشعب بطبعه لا قيمة له . أجسامهم ممنطقة ، ووجوههم مطليّة بالمساحيق . ليس لديهم شيء صحيح يجيبون به ، وأينما مسّهم المرء وجد عفنا في كل الأعضاء . والناس يعرفون ذلك ، ويشاهدونه ، وفي وسعهم الامساك به ، ومع ذلك فهم يرقصون حين تَصْفر الاغراءات .

لاميات : (متوقفة) : قف! انه يفكر ، ويتردد ، ويتوقف ، واجهوه ، حتى لا يفلت منكم .

مفستوفيلس : (متقدما) : هيا! ولا تدع نفسك تتغلغل بحماقة في نسيج الشك ، لأنه اذا لم تجد ساحرات ، فمن ، يا للشيطان ، يريد أن يكون شيطانا!

لاميات : (بلطف بالغ) : لنتحلّق حول هذا البطل! من المؤكد أن حبّه لواحد سيعلن عنه قلبه .

مفستوفيلس : تحت النور الضنيل تبدين نساء جميلات ، ولهذا لا أريد أن ألومكن .

امبوسا[١٧٠] : (متدخلة) : ولا أنا أيضا! وبهذه المثابة دعوني أنضم الى موكبكن .

لاميات : ستكون زائداً على جماعتنا ، وستفسد دائما لعبنا .

امبوسا : (مخاطبة مفستوفيلس) : سلام عليك من بنت العم امبوسا ، المحبوبة ذات قدم الحمار! أنت لك قدم فرس ، ومع ذلك فلك مني أجمل تحية يا ابن العم .

مفستوفيلس : ظننت أنني لن أجد هنا الا مجهولات ، لكنني مع الأسف وجدت قريبات ، انه كتاب قديم يُتصفّح : من الهارتس الى بلاد اليونان دوماً أجد أولاد العم!

امبوسا : من المؤكد أنني أستطيع أن أعمل فورا ، وفي وسعي أن أتحول الى أشكال عديدة . لكن اكراما لك وضعت الآن رأس حمار .

مفستوفيلس : ألاحظ أنه عند هؤلاء القوم القرابة تعني أمرا عظيما ، لكن مهما يكن من شيء فاني أستنكر رأس الحمار .

لاميات : لا تشغل نفسك بهذه المرأة الفظيعة . انها تطرد كل ما هو جميل ومحبوب ، ولو وجد شيء جميل ومحبوب وجاءت هي فانه يزول ويفنى .

مفستوفيلس : وأيضا بنات العم هؤلاء ، الرقيقات النحيلات ، يخامرني فيهن جميعا شك ، ووراء هذه الخدود الوردية أخشى أيضا تحولات .

لاميات : حاول مع ذلك! نحن كثيرات . تناول! وان كان لك في اللعب حظ ، فستكن الفضلى من نصيبك . ما معنى هذه النغمة الشهوانية ؟ أنت طالب قُرْبٍ بائسٌ ، تتكبّر وتتعاظم! ـ والآن ليختلط بجماعتنا ، فأسقطن أقنعتكن ، واكشفن عن حقيقتكن!

مفستوفيلس : اخترت الأجمل ـ (يعانقها) يا ويلتاه! يا لها من مكنسة جاسية! (يمسك أخرى) وهذه ؟ وجه كئيب!

لاميات : وهل أنت تستحق خيرا منها ؟ لا تكن واهما .

مفستوفيلس : مع الصغيرة أود أن أراهن ـ لكن ها هي ذي سحلية تفلت من بين

يديّ! ، وضفيرتها المصقولة هي مثل الحية . لكن لأمسكن الآن بالطويلة ، بيد أنها عصا[١٧١] باخوس ورأسها مخروط صنوبر . الى أين يقودنا هذا ؟ هذه سمينة ربما تثير في نفسي اللهو . فلنحاول آخر محاولة . هيا! انها رخوة طريّة يدفع فيها الشرقيّ ثمناً غالياً ـ لكن واأسفاه! هذا الفطر الترابي[١٧٢] ينفجر مشقوقا!

لاميات : تفرّقن ، وترجحن ، وحلقن مثل البرق ، وبجناح أسود أَحِطْن بابن الساحرة المتطفّل! أيتها الدوائر الخائفة غير الواثقة! ويا أيها الخفافيش بأجنحة صامتة ؟ انه يتخلص بثمن بخس .

مفستوفيلس : (يهز رأسه) : يبدو أنني لم أصبح أكثر حكمة . هنا غير معقول ، وفي الشمال غير معقول ، الأشباح هنا كما هناك ملعونة ، والشعب والشعراء خالون من الذوق . المساخر هنا رَقْص حواس مثلما هي في كل مكان . لقد أمسكت بملامح أقنعة مواتية ، لكني لم أمسك الا بكائنات روّعتني ـ كنت أودّ أن أخدع نفسي ، لو أن الأمر طال أكثر! (يضل بين الصخور) أين أنا اذن ؟ الى أين أريد الذهاب ، كان هذا طريقا ، أما الآن فقد صار فظاعة . قدمت من هناك على طريق لاحب ، والآن تقابلني الصخور .

وعبثا أصعد وأنزل : أين أعثر من جديد على اسفنكساتي ؟ اني من الحماقة بحيث لم أتصور أن أصادف مثل هذه الجبال في ليلة واحدة! هذا موكب ساحرات : لقد جنن معهن ببلوكسبرج .

أورياس[١٧٣] : (على صخرة قديمة) : اصعدوا الى هنا! ان جبلي قديم ، وهو على شكله الأول . وَفِّروا مصاعد الصخور الوعرة ، وأقصى فروع البندس[١٧٤] . وكنت أقف ثابتة هنا لما هرب من فوقي بمبايس[١٧٥] . وبالقرب من هنا صورة الجنون[١٧٦] تختفي لدى صياح الديك . أمثال هذه الأساطير كثيرا ما أشاهدها تنشأ ، وفجأة تزول من جديد وتغيب .

مفستوفيلس : لك الكرامة أيها الرأس المبجل المجلّل بقوة السنديان العالية! ان أوضح ضوء للقمر لا ينفذ في داخل ظلمتك . ـ لكن بالقرب في الأيك يتجلى نور يلمع بتواضع . ما أجمل التناسق بين كل أجزائه! حقا ، انه انسان صناعي! الى أين ، أيها الرفيق الصغير ؟

الانسان الصناعي : اني أحلق من مكان الى مكان ، وبودّي أن أنشأ أفضل نشأة ، لقد عيل صبري وأوّد أن أكسر زجاجي الى نصفين . لكن ما شاهدته حتى الآن يجعلني لا أود أن أخاطر بالولوج في هذا العالم . بيد أني أفضي اليك بهذا السرّ : اني في أثر فيلسوفين : لقد تسمعت ، فسمعت : طبيعة! طبيعة! ولا أريد أن أفارق هذين ، فلا بد أنهما يعرفان الماهية الأرضية ، وأشعر في النهاية الى أين أتوجه على أحْكَمِ وجه .

مفستوفيلس : افعل من تلقاء نفسك . حيث تحوم الأشباح فان الفيلسوف يرحب به . إنه في الحال يخلق اثني عشر شبحا جديدا ، حتى يستمتعوا بفنّه ورضـــاه . اذا أنت لم تخطئ ، لن تصل الى أي فـــهم . واذا أردت النشوء ، فانشأ من تلقاء نفسك .

الانسان الصناعي : النصيحة الحسنة ينبغي ألا تهمل .

مفستوفيلس : امض اذن! نريد أن نشاهد المزيد . (ينفصل كلاهما عن الآخر)

أنكساجورس : (مخاطبا طاليس) : احساسك الجاسي لا يريد أن ينحني ، أثم حاجة الى المزيد من أجل إقناعك ؟

طاليس : الموجة تنحني لكل ريح ، لكنها تتباعد عن الصخر القاسي .

أنكساجورس : هذه الصخرة حدثت بوساطة دخان النار .

طاليس : الحيّ نشأ في الرطب .

الانسان الصناعي : (بينهما) : دعاني أمش بينكما ، أنا أيضا أريد أن أنشأ .

أنكساجورس : هل أحدثت ، يا طاليس ، في ليلة واحدة مثل هذا الجبل من الطين ؟

طاليس : الطبيعة وسيلانها الحيّ لا يتوقفان على نهار وليل وساعات . ان الطبيعة تشكّل بنظام كلّ شكل ، وحتى الكبير لا يحتاج الى قهر .

أنكساجورس : لكن كان ها هنا قهر . ان ناراً بلوتونية قاسية ، والانفجار الهائل لأبخرة أيولية[١٧٧] ، قد نفذت في القشرة القديمة ، وفي الحال كان لا بد من قيام جبل .

طاليس : وما جدوى هذا ؟ والى ماذا يؤدي ؟ ان الجبل قائم هناك . انه بعيد وحسن . ان مثل هذا الحِجاج مضيعة للوقت والراحة ، ويقود الشعب الصابر بحبل .

أنكساجورس : بسرعة انبثق جبل المورميدونات ليسكن في شقوق الصخور .

الأقزام ، والنمل ، والكستبانات ، وكائنات أخرى صغيرة تعمل[١٧٨] .
(مخاطبا الانسان الصناعي) أنت لم تطمح أبدا الى شيء عظيم ، بل عشت محصورا متوحّدا . لو تستطيع أن تعوّد نفسك على السيطرة ، لتوّجْتُك ملكا .

الانسان الصناعي : وما رأي طاليسنا ؟

طاليس : لا أنصح بذلك . مع الصغار يفعل المرء أفعالا صغيرة ، ومع الكبار يصير الصغير كبيرا . انظروا الى هناك! ان سحابة الكراكي السوداء تهدّد الشعب المهتاج وقد تُهدد الملك على هذا النحو . بمناقير حادة ، وسيقان كامشة تنقض على الصغار ، الدمار يتراءى . كان جريمة نكراء تدمير البلشونات المتجمعة في بركتها الهادئة . لكن هذا الهجوم القتال قد انتقم له أبشع انتقام . إنه أثار تعطش أقربائهم الى دماء الأقزام . فماذا تفيدهم الآن الدروع والرماح والخوذات ؟ وما فائدة ريش البلشون ؟ انظر الى النمل والكستبانات وهي تحاول الاختباء ، تَشتَّتَتْ فلولها ، وهربت ، وقضي عليها .

أنكساجورس : (بوقار ، بعد توقف قصير) : حتى الآن كنت أنظر دائما في القوى الكائنة تحت الأرض ، أما في هذه الحالة فاني أوجه بصري الى أعلى . أنت يا مَنْ في الأعالي ، يا من لا تشيخ أبدا ، يا مثلث الاسم والوجه ، أنا أتوجه اليك بالدعاء في هذه البليّة التي أصابت شعبي - ديانا ، لونا ، هكاته! يا من يشرح الصدر ، وفي أعماقه كل العقل ، أيها المضيء بهدوء ، وفي باطنك القوة ، افتح الفُوَهة المروّعة لظلالك ، ولتكشف القوة القديمة عن نفسها دون سحر . (وقفة)
هل استجيب اليَ بسرعة ؟ هل عكرَ دعائي الموجه الى تلك الأعالي نظام الطبيعة ؟

وعرش الإلاهة المستدير يقترب ويزداد حجما باستمرار ، ويروّع البصر ويخيفه! وناره تحمارّ وتميل الى الكآبة . لا تقتربي أكثر! أيتها الدائرة القوية المهدّدة ، والا قضيت علينا وعلى البر والبحر! أيكون حقا اذن أن النساء التساليات ، في ثقة بالسحر إجرامية ، قد غنّينك وأضللنك عن طريقك ، وسلبنك أسوأ الأمور ؟ ان القرص المضيء قد

أظلم ، وحدث انشقاق وبرق واشعاع ، أي ضجيج ، وأي صليل! وبين ذلك ارعاد وزفيف للريح! إني أجثو بتواضع على درجات العرش ـ معذرة! لقد دعوت هذا كله . (يرتمي بوجهه)

طاليس : كم سمع هذا الرجل ورأى! اني لا أدري كيف حدث لنا هذا ، ولهذا لم أدركه معه . لنعترف بأن ثمّ ساعات مجنونة ، والقمر يهدهد نفسه راضيا في مكانه مثلما كان من قبل .

الانسان الصناعي : انظر هناك مقرّ الأقزام! كان الجبل مستديرا ، والآن صار مدببا[١٧٩] . لقد شعرت باصطدام عنيف ، لقد سقطت الصخرة من القمر ، وفي الحال ، ودون سؤال ، جندلت الصديق والعدو على السواء . مع ذلك ينبغي عليّ أن أثني على مثل تلك الفنون[١٨٠] التي خلقت ، في ليلة واحدة ، من أسفل ومن أعلى ، هذا الجبل .

طاليس : ليهدأ بالك! كان ذلك مجرد تصور[١٨١] . وها هو ذا الحشد الخسيس قد مضى لسبيله . لقد كان حسنا أنك لم تكن ملكا[١٨٢] . والآن هيّا الى عيد البحر البهيج . إنهم هناك يرجون ويرحبون بالضيوف العجيبين . (يبتعدان)

مفستوفيلس : (يتسلق في الجانب المقابل) : أما أنا فعليّ أن أتسلق سلالم الصخور الوعرة ، وأن أشق طريقي خلال الجذور المتحجرة للسنديان العتيق .على الهارتس ، جبلي ، للبخار رائحة القطران ، وهذا له عندي الأفضلية بعد الكبريت . أما هنا عند اليونان فلا نكاد نشمّ أثرا لهذا . ليت شعري بماذا اذن يحضأون النار والشعلات!

درياس[١٨٣] : استفد من حكمتك في بلدك ، أما في البلد الأجنبيّ فأنت لست خبيرا بدرجة كافية . لهذا ينبغي عليك ألا تفكرّ في وطنك هنا ، بل عليك أن توقرّ جلالة السنديان المقدس هنا .

مفستوفيلس : المرء يفكر فيما ترك ، وما تعود عليه المرء يبقى فردوسا . لكن قل لي : مَنْ الجاثم في المغارة هناك ؟ الضوء ضئيل . انهم ثلاثة .

درياس : انهم الفوركيادات[١٨٤]! تجاسر واذهب الى مكانهن وخاطبهن ان لم يستول عليك الرعب .

مفستوفيلس : ولم لا! ـ اني أشاهد شيئاً ، وأتعجب! مهما يكن من كبريائي فعليّ مع

ذلك أن أقرّ بأني لم أر مثلهنّ أبدا ، إنهن أسوأ من اليبروح[١٨٥]! هل يعدّ المرء الخطايا الملعونة منذ القدم قبيحة بأية درجة ، اذا ما أبصر هذه الوحوش الثلاثة ؟ إننا لم نحتملهن على أعتاب أبشع أنواع جحيمنا . وهن هنا ينّبتن في بلاد الجمال التي تسمى ذات القدم والشهرة! إنهنّ يضطربن ويبدو أنهنّ شعرن بوجودي ، إنهن يَصْفِرن ويتقلبن مثل الخفافيش مصاصة الدماء .

فوركيادات : يا أختيَ ، أعطياني العين ، لأبصر مَنْ هذا الذي يتجرأ على الاقتراب من معبدنا .

مفستوفيلس : يا صاحبات الجلالة! اسمحن لي أن أقترب منكن وأن أتلقى بركتكن المثلثة ، صحيح أني أتقدم بوصفي غير معروف لكن ، لكنني ، اذا لم أكن مخطئا ، من أقاربكن الأبعدين . لقد أبصرت آلهة ذوي جلال عريق ، وجثوت بعمق أمام أويس وريا[١٨٦] . وحتى آلهات المصير ، أخواتكن ، بنات خاوس ، قد رأيتهن بالأمس أو اليوم الذي قبله . لكني لم أشاهد مثلكن أبدا . أشعر أني مفتون[١٨٧] ، ليس عندي ما أقوله أكثر من ذلك .

فوركيادات : يبدو أن هذا الروح عنده عقل .

مفستوفيلس : وما أتعجب له هو أنه لم يَمْدَحْكنَ واحد من الشعراء . خبّرنني : كيف كان هذا ، وكيف أمكن أن يحدث هذا ؟ ولم أشاهد لكنَ ، يا صاحبات الجلالة ، أية صورة ، إن على الازميل أن يصل اليكن ، لا إلى جونون وبلاّس وفينوس[١٨٨] ومثيلاتهن!

فوركيادات : اغطس في الوحدة والليل الساكن ، نحن الثلاث لم نفكر أبدا في هذا .

مفستوفيلس : وكيف كان يمكن ذلك ما دمتنّ بعيدات عن العالم لا ترين هنا أحدا ولا أحد يراكن ؟ إن عليكن أن تسكنَ في مواضع فيها تتربع الفخامة والفن على نفس العرش ، وحيث في كل يوم تمثال جديد من المرمر لأحد الأبطال يجري الى الحياة بخطوة مزدوجة ، وحيث ـ

فوركيادات : أسكت ولا تثر فينا التشهيَ! وماذا يجدينا أن نعرف أكثر من ذلك ؟ نحن ولِدنا في الليل ، وقريبات لما هو ليليّ ، لا يعرفنا أحد ، ونكاد

لا نعرف أنفسنا .

مفستوفيلس : في هذه الحالة لن تكون هناك مشكلة . يمكن المرء أن يتحول هو نفسه الى غيره . إن ثلاثتكن اكتفينَ بعين واحدة ، وسن واحدة ، ومن الناحية الأسطورية يمكن أن تندمج ثلاثتكن في اثنتين ، فأما الثالثة فأَعِرْنني شكلها لمدة قصيرة .

إحداهن : ماذا تظن ؟ هل هذا ممكن ؟

الاثنتان الأخريان : فلنحاول ـ لكن بدون العين والسنّ .

مفستوفيلس : بهذا أنتن تستبعدن الأفضل ، أنى للصورة الدقيقة أن تكتمل هكذا!

إحداهن : أغلق إحدى عينيك ، وهذا أمر سهل ، ودع أحد النابين يُشاهد ، وفي الحال تحصل على وضعة جانبية (بروفيل) تشابهنا تماما مشابهة الأخوات .

مفستوفيلس : شرف عظيم! ليكن!

فوركيادات : ليكن!

مفستوفيلس : (على شكل فوركياد في وضعة جانبية) : هأنذا الابن الأحب لخاوس[١٨٩] .

فوركيادات : لا جدال في أننا بنات خاوس .

مفيستوفيلس : سيؤخذ عليَّ أنا ، ويا للعار ، أنني خنثى .

فوركيادات : ثلاث من الأخوات ، ما أجمل هذا! إن لنا عينين ، وسنَين .

مفستوفيلس : عليَّ الآن أن أختبئ ، ثم أذهب بعد ذلك وأروّع كل الشياطين في الجحيم .

خلجان بحر ايجه

القمر مقيم في السمت

سيرينات[١٩٠] : (مستندات الى الصخور وهن ينفخن في النايات ويغنّين) : إن الساحرات التساليات قد أنزلنك في ليلة مروعة مرتكبات جرما فظيعا ، لكن في هذه الليلة أَنِرْ من قوس ليلتك على هذه الأمواج المتلاطمة المتألقة بهدوء . أَضئْ الحشود المتصاعدة من الأمواج . نحن مستعدون لأداء

أية خدمة ، أيها القمر الجميل ، فالطف بنا!

نيريدات وتريتونات[١٩١] : (بوصفها عجائب البحر) : اعزفوا بألحان أحدّ تشق عباب البحر الفسيح وتدعو أمة الأعماق . أمام الأخاديد الرهيبة التي أحدثتها العاصفة لجأنا الى الأرض الساكنة ، يجذبنا الى هناك الغناء العذب .
انظروا كيف تزيّنا بالسلاسل الذهبية ونحن في أعلى الفتنة ، وجمعنا الينا التاج والأحجار الكريمة والأساور وزينة النطاق! ونحن ندين بهذه كلها لكم ، يا عفاريت خليجنا . إن غناءكم اجتذب وأغرق السفن المحملة بهذه الكنوز .

سيرينات : نحن نعلم ذلك ، ونعلم أن السمك يستمتع في طراوة البحر المصقول ويقضي الحياة بدون آلام . لكن ، أيتها الجماعات المتحركة في الاحتفال ، نود اليوم أن نتأكد أننا أكثر من سمك .

نيريدات وتريتونات : قبل أن نأتي الى هنا فكرّنا بهذا الأمر . أيتها الأخوات ، أيها الأخوة ، أسرعوا . أقصر الأسفار كفيل اليوم بأن يكون أصدق دليل على أننا أكثر من سمك .
(تذهب)

سيرينات : ذهبوا في الحال! نحو ساموثراس مباشرة ، اختفوا مع ريح مواتية .
على أي شيء عزموا أن يفعلوا في مملكة الكابيرين[١٩٢] الأعلين ؟ إن هؤلاء آلهة في غاية العجب ، ينجبون أنفسهم باستمرار ، ولا يعرفون أبدا حقيقة أنفسهم .
إبق في عليانك ، أيها القمر الجميل ، والطف بنا حتى يستمر الليل ، ولا يفرقنّا النهار!

طاليس : (على الشاطئ ، يخاطب الانسان الصناعي) : أودّ أن أقتادك الى ميريوس[١٩٣] العجوز ، صحيح أننا لسنا بعيدين عن مغارته ، بيد أنه قاسي الرأس دائم الكآبة مشاكس . والجنس لبشري كله لا يستطيع ارضاءه ، وهو العجوز المكتئب . لكن المستقبل مكشوف له ، ولهذا يحترمه الجميع ويوقرونه في مكانه ، وهو أيضا صنع الكثير من الخير .

الانسان الصناعي : لنحاول ذلك ولنقرع بابه . ان هذا لن يكلفني الزجاج والشعلة .

نيريوس : أهي أصوات انسانية هذه التي تدركها أذني ؟ كم أتضايق منها في أعماق قلبي! إنهم يحاولون دوماً أن يكونوا مثل الآلهة ، ومع ذلك فقد قضي عليهم أن يبقوا كما كانوا من قبل . منذ سنوات قديمة كان في وسعي أن أستريح راحة الهية ، لكن دافعا دفعني الى أن أفعل الخير لأفضلهم ، ثم تأملت بعد ذلك فيما أنجز من أعمال ، فكانت كما لو كنت لم أقدّم أية نصيحة .

طاليس : لكن ، يا شيخ البحر ، ان الناس يثقون بك ، أنت الحكيم ، فلا تطردنا من هنا . أنظر الى هذه الشعلة ، وإن كانت شبيهة بالانسان ، فانها تطيع نصيحتك طاعة تامة .

نيريوس : أية نصيحة! وهل أفلحت النصيحة يوما عند الناس ؟ إن الكلمة الحكيمة تتحجر في الأذن القاسية . لربما يعمل الناس أمورا يدينونها فيما بعد إدانة مرّة ، ومع ذلك فإنهم يظلّون عنيدين كما كانوا دوماً . ألم أكن بمثابة والد لباريس وحذّرته قبل أن يذهب وراء تلك المرأة الأجنبية .
كان يقف على الشاطئ اليوناني بجسارة ، وأنبأته ما شاهدته في داخل روحي : الهواء مليء بالدخان ، والأحمر يتدفق كالسيل . والشعاعات تتّقد ، بين القتل والموت : يوم حساب[١٩٤] طروادة ، مأخوذا بالشعر ، ومعروفا منذ آلاف السنين على نحو مفزع ، الكلمة القديمة بدت للوقح[١٩٥] لعبا ، فاتّبع هواه وسقطت اليوس[١٩٦] ، جثة هائلة . متجمدة بعد عذاب طويل ، أكلة شهية لنسور جبال بندوس[١٩٧] . ثم أوليس هو الآخر! ألم أحذره مقدما من جبل كيركيه[١٩٨] وفظائع القوقلوفاس[١٩٩] ؟
ثم التردد ، والطيش وماذا أيضا ـ هل هذا كله جاءه بالكسب ؟ الى أن واتاه حسن الحظ فحمله الى الشاطئ المضياف[٢٠٠] ، ولكن بعد الكثير من التقلبات والغمرات وبعد مضي وقت طويل .

طاليس : مثل هذا السلوك يتضايق منه الرجل الحكيم ، لكنه اذا كان طيبا ، فانه يحاول مرة أخرى . إن درهما من الشكر يَرْجَح قنطارا من الجحود . ويرضيه رضا كبيرا . إننا لا نطلب منك شيئا قليلا . هذا الولد يريد أن يُنَشأ ويحتاج الى نصيحة .

نيريوس : لا تفسد عليَ مزاجي النادر! فحالي اليوم تختلف تماما عن حالي من قبل : لقد دعوت كل بناتي : الدوريدات[٢٠١] ، لطائف البحر . لا الأولمب ولا أرضكم تحمل مثل هذه الصورة الجميلة التي تتحرك بأناقة . إنهن يرمين بأنفسهن بلطف من التنينات البحرية على أفراس[٢٠٢] نبتون . وهن قريبات من عنصر الماء الى درجة أن الزّبد[٢٠٣] يكفي لرفعهن ، فيما يبدو . والآن تأتي أجملهن ، وهي جلاطية محمولة في عربة[٢٠٤] صَدَف فينوس المفوفة الألوان . ومنذ أن هجرتنا قوبريس صارت جلاطية معبودة في بافوس بوصفها إلاهة . وهكذا تملك هذه اللطيفة كميراثٍ ورثته : مدينة المعبد[٢٠٥] وعرش العربة .

هيا! في ساعة الفرح بالآباء لا يليق بالقلب الكراهية ولا بالفم الذم والتوبيخ . هيا الى بروتيوس[٢٠٦] . اسألوا الرجل العجيب كيف يمكن المرء أن يُنشَأ وأن يتحول . (يمضي صوب البحر)

طاليس : لم نكسب شيئا بهذه الخطوة التي خطوناها : ولو عثرنا على بروتيوس لمضى عنا على الفور ، وحتى لو توقف ، لم يقل في نهاية الأمر الا ما يثير الدهشة ويوقع في النفس التشويش . أنت في حاجة الى مثل هذه النصيحة . ، فلنحاول ولنغير طريقنا .

(يبتعدان)

سيرينات : (على الصخر في أعلى) : ماذا نبصر من بعيد منزلقا على سطح الأمواج ؟ مثل الأشرعة البيضاء المنشورة وفقا لقاعدة الريح ، هن نساء البحر[٢٠٧] الناصعات البياض ، المبتهجات . فلننزل! اسمعن أصواتهن .

نيريدات وتريتونات : ما نحمله على أيدينا لا بد أنه سيلذّ لكم جميعا : صور عابسة[٢٠٨] تعكّر لمعان ترسخيلونه[٢٠٩] الهائل . نحن نحضر آلهة[٢١٠] ، فعليكم أن تغنّوا أغاني سامية .

سيرينات : صغيرو الشكل ، كبيرو القوة ، منقذو المخفقين ، آلهة معبودون منذ القدم .

نيريدات وتريتونات : نحن أحضرنا الكابيرات ، لإقامة احتفال سلمي ، اذ حيث يسيطرن

يكون نبتون ودودا في المعاملة .

سيرينات : نحن نتلوكم في المرتبة ، اذا تحطمت سفينته ، فأنتم تحمون البحارة ، إن قوتكم لا تقهر .

نيريدات وتريتونات : لقد جئنا بثلاثة[٢١١] . والرابع لم يرد المجيء . قال إنه المستقيم التفكير ، وهو الذي فكر لهم جميعا .

سيرينات : إله يهزأ بإله آخر . وَقِروا كل الألطاف ، واخشوا كل الأضرار .

نيريدات وتريتونات : إنهم سبعة تماما .

سيرينات : وأين الثلاثة الآخرون ؟

نيريدات وتريتونات : لا نستطيع أن نقول لكم . في وسعكم أن تسألوا في الأولمب . هناك أيضا الثامن ، الذي لم يفكّر فيه أحد . إنهم مستعدون للتلطف معنا ، لكنهم ليسوا بعد جميعا متأهبين .
هؤلاء المنقطعو النظير يريدون دائما المزيد ، وهم مليئون بالشوق الى ما لا يمكن الوصول اليه ، ومتعطشون له .

سيرينات : نحن تعودنا أن نتعبّد حيث توجد عبادة في الشمس وفي القمر[٢١٢] على السواء ، إن هذا مفيد ومجزٍ .

نيريدات وتريتونات : إن أعظم أمجادنا أن نقود هذا الاحتفال .

سيرينات : إن أبطال العصر القديم سينتقص من شهرتهم ، اذا أحضروا الضفيرة الذهبية فقط ، بينما أنتم تحضرون الكابيرات . (تردد الجماعة) : إذا أحضروا الضفيرة الذهبية فقط ، بينما أنتم تحضرون الكابيرات .
(النيريدات والتريتونات تذهب)

الانسان الصناعي : إني أرى المسوخ كأنهم قدور من الطين رديئة ، والآن يصطدم بهم الحكماء ، ويكسرون رؤسهم الصلبة .

طاليس : وهذا هو المطلوب : فان الصدأ هو الذي يجعل للنقود قيمة[٢١٣] .

بروتيوس : (دون أن يلحظه أحد) : هذا شيء يسرّني أنا صاحب الخرافات القديم! كلّما كان الشيء أغرب كان أَحْظَى بالاحترام .

طاليس : أين أنت يا بروتيوس ؟

بروتيوس : (يتكلم من بطنه ، مرة قريبا وأخرى بعيدا) : هنا! وهنا!

طاليس : أنا أغتفر لك مزاحك القديم ، لكن للصديق لا تقل كلمات عابثة!

أنا أعلم أنك تتكلم من مكان زائف .

بروتيوس : (كما لو كان بعيدا) : وداعا!

طاليس : (يهمس إلى الانسان الصناعي) : انه قريب جدا . أضئ حالا! انه طُلَعَة مثل السمكة ، وأينما اختبأ وتشكّل ، فان الشعلة ستجذبه .

الانسان الصناعي : سأصب فورا فيضا من الضوء ، لكن لأحاذر حتى لا تنكسر الزجاجة .

بروتيوس : (على شكل سلحفاة هائلة) : ما الذي يضيء هذه الاضاءة الجميلة ؟

طاليس : (وهو يحجب الانسان الصناعي) : حسن! ان شئت استطعت أن ترى عن قرب . ولا تضايقنا من المجهود القليل ، وأظهر نفسك على قدمين انسانيين! وبلطف منا وبارادتنا يمكن المرء أن يشاهد ما نحجب .

بروتيوس : (في شكل نبيل) : أنت لا تزال تعرف حيل الحكمة الدنيوية .

طاليس : أنت لاتزال مولعا بتغيير شكلك . (يكشف عن الانسان الصناعي)

بروتيوس : (مندهشا) : قزم مضيئ! لم أشاهد هذا من قبل!

طاليس : انه يطلب نصيحة ويود أن ينشأ . لقد علمت منه أنه جاء إلى الدنيا نصف مجيء بشكل عجيب . لا تعوزه الصفات الروحية ، لكن تنقصه جدا المهارات العينية . وحتى الآن الزجاج وحده هو الذي يعطيه وزنا ، لكنه يود أن يصير له جسد .

بروتيوس : أنت ابن عذراء حقيقي ، قبل أن ينبغي أن توجد ها أنت ذا موجود .

طاليس : (هامسا) : ويبدو لي ، من ناحية أخرى ، أن ثمّ اشكالا : يخيّل اليَ أنه خنثى .

بروتيوس : هذا أفضل . فأينما حل ، سيطيب له المقام . لكن لا داعي لطول التفكير والتدبير . عليك أن تبدأ بالبحر الطلق . هناك يبدأ المرء بالأمور الصغيرة ويطيب له أن يبتلع ما هو صغير جدا . ثم ينمو شيئا فشيئا ويزداد ويتكامل .

الانسان الصناعي : هنا يهب هواء طريّ ، ويحدث اخضرار ، والرائحة تسرني .

بروتيوس : أنا أصدّق هذا ، أيها الفتى المحبوب جدا! وأبعد من هنا سيكون الجو ألطف ، وعلى لسان الشاطئ الضيق هذا دائرة البخار أشد لطافة ، وهناك سنشاهد الموكب عن كثب ، وها هو يحلّق قادما الينا . تعال معي الى هناك .

طاليس : سأذهب معك .

الانسان الصناعي : ثلاث أرواح عجيبة تمشي في صف[٢١٤] .

تلشيننات[٢١٥] : رودس (على هبو كمبات وتنانين بحر ، وفي أيديهم مثلثة نبتون)

جوقة : صنعنا مثلثة[٢١٦] نبتون التي بها يسيطر على أعتى الأمواج . واذا أطلق اله الرعد سحابه المليء ، واجه نبتون هزيمه المخيف . ومهما أبرق الرعد برقا مشرشرا فان الموجة تتدفق تلو الموجة ، ومن أخذوا بين كليهما طوح بهم طويلا ثم ابتلعتهم الأعماق ، ولهذا السبب أعطانا اليوم صولجانه ، وها نحن نحلّق محتفلين هادئين خفافا .

سيرينات : وأنتم أيها المكرّسون للشمس ، المخلصون لليوم المشرق ، حيّوا الساعة التي يحتفل فيها بتمجيد القمر!

تلسينان : أيها الاله الأعز[٢١٧] المائل في القوس هناك في أعلى! أنت تسمع بسرور الثناء على أختك[٢١٨] أعر أذنا لرودس حيث ينشأ للشمس نشيدا لا ينتهي أبدا[٢١٩] . سواء عند ابتداء المسيرة اليومية ، أم عند نهايتها فانه ينظر الينا بكبرياء . وجبالنا ومدننا ، وسواحلنا ، ومياهنا ساطعة وجميلة . وليس لدينا ضباب . واذا حدث ضباب ـ فسرعان ما ترسل الشمس شعاعها ، ويهب النسيم العليل ، فيعلو الصفاء الجزيرة من جديد . والشمس الإلهة ترى نفسها هنا في مئات التماثيل : شابة ، ومارِدة ، وعظيمة ، ورقيقة . ونحن أول من صَوَّر قوة الآلهة في صور انسانية .

بروتيوس : دعهم يغنّوا ، دعهم يتنفّجوا! فان الأعمال الميتة اذا ما قورنت بأشعة الشمس المقدسة المشيعة للحياة تبدَّتْ مجرد مزاح . انهم يستمرون في الصهر والوضع في القوالب ، وحينما يصبّونها في البرونز يظنوَن أنهم عملوا شيئا . ما جدوى هذا التفاخر في نهاية الأمر ؟ كانت صور الآلهة ماثلة عظيمة ـ واذا بهزّة أرضية تقضي عليها ، ولابد من وقت طويل لاعادة صبها . ان السعي على الأرض ، أيا كان نوعه ، هو دائما مجرد متاعب ومضايقات ، ولكن الموج أليق بالحياة ، إذا يحملك في الماء الخالد بروتيوس ـ دلفين . (يتحوّل)
تم الأمر! ولا بد أن يواتيك هذا على أجمل وجه : سآخذك على

ظهري ، وأزوجك بالاوقيانوس .

طاليس : خذ في تحقيق الرغبة الجديرة بالاطراء وهي أن تبدأ الخلق من جديد . كن مستعدا للعمل الفوري! تحرّك وفقا للقوانين الزبدية خلال آلاف الأشكال . ولا بد من مضيّ وقت طويل قبل أن تصبح انسانا .

(الانسان الصناعي يركب على بروتيوس ـ دلفين)

بروتيوس : تعال معي بروحك في هذا الاتساع الرطب! وفيه ستعيش بالطول والعرض ، تتحرك كما تشاء ، لكن لا تسع إلى مرتبة أعلى : لأنك إن وصلت الى مرتبة الانسان ، فقد قضي عليك تماما .

طاليس : سيحدث ذلك فيما بعد ، ومن الجميل أيضا أن يصير في الوقت المناسب رجلا شهما .

بروتيوس : (مخاطبا طاليس) : نعم ، ان كان على شاكلتك . ويمكث هذا بعض الوقت ، لأني أراك منذ عدة قرون بين جماعة الأشباح الشاحبة .

سيرينات : (على الصخور) : أيّة حلقة من السحب ترسم حول القمر دائرة ثريّة ؟ انها حمائم مشتعلة بنار الغرام ولها أجنحة بيضاء مثل النور . لقد بعثت بها بافوس ، انها جماعتها من الطيور المشبوبة ، احتفالنا قد اكتمل ، والسرور الساجي مليء وواضح!

نيريوس : (مقبلا على طاليس) السائح الليلي سمّى بلاط القمر هذا : ظاهرة جوية ، أما نحن الأرواح فلنا رأي آخر وهو الرأي الصحيح الوحيد . انها حمائم تلك التي تصحب رحلة بنتي في الصَّدَفة ، انها نوع خاص من الطيران العجيب تعلمته قبل سالف الأزمان .

طاليس : وأنا أعتقد أن الأحسن هو ما يسّر الانسان الشهم حين يتعلق بما هو مقدس قابعا في عش هادئ دافئ .

البسول والحارس[٢٢٠] : (على وحوش بحرية وعجول بحرية وكباش بحرية) : في كهوف قبرص الوحشية ، التي لا يغمرها اله البحر ولا يزعزها الزلزال ، وتحيط بها الأهوية الأبدية ، وفي سرور هادئ ، مثلما كانت الحال في أقدم الأيام ، نحن نحرس عربة فينوس . وفي همس الليالي خلال ضفائر الأمواج اللطيفة ، دون أن يراها الجنس الجديد ، تقتاد أجمل البنات . نحن نعمل بهدوء ، لا نخاف النسر[٢٢١] ولا الأسد المجنّح ، ولا

الصليب ولا الهلال ، ولا يهمنا ما يقيم في أعلى ويحكم ، ويتغير ويتبدل ويطرد ويقتل ، ويهزم الدول والمدن . وها نحن نحضّر أجمل السيّدات .

سيرينات : تحركوا برشاقة ، وبسرعة معتدلة ، حول العربة دائرةً حول دائرة ، وبعد ذلك سيلتف الصفّ ، بالصف على شكل حيّات . اقتربي أيتها النيريدات القوية ، أيتها النسوة الخشنات ، المتوحشات عن لطف ، وأنتن ، أيتها الدوريدات ، الرقيقة ، أحضرن أُمَكُنّ جلاتيا الجادة مثل الآلهة ، الجديرة بالخلود لكنها أيضا فاتنة جذّابة مثل النساء المحبوبات .

دوريدات : (في جوقة يمررن بالقرب من نيريوس ، كلهن على دلفينات) : أعرنا أيها القمر ، الضوء والظلال وأَضْفِ الصفاء على زهرة الشباب! لأننا سنرى أزواجنا المحبوبين لأبينا ضارعين . (مخاطبات لنيريوس) انهم صبية أنقذناهم من بين براثن الحريق ، وأُرْقِدوا على اليراع والطحلب ، استدفأوا بالنور ، وعليهم الآن أن يبادلونا ذلك بالقبلات الحارة المخلصة ، انظُر اليهم بحنان .

نيريوس : جزاء مزدوج خليق بالتقدير : أن تكون رحيما وفي الوقت نفسه تسمح بذلك .

دوريدات : إذا وافقت ، يا أبانا ، على ما فعلناه وعلى ما كسبنا من متعة كسبا حلالا ، فدعنا نحتفظ بهم الى الأبد ضامات اياهم إلى صدر الشباب الخالد!

نيريوس : تمتّعن بالغنيمة الجميلة ، وتولّيْن تربيتهم من الشباب إلى الرجولة . لكنني لا أستطيع أن أهبكن ما لا يستطيع أحد غير زيوس أن يهبه . ان البحر الذي يموج بكنّ ويصخب لن يجعل الحبّ يستمر فان انقضى الغرام ، فأرقديهم بلطف على البّر .

دوريدات : أيها الصبية المحبوبون ، نحن نعرف قيمتكم . لكن لا بد من الانفصال عنكم ونحن محزونات ، لقد رمنا اخلاصا أبديا ، لكن الآلهة لا تريد ذلك .

الصبية : لو استمررن في امتاعنا نحن غلمان السفن الشهام! اننا لم نشعر من

قبل بما شعرنا به معكن من لذة ولا نريد خيرا من ذلك .

(جلاتيا تقترب وهي على العربة المحارية)

نيريوس : أنت هي ، يا عزيزتي!

جلاتيا : يا أبتاه! يا للسعادة! أيتها الدلافين ، توقفي ، ان النظرة تختلبني .

نيريوس : لقد مضوا ، مضوا فعلا في حركة من الوثب المستدير ، ان الاضطراب القلبي الباطن يحزنهم! آه ، ألا ليتهم أخذوني معهم! بيد أن نظرة واحدة تمتع ، وتكفي لسنة كاملة .

طاليس : تحية! تحية من جديد! كم أنا مبتهج ، يسري فيَّ الجمال والحق : كل شيء نشأ من الماء!! وكل شيء فالماء هو الذي يحفظه! إذا لم ترسل بالسحب ، ولم تزوّد الجبال الثرية بالماء ، ولم توجه الأنهار هنا وهناك ، ولم تُكمّل السيول ، فماذا كان سيكون حال الجبال والسهول والعالم ؟ أنت الذي تقيم الحياة الغضة!

صدى : (جوقة من كل الجماعات) : أنت الذي منك تتدفق الحياة الغضة .

نيريوس : انهم عائدون وهم يترنحون ، لكنهم لا يأتون ونظرتهم في مواجهة نظرتي ، ويتجلّون في حلقات متصلة واسعة ثابتة ، بأعداد كبيرة لا تحصى . بيد أني أبصر عرش جلاتيا المحاري ، انه يتألق مثل النجم خلال الحشد . محبوبتي تضيء خلال الزحام . على الرغم من بعد المسافة ، فهي لا تزال تلمع بوضوح وصفاء ، دائما قريبة وحقيقية .

الانسان الصناعي : في هذه الرطوبة اللطيفة كل ما أُضيؤه يبدو فاتنا جميلا .

بروتيوس : في رطوبة الحياة هذه يتألق نورك مع أصوات رائعة .

نيريوس : أيَّ سرّ جديد في وسط الجماعات يريد أن يتجلى لعيوننا ؟ وما الذي يشتعل حول المحارة عند أقدام جلاتيا ؟ مرة يلتهب بقوة ، ومرة أخرى برقّة ، ومرة ثالثة بعذوبة ، كما لو كانت نبضات الغرام تمسّه!

طاليس : انه انسان صناعي ، قد غرّر به بروتيوس! هذه هي أعراض[٢٢٢] شوقه العارم . يخيل إليَّ أني أسمع نواح هديره المروّع . انه سيحطم نفسه مصطدما بالعرش اللامع . الآن يشتعل ، الآن يبرق ، وها هو ذا يتدفق[٢٢٣] .

سيرينات : أية معجزة تحوّل الأمواج وهي تتلاطم مع بعضها البعض في ومضات

لامعة ؟ ثَمَّ ضياء وترنّح وصفاء ، أما الأجسام فتشتعل في طريق ليلي ، وكل شيء . حواليه تصيبه النار ، فليسيطر إذن «ايروس» الذي بدأ كلَّ شيء سلامٌ على البحر! سلامٌ على الأمواج تحيط بها النار المقدسة! سلام على الماء! سلام على النار! سلام على المغامرة النادرة!

الكل في الكل : سلامٌ على الأهوية البليلة! سلام على الكهوف الحافلة بالأسرار! لكم المجد ها هنا يا أيتها العناصر الأربعة!

الفصل الثالث

أمام(٢٢٤) قصر منلاوس(٢٢٥) في اسبرطة

هيلانة (تظهر ومعها) جوقة من السبايا
الطروادييين. بنتالس (قائدة الجوقة)

هيلانة : أنا هيلانة التي أعجب بها الكثيرون وذمّها الكثيرون(٢٢٦) . جئت من الشاطئ الذي نزلنا عليه ، ولا نزال نشعر بالدوار أصابنا من اهتزاز الأمواج الشديد ، الأمواج التي حملتنا من الحقول الافروجية(٢٢٧) المستوية إلى هنا ـ على ظهر عال مُسَنَّن(٢٢٨) بفضل فوسيدون وقوة الريح الجنوبية الشرقية(٢٢٩) ـ إلى خلجان الوطن . هناك يبتهج منلاوس الملك بعودته هو وأشجع محاربيه . وأنت أيها البيت الرفيع ، سترحب بي ، وأنت الذي بناك توندرايوس ، بحيث صار أفخر من أي بيت في اسبرطة . واني لأذكر أيام صباي فيه حين كنت ألعب سعيدة مع أختي قلوطمنستره ، ومع كاستور وبولكس أيضا . وأُحييك الآن أيتها الأبواب ذوات المداخل الثنائية والتي كنتِ مفتوحة ذات يوم على مصراعيك لاستقبال الزائرين في يوم احتفال ، وجاء منلاوس ، عريسي المختار من بين كثيرين ، للقائي . إفتحي مرة أخرى لي ، كيما أبلغ رسالة عاجلة ، من الملك ، كما هو لائق بزوجته . دعيني ادخل واطرحي في الخلف كل ما حدث من مصائب حولي حتى الآن . منذ اليوم الذي اجتزت فيه كل هذه العتبة بقلب خفيف ابتغاء زيارة

المعبد الموجود في كوثيرا ، كما يقتضي الفرض المقدس وسباني ذلك الصعلوك الافروجي ـ قد حدثت أحداث كثيرة يلذ للناس من أقصى النواحي أن يسمعوها تُحكَى ، لكن من دارت القصة والاسطورة حولها لا توَد أن تسمعها .

الجوقة : أيتها السيدة النبيلة ، لا تكشفي عن الشرف والحظ السعيد والموهبة العظمى التي لك ، لك أنت ، ولك وحدك : انها الجمال ، الجمال الذي يعلو على كل شيء . ان اسم البطل يسبق مجيئه ، ومن هنا كان فخره . لكن أمام الجمال الغامر يشعر أعتى الأبطال بالاستخذاء .

هيلانة : كفى! عُدْتُ مُبْحِرة مع زوجي ، ثم بعث بي لأسبقه إلى مدينته ، لكن ماذا يقصد بهذا ، لا أستطيع أن أحزر . هل أتيت بوصفي زوجة ؟ هل أتيت بوصفي ملكة ؟ هل أتيت بوصفي ضحية لألم الأمير ، ألمه المرير ، وللمصائب التي عاناها اليونانيون طويلا ؟ إني قد استُولي عليّ ، فهل أنا سجينة ، لست أدري! ذلك أن الخالدين منحوني سمعة مريبة ومصيرا كمرافقين لجمالي ، يقفان إلى جانبي عند هذه العتبة في جو من الكآبة والوعيد . ثم ان زوجي ، ونحن في السفينة الخاوية كان نادرا ما ينظر إليّ ، ولم يقل كلمة واحدة مشجّعة . بل كان يجلس في مواجهتي وكأنه يدبر شرا . وحين وصلنا مصب نهر اويروطاس(٢٢٠) وأوشكت مقدمات سفننا الأمامية على لمس الشاطئ ، صاح وكأن الاله يلهمه : دعوا رجالي ينزلون بنظام . وسأستعرض صفوفهم على الشاطئ . وعليكم أن تسيروا على شواطئ أويروطاس الوفيرة النضرة ، وأن تقودوا خيولكم خلال المراعي الخضر ، حتى تبلغوا السهل الذي كان فيما مضى غنيا بالمحاصيل وجميلا ، وحيث تقوم لَقْدَامون (اسبرطة) تحيط بها الجبال الجليلة . اذهبي إلى القصر ذي الأبراج العالية وتفقّدي الخادمات اللواتي تركتهنّ هناك والقهرمانة العجوز الماكرة ، ودعيها تُرِكِ الكنوز التي أعطاها ايانا أبوك ، والغنائم التي أضفتها أنا باستمرار في الحرب والسلام . ستجدين كل شيء في مكانه وبترتيب . ان من امتيازات الحاكم أن يعود فيجد بيته تماما كما تركه ، إذ ليس للخدم الحق في تغيير أيّ شيء .

هيلانة : ثم صدر أمر آخر من سيدنا : بعد أن تفحصوا كل شيء بنظام ، خذوا من المقاعد المثلثة الأرجل وما ترونه ضروريا ، وخذوا من الأواني من هذا النوع أو ذاك حسبما تقتضي الحاجة لأداء الطقوس المقدسة : القدور ، والقوارير ، والأحواض المسطوحة . واملأوا جرارا طويلة من أصفى مياه الينبوع المقدس . وأعدّوا خشب وقود جافّا يشتعل بسرعة ، ثم أخيرا أعدّوا سكينا ماضية الحدّ . وما عدا ذلك فأتركه لعنايتكم هذا هو ما أمر به ، ثم بعث بي بسرعة . لكنه لم يقل شيئا عن الكائن الحيّ الذي ينوي التضحية به على شرف آلهة الأولمب . وهذا نذير سوء ، لكني لا أهتم وأدع الأمر للآلهة العليّين الذين يفعلون ما يرونه حسنا لهم ، سواء رضي الناس بذلك أم لم يرضوا . نحن الفانين علينا أن نحتمل ذلك . وكثيرا ما حدث أن أهوى انسان ببلطته الثقيلة على عنق حيوان تُلَّ على الأرض للذبح المقدس فلم يستطع ذبحه ، لأن عدواً قد أقبل عليه أو لأن إلهاً تدخلّ ومنعه .

الجوقة : ما سيحدث لن تدركوه بالتفكير أيتها الملكة ، تقدمي بشجاعة! إن الخير والشرّ يصيبان الإنسان دون أن يتوقع ، وحتى لو تُنُبِئ به ، لم نصدقه . لقد احترقت طروادة ، وشاهدنا الموت بأعيننا ، الموت المخزي . ومع ذلك فنحن هنا معك ، نحن خادماتك المرحات ، نشاهد الشمس الساطعة في السماء ، وأنت ، يا أجمل من على الأرض ، يا سيدتنا اللطيفة ، أنت تجعلينا سعيدات .

هيلانة : ليكن ما يكون! مهما يكن ما ينتظرنا ، فان من واجبي أن أصعد إلى بيت الملك دون إبطاء ، هذا البيت الذي لم أره منذ وقت طويل لكني كنت في شوق شديد إليه وكاد طيشي أن يفقدني اياه ، لكن ها هو ذا أمامي مرة أخرى ، لست أدري كيف . ان قدميَ لا ترقيان بي الدرجات العالية بنشاط ، وأنا التي كنت أصعد عليها وثبا وأنا طفلة! (تخرج)

الجوقة : أيتها الأخوات السجينات الحزينات ، اطرحن بعيدا كل آلامكن! وشاركن السيدة في السعادة ، شاركن هيلانة في سعادتها ، وقد عادت إلى دار أبيها ، ولئن كان ذلك قد حدث بعد مدة طويلة ، فانها

عادت بقدمين ثابتتين وفي سعادة .

احمدن الآلهة المقدسين الذين يعبدون السعادة ويقتادون الغائبين إلى ديارهم . ان من يحرّر ينهض كما لو كان بجناحين فوق ما هو قاس خشن ، أما الأسير فيحنّ ويستهلك نفسه وذراعاه مبسوطتان فوق تحصينات سجنه .

لكن أحد الآلهة أبصرها حين كانت بعيدة هناك وأعادها من طروادة المخرّبة إلى البيت القديم الذي جُدّد ورُمّم ، حيث تستطيع أن تستعيد ذكريات سنواتها الماضية بعد أن عانت ما عانت من سرور وآلام .

بنتالس : (بوصفها قائدة الجوقة) : يا أخواتي ، توقّفن الآن عن الغناء البهيج وصوبن عيونكن شطر الباب الكبير . ماذا أرى ؟ أليست هذه هي الملكة وقد عادت مذعورة ؟ ماذا هناك ، أيتها الملكة ، وماذا عسى أن يكون قد حدث مما أوقع في نفسك الاضطراب وأنتِ في دارك حيث كنت تتوقعين الترحيب وحسن اللقاء ؟

لا تستطيعين إخفاء ذلك . اني أراه مكتوبا على جبينك ـ غضبا ، غضبا بحق ، يتصارع مع الدهشة .

هيلانة : (وقد تركت الباب المزدوج مفتوحا . انها مضطربة) ان مخاوف الناس المعتادة ليست من شأن بنت زيوس ، ويد الفزع الطائرة لا تمسّها . ولكن الرّعب المنبثق عن رحم الليل القديم منذ الأزل ، والمتعدد الأشكال مثل السحب المشبوبة المتصاعدة من جوفّ النار في الجبل ، مترنّحا إلى أعلى ، يهزّ أيضا صدر البطل . وهكذا فان الالهة الاستوكسيين[٢٣١] قد علّموا بقسوة دخولي البيت اليوم بحيث أستطيع بسرور أن أدير ظهري لهذه العتبة التي طالما حننت اليها وأن أتركها مثلما يتركها زائر مودع . لكن لا . لقد أتيت الى وضح النهار . ولن تدفعيني الى أبعد من هنا ، أيتها القوى ، مهما تكوني . لا بد من تطهير البيت الآن .

يمكن النار أن تتقد في الموقد ، لاستقبال الزوج والزوجة .

قائدة الجوقة : اكشفي لخادماتك ، أيتها السيدة النبيلة ، ماذا لاقيت ، ونحن معك باحترام .

هيلانة : ان ما شاهدته ينبغي أن تشاهدنه بعيونكن الاّ اذا كانت الليلة القديمة قد ابتلعت صورته في أعماق رحمها العجيب . لكن لكي تعرفوه ، أخبركم عنه بالكلمات التالية : حينما ذهبت الى القصر ، وأنا أفكر فيما ينبغي عمله في داخله ، أدهشني أني وجدت المكان في صمت تام . لا اشارة ولا صوت لا أحد مشغول بهذا العمل أو ذاك . لا خادمات ، ولا قهرمانة لتقول لي كلمات الترحيب المعتادة عند استقبال ضيف . لكن حين اقتربت من الموقد شاهدت امرأة طويلة القوام رأسها مغطى ، تجلس بالقرب من الرماد الخامد في وضع أقرب الى التفكير منه الى النوم . فأمرتها بالذهاب الى العمل ، متصورة أنها القهرمانة التي تركها زوجي للعناية بالبيت أثناء غيابه . لكنها بقيت جالسة ، مغطاة الرأس كما كانت من قبل . فلما انتهرتها ، رفعت ذراعها اليمنى كما لو كانت تأمرني بالخروج من البيت . فانصرفت عنها مغضبة وأسرعت الى الدرجات المؤدية إلى غرفة النوم وغرفة الكنوز المجاورة لها . فقفزت هي بسرعة واعترضت طريقي ، وشاهدت كم كانت طويلة نحيلة ، ذات عينين غائرتين محمرتين ، يثير الاضطراب منظر بنيتها الغريبة ، لكن كنت أتكلم في الهواء ، لأن الكلمة سعت عبثا أن تخلق صورا . لكن ها هي ذي! بل لقد تجاسرت على الظهور في النور! ونحن السيدتان ، إلى أن يحضر السيد الملك . ان الشمس ، صديقة الجمال تسوق مواليد الليل الكئيبة المفزعة إلى الكهوف ، أو تقيدها في الأغلال .

فوركياس : (على العتبة بين قائمتي الباب)

الجوقة : عانيت كثيرا . على الرغم من أن هذه الضفائر تتموج شابة حول أصداغي! شاهدت الكثير من الأمور المفزعة ، ويلات الحرب ، ليلة طروادة ، لما أن سقطت .

خلال الاضطراب المحفوف بالسحاب والتراب بين المحاربين كنت أسمع صوت الآلهة الرهيب ينادي . وسمعت الأصوات النحاسية الصراع المحتدم في ساحة المعركة وهي تتردد صوب الأسوار .

كانت أسوار «إليوم» (طروادة) لا تزال قائمة ، لكن لهيب النار قفز من بيت الى بيت ، وانتشر بفعل الرياح العاصفة فوق المدينة في أثناء الليل .
وفي أثناء هروبي استطعت مشاهدة الآلهة وهم قادمون خلال الدخان والحرارة والنيران المتواثبة ، وهم غضاب غضباً مروّعا ،
مَرَدةٌ عجيبة تخترق الظلام الرهيب .
هل رأيت هذا التشويش ، أو تخيلته في خوفي ؟ لن أعرف أبدا .
لكني أعلم علم اليقين أني أشاهد هذا الرّعب أمام عيني . بل أني أستطيع أن ألمسه بيدي ، لكن الفزع يجعلني لا أحسّ . أيّ بنات فوركيس[٢٢٢] أنتن ؟ انكن تجعلنني أفكّر فيهن أو لربما كنتنّ من الجرايات ذوات العين الواحدة والسنّ الواحدة المشتركة بينهن جميعا ؟ هل تجرؤ ، أيها الرعب ، أن تعرّض نفسك لبصر الشمس الخبير جنبا الى جنب مع الجمال ؟ لكن تعال . على كل حال ، ان الشمس (فيبوس) لا ترى القبح ، كما لا ترى الظل .
لكن من سوء حظنا نحن الفانين أن نتحمّل العذاب الذي يشعر به كل محبّي الجمال عند مرأى المحتقرين والبائسين بؤسا أبديا .
اسمع اذن . اذا تحدّيتنا ، فسيسمع اللعنات ، والتهديدات التي لا حصر لها من شفاه أولئك السعداء الذين صورتهم الآلهة .

فوركياس[٢٢٣] : كلمة قديمة ، لكنها تبقى سامية المعنى صادقة ، وهي أن الحياء والجمال لا يجتمعان معا أبدا ، ولا يسيران يدا في يد على طريق الأرض الأخضر . ان بغضا قديما يسكن عميقا في كليهما ، الى حد أنهما لو تصادف والتقيا ، فإن أحدهما يدير ظهره للآخر بوصفه خصمه . ثم يعدو كلاهما بشدّة ويتابع سيره : الحياء وهو مضطرب ، والجمال وهو جريء وقح حتى اليوم الذي فيه ظلام العالم السفلي يغطي عليه في النهاية ، الا اذا كانت الشيخوخة قد طامنت من كبريائه من قبل . والآن أجدكم ، أيها الوقحاء ، قادمين من الخارج تملؤكم الكبرياء ، مثل الكراكي المارّة فوق الرؤوس وهي تصرخ صرخات مروعة تحمل المسافر الهادئ على النظر اليها ، لكنها تمضي

في طريقها ، وهو أيضا يمضي في طريقه . وسيكون الأمر معنا هكذا أيضا .

من أنتن اذن حتى تسمحن لأنفسكن بالضجيج في القصر العالي للملك ، مثل ميناوات متوحشات سكراوات[٢٢٤] ؟ من أنتن اذن حتى تصرخن في وجه قهرمانة البيت مثلما تنبح جماعة الكلاب في وجه القمر ؟ أتحسبن أنني أجهل من أي جنس أنتن ؟

أنتن لُمّة شابة أنجبتها الحرب وربّتها المعارك ، شهوة للرجال ، يغررون بكنّ وتغررن أنتن بهم ، تستنفدن قوى المحاربين وأهل المدينة على السواء! اذا تطلعت فيكن خيّل اليّ أنني أشاهد رجلا من الجراد قد انقض علينا وغطى الحقول الخضراء ذوات المحاصيل . أنت مستهلكات عمل الآخرين ، ومدمرات الحياة النامية الطيبة ، أنتن غنائم حرب وسلع مُقايض عليها ، أو مبيعة في السوق .

هيلانة : من ينتهر الخادمات في حضرة سيدتهن ينتهك حقوقها المنزلية انتهاكا خطيرا . ان من حقها هي وحدها أن تمدح حين يكون المدح مستحقا ، وأن تعاقب مَنْ يستحق العقاب . ثم انني راضية عن الخدمات التي قدمنها اليّ حتى الآن : أولا في «إلْيُوم» (طروادة) القوية أثناء الحصار وبعده ، وثانيا ابان المخاطر التي عانيناها في رحلتنا الشاقة المتعرجة حين لا يفكر المرء إلا في نفسه . وأنا أنتظر منهنّ نفس الأمر هنا . ان السيد لا يسأل من هو خادمه ، بل كيف هو يخدمه . ولهذا توقفي عن تقريعهن وأمسكي لسانك . إن كنت عنيت بقصر الملك في أثناء غيابي كما ينبغي ، فسيسجّل هذا لصالحك . لكني أنا هنا الآن . فانسحبي أنت اذن ، حتى لا يحل العقاب محل الجزاء المستحق!

فوركياس : توبيخ حَشَم البيت يبقى حقا عظيما تستحقه الزوجة السامية لحاكم أسعدته الآلهة طوال سنوات بقيادته الحكيمة . وأنت ، وقد عدت معترفا بك ، ادخلي القصر العتيق واستعيدي مكانتك الأولى ملكةً وسيدةً على القصر ، وأمسكي بالزمام المرتخي منذ زمن طويل ، واحكمي ، وتولي شؤون الكنز وشؤوننا نحن . ولكن ، قبل كل

شيء ، احميني ، أنا العجوز ، من هذه العصابة ، التي ليست ، بجوار بلشون جمالك ، غير اوزّ دميم يوزوز(٢٢٥) .

بنتالس : ما أقبح القبح بجانب الجمال .

فوركياس : ما أغبى الغباوة بجانب الذكاء .

(من الآن فصاعدا يتجاوب المشاركون في الجوقة ، ويخرج كل واحد وحده من الجوقة)

الجوقية الأولى(٢٢٦) : حدثينا عن الأب اريبوس ، حدثينا عن الأم : الليلة

فوركياس : وتكلمي عن اسقولاّ ، وهي قريبتك لحما ودما .

الجوقية الثانية(٢٢٧) : على شجرة نسبك يتسلق الكثير من المخلوقات العجيبة .

فوركياس : اذهبي الى العالم السفلي ، وابحثي هناك عن سلالتك .

الجوقية الثالثة : الذين يسكنون هناك كلهم صغار بالنسبة اليك .

فوركياس : اذهبي وغازلي تيرسياس العجوز .

الجوقية الرابعة : مربيته أوريون(٢٢٨) كانت حفيدة حفيدة حفيدة بنتك .

فوركياس : أظن أن الهاربات(٢٢٩) هن اللاتي غلفنك في القاذروات .

الجوقية الخامسة : بماذا تغذّى هذا النحل المُعتنى به ؟

فوركياس : ليس بالدم الذي أنتن به مولعات .

الجوقية السادسة : وأنت مولع بالجيف ، فأنت نفسك جيفة مقزّزة .

فوركياس : الآن أبصر أسنانك مصاصة دماء في هذا الفم الوقح .

بنتالس : سأغلق فمك ان قلت من أنت .

فوركياس : اذكري اسمك أولا ، ينحل اللغز .

هيلانة : عليّ أن أتدخل بينكم ، لا عن غضب ، بل عن أسف ، وأن أضع حدا لهذه الملاحاة . ذلك أن الحاكم لا يلاقي أمرا أشد اضرارا من الخصومة العنيفة بين خدمه المخلصين ، لأن صدى أوامره لا يرتد حينئذ أفعالا منجزة بسرعة وانسجام . كلا ، بل الصدى يدوّي ويضايقه ويجعله يشك لغير ما داع . وليس هذا كل شيء : ففي هياجكم الجامح أثرتم رؤى بائسة تحاصرني من كل جانب وتملؤني بالرعب ، كما لو كنت قد ساقوني الى العالم السفلي ، بدلا من أن أكون قد جئت الى بيتي . أهذا تذكر ؟ أم هو وَهْمٌ استولى عليّ ؟

أكنت كل هذا ؟ هل أنا هذا الآن ؟ هل سأكون كذلك في المستقبل ؟ صورة أحلام رهيبة وصور مروعة لأولئك الذين دمّروا المدن . ان الفتيات ارتعن ، أما أنت ، أيها العجوز ، فلم تتأثر . قل لي كلمة معقولة .

فوركياس : من يفكرّ في سنوات طويلة من الحظ المتفاوت ، يَبْدُ له أخيراً أن أسمى أفضال الآلهة هو حلم . أما أنت ، يا عالية الحظ بدون حدّ ولا هدف ، فأنت لم تشهدي في سلسلة الحياة غير عاشقين مولهين ، مشبوبين للقيام بأجسر الأخطار من كل نوع . لقد اختطفك تيسيوس في وقت مبكر وهو ممتلىء حرارة ، وكان قويًا مثل هرقل ، ورجلا رائع الجمال مدمج الخَلْق .

هيلانة : لقد غرر بي واختطفني وأنا ظبية هيفاء في سن العاشرة ، وحبسني في حصن افدنوس في أتيكا .

فوركياس : لكن سرعان ما حرّرك كاستور وبولكس ، وصار يخطب ودّك عدد كبير من الأبطال .

هيلانة : لكني أعترف بأن بتروكلس ، وهو صورة مطابقة لأخيلس كان هو المفضل عندي والظافر برضاي الصامت .

فوركياس : لكن ارادة الوالد أسلمتك الى منلاس ، البحّار الجسور الموفور الثراء أيضا .

هيلانة : نعم ، لقد أعطى له ابنته ، وأعطى له المملكة أيضا . ومن زواجنا ولدت هرميونه(٢٤٠) .

فوركياس : لكنه لما كان غائبا بعيدا في اقريطش لأخذ ميراث ، وكنت أنت وحدك ، أتاك زائر مفرط الجمال .

هيلانة : لكن لماذا تذكرين المدة التي كنت فيها شبه أرملة وما نجم عن ذلك من مصائب جسام ؟

فوركياس : وهذه الرحلة هي التي جلبت عليّ الأسر والعبودية ، العبودية الطويلة ، مع أني كريتيه حرّة منذ الميلاد .

هيلانة : لقد أرسلك في الحال الى هنا في وظيفة قهرمانة ، ووكل اليك الكثير من الأمور : القصر والكنوز التي استولى عليها عنوة وجسارة .

فوركياس : القصر الذي تركته أنت من أجل أبراج «إِليوم» . (طروادة) ومن أجل مُتع الغرام التي لا تنفد!

هيلانة : لا تتكلمي عن المُتع . لقد صبّت على رأسي ما لا نهاية له من الآلام المريرة .

فوركياس : لكنهم يقولون انك شوهدت مرتين : في «إليُوم» وفي مصر .

هيلانة : لا تضيفي تشويشا الى عقل مشوش . حتى الآن أنا لا أعلم من أنا .

فوركياس : ويقولون إن أخيلوس قد عاد من العالم السفلي ووقع معك في وجد عارم بعد أن كان قد أحبك من قبل على عكس ما قضى به القدر .

هيلانة : اتصلت به اتصال الشبح بالشبح . لقد كان حلما ، كما تقول الكلمات . إني في سبيل فقدان نفسي وأن أصير شبحا من جديد .

(تسقط بين أذرع نصف الجوقة)

الجوقة : اسكتي ، اسكتي! أنت تسيئين البصر وتسيئين الكلام ، ما هذه الأصوات المنبعثة من تلك الحنجرة المخيفة ، مارة خلال شفاه كريهة وسنّ واحدة . لأن الشرير الذي يتبدى في شكل المُحسن ، كأنه الذئب الكاسر في فروة شاة ، هو في نظري أشد ترويعا من شدق الكلب المثلث الرأس . ها نحن ننتظر في قلق : متى ؟ كيف ؟ وأين يضرب ضربته ، وَحْشُ الخبثِ هذا المترصد لنا .

والآن ، بدلا من أن تتفوهي بكلمات رقيقة تَهَبُ النسيان والعزاء ، ها أنت ذي تهيجين كل ما كان سيئا في الماضي وقليلا مما كان حسنا ، محولة ضوء اليوم الساطع الى ظلمة وقاضية على لمعان الأمل في المستقبل .

السكوت ، السكوت . دعوا روح الملكة ، وهي متأهبة للرحيل ، تتمسّك بصورة كل الصور التي ظهرت تحت الشمس .

(هيلانة قد استردت وعيها وعادت تقف في الوسط)

فوركياس : ابرزي من بين السحب العابرة ، يا شمس هذا اليوم العالية ، أنت فاتنة وأنت محجوبة ، الآن وأنت في بهائك الساطع مسيطرة . انك تنظرين بنظرة حبيبة الى العالم هو يتكشّف . اذا كانوا يأخذون عليَ أنني قبيحة ، فاني مع ذلك أقدّر الجمال .

هيلانة : اذا كنتُ قد عدتُ مترنحة من الخواء الذي أحاط بي في الدُّوار ، فاني أود أن أنعم بالراحة ، لأن ساقيّ متعبتان : ويليق بالملكات ، بل وبكل بني الانسان ، أن يحشدوا الخاطر وأن يتشجعوا لمواجهة ما يفاجئ من تهديدات .

فوركياس : ها أنت ذي في عظمتك وفي جمالك ، ونظرتك تقولين انك تريدين أن تأمري ، فبماذا تأمرين ؟ أفصِحي!

هيلانة : بعد هذا النزاع الوقح لا بد من تسوية . أسرعي اذن ، وهيئي للتضحية ، كما أمر الملك .

فوركياس : كل شيء موجود في البيت : القارورة ، والكرسي المثلث الأرجل ، والبلطة ، وكل ما يحتاج اليه للرش والتطهير . ولم يبق إلا أن تذكري الضحية .

هيلانة : الملك لم يحددها أبدا .

فوركياس : ألم يذكرها ؟ يا للشقاء اذن!

هيلانة : أيّ شقاء ؟ وماذا يعنيك أنت ؟

فوركياس : أيتها الملكة ، انه يقصدك أنت .

هيلانة : أنا ؟

فوركياس : وهؤلاء هنا .

الجوقة : يا للشقاء! يا للشقاء!

فوركياس : ان البلطة ستهوي على عنقك أنت .

هيلانة : يا ويلتاه! لكنه أمر متوقع ، يا لي أنا المسكينة!

فوركياس : يبدو لي أن لا مفرّ من هذا .

الجوقة : أواه! ونحن ؟ ماذا سنلقى ؟

فوركياس : انها ستموت ميتة نبيلة . لكن من الشرفة العليا التي يحملها عَقْد السقف ، سيلقى بكنّ أنتن الواحدة بعد الأخرى مثل السّمان في مصيدة الطيور .

(هيلانة والجوقة في دهشة وفزع محتشدات في جماعة كبيرة)

فوركياس : أشباح! ـ ها أنتن واقفات هناك متحجرات خائفات من مغادرة النهار الذي لا ينتسب إليكن . ان الناس والأشباح يكرهون مثلكن أن

يشاهدوا آخر شمس تشرق عليهم في بهائها . الكل يعرفون ذلك ، لكن القليلين يريدونه . كفى! قضي عليكن . والآن هيا الى العمل .

(تصفق بيديها ، فيظهر أقزام عند الباب ، يأخذون بسرعة في تنفيذ الأوامر الصادرة) .

تعال هنا أيها المسوخ الكنيبة المستديرة كالكرة! استديري ها هنا : فان هنا ما تشائين من اضرار . ضعي المذبح ذا القرون الذهبية في مكانه ، والبلطة الساطعة على حدّها الفضيّ . واملأي جرار الماء . فسيكون ثم دم أسود قذر كثير ينبغي ازالته . ضعي السجادة الوثيرة هنا في الرمل من أجل الضحية الملكية لتركع عليها ، ثم تكفن بها وتدفن بمهابة وجلال ، على الرغم من أنها ستكون بغير رأس .

بنتالس : الملكة تقف وحدها وفي شموخ تجيل أفكارها . لكن الفتيات يذبلن كالعشب في المرج . وأعتقد أن واجبي المقدس يحملني على أن أكلمك أنت ، يا أقدم الجميع ، أنت العاقلة المحنّكة ، والتي يبدو عليك حسن الطوية ، على الرغم من الطريقة الحمقاء التي بها استقبلك هؤلاء النسوة . حدثيني عن وسيلة للخلاص تعرفينها .

فوركياس : الجواب سهل . الأمر يتوقف على الملكة ، وعليها وحدها ، أن تنقذ حياتها وحياتكن أيضا وأنتن زيادة مضافة . لكن لا بد من العزم . وبأسرع ما يمكن .

الجوقة : يا أجلّ الباركات وأحكم السبيلات[٢٤١] ، أوقفوا مقصّاتكم الذهبية وأنقذوا أرواحنا . ها نحن أولاء نشعر بأطرافنا تترنح ، في شقاء ، بينما نحن سنرقص بها عما قليل ونسكن بين أذرع عشاقنا .

هيلانة : دعيهن لفزعهن . أما أنا فلا أشعر بأيّ خوف ، ولا أشعر الا بالألم . لكن لو اقترحت وسيلة للخلاص ، صرنا شاكرات . وأنا أعلم أن الحكيم الفطن كثيرا ما يقدر على جعل المستحيل ممكنا . هيا ، خبّرينا بها .

الجوقة : نعم ، خبرينا ، خبرينا ، كيف نستطيع الافلات من هذه الأحابيل التي تهددنا مثل العقود التي تخنق وانّا لنشعر أن «رِيا» Rhea وحدها الإلهة الأمّ ، هي وحدها التي تستطيع أن ترحمنا وتحمينا من هذا

الاحساس القاتل المختنق .

فوركياس : هل لديكن الصبر لسماع حكايتي بهدوء ؟ هناك الكثير ليرُوى . ولا يمكن أن يقال في دقيقة .

الجوقة : طبعا لدينا الصبر . فطالما كنا نصغي ، فنحن نحيا .

فوركياس : ان الانسان الذي يبقى في بيته ويحرس كنوزه ، ويرمّم جدران قصره باستمرار ، ويزوده بسقف متين يمنع تسرب المطر ـ يمكن أن يتوقع الهناء والحياة الطويلة . لكنه إذا ارتحل باهمال وعدم تحمل المسؤولية ، فانه حين يعود لن يجد القصر القديم كما تركه . بل ربما يجده قد تهدّم .

هيلانة : ماذا تريدين بهذه الحكم الآن ؟ انك تستثيرين أفكاراً كئيبة خبّرينا مباشرة ماذا تريدين أن تقولي .

فوركياس : لا أريد اللوم . انما أتكلم عما حدث . ان منلاس جاب البحار من خليج إلى خليج بوصفه قرصانا ، يغير على الجزر أو الشواطئ كما حلا له ، ويعود بالغنيمة إلى بيته ويكدّسها هنا داخل القصر . لقد أمضى عشر سنوات طوال في « إليوم » (طروادة) . ولا أدري كم أمضى من السنوات في عودته الى وطنه . فكيف الآن حال هذا البيت العظيم الذي بناه تونداريوس ؟ وما حال مملكته ؟

هيلانة : هل تجسد الذم فيك تماما إلى حد أنك لا تستطيعين أن تفتحي شفتيك الا باللوم ؟

فوركياس : طوال سنوات عديدة ظلت مهجورة المنطقة الجبلية التي تتصاعد إلى أعلى وراء اسبرطة ناحية الشمال ، وجبال تايجيتوس من ورائها ، حيث ينبع نهر ايروطاس : جدول مرح في البداية ، والآن صار نهرا واسعا يجري خلال الوادي وفيه اليراع وفيه البجع . لكن هناك في التلال استوطن جنس جسور من المغيرين الذين جاءوا من الشمال السيمريّ[٢٤٢] ، وبنوا حصنا يصعب الاستيلاء عليه ، ومن هناك ينطلقون للنهب والغارة في النواحي المجاورة كما يحلو لهم .

هيلانة : هل استطاعوا أن يفعلوا هذا ؟ يبدو أن هذا غير ممكن بتاتا .

فوركياس : لقد كان لديهم الوقت ، ربما مضى عليهم هنا عشرون عاما .

هيلانة : هل لهم زعيم ؟ هل هم مجرد لصوص ، أم هم متحدون ؟

فوركياس : انهم ليسوا لصوصا ، وان لهم زعيما . اني لا أذمه ، وحين كان يزورني كان في مقدوره أن يأخذ كل شيء ، لكنه كان يكتفي بقليل من الهدايا ، كما كان يسميها ، لا بالجزية .

هيلانة : وما هي هيئته؟ ؟

فوركياس : ليست قبيحة . بل هو يعجبني . انه رجل كثير الحيوية ، ظريف ، تام البنية ، وهو رجل عاقل ، وقليل من اليونانيين هم الذين يساوونه في العقل . يمكنكِ أن تنعتي شعبه بأنهم برابرة ، ولكني أشك في أن بينهم من بلغ به التوحش ما بلغ برجالكم في «إليوم» (طروادة) . وأعتقد أنه كريم . وأنا مستعدة للثقة به . ثم القصر الذي بناه! أواه! عليك أن تشاهدي قصره! انه يختلف تماما عمّا كدّسه أجدادك من كتل صخور بعضها فوق بعض مثل القلوقلوفاس . تصميم دقيق . لو شوهد من الخارج لرؤي يحلّق إلى السماء ، مستقيما ، راسخا ، مصقولا ناعما مثل الصلب . وفي الداخل توجد أفنية واسعة ، تحيط بها أبنية من كل نوع ولكل الأغراض ، وأعمدة وعقود كبيرة وصغيرة ، وشرفات ، وأروقة ، تُشاهد من الداخل ومن الخارج ، ورنوك .

الجوقة : وما الرنوك ؟

فوركياس : كان على ترس أجاكس[٢٤٣] (اياس) رسم حية متحوية . وقد شاهدتُنها جميعا . والسبعة[٢٤٤] ضد ثيبا كان على تروسهم أيضا رسوم غنية وذوات معان : قمر ونجوم في سماء ليلة ، آلهات وأبطال ، سلالم ، سيوف ، شعلات ، وكل ما يهدد ويخيف مدينة محاصرة . وأبطالنا كانت لديهم رنوك ، منذ زمان بعيد ، عديدة الألوان فيها رسوم : أُسود ، ونسور ، ومناقير ، ومخالب ، وقرون جاموس ، وأجنحة ، وورود ، وذيول طاووس ، وخطوط من الألوان : الذهبي والأَسْود والفضيّ والأزرق والأحمر . وهذه الرنوك معلّقة هناك في قاعاتهم ، صفاً فوق صف ، وهي قاعات فسيحة جدا ، جميلة جدا للرقص فيها .

الجوقة : وهل هناك راقصون ؟

فوركياس : أحسن الراقصين ، شُقر مرحون ، شباب معطّر ، وباريس كان مُعَطّرا مثلهم لما أن اقترب من الملكة .

هيلانة : لقد خرجت عن دورك تماما ، قولي لي كلمة الختام!

فوركياس : أنت التي لك الكلمة الأخيرة ، فقولي بجدّ ووضوح : نعم! وفي الحال آخذك الى ذلك القصر .

الجوقة : قولي الكلمة الموجزة ، خلّصي نفسك وخلصينا نحن في نفس الوقت!

هيلانة : كيف ؟ هل لي أن أخاف أن يمضي الملك منلاس في القسوة الى حدّ الإضرار بي ؟

فوركياس : هل نسيت ما فعله مع ديفوبس[٢٢٥] الذي أخذك بعد ذبح أخيه باريس ، مخاطرا بالنتائج ، وكنتما سعيدين معا ؟ لقد جدع أنفه وأذنيه واستمر يمثّل به دون أن يوقفه شيء ، لقد كان مشهدا مروعا للغاية .

هيلانة : اذا كان قد فعل هذا ، فقد فعله من أجلي أنا .

فوركياس : نعم ، ومن أجله هو سيفعل ذلك بك . ان الجمال لا ينقسم . من يمتلكه كله سيدمّره كله سريعا لاعناً اياه أوْلى من أن يشاركه فيه أحد .

(تسمع أبواق في البعد ، الجوقة فزعة)

لاحظي كيف أن صوت الأبواق يمزّق آذانكن ويمزّق أحشاءكن . على هذا النحو تمزّق الغيرة قلب الانسان الذي لا يستطيع أن ينسى ما كان له من قبل ، والآن ضاع منه .

الجوقة : ألا تسمعين نفخ الأبواق ؟ ألا تشاهدين لمعان السلاح ؟

فوركياس : مرحبا بسيدي ومولاي . أنا مستعدة لتقديم كشف الحساب .

الجوقة : لكن ماذا سيحدث لنا نحن ؟

فوركياس : أنتن تعلمن . ستشاهدن موتها أولا . ثم يتلوه موتكن . لا مفر من هذا .

(وقفة)

هيلانة : استقر رأيي الآن على ما سأفعله . هاجس يقول لي انك لست صديقة لي . وأخشى أن تجر أية مساعدة منك الى ضياعي . لا يهم ، لقد

قررت الذهاب معك الى ذلك القصر . وما يتلو هذا فهو من شأني -
لن يعرف أحد ماذا في فكر الملكة ، في أعماق قلبها ، والآن د-
على الطريق ، أيتها العجوز .

الجوقة : أوه! كم يسرّنا الذهاب الى هناك بأقدام سريعة! ان الموت ور -
لكن أمامنا الحفلات الصاخبة والأسوار التي لا سبيل الى تسلقه
احرسوها كما حُرست طروادة التي لم يتم الاستيلاء عليها الا بحيلة
في غاية الدناءة والخسّة .
(السحب تنتشر ، فتحجب الخلفية ، والأشياء القريبة أيضا) لكن ، ما هذ
يا أخواتي ؟ تطلّعن . ألم يكن الجوّ صحوا! أما الآن فالضباب يمتد
صاعدا من نهر ايروطاس المقدس .
والشاطئ الحبيب المتوج باليراع قد اختفى عن الأنظار ، والبجع
المنساب برقة وحرية وأناقة وتيه في شهوة جماعية للسباحة لم أعد
أراه الآن واأسفاه!
ومع ذلك ، نعم مع ذلك فاني أسمع نغمات بعيدة ذات رنين أجش! هم
يقولون انها تنذر بالموت ، أواه! ألا ليتها لا تنذرنا بالموت بدلا من
الخلاص ، موتنا نحن الشبيهات بالبجع ذوات الرقاب الطوال الجميلة
البيضاء ، نحن وسيدتنا التي أنجتها بجعة! الويل لنا ، الويل ، الويل .
كل شيء قد تغطى فعلا من حوالينا بالضباب ، ولا يرى أحدنا الآخر .
ماذا يحدث ؟ هل نذهب ؟ هل نحلق الى هناك بخطوة مثلثة ؟ ألا ترين
شيئا ؟ ألا يحلق هرمس في المقدمة ؟ ألا يلوّح بعصاه الذهبية آمر
ايانا بالعودة الى العالم السفلي ، الى هذا العالم الخاوي أبدا ، المملوء
أبدا بالصور الشبحية ؟ نعم ، فجأة صارت الدنيا مظلمة ، والضباب
يتطاير بغير لمعان ، وأسوار رمادية كابية ، وسمراء كابية ، تعترض
النظر ، وتتجمد أمام النظرة الحرة . أهذا فناء ؟ أهو خندق عميق ؟
على كل حال هو رهيب! أواه ، يا أخواتي! نحن أسيرات ، أسيرات
أسراً لم نعان مثله من قبل .

فناء داخلي في حصن

تحيط به عمائر خيالية غنية من طراز العصر الوسيط

قائدة الجوقة : تعجُّل وحماقة ، صورة صادقة لعنصر النساء! بحسب الوقت ، ألعوبة في يد الطقس ، ألعوبة للنعيم والشقاء! لا تستطعن تحمل أحدهما برباطة جأش . الواحدة تناقض الأخرى دائما بعنف ، والأخريات يعترضن ، تتصرفن وتضحكن بنفس النغمة في السرور وفي الألم . والآن اسكتن وانتظرن ما عسى أن تقرره سيدتنا هنا بفكرها العالي لها ولنا

هيلانة : أين أنت ، يا فوثونسا[٢٤٦] ، أو ليكن اسمك ما يكون ؟ ابرزي من خلف هذه الأقبية الكائنة في هذا الحصن الكابي! ان كنت قد دخلت لتبلغي بطلك العجيب بوصولي ولتؤمّني لي ترحيبا لائقا ، فالشكر لك . خذيني اليه ، دون ابطاء . اني متعبة من التجوال . الراحة هي ما أريد .

قائدة الجوقة : عبثا تتطلعين حواليك ، أيتها الملكة ، لقد اختفت الصورة الكئيبة ، ربما بقيت هناك في الضباب الذي من صدره جئنا ها هنا ، لست أدري كيف ، وبسرعة وبدون خطو . ربما ضلّت في تيه هذا الحصن المؤلف من أجزاء كثيرة صارت واحدا ، ابتغاء أن تلتمس من السّيد تحية عالية تليق بالأميرات . لكن تأملن! هناك في أعلى يتحرك في حشد ، في الأروقة ، وعند النافذة ، وعند البوابات وبسرعة هنا وهناك كثير من الخدم ، وهذا يؤذن باستقبال رفيع لضيف عالي المقام .

الجوقة : قلبي ينتفض! انظرن الى موكب الشباب نازلا السلم ، فاتنا ، مزدانا ، وموزونا . من الذي أمر به ؟ ومن جمعه بهذه السرعة ؟ وما هو الأجدر بالاعجاب في هؤلاء الصبية اللطاف ؟ مشيتهم الرشيقة ، غدائرهم ،

المحيطة بجباههم الناصعة ، خدودهم الحمراء مثل الخوخ ، ذوات الزغب الطريّ ؟

بودي لو عضضت فيها ، لكني أرتعد من هذا ، ففي مثل هذه الحالة يمتلئ الفم بالرماد ، ان عبّرنا بتعبير مروع . لكن أجملهم قادمون . ماذا يحملون ؟ درجات حتى العرش ، سجاد ومقعد ، ستارة وزينة مثل الخيمة ، تجرّ ببطء مثل طاقات السحاب من فوق الملكة التي اعتلت العرش بناءً على دعوة . تحركوا وصفّوا أنفسكم صفوفاً على الدرجات . فليبارك ثلاث بركات هذا الاحتفال الرائع .

(ما قالته الجوقة هنا قد مثّل خطوة فخطوة . بعد نزول الصبية والأشراف في موكب طويل ، يظهر فاوست في أعلى عند السلم وهو يلبس ثياب فرسان العصور الوسطى ، ثم ينزل بتؤدة ومهابة درجات السلم)

قائدة الجوقة : (وهي تنظر اليه باهتمام) : إذا كانت الآلهة ، كما تفعل مرارا ، لم تعر لهذا الا لمدة قصيرة هذا الوجه الرائع الجدير بالاعجاب ، وهذا السمت السامي ، وهذه الهيبة المحبوبة ، فانه سيفلح ، وهو ما بدأه ، سواء في معارك الأبطال أو في الحرب الصغيرة مع النساء الجميلات . انه أفضل من كثيرين غيره شاهدتهم بعينَي وكانوا موضع التقدير السامي . اني أرى الأمير ، وهو يخطو بخطوة جادّة متئدة مليئة بالجلال ، إلتفتي ، أيتها الملكة!

فاوست : (يقبل ، ومعه رجل مقيد بالأغلال) : بدلا من كلمات الترحيب الجليلة المناسبة لهذا المقام ، أنا جئت لك بهذا الرجل المقيد بالأغلال الذي أهمل في أداء واجبه فجعلني أنا أيضا أهمل في واجبي . اسجد هنا واعترف بخطئك أمام سيدة النساء هذه . هذا رجل أوتي قدرة فائقة على الابصار وقد كلّف بالرقابة من البرج على السماء والأرض لكل ما يحدث هنا أو في الوادي أو في التلال المحيطة : من حركات القطعان الى العدوّ المقترب ، حتى نحمي الأولى ، ونواجه الثاني . أما اليوم . فما أشد غفلته! لقد أتيت أنت فلم يخبرنا بهذا النبأ . لهذا لم نستطع أن نستقبل مثل هذا الضيف العظيم بما يستحقه من تجلة واحترام . لقد أضاع حياته . وكان سيكون قد لقي الموت الذي يستحقه لولا أن

الأمر بيدك أنت كما تشائين : أن يعاقب أو أن ينال العفو .

هيلانة : أنت تمنحني مكانة عظيمة حين تجعلني قاضيا وحاكما . ربما على سبيل التجربة فقط ، أقبل هذه المهمة وأمارس واجب القاضي في أن يسمع أقوال المتهم . دعه يتكلم .

لنقوس[٢٤٧]

حارس البرج : دعيني أركع ، دعيني أنظر ، دعيني أَمُتْ ، دعيني أحيا ، فاني أسلمت أمري إلى هذه السيدة التي أرسلتها الآلهة! كنت أرقب نور الصباح من جهة الشرق ، وإذا بالشمس فجأة تشرق في الجنوب[٢٤٨] ، كما لو كانت حدثت معجزة . فصرفني ذلك عن كل شيء آخر : المرتفعات ، المنخفضات ، ومدى الأرض والسماء ، وتركز كل نظري على الشمس . ان بصري حديد مثل بصر الضبع من فوق قمة شجرة ، وإذا بي أجد نفسي أتلمس مخرجا من حلم عميق كئيب . هل استطعت أن أجد نفسي ؟ أسنان السور ؟ البرج ؟ البوابة المغلقة ؟ - لا شيء من هذا . بل ضباباً يترنح ، وضباب يختفي ، ثم هذه الإلهة تتجلى أمامي .

لقد أقعت الذهول في عيني وصدري ، ورحت أرضع من هذا البهاء الرقيق ، عَشّي عليَ هذا الجمال ، عشى علي أنا المسكين تماما . فنسيت واجبات الحارس ، ونسيت أن أنفخ في البوق . وإذا كان جمالها قد هدّد بالقضاء عليّ ، فانه حبس كل غضب .

هيلانة : ان الشر الذي تسببتُ أنا فيه ، لا يحق لي أن أعاقب عليه أحداً . ويل لي! أيُّ مصير قاس يلاحقني ، ويجعلني أثير الاضطراب في قلوب الرجال بحيث لا يرحمون أنفسهم ولا أي شيء آخر جدير بالرحمة! بين الاختطاف[٢٤٩] والاغواء والقتال والابعاد إلى هنا وهناك اقتادني إنصاف الآلهة ، والأبطال ، والالهة ، بل والجن في الضلال هنا هناك . لقد أحدثت في العالم تشويشا لمّا كنت واحدة ، وزدته تشويشا لما صرت اثنتين ، والآن وقد صرت ثلاثا ، وأربعا[٢٥٠] هأنذا أجلب الشقاء فوق الشقاء . أطلق سراح هذا الرجل الطيب : انّ مَنْ فُتِنَ باللّه فلا تثريب عليه .

فاوست : يدهشني ، أيتها الملكة ، أن أشاهد الرامي الواثق والهدف المقصود . أن أشاهد القوس التي أطلقت السهم ، وأشاهد الانسان الذي فيه نفذ السهم . والآن لينطلق السهم بعد السهم نافذا فيَّ أنا . وأشعر وأسمع النصال المريشة تدور حولي في كل مكان . من أنا الآن ؟ في لحظة تستطيعين أن تجعلي أجسر أتباعي متمردين ، وأن تجعلي أسواري غير آمنة ، وصرتُ الآن أخشى أن ينضم الجيش إليك أيتها البطلة الغازية التي لا تقهر . ماذا أستطيع أن أفعل غير أن أسلم لك نفسي كلَّ ما كنت أظن غرورا أنه ملكي . وهأنذا ألقي بنفسي عند قدميك وأقبل أن تكوني الحاكمة دون أدنى تحفظ ، الحاكمة التي تولت العرش منذ أن ظهرت .

لنقوس : (يحمل صندوقا ، يتلوه رجال يحملون صناديق) : أيتها الملكة ، هأنذا أعود ، ثريًا يتسول ، يتسول منك نظرة . حين أنظر إليك ، أشعر في وقت واحد بأني فقير جدا ، وثريّ جدا . ماذا كنت من قبل ؟ وماذا أنا الآن ؟ ماذا يمكن أن أريد أو أن أفعل الآن ؟ وفيم يفيد بصري الحادّ ما دمت أنت على عرشك تقهرينه ؟ من الشرق أتينا . والغرب قضي عليه . شعب طويل عريض ، أوله لا يعرف آخره .

إذا سقط واحد ، قام الثاني ، وكان الثالث متأهبا والرمح في يده . وكان هناك مائة لتحل محل واحد ربما سقط الآلاف ، دون أن يُشْعَر بذلك . زحفنا وشققنا طريقنا الى الأمام ، فاتحين مكانا بعد مكان .

وحيث كانت كلمتي قانونا في يوم ما ، كان الدور لغيري في اليوم التالي ، سارقا ، ناهبا ، متجسسا بسرعة ، حاملا أجمل النساء وخير المواشي دون أن يترك وراءه فرسا واحدا . أما أنا فكنت أفتش عن النوادر . ما كان يرضي الآخرين كان بغير قيمة في نظري . كنت أبحث دوماً عن كنز ، واثقا ببصري الحاد ، ناظرا في الجيوب ، مفتّشا في الصناديق . فاقتنيتُ أكداسا من الذهب وحليا رائعة . الزمرد وحده يليق بك أن تحمليه على قلبك . واللآلئ البيضاوية من عمق البحر دعيها تتدلىَ من أُذنيك . وخدّاك الأحمران ستفوق حمرتهما حمرة الياقوت . وهأنذا أضع هذه النفائس عند قدميك ، وهي غنائم غنمناها

في معارك دامية . لقد أحضرت كل هذه الصناديق ، لكن عندي أكثر من ذلك بكثير مخزومة بالحديد . دعيني أكن تابعك ، وسأملأ أقبية الكنوز ، فما تُعتِّمين أن ترتقي العرش حتى أسلم إليك كل شيء : العقل ، والثروة ، والقوة . كل ما تعلقت به ها هو ذا يتركني الآن ويصبح ملكا لك . لقد حسبته ثمينا . أما الآن فاني أراه لا شيء . اختفى ما كنت أملك ، وصار كالعشب المقطوع الذابل . أواه! بنظرة منك صافية أعيدي إليه كل قيمته!

فاوست : أبعد سريعاً هذا الحِمْلَ المكسوب بالجسارة . لا لوم عليه ، ولكن لا مكافأة . ان كل شيء لها الآن : كل ما يخبئه القصر في باطنه ، ولا فائدة من تقديم أشياء خاصّة بالذات . اذهب وكدّس كنزا على كنز . واعرض الصورة السامية لفخامتها التي لم يشاهد مثلها! واجعل القاعات ذات الأقبية تلمع كالسماء النضرة ، واجعلها فردوسا من الحياة العديمة الحياة . وافرش الأبسطة ذوات الأزهار في كل مكان لتكون مهادا وثيرا تطؤه بقدميها . ودع عينيها ، اللتين لا يستطيع أن يتطلع فيهما الا الآلهة ، تبصر منظرا في غاية البهاء .

لنقوس : ما يأمر به السيد هين . واذا نفذها الخادم ، فكأنما يلعب : ان تفوّق هذا الجمال يستولي على الخير والدم . الجيش كله أليف ، وكل السيوف مفلولة عاجزة ، وأمام الصورة الرائعة الشمس نفسها صارت شاحبة باردة ، وأمام ثراء الوجه كل شيء صار خاويا ولا شيء . (يخرج)

هيلانة : (مخاطبة فاوست) : أريد التكلم معك ، فتعال إلى جانبي! إن المكان الخالي يدعو السيد ويؤمن لي مكاني .

فاوست : اسمحي لي أولا ، يا سيدتي ، أن أقدم إليك فروض الولاء وأنا راكع ، وأن أقبّل اليد التي رفعتني إلى جوارك! صدّقي على تعييني شريكا في حكم مملكتك الشاسعة ، واجعليني عبدك ، أو خادمك ، وحارسك في آن واحد معا .

هيلانة : كثيرا من العجائب أُشاهد وأسمع . والدهشة تتعلق بي ، وبودّي أن أسأل الكثير من الأسئلة . خبروني أولا لماذا أشعر بأن كلمات الرجل

تبدو لي غريبة ، وفي الوقت نفسه ودية . وكل نبرة يبدو أنها تتوفق مع الأخرى ، وإذا بلغت الأذن كلمة ، تلتها أخرى وغازلتها .

فاوست : إذا كانت تسرّك طريقة شعوبنا في الكلام ، فكم ستفتنك أغانيها! انها ترضي الأذن والعقل في أعماقه . الأوكد أن نمارس ذلك على الفور . تبادل الكلام يجتذبه ويدعوه .

هيلانة : خبّرني اذن كيف أتكلم على هذا النحو الجميل ؟

فاوست : الأمر سهل ، كل ما هنالك هو أنه يجب أن يصدر عن القلب . وإذ فاض الصدر بالحنين ، تلفّت المرء حواليه وتساءل...

هيلانة : من يستمع .

فاوست : والروح لا تنظر الى الأمام ، ولا الى الخلف ، بل إلى الحاضر وحده...

هيلانة : إذ فيه سعادتنا .

فاوست : انه الكنز ، والربح الكبير ، والملك والضمان ، ومن يقدم التصديق على هذه ؟

هيلانة : يدي .

الجوقة : من عسى أن يسيء الظن بأميرتنا ، إذا أبدت لسيد القصر عن علائم الصداقة ؟
عليكن أن تعترفن أننا جميعا أسيرات ، كما كنا مرارا منذ السقوط المخزي لطروادة والرحلة الملتوية الحافلة بالمخاوف والآلام . ان النسوة ، المتعودات على حب الرجال ، لسن صاحبات خيار ، لكنهَن خبيرات! انهن يأخذن ما يأتي لهن ، ويسلمن حرية أجسامهن البضة إلى راع أشقر صبي ، أو إلى عفريت[٢٥١] رعوي ذي شعر جعد أسود . انهن يزددن قربا الواحدة من الأخرى ، وكل واحدة منهن تتكئ على غيرها ، كتفا إلى كتف ، ركبة الى ركبة ، يدا في يد ، يهتززن يمينا وشمالا على طنافس العرس ، ولا يتورعن عن ابداء جلالة مسرّاتهن الخاصة أمام أعين الشعب بصراحة فائقة .

هيلانة : أشعر بنفسي بعيدة جدا ، ومع ذلك قريبة جدا ، ويطيب لي أن أقول فقط : هأنذي! ها!

فاوست : لا أكاد أتنفس ، اني أرتعد ، والكلمة تقف في حلقي ، هذا حلم ، لقد

زال النهار والمكان .

هيلانة : أشعر أن حياتي انتهت لكنها تجددت ، وأني تغلغلت فيك باخلاص وأنت مجهول لي .

فاوست : لا تتفحصي مصيرنا الفريد! الوجود واجب ، حتى لو كان للحظة واحدة .

فوركياس : (تدخل باندفاع عنيف) : التهجي في كتاب مبادئ الحب ، والعبث بألاعيب الغزل ، والاسترخاء في ملاطفات الغرام ـ لا وقت لهذا كله الآن . ألا تسمعان قصف الرعد ونفخ الأبواق ؟ الهلاك ليس ببعيد . ان منلاس وأمواجا من الشعب زحفوا عليكم ، فاستعدوا لصراع شرس! ان انتصر عليكم مثّل بكم مثل ما فعل بديفوبس ، وستكفرين عن حاشيتك من النساء هذه . ستتطاير أولاً البضاعة الخفيفة[٢٥٢] أما هذه (هيلانة) فقد أعدت لها على المذبح البلطة المسنونة حديثا .

فاوست : ازعاج وقح! يثير أعصابي . حتى في وقت الخطر فاني أبغض الاندفاع . ان أجمل الرسل يبدو قبيحا إذا كانت أنباؤه سيئة . وأنت ، يا أقبح الناس ، لا تغتبط الا بالأنباء السيئة وحدها لكن الأمر لن ينجح هذه المرة . استمري في تحريك الهواء بأنفاسك الفارغة . لا خطر ها هنا . ولو وجد ، لما كان أكثر من تهديد لا محصل له .

(اشارات ، انفجارات في الأبراج ، أبواق وأجراس ، موسيقا حربية ، جيش قويّ يمرّ)

فاوست : كلا! ستشاهدون فورا اجتماع الأبطال في دائرة لا انفصام لها . لا يستحق رضا النساء إلا من يعرف كيف يدافع عنهن بقوة . (مخاطبا قادة الجيش ، وقد انفصلوا عن الطوابير ودخلوا) اعتصموا بغضبة صامتة مكبحة ، تهيئ لكم النصر الأكيد ، أنتم يا زهرة شباب الشمال[٢٥٣] وأنتم يا قوة الشرق الحافلة بالفتوة . الجحافل المدثرة بالصلب ، المحاطة بالشعاع ، حطمت دولةً إثر دولة ، ولما زحفوا اهتزت الأرض ، واستمروا في الزحف فكان كقصف الرعد . نزلنا البَر عند فولوس Pylos ، وقضينا على نسطور العجوز وجيشنا المنطلق شتّت كل الممالك الصغيرة .

ادفعوا منلاس إلى البحر على الفور . ودعوه هناك يتجول ويترصد للنهب وهو يتابع مصيره وهواه ، كما كان من قبل .
ان ملكة اسبرطة أمرتني أن أعينكم دوقات . ضعوا الجبل والوادي تحت قدميها ، وأما أنتم فلكم مكسب الدولة .
وأنتم ، أيها الجرمان ، حصّنوا خلجان كورنثوس بالسدود والمتاريس .
أمّا أخايا ، بأخاديدها المائة ، فإني أُكلها اليكم أيها القوط .
وقد زحفت جحافل الفرنكة نحو اليس Elis ، ولتكن من نصيب الساكس ، وعلى النورمان أن يطهّروا البحار وأن يجعلوا أرجولس Ar-golis عظيمة .
بعد ذلك يستطيع كلّ منكم أن يستقر في مكان ، متأهبا للدفاع اليقظ . لكن اسبرطة ، العاصمة القديمة للملكة ، سترئسكم جميعا .
وستعمل على أن يعيش كل واحد منكم عيشة هانئة في بلاد لا ينقصها أيّ رخاء . وانشدوا السلوى عند أقدامها ، والتصديق والحق والنور .
(فاوست ينزل الدرجات ، والأمراء يتحلّقون حوله في دائرة ، ليتلقوا منه الأوامر والتعليمات)

الجوقة : من يريد أن يملك أجمل النساء ، فعليه أن يكون حصيفا قبل كل شيء وأن يعنى بسلاحه . ربما يكسب بالتملق أسمى ما على الأرض ، لكنه لا يستطيع الاحتفاظ به وهو مستريح فان الماكرين سيختلبونها منه . واللصوص سيخطفونها . فليفكر في هذا . لهذا أنا أمدح أميرنا ، وأقدّره أسمى من الآخرين ، حين أراه يعقد محالفات بارعة وبجسارة ضاماً الأقوياء الى صفه ، وهم مستعدون لاطاعة أوامره في الحال ، وكل واحد يعمل لمصلحته ، ويحظى بشكر سيده ، وينال كلاهما المجد معا . من ذا الذي يستطيع الآن أن ينتزعها منه ؟ انها له ، وهو قوي . فليحتفظ بها ، ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نؤكد ذلك ، لأننا نراه يحمينا وراء أسواره المتينة وبجيشه القوي في ساحة المعركة .

فاوست : ان الهبات التي أنعمت بها على هؤلاء الرجال عظيمة : بلاد غنية لكل

واحد منهم ، فليذهبوا الآن . اننا نمسك بالموقع المركزي . وسيتنافسون في الدفاع عن شبه[٢٥٤] الجزيرة هذا ، الذي لا يربطه بأبعد[٢٥٥] جبال أوربا غير سلسلة بسيطة من التلال ، وتحيط به الأمواج الدوّارة . وأرض الأراضي ـ ليتها تهب السعادة لكل القبائل ـ تنتسب الآن الى مملكتي التي عرفتها منذ اللحظة التي انطلقت فيها لامعة خلال صدفتها[٢٥٦] بين اليراع الهامس في نهر ايروطاس ، وأذهلت أمّها العظيمة واخوتها[٢٥٧] . ان هذه الأرض لا تتطلع الا اليك . وهي تقدّم اليك ثروتها المزدهرة . الأرض كلها لك ، لكن من المؤكد أنك تضعين وطنك في الصدارة .

وعلى الرغم من أن القمم المشرشرة لسلسلة الجبال جرداء في ضوء الشمس البارد ، فان الصخر مخضوضر في قِطَعٍ قِطَعٍ ، والماعز هناك يرعى القليل من العشب ، والينابيع تتدفق تتلاقى مع بعضها بعضا وهي تتهاوى . وها هي ذي الأخاديد والمنحدرات والمروج قد اخضرّت . وفي السهل المتكسّر الى غير نهاية قطعان من الضأن الغني بالصوف ترعى . وماشية موزعة تأتي بحذر الى الحافة الوعرة ، لكن هناك مأوى للجميع في الكهوف الصخرية العديدة ، حيث يحميها الإله «بان» Pan . وحوريات الطبيعة تعيش في أماكن رطبة باردة في الشقوق ذوات الأشجار ، والأشجار تزحم الأشجار بأغصانها التي تصبو وتصّاعد الى مناطق أعلى . تلك هي الغابة القديمة . والسنديان القويّ يقف صلبا ، ونطاقاتها تتعرج ، بينما القيقب ، الغني بالعصارة الحلوة ، يرتفع واضحا صامتا وهو يحمل ثقله بخفّة . وفي الظل الساجي لَبَنُ النِّعاج الدافئ موفورٌ دوماً هناك من أجل الحملان والأطفال .

والفاكهة ليست بعيدة المطلب . والمحصولات تنضج في الحقول ، والعسل يُشاهد وهو يتساقط من جذع أجوف . هنا الرخاء موروث ، والخدود والشفاه دائماً طرية وهنيئة . وكل واحدٍ خالدٌ في مكانه . انهم أصحاء . انهم راضون . والأطفال ينمون في سنوات سعيدة ويصيرون رجالا . نحن في دهشة . واننّا لنتساءل المرة تلو المرة هل هؤلاء ناس أو آلهة . ولما كان أبولو يعيش بين الرعاة كان يشبههم

الى حد أنه يعسر التمييز بينه وبينهم . حيث تتحكم الطبيعة فان كل العوالم[٢٥٨] تتعانق فيما بينها .

(يجلس الى جوارها)

وهذا ما فعلنا نحن الاثنان . فلنطرح الماضي ظِهْرِيّاً .

تذكري أنك نشأت من أعظم الآلهة ، وأنك بمعنى خاص ـ تنتسبين الى العالم الأول . وما لحصن أن يُغلق عليك . هذه أركاديا غير بعيدة من اسبرطة ، وهي لا تزال في شبابها الدائم وقوتها ، هيا بنا لنقيم في هناء . ان وافقت على الاقامة على هذه التربة السماوية (أركاديا) فستنالين ذروة السعادة . وستتحول عروشنا الى خمائل ، فلتكن سعادتنا أركادية حرّة[٢٥٩]!

يتغير المنظر تماما

(تستند شجيرات مغلقة الى سلسلة من المغارات الصخرية. خميلة مجللة بالظلام تمتد الى منحدرات الصخور الوعرة المحيطة. فاوست وهيلانة لا يُشاهدان. الجوقة ترقد ناعسة وهي موزعة حواليهما)

فوركياس : كم من الزمن تنام الفتيات ، لست أدري ، هل هن يحلمن ، كما أرى ذلك واضحا أمام العيون ـ هذا أيضا أمر أجهله .

لهذا أوقظهنّ . سيدهش هذا الجمع الشاب ، وأنتم يا أصحاب[٢٦٠] اللحى أيضا يا من تجلسون تحتُ هناك ، من أجل أن تشاهدوا في النهاية حلاّ معقولا لهذه المعجزة .

اهببن! اهببن! واهززن غرانزكن بسرعة! وارحضن النوم عن عيونكن! ولا تُرَأرِئن بعيونكن ، وأصغين اليّ!

الجوقة : تكلمي ، احكي ، احكي ما هي المعجزة[٢٦١] التي تحدث! نحن نفضل أن نسمع ما لا يمكن أن نصدّقه ، لأننا مللنا من مشاهدة هذه الصخور .

فوركياس : لم تكدن تمسحن النوم عن أعينكن ، يا بنات ، حتى شعرتن بالملال ؟ اسمعن إذن : في هذه المغارات ، وهذه الكهوف ، وهذه الشجيرات وجد سيّدنا وسيدتنا ، مثل عاشقين رعويين ، الحمى والملاذ .

الجوقة : كيف ، هنا في الداخل ؟

فوركياس : اعتزلا العالم ، ولم يأخذا غيري أنا لخدمتهما ، وهذا شرف عظيم لي ، ولكن كما يليق بمن وُثق به تطلعتُ حواليّ الى شيء آخر ، تلفّتُّ هنا وهناك ، فتشتُ عن الجذور ، والطحالب ولحاءات الأشجار ، وأنا عالم بكل التأثيرات ، وبقيا هما وحدهما .

الجوقه : أنت تتحدثين كما لو كان ثمّ عالم في الداخل هناك ، عالم من الغابات والمروج والجداول والبحيرات . ما هذا التخريف ؟

فوركياس : قطعا هذا موجود ، أيها الأغرار : أعماق لم تُكتشف ، قاعات فوق قاعات ، أفنية فوق أفنية ، بحسب ما تبيّن لي بالفهم النافذ . وفجأة تردد صدى ضحكة عالية خلال المغارات الواسعة ، واذا بصبي هناك ، يتواثب ذهوبا وجيئة بين الأب والأم ، وكان غزل وملاطفة ومداعبات غرامية طائشة ، وصيحات هزلية وزفرات سرور تتردد فتصم أذني .

كان عاريا ، جنيّا بدون جناح ، من نوع الفونات ولكن بدون حيوانية ، وكان يقفز على الأرض الصلبة ، لكن الأرض ، بحركة رد فعل ، كانت تدفع به الى الهواء في أعلى ، وفي الوثبة الثانية والثالثة لمس القبو العالي .

فصاحت الأم في قلق : «اقفز مرارا كما يحلو لك ، لكن حذار أن تطير ، ان الطيران الحرّ غير مباح لك» . ونصحه أبوه قائلا : «في الأرض توجد قوة السرعة التي تدفعك الى أعلى ، ولا تلمس الأرض الا باصبع قدمك ، وعما قريب ستكون قويا مثل أنتايوس[٢٦٢] ، ابن الأرض» .

وهكذا كان يتواثب على كتلة هذه الصخرة ، من حافة الى حافة وحواليه مثلما تتواثب الكرة .

لكنه فجأة اختفى في شق أخدود ، والآن يبدو أننا فقدناه .

الأم تصرخ ، والأب يعزّي نفسه . وهأنذي في حيرة وقلق أهزّ أكتافي .
لكن ها هو ذا يظهر من جديد .
هل هناك كنوز مخبأة ؟ لقد ارتدى بجلال ثيابا مسيّرة بالأزهار ،
والهداب يتدلى من ذراعيه وعلى صدره أشرطة . وفي يده قيثارة
ذهبية ، كأنه فيبوس صغير . جاء بكل هدوء الى حافة الصخرة التي
تعلو فوقنا . فاندهشنا ، وتبادل والده العناق وهما في غاية الفرح .
ثم ماذا كان يلمع في رأسه ؟ من العسير أن نصفه ، هل هو زينة من
الذهب ، أو شعلة قوة روحية عظيمة ؟ وتحرك في سمت وافر ، مؤذناً
وهو الطفل بما سيكون عليه سيّدُ كلّ جمال ، وفي أعضائه تسري
الأنغام الخالدة . وأنتم ستسمعونه ، ستشاهدونه بكل اعجاب .

الجوقة : أتسمين هذه معجزة ، يا بنت كريت ؟ ألم تُرْعي سَمْعَك أبدا الى كلمة
الشاعر ؟ ألم تصغي الى الأساطير الأولى الحافلة بذكر الآلهة والأبطال ،
أساطير ايونيا وهلاّس[٢٦٣] ؟
لا شيء يحدث اليوم الا وهو صدى حزين لماضي الأجداد الأمجاد .
وقصتك لا تقارن بحكاية ابن مايا ، وهي حكاية أكبر صدقا من
الحقيقة .
لم يكد هذا الطفل الصحيح البنية الوسيم الطلعة يُولد ، حتى راحت
مربيّاته الثرثارات ، الواثقات تلففنه في فروش نظيفة ، وأرجوان
ثمين ، لكن هذا الطفل العفريت بقوته وذكائه خلّص أطرافه اللّدنة ،
تاركا قماطاته حيث هي ، مثل فراشة خرجت من شرنقتها الصلبة
ونشرت أجنحتها للطيران كما يحلو لها في الجو المشمس .
انه أخفّ الخفاف ، وسرعان ما تكشّف بحيله البارعة عن كونه الروح
الحامي للصّوص والعيارين والباحثين عن مصالحهم الخاصة .
فمضى يسرق الصولجان المثلث الذي لرب البحر ، ويختلس سيف
آرس من غمده ، وقوس فوبيس وسهامه ، وملقاط هفيستوس .
وكان يريد أن يأخذ برق زيوس ، لولا أنه خاف من النار .
وصَفَن[٢٦٤] ايروس في مصارعة ، وسحب نطاق فينوس بينما كانت
تبادله الغرام وتلاطفه .

(موسيقا وترية عذبة تُسمع في الكهف . الكل يُرْعي سمعه لها ويتأثر منها . ويستمر عزف الموسيقا حتى الوقفة المشار اليها بعد)

فوركياس : استمعوا الى هذه الأصوات العذبة . تخلّصوا من الأسطورة ودعوا الآلهة القدماء يذهبون لسبيلهم . لا معنى لهم عندنا . نحن نطالب الآن بما هو أفضل . ما يستثير القلب ينبغي أن يصدر عن القلب . (تنسحب الى الصخور)

الجوقة : اذا كنت ، وأنت كالوحش ، تهتزين لهذه النغمات ، فانها تستدر منّا العبرات وتشيع فينا حياة جديدة : اذا أشرق نورنا الباطن ، نستطيع أن نستغني عن الشمس ، واجدين في قلوبنا ما يحجبه عنا العالم الخارجي .

هيلانة ، فاوست ، يوفوريون (بالملابس الموضوعة قبل)

يوفوريون : اذا سمعتما غناء الأطفال ، كان هذا مزاحا لكما ، واذا رأيتماني أتواثب بايقاع ، انتفض قلباكما الأبوي .

هيلانة : ان الحب ، للاسعاد الانساني ، يغذيه اثنان نبيلان ، أما الابتهاج الالهي فانه في حاجة الى ثلاثة كرام .

فاوست : وسرعان ما يوجد كل شيء . أنا لك ، وأنت لي ، وهكذا نكون مرتبطين ، ولا يجوز أن يكون الأمر على خلاف هذا .

الجوقة : وعدة سنوات من السعادة مع هذا الولد الرقيق الطلعة تجتمع لهذا الزوج . أواه! كم اهتز لهذا الاتحاد!

يوفوريون : الآن دعوني أقفز ، الآن دعوني أتواثب! اني أشتهي أن أصعد الى كل الأجواء في أعلى ، وهذه الشهوة تمسك بي فعلا .

فاوست : على رسلك! على رسلك! لا تغامر ، حتى لا يصيبك السقوط وسوء الحال ويهلكنا جميعا الابن العزيز .

يوفوريون : لا أريد التشبث بالأرض طويلا ، أطلقا يدي ، أطلقا غدائري ، أطلقا ثيابي! انها مِلْكي .

هيلانة : أوه فكّر ، أوه فكّر ، الى من أنت تنتسب! كم ستتألم ، وكيف تقضي أنت بهذا على مكسوبنا الجميل : لي ، لك ، له!

الجوقة : أخشى أن ينحل الاتحاد عما قليل!

هيلانة وفاوست : اكبح ، اكبح ، من أجل أبويك ، هذه النزعة العنيفة المفرطة الحيوية!
وكن زينة لهذه الأرض الهادئة .

يوفوريون : من أجلكما فقط أكبح نفسي . (يتغلغل بين الجوقة ويقتادها الى الرقص)
اني أحلق بخفة بين هذا الجنس الظريف . هل النغمة الآن صحيحة ؟
وهل الحركة مضبوطة ؟

هيلانة : نعم ، هذا حسن ، اقتد الجميلات في صفوف مصنوعة .

فاوست : ليت هذا يتوقف! ان ألاعيب الشعوذة لا تسرّني . (يوفوريون والجوقة ،
وهم يرقصون ويغنّون ، يتحركون في صفوف متشابكة)

الجوقة : حين تحرّك ذراعيك بلطف ، وتهزّ شعرك المضفّر اللامع ، وتمشي
قدمك بخفة على الأرض ، وهنا وهناك ينساب عضو بعد عضو ، ـ
تكون قد بلغت غرضك ، أيها الطفل العزيز ، قلوبنا كلها تهواك .
(وقفة)

يوفوريون : أنتن ظباء عديدات خفيفات الأقدام . هيا الى لعبة جديدة من مكان
قريب! أنا الصياد ، وأنتن القنيص .

الجوقة : اذا كنت تريد أن تصطادنا ، فلا تجهد نفسك كثيرا ، لأننا نريد عند
النهاية أن نعانقك يا صاحب الصورة الجميلة!

يوفوريون : فقط خلال الشجيرات! وعلى الصخر والحصباء! اني لا أحب ما يحصّل
بسهولة ، وانما يَسُرّني ما أكسبه عنوة واقتدارا .

هيلانة وفاوست : ما هذه الحميّة! والفراهات الشيطانية! لا يؤمّل فيه أي اعتدال . هناك
رنين يشبه نفخ الأبواق في الوادي والغابات وفيه لهجة التهديد . أي
اضطراب أي صراخ!

الجوقة : (تدخل الواحدة في اثر الأخرى) : لقد مرّ علينا عاديا ، مستخفّا بنا
وهازئا ، وأمسك من بين الجمع بأكثرهن خشونة .

يوفوريون : (وهو يجر معه فتاة شابة) اني أقتاد إلى هنا الصغير الصغيرة الخشنة
لأستمتع بها عنوة! ابتغاء المتعة ، وابتغاء اللذة أعانق صدرها
المستعصي ، وأقبل ثغرها المتأبي وأستخدم القوة والارادة .

الفتاة : أطلق سراحي! في هذا الغلاف شجاعة الروح وقوتها أيضا ، وارادتنا
عِدْلُ ارادتك وليس من السهل التغلب عليها . أتعتقد أنني في مأزق

شــديد ؟ انك تفــرط في الشـقــة بذارعك! إذا أمسكتني بقــوة فــاني سأحرقك أيها الأحمق ، لمجرد اللهو واللعب . (تشتعل وتتصاعد الى أعلى) اتبعني في الهواء الخفيف ، اتبعني في الأخدود المتحجر ، التقط الهدف الذي زال!

يوفوريون : (وهو يهزّ آخر شعلة) : مضايق الصخور هنا بين أشجار الغابة ، ما شأني بالضيق ؟ اني لا أزال شـابا طريا! الريح تعـزف ، والأمواج تـزمجـر . لكني أسمعها بعيدة ، وبودّي لو كانت قريبة . (يستمر في الوثب متصاعدا على الصخر) .

هيلانة ،

فاوست والجوقة : أتريد أن تكون مثل الشموا[٢٦٥] ؟ نحن نخشى عليك من السقوط .

يوفوريون : يجب عليّ أن أصّاعـد إلى أعلى فـأعلى ، وأن أشـاهد مـا هو أبعـد وأوسع . الآن أنـا أعـرف أين أنا! أنا في وسط الجـزيرة ، وسط بلاد بلوبس[٢٦٦] ، تتصل قرابتي بالبر والبحر .

الجوقة : ألا تريد أن تقيم هادئا في الجبل والغابة ؟ حينئذ نفتش عن العنب في صفوف ، العنب على حافة الرابية ، والتين ، والتفاح الذهبي . أواه . في البلد اللطيف كن لطيفا .

يوفوريون : أتحلم بيوم السـلام ؟ ليحلم من يستطيع أن يحلم! الحرب هي كلمة الحلّ . النصر! ويستمر هذا الرنين .

الجوقة : من في السلام ينشد الحرب كي تَعُود هو شخص انفصل عن سعادة الأمل .

يوفوريون : كما أنجبتهم هذه الأرض ، في الخطر بعد الخطر ، بشجاعة حرة لا محددة ، وباسراف في بذل الدماء ، وبشعور مقدس لا يتناقص . لهؤلاء المحاربين جميعا النجاح والكسب .

الجوقة : انظروا إلى فوق ، كيف صعدا إلى أعلى! ومع ذلك فهو لا يبدو لنا صغيرا . إنه يبدو كما لو كان في درعه ، متأهبا للنصر ، وكأنه من معدن وصلب .

يوفوريون : لا جدران ، ولا أسوار ، وانما على كل واحد أن يكون عارفا بنفسه . والحصن المتين للصمود هو قلب الانسان الحديديّ . فان أردت أن

تسكن دون أن يغزوك أحد ، فأسرع مسلحا إلى ميدان القتال! النساء يصرن أمازونات ، وكل ولد يصبح بطلا .

الجوقة : أيها الشِّعر المقدس ، اصعد الى السماء! ولتلمع أجمل النجوم بعيدا بعيدا باستمرار! وهي تصل الينا مع ذلك دوماً ، ويسمعها المرء ، ويطيب له أن يشاهدها .

يوفوريون : كلا! لم أظهر طفلا ، بل مدججا بالسلاح ، أتى الشابُ ، بصحبة الأقوياء والأحرار والشجعان قام بأفعاله في داخل روحه . والآن هيا! الآن ، هيا! ولينفتح الطريق الى المجد .

هيلانة وفاوست : لم تكد تدعى إلى الحياة ، ولم تكد ترى ضوء النهار ، حتى استبقت إلى الصعود من الدرجات الدوارة الى المكان الحافل بالآلام . هل نحن اذن لا شيء في نظرك ؟ وهل الرباط الحنون مجرد حلم ؟

يوفوريون : ألا تسمعان قصف الرعد فوق البحر ؟ والصدى يتردد هناك من واد الى واد ، في التراب والأمواج الجيش تجاه الجيش ، في اندفاع الى الآلام والعذاب . والموت أمر لازم ـ هذا أمر مفهوم الآن .

هيلانة ، فاوست والجوقة : يا للهول! يا للبلاء! هل الموت أمر صادر اليك ؟

يوفوريون : هل ينبغي عليّ أن أشاهد من بعيد ؟ كلا! اني أشارك في الهم والحاجة .

السابقون : غطرسة وخطر ، مصير قاتل!

يوفوريون : ومع ذلك! ـ زوج من الأجنحة ينتشر منطلقا! إلى هناك! يجب عليّ ، يجب عليّ! اسمحوا لي بالطيران!

(يرمي بنفسه في الهواء ، ثيابه تحمله لحظة ، رأسه يشع نورا ، وشريط من النور في إثره)

الجوقة : ايكارس! ايكارس[٢٦٧]! يا للشقاء!

(شاب جميل يسقط عند أقدام والديه ، فيظن الناس أنهم يرون في هذا الساقط ميتا شكلا معروفا ، لكن جسمه يختفي في الحال ، والهالة تصعد كالشهاب إلى السماء ، بينما الملابس والمعطف والقيثارة تبقى على الأرض)

هيلانة وفاوست : الألم الرهيب يتلو السرور فعلا .

يوفوريون : (صوت من الأعماق) : لا تتركيني وحدي في الملكوت الكئيب ، أيتها الأم .
(وقفة)

الجوقة (رثاء[٢٦٨]) : لست وحدك! ـ أينما أقمت ، لأننا نعتقد أنّا نعرفك ، أواه! حين تودّع الأيام ، فلن ينفصل عنك أيّ قلب . إنّا لا نندب حظك بقدر ما نحسدك عليه . في الأيام السعيدة كما في الأيام السيئة كان غناؤك وشجاعتك ممتازين .

أنت ولدت في النعيم من مَحْتِدٍ كريم وفي صحة وقوة ، لكنك سرعان ما فقدت سيطرتك على ذاتك ، فتناثرت زهرتك المبكرة . كان بصرك حديدا لترى به الدنيا ، وكان شعورك بالتعاطف قويًا ، وولعك بالنساء الجميلات مشبوبا ، وكان لك صوت شعريٌ نسيجُ وَحْدِهِ . لكن لم يستطع شيء أن يوقفك ، فانطلقت إلى الأحبولة المحتومة ، فوقعت في نزاع عنيف مع الأخلاق والقانون ، لكن في النهاية أعطى التفكير السامي للشجاعة المحضة وزنا ، وأردت أن تكسب المعالي ، لكن لم تظفر بالنجاح .

ومن ذا الذي نال النجاح ؟ ـ سؤال محير لا يحير عنه المصير جوابا في أتعس[٢٦٩] يوم ، يوم يتألم الجميع ويصمتون ، ورغم ذلك غنَوا أغاني جديدة ، ولا تبقوا طويلا راكعين ، لأن الأرض تلدهم من جديد ، كما ولدتهم منذ الأزل .
(وقفة تامة . الموسيقا تتوقف)

هيلانة : (مخاطبة فاوست) : المثل القديم يتحقق فيما يتصل بي ، ووأسفاه : وهو أن السعادة والجمال لا يجتمعان طويلا معا . تمزقت رابطة الحياة مثلما تمزقت رابطة الحب ، وأنا آسفة على كلتيهما أقول لهما أنا متألمة : وداعا! وألقي بنفسي بين ذراعيك مرة أخرى . يا برسفونيا ، خذي الولد وخذيني!
(تعانق فاوست ، وجسمها يختفي ، والملابس والقناع يبقيان على ذراعيه)

فوركياس : (مخاطبة فاوست) : احتفظ جيدا بما بقي لك من كل هذا! الملابس لا

تدعها تفلت! ان الجن يتنازعونها ، وهم حريصون على أن يجرّوها إلى العالم السفلي . لا تمكنهم من ذلك . ربما لم يكن ما فقدته هو الألوهية ، ولكنه إلهي . استفد إلى أقصى درجة من هذه النعمة العظيمة . ارتفع فوق كل ما هو عاديّ إلى الأثير هناك ، طالما تستطيع البقاء . سنلتقي مرة أخرى بعيدا ، بعيدا عن هنا .

(ملابس هيلانة تنحّل إلى سحاب ، وتحيط بفاوست ، وترفعه إلى أعلى ثم تمضي وهو معها)

فوركياس : (تلتقط ثوب يوفوريون ومعطفه وقيثارته من الأرض ، وتتقدم إلى مقدّم المسرح ، وترفع هذه الأشياء إلى أعلى ، وتتكلم) : لُقَطَةٌ عثرت عليها لحسن الحظ! لقد اختفت الشعلة[٢٧٠] ، ومع ذلك فأنا لست آسفة للعالم . لا يزال هنا القدر الكافي من الشعراء لتكديسهم ولتأسيس حسد النقابات والمهن . اني لا أستطيع أن أَهَبَ القريحة ، لكني على الأقل أعير الملابس . (تجلس على مقدم المسرح عند عمود)

بنتالس : والآن أسرعن يا فتيات! لقد تخلصنا من السحر ، ومن القهر الروحي الجدب الذي مارسته هذه السلفعة[٢٧١] التسالية العجوز ، ومن الانغام المشوشة التي تصك الأذن ، وتشوش العقل وهو أمر أسوأ . إلى العالم السفلي ـ أسرعت الملكة وهي تسير بوقار . وفي اثرها مشت خادماتها المخلصات . وسنجدها على عرش ما لا يمكن بحثه وسبره .

الجوقة : ان الملكات في هناء أينما كنّ ، وحتى في العالم السفلي هن في مكانة عليّة ، يجتمعن إلى أمثالهن في اختيال وكبرياء ، وفي أنس عميق ببرسفونية[٢٧٢] أما نحن اللواتي في المؤخرة ، نسرح في حقول البَرّواق ، بين الصفصاف والشّفوح ، كيف لنا أن نمضي الوقت ؟ نصرصر وننقض مثل الوطاويط ، ونصيح كالأشباح المروّعة ؟

بنتالس : من لا يظفر بحسن الصيت ولا يسعى إلى المعالي انما ينتسب إلى العناصر[٢٧٣] الأولية . فسحقا لكنّ إذن . أما أنا فانني أشتاق الى أن أكون مع سيدتي ، الملكة ، مرة أخرى . ليست الكفاية وحدها ، بل الولاء الأمين يمكن أن يحفظ أشخاصنا . (تخرج)

الكل : عدنا الى ضوء النهار . لم نعد أشخاصا[٢٧٤] : هذا ما نشعر به ونعرفه .

أما أن نعود الى العالم السفلي ، فهذا لن يكون . ان الطبيعة الحية تدعونا . ونحن الأرواح لنا دالّة عليها .

قسم من الجوقة : في هذه الآلاف من الغصون التي تتناوح وتهتز ، وتعزف وتهمس في الهواء ، نحن نسحب ، لاهين لاعبين ، ينابيع الحياة من الجذور الى الفروع المترنحة . ونغطيها بفيض من الأوراق ، ثم بالبراعم ، فتنمو وتنطلق دون عائق . واذا سقطت الثمار الناضجة على الأرض ، جاء الناس والدواب فورا في جماعات حاشدة ليلتقطوها أو ليقطفوها ، وكل واحد منهم ينحني الى الأرض كما ركع الناس للآلهة الأوائل .

قسم ثان : نحن نقيم عند هذه الصخور الوعرة والمياه ذات الصفحة الناعمة اللامعة ونهدهد نفوسنا ، تحركنا الأمواج الرقيقة ، في تلاطف لذيذ . سماع وانصات لكل صوت ، ولأغاني الطيور ولشبّابات اليراع ، وحتى لو كان صوت «بان» Pan الرهيب فالجواب عنه حاضر في الحال ، إن تهمس نرد الهمس ، وإن ترعد أرسلنا رعدنا ، فيضاعف الصوت مرتين ، وعشرا من بعده .

قسم ثالث : يا أخواتي! نحن ذوات عقول أكثر حركة ، لهذا نحن نسرع مع الجداول الجارية ، تجذبنا الخطوط الثرية التي ترسمها التلال البعيدة . ننحدر في التواء متزايد ، فنروي المروج أولا ، ومن بعدها المراعي ، ثم البساتين التي حول البيوت وأشجار السرو المحدبة هناك هي لنا بمثابة علامة الطريق ، وهي تشرف على المنظر الطبيعي وعلى شريط الساحل وعلى مرآة البحر .

قسم رابع : اذهبن أنتن الى حيث شئتن . لكننا نحن نأوي في همس الى هذه الرابية التي تجللها الكروم . وهنا في أيّ وقت نستطيع أن نشاهد الكرّام وهو يشقى في الفلح والزرع من أجل نتيجة مشكوك فيها . بالمنكاش أو بالمر[٢٧٥] ، بالتكويم ، والعضد ، الحزم ، يصليّ لجميع الآلهة ، خصوصا لاله الشمس . وباخوس ، المخنّث ، لا يحفل بالخادم الأمين الا قليلا ، وهو يستريح بين أوراق الشجر ، أو يرقد في الكهوف ، مداعبا الفون[٢٧٦] الشاب . وهو دوماً يجد ما يحتاج اليه ليقيم أوده في أحلامه المهدّلة ، يجده في الخوابي والأباريق وما

شاكلها ، عن يمينه وشماله في الكهوف الرطبة التي حفظت فيها طو ـ
الأزمنة الأبدية . لكن لما أن قامت الآلهة ، وعلى رأسها جميع
هليوس[٢٧٧] والشمس بالتهوية والترطيب ، والتدفئة والتحميص .
وملأوا قرون الوفرة بكل العناقيد ، فجأة وحيث لم يكن هناك من قبل
الا الفلاح المتوحد ، بدأت هزة عظيمة في الحياة ، وحركة في كل
كَرْمة وتنقل من الواحدة الى الأخرى . وكان للشلال قصف ، وللجرادل
صلصلة ، وثم صياح تحت الأحمال وهي في طريقها الى الجرين الكبير
ورقص للعصّارين . وهكذا ديست ثروة العنب المقدسة بخشونة لتصير
عجينة مخيفة راغية تنثر الرذاذ . والآن صارت ضربات الصنج تصك
الآذان ، معلنة المجيء المستتّر لديونوسوس يتبعه رتل من
الساتورات ذوات الأقدام الشبيهة بأقدام الماعز ، وهم يهزون نساءهم
اللواتي لهن أقدام ماعز أيضا . وفي أثناء هذا يصيح الحيوان ذو الأذن
الطويلة الذي يركبه سيلينوس[٢٧٨] . لم يوقر شيئا! المخالب
المشقوقة[٢٧٩] تدوس كل أخلاق ، وكل الحواس تدور في اهتزاز
ونشوة ، والأذن أصابها الصمم من هذا الضجيج . والسكارى
يتحسسون طريقهم الى الكؤوس ، والرؤوس والكروش امتلأت
وفاضت . وهذا وذاك مشغول مهموم ، وهذا مما يزيد الهرج
والمرج ، لأنه لحفظ الشراب الجديد ، يسرع الناس في تفريغ
البواطي القديمة .

(يسدل الستار . فوركياس تتضخم كالماردة ، وتخلع الكوثورنوسات[٢٨٠] .
وتزيل القناع والحجاب ، وتتجلى في هيئة مفستوفيلس من أجل أن تعلّق
على المسرحية ، ان اقتضى الأمر)[٢٨١] .

الفصل الرابع

سلسلة جبال عالية
قمم صخرية جرداء مسننة

(سحابة تمر، ثم تستقر، ثم تسقط على قمة
مستوية جرداء بارزة ثم تتوزع)

فاوست : (يتقدم) ناظرا الى أعمق الخلوات تحت قدمي ، أسير مفكرا على حافة هذه القمة ، وأغادر عربة السحاب التي حملتني بلطف فوق البر والبحر خلال الجو الساجي ، والآن ، وهي تُخلّص نفسها ، دون أن تتناثر ، تبدأ في التحرك شرقا في كتلة واحدة . وبصري يتابعها باهتمام ودهشة ، ليراها وهي تتوزع وتتنقل وتتغير بحركة شبيهة بحركة الأمواج . لكن من المؤكد أنها تتخذ شكلا الآن . نعم ، لا شك في هذا : شكلا ماردا عجيبا شكل امرأة ، راقدة على فراش تنيره الشمس ، ولكنه شكل شبيه بشكل الآلهات . اني أراها! هي تشبه يونون ، أو ليدا ، أو هيلانة ، وهي تتراءى جليلة عزيزة لكنها مهتزة في مرأى العين . أواه! ها هي ذي تنتقل! انها واسعة هلامية متكدسة ، تستريح في المشرق ، شبيهة بجبل ثلج بعيد ، وتعكس المعنى العظيم للأيام الهاربة .
لكن يحلّق من حولي شريط نوراني من الضباب يضيء صدري وجبيني ، ويتسم بالطرواة والملاطفة . والآن هو يصّاعد خفيفا مرتعدا

الى أعلى فأعلى ، وينضامّ . ـ أتخدعني صورة فاتنة لخير رفيع أعجبت به في شبابي لكني استغنيت عنه منذ زمان طويل ؟ ان الكنوز الأولى تنبثق من أعمق أعماق القلب : حب في الفجر[٢٨٢] كان سَوْرة خفيفة . ونظرة أولى أحسستها بسرعة ولم أكد أفهمها ، ثم أمعنت فيها وثبّتها ، ففاقت كل كنز . ان الشكل الحبيب يصّاعد مثل جمال الروح ، ولا يتحللّ ، بل يرتفع في الأثير ويأخذ معه خير ما في باطني .

(حذاء بطول سبعة أميال[٢٨٣] يتهادى وئيدا . ويتلوه حذاء آخر بعد قليل . مفستوفيلس ينزل . الحذاءان يمشيان على نحو أسرع)

مفستوفيلس : أنا أسمّي هذا استباقا الى النهاية! لكن خبّرني ماذا خطر ببالك ؟ ماذا دعاك الى النزول في وسط هذه الأهوال ، بين الصخور المروّعة الفاغرة أفواهها ؟ اني أعرفها جيدا ، لكن ليس في هذا الموضع ، لأن ذلك كان أساس الجحيم .

فاوست : أنت لا تخلو أبدا من الأساطير الجنونية ، فهل تريد أن تستأنف الآن أمثالها!

مفستوفيلس : (بلهجة جادة) : لما أن ألقى بنا الله الرب ـ وأنا أعلم لماذا ـ من الهواء الى أعمق الأعماق ، حيث النار الأبدية تلتهب مركزيا وتشعل ما حولها ، وجدنا أنفسنا ، ونحن في ضوء هائل ، في وضع مزدحم غير مريح . فبدأ كل الشياطين في السّعال ، ومن أعلى ومن أسفل راحوا ينفخون ، وانتفخ الجحيم من كتل الكبريت وحمض الكبريت ، فكان عن هذا غاز! وازداد هذا كله الى درجة هائلة حتى ان القشرة المستوية للأراضي ، مهما كانت سميكة ، انفجرت وتدمرت . وصرنا في طرف آخر : فما كان من قبل قاعا ، صار الآن قمّة . وقامت النظريات القويمة على هذا الأساس ، أعني : أن يعود الأدنى فيصبح هو الأعلى . ذلك أننا تخلصنا من الهاوية الحارة المهينة وصرنا في فيض من سيطرة الهواء الطلق .

هذا سر واضح ، محفوظ جيدا ، وسيكشف للشعوب متأخراً فقط .

(الرسالة الى أهل أفسوس[٢٨٤] ٦ : ١٢)

فاوست : كتل الجبال تظّل بالنسبة اليّ صماء صمما نبيلا ، وأنا لا أسأل : من أين ولا لماذا . لما أسّست الطبيعة ذاتها من ذاتها[٢٨٥] ، كوّرت الأرض تكويرا محضا ، فسُرّت القمة وسُرّت الهاوية ، واصطفت الصخرة الى الصخرة والجبل الى الجبل ، وبعد ذلك أنبتت الرابية في يسر ، ورقت ملامحها في الوادي . وكانت خضرة ، كان نموّ . ولتستمع الطبيعة لم تحتج الى الاضطرابات الحمقاء .

مفستوفيلس : هذا ما تقوله أنت! والأمر يبدو لك واضحا كالشمس . لكن من كان هناك يعرف أن الأمر بخلاف هذا . أنا كنت حاضرا لما كان الغليان قائما وانتفخت الهاوية وحملت النيران الجارية ، وحين ضرب مولوخ[٢٨٦] بمطرقته ، وهو يصنع الصخرة بعد الصخرة ، أنقاض الجبل في الأقاصي . ولا تزال الأرض مزدحمة بهذه الكتل الخمسينية[٢٨٧] الغريبة . من ذا يستطيع أن يفسّر قوة الدفع هذه ؟ ان الفيلسوف لا يقدر على فهم ذلك : هناك تقوم الصخرة ، فعلينا أن ندعها وشأنها ، وعبثا نحطم الرأس بالتفكير فيها ـ أما الشعب العادي الساذج فهو وحده الذي يفهم ولا يتعب نفسه بالتفكير . لقد أدركت الحكمة منها منذ زمان طويل : هذه معجزة ، والفضل للشيطان . هذه تكأة الايمان التي تأتي بالمسافر وهو يعرج الى صخرة الشيطان وجسر الشيطان .

فاوست : من المفيد أن نتنبّه ونرى كيف ينظر الشيطان الى الطبيعة .

مفستوفيلس : وما يهمني أنا من هذا! الطبيعة هي ما هي! هذا أمر مشرّف : لقد كان الشيطان حاضرا هناك . نحن قوم ننجز الأمور العظيمة ـ الاضطراب ، العنف ، الجنون! انظر الدليل! ـ لكن قل لي ، وأنا الآن أكلمك بتعقل ، أولا يسرّك شيء على سطح أرضنا هذه ؟ لقد طوّفت حتى أقصى الأقاصي في ممالك العالم وما فيها من روائع (متّى ٤:) لكن وأنت لا ترضى بشيء أفلا تشعر بأية لذة ؟

فاوست : بلى! لذة عظيمة اجتذبتني . احزِرْ ما هي!

مفستوفيلس : هذا سهل . أما أنا فبودّي أن أبحث عن واحدة من تلك المدن الكبيرة ، التي فيها يتزاحم الناس على الطعام في وسطها ، وشوارعها ضيقة ملتوية ، وسقوف بيوتها مدببة ، وسوقها تزخر بالكرنب والجزر

والبصل ، ومحلات الجزارة فيها مملوءة بالذباب ، وهو يلتهم الشحم ، ـ مدينة تجد فيها في كل الأوقات الروائح الكريهة والنشاط .
وبعد ذلك تجد فيها الميادين الفسيحة والشوارع الواسعة والمظهر الفخم . وأخيرا لا تكون لها بوابة تحصرها ، والضواحي تمتد الى غير نهاية . وهناك أركب عربة وأتجول هنا وهناك ، في زحام أكداس من النمل البشري الصاخب . وأينما ذهبت ، راكبا فرسا أو عربة ، سأكون محط الأنظار ، يحييني مئات الآلاف من الناس .

فاوست : هذا لا يرضيني . يسرَ المرء أن يتزايد الشعب ، وأن يعيش سعيدا على طريقته ، بل وأن يتعلم ويعلم نفسه ـ لكن الناس انما يتعلمون كي يتمردّوا .

مفستوفيلس : ثم أبني للذاتي قصرا في مكان بديع بهيج وأنا شاعر بمكانتي . وحول القصر بستان فخم وغابة ورابية ومسطحات ومروج وحقل ، وأمام الجدران المخضوضرة مروج سندسية ، وطرق رفيعة ، وظلال صناعية ، ومساقط شلالات ، تسلل من صخرة الى صخرة ، وشعاعات مياه من كل الألوان ، تصاعد هناك في جلال ، لكن في الجوانب تخرّ وتنزُّ على شكل آلاف القطرات الصغيرة . ثم أبني لأجمل النساء بيوتا صغيرة أنيسة لطيفة ، وأمضي وقتا لا محدود في خلوة معمورة بأجمل صحبة . وأقول : نساء ، لأنني أفكر دوماً في الجميلات في صيغة الجمع .

فاوست : هذا رديء وحديث! مثل سردانابال[٢٨٨] .

مفستوفيلس : من ذا يستطيع أن يحزر إلى أي شيء تطمح ؟ انه لا شك أمر سام جسور . وأنت يا من حلقت قريبا جدا من القمر ، هل يجتذبك السعي إلى هناك ؟

فاوست : أبدا! ان الكرة الأرضية تؤمنّ مكانا للأعمال العظيمة . اني أريد أن أفعل ما يثير الدهشة ، وأستشعر القدرة على السعي الجريء .

مفستوفيلس : وتريد أيضا أن تظفر بالشهرة والمجد ؟ هذا يلاحظ عليك ، فأنت قد جئت من عند البطلات[٢٨٩] .

فاوست : أريد السلطان والثراء! ان الفعل[٢٩٠] هو كل شيء ، أما الشهرة فليست بشيء .

مفستوفيلس : لكن سيوجد شعراء يعلنون للأجيال المقبلة لألاءك ويشعلون الحماقة بالحماقة .

فاوست : أنت لم تعط أيّ شيء من أيّ شيء . ماذا تعرف عما يشتاقه الانسان ؟ وطبيعتك المشاكسة المريرة الحادّة ، ماذا تعرف عما يحتاج إليه الانسان ؟

مفستوفيلس : ليكن كما تريد! أَفْضِ إليّ بمدى أهوائك .

فاوست : امتد بصري إلى أعالي البحر . وشاهدته وهو يعلو ويكوّن أبراجا في داخله ، ثم يتهاوى ويهزّ الأمواج ويرتطم باتساع الشاطئ المستوي . وهذا ضايقني ، مثلما تضايق العجرفة العقل الحرّ الذي يقدّر كل الحقوق حق قدرها ، فانه يشعر بضيق شديد ويفور دمه بشدّة . حسبت ذلك مصادفة ، فحددت نظري : وقفت الموجة واستدارت إلى الخلف ، وابتعدت عن الهدف الموصول إليه بتيه وكبرياء ، ستأتي الساعة ، وستتكرر اللعبة[٢٩١] .

مفستوفيلس : (وهو يخاطب المشاهدين) : ليس في هذا جديد أتعلمه ، اني أعرف ذلك منذ مئة ألف سنة .

فاوست : (يواصل الكلام بانفعال) : والموج يتسلل إلى آلاف النهايات ، لينشر العقم ، وهو نفسه عقيم . الآن هو يتضخّم وينمو ويدور ويجرّ نفسه على الساحات الجرداء المعاكسة . هناك تسود الموجة تلو الوجة بحماسة شديدة ، وتتراجع ، ولم يتحقق شيء . لكن ما أقلقني حتى اليأس هو القوة التي لا هدف لها ، قوة العناصر المنطلقة بغير ضابط! هنا تجاسرت روحي على أن تتجاوز ذاتها ، هنا أود الكفاح ، وأود الانتصار على هذا .

وهو أمر ممكن! ـ ان الماء يسيل بطبعه ، ولهذا ينحني عند كل رابية ويمر ، ومهما زمجر فان أقل ارتفاع يحرفه عن طريقه ، وأخف نقطة يمكن أن تجرّه إلى أسفل .

فلما شاهدت هذا ، وضعت خطتي بسرعة ، وهي أن أتمكن من ابعاد المحيط الهادر عن الشاطئ ، وأن أضع حدودا لامتداده المائي ، وأن أرغمه على العودة على نفسه . يا لها من خطة عظيمة! أفكرت في

الأمر خطوة فخطوة : تلك رغبتي(٢٩٢) . فساعدني على تحقيقها .
(طبول تدق من بعيد ، وموسيقا عسكرية من وراء المشاهدين ، ناحية اليمين)

مفستوفيلس : لا أرى في هذا الأمر صعوبة . ألا تسمع قرع الطبول من بعيد ؟

فاوست : انها الحرب من جديد! العاقل لا يود سماعه .

مفستوفيلس : حرب أو سلام : العقل هو السعي إلى استخلاص شيء لمصلحة المرء . المرء ينتبه لكل لحظة مواتية ها هي ذي الفرصة ، الآن ، فاهتبلها يا فاوست!

فاوست : أعفني من مثل هذه الألغاز! باختصار : ماذا ينبغي فعله ؟ أوضح!

مفستوفيلس : في طريقي لم يخف عليَّ شيء : ان الامبراطور الطيّب يحوّم في هموم كبيرة ، انك تعرفه . لما كنا نتحادث واياه ، وألقينا في يديه ثروة زائفة ، صار العالم كله معروضا عليه للبيع . ان العرش انتقل إليه وهو شاب ، فاستنتج هذه النتيجة الفاسدة وهي أن من الممكن أن يسيرا معا ، وهو أمر مرغوب فيه وجميل ـ أن يحكم وفي الوقت نفسه أن يستمتع .

فاوست : خطأ كبير ؟! من ينبغي له أن يأمر ، لا بد له أن يستشعر السعادة في الأمر . ان قلبه يملأ من الارادة السامية ، لكن لا ينبغي لأحد أن يسبر غور ارادته . ما يهمس به في أذن أخلص المخلصين ينفذ ، والعالم كله يدهش . وهكذا يصير أعلى الجميع وأجدرهم بالتوقير . ـ أما الاستمتاع فيجعل المرء منحطا سوقيا .

مفستوفيلس : لكنه ليس كذلك . لقد استمتع ، وكيف! فسقطت الامبراطورية في الفوضى ، وتنازع الكبير والصغير أشد التنازع ، وطرد الأخوة الإخوة وقتل بعضهم بعضا ، وصار القصر ضد القصر ، والمدينة ضد المدينة ، واحتدم الشقاق بين النقابة والنبالة ، بين الأسقف وبين جماعة القسوس والرعية ، وما تقع العين الا على أعداء . في الكنائس حدث اغتيال وقتل ، وأمام البوابات ضاع كل تاجر وسائح . وازدادت جسارة الجميع لأن معنى أن يعيش هو أن يحمي نفسه . وسارت الأمور على هذا المنوال .

فاوست : سارت ، عرجت ، وسقطت ، ثم نهضت من جديد ، ثم انقلبت على ظهرها ، ثم تكورت وتكدست .

مفستوفيلس : ولكن لم يحق لأحد أن يعيب هذه الحال ، لأن كل واحد كان يقدر وكان يريد أن يؤكد حقوقه ، وحتى أصغرهم حسب نفسه ناضجا . لكن في النهاية ضاق الأفاضل بهذه الحال . والأكفاء وقفوا بقوة وقالوا : «السيد هو من يوفّر لنا الأمان . ان الامبراطور لا يستطيع ذلك ولا يريده ـ دعونا اذن نُجْرِ انتخابات وليشع الامبراطور الجديد الحياة في الامبراطورية من جديد . بأن يؤمّن لكل واحد مكانه ، ويجمع بين السلام والعدالة في عالم يخلق من جديد » .

فاوست : هذا كلام يرنّ رنين مواعظ القساوسة .

مفستوفيلس : وهم فعلا كانوا قساوسة مهتمين بكروشهم السمينة . ذلك أنهم كانوا سيخسرون أكثر من غيرهم . وانتشر التمرّد ، وصار التمرد مقدّسا مباركا عليه ، وامبراطورنا ، الذي جعلناه سعيدا ، قد انسحب إلى هذا الموضع ، ربما لنحارب معركته الأخيرة .

فاوست : هذا أمر يحزنني ، فلقد كان طيّبا وصريحا .

مفستوفيلس : تعال ، ولنتدبر الأمر! ينبغي على الحيّ أن يؤمل . فلنخلصه من هذا الوادي الضيق! فان خلّص مرة ، فقد تخلص ألف مرة . ومن يدري ماذا تأتي به المقادير ؟ ان كان سعيد الحظ ، فسيكون له أتباع وأعوان .

(يصعدان على الجبال الوسطى ،وينظران الى تنظيم الجيش في الوادي . قرع الطبول وموسيقا حربية تتردد من أسفل الى فوق)

مفستوفيلس : فيما أرى ، انه في موقع حسن . فلنتقدم ، واذا بالنصر يتّم .

فاوست : ماذا يمكن أن يتوقع هناك ؟ خداع! مخاريق سحرية! مظهر أجوف!

مفستوفيلس : خدعة حربية ، لكسب المعارك! فكّر في هدفك ، وحصّن نفسك بالمشاعر العالية . فاذا استطعنا اعادة العرش والبلاد الى الامبراطور ، فان كل ما سيكون عليك أن تفعله هو أن تنحني راكعا وتتلقى اقطاعا من الساحل لا حدود له .

فاوست : أنت قد فعلت الكثير ، فلماذا لا تكسب الآن معركة أيضا!

مفستوفيلس : لست أنا ، بل أنت الذي ستكسبها! هذه المرة ستكون أنت القائد

الأعلى .

فاوست : ستكون هذه هي الترقية السليمة : أن أكون أنا الآمر حيث لا أفهم شيئا! .

مفستوفيلس : دع الأمور في أيدي هيئة أركان الحرب وليس للفيلد مارشال أن يخشى شيئا . لقد عانيت قاذورات الحرب مدى طويلاً ، وشكلت مجلس الحرب مقدما من قوى الانسانية الأولية[٢٩٣] الجبال الأولية ، ويا سعدك إذا جمعتهم!

فاوست : ماذا أرى هناك ؟ قوة مسلحة . هل هيجت أهل الجبل ؟

مفستوفيلس : كلا ، بل السيد ببتر اسكنتس[٢٩٤] ، وهو زبدة الجماعة .

الجبابرة الثلاثة[٢٩٥] (يدخلون ـ سفر صمويل الثاني ٢٣ : ٨)

مفستوفيلس : ها هم رجالي! وأنت ترى أنهم من أعمار مختلفة جدا ، وبملابس و أسلحة متباينة . ولن تسخط عليهم . (مخاطبا المشاهدين) كل طفل الآن يحب السرج وبنيقة الفارس . واذا كان هؤلاء الأراذل رمزيين ، فان هذا سيزيد من الامتاع .

روفيولد : (شاب ، مسلح تسليحا خفيفا ، وملابسه زاهية) : اذا تطلع أحد في عيني ، عاجلته بلكمة في فمه ، واذا هرب جبان ، أمسكت به من آخر شعراته .

هابيبلد : (بسيماء الرجولة ، حسن التسليح ، فاخر الثياب) : مشاحنات فارغة ، هذه أنواع من المزاح ، بهذا يضيّع المرء يومه . في الأخذ لا تكلَّ ، وعن الأمور الأخرى اسأل فيما بعد!

هالتفست : (متقدم في السن ، مدجج في السلاح ، ليس عليه زرد) : بهذا لا يكون الكسب كبيرا! سيفنى بهذا مال عظيم ، وتيار الحياة يتدفق . صحيح أن الأخذ أمر حسن ، لكن الأحسن منه هو الاحتفاظ ما عليك إلا أن تدع الأمور في يد الرجل الأشيب هنالك لن يأخذ منك أحد شيئا .

(ينزل الجميع الى أسفل)

عند سفح الجبال

قرع طبول وموسيقا عسكرية في أسفل

تنصب خيمة الامبراطور

الامبراطور . القائد الأعلى . الحرس الامبراطوري

القائد الأعلى : لا تزال الخطة تبدو جيدة وهي أننا سحبنا كل الجيش الى هذا الوادي ، وأؤمل عن ثقة بأن يكن اختيارنا هذا موفقا .

الامبراطور : ماذا سيحدث ، هذا ما سنراه . لكن لا يعجبني هذا الانسحاب الذي هو شبه فرار .

القائد الأعلى : انظر هنا ، يا سيدي الأمير ، ميمنتنا هذه! مثل هذه الأرض هي ما نتمناه فكرة الحرب : الرابية ليست عمودية ، وهي في الوقت نفسه ليس من الميسور الوصول اليها ، وهي لهذا نافعة لنا ، وغَدّارة بالعدو ، ونكون نحن مختبئين على أرض متماوجة الشكل ، والخيالة لا يجرؤون على مهاجمتنا .

الامبراطور : لا يبقى عندي الآ الثناء على هذه الخطة... وهنا يكون امتحان الذراع والصدر .

القائد الأعلى : هنا ، في الأماكن المستوية من المرج الأوسط يمكنك أن ترى كتيبتنا وهي على أهبة الاستعداد للقتال . وحرابها تلمع في الهواء ، تحت لألاء الشمس خلال أريج ضباب الصباح . وتربيع المشاة القوي يتناوح غامقا . والآلاف يتقدون رغبة في القيام بالعمل الكبير . وفي وسعك أن تتعرف في هذا قوة الكتل البشرية ، وكُلّي ثقة في أنها ستبدد شمل قوة الأعداء .

الامبراطور : للمرة الأولى أتمكن من النظرة الجميلة . إن مثل هذا الجيش يساوي ضعف عدده .

القائد الأعلى : ليس عندي أنباء عن الميسرة ، فالصخرة الصيخود يحتلها أبطال شجعان ، والطود الذي يلتمع الآن بالسلاح ، يحمي الممّر المهمّ الى الوادي الضيّق . اني لأتكهن بأن قوى العدوّ ستقع هنا في معركة دامية مفاجئة لها .

الامبراطور : ها هم أولا يزحفون علينا ، هؤلاء الأقارب الزائفون ، الذين يلقبونني بالعم وابن العم والأخ ، والذين استباحوا لأنفسهم المزيد باستمرار ، ونهبوا قوة الصولجان واحترام العرش ، ثم تنازعوا الأمر بينهم فاكتسحوا الامبراطورية والآن تجمعوا معا للانقضاض عليّ .
والعامّة تراوح في حيرة وتردد ، ثم تسير مع التيار أيان يسوقها .

القائد العام : رجل مخلص مرسل بأخبار ، يأتي مسرعا منحدرا من الصخور ، فلتكن أنباؤه سارة ؟

المخبر الأول : بالمكر والشجاعة والفن أفلحنا في الدخول بينهم ، لكننا أتينا بقليل من الأنباء السارة . هناك كثيرون أقسموا يمين الولاء لنا ، مثلما فعل غيرهم من قبل ، لكنهم ينتحلون الأعذار لعدم العمل : الاضطراب الداخلي ، وخطر العامة .

الامبراطور : المحافظة على النفس تظل المذهب الذي تدين به الأنانية ، وليس عرفان الجميل ، أو الميل ، أو الواجب والشرف . لكن ألا تدرك ، ان كنت تحسن التقدير ، أن الحريق الذي يلتهم بيت جارك لا بد أن يلتهم بيتك أنت أيضا ؟!

القائد الأعلى : المخبر الثاني قادم ، لكنه يهبط ببطء ، وفرائص هذا الرجل المتعب ترتعد كلها .

المخبر الثاني : في البداية تسليّنا بمشاهدة المجرى الضال للكائن المتوحش ، لكن على غير انتظار فجأة ظهر امبراطور جديد . وزحفت الجموع خلال الحقول في طرق مرسومة من قبل وانضوى الكل تحت الألية الكاذبة المنشودة ـ وتلك طبيعة الأغنام!

الامبراطور : أن يكون هناك قيصر مضاد : هذا مكسب لي ، ذلك أني أشعر الآن بأنني أنا الامبراطور . لم ألبس درعي إلا بوصفي جنديا ، أما الآن فاني ألبسه لغرض أسمى . في كل احتفال ، لما كانت لأمور في

لألائها ، لم ينقص شيء ، لكن أعوزني الخطر . أياً من كنتم فقد كنتم تركبون للعبة الحلقات ، أما أنا فكان قلبي ينبض وأتنفّس المبارزات ، ولو لم تعارضوا في الحرب لكنت الآن بطلا صنديدا .
لقد شعرت بقوة عظيمة لما رأيت نفسي تتراءى منعكسة في النيران . ان عنصر النار قد ضغط عليّ وبدا لي حقيقيا وخطيرا ، على الرغم من أن ذلك كان وهما . اني حلمت دوماً ، وعلى نحو غامض ، بالنصر والشهرة . وهأنذا أعوّض الآن ما فاتني عن اهمال .

(يرسل المنادون لتحدي الامبراطور المضاد . فاوست شاكي السلاح ، والخوذة نصف مغلقة) . الجبابرة الثلاثة (مسلحين ولابسين كما سبق) .

فاوست : ها نحن أولاء قدمنا ، وأرجو ألا نكون غير مقبولين . ان الحيطة تفيد حتى لو لم يكن ثم حاجة اليها . أنت تعلم أن أهل الجبل متبحرّون في العلم بالطبيعة والصخور . ان الأرواح تركت الأرض المستوية منذ زمان طويل وصارت تفضّل الجبال ، وهي في الكهف الملتوية تعمل دوماً في الغازات والمعادن : «تجرّب ، وتَفصِل ، وتمزج» وكل هذا لغاية يركبون أشكالا شفّافة ، يقرأون في البلورات الصامتة ما يحدث في العالم العلوي .

الامبراطور : بهذا سمعت ، وأنا أصدّقك . لكن قل لي ، أيها الرجل الشهم ، ما شأن هذا ها هنا ؟

فاوست : ساحر نورتشيا[٢٩٦] ، السابيني ، هو خادمك المخلص المتشرف بك . أيّ مصير رهيب كان يتهدده! كان الحطب يقعقع ، والنار تشتعل ، الجذوع الجافّة تتقاطع حواليه وقد خلطت بالقار والكبريت : ولم يكن في وسع انسان ولا إله ولا شيطان إنقاذه . لكن جلالتك حطمت هذه السلاسل الملتهبة نارا . كان ذلك في روما . وهو لا ينسى لك أبدا هذا الجميل ويدين لك دينا لا ينهض بشكره شيء ، ولهذا هو يفكر دوماً في أمورك وفي هم شديد بشأنها . ومنذ تلك الساعة نسي نفسه تماما ، وصار يسأل النجوم والأعماق من أجلك أنت فقط . وكلّفنا على السرعة جدا بالقيام بمهمة مساعدتك . عظيمة هي قوى الجبل : فيه تعمل الطبيعة بقوة بالغة وهي حرة من كل قيد ، لكن بلادة عقل

القسس تطعن في هذا وتقول انه سحر مستمر .

الامبراطور : في يوم السرور ، حين نحيي الضيوف ، وهم يأتون في صفاء ، ويستمتعون في صفاء ، نسرّ بكل واحد منهم : كيف يتحرك ويتنقل وتمتلئ القاعة بالرجل بعد الرجل . وأخلق الناس بالترحيب هو الشهم الذي يأتي لمساعدتنا في ساعة الغدّ ، التي تبعث فينا الهموم ، لأن ميزان القدر يتحكم فيها . لكن عليك أن تستعيد اليد القوية من السيف المتطوّع في هذه اللحظة السامية ، ومجّد اللحظة التي يزحف فيها الآلاف للقتال معي أو ضدي! على المرء أن يثق بنفسه! من يطلب العرش والتاج فليكن هو شخصيا جديرا بمثل هذا الشرف . وهذا الشَّبَح الذي ثار على بلادنا ، وسمى نفسه أميرا على جيشنا ، وسيدا على كبرائنا ـ بقبضة يدي هذه سأقذف به إلى دنيا الموتى .

فاوست : أيا ما كان الأمر فليس من الحكمة أن تخاطر برأسك على هذا النحو . أليست خوذتك مزيّنة بالعرف والريش ؟ انها تحمي الرأس الذي يلهب شجاعتنا . ماذا تستطيع الأعضاء الأخرى أن تفعل دون الرأس ؟ لو غفي الرأس ، انهارت الأعضاء ولو جرح الرأس ، جرح معها سائر الأعضاء ، واذا شفي الرأس ، استردت الحياة سائر الأعضاء ان الذراع تعرف بسرعة كيف تفيد من قوته : انه يرفع الترس الذي يحمي الرأس ، وبالمثل يقوم السيف بواجبه في الحال ، يدفع الضربة بقوة ويكرر الضربة ، والقدم البارعة تشارك في سعادة الرأس ، بأن تجعل المجندل يرفع رقبته من جديد .

الامبراطور : هذه غضبتي ، وهكذا أريد أن أفعل وهو أن أحيل رأسه المتعجرف إلى مقعد أطؤه بأقدامي .

المنادون : (يعودون) : عانينا هناك القليل من الاحترام والقليل من التقدير . وتبلغينا النبيل القويّ سخروا منه ووصفوه بأنه مزاح فارغ قائلين : «امبراطوركم ذهب وانتهى ، انه محض صدى يتردد في الوادي الضيّق ، واذا كان علينا أن نتذكره فكما تحكي الحكايات : « كان يا ما كان في سالف الأزمان» .

فاوست : وفقا لما تمنيناه حدث الأحسن ، والأشدّاء المخلصون يقفون الى

جانبك . ها هو ذا العدوّ يقترب هناك ، ورجالك متحفزون للقتال . فمُرْ بالهجوم ، فالوقت مناسب .

الامبراطور : إني أتخلى هنا عن القيادة . (مخاطبا القائد الأعلى) : أيها الأمير! واجبك في يديك!

القائد الأعلى : فليتقدم اذن الجناح الأيمن! إن ميسرة العدوّ ، وهي الآن تصعد ينبغي قبل أن تخطو الخطوة الأخيرة أن تنهار أمام الاخلاص الأكيد لقوة الشباب .

فاوست : اسمح اذن لهذا البطل المغوار أن ينخرط فورا في صفوفك ، وأن يكون في قلبها ، وعلى هذا النحو يبين عما فيه من قوة وبطش .
(يشير ناحية اليمين)

راوفبولد : (يتقدم) : من يقترب مني سيتحطم فكّاه : العلوي والسفلي . ولن يفلت بأقل من هذا . وإذا أتيته من خلف ، فان رأسه سينحدر عن كتفيه في التوّ واللحظة ، وكذلك رقبته وقُصّته . وعند ذلك فليضرب رجالك بالسيوف والعصّي كلما استعر غضبي ، وهكذا يسقط العدو رَجُلا فوق رجل ، وهو غارق في دمه . (يذهب)

القائد الأعلى : وكتيبة الوسط عليها أن تتبع برفق ، ولتواجه العدو بكل فطنة وقوة ، وهناك ، ناحية اليمين قليلا ، قواتنا أفسدت عليهم خطّتهم .

فاوست : (مشيرا إلى أوسط الجبابرة الثلاثة) : اسمح لهذا بالذهاب معهم . انه سريع ، وسيحمل كل شيء معه .

هابيبلد : (يتقدم واثبا) : يجب أن يجتمع الطمع في الغنائم مع الشجاعة البطولية لقوات الامبراطور . وليكن هدف الجميع هو : خيمة القيصر المضاد الغنيّة . ولن يطول به التفاخر فوق كرسيه . وأنا أضع نفسي على رأس الكتيبة .

أيلبويته[٢٩٧]
Eilbeute : (بائعة مأكولات ، وهي تلتصق به) : أنا وان لم أكن زوجته ، فانه يبقى مع ذلك أعزّ عاشق لي . بالنسبة الينا مثل هذا الخريف قد نضج! المرأة قاسية إذا أمسكت ، ولا تبقى على شيء ان هي نهبت ، إلى النصر! وكل شيء مسموح به . (كلاهما يذهب)

القائد الأعلى : كما كان متوقعاً فان ميمنتهم تهاجم ميسرتنا بقوة . علينا أن نقاوم إلى أقصى درجة تقدّمهم المندفع للاستيلاء على الممر الضيّق .

فاوست : (مشيرا إلى ناحية اليسار) : وهذا أيضا ، يا سيدي أرجو ألا تهمله ، إذ لا ضرر من تقوية القوة بمزيد من القوة .

هالتفست Haltefest : (يتقدم) : لا تقلق من ناحية الميسرة . وفي وسعك أن تثق بالرجل العجوز في كل مكان . ان ما أمسك به لا يمكن أي برق أن يشقّه .
(يذهب)

مفستوفيلس : (قادما من أعلى إلى أسفل) : الآن انظروا كيف أنه في الخلف من كل أخدود صخري ضيق يتدافع مسلّحون ويزيّدون من ضيق الطريق الضيق وعليهم الخوذات والدروع والتروس والسيوف ، ويؤلفون في خلفنا سورا ، وهم ينتظرون اللحظة التي فيها يهجمون .
(مخاطبا العارفين همسا) :
من أين جاء هذا ، عليكم ألا تسألوا . اني لم أضيع وقتي عبثا . لقد أفرغت كل قاعات السلاح في هذه النواحي . كانوا كلهم هناك . راكبين أو مشاة ، كما لو كانوا سادة الدنيا . كانوا يسمّون أنفسهم فرسانا وملوكا وأباطرة ، والآن هم لا شيء ، انهم مجرّد أصداف حلزون فارغة . وكم من شبح نظف نفسه فيها ، وأيّد العصور الوسطى بحرارة . وكم من عفريت صغير أختبأ فيها ، لكنه في هذه المرّة يحدث تأثيرا .
(بصوت مرتفع) :
استمعوا إلى ما هم فيه من جلبة واضطراب ، وكل واحد يصطدم بالآخر ، ويقعقع بسلاحه . اني أشاهد رايات ترفرف على قوائمها . مشتاقة إلى الهواء المنعش . تأمل ، هنا شعب قديم مستعد وقد طاب له أن يتدخل في المعركة الجديدة .
(صوت أبواق مرتفع قادم من أعلى . اضطراب ملحوظ في صفوف العدو)

فاوست : أظلم الأفق . فقط هنا وهناك يلمع لألاء أحمر حافل بالمعاني . والأسلحة تلمع بالدماء ، والصخر والغابة والجو والسماء كلها قد اختلط بعضها ببعض .

مفستوفيلس : الميمنة صامدة بقوة ، بيد أني أرى هانز رافبولد Raufbold المارد الجبار في شُغُلٍ وهو مندفع على طريقته .

الامبراطور : في البداية شاهدت ذراعا واحدة مرفوعة ، والآن أشاهد عشرا تصول ، وهذا لا يحدث وفقا للطبيعة .

فاوست : ألم تشاهد أشرطة الضباب التي تمتد على سواحل صقلية ؟ هناك يظهر منظر غريب نادر ، يتراءى واضحا في ضوء النهار ، مرتفعا الى الأهوية الوسطى ، منعكسا في روائح خاصة : هنالك تتراوح المدن يمينا وشمالا ، وتصعد الحدائق وتنزل ، والصورة حول الصورة تخترق الأثير .

الامبراطور : لكن كم يدعو هذا الى التفكير! كل أَسِنّة الرماح العالية أراها تلمع وتبرق ، وعلى الحِرَاب الناصعة لكتيبتنا أشاهد أشعّة نشيطة تتراقص . يبدو لي هذا أمرا روحانيا حقا .

فاوست : معذرة ، يا مولاي ، هذه آثار طبائع روحانية فانية ، وانعكاس للديوسكورات ، وبها يقسم كل البحارة ، انهم يحشدون هنا آخر قوّتهم .

الامبراطور : لكن قل لي : لمن ندين بكون الطبيعة ، وقد توجهت الينا ، قد حشدت أغرب الغرائب ؟

مفستوفيلس : لمن إن لم يكن لذلك الساحر الذي يهتم في قلبه بمصيرك ؟ انه في أعماقه مهموم بالتهديد القويّ الموجه ضدك من أعدائك .
وعرفانه بالجميل يريد ان يراك قد تخلصت ، حتى لو كلفه ذلك فقدان حياته .

الامبراطور : لقد سرّهم أن يقودوني في موكب عظيم . لقد شعرت بأنني ذو شأن كبير ، فأردت أن أبرهن على ذلك ، ووجدت الفرصة لذلك ـ دون إجالة التفكير العميق ـ في إطلاق سراح ذي اللحية البيضاء .
ولقد أفسدت بهذا على رجال الدين صنعهم ـ ولهذا لم أكسب رضاهم . فهل قدر لي الآن أن أجني ثمرة هذا الصنيع المبكّر بعد هذه السنوات الطويلة ؟

فاوست : ان العمل الصالح الصادر عن صميم القلب ينمو ويتكاثر . دع نظرك

يتطلع الى الأمام . يبدو لي أنه يريد أن يرسل اشارة ، انتبه ، سنعرف فورا ما معناها .

الامبراطور : نسر يحلّق في أعالي السماء ، ومن ورائه جريفون[٢٩٨] يهدده بوحشية .

فاوست : انتبه : هذا فأل حسن جدا فيما يبدو لي . أن الجريفون حيوان خرافي ، فكيف يقدر أن ينسى نفسه الى حد أن يقيس نفسه بنسر حقيقي ؟

الامبراطور : انهم يزحفون الآن في دوائر واسعة ، وفي نفس اللحظة ينقضّ بعضهم على بعض ليمزقوا صدور ورقاب بعضٍ بعضا .

فاوست : لاحظ الآن كيف أن الجريفون الشرير يتمزق ويتضوّر ولا يجد غير الأذى ، وبذَنَب أسد متدلٍ يهوى الى غابة القمة ، ويختفي .

الامبراطور : ليكن ، كما فسّر! فهذا يملؤني اعجابا وتيها .

مفستوفيلس : (ناحية اليمين) : الضربات القاضية المتوالية لا بد أن تَفُلّ شوكة الأعداء ، وبقتال غير محكم يندفعون ناحية ميمنتهم ، وبهذا يشوّشون على قوتهم الرئيسية في ناحية اليسار . ورأس كتيبتنا الصامد ينتقل ناحية اليمين ، ومثل البرق يقتادهم الى الموضع الضعيف .
والآن ، مثل الأمواج العاتية ، تزمجر نفس القوى بشراسة في قتال مزدوج ، لم يُفَكَّر في خطة أروع من هذه الخطة ، وهذه المعركة نحن كسبناها .

الامبراطور : (في الجانب الأيسر مخاطبا فاوست) : انظر! يبدو لي أن الأمر هناك خطير ، ان موقعنا في خطر خبيث . لا أرى أحجارا تطير ، والصخور الدنيا قد صعدا عليها ، والصخور العليا قد تخلّوا عنها . والآن! العدو ، وقد تقدم بجموع هائلة مقتربا أكثر فأكثر ، ربما كان قد استولى على الممر الضيق ، وهو فوز خُتِم به سَعْيُ غير مقدس! ان فنونكم لا فائدة فيها .
(وقفة)

مفستوفيلس : ها هما غراباي قادمين ، ماذا عسى أن يكونا قد جاءا به من أنباء ؟ أخشى أن تكون أحوالنا سيئة .

الامبراطور : ماذا يبتغي هذان الطائران الكريهان ؟ لقد جاءا الينا مباشرة على هذه الأجنحة السود الضخمة من وطيس المعركة .

مفستوفيلس : (مخاطبا الغرابين) : تعاليا واجلسا الى جانبي . نصيحتكما يمكن الأخذ بها ، مَنْ تحميانه لا يضيع .

فاوست : (مخاطبا الامبراطور) : لا بد أنك سمعت عن الحمام الذي يأتي من بلاد بعيدة ليبني عشه ويفقس بيضه . والأمر ها هنا مشابه ، مع الفارق وهو أن الحمام يحمل الرسائل في وقت السلام . أما الغربان فتحملها في وقت الحرب .

مفستوفيلس : أتتنا أنباء خطيرة جدا ، انظر ، في وسعك أن ترى ما فيه رجالنا من مصاعب عند حافة الطود الوعر . ان العدو استولى على المرتفعات المجاورة ، واذا استولى على الممر فسنكون في موقف صعب .

الامبراطور : وهكذا أراني في النهاية مخدوعا! أنتما اجتلبتماني الى الفخ . اني في خوف منذ أن وقعت في حبائلكما .

مفستوفيلس : شيئا من الشجاعة! لم تقع الكارثة بعد . صبرا وتجلّدا حتى العقدة الأخيرة! في العادة يكون الأمر عند النهاية عسيرا . ان عندي رسلا أمناء ، مُرْ حتى يحق لي أن آمرَ أنا .

القائد الأعلى : (وقد وصل في تلك الأثناء) : لقد تحالفت مع هذين .
وهذا قد أضناني طوال الوقت ، ان المخرقة لا تخلق نجاحا راسخا . لا أعرف كيف أقود المعركة ، لقد بدأوها .
فدعهما ينهوها . وهأنذا أعيد عصا القيادة .

الامبراطور : احتفظ بها حتى تأتي ساعات أفضل يحالفنا فيها حظ أحسن .
اني أرتعد من هذا الزبون الكريه ومن معاملاته مع الغربان .
(مخاطبا مفستوفيلس) اني لا أستطيع أن أسلم اليك عصا القيادة ، فأنت لا تبدو لي الرجل الكفء لهذا ، لكن مُرْ وحاول أن تنقذنا! وليكن ما يمكن أن يكون!
(يذهب الى خيمته ومعه القائد الأعلى)

مفستوفيلس : لتقم العصا الصماء بحمايته! أما نحن فانها لا يمكن أن تفيدنا . ان فيها شيئا من الصليب .

فاوست : ما العمل ؟

مفستوفيلس : تم الأمر! ـ الآن ، يا أبناء العم السّود ، هيا أسرعوا الى الخدمة . في بحيرة الجبل الكبيرة! سلّموا لي على الأونديناتِ[٢٩٩] ، وارجوها أن تنشر مظهر سيولها . انهم بحيل نسائية يصعب معرفتها ـ يفهمون كيف يفصلون الوجود عن المظهر ، وسيقسم كل واحد أن هذا هو الوجود .

(وقفة)

فاوست : لا بد أن غرابينا قد نجحا في التأثير الكامل على فتيات الماء : فهناك قد بدأ فعلا تساقط الرذاذ . وفي كثير من المواضع الصخرية الصلعاء الجافة يتكون ينبوع شرّ متدفق . من أجل ذلك النصر قد تم المطلوب .

مفستوفيلس : هذه تحية رائعة ، وأشد المتسلقين جسارة قد وقع بينهم الاضطراب .

فاوست : ها هي ذي الجداول تنحدر متماوجة في الجداول ، وفي الأخاديد تعود من جديد أضعافاً . وسيل يفيض على هيئة قوس شعاع ، ودفعة واحدة يرقد على متسع الصخور المستوي ، ويزمجر ويزبد في هذا الجانب وذاك الآخر ، وعلى شكل درجات يلقي بنفسه في الوادي . لا جدوى من أية مقاومة بطولية هنا ، فان هذه الأمواج العاتية ستجرفهم جرفا . انه ليفزعني أن أشاهد هذا الاندفاع الوحشي للمياه .

مفستوفيلس : أنا لا أستطيع أن أرى هذه الألوان من الخداع . العيون الانسانية هي وحدها التي تنخدع بها . بيد أني أستمتع بهذا المنظر العجيب . ها هم هؤلاء يعدون أفواجا ، يحسبون أنهم في خطر أن يغرقوا ، وبصورة مضحكة يؤدون كل الحركات المطلوبة في السباحة ، وينفخون وتتهدج أنفاسهم ، بينما هم في الواقع واقفون على أرض صلبة . الهرج والمرج في كل مكان .

(عادت الغربان)

سأثني عليك عند السيد الكبير ، فان أردت الآن أن تثبتي أنك سادة أيضا ، فاهرعي الى الفرن المتوقد ، حيث جنس الأقزام دوماً متعب من ضرب المعدن والحجر ضربا تنطلق منه الشرارات . اطلب منهم

النار ، والبريق ، والشرار ، والانفجار ، وخير ما يقدرون على عمله من الحيل والصنائع . صحائف البرق البعيدة ، والنجوم الهاوية ـ هذه أشياء يمكن أن تراها في مساء أيّ صيف . أما بروق الجوّ في الخمائل الملتفة ، والنجوم التي على الأرض الرطبة ـ فهي أمور ليس من السهل على الانسان أن يراها .

لهذا يجب عليك ، دون أن ترهقي نفسك كثيرا ، أن تلتمسي بأدب أولا ، وأن تأمري اذا لزم الأمر .

(الغربان تذهب . يحدث كما وصف)

مفستوفيلس : الآن أعداؤنا في ظلام دامس ، لا يستطيعون أن يروا أبعد من قدم ، والأضواء تنتقل في كل موضع مع اضاءات مفاجئة تُعشي العيون . كل هذا حسن جدا . لكن لا بد لنا الآن من بعض الضجيج لافزاعهم .

فاوست : الأسلحة الجوفاء التي استخرجت من أقبية القاعات تشعر أنها تقوّت لما خرجت الى الهواء الطلق ، لقد كانت هناك في أعلى تصلصل وتقعقع وكانت هذه نغمة زائفة غريبة .

مفستوفيلس : هذا صحيح تماما! ولم يعد من الممكن بعدُ أن يُكْبَح جِماحها ، هناك تضارب فروسي مثلما كان يحدث في الأزمنة القديمة السعيدة . أصحاب رباطات الذراع ورباطات الساق ، مثلهم مثل أنصار البابا وأنصار الامبراطور ، قد جدّدوا الصراع الأبدي بعنف . هم ثابتون على ما ورثوه من آراء ، لهذا أثبتوا أنهم لا يقبلون التصالح . والضجيج يرّن بعيدا واسعا . وأخيرا في أعياد الشيطان تفعل البغضاء الحزبية أقصى فعلها حتى آخر درجات القسوة . ويدوّي بينهم مثل دويّ بان Pan ، فيه شدة وحدّة شيطانيتان ، فيثير الفزع في الوادي .

(ضجيج حربي في الأوركسترا ، وأخيرا يتحول الى موسيقا عسكرية صافية)

خيمة الامبراطور المضاد

عرش، محيط نفيس غني

هابيبلد وايبلويته

ايبلويته : نحن هنا اذن أول الناس!

هابيبلد : لا غراب يطير أسرع منّا .

ايبلويته : أيّ كنز تكدّس ها هنا! من أين أبدأ! وعند أين أنتهي ؟

هابيبلد : ان المكان كله حافل ملآن! لا أدري ماذا آخذ .

ايبلويته : ان السجاجيد تفيدني كثيرا ، لأن فراشي شيء في غالب الأحوال .

هابيبلد : هنا علّقت نجمة صباح من الصلب ، ولكم تمنيت مثلها منذ زمان طويل .

ايبلويته : والمعطف الأحمر المزين بالذهب ـ كم حلمت بمثله لنفسي!

هابيبلد : (يأخذ السلاح) : بهذا يقضى عليه ، نضربه حتى الموت ونمضي لسبيلنا . أنت خدمت الكثير ومع ذلك لم تأخذ شيئا ثمينا . دع النهب لمكانه ، وخذ أحد هذه الصناديق! انه مرتبات الجنود ، وفي جوفه ذهب خالص .

ايبلويته : وزنه قاتل . لن أرفعه ، لن أحمله .

هابيبلد : انحنِ بسرعة ، وأنا أرفعه على ظهرك القويّ .

ايبلويته : أواه! أواه! ها هو ذا يقع! كسر الحِمْل ظهري .

(الصندوق يقع فينفتح)

هابيبلد : ها هو ذا كوم من الذهب ـ أسرع وخذه!

ايبلويته : (ينحني الى أسفل) : ضعه في حِجُرك بسرعة ، وسيكون في هذا ما يكفي .

هابيبلد : هذا كفاية! أسرع اذن! (ينهض) يا للهول ، في حجري ثقب! أينما تذهب وأينما تقف ، ستنثر الكنوز بسفاهة .

حرس الامبراطور : ماذا تفعلان هنا في هذا المكان المقدّس ؟ ماذا تسرقان من كنز

الامبراطور ؟

هابيبلد : لقد أدينا خدمات ، ونحن نأخذ نصيبنا من الغنيمة وهذه هي العادة في خيمات العدوّ ، ونحن أيضا جنود .

حرس الامبراطور : هذا لا يجوز هنا . لا يمكن المرء أن يكون جنديا ولصّا قذرا في نفس الوقت . لا بد للامبراطور من ناس أُمناء حوله .

هابيبلد : نحن نعرف ماذا تعني بـ «الأمانة» : ان معناها : دفع الضرائب . أنتم جميعا على نفس المستوى : «هات»! ـ هذه تحية أهل المهنة . (مخاطبا ايلبوتيه) أسْرِع جُرّ ما معك . نحن هنا ضيوف غير مرغوب فيهم . (يخرجان)

حارس أول : قل لي ، لماذا لم تصفع هذا الرجل الوقح ؟

حارس ثان : لست أدري ، لقد خانتني القوة ، ثم انهما كانا من نوع الأشباح .

حارس ثالث : لقد عشّى على عينيَّ ، كان ثَمَّ التهاب ، ولم أحسن الابصار .

حارس رابع : لا أدري ماذا أقول : كانت الحال طول النهار حارّة ، مرهقة ، ثقيلة على النفوس ، وقف الاحد ، وسقط الآخر ، كان الاحد يتخبط وفي الوقت نفسه يضرب ، وأمام كل ضربة كان العدو يسقط ، وتراءى أمام العيون ما يشبه الحجاب ، ثم كان في الآذان : لجب ، وعزيف ، وصرير . واستمرت الحال على هذا النحو ، وها نحن واقفون ولا ندري ماذا حدث .

الامبراطور ومعه أربعة أمراء ،
(الحرس الامبراطوري يبتعد)

الامبراطور : لقد حدث له ما حدث! ونحن كسبنا المعركة ، والعدو هرب في الميدان الفسيح وتشتّت أباديد . وها هنا العرش الخالي ، والكنز الخائن ، وقد غطته البسط ، يملأ الميدان . ونحن وقد حمانا حرسنا بشرف ، ننتظر ، بوصفنا الامبراطور ، رسل الشعوب ، من كل النواحي تأتينا أنباء سعيدة تؤكد لنا أن الامبراطورية هادئة وسعيدة بولانها لنا . ربما كانت هنا أشباح تدخلت في القتال ، لكننا نحن الذين كسبنا المعركة في النهاية . من الممكن دائما أن توجد عوارض تعمل لصالح الانسان : حجر ينزل من السماء ، دماء تمطر

على العدو ، ضجيج سحري يخرج من الكهوف يشد من عزائمنا ، ويفت في عضد العدو الخاسر يخسر . وكل ما يناله هو الاحتقار . والرابح يربح ويبتهج ويشكر الله . ليس هو وحده ، بل : «الحمد لك يا ربي» ينبعث تلقائيا من ملايين الحناجر . والآن كأعلى مكافأةٍ أوجّه نظري الورع إلى داخل قلبي ، وهو أمر نادرا ما حدث من قبل . في وسع أمير شاب ممتلئ بالحيوية أن يمضي يومه في الاستمتاع ، لكن السنوات تعلمه أهمية اللحظة . ولهذا فإني أتحالف معكم أنتم الأربعة الموقرين من أجل البيت والقصر والامبراطورية .
(يخاطب الأول منهم) أنت أيها الأمير ، أنت الذي رتبت صفوف الجيش بمهارة وفي اللحظة العليا وجهتهم التوجيه الجسور البطولي . والآن في السلام اعمل ما يتطلبه الوقت! لقد عينتك مشيرا أول ، وهأنذا أسلم اليك السيف .

المشير الأول : جيشك المخلص ، وكان حتى الآن مشغولا بالداخل ، والآن وقد جعلنا حدودنا آمنة وعرشك راسخا ، اسمح لي أن أهيء المائدة للمأدبة في أيام الاحتفالات في قصرك . سأمشي أمامك حاملا سيفي اللامع ، وهو تذكار خالد من جلالتك وأقف إلى جانبك وهو معي .

الامبراطور : (مخاطبا الثاني) : وأنت ، أنت رجل شجاع ومهذب معا ، اني أعينك كبيرا للأمناء ، ومهام هذا المنصب كبيرة ستعهد اليك كل شؤون القصر ، وأنا أعلم أن هناك انقسامات بين الخدم وإهمالا . ينبغي أن تجعل نفسك في نظرهم مثال الأدب مع كل الناس .

كبير الأمناء : سأكسب رضاك بتنفيذ رغباتك النبيلة ووصاياك التي تقضي بأن أساعد الأماثل ، وألا أضرّ بالأرذال ، وأن أكون واضحا صريحا دون خبث وهادئا دون خداع! وإذا أبصرت ، يا مولاي ، جليّة نفسي فهذا حسبي . هل يحق لمخيلتي أن تتصور ذلك الاحتفال ؟ حين تجلس إلى المائدة ، سأقدم اليك الكأس الذهبية ، وسأمسك بخواتمك في اللحظة السعيدة التي فيها تغمس أصابعك في الماء وتمنحني نظرة عطف .

الامبراطور : ليس من السهل عليّ أن أصرف خواطري من الجد إلى الاحتفالات . لكن ليكن! الأمر يحتاج الى بداية بهيجة .

(مخاطبا الثالث) وأنا عينتك رئيسا للطهاة . ومن الآن فصاعدا سيكون تحت تصرفك الصيد وبيت الدواجن ومزارع الخضروات . واختر لي أشهى الأطعمة بحسب الظهور ، وأعدها بعناية .

رئيس الطهاة : سألتزم الصوم الدقيق بوصفه أمتع واجب عندي ، إلى أن يسرّك الطبق الذي أقدمه إليك . وستتعاون هيئة المطبخ معي على احضار الأطايب من بعيد واستباق فصول السنة . على أنك لست مولعا بما هو بعيد وباكورة لمائدة الطعام ، وانما أنت تطلب ما هو بسيط ومقوّ .

الامبراطور : (مخاطبا الرابع) : ما دام الأمر مقصورا اليوم على الاحتفالات ، فانني قد عينتك ، أيها الفتى ، ساقيا لي ، على كبير السقاة أن يتأكد من أن كهفنا حافل بالخمور الجيّدة . وعليك أنت أن تكون معتدلا ، ولا تجعل الفرص التي تُواتي في ساعات الشراب تقودك الى الضلال .

كبير السقاة : يا أميري ، ان الشباب أنفسهم ، إذا ما وثق بهم ، يثبتون أنهم رجال قبل أن يتوقع منهم الناس ذلك . ولهذا فإني سأبذل كل وسعي في هذا الاحتفال العظيم ، وسأزين البوفيه الامبراطوري على أحسن وجه بالأواني الفاخرة ، الذهبية والفضيّة ، لكني سأختار لك مقدما أعز الزجاجات : زجاجة بندقية[٢٠٠] بيضاء ، تنضح بالبهجة ، بها يتقوى طعم الخمر ، ولا تسكر أبدا . والناس كثيرا ما يثقون بمزايا هذه الكأس العجيبة ، لكن اعتدالك سينقذك من هذا .

الامبراطور : ما نطقت به في هذه الساعة الجليلة عليكم أن تأخذوه بثقة عن فم صادق . ان كلمة الامبراطور عظيمة وتؤمن كل منحة ، لكن لا بد للتصديق عليها من أن تكتب بالخط الشريف وتوقّع . والآن وفي هذه اللحظة المناسبة ، أرى الرجل المناسب لاجراء هذه الشكليات قادما .

رئيس الأساقفة (وكبير المستشارين) يتقدم

الامبراطور : اذا ما ربط العقد بالحجر المفتاحي ، فانه يبقى محكم البناء الى الأبد . ها أنت ذا ترى أربعة أمراء! لقد بحثنا في الأمور التي تقتضيها حال البيت والقصر . والآن فيما يتعلق بالامبراطورية في مجموعها . فاني أَكِلُ الأمر بقوة ووزن ثقيل على عاتقكم أنتم الخمسة . ويجب أن تكون ممتلكاتكم من الأراضي أكبر من كل الآخرين ، ولهذا فاني

أوسّع حدود أملاككم على حساب القسم الموروث لأولئك الذين انتفضوا علينا . وهكذا أعهد اليكم بأراض كثيرة جيدة ، وفي الوقت نفسه أخوّلكم الحق السامي في أن توسعوها وفقا للمناسبات عن طريق الهجوم والشراء والمبادلة . وبالاضافة الى ذلك أخوّل لكم حق الانتفاع بكل الامتيازات العائدة الى مناصبكم ومن حيث القضاء فان أحكامكم ستكون نهائية ، ولا يجوز استئنافها . وكل الرواتب ، والضرائب والمكوس من كل نوع : سواء أكانت غير مباشرة أو للعبور أو للخفر المرافق ـ كلها لكم . كذلك العوائد على المناجم والملاّحات وسك النقود . وهكذا ترون أنني للتدليل التام على عرفاني بجميلكم فاني قد رفعتكم الى مناصب تتلو مباشرة منصبي أنا .

رئيس الأساقفة : أشكر لجلالتكم أبلغ الشكر بالنيابة عنّا جميعا . ان هذا يقوّينا ويقوّيك .

الامبراطور : والآن هناك شرف آخر أمنحكم إياه . إني لاأزال على قيد الحياة ، وحريص على أن أحيا وأن أخدم امبراطوريتي . لكن سلسلة أجدادي الطويلة تدعوني الى التفكير الجاد والانتقال من السعي المندفع الى التأمل فيما يهددني . ذلك أنني سأفارق خلصائي ذات يوم ، وحينئذ سيكون من واجبكم أن تختاروا من يخلفني ، وأن ترفعوه على المذبح المقدس للتتويج ، ولينته بسلام ما هو الآن عاصف مضطرب .

كبير المستشارين : بالفخر في أعماق قلوبهم في سلوكهم ينحني أمامك الأمراء الذين هم في المرتبة الأولى على الأرض . طالما كان الدم المخلص يسري في العروق المليئة فنحن الجسم الذي تحركه ارادتك بسهولة .

الامبراطور : كخاتمة لمداولاتنا هذه ، فلنصدّق عليها كتابة وبتوقيعنا من أجل الزمان القادم كله . انكم سادة أحرار تماما في أملاككم ، مع هذا الشرط وهو أنه لا يجوز تقسيمها ، ومهما زادت كثيرا ، فيجب أن تنتقل غير مجزأة ولا منقوصة الى الابن الأكبر .

كبير المستشارين : بسرور بالغ سأسجل هذه اللائحة البالغة الأهمية على ورق البرشمان ابتغاء سعادة الامبراطورية وسعادتنا نحن . وستتولى ادارة الكُتّاب النسخ والختم ، وستصدق عليها ، يا مولاي ، بتوقيعك المقدس .

الامبراطور : والآن أدعكم تذهبون ، وليفكر كل واحد منكم في اليوم الكبير .
(يخرج الأمراء الدنيويون)

رجل الدين[٢٠١] : (يبقى ويتكلم بطريقة عاطفية) : المستشار ذهب والأسقف بقي ، يدفعه صوت باطن الى الكلام معك بقلب أبوي تتوزعه الهموم .

الامبراطور : ماذا يقلقك في هذه الساعة البهيجة ؟ تكلّم!

رئيس الأساقفة : كم أشعر بألم مرير حين أجد في هذه الأيام رأسك المقدس السامي متحالفا مع الشيطان! صحيح أنك أمّنت على عرشك ، لكن ذلك ـ مع الأسف ـ قد تم على حساب ازدراء الله الرب ، والبابا الأب . حين يعرف البابا ذلك فسيسارع الى توجيه عقابه بتدمير امبراطوريتك الخاطئة بوساطة شعاع مقدس . انه لم ينس بعد كيف أنك أنقذت الساحر في اللحظة العليا يوم تتويجك . من تاجك أصاب أوّلُ شعاع عَفْوٍ الرأسَ اللعين ، وكان في ذلك أذى للمسيحية والآن عليك أن تضرب صدرك وأن تبادر فورا وتعطي المقدّسات قسما من ثروتك غير الحلال . أصغ الى صوت التقوى وامنح الكنيسة هذه البقعة من الأرض الجبلية التي نصبت عليها خيمتك ، وأرعيت أذنك صاغية لأمير الظلام . امنح الكنيسة كل هذا المكان حيث الجبل والغابة ، والمراعي العالية ، والبحيرات الصافية المليئة بأنواع السمك ، وكل المياه الجارية بالتواء وانحدار الى نهيرات لا حصر لها في الوادي ، وكذلك الوادي نفسه بمروجه وتموجاته ، وبهذه الوسيلة تكفرّ عن خطاياك وتحظى برضا الله من جديد .

الامبراطور : اني منزعج من خطيئتي الى حد أني أترك لك أنت أن تضع حدود هذه الهبة .

رئيس الأساقفة : أول شيء : يجب أن يعلن على الفور أن هذه الأرض ستكرَس لخدمة الكنيسة . واني أشاهد في مخيلتي الأسوار العالية المشيدة ، وشعاع الشمس المبكرة وهو يرقد على محراب الكنيسة ، وبعد ذلك الممر العرضي ، والممر الطولي وهو يمتد ويصاعد ليسرّ كل المؤمنين . وهأنذا أراهم يتدفقون خلال الباب الكبير استجابة لقرع الناقوس الذي يُسمع لأول مرة على التل والوادي ، وهو يصلصل من الأبراج العالية .

التائب يأتي ليبدأ حياة جديدة ، وعند التدشين ـ ونأمل أن يكون قريبا ـ سيكون حضورك هو أجمل زينة في ذلك اليوم .

الامبراطور : أنا واثق من أن هذا المشروع العظيم سيكشف عن روح التقوى التي أوحت به . عساه أن يمجّد الله ويكفّر عن ذنوبي . اني أشعر بالرضا وبأن معنوياتي قد ارتفعت .

رئيس الأساقفة : بوصفي مستشارا لا بد لي أن أشرف على الترتيبات الشكلية .

الامبراطور : اكتب براءة رسمية بموجبها تعطي هذه القطعة من الأرض الى الكنيسة ، واعرضها عليّ وسأوقع عليها عن طيب خاطر .

رئيس الأساقفة : (يستأذن في الذهاب ثم يعود أدراجه) : وشيء آخر ، يجب عليك أن تعين كل دخل ينتج من هذه الأرض للكاتدرائية التي ستقام : العشور ، المكوس ، الدفع بأشياء عينية . ان مبالغ كبيرة يحتاج اليها لصيانتها وادارتها .

لا بد أن تتنازل لنا عن شيء من غنائمك للتعجيل ببناء الكاتدرائية في هذا المكان المقفر . كذلك ينبغي أن تتذكر أن الخشب والجير والأردواز لا بد من احضارها من مكان بعيد ، وسيتطوع الشعب لنقلها متأثرين بالمواعظ التي ستلقى عليهم ، والكنيسة ستبارك كل من يسدي اليها خدمات . (يخرج)

الامبراطور : ان الخطيئة عظيمة وثقيلة ، تلك الخطيئة التي تحملت وزرها ، ان جماعة السحر الوضيعة قد أوقعتني في ضرر شديد .

رئيس الأساقفة : (وقد عاد من جديد ، وانحنى بشدة) : معذرة ، يا مولاي! انك أجّرت شاطئ الامبراطورية لذلك الرجل[٣٠٢] اللعين . فان لم تخصّص ـ على سبيل الكفّارة ، كل العوائد من هناك ـ لكنيسة فانها ستفرض الحِرْمَ عليه في الحال .

الامبراطور : (متضايقا) : لكن أرض هذا الشاطئ لم توجد بعد ، انها لاتزال تحت الماء .

رئيس الأساقفة : من معه الحق ولديه الصبر سيأتي له أيضا الأوان . وبالنسبة الينا ، ليت كلمتك تبقى نافذة! (يخرج)

الامبراطور : (وحده) : بهذه الطريقة يمكنني أن أتبرع كتابةً بكل الامبراطورية!

الفصل الخامس

مكان طلق

رحّالة[٢٠٣] : نعم ، ها هي ذي أشجار الزيزفون القائمة هناك في قوّة عمرها ، وهأنذا أجدها من جديد بعد رحلاتي الطويلة! انه الموضع القديم ، هذا الكوخ الذي آواني لما أن ألقت بي الأمواج التي أهاجتها العاصفة إلى تلك الرمال!

بوديّ أن أبارك الأسرة التي استضافتني ، الأسرة الشهمة المتأهبة للنجدة ، لكنهما كانا عجوزين آنذاك فهل آمل في لقائهما اليوم ؟ آه! لقد كانا من الأتقياء الصالحين . هل أقرع الباب ؟ هل أنادي ؟ ـ السلام عليكما ، ان كنتما لا تزالان إلى اليوم تنعمان بالسعادة المنبعثة عن فعل الخير باكرامكما للضيف .

بوكيس : (أمّ عجوز جدا) : أيها القادم العزيز ، على رسْلك ، على رسلك! الهدوء! دع زوجي يستريح . ان النوم الطويل يمنح الشيخ العجوز وقتا قصيرا من اليقظة يؤدي فيه عملا سريعا .

الرحالة : خبريني ، أمّاه ، هل أنت التي تستحقين مني الشكر على ما فعلته أنت وزوجك لحياة الشاب ؟ هل أنت بوكيس[٢٠٤] التي أنعشت بعملك الفم نصف الميت ؟

الزوج (يظهر)

وهل أنت فيلمون الذي أنقذ ممتلكاتي من السيل ؟ اني أذكر شعلة ناركما ، وصوت ناقوسكما الفضي النبرة : لقد قُيِّض لكما أن

تخلصاني من هذه المغامرة المروعة .
والآن دعاني أمضي لمشاهدة البحر اللامحدود ، دعاني أركع ، دعاني أصلي ، فان صدري مشحون بالبلابل والهموم . (يمضي على الرمال)

فيلمون : (يخاطب بوكيس) اهرعي ، وأعدّي المائدة هناك حيث يلمع الزهر في الحديقة . دعيه يجري ، دعيه يخاف ، لأنه لا يصدق ما يرى .
(وهو يقف إلى جانب الرحالة) المكان الذي تصارعت فيه مع الريح والأمواج قد صار الآن حديقة كأنها الفردوس . لم أكن شابا آنذاك ولم أستطع المساهمة في العمل ، لكنني بوصفي شيخا عجوزا كنت أراقبهم وشاهدتهم وهم يدفعون الماء بعيدا بعيدا . كان الرؤساء يتقنون مهنتهم ، لكن كان على الرجال أن يخاطروا . فحفروا الخنادق وبنوا السدود واستردوا الأرض من البحر وجعلوها لهم . وها هي ذي أمامك : مرج أخضر الواحد تلو الآخر ، وحدائق ، وقرى ، وغابات . تعال الآن واستمتع ، لأن ، الشمس ستفارقنا عما قليل . هناك في الأفق الأبعد مراكب شراعية تسعى إلى مرفأ أمين في الليل . ان الطيور تعرف أوكارها ، ولهذا الميناء هناك . وتلاحظ في المدى البعيد حافة البحر الزرقاء ، وعن يمين وشمال في كل اتجاه تبصر مكانا مسكونا مزدحما .
(يجلس ثلاثتهم إلى المائدة في الحديقة)

بوكيس : أتبقى صامتا ؟ ألا تأتي بشيء للفم الذابل ؟

فيلمون : انه يريد أن يعرف عن المعجزة ، تكلمي وخبّريه فأنت تحبين الكلام .

بوكيس : نعم! كانت معجزة حقا! انها لا تدعني حتى اليوم في راحة ، لأن الأمور لم تسر على طبيعتها .

فيلمون : هل تقصد أن الامبراطور أخطأ حين أعطاه الشاطئ ؟ ألم يعلن ذلك المنادي وهو يمرّ راكبا ينفخ في بوقه ؟ كانت البداية قريبا جدا من رمالنا لقد نصبوا أكواخا وخياما . وسرعان ما قام هناك قصر ومن حوله العشب والأشجار الخضراء .

بوكيس : كان الفعلة يضجّون في غير طائل ويضربون الضربة تلو الضربة بالمنكاش والجاروف ، وحيث كانت الشعلات تلمع في الليل ، كان يقوم سدّ في اليوم التالي . وذهبت في ذلك ضحايا بشرية ، وابان الليل كانت صيحات الشقاء تتردد وسالت في البحر جذوات النار . وفي الصباح كانت هناك قناة . انه كافر بالله ، وهو يطمع في كوخنا وأشجارنا . وبوصفه جارا لنا فانه يتيه علينا ويريد من كل واحد أن يكون له مطيعا .

فيلمون : لكنه مع ذلك عرض علينا ملكا جميلا في الأرض الجديدة .

بوكيس : لا تثق في أرض قائمة على ماء ، وتمسك بالأرض العالية!

فيلمون : هيا بنا إلى المصلّى لنتملّى بآخر نظرة للشمس! ودعونا ندق الناقوس ، ونركع ، ونصلّي ونتوكل على الله القديم .

قصر

حدائق مزينة. قناة كبيرة مستقيمة المجرى

فاوست (وهو في سن عالية[٢٠٥] جدا، يتجول، ويفكر)

لنقوس حارس البرج : (من خلال يراع للكلام) : الشمس تغطس ، والسفن الأخيرة تنساب بنشاط إلى المرفأ . وزورق كبير على عزم الدخول في القناة . والرّايات المتعددة الألوان ترفرف في ابتهاج ، والقلاع الصلبة مشرعة ، بك يسرّ الملاّح ، والسعادة تحيّيك في الزمن الأسمى .
(الناقوس يدق على الرمال)

فاوست : (وهو يصعد) : يا لدقّ الأجراس اللعين! انه ليؤذيني ويجرحني كأنه طلقة خسيسة . أمام عيني تمتد دولتي إلى غير نهاية ، وفي ظهري يخزني الضيق ، ويذكرني بصوت كريه بأن ممتلكاتي الرفيعة ليست طاهرة من العيوب : فأشجار الزيزفون ، والكوخ الكابي ، والمصلّى المتهاوي ـ هذه كلها ليست لي . وإذا رغبت في الراحة هناك روعتني الأشباح الغريبة . انها شوكة في عيني وشوكة في قدميّ ، آه! يا ليتني

كنت بعيدا عن هنا .

حارس البرج : (من خلال يراع للكلام) : ما أجمل الزورق المتعدد الألوان وهو يبحر هنيـئـاً تسوقه ريح الماء البليلة! وسيره السريع كم تتكدس فيه الصناديق والحقائب والزكائب!

(زورق فخم محمل بمختلف الأشياء المتعددة الوفيرة التي هي منتجات مختلف أصقاع العالم)

مفستوفيلس ـ الثلاثة الجبابرة

جوقة : هنا نلقي المرساة ، هنا نحن وصلنا . الهناء للسيد ، للرئيس!

(ينزلون من الزورق ، والبضائع تنزل على الشاطئ)

مفستوفيلس : لقد أفلحنا في التجربة ، ونحن راضون ، ما دام الرئيس عنا راضيا بسفينتين فقط انطلقنا ، وها نحن عدنا بعشرين سفينة في الميناء . ما أعظم ما قمنا به من أعمال ، هذا تشهد عليه حمولتنا هذه . ان البحر الطلق يُحرّر الروح ، من ذا يعرف ما معنى التفكير! هذا يقتضي انقضاضة[٢٠٦] سريعة ، ويصطاد المرء السفينة كما لو كان يصطاد سمكة .

فاذا اصطدت ثلاثا ، أمسكت بالرابعة . والخامسة تأتي من تلقاء نفسها . إذا ملك المرء القوة ملك الحق . المرء لا يسأل : كيف ، بل يسأل : أي شيء هو . إذا كنت أعرف شيئا عن الابحار في البحار فهو أن الحرب والتجارة والقرصنة ثالوث لا يجوز الفصل بين أعضائه .

الجبابرة الثلاثة : لا شكر ولا تحية! لا تحية ولا شكر! كما لو كنا أحضرنا للسيّد عفونات . ان طلعته مكتئبة ، ثروة الملك لا تعجبه .

مفستوفيلس : لا تنتظروا مكافأة بعد ذلك! فقد أخذتم نصيبكم بأنفسكم .

الجبابرة الثلاثة : لقد كان ذلك محض تصبيرة . نحن نريد أنصبة متساوية .

مفستوفيلس : صفّوا أولا في قاعة هذه النفائس دفعة واحدة! فاذا ما جاء وشاهد المشهد الوفير وحَسِبَ كل شيء على نحو أدق ، فانه سيصنع الصنيع

الجميل ويقيم للأسطول الحفلة بعد الحفلة . والطيور العديدة الألوان ستقدم غدا ، وسأوليها كل عناية .
(الحمولة تنقل)

مفستوفيلس : (يخاطب فاوست) : أنت تستقبل حظك السامي بجبين مكتئب ونظرة شزراء . ستُتَوَّج الحكمة السامية ، وسينعقد الصلح بين الشاطئ والبحر ، سيستقبل البحر السفن بالترحاب ويفتح لها الطريق السريع . فقل إذن إنه هنا من هذا القصر ذراعك يعانق العالم كله . من هنا كانت البداية ، وهنا كان يقوم أول كوخ خشبي ، ثم حُفِر خندق صغير ، حيث الآن المجداف ينثر الماء بنشاط دائم . تفكيرك السامي واجتهاد رجالك كسبا جائزتي البحر والبر . من هنا...

فاوست : هذه «الهُنا» اللعينة! انها هي التي تُبْهِظ كاهلي . أيّها العديد الحِيَل يجب أن أقول لك انها تلدغ قلبي المرة تلو المرّة ، ويستحيل عليَّ أن أحتملها! اني أخجل من نفسي حين أقولها : يجب أن يرحل هؤلاء العجائز ، وأريد أشجار الزيزفون للجلوس تحت ظلالها ، ان هذه الأشجار القليلة ، وهي ليست ملكا لي ، تفسد عليَّ مُلْكي العالمي .
هناك كنت أريد أن أطوّف بنظراتي الى مدى بعيد حواليّ ، وأن أرفع قوائم بين الغصن والغصن ، وأفتح للبصر طريقا بعيدا كيما أشاهد كل ما فعلته وأنفض بنظرة واحدة هذه الرائعة من روائع العقل الانساني ، وبعقل حصيف أجعل الشعوب تفيد من هذا الكسب الاسكاني الفسيح .
لهذا فاننا في عذاب ما بعده عذاب ، وفي الوفرة نستشعر ما ينقصنا . ان صليل الناقوس ، ورائحة الزيزفون تحيطان بي كما لو كنت في الكنيسة والقبر . ان اختيار الارادة العظيمة القدرة يتحطم على هذا الرمل ها هنا . كيف يتخلّص شعوري من هذا العذاب ؟ الناقوس يدق وأنا أستشيط غضبا .

مفستوفيلس : من الطبيعي أن يفسد عليك حياتك تبرّم شديد! ومن ذا ينكر هذا ؟ كل أذن نبيلة يخدشها سماع قرع النواقيس . والبم ـ بوم ـ بمل ، وهو يغشى على سماء الماء الصافية ، يمتزج بكل حادث : من الحمام

الأول حتى الدفن ، كما لو كانت الحياة بين البم البوم حلما قد عفيَ عليه النسيان .

فاوست : ان المقاومة والعناد يملآن أجمل المكاسب بالهموم والأحزان ، حتى ان من يُرِدْ أن يكون عادلا يَنَلْ المتاعب والعذاب العميق المروّع .

مفستوفيلس : بماذا تريد اذن هنا أن تضايق نفسك ؟ ألا ينبغي عليك أن تستعمر هنا وقتا طويلا ؟

فاوست : اذن اذهب وأبعدهم عني! ـ وأنت تعرف جيدا المِلْكَ اللطيف الذي قررته لهذين العجوزين .

مفستوفيلس : سنحملهما بعيدا ، ثم نضعهما على الأرض ، وقبل أن يتلفت المرء حواليه يكونان قد وقفا من جديد ، وبعد استعمال القوة سيرضيهما المقام الجميل .

(يصفر مناديا . الثلاثة الجبابرة يظهرون)

مفستوفيلس : تعالوا ، كما أمر السيد! وغداً سيكون هناك احتفال بالأسطول .

الثلاثة الجبابرة : ان السيد العجوز (فاوست) أساء استقبالنا ، وان احتفالا عائما لهو أمر يسرّنا .

مفستوفيلس : (يخاطب المشاهدين) : هنا أيضا يحدث ما حدث منذ زمان طويل ، لأن كرمة «نابوت»[٢٠٧] كانت هناك . (سفر الملوك الأول ، ١ صحاح ٢١)

الليل العميق

لنقوس حارس البرج : (وهو يغني في مرأب القصر) : للرؤية وُلِدْتُ ، وللملاحظة استؤجرت ، وللبرج أقسمت ، بالعالم أعجبت . اني أنظر الى بعيد ، وأبصر في القريب ، القمر والنجوم ، والغابة والأُيَّل . وهكذا في الجميع أرى الزينة الأبدية . وكما أنها تعجبني فاني أعجب نفسي . أيتها العيون السعيدة ، ما شاهدته ليكن ما كان ، لكنه مع ذلك كان جميلا .

(وقفة)

ليس من أجل متعتي أنا وحدي أنا هنا واقف : أيّ رعب رهيب يهددني من العالم المظلم! نظرات من الشرر ألمحها بين الظلمة البهيمة في أشجار الزيزفون ، ولهيب يزداد اشتعالا بفضل تيار الهواء . أواه! داخل الكوخ يشتعل وكان رطبا طحلبيّاً . انه في حاجة الى نجدة سريعة ، لكن لا نجدة ميسورة ولا انقاذ . أواه! يا له من حادث مروع! الشعلة تشتعل ، حمراء في لهيبها بقعة الطحلب السوداء . يا ليت هذين الطيبين ينقذان من الجحيم المستعر! بروق على شكل ألسنة تصاعد بين الأوراق وبين الأغصان ، وفروع جاسية تحترق بشدة وتلتهب بسرعة وتتهاوى . أكان ينبغي لي أن أكون بعيد مدى البصر الى هذا الحد! والمُصلّى ينهار وغصون السقف تتهاوى بثقلها . والقمم تتحوّى حولها الشعلات المدبّبة ، والجذوع الجوفاء تشتعل حتى الجذور وللمعانها لون الفورفير .

(وقفة طويلة ، غناء)

ما كان حتى الآن متعة للنظر صار الآن في خبر كان هو وسالف الأزمان .

فاوست : (في الشرفة تجاه الرمال) : أية شكاة تغنّي من أعلى ؟ الكلمة هنا ، واللحن جاء متأخرا جدا وبعد فوات الأوان . ان حارس البرج يشكو وينوح ، وأنا في باطن نفسي يزعجني هذا العمل المندفع . لكن اذا كان الزيزفون النامي قد قضى عليه وصارت الجذوع المتفحّمة غبراء ، فسيقام عما قليل مرتفع من أجل امكان الرؤية الى غير نهاية ، ومن هناك سأشاهد المسكن الجديد الذي سيضمّ الزوجين العجوزين ليستمتعا بأيامها الأخيرة دون شعور بأيّ ضيم .

مفستوفيلس والثلاثة الجبابرة : (تحت) : ها نحن أولاء قد وصلنا راكضين ، ومعذرة فان الأمور لم تسر بسهولة وطيبة . قرعنا الباب ، ونادينا بصوت عال ، لكن لم يفتح لنا أبدا . فتهيجنا وازددنا صياحا ودفعا ، فانفتح الباب المتهالك . نادينا بصوتٍ عالٍ ، وهددنا بشدة ، لكن لا مجيب .

وكما يحدث في مثل هذه الحالة لم يسمعا ، ولم يريدا أن يسمعا .

لكننا لم نضيع وقتا وبسرعة أخرجناهما . غير أنهما لم يتألما كثيرا . لقد غلبهما الخوف . وكان هناك رجل غريب أراد أن يقاتلنا ، لكننا سرعان ما قذفنا به خارجا . وفي أثناء هذا الصراع القصير تناثرت جمرات من الفحم فأشعلت القش . والآن النار مشتعلة بحرية كما لو كانت محرقة لثلاثتهم .

فاوست : هل صَمَمْتَ عن كلامي ؟ أنا كنت أريد مبادلة ، لا نهباً . اني ألعنكم لهذه الضربة الوحشية الحمقاء ، فتوزعوا لعنتي فيما بينكم .

الجوقة : الكلمة القديمة ، الكلمة تقول : استعدَّ لإطاعة القوة! وان كنت جسورا وعنيدا ، فانك تخاطر بالبيت والقصر ، وبنفسك أيضا .

(تخرج)

فاوست : (عند الشرفة) : النجوم تحتجب عن النظر واللألاء والنار تخمد وتخبت ، وريح مرتعدة تهب وتأتيني بالدخان والتراب .

تعجلتُ الأمر ، فتعجلوا التنفيذ! ـ لكن ما هذه الأشباح القادمة ؟

منتصف الليل

أربع[٢٠٨] نسوة غبراوات (يظهرن)

الأولى : أنا اسمى : النقص!

الثانية : أنا اسمى : الدَّين .

الثالثة : أنا اسمى : الهمّ .

الرابعة : أنا اسمى : الحاجة .

ثلاثة منهن : الباب مغلق ، فلا نستطيع الدخول ، في الداخل يسكن ثريّ ، ونحن لا نودّ الدخول .

النقص : هذا يجعلني شبحا .

الدين : هذا يجعلني عدما .

الحاجة : الناس يشيحون بوجوههم المدللة عنّي .

الهم : يا أخواتي! لا تستطعن ولا يحقّ لكنّ أن تدخلن ، أما الهمّ فانه يتسلّل من خلال ثقب المفتاح .

(الهمّ يختفي)

النقص : أيتها الأخوات الغبراوات ، ابتعدن عن هنا .

الديَن : سأربط نفسي بك إلى جانبك وبالقرب منك تماما .

الحاجة : الحاجة تصحبكما حذو النعل بالنعل .

الثلاث : السحائب تمرّ والنجوم تغيب! هناك في الخلف ، هناك في الخلف! من بعيد ، من بعيد ، ها هو ذا يأتي ، أخونا ، ها هو ذا يأتي الموت .

فاوست : (في القصر) : شاهدت أربعا قادمات ، لكني لم أر غير ثلاث ذاهبات ، معنى الكلام لم أفهمه . لقد تردد صوت كأنه يقول : الحاجة ، وتلته كلمة رهيبة هي : الموت . وكان الرنين أجوف على هيئة الأشباح . اني لم أظفر بعدُ بالتحرر ، لو استطعت أن أبعد السحر عن طريقي ، وأن أنسى تعاويذ السحر تماما ، وأن أقف أمامك ، أيتها الطبيعة ، انسانا وحدي ، لكان من المُجدي أن أكون انسانا!

ولقد كنت هكذا قبل أن أخوض دنيا الظلام وأن أدين نفسي والعالم بكلمات فاسقة . لقد امتلأ الجو الآن بالأشباح ، ولا سبيل إلى التخلص منها . وساعات النهار ربما كانت حافلة بالسلامة والعذوبة ، أما الليل فيلفّني في نسيج من خيوط الأحلام . نحن نعود مبتهجين من الحقول النضرة الفتية ، ويُصوّت طائر ، ماذا يصوّت ؟ سوء المصير! تحتوشنا الخرافات في وقت مبكر وفي وقت متأخر : هذا سعد ، هذا إعلام ، هذا انذار . وهكذا نبقى وحدنا ، مروّعين على هذا النحو . ـ الباب يقعقع ، ولا أحد يدخل .

(ينتابه قشعريرة) هل هنا أحد ؟

الهمّ : السؤال يقتضي : نعم!

فاوست : ومن أنت اذن ؟

الهم : ها أنذا هنا .

فاوست : ابعد عني!

الهم : أنا في المكان الصحيح .

فاوست : (في البدء مكتئبا ، وبعد ذلك يهدأ باله ، ويقول لنفسه) : خذ بالك من نفسك ولا تنطق بأية كلمة سحرية!

الهم : إذا لم تَسْمعني أية اذن ، فلا بد مع ذلك من أن أسري في القلب ، بشكل متحوّل ، أحدث قهرا مروّعا : على الطريق ، على الموج ، رفيق دائم الاقلاق ، دوماً موجود ، أبدا غير مطلوب ، متملّق مثلما أنا ملعون . ـ ألم تعرف الهمّ أبدا ؟

فاوست : لقد عبرت خلال العالم عبورا . وكل لذة أمسكت بها من شَعْرها ، وما لم يرضني ، تركته ينصرف وما أفلت مني ، تركته يمضي لحال سبيله . اشتهيت فحسب ، أنجزت فحسب ، ومرة أخرى تمنّيت وأمضيت حياتي بعنف وبقوة ، كانت في البداية عظيمة وقوية ، والآن تسير بحكمة وتعقّل . والكرة الأرضية معلومة عندي بدرجة كافية . والتطلع إلى أعلى قد صار محجوبا عنّا ، وأحمقُ مَنْ يصوب نظراته محملقا هناك ، متصوّرا أن هناك أشباهه فوق السحاب! فليثبت إذن هنا ليلتفت حواليه ، والعالم ليس مغلقا أمام الماهر ، . فما حاجته اذن إلى السّبح في الأبدية . ما يدركه يمكنه أن يمسك به . فليكيّف نفسه مع يوم الأرض . فان وُجِدت أشباح فليدعها وشأنها وليسلك هو طريقه . وليواصل سيره ملاقيا العذاب والنعيم ، ولن يشعر بالرضا والقناعة في أية لحظة .

الهم : إذا استوليت على انسان لم ينفعه العالم كلّه : الكآبة الدائمة تنزل عليه ، والشمس لا تشرق عليه ولا تغرب ، ومع كمال المشاعر الخارجية تسكن الظلمات في داخله ، ولا يستطيع أن يتملك أي كنز من الكنوز . ومزاجه يتردد بين السعادة والشقاء ، ويجوع في الوفرة والثراء ، وسواء كان ثَمَّ نعيم أو عذاب ، فانه يؤجله إلى يوم آخر ، فهو لا يعيش إلاّ في المستقبل ، وهكذا لا ينتهي أبدا .

فاوست : كفىَ! فهذا لن يؤثّر فيَّ! لا أريد أن أسمع مثل هذا الهراء . اذهب اذن! ان أسوأ التواشيح يمكن أن تخدع أعقل الناس .

الهم : هل ينبغي عليه أن يذهب ، أو ينبغي عليه أن يأتي ، لقد انتزع منه التصميم . في وسط الطريق المرسوم يترجح وهو يجرّب أنصاف خطوات . انه يضيّع نفسه في غور أعمق ، ويرى الأشياء كلها ويشعر بنفسه وبالآخرين حملا ثقيلا يبهظه ، يخنقه ويكتم أنفاسه ، لا

بالمختنق الفاقد الحياة ، ولا باليائس ، لا بالمستسلم . دوران لا يتوقف ، تَرْكٌ أليم ، واجب مزعج ، حيناً تحرّر ، وحينا قسر وضغط . نصف نوم ويقظة رديئة ـ كل هذا يربطه في مكانه ويهيّأ للجحيم .

فاوست : أيتها الأشباح الشقية! هكذا عاملت النوع الانساني آلاف المرات . وحوّلت أيامه المعتادة هي نفسها إلى شبكة معقدة من ألوان العذاب . أنا أعلم أن من الصعب على المرء أن يتخلص من الجن ، فالرابطة الروحانية القاسية التي تربطهم بها لن تفك أبدا . أما قوّتك العظيمة المتسلّلة ، أيها الهمُّ ، فاني لن أعترف بها .

الهم : ذُقْها إذن ، وأنا أنصرف عنك بسرعة لاعناً اياك! ان الناس في كل حياتهم عميان . والآن ، يا فاوست ، ستكون كذلك في النهاية .
(ينفخ في وجه فاوست . ويذهب)

فاوست : (وقد غشّى على عينيه) : الليل يبدو أنه غاص في عمائق الأعماق ، في الباطن فحسب يلمع ضوء ساطع ، ما فكرت فيه هأنذا أبادر لتحقيقه . كلمة السيّد هي وحدها ذات وزن . انهضوا من فُرُشِكم ، أيها العبيد . رجلا رجلا! واشهدوا هانئين ما فكرت فيه بجسارة ، امسكوا أدواتكم ، وهزّوا المناكيش والمرار[٣٠٩] . لا بد من تنفيذ الخطة الآن ، وجزاء النظام وسرعة العمل أعدكم بجوائز سَنّية . ولكي ينجز أعظم عمل يكفي عقل واحد لألف يد .

الفناء الكبير في القصر

مشاعل

مفستوفيلس : (بوصفه الملاحظ ، يتقدم) : هنا! هنا! ادخلوا ، ادخلوا أيتها الليمورات[٣١٠] المترنحة المؤلفة من أربطة وثنايا وسيقان ، يا أنصاف طبائع!

الليمورات : (على هيئة جوقة) : ها نحن بين يديك في التّو ، وكم أدركنا نصف ادراك أن ها هنا أرضا واسعة وعلينا أن نضع أيدينا عليها . الأوتاد المحدّبة ها هي ذي ، والسلسلة الطويلة من أجل القياس والمسح .

لماذا وجّه النداء إلينا ، هذا هو ما نسيناه .

مفستوفيلس : لا داعي هنا لاتبّاع أصول الفن ، تصرّفوا وفقاً لمقاييسكم أنتم . فليرقد الأطول بطوله ، وعليكم أن تروّحوا العشب حواليه أنتم أيها الآخرون ، وكما صنع لأجدادنا احفروا مربّعا طويلا! من القصر إلى البيت الضيّق ، هكذا يحدث في النهاية مهما يكن سخيفا لا معقولا .

الليمورات : (وهم يحفرون على هيئة غريبة) : لما كنت شابا أحيا وأحب ، خيّل إليّ أن هذا كان عذبا حقاً ، وأينما كانت البهجة والمتعة ، كانت تتردد أقدامي .
والآن أصابتني الشيخوخة الخبيثة بعصاها ، هأنذا أتعثر عند باب القبر ، يا ويلتهاه ، لماذا كان مفتوحا!

فاوست : (قادماً من القصر ، وهو يتحسس طريقه بواسطة أعمدة الباب) : كم يسرني صليل المرار . انهم رجالي يعملون من أجلي ، كيما يصبح الشاطئ آمنا ، وتصدّ الأمواج ، ويقف البحر عند حدوده .

مفستوفيلس : (جانبا) : أنت تعبت من أجلنا وحدنا بسدودك وأرصفتك فأنت انما تعدّ مأدبة عظيمة من أجل نبتون ، شيطان[٢١١] البحر . في كل أمر أنتم ضائعون : أفقد قسمت العناصر معنا ومصيركم إلى الهلاك والفناء .

فاوست : يا ملاحظ!

مفستوفيلس : أنا حاضر!

فاوست : هات عمالا جموعا بعد جموع قدر الامكان ، وشجّعهم بالمتعة والقسوة ، ادفع ، اجذب ، واضغط! أريد أن أتلقى قي كل يوم أنباء عن سير العمل في الخندق ومدى استطالته .

مفستوفيلس : (بصوت منخفض) : بحسب ما أخبروني فانهم يتحدثون عن قبر ، لا عن خندق .

فاوست : إن مستنقعا يحيط بسلسلة الجبال ، ويفسد كل ما كسبناه ، فاذا استطعنا نزح هذه البركة العفنة ، لكان ذلك آخر وأعظم انجازاتنا .
اني بهذا أفتح أماكن للعديد من ملايين الناس ، أماكن ان لم تكن سليمة أمينة تماما ، فإنها مهيأة للسكنى والنشاط الحر .

الحقول خضراء خصبة ، الانسان والماشية في هناء كلاهما على الأرض الجديدة ، ومستقر على الرابية التي كدّستها جماعةٌ جَسورٌ مثابرة من الفَعَلة . في الداخل هنا أرض مثل الفردوس : وهناك في الخارج يرتطم السيل بالحافة! فما يوشك أن يقضم منها ويهدّدها حتى يهب الكل ويقوموا قومة رجل واحد لسدّ الثغرة . نعم! أنا من هذا الرأي تماما ، وهذه هي الخاتمة الأخيرة للحكمة : لا يستحق الحرية والحياة الا من يسعى كلّ يومٍ للظفر بهما! هكذا يمضي الطفل والرجل والشيخ العجوز هنا أعمارهم في بلاء حسن محاطين بالأخطار . بودّي أن أشاهد مثل هذا الزحام في أرض حرة بين قوم أحرار! في هذه اللحظة سيكون من حقي أن أقول : « توقفي اذن ، فأنت في غاية الجمال! » ان أثر أيامي على الأرض لا يمكن أن يغيب في الدهور . ـ وفي استشعار سابق بمثل هذه السعادة فاني أستمتع الآن بأسمى اللحظات .

(فاوست ينهار الى الخلف ، الليمورات يمسكونه ويرقدونه على الأرض)

مفستوفيلس : لا تشبعه شهوة ، ولا يقنع بأية سعادة ، واستمر يشتاق الى أشكال متعددة ، واللحظة الأخيرة ، الأليمة ، الفارغة هذا المسكين يريد أن يوقفها . وهذا الذي قاومني بكل قوة ها هو ذا الزمان قد تغلب عليه ، فهذا الشيخ اليَفَن يرقد هنا الآن في الرمل . والساعة قد وقفت ـ

الجوقة : وقفت! صمتت مثل منتصف الليل ، والعقرب سقط .

مفستوفيلس : انه سقط ، وقضي الأمر .

الجوقة : لقد مضى!

مفستوفيلس : « مضى »! يا لها من كلمة حمقاء . لماذا « مضى » ؟ « مضى » و« العدم المحض » : هما شيء واحد! أيّ معنى اذن في هذا الخلق الأبدي! ما يُخلق مآله الى العدم!

« ها هو ذا مضى! » ـ ماذا ينبغي أن يقرأ في هذه العبارة ؟ انه كما لم يكن قد وجد ، ومع ذلك فهو يدور دورته كما لو كان موجودا .

من أجل هذا أحببت الخلاء الأبدي .

ليمور : (وحده) : مَنْ الذي بنى البيت هذا البناء السيء بالأمرار والمناكيش ؟

الليمورات : (في جوقة) : أيها الضيف الأصمّ في كفن من التيل ، لقد نعمت بخير مفرط .

ليمور : (وحده) : من الذي هيأ القاعة هذه التهينة الرديئة ؟ أين ذهبت المائدة والكراسي ؟

الليمورات : (في جوقة) : لقد اقترضت لمدة قصيرة ، والدائنون كثيرون .

مفستوفيلس : الجسم راقد ، والروح تريد أن تطير هاربة ، وفي وسعي أن أريها فورا الوثيقة المكتوبة بالدم ، لكن مع الأسف لدى الناس الآن الكثير من الوسائل لمنع الأرواح عن الشيطان . على الطريق القديم تبعثر الناس ، والا لكنت فعلت ذلك وحدي ، أما الآن فلا بد لي من مساعدِ مساعدٍ .

ساءت أحوالنا في كل الأمور . العُرْف ، والشريعة القديمة ، لم يعد أحد يستطيع أن يثق بأي منهما . كان من المعتاد أن تخرج الروح مع آخر نَفَس . ولهذا كنت أترصّدها ، ومتى ما خرجت أسرعت فأمسكت بها ، أما الآن فانها تتردد ، وكأنها تكره أن تغادر مقامها الكريه في الجثة الرديئة ، وهو مقام مظلم . والعناصر التي يكره بعضها بعضا يدفعها في النهاية على نحو مُزْرٍ . وعليّ أن أُعذب نفسي طوال الساعات وابان اليوم وأنا أسأل : متى ؟ كيف ؟ أين ؟ هذه الأسئلة المضنية اللعينة . لقد فَقَدَ الموت قوته السريعة . وحتى سؤال : «هل ؟ »[٢١٢] صار مدعاة للشك الطويل . حدث مرارا أن تطلعت بشغف الى الأعضاء الهامدة ـ لكن لم يكن ذلك الا في الظاهر فقط ، واذا بها تتحرك من جديد وتختلج . (تقوم بحركات غريبة آلية كما في استحضار الأرواح) هيا أسرعوا ضاعفوا خطواتكم ، يا أصحاب الصّور[٢١٣] المستقيم ، والصّور المعوج ، يا من أنتم من طابع الشيطان ، إئتوا حالا بأشداق الجحيم! صحيح أن

للجحيم العديد ، العديد من الأشداق وهي تبتلع بحسب المرتبة والمقام ، ومع ذلك فانه بالنسبة الى هذه اللعبة الأخيرة لن يحفل الناس كثيرا في المستقبل .
(شدق الجحيم الرهيب ينفتح ناحية اليسار)
الأنياب تنفتح وتبرز ، ومن سقف الحلق يتدفق سيل من النار غاضب ، وفي أبخرة غليان الخلف أشاهد مدينة الاشتعال وهي في لهيب دائم . والارتطام الأحمر يضرب حتى الأسنان ، والمعذبون يسبحون آملين في النجاة . لكن الضبع المارد يسحقهم ، فيستأنفون الطريق الحارّ وهم في قلق بالغ . وفي الزوايا يبقى الكثير ليستكشف : أهوال فظيعة جدا في أضيق مكان! أنتم تحسنون صنعا بترويع الخاطئين ، لكنهم يحسبون ذلك كذبا وخداعا وحلما .
(مخاطبا الشياطين السمينة ذوي القرون القصيرة المستقيمة) : والآن أيها الأوغاد ذوو الكروش وأصحاب الخدود النارية! انكم تلتهبون حقا من كبريت الجحيم ، وأعناقكم قصيرة شبيهة بجذوع الشجر ولا تتحرك أبدا! راقبوا في أسفل هنا ، لعل ثمّ ما يلمع كالفسفور[٢١٤] : انها النَّفْس ، النفس ذات الأجنحة[٢١٥] ، وهي تنتف ريشها ، بحيث صارت دودة جرداء ، أريد أن أختمها بخاتمي[٢١٦] ، ثم ألقي بها في دوامة النار . انتبهوا الى المناطق السفلى[٢١٧] ، يا ضخام البطون ، فهذا واجبكم ، هل سرّكم أن تقيموا هناك ، لا أحد يعرف ذلك على وجه الدقة . لكنها تفضل الإقامة في السرّة[٢١٨] ـ خذوا حذركم فقد تنزلق خارجة من هناك .
(يخاطب الشياطين المهزولين ذوي القرون الطويلة الملتوية) : أيتها الحماقات ، أيها المردة المهزولون فتشّوا في الهواء ، حاولوا دون توقف! وأذرعكم مستقيمة ، ومخالبكم محدّدة مستوية ، حتى تستطيعوا الإمساك بالهاربة المحلقة! من المؤكد أنها متضايقة في بيتها القديم ، والعبقرية تود أن تطير في الأعالي على الفور .
هالة المجد (في أعلى ، ناحية اليمين)

جند السماء

اتبعوا ، يا أيها المرسلون
يا أقرباء السماء
في طيران ميسور :
للخُطاة اغفروا ،
والتراب أحيوا ،
في كل الطبائع
أحدثوا آثاراً ودودة
في تحليق المسيرة المتوقفة .

مفستوفيلس : نغمات ناشزة أسمعها ، ودندنة هزيلة تأتي من أعلى مع اليوم البغيض ، انها أعمال صبية وصبايا ، من ذلك النوع الذي يلَذ الذوق الجانح للتقوى . أنتم تعلمون كيف أننا دبرنا ، في ساعات مُمْعِنة في الكفر ، اعدام الجنس الانساني ، وأفسق ما ابتكرنا هو الذي انسجم تماما مع تقواهم وتعبداتهم .

انهم منافقون ، هؤلاء الأغرار! وقد انتزعوا منا الكثيرين ، وهم يحاربوننا نحن بأسلحتنا نحن الخاصة بنا : انهم شياطين أيضا ، لكنهم مُقَنَّعون . ان خسرتم هنا ، كان ذلك عارا عليكم أبد الدهر ، فتعالوا الى القبر وتشبثوا بالحافّة!

جوقة الملائكة (وهم ينثرون الورود)
أيتها الورود الخاطفة للبصر
الناشرة للبلسم
تُرَنِّقين وتُحَلِّقين
مجنَحة بصغار الغصون
مختومة بالبراعم
أسرعي في التفتح!
ابزغ أيها الربيع

بألوان الفورفير والخضرة!
واحمل الفردوس
الى الراقد هنا!

مفستوفيلس : (يخاطب الشياطين) : لماذا تنحنون وتنحرفون ؟ أهذه مِنْ شِيَم الجحيم ؟ توقّفوا اذن دعوهم ينثروا! فليعد كل مغفل منكم الى مكانه! انهم يحسبون أنه بمثل هذه الزهيرات يستطيعون أن يثلجوا الشياطين الحارّة ، أمام أنفاسكم هم ينصهرون ويتغضنون . فأنفخوا انفخوا عليهم ، كفى ، كفى! السّرب كله ابياضَّ أمام بخاركم . ـ ليس بشدة وقهر هكذا! أغلقوا الأفواه والأنوف! الحق أنكم أفرطتم في النفخ . أنتم لا تعرفون أبدا المقياس السليم . هناك ليس فقط تغضّن بل وأيضا اسمرار ، وجفاف ، واحتراق . وها هي ذي شعلات سامة ساطعة تُحلّق قادمة ، قاوموا وتجمعوا معا! القوة تنطفئ! راحت كل شجاعة! الشياطين يستروحون اللهيب المغري الغريب .

(جوقة) الملائكة
هذه الأزهار السعيدة
وهذه الشعلات المبتهجة
تنشر الحب
تبسط اللذة
في القلب قدر المستطاع
الكلمات الحقة ،
الأثير في الصفاء
الجنود الخالدون
والنهار في كل مكان!

مفستوفيلس : يا للعنة! يا للفضيحة لهؤلاء الحمقى! الشياطين(٢١٩) يقفون على رؤوسهم ، الأغرار يدورون في دورات ، ويسقطون بمؤخراتهم في الجحيم . تمتعوا بهذا الحمّام الحامي الذي تستحقونه! أما أنا فسأبقى في مكاني . ـ (وهو يضرب الورود المحلقة حواليه)! أيتها اليراع ، استمري! أنت! أضيئي أقوى وأقوى ، فستظلين دائما ، إذا أمسكت

بك ، بُضْعة من الهلام المقزّز . لماذا ترفرفين ؟
يقرصني في رقبتي ما يشبه الزفت والكبريت .
الملائكة (في جوقة)
ما لا ينتسب اليك
عليك أن تتجنبه ،
وما يثير الاضطراب في باطنك
ينبغي عليك ألا تتحمله .
وإذا وقع علينا قهر
فيجب علينا أن نكون ماهرين .
الحب لا يقود الا المحبين
الى أعلى عليين!

مفستوفيلس : رأسي يحترق ، وقلبي يحترق ، وكبدي يحترق . عنصر فوق شيطاني يلسع لسعا أَحَدَّ من نار الجحيم! ـ وهذا هو السبب في أن المحبين التعساء إذا هُجِروا ورفضوا يديرون أعناقهم بحثا عن المحبوب .
وهذا ما يحدث لي أنا! ماذا يجرّ رأسي الى تلك الناحية ؟ اني مع ذلك واقع معهم في نزاع مرير! وكانت النظرة إليَ نظرة معادية حادة . هل نفد فيّ شيء غريب ؟ يلذ لي أن أشاهد الشباب المحبوب جدا ،ماذا يمنعني فلا يحق لي أن ألعن ؟ ـ وإذا كنت أنا أدع نفسي تنخدع ، فمن ذا الذي سيسمّى في المستقبل أحمق ؟ هؤلاء الأولاد الملاعين الذي أكرههم هم مع ذلك يستهوونني . أيها الأولاد الجميلون ، خبّروني : ألستم أيضا من نسل لسيفر[٢٢٠] ؟ جمالكم رائع حقا وبوّدي أن أقبّلكم ، يخيل إليّ أن هذا يليق بكم . والأمر يسرّني ، ويبدو لي طبيعيا ، كما لو كنت شاهدتكم من قبل ألف مرة ، ان فيكم أُنُسا وملاحة تغري بكم ، مع كل نظرة تزدادون جمالا على جمال . أوه! اقتربوا ، أه! متّعوني بنظرة واحدة!

جوقة الملائكة : ها نحن قادمون ، فلماذا تتراجع أنت ؟ نحن نقترب ، فابق مكانك ، ان استطعت .
(الملائكة يملأون المكان كله)

مفستوفيلس : (وقد دُفع إلى مقدمة المسرح) : أنتم تنبذوننا بأننا أرواح ملعونة . بينما أنتم رؤساء السحرة الحقيقيون ، لأنكم تُغْوون الرجل المرأة . ـ يا لها من مغامرة لعينة! أهذا عنصر الحب ؟ الجسم كله في لهيب ، لكنني لا أكاد أشعر أن رقبتي تحترق . ـ أنتم ترتقون هناك وهناك ، اهبطوا اذن فإن قليلا من الدنيا يحرّك أعضاءكم اللطيفة . حقاً ان الجدّ لائق بكم تماما ، ومع ذلك فبودّي أن أراكم ولو مرة واحدة وأنتم تضحكون! سيكون هذا عندي باعث نشوة أبدية . أقصد مثلما ينظر المحبوبون : بسمة صغيرة ترتسم على الفم . وكفى . وأنت ، أيها الغلام الطويل ، اني أحتملك أجمل احتمال . ان سحنة القسيس لا تجمل بك ، فانظر إليّ بوضوح . كذلك تستطيع أن تمشي عاريا محتشما ، فان القميص الطويل ذا الثنايا إفراطٌ في التمسك بالأخلاق . انهم يستديرون ـ ليشاهدوا من الخلف! ـ ان هؤلاء الصغار ذوي الشمائل الحلوة يثيرون الشهية المشبوبة!

جوقة الملائكة

إلى الصفاء
أيتها الشعلات العاشقة!
ومن أدانوا أنفسكم
فلتُنَجِّهِمْ الحقيقة ،
حتى يتخلصوا من الشر
وهم سعداء ،
ابتغاء النعيم
في الكل الواحد

مفستوفيلس : (وقد استردّ هدوءه) : إلى ماذا سيؤول اليه أمري ؟! اني مثل أيوب شخص كله قروح ، يفزع من رؤية نفسه ، ولكنه في الوقت نفسه يستشعر النصر والفخر حين يتأمل في نفسه بعمق واستقصاء . وحين

يتكل على نفسه وعلى عنصره ، أجزاء الشيطان النبيلة نُجِّيَتْ وشبح الحب قد طفح على الجلد ، والشعلات الكافرة قد انطفأت ، وكما يقتضيه الأمر ، فاني ألعنكم جميعا .

جوقة الملائكة

أيتها النيران المقدسة!
ان من تحيطين به
يشعر أنه في الحياة
سعيد مع الأخيار .
أنتم مجتمعين
اسموا بأنفسكم واحمدوا!
الهواء تطهّر
فلتتنفس الروح!
(يصعدون إلى أعلى حاملين معهم الخالد من فاوست)

مفستوفيلس : (يلتفت حواليه) : لكن كيف ؟ وأين ذهبوا ؟ أيتها الجماعة القاصرة ، لقد فاجأتني! الفريسة طارت مني إلى السماء ، لهذا السبب جاءوا يحومون حول هذا القبر! أفلت مني كنز عظيم فريد : الروح السامية التي رَهَنَتْ نفسها لي ، قد انتزعوها مني بمكر ودهاء . إلى من أشكو الآن ؟ من يعيد إليّ حقي المكتسب ؟ لقد خُدِعْتَ في أيامك الأخيرة ، وأنت تستحق ذلك ، والأمور تسير بالنسبة إليك في غاية السوء . لقد أسأت التصرف على نحو يدعو إلى العار ، مصروفات هائلة قد أنفقت دون جدوى وعلى نحو مخْزٍ جالب للعار . ـ شهوة دنيئة ، وغرام لا معقول قد استوليا على الشيطان المتحجّر . وانشغل هذا المحنّك المجرّب بهذا الشيء الصبياني الأحمق ، ولهذا فان الحماقة التي سيطرت في النهاية عليه لم تكن بالأمر الهيّن القليل .

أخاديد الجبل[٢٢١]

غابة، صخر، خلاء، رهبان مقدسون موزعون على درجات الجبل صعودا، ويقيمون بين الشقوق

جوقة وصدى : الغابة تتراوح ، والصخور ترسخ هناك ، والجذور تتشبث ، والجذع تلتصق بالجذوع . والموجة تلو الموجة تتدفق ، والكهوف الأعمق تحمي وتؤوي .
والأسود تتبختر صامتة وبمودة حولنا ، وتوقّر المكان المبارك ، مأوى الحب المقدس .

الأب المجذوب : (يحلّق علوا وسفلا) : لهيب النشوة الدائم ، رابطة الحب المشبوبة ، الألم الذي يغلي في الصدر ، والعشق الالهي المتدفق بالزّبد . أيتها السهام أنفذي في باطني ، أيتها الرماح أخضعيني ، أيتها العصيّ اسحقيني ، أيتها البروق اعصفي بي! حتى يذهب كل معدم ، ويلمع النجم الباقي بذرةً للعشق الأبدي[٢٢٢]!

الأب العميق[٢٢٣] : (في المنطقة العميقة) : مثلما هاوية الصخور تحت أقدامي تستقر ثقيلة على الهاوية العمية ، ومثلما آلاف الجداول تجري ساطعة الشعاع إلى المسقط المروع لزبد السيل ، ومثلما الجذع يحمل نفسه في الهواء بغريزة قويّة خاصة :
ـ كذلك حال الحب القويّ الذي يصوّر كل شيء ، ويحمي كل شيء .
حولي أزيز وحشي كما لو كانت الغابة وأرض الصخور نزل ، ومع ذلك تتساقط فيوض المياه ، بخرير لذيذ ، في الهاوية ، وقد دعيت لريّ الوادي ، ان البرق ، الذي يلمع مشتعلا ، من أجل تحسين الجو ، الذي حمل السمّ والبخار في باطنه ـ تلك كلها رُسُلٌ للحب تعلن عما يسبح حولنا خالقا باستمرار . ألا ليت باطني يشتعل ، حيث الروح المشوّشة باردة ، وهي تتعذّب في داخل حدود الحواس الكلية ، وقد ضيّق عليها في سلسلة من الآلام . يا الهي! أَنْزِل السكينة على

أفكاري ، وأَنِرْ قلبي المحتاج الفقير .

الأب السرافي[٢٢٤] : (في المنطقة الوسطى) : أية سحابة[٢٢٥] صباح تحلقَ بين الشعور المتناوحة لشجر التنّوب! هل أحزر ماذا في الباطن ؟ انها طائفة من الروحانيات الشابة .

جوقة من الصبيان السعداء : خبّرنا ، يا أبتاه ، أين نذهب ، خبّرنا ، أيها الرجل الطيب ، من نحن! نحن سعداء ، لنا كلنا ، كلنا ، الوجود لطيف ظريف .

الأب السرافي : يا صبيان! ولدتم في منتصف الليل ، وانفتحت عقولكم وحواسكم نصف انفتاح ، بالنسبة إلى آبائكم أنتم ضائعون ، لكن بالنسبة إلى الملائكة أنتم مكسب . أنتم تشعرون أنكم في مواجهة محبّ ، فاقتربوا اذن! لكنكم ، أيها السعداء ، لا أثر عليكم من شؤون الدنيا القاسية . انزلوا في عيني ، وهي عضو مناسب للدنيا وللأرض ، في وسعكم أن تستعملوها كأنها لكم ، وانظروا بها إلى هذا المكان! (يأخذهم في داخله) هذه أشجار ، وتلك صخور ، ومجرى ماء ينزل ، وبدورات مروّعة يختصر لنفسه الطريق المنحدر .

الصبيان السعداء : (من الداخل) : هذا منظر رائع ، لكن المكان شديد الظلام ، وهو يهزنا بالخوف والرعب أيها النبيل الطيب ، دعنا نذهب!

الأب السرافي : اصعدوا إلى فلك أعلى ، واكبروا دون أن يلاحظكم أحد ، فان الحضرة الالهية تقوّيكم على نحو طاهر أبدا . لأن هذا هو قوت الأرواح ، الذي يسيطر في الأثير الطلق : كَشْفٌ للحب الأبدي يتفتّح إلى نعيم .

جوقة الصبيان السعداء : (وهم يدورن حول أعلى قمة) : شبّكوا الأيدي في دائرة متحدة وأنتم مسرورون ، اهتزوا وتغنّوا فيها بالمشاعر الالهية . ومن حقكم أن تثقوا ، وقد شدوتم علما إلهيا ، بأنكم سترون من تعبدون .

ملائكة : (يحلقون في أعالي الجو ، حاملين الخالد في فاوست) : العضو النبيل في عالم الأرواح قد نجّي من الشرّ : من يجتهد وهو دائب السعي نستطع نحن تخليصه[٢٢٦] . وإذا شارك فيه الحبّ من أعلى ، فان الجند الطوباويين سيلقونه بترحيب قلبي .

الملائكة

الأكثر شباباً : ان الورود التي أعطتنا اياها النسوة التائبات ساعدتنا على كسب النصر ، وإنجاز العمل العظيم ، واغتنام هذا الكنز من الروح . هرب الأشرار لما أن نثرنا (الورود) ، وفرّت الشياطين لما أن وصلنا نحن . والأرواح شعرت بعذاب الحب بدلا من عقوبات الجحيم المعتادة . وحتى رئيس الشياطين العجوز نفذ فيه الألم الحادّ ، صيحوا مرحى ، فلقد أفلحنا .

الملائكة

الأكثر نضوجاً : بقي لدينا بقية أرضية علينا أن نحملها متضايقين ، وحتى لو كان من اسبست[٢٢٧] فانه ليس طاهرا . ان قوة الروح المتينة إذا ضمّت العناصر ، فلا يستطيع أيّ مَلَكٍ أن يفصل بين الطبيعتين[٢٢٨] المتحدتين لباطن كلتيهما . وانما الحب وحده هو الذي يستطيع أن يفصل بينهما .

الملائكة

الأكثر شباباً : اني استشعر حياة أرواح تحيط بذروة الصخور كالضباب ، وتتحرك على مقربة . السحب تصير صافية ، وأشاهد جماعة متحركة من الصبيان السعداء ، وقد تحرروا من ضغط الأرض ، وتجمعوا في دائرة ، وتمتعوا بالربيع الجديد وزينة العالم الأعلى .
وكبداية فليكن في صحبتهم ليصاعد معهم إلى المكسب الكامل[٢٢٩] .

الصبيان السعداء : بسرور نستقبل هذا الذي في حالة يَرَقة ، فبهذا نحصل على أمان ملائكي[٢٣٠] . فكّوا الشرنقة[٢٣١] التي تحيط به . انه جميل ، عظيم ، ذو حياة مقدسة .

دكتور مريانوس[٢٣٢] : (في الصومعة العليا الأطهر) : هنا المنظر طلق ، والرح سامية . وهناك تمر نسوة ، وهن يحلقن علّوا ، وسيدتنا (مريم) في وسطهن تتوجها النجوم . انها ملكة السماء وأراها في لألاء المجد . (يصاب بجذبة)
يا سيدة العالم! دعيني أشاهد ، في قبة السماء الزرقاء المشدودة ،

سِرِّك . لا تستهيني بما يحرك قلب الانسان بجد ولطف ، وما يحمل لك من شهوة حب مقدسة .
ان شجاعتنا لا تُقْهر ، إذا أنت أصدرت أوامرك السامية ، واللهيب يرقّ فجأة ، إذا منحتِنا رضاك . أيتها العذراء ، الطاهرة بأجمل معنى ، أيتها الأم الجديرة بالتبجيل والتشريف ، أيتها الملكة المختارة لنا ، يا نظيرة الآلهة!
تلتفّ حولها سحب خفيفة ، انهن التائبات ، جماعة رقيقة ، يتشممن الأثير حول ركبتها ، طالبات اللطف والغفران ـ وأنت التي لم يمسك بشر ، لا تشريب على الغاويات الطائشات ان هن أتين إليك في ثقة .
في ضعفهن ضللن ، ومن الصعب تخليصهن ؛ من الذي يحطم بقوّته الخاصة سلاسلَ الشهوات ؟ وما أسهل أن تنزلق القدم بسرعة على الأرض المصقولة المنحدرة! ومن ذا الذي لا تغريه النظرة والتحية والأنفاس المتملّقة ؟

الأم الماجدة[٢٣٣] : (تحلّق قادمة)

جوقة التائبات : أنت تحلقين في أعلى الممالك الأبدية ، فاقبلي الرجاء يا منقطعة النظير ، يا غنية بالألطاف!

الخاطئة الكبيرة[٢٣٤] : (انجيل لوقا ٧ :٣٦) : قسما بالحب الذي ذرف الدموع على قدمي ابنك ، رغم سخرية الفرّيسيين وبحق القارورة التي صَبّتْ عليهما الزيت ، الشَعْر الذي جففهما...

المرأة السامرية[٢٣٥] : (انجيل يوحنا٤) : بحق البئر التي منها استقى ابراهيم لقطعانه ، وبحق الكأس التي مسّت شفتَيّ مُخَلّصنا وسكَّنتهما ، وبحق الينبوع المتدفق من هناك خلال العالم كله وفيرا الى الأبد .

مارية المصرية[٢٣٦] : (« أعمال القديسين ») : بحق المكان العالي التكريس ، الذي دفن فيه سيّدنا ، وبحق الذراع التي دفعتني عن الباب محذّرة اياي ، وبحق كفّارة الأربعين سنة التي أمضيتها باخلاص في الصحراء ، وبحق تحيات الوداع الطوباوية التي خططتها في الرمل...

الثلاثة معاً : يا من لم ترفضي اقتراب الخاطئات الكبيرات منك ، ومكّنتهَن من الكسب التائب في الأبدية ، امنحي هذه النَّفْس[٢٣٧] الطيبة ، التي لم

تنس نفسها الا مرة واحدة ، ولم تدرك أنها أخطأت ـ امنحيها المغفرة المناسبة .

إحدى التائبات (وكان اسمها : جرتشن)

(وهي تنضم إليهن) : أَدرِ ، أدر ، يا منقطع النظير ، يا غنّي الاشعاع ، وجهَك بلطف نحو سعادتي! محبوبي السابق ، الذي لم يعد يعكر صفو نفسه شيء ، قد عاد .

صبيان سعداء : (يقتربون في حركة دائرية) : لقد فاقنا بأعضائه القوية ، وسيجازينا خير الجزاء بما بذلنا له من عناية ورعاية . نحن قد أُبعِدنا مبكرا عن جوقات الحياة ، أما هذا فقد تعلم ، سنتولى تعليمنا .

إحدى الخاطئات : (وتدعى سابقا جرتشن) : ان القادم الجديد لا يكاد يشعر بأنه محاط بجوقة من الأرواح النبيلة ، ولا يكاد يدرك الحياة الجديدة ، انه صار شبيها بالجماعة المقدسة . تأملوا كيف ينتزع عن نفسه كل رباط أرضي في غشائه القديم ، ومن الثوب الأثيري تتجلى قوة الشباب الأولى! اسمحوا لي أن أتولى تعليمه! فلا يزال اليم الجديد يعشّي على بصره .

الأم الماجدة : تعال ، ارفع نفسك إلى الأفلاك العليا . حين يدرك من أنت ، سيمضي في اثرك .

دكتور مريانوس : (يصلي ساجدا) : تطلّعوا إلى نظرة المخلّص ، كلكم يا من صرتم رقيقين بالتوبة ، كيما تعدّوا أنفسكم للحال السعيد وأنتم شاكرون . وكل شعور فاضل سيضع نفسه في خدمتك . يا عذراء ، يا أم ، يا ملكة ، يا إلاهة ، فيضي علينا دائما بالألطاف!

الجوقة الصوفية : كلُّ فانٍ هو رَمْزٌ فحسب ، وكل ما لا يمكن الوصول اليه سيصير هنا حادثاً ، وما لا يمكن وصفه قد جرى ها هنا فعله . ان الأنوثة الخالدة تجذبنا إلى أعلى .

انتهى

الهوامش

١ مرج على جبال الألب فيه بحيرة وشلال . ـ وقد مضى بين منظر السجن وبين بداية هذا الفصل وقت طويل ، حاول فاوست في أثنائه ان يجد الشفاء في مناظر الطبيعة .

٢ دائرة من العفاريت النورانية ، تمثل هنا قوى الطبيعة التي تهب الشفاء .

٣ شخصية استعارها جيته من مسرحية «العاصفة» لشيكسبير ، وتمثل حب بني الانسان ، والروح الهوائية المستعدة للخدمة والنجدة ، وهي هنا تقود جماعة العفاريت .

٤ في أيام جيته كانت توضع في الحدائق آلات هارب ، شدت أوتارها على صناديق رنانة ، وكانت تعزف حين تمسها الرياح من تلقاء نفسها بألحان عذبة .

٥ اشارة الى مأساة مرجريت وما كان فاوست يشعر به من تأنيب الضمير بسبب مسؤوليته عنها .

٦ كان الرومان يقسمون الليل الى اربعة اقسام : من ٦-٩ ، ٩-١٢ ، ١٢-٣ ، ٣-٦ . وتناظرها المقطوعات التالية التي ينشدها الكورس .

٧ Lenth : نهر النسيان في الجحيم . وكان اليونانيون القدماء يعتقدون أن أرواح الموتى تشرب منه لتنسى . وهنا النسيان مطلوب لفاوست كي ينسى الشعور بالذنب في مأساة مرجريت ، وبالمسؤولية عن إعدامها .

٨ Horen : الإلاهات اليونانية لفصول السنة ، وهن بوصفهن خادمات زيوس فإنهن حارسات باب السماء .

٩ Phobus : لقب أبولو عند الرومان بوصفه الشمس ، أو إله الشمس .

١٠ استيقظ فاوست من نومه وقد استرد قوة للحياة جديدة .

١١ نش (من باب نصر) نشا ونشيشا : صوت الماء وغيره إذا غلى .

١٢ إن قوس قزح يعكس سعي الإنسان : أولاً : لأن حياتنا بريق كثير التغير عديد الألوان يعكس الحياة الإلهية والنور المحض ، وثانياً لأن سعينا متجه نحو ما هو ميسور للإنسان

١٣ أي متناهي في القبح ، والهولة : ما يفزع به الصبي .

١٤ المناصب المذكورة هنا تناظر ما كان قائماً في ألمانيا في العصر الوسيط . وقد كان المستشار الأول هو في الوقت نفسه رئيس الأساقفة ، وكان رئيس الجيش يناظر ما عرف بعد ذلك بلقب رب العلم الأول Erz-bannerherr . وكان رئيس الخزانة الأول منذ نهاية القرن السابع عشر هو أمير هانوفر . وكثير من الأحوال الموصوفة هنا تنطبق على عصر كارل الرابع (١٣٤٦ ـ ١٣٧٨) .

١٥ بيت مالك أو سيد إقطاع أو أمير .

١٦ Ghibellinen وGuelfen : منذ القرن الثالث عشر في أوروبا هما الحزبان اللذان يؤيد أولهما الامبراطور ، والثاني البابا في النزاع بين هذين على السلطة الزمنية والروحية .

١٧ الزق والزكرة : أوعية للخمر .

١٨ كناية عن سقوط الشاربين مترنحين من السكر تحت الموائد .

١٩ كان اليهود يقدمون سُلفاً على حساب تحصيلات العام القادم ، وكانت السُلف أقل بكثير من التحصيلات .

٢٠ من القوانين التي أصدرها كارل الكبير (شارلمان) قانون يقضي بأن كل كنز مدفون في الأرض على عمق أبعد مما تصل إليه سكة المحراث فهو من حق الملك أو الامبراطور .

٢١ نبات عشبي سام يستخدم في تحضير بعض الأدوية ، وهو من الفصيلة الباذنجانية Mandragore . ومنذ القدم حتى اليوم يستخدم في السحر لتضعيف النقود التي توضع الى جواره!

٢٢ المنكاش Hacke : أداة تحرث بها الأرض الحجرية ، ولاسيما في الجبال . ـ مر Spaten : أداة يقلب بها التراب ، ويستعملها البستانيون بدلاً من المحراث .

٢٣ Karneval : اختلف في تفسير اشتقاقه : فقال البعض إنه من الكلمتين اللاتينيتين Carrus Navalis (= عربة على شكل سفينة) ، وقال البعض الآخر ـ وهو رأي أضعف ـ إنه من الكلمتين الإيطاليتين Carne vale (= وداعاً أيها اللحم) لأنه إيذان بالصوم ، أي الامتناع من اللحم . وهذا الاحتفال يرجع في نهاية الأمر الى احتفال كان يقام في أواخر الامبراطورية الرومانية تمجيداً لإلاهة الربيع نهالينيا Nehalennia ، وكانت عربتها على شكل سفينة تجر على عجلات ، وتجر حتى مصب نهر الشلده (الاسكو Escaut) . ولاتزال الاحتفالات بالكرنفال تتم في إيطاليا بانتظام وحماسة . أما في ألمانيا فأهم بلد تحتفل به هي كيلن Koln (كولونيا) .

٢٤ مفستوفيلس يسخر من حاشية القصر الذين لا يفهمون أن السعادة تتوقف على ما يؤديه الإنسان من أعمال جليلة ، لا على المداهنة والنفاق اللذين أوصلاهم الى مناصبهم الزائفة!

٢٥ أي بالسجود عند قدمي البابا .

٢٦ هؤلاء البستانيات هن فتيات من فلورنسه (ايطاليا) وقد التحقن بحاشية الامبراطور في عودته من روما الى ألمانيا . وما يقدمن من أزهار صناعية هي على هيئة أغصان زيتون ، وسنابل قمح ، وتيجان وطاقات متخيلة . وتجيب عليهن براعم ورد طبيعي . وهن يكوّنّ الحلقة الأولى من الأقنعة ، ويرمزن الى خيرات الحياة الظاهرية .

٢٧ Ceres : إلاهة الخصب عند الرومان ، وتقابل ديميتر عند اليونان .

٢٨ تلميذ أرسطو (٣٧٢ ـ ٢٨٧ ق .م) : فيلسوف وعالم طبيعي عُني خصوصاً بعلم النبات وله فيه كتابات : «طباع النبات» و«أسباب العمليات النباتية» . وفي أولهما ذكر أنواع النبات ومواطنها ، وفي الثاني درس فسيولوجيا النبات .

٢٩ نوع من العود له يدان ، ونغماته أغلظ من نغمات العود العادي .

٣٠ الأجزال : أصول الحطب العظام المقطع ، واحدها : جزل .

٣١ صوت رنين الكؤوس

٣٢ Vampyre : شبح ميت يترك قبره أثناء الليل ليمتص دماء الأحياء . وللقصصي الألماني E. T. A. Hoffmann أقصوصة بعنوان : «الفمبيرية» . ومن شعراء الليل : نوفالس الذي نظم «أناشيد الليل» (راجعها في كتابنا : «الموت والعبقرية») ، ومن شعراء المقابر المشهورين توماس جريي Gray (١٧١٦ ـ ١٧٧١) صاحب المرثية المشهورة : «ايليجيا عن مقبرة» .

٣٣ Grazien : آلهات من مرتبة دنيا ، للطف وطيب المعشر . ويذكر منهن عادة ثلاث : يوفروسونه (البهجة) ، أجلايا (البرق) ، طاليا (المزهرة) ـ وهذه الأخيرة هي ربة فن الكوميديا أيضاً ، ولذلك استبدل بها جنية : هجمونه (القائدة) .

٣٤ أي تطيل حياة من لا فائدة في حياتهم ، وتقطع عمر من كانوا الأمل في أعمال عظيمة . أي أن المصير يخبط

خبط عشواء : فيطيل أعمار من لا فائدة فيهم ، ويقصف أعمار شباب مرجى للجليل من الأعمال .

٣٥ آلهات المصير : Parcae باللاتينية ، وMoirai باليونانية : هن : Klotho ، ولاخيسس Lachesis وأتروبوس Atropos : والأولى معناها : الغزّالة ، والثانية : موزعة النصيب ، والثالثة : التي لا يمكن صرفها عن عملها . ـ والنساج هو : الله ، أو الموت . وآلهات المصير يصورن دائماً على شكل غزّالات : كلوثو تغزل خيط الحياة ، ولاخيسس تمد هذا الخيط ، وأتروبوس تقطعه بالموت .

٣٦ Furiei : باللاتينية Furiae وهي ترجمة للكلمة اليونانية Erinnyes : في الأساطير اليونانية كن آلهات الانتقام ، وكانت مهمتهم تعذيب من ينتهكون قوانين المجتمع ، خصوصاً من يقتلون أحد أقربائهم ، على أساس العدالة المطلقة بغض النظر عن الظروف المخففة . وكن يسكنّ في العالم السفلي ، واسخولوس يصفهن بأنهن بنات الليل . وقد جعل يوريفيدس عددهن ثلاثاً هي : ألكتو ، وتيسيفون ، ومجائيره . ويصورن دائماً في أشكال قبيحة جداً .

٣٧ Asmodi (وفي اليونانية : اسمودايوس) : شيطان في خدمة مجائيره ، مهمته إفساد ما بين الزوجين ، وقد ورد في سفر « طوبيا » (من العهد القديم في الكتاب المقدس ٣ :٨) أنه قتل سبعة رجال في ليلة زفافهم . ويبدو هنا بوصفه المُغري بالخيانة الزوجية .

٣٨ لتأويل هذه الرموز والأسرار .

٣٩ هي إلاهة النصر التي ستصفها « الحصافة » بعد قليل .

٤٠ هما الخوف والرجاء (الأمل) : الأولى تخشى مخاطر الحياة فتشل عن العمل ، والثانية لأنها جعلت نفسها فوق كل هم هي أيضاً لا تعمل . ولهذا فهما مقيدتان بالسلاسل ، أي لا تعملان . وقد استلم جيته في هذا لوحة رسمها Mantegna عنوانها : « موكب نصر يوليوس قيصر » .

٤١ Zoilos : سوفسطائي يوناني ، وخطيب ، وفيلسوف كلبي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد . وقد اشتهر بنقده الجارح لمعاصريه : أفلاطون وايسقراطيس ، وخصوصاً نقده لهوميروس إذ كشف عما في شعر هوميروس من تناقضات وأغلاط وسخافات . وتناول نقده أخطاء هوميروس اللغوية والمعنوية معاً ، مفسراً كلامه أحياناً بطريقة حرفية من شأنها أن تثير السخرية منه ، وأحياناً يتعمد إساءة فهمه طمعاً في التهكم عليه . وللتعبير عن ذلك استخدم عبارات لاذعة ، وأحياناً على شكل حكم قصار . غير أن معظم كتاباته فقدت ، ولم يبق لنا إلا شذرات .

أما ثرسيتس Thersites : فهو شخص مشوه جلف مدع كان بين اليونان عند طروادة (« الإلياذة » النشيد الثاني ، الأبيات ١٢١ الخ) . ولما شتم اجاممنون ، قام أودوسيوس بضربه بشدة عقاباً له .

وقد جمع جيته بين كليهما في شخص واحد ، يمثل خصوصاً مفستوفيلس .

٤٢ إشارة الى أن زويلوس كان على مذهب « الكلبيين » (راجع عن هذا المذهب كتابنا « ربيع الفكر اليوناني ») .

٤٣ يقول جيته في حديثه مع أكرمن بتاريخ ١٨٢٩/١٢/٢٠ : « أما أنه تحت قناع بلوتوس يختفي فاوست ، وتحت قناع البخل يختبئ مفستوفيلس ، فهذا أمر تستطيع أن تدركه بسهولة . أما من هو صبي العربة ؟ إنه يوفوريون... إن يوفوريون ليس كائناً إنسانياً ، بل كائن رمزي ، فيه تشخص الشعر غير المرتبط بزمان ولا مكان ولا بشخص ونفس الروح الذي سيلذ له فيما بعد أن يكون يوفوريون ، يبدو الآن في شكل صبي العربة ، وهو في هذا الدور شبيه بالأشباح الحاضرة في كل مكان والتي يمكن أن تظهر في أية لحظة » .

ويوفوريون Euphorion هو ابن آخيل من هيلانة . وهو في القسم الثاني من مسرحية فاوست هذه ابن فاوست

من هيلانة .

وبلوتوس Plutus : هو في الأساطير اليونانية إله الثراء والوفرة .

٤٤ Pan : إله قطعان الضأن والماشية ، وغالباً ما يدعى ابن هرمس ، وكان في البداية إلهاً في أركاديا . وهو يجوب الجبال والأودية في أركاديا إما للصيد أو قائداً لرقصة حوريات بمصاحبة شبابة (شبابة بان) هو الذي اخترعها . وكانت هيئته تثير الرعب في المسافرين .

٤٥ Fauni : يناظرون Saturoi عند اليونان : مخلوقات تعيش في الغابات والجبال الواحد منهم نصفه إنسان ونصفه دابة ، ويتصف بالشهوانية والرخاوة ، ويمثلون القوى الحية في الطبيعة . وفي العادة كان للواحد منهم جسم إنسان ، مع آذان وقرون وحوافر وأذناب ماعز . وFaunus في الأساطير اللاتينية كان يعبد بوصفه حامي حامي المزارعين والرعاة ، وأيضاً بوصفه إله الوحي . وإذن فالفون عند الرومان يناظر الساتور عند اليونان .

٤٦ Gnomen : أرواح أرضية وجبلية ، تحرس الكنوز وتحفرها . وهي تمثل هنا الجشع الشديد الى الثراء والسلطة دون وازع من القانون . والمفرد Gnom .

٤٧ لأنهم ، شأن الجراحين ، يجعلون المعادن تسيل من عروق الصخر .

٤٨ وهي : لا تسرق ، لا تزن ، لا تقتل . ـ والاغتيال العام : الحرب ، إذ الحديد يستخدم في صنع المدافع وغيرها من أدوات القتل بالجملة .

٤٩ الزينات التي زينت بها قاعة القصر .

٥٠ هذا الوصف ينطبق تماماً على أوصاف حريق حدث في سنة ١٣٩٤ أثناء احتفال بالأقنعة أقامه شارل السادس ملك فرنسا واحترق هو فيه ، وحريق آخر جرى في قصر اشفارتسنبيرج في باريس في أول يوليو سنة ١٨١٠ بمناسبة حفلة رقص ، وفي أثنائه صاح أحدهم : «يا إلهي! الامبراطور لم ينقذ!» .

٥١ أي السحب الحبلى بالأمطار .

٥٢ سيستخدم فاوست السحر لإخماد الحريق الذي أحدثه بالسحر ، ولدفع أذى الأرواح الشريرة مثل : الجشع الى الذهب ، وشهوة الاستمتاع ، وانعدام الأخلاق ، والاستكبار ، والتملق ، والأنانية .

٥٣ Pluto : إله العالم السفلي .

٥٤ Nereiden : هن بنات نيريوس Nereus ، ابن بنطش وجيه ، وزوج دوريس التي أنجبت له هؤلاء الحوريات ، ويوصف بأنه حكيم البحر ، وكان يعيش في أعماق البحر الأبيض المتوسط وخصوصاً في بحر إيجه ـ وثيتس : إلاهة للبحر ، وبنت فيريوس من دوريس ، وهي أم أخيلوس . وطلب الزواج منها فوسيدون وزيوس ، فرفضت . لكنها تزوجت بيليوس Peleus رغم إرادتها ، ومنه أنجبت أخيلوس .

٥٥ كان الرومان يعتقدون أن عرش الأولمب يمنح للقياصرة المتوفين .

٥٦ أي : فاوست ومفستوفيلس اللذين اخترعا أوراقاً نقدية وضعت حداً للأزمة المالية .

٥٧ يقصد أوراق النقد التي طارت في كل مكان وانتقلت من شخص الى آخر ، بحيث صار من المستحيل استردادها .

٥٨ كان تغيير اوراق النقد الى نقود ذهبية وفضية يتم بخصم جزء من المبلغ مقابل عملية الصرف . والكورون سكّته النمسا أولا حوالي سنة ١٧٥٥ ، ومنذ سنة ١٨٠٩ صار يُسك في ولايات جنوبي ألمانيا ، وكانت قيمته ٤,٥ مارك تقريبا .

٥٩ من أجل لعب القمار .

٦٠ Bannerherr : سيد اقطاع يستطيع أن يرفع علما خاصا به في الحرب يضم تحته اتباعه .

٦١ اي لم تحفل به .

٦٢ هن «الامهات» أي «الصور الأولية» العارية عن المكان والزمان ، خصوصا صورة الخير ، وصورة الحق ، وصورة الجميل .

٦٣ يقول جيته في حديثه الى اكرمن بتاريخ ١٠ يناير سنة ١٨٣٠ : «لا استطيع أن أقول لك أكثر من أنني قرأت عند فلوطرخس انه عند اليونان القدماء كانت الأمهات بمثابة آلهات . وهذا هو كل ما أدين به للمنقول ، والباقي هو من اختراعي أنا» .

والموضع الذي ذكر فيه فلوطرخس «الامهات» بوصفهن آلهات هو :

«انجيوم مدينة ليست كبيرة ، ولكنها قديمة جدا في صقلية ، مشهورة بظهور الآلهات اللواتي يدعين «الأمهات»» . (حياة مركلوس : ٢٠)

٦٤ Mystagogen : هم الذين كانوا يتولون تعليم أسرار الوسيس في الديانة اليونانية القديمة .

٦٥ بينما كان الموستاجوج يكشف الاسرار للمريدين ، فان فاوست ـ تلميذ الشياطن هنا ـ هو الذي سيكشف الأسرار لهذا الأخير .

٦٦ في برود عدم الأكتراث .

٦٧ في ملكوت الأمهات الخالي من المكان يستوي النزول والهبوط .

٦٨ أي ملكوت الافكار والصور الخاصة بالأشياء الماضية التي تخلصت من العالم الدنيوي .

٦٩ الدخول في ملكوت الأمهات (= الصور والأفكار) ينبغي عليه الا يتوقف عند التأمل التاريخي للأفكار الماضية ، بل عليه أن يؤدي الى الادراك الحي للأفكار الأولية الاصلية التي لا تتغير أبدا .

٧٠ فيه اشارة الى المقعد ذي الثلاث قوائم الذي كانت تجلس عليه العرافة فوثيا في معبد دلف وتعلن نبوءاتها .

٧١ يقصد هيلانة . بوصفها النموذج الاعلى للجمال .

٧٢ سخرية من العلاج بالاشباه Homoopathie الذي اقامه ودعا اليه الطبيب هانمان Hahnemann في سنة ١٨١٠ ، ويقوم على أساس هذا المبدأ : «الشبيه ينبغي أن يعالج بالشبيه» .

٧٣ مارد في أساطير الآلهة عند اليونان كان يحمل السماء على رأسه وذراعيه . وتقول الأسطورة انه كان ملكا خرافيا على موريتانيا (المغرب) ، فلما رفض استضافة برسيوس حوّله هذا الى جبل الاطلس في المغرب ، وحكم عليه بحمل السماء على رأسه ويديه .

٧٤ هي الأفكار التي ظهرت أو ستظهر في عالم الظواهر ، والأفكار التي تبقى «في قبة الليالي» ، أي في العالم السفلي ، عالم انعدام الجسم .

٧٥ هو ابن فريام ، ملك طروادة ، وقد جاء الى قصر منلاوس ملك اسبرطة ، فأغوى زوجته هيلانة واختطفها ، وكان ذلك سببا لقيام حرب طروادة التي هي موضوع «الياذة» هوميروس . وكانت هيلانة أجمل امرأة في العالم . وحارب باريس ضد منلاوس أمام أسوار طروادة ، لكنه انهزم ، فحملته الالهة أفروديت . ويقال انه هو الذي قتل أخيلوس أما بخديعة أو بسهم . وعند الاستيلاء على طروادة جرحه فليوكتيتس بسهم من سهام هرقل ، وعاد باريس الى زوجته أونونه ، فرفضت علاج جرحه ، فمات متأثرا بهذا الجرح . فندمت أونونه على ذلك وكفرت عن ذنبها هذا بأن انتحرت .

٧٦ قبل مولد باريس حلمت أمه هوبا انها ستلد شعلة نار وسينتشر لهيبها على كل المدينة . ولهذا فانها لما

وضعت جنينها ، عرضته على جبل ايدا . فقام أحد الرعاة على تربيته ، وسماه باريس .

٧٧ Ambrosia : طعام الآلهة وهو يهب الخلود والشباب الدائم ، والمقصود هنا هو قوة الحياة الفتية .

٧٨ المقارنة هنا وفيما يتلو هي بين هيلانة وباريس .

٧٩ اندوميوس : في الأساطير اليونانية كان راعيا شابا جميلا ، ولما نام نومة أبدية في كهف على جبل لتمس (في كاريا بآسيا الصغرى) كانت سيلانة (= القمر في اليونانية ، ولونا Luna في اللاتينية) تزوره في كل ليلة وتقبله . واختلف في تفسير نومه الأبدي هذا ، وأرجح تفسير هو أن الهة القمر ، سيلانة ، فرضت عليه النوم لكي تستأثر به وحدها . وصار موضوعهما حبيبا الى قلوب المصورين ، ولهذا كثرت اللوحات التي رسمتهما . ـ والسيدة المذكورة تشبه هيلانة بلونا العفيفة من باب التهكم فقط .

٨٠ تروي الأسطورة أن ثيسيوس Theseus خطف هيلانة وهي في سن العاشرة من اسبرطة وخبأها في افيدناي Aphidnae من هنا انقذها كاستور وبولوكس ، أخويها .

٨١ في «الياذة» هوميروس ، النشيد الثالث ، البيت رقم ١٥٦ وما يليه .

٨٢ هذا هو عنوان مسرحية ، مفقودة ، من تأليف سوفكليس .

٨٣ العالم المثالي والعالم الواقعي .

٨٤ الضمير يعود الى هيلانة .

٨٥ لأنه هو الذي أتى بها من ملكوت الامهات ، وها هو ذا الآن يحميها من أن تُخطف .

٨٦ من يتعرف هيلانة بوصفها النموذج الاعلى الاول للجمال .

٨٧ أي اصابته بالاغماء .

٨٨ جاءت تحيي الشيطان بوصفه سيد كل الحشرات والهواء ورئيس المؤذين الأشرار .

٨٩ ترهوك الرجل : كان كأنه يموج في مشية . يقال : مر فلان يترهوك .

٩٠ نيقوديموس : اسم كاتب يهودي ، كان تلميذا للمسيح ، وكان بطيء الفهم ـ راجع حديثه مع يسوع المسيح (في انجيل يوحنا ٣ :١-٢١) وقول المسيح له : «أنت معلم اسرائيل ولا تفهم هذا ؟!»

٩١ يبدو أن التلميذ ظن مفستوفيلس رجلا كبيرا من رجال الدين .

٩٢ أصبح الشعر القصير ، بدلاً من الشعر الطويل المستعار ، هو البدع آنذاك عند الشباب في أوروبا .

٩٣ كناية عن الشباب ، لان مناقير صغار الطير تكون صفراء .

٩٤ أي : وبعد سنوات حين يدرك هؤلاء الشباب الأغرار بعد التجارب المريرة صدق الحقائق التي قالها لهم أساتذتهم ، يخادعون أنفسهم بأن هذا الادراك انما جاء من عند أنفسهم ، ولا يقولون كلمة طيبة في حق اساتذتهم الذين علموهم هذه الحقائق من قبل!

٩٥ أي : سنوات .

٩٦ هذا تعبير عن مثالية فشته ، وتوكيده أن كل شيء مع صنع العقل ، وما العالم الخارجي الا امتثال للعقل . راجع كتابنا : «المثالية الألمانية» ، القاهرة ط١ سنة ١٩٦٥ .

٩٧ تصغير : انسان Mannlein .

٩٨ احتقار لاشباح وعفاريت اليونان .

٩٩ الشمال الغربي : جبال الهارتس . ـ الجنوب الشرقي : ناحية بلاد اليونان .

١٠٠ النهر الرئيسي في اقليم تساليا ، أكبر أقسام بلاد اليونان .

١٠١ Pharsalus : مدينة في اقليم تساليا ، لكن من الأخطاء الشائعة منذ القدم ان اسمها هو الذي أطلق على المعركة التي انتصر فيها يوليوس قيصر على بمبايوس في ٩/٨/٤٨ ق .م . اذ الراجح الآن أن المعركة بين قيصر وبمبايس انما وقعت على الشاطئ الشمالي من نهر انبيوس Enipeus بالقرب من فرسالوس القديمة ، وهذه تقع على بعد سبعة أميال شمال غربي فرسالوس ، التي تقع على الشاطئ الجنوبي من النهر .

١٠٢ المعطف السحري .

١٠٣ أي : صفة الشيء ، كيف : حال الشيء .

١٠٤ Erichto : ساحرة من تساليا ، تنبأت بنتيجة المعركة المشهورة باسم معركة فرسالوس بين يوليوس قيصر وبمبايس ٩/٨/٤٨ ق .م .

١٠٥ المقصود خصوصا هو الشاعر اللاتيني اناوس لوكانوس Annaeus Lucanus (٣٩-٦٥ بعد الميلاد) ، ولد في قرطبة في اسبانيا ، وعمه هو الفيلسوف سنكا Seneca وجاء الى روما وصار في حاشية الامبراطور نيرون الذي حسده على موهبته في الشعر ، اشترك في مؤامرة بيسو ضد نيرون ، ولما اكتشف دوره فيها أُرغم على الانتحار . وهو شاعر ملحمي ، له ملحمة عنوانها : «في الحرب الأهلية» ، وفيها صوّر معركة فرسالوس وصفا شائنا .

١٠٦ ميزان القدر أو المصير الذي يحدد نتيجة المعركة .

١٠٧ يوليوس قيصر الذي انتصر على بمبايس .

١٠٨ الشخوص العديدة في الأساطير اليونانية ، وستظهر فيما يلي .

١٠٩ لما طلع القمر اختفى السراب الذي يوهمه كلا المعسكرين . ونيران السهر والحراسة صارت تبدو في ضوء القمر زرقاء .

١١٠ هو هنا قارورة الانسان الصناعي هي تلمع متحركة سائرة في الليل .

١١١ هي فاوست وقد لف في معطف مفستوفيلس .

١١٢ يعني : فاوست .

١١٣ Antaus : هو ابن الأرض الذي تصارع مع هرقل ، وكان اذا مس الأرض وهو في حلبة المصارعة يتلقى قوة جديدة . وهنا فاوست لما وطئ أرض يونان تولدت فيه قوة جديدة .

١١٤ Sphinxe (ومعناه الحرفي في اليونانية : من يخنق أو يشنق) : وحش أنثى ، يقال انها بنت أورثوس وكيميرا . وكان اليونانيون يتصورون انها ذات جسم أسد وذات جناحين ، ولها هيئة امرأة من الصدر فصاعدا .

١١٥ Greife : الجروفي حيوان خرافي له جسم أسد ورأس وأجنحة نسر .

١١٦ قطب الشيء قطبا : قطعة . قطر الماء : أساله قطرة قطرة ، أي قطع ماء . ـ قطط : قط . ـ قط : القطعة من الشيء .

١١٧ التلاعب اللفظي هو بين Greisen (= شيوخ) و Greifen (= جروفات) ، وهما يشتركان في هذا الموضوع من علماء اللغات الذين يزعمون أن الألفاظ التي تبدأ بنفس الاصوات يوجد بينها ارتباط من حيث الاشتقاق ، كما بينا في الكلمات العربية التي سقناها منذ قليل : قطع ، قطف ، قط ، الخ . واللفظ Greifen = يمسك بـ ، يتعلق بـ . والحروف الخمسة الأولى من Greif (= جروف) هي الحروف الخمسة الأولى من Greifen . وهنا يتلاعب بهذا التشابه . قد حاولنا محاكاة هذا التلاعب في العربية .

١١٨ شعب خرافي زُعم أنه يعيش في أقصى شمال أوربا ، وللفرد منه عين واحدة ، ويقال انهم سرقوا الذهب من النمل وتصارعوا مع الجروفات ـ وهم يحرسون كنوزا هائلة من الذهب ـ حول هذه الكنوز .

١١٩ مثل : رب الذباب ، المفسد ، الكذاب ، الروح التي تنكر دائما ، رب الفئران والجرذان ، الخ .

١٢٠ Old Iniquity ـ والاشارة هنا الى مسرحيتين لشيكسبير هما : «كما تشاء» ، و«رتشارد الثالث» . لكن هذا الاسم لا يطلق فيهما على الشيطان ، بل على «الرذيلة» التي تظهر معه في وقت واحد .

١٢١ الالغاز Ratsel معنوية ، بينما الفوازير Sharaden لفظية . من الغاز اسفنكس تيبا (بلد في اليونان) اللغز المشهور : «من هو في الصباح يمشي على أربع أقدام ، وفي الظهيرة على قدمين ، وفي المساء على ثلاث أقدام ؟» وحله : الانسان : فهو في ابتداء طفولته يحبو على أربع : قدمين ويدين ، وفي الشباب والرجولة يمشي على قدمين ، وفي الشيخوخة يمشي على قدمين وعكاز ، أي ثلاث .

١٢٢ حل هذا اللغز هو : الشيطان . ـ فالتقي يتعوذ من الشيطان ، والشرير صاحبه الشيطان . ـ وزيوس هو اله الآلهة ورب الارباب .

١٢٣ لان القسم السفلي من الاسفنكس هو جسم سبع .

١٢٤ Sirenen : حوريات كن يتغنين بأغان ساحرة تغري بالبحارة الى الوقوع في الهلاك . ولهذا فان أدوسيوس ملأ آذان بحارته بالشمع ، وربط نفسه بساري السفينة ، وبهذه الوسيلة استطاع أن يمر بسلام («الاوديسا» ، النشيد ١٢) .

١٢٥ Oedipus : ابن لايوس ، وأمه يوكاستا ، ولما ولد ألقي في العراء على جبل قيثايرون ، لان الوحي تنبأ للايوس بأنه سيقتله ابنه . فعثر عليه راع في خدمة بولوبوس ملك كورنثوس ، فقام هذا الأخير برعايته كأنه ولده . كان لاسفنكس قد ظهر في نواحي ثيبا وحبس على صخرة ووضع لغزا لكل من يمر . فمن لم يستطع حل اللغز ذبحه . لكن أوديب استطاع حل اللغز .

١٢٦ يزعم جيته أن هرقل قتل آخر اسفنكس ، ولم يرد ذلك فيما نقل من أساطير .

١٢٧ هو أحكم القنطورات ، واشتهر بالمهارة في الصيد والطب والموسيقى والالعاب والنبوءة وكان هرقل صديقا له ، لكنه أصابه بسهم مسموم وهو يحارب سائر القنطورات .

١٢٨ Stymphaliden : طيور بحيرة استومفالس في أركاديا ، وكانت أجنحتها ومخالبها ومناقيرها من الحديد ، وريشها مثل السهام . وكان القضاء عليها من بين الاعمال الاثني عشر العظيمة التي أنجزها هرقل .

١٢٩ الافعى اللرنائية : كانت تعيش في مستنقع بنواحي لرنا Lerna في اقليم بوئيا (اليونان) وكانت مصدر ضرر عظيم في تلك الناحية ، وكان لها تسعة رؤوس . وكلما قضى هرقل على أحد هذه الرووس التسعة نبت مكانه رأسان جديدان ، الى أن قام رفيقه يولاوس فأحرق رقبة الحية بحطبة مشتعلة .

١٣٠ Laien : أشباح نسائية كانت تختلب الاطفال والفتيات الجميلات ثم تأكلهم أو تمتص دماءهم .

١٣١ هو النهر الرئيسي في اقليم تساليا (في اليونان) وطوله ٢٢٧كم . وينبع من جبل بندوس ويصب في جون سالونيك .

١٣٢ رذت السماء : أمطرت الرذاذ .

١٣٣ اسم صفة ما هو ندي ، بليل Frische .

١٣٤ زيوس ، رب الأرباب ، وقد تحول الى بجعة .

١٣٥ هو خيرون ، أعقل القنطورات . فأمه تدعى Phlyra وأبوه يدعى خرونوس .

١٣٦ بلاس اثيناي Athenai : من أعظم آلهات اليونان . وهي بنت زيوس وميتس Metis (— الموعظة الحسنة) ، وهي تجسيد الحكمة ، والاهة عذراء ازدرت الحب والزواج . وكانت أيضا الهة الحرب .

١٣٧ Dioscuri (= ولدا زيوس) : في الأساطير اليونانية والرومانية هما كاستور وفولودويكس (في اللاتينية بولكس Pollux) ، وهما أخوان توأمان ، أمهما ليدا ، وأخوان لهيلانة وقلوطمنسترا . وقد اشتركا في حملة الارجنوت ، وفي ابانها أسسا مدينة ديوسفورياس في كولخيس ، وهما اللذان أنقذا هيلانة من افدناي وكانا يعبدان في اسبرطة ، ومن ثم امتدت عبادتهما الى سائر البلاد الدورية . وقد منحهما فوسيدون Poseidun ، آله البحر ، القدرة على الرياح والأمواج ، لهذا كانا يعبدان خصوصا عند البحارة .

١٣٨ زيتس Zetes وكلايس Kalais ، الابنان المجنحان لاله الريح عند اليونان وهو بورياس ، وهما اللذان حررا ملك تراقيا الاعمى واسمه فينوس Phineus من المسوخ المجنحة : الهرفيين Harpien ، وكانوا يفسدون عليه طعامه .

١٣٩ Lyneaus : الملاح الممسك للدفة في سفينة الارجنوت وكان بصره ينفذ في الاعماق والاعالي .

١٤٠ Phobus لقب أبولو ، ومعناه : ذو الاشعاع ، على أساس أن أبولو هو اله الشمس . ـ وآرس Ares هو اله الحرب عند اليونان ، ويناظره «مارس» (المريخ) عند الرومان . ـ وهرمس Hermes هو ابن زيوس ومايا ، وهو اله التجارة والمواصلات ، ورسول الآلهة ، ويناظره مركوز Mercurus عند الرومان .

١٤١ الاصح أن يقال : لابن عمه يورستيوس Eurysteus .

١٤٢ Hebe الاهة الشباب عند اليونان ، وهي بنت زيوس وهيرا وكانت ساقية للالهة قبل اختطاف جانيميدس . ولما صار هرقل إلهاً تزوجها . وكانت تسمى عند الرومان باسم Juventas .

١٤٣ أي أن الشعر والنحت عجزا عن تصوير عظمة هرقل وأعماله المجيدة .

١٤٤ هنا يميز جيته بين الجمال Schonheit وبين اللطافة Anmut (بالفرنسية Grace) ، وهو تمييز وتقابل شغل الادباء وفلاسفة الجمال في المانيا في ذلك العصر . ومناط التمييز هو أن الجمال يتسم بالسكون ، بينما اللطافة تتميز بالحركة والديناميكية . ومن هنا يدخل في اللطافة معاني : الرشاقة ، والحيوية .

١٤٥ مدينة على ساحل اتيكا في مواجهة جزيرة سلاميس .

١٤٦ الاسطورة تقول ان شبح اخيلوس تزوج بشبح هيلانة على جزيرة لويكا ، وليس في مدينة فراي Pherai . وفراي مدينة مهمة في شرقي تساليا ، ولا يزال جزء من سورها باقيا ويقصد بقوله : «خارج كل زمان» ـ أي بعد مدة العمر ، لان ذلك الزواج وقع لهما بعد وفاتهما .

١٤٧ مانتو Manto عرّافة كانت تتنبأ بالغيب ، وهي بنت العرّاف تيرسياس ، وكانت كاهنة في معبد ابولو . ولما كانت تسدي نصائح للشفاء ، فقد جعلها جيته هنا ابنة لاسقلابيوس اله الطب .

١٤٨ هو العلم الذي عند مانتو العرافة .

١٤٩ في معركة بودنا Pydna في سنة ١٦٨ قبل الميلاد ، وقد انتهت بانتصار رجل المدينة والقنصل الروماني لوثيوس إيميليوس باولوس Lucius Aemilius Paulus على برسيوس Perseus ملك مقدونيا ، فصارت مقدونيا ولاية رومانية بعد أن كانت في عهد الاسكندر الاكبر امبراطورية عالمية .

١٥٠ هو معبد ابولو على جبل الاولمب ، ويدعى فوثيوم Pythium وكان هو الموطن الأصلي لكل تنبؤ بالغيب وكهانة عند اليونان .

١٥١ Persephone الاهة العالم السفلي ، ولا يحق لها أن ترى ضوء النهار . ـ القدم الجوفاء : كهف تحت جبل

الاولمب .

١٥٢ أي : تتسمع سرا هل يأتيها أحد الفنانين بتحية من العالم العلوي .

١٥٣ ان مانتو اقتادت اورفيوس ـ تهريبا ـ الى العالم السفلي : هذا من اختراع جيته ، ولا وجود له في الاساطير .

١٥٤ هم أنصار الفولكانية ، وهو المذهب الذي يقول ان تشكيل سطح الأرض قد تم بواسطة أحداث نارية جرت في جوف الأرض . ـ لا نجاة بغير ماء : هذا مذهب النبتونيين Neptunismus القائلين ان تكوّن سطح الأرض تم بفعل الماء .

١٥٥ بدلا من السباق هنا في المجرى الضيق لنهر بنايوس ، وهو مجرى يقوم على أساس بركان وهو بالتالي معرض للطفح البركاني .

١٥٦ أي يجري في اتجاه مضاد لاتجاهه الاصلي ، وذلك بسبب الزلزال .

١٥٧ جيته يذهب هنا الى أن فوسيدون ، اله البحر ، ومزلزل الأرض ، قد أخرج جزيرة ديلوس من أعماق البحر ، حتى تستطيع لاتونا ، حبيبة زيوس ، وكانت في المخاض ، ان تضع حملها ، وكانت هيرا ، زوجة زيوس ، قد طاردتها على البر من مكان الى مكان . وقد ولدت هناك ، في جزيرة ديلوس ، أبولو وديانا .

١٥٨ حامل قبة السماء .

١٥٩ Karyatide تمثال له وجه امرأة ، تلبس ثوبا طويلا ، وكان الفن اليوناني يستخدم الكرياتيدات ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد كحامل في الأبنية . وقد جاء الاسم من اسم فتاة من قرية « كريا » في نواحي اسبرطه ، كانت تتولى الرقص الديني في عبادة الالاهه ارتميس وتزين رأسها بما يشبه السلة . ـ وتشبيه الزلزال بالكرياتيد الهائلة جاء من كون الزلزال يرفع سطح الأرض الى أعلى متقوسا .

١٦٠ جيته يسخر هنا من مذهب الفولكانيين ، هو يضع مذهبهم على لسان الزلزال .

١٦١ هم أبناء أورانوس وجايا ، وكانوا في صراعهم يتقاذفون بالجبال بليون وأوسا : جبلان في تساليا .

١٦٢ سلسلة جبال في وسط بلاد اليونان ، لها قمتان احداهما مقدسة لأبولو وأرتميس وربات الفن التسع ، والأخرى مقدسة لديونوسوس .

١٦٣ النبات والحيوان وبنو الانسان الذين يسكنون الجبل .

١٦٤ اكتشفت الجروفات في الجبل الذي انبثق عروق ذهب ، وهي حارسات كنوز الذهب .

١٦٥ أي القوى الهائلة التي ينطوي عليها الزلزال .

١٦٦ في الأساطير اليونانية نجد الأقزام في صراع مع مالك الحزين (البلشون) . وهم هنا يمثلون مذهب الفولكانيين ، ويهاجمون البلشونات الذين هم أنصار النبتونية .

١٦٧ Daktyle قفاز الاصبع . والكشتبان هو ما يضعه الخياط في اصبعه ليحميه من وخز الابرة وغير ذلك .

١٦٨ Ibycus شاعر غنائي يوناني عاش في القرن السادس قبل الميلاد ، وأقام في بلاط فولوكراتس في شامس .وهناك قصة تروى في شأنه ، وهي أنه حين كان مسافرا خلال غابة بالقرب من كورنثوس قتله بعض اللصوص ، لكن قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة شاهد سربا من الكراكي فالتمس منها أن تشهد على اغتياله ، وبعد ذلك بمدة ، كان أحد القتلة حاضرا الألعاب (قرب كورنثوس) ، فظهرت في السماء كراكي . وبدون وعي صاح هذا القاتل : (انظروا! هؤلاء هم شهود أبيقوس) فكشف بهذا عن نفسه ، وأقر بالقتل ودل على زملائه ، فنالوا القصاص العادل .وقد استلهم هذه الحادثة الشاعر شلر في قصيدة بديعة عنوانها : (كراكي أبيقوس) . ويبدو أن جيته تأثر هنا بقصيدة صديقه شلر .

١٦٩ Ilsensteim و Heinrichshohe همـا صـخـرتان على جـبل البـروكن ، و Schnarcha صخـور عند شـيـركـه Schierke ، والند Elend قرية جنوبي شيركه .

١٧٠ Empusa شبح أسطوري مخيف ، له طلعة كريهة متغيرة . له قدم حمار وقدم انسان ، وهو من جماعة الاهة السحر هيكاته Hekate . أما القول بأن رأسه رأس حمار وأن من صفاته أن يزيل كل جمال ـ فهذا من اختراع جيته .

١٧١ عصا باخوس : عصا لف حولها ورق عنب وفي أعلاها مخروط صنوبر ، وكان يحملها الباخوسيات في عيد باخوس ، اله الخمر .

١٧٢ Bovist فطر مغطى بتراب ويتشقق فينشر ترابه . وبه يُشبّه هذه السمينة .

١٧٣ Oreas حورية في الجبل تسكن على صخر قديم جدا .

١٧٤ Pindus سلسلة جبال تفصل بين تساليا وأبيروس (في شمال اليونان) .

١٧٥ لما انتصر يوليوس قيصر في فرسالوس (سنة ٤٨ ق .م) فرّ بمبايس فوق جبال البندس متوجها الى البحر .

١٧٦ الجبل الذي تكون كالشبح نتيجة للزلزال .

١٧٧ غازات هوائية قابلة للانفجار . وايولوس Aclus كان اله الريح عند اليونان .

١٧٨ Myrmidonen جماعة من النمل تمتاز بالاجتهاد وبحسب الأساطير فان مورميدونات ايجينا قد حولها زيوس من نمل الى بني الانسان ، لما أن انتشر طاعون في الجزيرة وأهلك أهلها .

١٧٩ نزل نيزك من القمر على الأرض ضرب الكراكي والأقزام الذين كانوا يتصارعون فوق الجبل الجديد .

١٨٠ هنا يسخر جيته من مذهب البلوتونيين الذين زعموا أن شكل الأرض تحدد بواسطة نيازك نزلت من السماء .

١٨١ أي تخيل ، وليس شيئا وقع فعلا ، أي تكون القوى البركانية هي التي كونت الجبل .

١٨٢ والا لقضى عليك أحد النيازك .

١٨٣ Dryas (من الكلمة اليونانية drys = سنديان) : تشخيص للروح الشريرة بوصفها قوة طبيعية .

١٨٤ Phorkyaden هن ثلاث بنات لشيخ البحر فوركيس ، وهن يعشـن في ظلام دائم بالقرب من الجورجونات ، وللثلاث عين واحدة . وهن قبيحات الشكل جدا . وكان الفن اليوناني الأقدم يصورهن عمياوات .

١٨٥ Alraune (بالفرنسية Mandragore) : نبات عشبي معمر سام .

١٨٦ Ops و Phea : كانت Ops الاهة رومانيا قديمة لمباركة المحصولات وفيما بعد عدت هي الالهة اليونانية Rhea زوجة خرونوس (سطورنس) .

١٨٧ مفستوفيلس مفتون بقبح الفوركيادات مثلما ان فاوست مفتون بجمال الحوريات .

١٨٨ هن الآلهات اليونانية : هيرا ، اثينا ، افروديت ـ على التوالي .

١٨٩ Chaos العمـاء السـابق على تكوين العـالم ، ويشبـه «توهو وبوهو» المـذكـور في بداية سفـر التكوين من التوراة . ويطبق أيضا على فضاء العالم في مقابل السماء والأرض . والاورفيون يضعون مرتبته تالية لخرونوس .

١٩٠ لقد هربن الى هنا من الزلزال ، وسيحيين عيد البحر بأغانيهن وبوصفهن أرواح البحر وهنا يخاطبن القمر .

١٩١ نيريدات Mcreiden هن بنات نيريوس Nereus في الاساطير اليونانية ، وهن حوريات بحر ايجه . تريتونات Tritonen : من آلهـة البـحار ، والنصف السـفلي من اتريتـون على شكل سـمكة ، وهم يرافقـون اله البـحـر فوسيدون في رحلاته ، ويحملون الحوريات وينفخون في قرن من المحار .

١٩٢ (في اليونانية Kabeiroi) : آلهة يونانية لها عبادة سرية ، وغالبا ما يطلق عليهم لقب : «الآلهة الكبار»

والمركز الرئيسي لعبادتهم كان في جزيرة ساموثراس . وفي العهد الهلينستي خصوصا كانت لهم معابد أمام مدينة ساموثراس وليس لدينا عنهم الا معلومات ضئيلة جدا . وسنرى بعد قليل أن النيريدات التريتونات سيهبن بهم بوصفهم حماة السفر في البحر ، حتى لا تفسد العواطف الاحتفالات الليلية .

١٩٣ Nereus هو ابن بنطس وجي ، وزوج دوريس التي منها انجب النيريدات . ويوصف بانه عجوز البحر الحكيم . وهو يعيش في أعماق البحر . وكانت مملكته هي البحر الأبيض المتوسط ، خصوصا بحر ايجه . وكانت لديه الموهبة للتكهن والتنبؤ بالغيب ، ولتغيير شكله .

١٩٤ تدمير طروادة .

١٩٥ الوقح : هو باريس Paris الذي خطف هيلانة .

١٩٦ Ilios : طروادة .

١٩٧ Pindus : الجزء الأوسط من سلسلة جبال شاهقة وعرة جدا تمتد في شمال وسط بلاد اليونان من الشمال الى الجنوب ، وأغلبها أعلى من ألفي متر .

١٩٨ ساحرة خرافية ، بنت هليوس وبرس . كانت تقيم في جزيرة ايايا التي نزل عليها أوليس فشرب أصحابه من شراب سحري قدمته اليهم كيركيه ، فتحولوا الى خنازير كلهم ، ما عدا يورلوخس الذي أتى الى أوليس بخبرهم . وكان أوليس قد أعطاه هرمس عشبا يدعى «مولو» كان يحصن متناوله ضد السحر ، شرب من الكأس فلم يصبه شيء ، ثم أرغم كيركيه على اعادة أصحابه الى أشكالهم الأصلية . وبعد ذلك بقي معها طوال عام كامل ، وأنجبت له طالاجونوس .

١٩٩ Kuklopes (= المستديرة الوجوه) : تحدث هوميروس عن هذه المخلوقات باعتبارها جنسا من الرعاة المردة الذين كانوا يقطنون في بلاد حددت فيما بعد بأنها صقلية . وصفوا فيما بعد بأن للواحد منهم عينا واحدة في وسط الجبهة . بحسب هيود كانوا أبناء اورانوس (السماء) وجي (الأرض) ، وكان عددهم ثلاثة وهم : أرجس ، واستروفس ، وبرنتس . وبعض المؤلفين المتأخرين يقولون ان أبولو قتلهم لأنهم زودوا زيوس بالصاعقة التي قتلت اسقلابيوس ، ويصورونهم بأنهم صناع عند هفايستوس .

٢٠٠ شاطئ جزيرة الفياكيين Phaaken .

٢٠١ Doriden : البنات اللواتي ولدن له من زوجته دوريس . وهن من اختراع جيته .

٢٠٢ الدلفينات التي تجر عربة نبتون (اله البحر) على الأمواج .

٢٠٣ زبد الأمواج ، رغم خفته ، يبدو كافيا لحمل هذه الأشكال الخفيفة .

٢٠٤ فينوس (افروديت) ، ربة الجمال ، صعدت على زبد البحر وعلى صَدَفة تجرها حيوانات بحرية أبحرت الى بافوس ، في جزيرة قبرس (قبرص) ، ومن ثم سميت : قوبريس .

٢٠٥ أي : بافوس ، وفيها معبد أفروديت (فينوس) ، وفيه تعبد أفروديت على شكل حجر مخروطي ، وقد دمر هذا المعبد مرارا بفعل الزلزال ، ومن ذلك في سنة ١٥ ق .م فأعاد بناءه أوغسطس . ولا يزال في بافوس حتى اليوم أطلال من هذا المعبد .

ـ وجلاطية ، أجمل بنات تيريوس ، هي الاهة الجمال في البحر ، كما أن أفروديت الاهة الجمال في البر . ولهذا عبدت في بافس مثلما عبدت أفروديت .

٢٠٦ Proteus : من شيوخ البحر ، وكان يقدر على أن يتحول الى أي شكل ، وعلى أن يتنبأ .

٢٠٧ النيريدات المبتهجات لأنهن أحضرن ثلاث كابيرات على درع خليونه .

٢٠٨ تماثيل الكابيرات منحوتة بأسلوب عتيق قاس .

٢٠٩ Chelone : حورية حولها زيوس أو هرمس الى سلحفاة هائلة . ولهذا فان اللفظ اللاتيني Chelonia يطلق على رتبة السلاحف . وترس خليونه هي المحارة الصلبة التي تحيط بجسم السلحفاة .

٢١٠ صور الكابيرات الصغيرة تكون بدورها مرتبة أعلى في تطور الفن ، اذ فيها يحاول المرء أن يصور الآلهة بصورة انسانية دون صفات حيوانية .

٢١١ اشارة الى الجدال الذي قام بين الفيلسوف شلنج الذي قال بأن عددهم أربعة ، وبين كرويتسر Kreuzer الذي قال بأن عددهم ثلاثة فقط . ويسخر جيته من هذا النزاع فيما بعد حين يقول انه ربما وجد كابيرات أخرى في الاولمب ، وان لم يكونوا بعد «متأهبين» ـ أي لم يجدوا بعد علماء أساطير يقرون بهم!

٢١٢ هذا رأي كريتسر الذي زعم أن الكابيرات آلهة النجوم .

٢١٣ كلما كان الشيء أصعب في تعرفه ، مثل قطعة النقود الصدئة ، فانه يكون أكبر أهمية في نظر العالم الباحث .

٢١٤ مؤلف من : الانسان الصناعي ، وطاليس ، وبرتيوس .

٢١٥ السكان الأصليون لجزيرة رودس ، وقد نشأوا من البحر . وهم الفنانون الأوائل الذين صنعوا مثلثة نبتون ، وتمثالا ضخما لهليوس ، اله الشمس ، وتمثال مارد رودس . وكان تمثال مارد رودس أحد عجائب الدنيا السبع .

٢١٦ شركة ذات ثلاثة أسنان ، وهي الرمز التقليدي لنبتون ، اله البحر .

٢١٧ = القمر .

٢١٨ = الشمس . ويلاحظ أننا غيّرنا في جنس القمر والشمس : فالقمر في العربية مذكر ، بينما في (اللاتينية والفرنسية ، والايطالية ، الاسبانية) هو مؤنث ، والعكس بالعكس بالنسبة الى الشمس .

٢١٩ Paian : نشيد ديني تتردد فيه كلمة Paian وكان في البدء نشيدا موجها الى آلهة الشفاء للحصول على الشفاء والصحة ، وهو لهذا مكرس خصوصا لاسقلابيوس اله الطب .

٢٢٠ Psyllen, Marsen : شعبان : أولهما : البسول ، شعب افريقي برع في التعزيم على الأفاعي ، والثاني شعب ايطالي متوسط ، اشتهر بمعرفته بالأعشاب الطبية وبتأليف الافاعي . لكن جيته يجعلهما يعيشان في قبرص .

٢٢١ رموز الشعوب التي سيطرت على قبرص : النسر : الرومان ، الأسد المجنح : مدينة البندقية ، الصليب : الانجليز ، الهلال : الاتراك .

٢٢٢ اشتعال الانسان الصناعي هو علامة على شوقه الشديد الى الاتحاد بأروع جمال للطبيعة في البحر .

٢٢٣ في اللحظة التي فيها تتحطم الزجاجة التي يوجد فيها الانسان الصناعي باصطدامها بمحارة جلاتيا ، فان محتواها يتدفق على سطح الماء ، ويتدفق معه الانسان الصناعي ولكن في شكل ناري . والاشارة هنا الى اقتران الانسان الصناعي وجلاتيا ، أي النار والماء ، بوساطة الحب الأصيل (اليروس) .

٢٢٤ تجري الأحداث أمام القصر كما في المسرحيات اليونانية القديمة .

٢٢٥ وفي اليونانية : منلاوس : ملك اسبرطة ، زوج هيلانة . وكان خطف هيلانة هو السبب المباشر لحرب طرادة . ولما تم الاستيلاء على طروادة ذهب منلاوس ، ومعه أوديسوس ، الى بيت ديفوبس واسترد هيلانة . وبدأ في الحال رحلة العودة الى اسبرطة ، لكن صادفته مصائب متوالية جعلته يقطع العودة في ثماني سنوات . وبعد الوصول الى اسبرطة ، عاش منلاوس وهيلانة في هدوء وسلام ، الى أن نقلهما زيوس الى الوسيوم .

٢٢٦ أما الاعجاب فلجمالها الفائق ، وأما الذم فلعدم اخلاصها .

٢٢٧ من سهول طروادة (افروجيه مقاطعة في آسيا الصغرى ، من بلادها طروادة) .

٢٢٨ على ظهر الأمواج .

٢٢٩ التي تهب من ناحية مصر ، وتسمى في اليونانية Earos . وبهذا كان البحر مواتيا .

٢٣٠ Eurotas : نهر في لافونيا (وعاصمتها اسبرطة) الواقعة في الجنوب الشرقي للبلوبونيز .

٢٣١ نسبة الى Stux : نهر في اقليم الفلوفونيز ينبع من جبال بالقرب من نكاريس في شمال أركاديا . وقد زعم أنه يصب في العالم السفلي . ولهذا فان الآلهة الاستوكسيين هم آلهة العالم السفلي . وحورية هذا النهر تسكن عند المدخل المؤدي الى العالم السفلي .

٢٣٢ Phorkys : في «الاوديسا» اله البحر ، هو والد ثوسا ، أم بوليفمس ، وعند هزيود أنه ابن بنطس وجايا ، وأخو نيريوس وكتيو . وقد ولد له عجائب مروعة مثل الجورجونات والجرايت وتنانين الهسبريدس .

٢٣٣ قهرمانة قصر منلاوس ، وهي تزعم أنها من كريت (قريطش) ، وأن منلاوس سباها أثناء رحلته الى كريت وجاء بها الى اسبرطة وجعلها قهرمانة قصره .

٢٣٤ Manaden : النساء السكراوات اللواتي كن يسرن في موكب اله الخمر ديونوسوس (باخوس) ، وهن في حماسة حمقاء هي مس من الجنون .

٢٣٥ فعل صنعناه على غرار : بطبط (حكاية صوت البط) ، هدهد (صوت الهدهد) ، قطقط (صوت القطا) ـ للتعبير عن صوت الاوز .

٢٣٦ أي : فرد من الجوقة .

٢٣٧ للو ابن خاس (العماء) وأخته الليل ، وهم هنا بمثابة أبوين للقهرمانة .

٢٣٨ في الأساطير اليونانية : كان ماردا وصيادا ، وأحب ميرون ولكنه أساء معاملتها فانتقم منه أبوها بمساعدة ديونوسوس ، بأن انتزع منه بصره . وبعد موته صار واحدا من النجوم .

٢٣٩ كائنات خرافية اتهمت بأنها اختطفت الاشخاص الذين اختفوا ولم يعثر لهم على أثر .

٢٤٠ Hermione : بنت منلاوس من هيلانة . وقد خطبت الى أورسطس قبل حرب طروادة ، لكن منلاوس بعد عودته زوجها الى نبوبطوليمس ، وبعد موت هذا الأخير تزوجت من أورسطس وأنجبت منه تيسامينوس .

٢٤١ سبيل أوسبول Sibylla : اسم بعض كاهنات أبولو ، وكن يتنبأن تحت إلهام مباشر . وأشهرهن سبول كوما التي قادت أنياس الى العالم السفلي (فرجيل : «الانيادة» النشيد٦) . ـ أما الباركات Parques فهن آلهات ثلاث : كلوثو ، لاخسيس ، وأتروبوس : وهن ينزلن أعمار بني الانسان ويقطعنها .

٢٤٢ Cimmerii (في اليونانية Kimmerioi) : شعب كان يسكن جنوبي روسيا . لكن عند هوميروس («الاوديسا» ١١ :١٤ وما يليه) انهم سكان الاوقيانوس الذي يسوده الظلام الدائم .

٢٤٣ ابن طلامون ، ملك سلاميس .

٢٤٤ أبطال مسرحية لاسخولوس بهذا العنوان .

٢٤٥ Deiphobos : ابن فريام وهكوبا . تزوج من هيلانة بعد مصرع باريس ، غير أن منلاوس ذبحه ومثّل به لدى سقوط طروادة .

٢٤٦ Pythonissa : ساحرة وعرّافة . المقصودة هي فوركياس ، التي تصورت هيلانة أن التحول العجيب هو من صنعها .

٢٤٧ أي : له عيون كعيون الضبع . وقد سمي حارس البرج هكذا نسبة الى الأرجونوت : لونقوس الذي كان يضرب

به المثل في حدة البصر .

٢٤٨ من حيث جاءت هيلانة .

٢٤٩ ثيسيوس ـ وهو نصف اله ـ اختطف هيلانة ، وباريس ـ وهو بطل ـ أغواها ، ومنلاوس البطل حارب من أجلها ، والاله هرمس أبعدها الى مصر .

٢٥٠ شخصها وشبحها : في طروادة ، وفي مصر ، وفي اسبرطة ، وهنا في هذا الحصن القصر .

٢٥١ Faunus وجمعه Fauni : هم الساتير عند اليونان ، ونصف الواحد منهم انسان والنصف الآخر حيوان ، وهو كسول شهواني . ويمثل القوى الحية في الطبيعة .

٢٥٢ أي النسوة اللواتي في صحبة هيلانة .

٢٥٣ الجرمان والفرنكة والنورمان جاءوا من الشمال ، بينما جاء القوط من الشرق . وفاوست يروي هنا كيف أن أبطال جيشه قد أخضعوا كل بلاد اليونان ، وحتى دولة نسطور ، ولم يبق أمامهم غير دولة منلاوس يخضعونها هي الأخرى ، وذلك بدفعه حتى البحر . وبعد هذا يقيم في بلاد اليونان دولة جرمانية ، كما طالبت بذلك هيلانة . وهذه الدولة ستستمد نظامها ومعاييرها من فكرة الجمال الذي تمثله هيلانة .

٢٥٤ أي اقليم البلوبونيز في جنوب اليونان (شبه جزيرة المورة) .

٢٥٥ وهي سلسلة جبال مقدونيا وتساليا .

٢٥٦ أي البيضة التي منها خرجت هيلانة ، بوصفها هي الاهة الجمال : افروديت (فينوس) .

٢٥٧ وهما : كاستور وبولكس .

٢٥٨ أي يتداخل عالم الآلهة في عالم الانسان .

٢٥٩ أي منطقة من قيود المدينة ، وسائرة وفقا للطبيعة .

٢٦٠ تتوجه فوركياس بالخطاب هنا ، مثل مفستوفيلس في منظر حامل البكالوريوس (الفصل الثاني) الى المشاهدين ، وهنا يخاطب الرجال الشيوخ الذين يشكّون في معجزة ولادة يوفوريون أكثر مما تشك الفتيات .

٢٦١ الطفل يوفوريون . ـ وقد فكّر جيته في امكانيات عديدة كخاتمة لمأساة هيلانة . وحسم الأمر بايرن Byron (١٧٨٨–١٨٢٥) ومدينة مسولونجي (باليونانية : مسولونجيون) في حرب الاستقلال اليوناني . وكان بايرن قد جاء الى هذه المدينة في يناير سنة ١٨٢٤ ، وجيش على نفقته فرقة من ٥٠٠ رجل لمهاجمة ليبانتو ، لكنه توفي بعد مرض قصير ، لم يمت في الحرب . ويقول جيته في حديثه مع اكرمن (بتاريخ ١٨٢٧/٧/٥) : «لم أستطع أن أعثر على ممثل للعصر الشعري الاحدث غير بايرن انه بدون شك أعظم قريحة في هذا القرن . ثم ان بايرن ليس قديما ، ولا رومنتيكيا ، بل هو مثل يومنا الحاضر هذا . وكان علي أن ألجأ الى اتخاذ مثل هذا الرجل . كذلك هو لائق لهذا الدور تماما بسبب طبيعته الساخطة ونزعته الحربية أفضت به الى الموت في مسولونجي» . ولهذا فان شخصية يوفريون رسمها جيته على قالب بايرون وبوفوريون شاعر يوناني وثني ، ولد في خلقيس (في يوبوا) حوالي سنة ٢٢٥ ق .م . وعاش فترة في أثينا ثم صار أمين المكتبة في انطاكية حتى وفاته . وقد بقيت شذرات قليلة من شعره .

٢٦٢ Antaeus : مارد ، هو ابن فوسيدون (اله البحر) وجيه (الأرض) . وكان يرغم كل الغرباء علي مصارعته ، ثم يذبحهم ، وقد صرعه هرقل وذبحه . وتقول الأسطورة ان انتايوس كان لا ينهزم ما دام يمس الأرض ، لهذا رفعه هرقل في الهواء ، وهذا مكّنه من سحقه .

٢٦٣ هلاس Hellas : بلاد اليونان الأصلية في أوربا ، ايونيا Ionie : المستعمرات اليونانية في غربي آسيا الصغرى .

٢٦٤ صفن : عنقل ، شنكل (بالعامية) .

٢٦٥ Gemse : حيوان مجتر يشبه الاروية ، يكون في صرود الجبال ، وقرونه ملتوية الى الوراء ومن جلده يصنع الأحذية والملابس الجلدية النفيسة . وشموا = Chamois بالفرنسية .

٢٦٦ Pelops : ابن طنطالس . ومن اسمه اشتق اسم «البلوبونيز» لـ = جزيرة ببلوبس .

٢٦٧ Ikarus : ابن ديدالس الذي صنع لنفسه ولابنه ايكارس أجنحة ربطها بالشمع في جسمه ليهربا . وطار ديدالس سالما فوق بحر ايجه . أما ايكارس فحلق صاعدا حتى اقترب من الشمس ، فانصهر الشمع ، وانفصلت الاجنحة ، فسقط في البحر وغرق .

٢٦٨ هذا الرثاء هو في الحقيقة رثاء لبايرن Byron . والأوصاف التالية انما تنطبق على لورد بايرن ، الذي انضم في سنة ١٨٠٩ الى المعارضة في مجلس اللوردات ، وكان قد عين فيه لما ان بلغ سن الرشد . فوقع في منازعات شديدة مع الحكومة .

٢٦٩ هو يوم وفاة بايرن في موسولنجي (اليونان) في ١٩ ابريل سنة ١٨٢٤ . وقد توفي إثر مرض قصير ، ولم يمت في القتال كما يتوهم الجهال . راجع مقدمة ترجمتنا لـ «أسفار اتشيلد هارولد» .

٢٧٠ جيته يسخر هنا من الذين يحاولون تقليد بايرن ، فيقول ان شعلة العبقرية تعوز هؤلاء .

٢٧١ المرأة السلفعة : هي الصخابة البذيئة السيئة الخلق . وفي الحديث النبوي : «شرهن السلفعة» .

٢٧٢ Persephone : في الأساطير اليونانية هي بنت زيوس وديميتر ، وتسمى باللاتينية Proserpine ، وكانت تعبد في اتيكا باسم : كوريه (= الخادمة) .

٢٧٣ أي ليست لها شخصية مستقلة في العالم السفلي بل تنحل في حياة الطبيعة الكلية في هذا العالم العلوي .

٢٧٤ انحلت الجوقة في عناصر الطبيعة : القسم الأول انحلت في الاشجار (الدريادات) ، والثاني في الصخور (أويادات) . والثالث في الينابيع (نايادات) ، والرابع في الخمر .

٢٧٥ المنكاش : اداة لها نصل من حديد تستعمل في عزق الأرض وتمشيطها وحرثها سطحيا . ـ المر : أداة يقلب بها التراب ، يستعملها البستانيون بدلا من المحراث .

٢٧٦ Faunus : راجع شرح معناه من قبل .

٢٧٧ لأن الشمس تلعب دورا كبيرا في انضاج العنب .

٢٧٨ Silenus : شيخ عجوز سكران في حاشية باخوس (ديونوسوس) ، وهو يركب حمارا له أذان طويلة .

٢٧٩ حوافر الساتورات .

٢٨٠ Kothurnus : حذاء مرتفع من الجلد ، كان يلبسه الصيادون . ثم يضاف لبسه الى بعض الآلهة : أرتميس ، هرمس . وهو مربوط كله بأربطة ، وله نعل من الفلين السميك . وقد استعمله اسخولوس لبعض أبطال مسرحياته ، وذلك لجعل الممثلين القصار القامة طوالا ، وكانوا يلبسون أردية طويلة من أجل اخفاء هذه الأحذية .

٢٨١ نهاية المثل الأعلى اليوناني للجمال قد سببتها عبادة ديونوسوس ، اله الخمر ، وهي عبادة طرأت على بلاد اليونان من المشرق .

٢٨٢ اشارة الى حب فاوست لجرتشن في مطلع شبابه (الفجر) .

٢٨٣ هو الحذاء الذي استعمله مفستوفيلس للحاق بفاوست في بلاد اليونان . والآن هو يخلعه . وهذه اشارة الى التعارض مع العالم اليوناني القديم الذي عاشه فاوست حتى الآن .

٢٨٤ ورد في رسالة القديس بولس الى أهل افسوس ٦ :١٢ ما يلي : «لان من علينا أن نناضل ضدهم ليسوا أعداء من دم ولحم ، بل علينا أن نناضل ضد الامارات ، ضد القوى ، ضد حكام عالم الظلمات هذا ، ضد أرواح الشر التي تسكن في الأماكن السماوية» .

٢٨٥ يقول جيته في «اعترافات مختلفة» : من رأيي أن الأرض كوّنت نفسها بنفسها من نفسها .

٢٨٦ Moloch : اله سامي كانت تقدم اليه الأضاحي البشرية . لكن جيته استلهم هنا وصف كلوبستوك لمولوخ في ملحمته Messias (٢ :٣٥٢ وما يليها) حيث قال ان مولوخ حصّن الجحيم بالجبال ضد يهوا .

٢٨٧ أي الكتل الغرانيتية الاراتية erratisch . والمعلوم الآن عند علماء الجيولوجيا أنها انفصلت عن سلسلة الجبال الشمالية ووصلت الينا في العصر الجليدي .

٢٨٨ ملك آشوري أسطوري شاع عنه أنه كان مستغرقا في اللذات وانتهاب الشهوات .

٢٨٩ بطلات الأساطير اليونانية .

٢٩٠ أي الفعل للفعل . يقول جيته في «بندورا» : «عيد الانسان الحقيقي هو الفعل» . وفي أنشودة السفر في «فيلهلم مايستر» : «ولتكن حياتك هي الفعل» .

٢٩١ لعبة المد والجزر ، وهي حركة لا فائدة منها وتضر بالشاطئ ولهذا يضيق بها فاوست .

٢٩٢ وهي : السيطرة على قوة الطبيعة ، لا اكتساب أرض لغرض استعمارها .

٢٩٣ أو : جبابرة الجبال الأولية .

٢٩٤ peter Squenz : اسم بطل ملهاة بنفس الاسم من تأليف Gryphius Andreas (١٦١٦ ـ ١٦٦٤) ، وهو معلم مدرسة اهتم بتدريب الممثلين .

٢٩٥ لا يستعمل جيته الأسماء الواردة في سفر صموئيل الثاني (٢٣ :٨ وما يتلوها) بل ركّب أسماء هذه معانيها على التوالي : شد بقوة ، خذ وامتلك ، حافظ بقوة . والثلاثة يمثلون عناصر الحرب العنيفة : الهجوم العاصف ، حب الغنائم ، والقوة الساحقة .

٢٩٦ كانت نورتشيا Norcia ـ وتقع بين بلاد السابيين وبين اسبوليتو في وسط ايطاليا ـ تعد وطن السحرة ، خصوصا من يحضرون أرواح الموتى لسؤالهم عن حوادث المستقبل . وواحد من هؤلاء السحرة ، وكان قد حكم عليه بالاحراق في روما ، قد خلّصه الامبراطور . وفاوست يعرض خدماته هنا بوصفه مبعوثا من قبل الساحر الذي خلصه الامبراطور ، عرفانا بالجميل ، ليساعد الامبراطور في هذه المحنة .

٢٩٧ هذه المرأة تذكر «بالام شجاعة» في مسرحية برتولت برشت بهذا الاسم . راجع ترجمتنا لها في «مسرحيات برشت» ، القاهرة ١٩٦٣ .

٢٩٨ طائر ضخم من الجوارح . وكان يُطلق على حيوان خرافي وحشي له جسم أسد ، ورأس وأجنحة نسر .

٢٩٩ راجع عنهن مقدمة ترجمتنا لقصة : «أندين» تأليف فوكيه . القاهرة ، سنة ١٩٤٢ .

٣٠٠ نسبة الى مدينة البندقية (فينيسيا) وكان زجاجها مشهورا بصلابته وفخامته . وكان والد جيته يملك صوانا كاملا مملوءا كله بزجاجات من صنع مدينة البندقية .

٣٠١ أي : رئيس الأساقفة .

٣٠٢ يقصد فاوست .

٣٠٣ كان فيلمون قد أنقذه منذ سنوات عديدة لما أن غرقت سفينته واستضافه في بيته .

٣٠٤ بوكيس وفيلمون هما الزوجان التقيان اللذان استضافا الالهين : جوبيتر ومركور . وقد كافأهما جوبيتر على ذلك بانقاذهما من الطوفان وبتحقيق أمنيتهما في الا يبكي أحدهما موت الأخر . (راجع «التحولات» للشاعر اللاتيني أوفيد٨ :٦١١ وما يليه) .

٣٠٥ قال جيته في حديث مع سكرتيرة اكرمن بتاريخ ١٨٣١/٦/٦ : «فاوست كما يظهر في الفصل الخامس ، لا بد ـ بحسب قصدي ـ أن يكون قد بلغ المائة سنة» .

٣٠٦ أفسد مفستوفيلس خطط فاوست ، فبدلا من الابحار للتجارة قام بالقرصنة .

٣٠٧ في سفر الملوك الأول (من الكتاب المقدس) يري انه كان لرجل يدعي نبوت من يسرائيل كرمة عند قصر الملك آحاب . فطلب منه الملك أن يتركها نظير كرمة أفضل منها ، فرفض نبوت ، فغضب الملك أحاب وأمر بقتل نبوت ، وحصل الملك على الكرمة . وقد انتقم له (سفر الملوك الثاني فصل٢١-٣٧) .

٣٠٨ محاكاة للساحرات في مسرحية «مكبث» لشيكسبير ، وتشترك معها في القدرة على الكهانة والتنبوء .

٣٠٩ جمع مر Beche : أداة يقلب بها التراب ، ويستعملها البستانيون بدلا من المحراث .

٣١٠ Lemuren : أشباح الموتى من أشرار الناس ، وهي عظام لا لحم عليها ولا قوة لها .

٣١١ لان نبتون ، اله البحر ، يعمل هنا على التخريب ، ومفستوفيلس يعد آلهة الوثنية من أقربائه .

٣١٢ أي : هل مات فعلا ، أو مات في الظاهر ؟

٣١٣ القرن الذي ينفخ فيه .

٣١٤ اشارة الى المذهب المادي الذي يقرر أن النفس تتقوم من فسفور المخ .

٣١٥ تبعا لمن يتصورون ان النفس تشبه الفراشة .

٣١٦ بحسب معتقدات العامة التي تزعم أن الشيطان يطبع بخاتمة على النفس الساقطة التي تسلم قيادها اليه .

٣١٧ في جسم الانسان .

٣١٨ اشارة الى مذهب السريين ، وهم صوفية نصارى كانوا يطلبون بلوغ الوجد الصوفي الأعلى عن طريق تأمل كل واحد منهم لسرته .

٣١٩ بسبب الألم الذي سببته لهم الورود الملتهبة ، وقف كثير من الشياطين على رؤوسهم ، وبعضهم تكور من الخلف وقذفوا بأنفسهم من الخلف في أشداق الجحيم .

٣٢٠ كان لوسيفر Lucifer ـ قبل أن يحرض الملائكة الآخرين على عصيان الله ـ ملكا هو الآخر مثل سائر الملائكة ، بل تميز منهم بالجمال الخارق .

٣٢١ جيته يصور هنا جبل مونتسرات Montseraat القريب من برشلونه (اسبانيا) كما وصفه همبولت ، وفيه دير شهير ، كما انه تأثر بصورة لمقبرة بيزا (ايطاليا) ، يستلهم صحراء صعيد مصر التي شهدت أول رهبان في المسيحية ، ويتحدث عن مريم المصرية ، وعن الاسود المستأنسة في خلوات الرهبان .

٣٢٢ الأب المجذوب Pater Icstaticus : هو الراهب الذي في حالة جذبة دائمة . وتحليقه علوا وسفلا يشير الى كونه قد تغلب على جاذبية الأرض .

٣٢٣ الأب العميق : هو الراهب الذي لم يستضيء قلبه بعد تماما .

٣٢٤ راهب منح اشراقا أكبر فانتسب الى الملائكة السرافيين . الكنيسة الكاثوليكية تلقب القديسين فرنسيسكو الاسيزي بلقب : «الأب السرافي» لأنه تجلى له ملك سرافي مصلوب ووضع فيه الجروح المعجزة .

٣٢٥ طائفة من الروحانيات الشابة .

٣٢٦ هذه هي الفكرة الأساسية في مسرحية فاوست كلها . وقد قال جيته في حديثه الى اكرمن بتاريخ ١٨٣١/٦/٦ : «في هذين البيتين يوجد مفتاح نجاة فاوست . ففي فاوست سعي دائم طاهر متصاعد حتى النهاية ، ومن أعلى يعينه الحب الأبدي . وهذا يتفق تماما مع تصوراتنا الدينية التي تقول اننا لا نصير سعداء بوساطة قوانا وحدها ، بل وأيضا بمعونة اللطف الصادر عن الله الينا » .

٣٢٧ asbeste : مادة خيطية fibrius يصنع منها قماش لتغطية الموتى المراد احراقهم . وهذه المادة تبقى في النار صافية ولا تستهلك .

٣٢٨ الجسم والروح المتحدان في شخص واحد .

٣٢٩ أي بلوغ الكمال .

٣٣٠ انتظار لشكل الوجود الذي سيمنح لفاوست ويجعله في مرتبة مماثلة لمرتبة الملائكة .

٣٣١ أي البقايا الأرضية .

٣٣٢ من أنصار أطهر عبادة للعذراء مريم الغنية بالالطاف . والصومعة العليا : رمز للمعرفة الاشراقية بالله .

٣٣٣ مريم المتجلية في المجد ، بوصفها ملكة السماء في اعتقاد النصارى .

٣٣٤ مريم المجدلية التي ألقت برأسها على قدمي يسوع وهو في بيت شمعون ودهنت قدميه وهي تذرف الدموع ، وجففت الدموع الساقطة على قدميه بشعرها (انجيل لوقا ٧ :٣٦) .

٣٣٥ هي المرأة السامرية التي أعطت يسوع المسيح ليشرب عند بئر يعقوب (انجيل يوحنا ٤ :٥ وما يتلوها) .

٣٣٦ كانت تعيش عيشة الفجور ثم حجت الى قبر المسيح ، لكنها دفعت عن القبر بذراع خفية ، فكفّرت عن خطاياها بالعيش في الصحراء أربعين عاما . وقد كتبت في الرمل قبل موتها طالبة من يمر بالدعاء لنجاتها .

٣٣٧ أي جرتشن حبيبة فاوست ، التي نسيت نفسها مرة واحدة باستسلامها لفاوست .

الفهرس

أعمال
خالدة
٣





فاوست هو نموذج الانسان الساعي الى المزيد من القوة . أو الكمال . بوسائل خارجة عن الطبيعة هي مايعرف بالسحر . بأوسع معانيه : فالمستقبل مجهول . والانسان يريد معرفة ما سيجيء به . والقوى الطبيعية الميسورة له قاصرة . فليبحث عن قوى خارقة كي يسخرها لتنفيذ ما يصبو اليه . والطبائع الموجودة في الواقع تقف في سبيله أو تعجز عن اداء مايطلب . فليلتمس اذن أدوية لتحويلها الى ماينجح في تحقيق اغراضه . وتلك مهمة السحر .


ISBN:2-84305-
9 782843 051